

تفسير الجليلي

الفوت الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجليلي

المتوفى ٧١٣ هـ

تحقيقه وتخريره وتعليقه

للشيخ أحمد فريد الزنيري

المجلد الرابع

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة محمد



المكتبة المعروفة

كانسي روئشالدره كوئله باكستان

فون: 0333-7907398, 0333-7807152

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010 م 1431 هـ



رَجَاءُ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِرِ

وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعًا فِي النَّظَرِ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عَيْبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلَسَنَ دَعَا لَهُ يُغَيَّرُ

راجي عفو ربه

عبد الغني حليمي



المكتبة المعرفية - الكويت - باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

فاتحة سورة الروم

لا يخفى على من تحقق بتجددات التجليات الإلهية، وتبدلات شئونه وتطوراته لطفًا وقهراً، قبضًا وبسطًا، جمالاً وجلالاً أن دوام العسر واليسر، والنعمة والنقمة، والجذب والرخاء، والفرح والترح والغلبة والمغلوبة، وكذا جميع الأوصاف المتضادة المتناقضة، والأطوار المتخالفة الحاصلة من الإضافات والانتسابات الواقعة بين الشئون والتطورات الحادثة في الأكوان والأزمان بين أهل الزمان، حسب التجليات الإلهية المقتضية لحدوثها مما لا يتصور امتداده أبداً مستمراً بلا تبدل وتحول، بل هي أعراض متبدلة متجددة على تعاقب الأمثال وتوارد الأضداد، لا يبقى زماناً متطاولاً بالنسبة إلى قوم دون قوم، بل يتداول ويدور بينهم على مقتضى سنة الله وجري عادته المستمرة كما هو المشهود المتعارف.

لذلك رد الله سبحانه على مشركي مكة فرحهم وسرورهم حين أخبروا بغلبة فارس الذين هم ليسوا من أهل الروم الذين هم نصارى من أهل الكتاب، ومن غاية فرحهم وجهلهم قالوا للمؤمنين على سبيل التبجح: نحن نظهر ونغلب، كما ظهر إخواننا على إخوانكم، فاغتم المؤمنون من هذه الواقعة الهائلة، أنزل الله سبحانه هذه السورة؛ تسلياً لهم، وإزالة لغمهم، مخاطباً لحبيبه ﷺ مخبراً إياه، متيمناً باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى على مقتضى جماله وجلاله حسب إرادته واختياره ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عبادته بسعة رحمته وسبقها على غضبه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بدوام الرحمة عليهم، والرضا عنهم، والبسط معهم بلا تخلل الغضب والقبض.

﴿وَاللَّهُ ۝١ غَلَبَ الرُّومَ ۝٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُكَافٍوَت

﴿۝٣﴾ فِي يَضِيعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْثَرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾

يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَقَدْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ [الروم: 1-7].

﴿الم﴾ [الروم: 1] أيها الإنسان الأفضل الأكمل اللبيب، اللائق الملازم المداوم لاستكشاف غوامض أسرار الوجود، ورقائق دقائق آثار الكرم والجود، الفائضة من الخلاق الودود على خواص مظاهر الأكوان المحبوسين في مضيق الإمكان؛ ليوصلهم إلى فناء الوجوب وصفاء الكشف والشهود، مخلصين عن جميع الأوهام والخيالات المستتعبة لأنواع الضلالات والجهالات.

﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2] أي: صاروا مغلوبين من عسكر الفرس.

﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ وأقربها من أرض العرب وأرض الروم، وهي أذرعات الشام أو الأردن أو فلسطين - على اختلاف الروايات من أصحاب التواريخ - ﴿وَلَا تَغْتَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ مَغْلُوبِيَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَضَعْفِهِمْ؛ إِذْ هُمْ﴾ أي: الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ ومغلوبيتهم من الفرس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] ويصيرون غالين عليهم، آخذين انتقامهم عنهم على أبلغ وجه وأشدّه لأبعد مدة مديدة، وأمد بعيد.

بل ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع عند العرب من الثلاث إلى التسع.

وروي أن فارس غزوا الروم فتلاحقا بأذرعات الشام، وهي أقرب أرض الروم من الفرس والعرب أيضاً، فلما اقتحما غلب الفرس على الروم، فوصل الخبر إلى مكة فأخذ المشركون في فرح عظيم وسرور مفرط، شامتين بالمسلمين، قائلين إياهم: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون لا كتاب لنا، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فنحن لنظهرن أيضاً عليكم مثلهم عن قريب، فنزلت الآية فقرأها ﷺ على أبي بكر ﷺ، فخرج عليهم، فقال لهم: لا يقر الله أعينكم أيها المشركون المسرفون، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت، اجعل بيننا أجلاً أناحبك وأراهنك فتاحبه أبو بكر ﷺ على عشر قلائص من كل واحد منهم، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر ﷺ ما جرى بينهما على رسول الله ﷺ،

فقال ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع»⁽¹⁾.

فرجع ﷺ إلى أبي فزايدة الجعل والمدة أيضاً، فجعلها مائة قلوصل إلى تسع سنين، ومات أبي من طعن طعنه رسول الله ﷺ يوم أحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو بدر، فأخذ أبو بكر ﷺ الخطر والرهن من ورثة أبي، وجاء بها إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «تصدق به»⁽²⁾ فتصدق، فهذا قبل تحريم القمار، فلا يصح الاستدلال به على جواز العقود الفاسدة.

وهذه الآية من دلائل النبوة والرسالة؛ لكونها إخباراً عن الغيب بوحي الله وإلهامه؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ وفي قبضة قدرته واختياره ﴿الْأَمْرُ﴾ كله غيباً وشهادة، دنيا وعقبى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أزلاً ﴿وَمِنْ بَعْدُ﴾ أبداً، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يفعل الله على مقتضى إرادته واختياره ما يشاء، ويحكم حسب حكمته ما يريد ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين غلب الروم على الفرس في رأس السنة التاسعة؛ إنجازاً لما وعد به سبحانه المؤمنين ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 4] مثلما فرح المشركون في الواقعة السابقة.

وفرّح المؤمنين إنما هو ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ وتأيده أهل الكتاب والملة، وتقوية أهل دينه وكتابه النازل من عنده، وتغليبهم على أهل الأهواء والآراء الباطلة، لا بمجرد البغيرة والحمية الجاهلية والعصية، كما هو ديدنة أهل الزيغ والضلال، وإلا ﴿يَنْصُرُ﴾ سبحانه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى مراده، سواء كان من أهل الهداية والضلال، أو السعادة والشقاوة؛ إذ لا يُسأل عما يفعل ﴿وَوَ﴾ كيف يُسأل عن فعله سبحانه، مع أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يُسأل عن كيفية أفعاله، الغالب المقتدر بالقدرة الكاملة على جميع مراداته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5] لعباده، يتفضل عليهم بمقتضى سعة رحمته تفضلاً وإحساناً⁽³⁾.

وما ذلك النصر والتأييد إلا ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ وعهده، وعده مع المؤمنين حين اشتد عليهم الحزن وهجم الهموم وقت مغلوية الروم غيرة منهم على دين الله وأهله، ومن سنته سبحانه أنه ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده مع خلص عباده ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6] وعده، ولا يؤمنون

(1) رواه الترمذي (492/11).

(2) ذكره الألوسي في «تفسيره» (324/15).

ويصدقون بإنجازه الوعد، وعدم خلفه في الموعد.

بل ما ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلا ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لا يترقى علمهم عن المحسوسات الظاهرة مثل الحيوانات العجم، بل هم أسوأ حالاً منهم؛ إذ هم مجبولون على التأمل والتدبر، والتفطن بما هو المقصود من ظهورها، والتفكر في حكمة إظهارها على هذا النمط البديع والنظم العجيب، وكيفية ارتباطها بالأسماء الإلهية والأوصاف الذاتية وانعكاسها منها ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ عَنِ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةِ﴾ المعدة لكشف السرائر، ورفع الحجب والسدل، وجميع الأغطية والأستار المانعة عن ظهور الحق، وانكشاف لقائه بلا سترة وحجاب ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7] غفلة مؤبدة تامة، بحيث لا يرجى منهم الإطلاع أصلاً؛ لكثافة حجبهم، وغلظ أغطينهم وأغشيتهم؛ لذلك لم يتدرجوا من عالم الكون والفساد ومضيق الإمكان، وما يترتب عليه من اللذات الوهمية إلى عالم الغيب وفضاء الوجوب، وما يترتب عليها من الكشف والشهود، وأنواع المعارف والحقائق الفائضة على مقتضى الجود الإلهي.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَلَئِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَمَعَتِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا الشَّرَافُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَفَوَ كَانُوا يَاسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: 8-10].

﴿أ﴾ يقنعون بهذه المزخرفات الفانية أولئك الضالون الغافلون، ويرضون أنفسهم بلذاتها الوهمية وشهواتها البهيمية ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا في آلاء الله ونعمائه الفائضة على الترادف والتوالي في الآفاق على الصور العجيبة، والهيئات الغريبة، سيما ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليهم، وأبدعها نظاماً وتركيباً، وأعجبها ظهوراً، وأشملها تصرفاً، وأكملها علماً ومعرفة، وأعلاها شأنًا، وأوضحها برهانًا؛ لذلك ما وسع الحق إلا فيها، وما انعكس أوصافه وأسمائه إلا منها، واستحقت هي بخصوصها من بين مظاهره سبحانه لخلافته ونيابته، أبطمتون بهذه المزخرفات الزائلة الخسيسة، ولم

يعبروا منها إلى مبادئها التي هي الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية، مع أنهم مجبولون على الجواز والعبرة بحسب أصل الفطرة ولم يعلموا، ولم يفهموا أنه ﴿مَّا خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿الله﴾ الحكيم المتقن في جميع أفعاله ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا يَتْنَهُمَا﴾ من البرازخ المتكونة من امتزاجاتهما واختلاطاتهما أثراً وأجزاء ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومنتهاً إليه إعادة وإبداء، لكنه قدر بقاءه وظهوره بوقت معين.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عنده، وحين انقضائه انتهى إليه ورجع نحوه ما ظهر من الموجود، وانتهى وفني ما لمع عليه نور الوجود، وحيث لم يبق في فضاء الوجود إلا الواحد القهار للأظلال والأغيار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8] منكرون جاحدون عتوا واستكباراً؛ بسبب ما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ﴾ فينظروا بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِّن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود، مع أنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لدلالة أظلالهم وآثارهم على تمكنهم ﴿وَمِن دَلَائِل قُوَّتِهِمْ أَنَّهُمْ﴾ ﴿أَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ وقلبوها للمعادن وإخراج العيون، وإجراء الأنهار، وإحداث الزروع وغير ذلك ﴿وَمِنَ الْجُمَلَةِ﴾ ﴿عَمَرُوهَا﴾ أولئك فيما مضى ﴿أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ هؤلاء اليوم، فدل زيادة عمارتهم على ازدياد قوتهم وتمكنهم.

﴿وَمِنَ الْجُمَلَةِ﴾ بعدما أفسدوا على أنفسهم بأنواع الفسادات مباحياً بمآلهم وجاههم، قلبنا عليهم أمرهم بأن أرسلنا إليهم رسلاً مؤيدين بأنواع المعجزات، فلما ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة والبراهين الساطعة، فلجأوا على تكذيبهم وإنكارهم بلا تأمل وتدبر فيما جاءوا به، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلناهم وقلبنا عليهم أماكنهم، وخربنا بلادهم ومزارعهم ﴿فَمَا كَانَ اللهُ﴾ العزيز المقتدر الحكيم المتقن ﴿لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي: يفعل بهم فعل الظلمة بأخذهم وبطشهم بلا جرم صدر عنهم موجب لانتقامهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9] أي: يظلمون أنفسهم بعنوتهم واستكبارهم على ضعفاء عباد الله، وتكذيب خلص أنبيائه وأوليائه، وخروجهم عن مقتضى حدوده سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والعصيان، وتكذيب الرسل، والاستكبار على عباد

الله وأنواع الإساءة مع رسله ﴿كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا﴾⁽¹⁾ مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿الشَّوْأَى﴾ أي: الخصلة الذميمة والعاقبة الوخيمة المترتبة على إساءتهم في الأخرى جزاء ما كانوا عليها في الأولى، كل ذلك بواسطة ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وأنكروا عليها، واستخفوا بها ولمن أنزلت عليه ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: 10] ويستسخرون، وينسبون إليها ما لا يليق بشأنها افتراء ومراء.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽¹¹⁾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ⁽¹²⁾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ⁽¹³⁾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَفْعَقُ الْوَعْدُ⁽¹⁴⁾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ⁽¹⁵⁾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ⁽¹⁶⁾ [الروم: 11-16].

وكيف يستهزئ أولئك المسرفون مع الله ورسله وآياته النازلة من عنده إذ ﴿الله﴾ المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ويبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ويظهر في فضاء الوجود، ثم يميت ويعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ حيا كذلك في النشأة الأخرى بعد انقراض النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد العرض وتنفيذ الأعمال ﴿إِلَيْهِ﴾

(1) قال في التاويلات: أي: عاقبة أمر الفلاسفة الذين هم مكذبوا الأنبياء لما أساءوا بتكذيب الأنبياء بأن صاروا أئمة الكفرة وصنعوا الكتب في الكفر وأوردوا فيها الشبهات على بطلان ما جاء به الأنبياء من الشرائع والتوحيد وسمو الحكمة وسمو أنفسهم الحكماء فالآن بعض المتعلمين من الفقهاء إما لو فور حرصهم على العلم والحكمة، وإما لخبائثة الجوهر وليتخلصوا من تكاليف الشرع يطالعون تلك الكتب ويتعلمونها ويتلك الشبهات التي درسوا بها كتبهم يهلكون في أودية الشكوك ويقعون في الكفر، وهذه الآفة وقعت في الإسلام من المتقدمين والمتأخرين منهم فكم من مؤمن عالم فسدت عقيدتهم بهذه الآفة وأخرجوا ربة الإسلام من عنقهم فصاروا من جملتهم، ودخلوا في زميرتهم داخل هذه الآفة يبقى في هذه الأمة إلى قيام الساعة فإن كل يوم يزداد ويقل طلبة علوم الدين من التفسير والأحاديث والمذهب، ويكثر طلبة علوم الفلسفة والزندقة ويسمونهم الأصول والكلام، وقد قال الشافعي: «من تكلم تزندق» ثم وبال هذه الجملة إلى قيام الساعة يكتب في ديوان من سن هذه السنة السيئة ومن أوزار من عمل من غير أن ينقص من أوزارهم شيء على أن كذبوا بآيات الله بالقرآن واستهزءوا بها وسموا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصحاب النواميس وسموا الشرائع الناموس الأكبر عليهم لعائن الله تترى.

تُزَجُّونَ﴾ [الروم: 11] رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: 12] أي: يسكتون حيارى سكارى، تائهين هائمين آيسين عن الخلاص.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ حيثذ ﴿مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ يجتهدون لخلاصهم وإنقاذهم من عذاب الله على مقتضى ما هو زعمهم إياهم، بل ﴿وَ﴾ هم حيثذ ﴿كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: 13] ينكرون ويكفرون بهم حيث يشاءون عنهم، وقنطوا عن شفاعتهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التي يحشر فيها الأموات ويعرضون على الله بما اقترفوا في دار الابتلاء من الحسنات والسيئات ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾⁽¹⁾ [الروم: 14] فرقاً فرقاً، وفوجاً فوجاً كل مع شاكلته في الإيمان والكفر، والصلاح والفساد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله في دار الاختبار ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم فيها ﴿فَهُمْ﴾ حيثذ من كمال فرحهم وسرورهم ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ ذات أزهار وأنوار وأنهار ﴿يُخَبَّرُونَ﴾ [الروم: 15] يتزهون ويسرون مسرورين متنعمين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا على رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: أنكروا بلقائها في النشأة الأخرى، مع أنا وعدناهم على السنة رسلنا إياهم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز الحضور ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُخَضَّرُونَ﴾ [الروم: 16] لا نجاة لهم منه، أعادنا الله من ذلك.

(1) من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والعباد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة، قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كل إلى ما قُدِّرَ له من محل السعادة ومثل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محل السعادة، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يالف الحق أبداً فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالتعنين المتضادين. [عرائس البيان].

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم: 17-21].

ثم أشار سبحانه إلى أسباب النجاة والخلاص عن الوعيدات الأخروية، ونيل
لذاتها ومنتزعاتها الروحانية، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: سبحوا الله الواحد الأحد
الصمد، المنزه عن شوائب النقص وسمات الكثرة مطلقاً أيها الأحرار المتوجهون نحوه
في السرائر والإعلان، سيما ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في المساء الذي هو أول وقت
الفراغ عن الشواغل الجسمانية، وفتح باب الخلوة مع الله، والعزلة عن أسباب الكثرة
مطلقاً ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17] وتدخلون في الصباح الذي هو نهاية مرتبة
خلوتكم مع ربكم، فاعتنموا الفرصة فيه، وتعرضوا للنسمات المهبية بأنواع النفحات من
قبل الرحمن.

وبعدما تزودوا بأنواع الفتوحات الروحانية في تلك الساعة الشريفة التي هي
البرزخ بين اللذات الروحانية والجسمانية فاشتغلوا بالأشغال الجسمانية المتعلقة لتدبير
المعاش النفساني.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا الْمُتَوَجِّهُونَ﴾ نحو الحق أن تحمدوه وتشكروا نعمه، وتداوموا على
أداء حقوق كرمه في خلال أيامكم ولياليكم، سيما طرفي النهار؛ إذ ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء
الصادر عن السنة جميع ما ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ من المظاهر التي لمع
عليها برق الوجود، وانبسطت أظلال شمس الذات وأضواؤها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا لَمَسَاتُ أَعْيُنٍ﴾
هو وقت مصون عن الكثرة ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: 18] أيضاً؛ إذ فيها يحصل الفراغ
عن أمور المعاش غالباً.

وكيف لا يتوجهون نحو الحق، ولا يديمون الميل إليه في أوقات حياتهم؛ إذ هو
سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بكمال قدرته ﴿الْحَيَّ﴾ أي: ذا الحش
والحركة، والإرادة التي هي أنواع الحيوانات ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الذي هو النطفة الجامدة

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَيُخْرِجُهُم بِمَقْتَضَى قَهْرِهِ وَجَلَالِهِ ﴿الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني: يعقبه الموت بالحياة، والحياة بالموت ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من كمال قدرته ﴿يُخَيِّبِ الْأَرْضَ﴾ بأنواع النضارة والبهاء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يبسها وجمودها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إعادة الحياة والنضارة للأرض وقت الربيع ﴿تُخْرِجُونَ﴾ [الروم: 19] من قبوركم أيها المنكرون للبعث والحشر وإعادة المعدوم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته على الإعادة والإبداء على السواء: ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وقدر جسمكم وصوركم أولاً ﴿مِّنْ تُرَابٍ﴾⁽¹⁾ يابس، ثم بدلكم أطواراً وأدواراً؛ لتكميلكم وتشويقكم إمداداً وأدواراً إلى أن صوركم في أحسن صورة، وعدلكم في أقوم تعديل ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ أي: بعدما كمل صوركم، وتمم تمثالكم وشكلكم، واستوى بشريتكم فاجأتكم ﴿تَتَشِيرُونَ﴾ [الروم: 20] في الأرض على سبيل التناسل والتوالد، ومن قدر على إبدائكم وإبداعكم على الوجه المذكور قدر على حشركم وإعادتكم، بل هو أسهل من الإبداء.

﴿وَوَيْلٌ لَّكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿أَن خَلَقَ﴾ وقدر ﴿لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء؛ حتى تؤانسوا بهن وتستأنسوا بهن، بل إنما قدر لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ وتتوطنوا معها توطناً خاصاً، وتألفاً تاماً إلى حيث يفضي إلى التوالد والتناسل ﴿وَوَيْلٌ لَّكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾ بهذه الحكمة البديعة ﴿جَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿مُودَّةً﴾ خاصة خالصة، منبعثة عن محض الحكمة الإلهية بحيث لا يكتنه لميتها وكيفيتها أصلاً.

﴿وَوَيْلٌ لَّكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾ من كمال قدرته ومتانة حكمته: جعل من امتزاج النطفة النازلة منكم ومنهن، الناشئة من المودة المذكورة، والمحبة المقررة بينكم ﴿رَحْمَةً﴾ ولذا مثلكم، ومحياً لكم اسمكم ورسمكم ﴿إِن فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق والإيجاد، والتكميل والتمكين،

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن التراب أبعد الموجودات عن الحضرة؛ لأننا إذا نظرنا على الحقيقة وجدنا أقرب الموجودات إلى الحضرة عالم الأرواح؛ لأنه أول ما خلق الله الأرواح ثم العرش؛ لأنه محل صفة رحمانية ثم الكرسي ثم السماء السابعة ثم السموات كلها ثم فلك الأثير، ثم فلك الزمهرير الهواء، ثم الماء ثم التراب وهو جماد لا حس فيه ولا حركة وليس له قدرة على تغيير ذاته وتبديل صفاته، فلما وجدنا ذاته متغيرة عن وصف الترابية صورة ومعنى وصفاته متبدلة كتغير صورته بصورة البشر وتبدل صفته بصفة البشرية؛ علم أنه محتاج إلى مغير ومبدل وهو الله سبحانه وتعالى.

والتقدير والانبعاث، والانزعاج وأنواع التدبيرات الواقعة فيها، والحكم العجيبة المحيرة لأرباب الفطنة والذكاء ﴿لَا يَاتِ﴾ عظام ودلائل جسام ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] في آثار صنائع الحكيم القدير، والعليم الخبير البصير.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ كُمْ وَالْوَنُكْرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ [الروم: 22-25].

﴿و﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ العجيبة الشأن، والبديعة البرهان: ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ﴾ وإيجاد العلويات متطابقة مترافعة مع ما فيها من الكواكب المتفاوتة في الإضاءة والإشراق على أبداع نظام، وأبلغ الشام وانتظام، بحيث لا يكتفه عند ذوي العقول، وأولي الإفهام المجبولين على الاستعلام والاستفهام، بل لاحظ لهم منها سوى الحيرة والعبرة، وأنواع الوله والهيمنان ﴿و﴾ خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ مهدة منبسطة مشتملة على جبال راسيات، وبحار واسعات، وأنهار جاريات، وأشجار مشمرات، ومعادن وحيوانات، وأصناف من نوع الإنسان المجبول على صورة الرحمن، الجامع لأنواع التيان والبيان، وأصناف الدلائل والبرهان؛ ليصير مرآة مجلوة يتراءى فيها صور الأسماء والصفات الإلهية، وينعكس منها شئونه وتطوراته ﴿وَإِخْتِلَافُ السِّنِينَ كُمْ﴾ أي: لغاتكم وتكلمكم أيها المجبولون على فطرة النيابة والخلافة.

﴿و﴾ اختلاف ﴿الْوَنُكْرُ كُمْ﴾ من السواد والبياض، وأنواع التخطيطات والتشكيلات، والهيئات الصورية والمعنوية التي اشتملت عليها هياكلكم وهوياتكم، إنما هي من آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي امتدت على ماهياتكم وتعيناتكم أظلالها وانبسطت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الانطباق والاتصاق، وأنواع الائتلاف والانتظام الواقعة في الأنفس والأفاق على أغرب الوجوه وأبداع الطرق ﴿لَا يَاتِ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرة العليم الحكيم ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22].

أي: لكل من يتأتى منه التفطن والتدبر للمبدأ والمعاد من أرباب الهداية والرشاد، والتأمل والتفكير على سبيل النظر والاستدلال من الصنائع والآثار إلى الصانع المؤثر المختار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْعِظَامُ أَيْضًا: ﴿مَنَامُكُمْ﴾ واستراحتكم؛ تقويمًا لأمزجتكم، وتقوية لقواكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وقت عروض الإعياء والعناء ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ﴾ طلبكم المعاش فيهما ﴿مَنْ فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمة جوده، أو على طريق اللف والنشر بأن قدر لمنامكم زمان الليل ولابتغائكم النهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التقدير والتدبير المبني عن كمال العطف واللفظ ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23] دلائل توحيده سبحانه سمع قبول ورضا، ويتأملون في حكمة الحكيم المدبر لمصالح عباده، وما هو إلا صلح لهم.

﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ أيضًا: إنه سبحانه ﴿يُزِيلُ﴾ ⁽¹⁾ المنبئ عن هجوم البلاء ونزول المطر أيضًا، إنما أريكُم سبحانه؛ ليحصل لكم ﴿خَوْفًا﴾ من خشية الله وحلول غضبه وعذابه ﴿وَوَطْمًا﴾ لنزول فضله ورحمته، وإنما فعل سبحانه معهم كذلك؛ لتكونوا دائمًا خائفين من سخطه وبطشه، راجين من فضله وجوده ﴿وَيَنْزِلُ مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ بعدما أراكم البرق المخيف المطمع ﴿فَيُخَيِّبُ بِهِ﴾ أي: بالماء النازل ﴿الْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد جمودها ويسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإراءة والإخافة والإطماع، والإنزال والإحياء ﴿لَايَاتٍ﴾ على حكمة القادر المختار، المستقل في التصرف والآثار ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 24] ويستعملون عقولهم في التفكير والتدبر في المصنوعات العجيبة والمخترعات البديعة الصادرة من الفاعل المطلق بالإرادة والاختيار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ المحكمة أيضًا: ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني: من جملة آياته الظاهرة الباهرة: قيام السماء والأرض بلا عمد وأوتاد وأسانيد، وقرارها ومدارها في مكان معين بلا تبدل وتحول، إنما هو بأمره وحكمه، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته، بحيث لا يسع لهما الخروج عن أمره وحكمه أصلاً ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تأملتم نفاذ حكمه

(1) أي: برق شواهد الحق عند انخراق حجاب حجب البشرية وظهور تلالؤ أنوار الروحانية أولها برق، ثم اللوامع ثم الطوالع ثم الإشراف ثم التجلي فينور البرق فيرى شهوات الدنيا أنها نيران فيخاف منها ويتركها ويرى مكروهات تكاليف الشرع على النفس أنها جنان فيطمع فيها ويطلبها. [التأويلات].

سبحانه، ومضاء قضائه في معظم مخلوقاته، فلكم أن تثقنوا ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وقت إرادة إعادتكم وإحيائكم ﴿دَعْوَةً﴾ متضمنة لإخراجكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25] يعني: بعدما أسمعكم بكمال قدرته مضمون دعوته إليكم فاجأتم إلى الخروج منها أحياء بلا تراخ ومهلة تميمًا لسرعة نفوذ قضائه.

﴿وَلَهُمَّن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَانُونٌ﴾ ٢٦ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢٧ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن مَّشْرَكَةٍ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَآنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٨ ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ٢٩ [الروم: 26-29].

﴿و﴾ كيف لا تسمعون وتخرجون منها أحياء بعدما تعلق قدرته سبحانه بإخراجكم وإعادتكم؛ إذ ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا، إبداعًا وإنشاء ﴿مِّن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المغمورين في آلاء الله ونعمائه، المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿و﴾ من ﴿الْأَرْضِ﴾ من أرباب الولاء التائبين في بیداء الألوهية، الفانين في فضاء الربوبية، الهائمين في صحراء الوجود؛ لذلك ﴿كُلُّ﴾ ممن أشرق عليه شمس الذات، ولاح عليه نور الوجود، ولمع عليه برق التجليات الحسية اللطيفة ﴿لَهُ قَانُونٌ﴾ [الروم: 26] متقادون مطيعون طوعًا وطبعًا؟!

﴿و﴾ كيف لا يتقادون ويطيعون لحكمه أولئك المسخرون لصولجان قضائه، وقلم تقديره ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ﴾ ويظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ من كتم العدم في فضاء الوجود بمقتضى اللطف والجلود، ثم يعدمه ويميته بمقتضى قهره وجلاله أيضًا فيها ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أيضًا على ما ينشئه في النشأة الأخرى إظهارًا لكمال قدرته ومقتضى حكمته؛ كي يظهر مصلحة الإبداء والإبراز في النشأة الأولى، وفائدة ما يترتب عليها في النشأة الأخرى يوم العرض والجزاء ﴿و﴾ أهل الأهواء والآراء الباطلة ينكرون الإعادة، مع أنه ﴿هُوَ﴾

أي: الإظهار بعد الإعدام ﴿أَهْوَنُ﴾ وأسهل ﴿عَلَيْهِ﴾⁽¹⁾ سبحانه بالنسبة إلى عقولهم السخيفة، وأحلامهم الضعيفة من الإبداء والإبداع لا عن شيء وبلا سبق مادة، وإن كانت نسبة قدرته وإرادته سبحانه إلى كل ما دخل في حيلة حضرة علمه وخبرته على السواء؛ إذ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ [الملك: 3] وكرر النظر ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] وفطور وقصور في مبدعات الحق ومخترعاته؟!

﴿و﴾ كيف يتفاوت دون قدرته الأشياء؛ إذ ﴿لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ واليد الطولى، والتصرف التام، والاقتدار العام الشامل لكل ما لاح عليه برق الوجود سواء كان ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي عالم الأسماء والصفات باعتبار التزلات من مرتبته الأحدية، والعماء التي لا يسع فيه إدراك مدرك وخبرة خبير ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفليات التي هي عالم الهولي والطبيعة القابلة لأن تنعكس منها أشعة أنوار العلويات المتفاوتة حسب تفاوت الشئون والتطورات المرتبة على الأسماء والصفات المتخالفة المتكثرة حسب التجليات الحية الإلهية؟! ﴿و﴾ كيف لا يكون له سبحانه المثل الأعلى؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في ذاته، حيث تفردت بوجوب الوجود، ودوام البقاء المنيع فناء على سرادقات سطوته وسلطنته عن شوب النقص والقصور مطلقاً ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27] المتقن في أفعاله وآثاره بالاستقلال على مقتضى حيلة حضرة علمه الكامل بجميع وجوه الكمالات اللاتقة لكل ذرة من ذرات الكائنات؟!

لذلك ﴿ضَرَبَ لَكُمْ﴾ سبحانه تبييناً وتنبهاً ﴿مَثَلًا﴾ متخذاً منتزعا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أيها المشركون المتخذون لله شركاء من مصنوعاته وعبيده؛ إذ هي أقرب الأشياء إليكم، وأوضحها عندكم ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ أيها الأحرار المتصرفون بالاستقلال في منسوباتكم متصرف آخر سواكم ﴿مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وحصلت من أكسابكم من العبيد

(1) يعني: البداءة من الإعادة لأن في البداءة كان بنفسه مباشراً بنفسه للخلقة وفي الإعادة كان المباشر إسرافيل بنفخه، والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق وعنده سواء؛ لأن أفعال الأغيار أيضاً مخلوقة وفيه إشارة في غاية الدقة واللطافة أن الخلق أهون عند الله عند الإعادة منهم عند البداءة؛ لأنه في البداية لم يكونوا ملوثين بلوث الحدوث ولا متدنسين بدينس الشرك في الوجود بأن يكونوا شركاء في الوجود مع الله فلعزتهم في البداية باشر بنفسه خلقتهم وفي الإعادة لهوانهم باشر بنفسه غيره. [التأويلات].

والإماء الذين هم من جملة منسوباتكم، وهل يصح ويجوز لمملوكيكم أن يكونوا، ويعدوا ﴿مِنْ شُرَكَاءٍ﴾ معكم يتصرفون أمثالكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مثل تصرفكم بلا إذن منكم ١٢.

وبالجملة: ﴿فَأَنْتُمْ﴾ أيها المالكون وما ملكت أيمانكم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التصرف والاحتياج إلى الأموال ﴿سَوَاءٌ﴾ إذ هم أمثالكم، فلاي شيء تحتاجون إليه أنتم، وهم أيضاً محتاجون إليه بلا تفاوت ولكن ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ وتحذرون منهم أن تصرفوا في أموالكم وأكسابكم بلا إذن منكم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١) يعني: تخافون على تضييع أموالكم، مثل خوفكم على أنفسكم، بل أشد من ذلك، وبالجملة: تخافون منهم أن تساوا معكم في التصرف في أموالكم؛ فلذلك منعموهم، ولم ترضوا بتصرفهم وشركتهم في الحطام الدنيا، فكيف ترضون لنا شركة عبيدنا ومخلوقاتنا في ألوهيتنا وربوبيتنا، والتصرف في ملكنا وملكوتنا أيها الغافلون المفرطون في شأننا، والجاهلون بقدرتنا ومكانتنا ١٣ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا، وبراهين وحدتنا وتفريدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28] ويستعملون عقولهم في تأمل الآيات، والتدبر فيها على وجه العبرة والاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾ الجاهلون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج على مقتضى الآيات الواضحة، والبراهين اللاتحة ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، وآراءهم الزائفة الزائلة، مع أن اتباعهم بها ﴿يُغَيِّرُ عِلْمَ﴾ فائض عليهم من المبدأ الفياض، بل عن جهل مركز في

(١) قال في التأويلات: يعني: تصفية الروح عن القلب ألا يضيع شيئاً مما أفاض إليه من الفيض الإلهي والمواهب الربانية بأن يصرفها في غير موضعها رياءً وسمعة، وطلب مراد هواه عند إظهار شيء منها وتصفية القلب عن السر والعقل بأن تصرفها فيها بنوع من التصرفات الفاسدة التي تفسد العقائد، وتوقع في الشكوك والظنون الفاسدة والشبهات العقلية وغيرها من الآفات فكما لا يصلح هؤلاء لشركهم؛ لأنكم منهم بمثابة الملوك مع العبد، كذلك هم مع حسن استعدادكم في قبول الفيض الإلهي يا روح وأتباعه لا تصلحون أن تكونوا شركاء في كمالية ذاتي وصفاتي إذا تجليت عليكم، فسطوات أنوار جمالي وجلالي تمنحي آثار ظلمات أوصافكم ويأنوار صفاتي تشاهدون صفاتي فتسبحوني أنني صرت حالاً فيكم، أو صرتم بعضاً مني أو تصيرون أنا، أو أصير أنتم، فانا «الكبرياء» وذاتي «العظمة» إذ أري فمن نازعني واجداً بينهما قلقة في النار» (١) ومن كبريائي ألا أكون جزءاً لأحد أو مثلاً ومن عظمي؛ إذ لا يكون أحد جزئي ولا مثلي، وأنا الذي «ليس كمثله شيء» وهو الشيع البصير [الشورى: ٦١].

جبلتهم، مركب مع طبيعتهم في أصل فطرتهم؛ لمقتضى الشقاوة الأزلية والغباوة الفطرية الجبلية، وإذا كان الأمر على ذلك ﴿فَمَنْ يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وأراد ضلاله، وأثبت في لوح قضائه وحضرة علمه من جملة الضالين وزمرة الجاهلين ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ بعدما نفذ القضاء على شقاوتهم وضلالهم ﴿مَنْ نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: 29] ينصرونهم، ويرشدونهم إلى سبيل الهداية وطريق السعادة والرشاد.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِمَخْلُوقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ [الروم: 30-31].

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل أن الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ فاستقم واعتدل بوجه قلبك الذي فاض عليك من ربك تميماً لتكميلك، وتخليصاً لك عن قيود بشريتك وأغلال طبيعتك؛ لتصل به إلى مقرك من التوحيد الذي جبلت لأجله ﴿لِلدِّينِ﴾ النازل لك من عند ربك تأديباً لك يا أكمل الرسل ولمن تبعك، وإصلاحاً لشأنك وشأن متابعيك ﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كونك مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة مطلقاً، واعلم يا أكمل الرسل أن ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وصبغته التي صبغهم بها أصلية جبلية لا تزول عنهم أصلاً، إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير وتحويل ﴿لِمَخْلُوقِ اللَّهِ﴾ الحكيم العليم، وتقديره الذي قدره بمقتضى علمه وحكمته كما قال عز شأنه: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ [ق: 29].

﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾ المنزل عليك من ربك يا أكمل الرسل؛ لوقاية الفطرية الأصلية المذكورة هو الدين ﴿الْقَيِّمُ﴾ والطريق الأعدل الأقوم، الموصل إلى توحيده سبحانه على الاستقامة بلا عوج وانحراف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30] حقيقته، ولا يفهمون استقامته وإيصاله إلى التوحيد، فعليكم أيها المحمديون أن تتدينوا بدين الإسلام، وتطيعوا بجمع ما فيه من

أوامر الله ونواهيه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجين نحوه بالإخلاص التام ﴿وَأَثْقَوْهُ﴾ واحذروا عن محارمه خوفاً من انتقامه بالخروج عن مقتضى حدوده، ومع ذلك لا تقنطوا من فضله وسعة رحمته وجوده ﴿وَهُ﴾ بالجملة: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأديموا الميل نحوه في جميع أوقاتكم وحالاتكم، سيما في الأوقات المكتوبة والساعات المحفوظة ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المنيبون المتوجهون نحو الحق، المتدينون بدين الإسلام ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 31] المشركين معه سبحانه غيره في حال من الأحوال، ولا تنسبوا الحوادث الكائنة في ملكه وملكوته إلى غيره من الأظلال والأسباب الهالكة، المستهلكة في شمس ذاته مع كمال توحده واستقلاله في الوجود والتصرفات الواقعة في مظاهره مطلقاً.

وبالجملة: لا تكونوا أيها المحمديون المتدينون بالدين النازل من عند الله؛ لحفظ فطرتكم التي هي التوحيد الذاتي ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ الوجداني الذي هو وقاية توحيدهم فرقاً مختلفة، وابتدعوا فيه مذاهب متفاوتة متخالفة فتشعبوا شعباً كثيرة ﴿وَكَانُوا شُعْبًا﴾ وأحزاباً يشايح ويروج ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم من المذهب المبتدع المستحدث من تلقاء نفوسهم ﴿فَرِحُونَ﴾ [الروم: 32] سرورون، مدعون كل منهم حقية ما هم عليه من الباطل الزائغ.

ثم أشار سبحانه إلى ما حداهم وأغراهم على هذا الزيغ والضلال من الخصلة الذميمة المركوزة في جبلتهم فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدة وبلاء، ومصيبة وعناء يزعجهم إلى الدعوة والتوجه نحو الحق؛ لكشفه وتفريجه ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾⁽¹⁾ مائلين عن الأسباب العادية مطلقاً، مسترجعين نحوه عن محض الندم والإخلاص ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ﴾ الحق، وأنجاهم ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الضر ومن آثاره ولوازمه المستتعبة ﴿رَحْمَةً﴾ لهم، وعطفاً إياهم على

(1) يشير إلى طبيعة الإنسان أنها ممزوجة من هداية الروح وطاعته، ومن ضلالة النفس وعصيانها وتمردها، فإن الناس إذا أظلمت لهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية انكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها ورجعت على وفق طبيعتها المجبولة عليه إلى الحضرة، ورجعت النفوس أيضاً بموافقة الأرواح على خلاف طباعها مفطورة في دفع البلية إلى الله مستغيثين بلطفه مستجيرين عن محتهم، مستكشفين الضر، فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم. [التأويلات].

مقتضى اللطف والجمال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: فجاء فريق منهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 33] أي: يشركون ربهم، وينسبون الكشف والتفريج إلى الأسباب والوسائل العادية، بل إلى ما اتخذوها من دون الله من الآلهة الباطلة التي اعتقدوها شفعاء ينقذونهم عن أمثاله.

وإنما فعلوا ذلك ونسبوا ما نسبوا إلى الأظلال الباطلة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من النعم العظام والفواضل الجسام؛ وما ذلك إلا من خبث طبيعتهم، وتركب جهلهم في جبلتهم، قل لهم يا أكمل الرسل نياحة عنا: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الكافرون لنعمنا، وفواضل لطفنا ولكرمنا، ولتعيشوا بها بطرين مسرورين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 34] عاقبة تمتعكم وكفرانكم، وما يترتب عليها من أنواع العذاب والنكال؛ إذ يأتي عليهم زمان يعترف كل منهم بما جرى عليه من الكفران والعصيان وقت رؤيتهم أحوال الكافرين وأهوالهم في النار.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَتَاتِذَا الْقُرُوفَ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَاء أَنبَتْنَا مِنْ رَبِّكَ يَرَوْنَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْضِفُونَ (٣٩) [الروم: 35-39].

﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ يعني: بل أنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حيثذ ﴿سُلْطَانًا﴾ ملكًا ذا سلطنة وسطوة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معهم، ويذكرهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 35] أي: بجميع ما صدر عنهم من الشرك والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان بلا فوت شيء منها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ وأعطيناهم نعمة وسعة في الرزق، وصحة في الجسم على الترادف والتوالي ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ وأفرطوا في الفرح والسرور إلى أن بطروا، وباهوا مفتخرين بما عندهم من الأسباب ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ﴾ أحيانًا ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مثل جذب وعناء، ومصيبة وبلاء تسوءهم، مع أنهم إنما أصابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المفاسد والمعاصي الموجبة للبطش والانتقام، فانتقمنا منهم؛

لذلك ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36] أي: فجاءوا على اليأس والقنوط منا بحيث لا يتوجهون إلينا؛ لكشفها وتفريجها، بل لا يعتقدون قدرتنا على كشفها ورفعها.

﴿أ﴾ ينكرون قدرتنا أولئك المنكرون المفرطون ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْوَاعِ اللَّطْفِ وَالْكَرَمِ كَيْفَ يَبْسُطُ﴾ ويفيض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بسطه إياه ﴿وَكَيْفَ يَقْدِرُ﴾ ويقبض لمن يشاء قبضه عنه على مقتضى حكمته المتقنة؟! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ الْقَبْضَ وَالْبَسْطَ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لاثبات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 37] بتوحيد الله وأوصافه الذاتية الكاملة الجارية آثارها على مقتضى الحكمة والعدالة الإلهية، المعبرة عنها بالصراط القويم والقسطاس المستقيم.

وبعدما أشار سبحانه إلى بسط الرزق على من يشاء، وقبضه عمن يشاء إرادة واختياراً، أراد أن يشير إلى مصارفه فقال مخاطباً لحبيبه ﷺ: إذ هو جدير بأمثال هذه الخطابات الإلهية: ﴿فَاتٍ﴾ وأعط يا أكمل الرسل من فواضل ما رزق لك من النعم ﴿ذَا الْقُرْبَى﴾⁽¹⁾ المنتمين إليك من قبل أبويك ﴿حَقُّهُ﴾ أي: ما يليق به من الصلة وحفظه ورعايته، فهم أولى وأحق بالرعاية من غيرهم ﴿وَبَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأُولَى بِالرَّعَايَةِ﴾ ﴿الْمَسْكِينِ﴾ وهو الذي أسكنه الفقر في هاوية الهوان، وزاوية الحرمان ﴿وَبَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأُولَى بِالرَّعَايَةِ﴾ وهم الذين فارقوا عن الأموال والأوطان بأسباب أباحها الشرع لهم ﴿ذَلِكَ﴾ التصرف المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَصَرَفَهَا﴾ ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ وابتغاء مرضاته، وخوضاً في طريق شكره، أداء حق شيء من نعمه وفواضل كرمه ﴿وَبَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأُولَى بِالرَّعَايَةِ﴾ الباذلون أموالهم في سبيل الله على الوجه الذي أمرهم الحق به ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38] المقصرون على الفوز والفلاح من عنده سبحانه.

ثم أشار سبحانه إلى أحوال الجهلة الذين بذلوا أموالهم؛ لطلب الجاه والثروة والسمعة، وازدياد مال صديقه بلا وجه الله وابتغاء رضوانه وطلب الثواب منه، بل

(1) يشير إلى أن القرابة على قسمين: قرابة النسب، وقرابة الدين. فقرابة الدين: أمس بالمواساة والمراعاة أحق وهم الإخوان في الله والأولاد من طلب الولاية من أهل الإرادة الذين تمسكوا بأذيال الأكابر منقطعين إلى الله مشتغلين بطلب الله متجردين عن الدنيا غير مستفرغين للمعيشة، فالواجب على الأغنياء بالله القيام بأداء حقوقهم فيها يكون لهم عرف على الاشتغال بموجب الطلب بفراغ القلب. [التأويلات].

لمجرد الكبر والخيلاء، فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ وأعطيتم مما عندكم ﴿مِنْ رَبِّا﴾ زيادة من أموالكم حاصلة من الربا، إنما أعطيتم ﴿لِيَزْبُو﴾ ويزيد ﴿فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ مكافأة لهم، أو نية فاسدة أخرى بلا امثال أمر الله وطلب مرضاته ﴿فَلَا يَزْبُو﴾ ولا يزيد لكم صرفكم هذا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ شيئاً من الثواب، بل لا يقبل عنده سبحانه أصلاً؛ لإفسادكم في أغراضكم ونياتكم ﴿وَ﴾ أمّا ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ وأعطيتم للفقراء ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾ قد فرضها سبحانه عليكم امثالاً لأمره، وإطاعةً لدينه على الوجه الذي أمرتم به، مع أنكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون بإخراجها وصرفها ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ ومحض رضاه بلا خلط شيء من أمانى أهويتكم، وتسويلات أمارتكم معها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الفاعلون للزكاة على الوجه المذكور المأمور ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39] عند الله ثوابها إلى سبعين، بل إلى سبعمائة، بل إلى ما شاء الله عنايةً من الله، وإفضالاً لهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ [الروم: 40-43].

وكيف لا تطلبون وتقصدون بخيراتكم وصدقاتكم خالص وجه الله، وتشركون معه غيره من التماثيل والأظلال الهالكة، الباطلة العاطلة؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، القادر المقتدر، الحكيم العليم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً لا بالقوة ولا بالفعل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أظهركم في بقاء الوجود ﴿رَزَقَكُمْ﴾ وأنعم عليكم من أنواع النعم؛ ليربيكم بها على مقتضى اللطف والكرم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقضى الأجل المسمى عنده لبقائكم في النشأة الأولى ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ على مقتضى قهره وجلاله تميماً لقدرته الكاملة الغالبة ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى المعدة لأنواع الابتلاءات والاختبارات الإلهية، المتعلقة لحكمة إظهاركم وإيجادكم في عالم الكون والفساد؛ لتزودوا فيها من المعارف والحقائق، والاتصاف بالأخلاق الإلهية لنشأتكم الأخرى ﴿يُخَيِّطُكُمْ﴾ فيها؛ للعرض والجزاء وتنقيد ما اقترفت من الأعمال والأحوال في النشأة الأولى؛ لتجاوزوا بها على مقتضاها فيها.

وبعدما سمعتم ما سمعتم تأملوا وتدبروا منصفين أيها المشركون بالله المتوحد المتفرد، المستقل في التصرفات الواقعة في ملكه غيرة منه سبحانه وحمية؛ لحمى قدس ذاته من أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله شائبة فتور وقصور، وبعدما سمعتم هذا من خواص أوصافه سبحانه تأملوا ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين ادعيتهم شركتهم مع الله القادر المقتدر على أمثاله بالاستقلال والاختيار ﴿مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي سمعتم صدوره منه سبحانه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حقير قليل، كلا وحاشا صدور شيء من الأشياء من غيره ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: هو في ذاته منزّه عن شوب الشركة والمظاهرة مطلقاً ﴿وَتَعَالَى﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 40] أولئك المشركون المسرفون علواً كبيراً.

ومن كمال جهلهم بالله، وغفلتهم عن علو قدره وسمو مكانته ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ وأنواع البليات والمصيبات الواقعة ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾⁽¹⁾ من الجذب والعناء والوباء والزلزلة، وأنواع الحرق والغرق والضلالات الواقعة في السفن الجارية، مع أن أصل الظهور والبروز باعتبار الفطرة الأصلية على العدالة والاستقامة، وإنما ظهر ما ظهر من الانحرافات والانصرافات المنافية لصرافة الاعتدال الحقيقي الإلهي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من الكفر والكفران، والفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على الاعتدال والقسط القويم، والحكمة في صدور هذه الانحرافات والفسادات منهم: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَغْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليذيق لهم العليم الحكيم في الدنيا وبال بعض أعمالهم الفاسدة، ويبقى بعضها إلى الآخرة ليستوفيها، وإنما نذيقهم نبذاً منها عاجلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] إلينا بعدما ذاقوا ما ذاقوا من أنواع المحن والشدائد.

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوام ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هنا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس ويحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجاجه عن مشاهدة أنوار الربوبية. قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلق بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكير والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه. وقيل: في البر والبحر السرائر والظواهر. قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وإصلاح هذين بالهية والحياة، فهية الرب تزيل فساد الظاهر، والحياة منه يميت فساد الباطن.

وإن أنكر هؤلاء المشركون إذا قتنا العذاب لأمثالهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نياية عنا: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة لأنواع الكون والفساد ﴿فَانظُرُوا﴾ نظر معتبر منصف، ومتأمل مستبصر؛ ليظهر عندكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مع أنهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42] أمثالكم، مشاركين معكم في الشرك والكفر، وأنواع الفسوق والعصيان.

وبعدما أشار سبحانه إلى وخامة عاقبة أصحاب الآراء الفاسدة، والأهواء الباطلة من المنحرفين عن جادة الاستقامة، المنصرفين عن سبيل السلامة، أمر حبيبه ﷺ بالإقامة والاستقامة في منهج العدالة التي هي دين الإسلام الناسخ لجميع الأديان الباطلة، والآراء الزاهقة الزائلة، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: استقم وتوجه يا أكمل الرسل بوجه قلبك الذي يلي الحق ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المنزل من عنده سبحانه على الاستقامة والعدالة تفضلاً عليك وامتناناً ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ﴾ ويجيء ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يرد فيه ما نفذ من القضاء المبرم؛ لأن إتيانه ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم على هذا الوجه؛ إذ لا استكمال ولا رجوع حيثئذ، ولا ينفع الطاعة والعبادة حين حلوله، بل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّعُونَ﴾ [الروم: 43] أي: يتفرق الناس فرقاً، ويتحزبون أحزاباً على مقتضى ما كانوا عليه في نشأة الابتلاء والاختبار.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمُهُدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ لَجَرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 44-47].

﴿مَنْ كَفَرَ﴾ فيما مضى ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: وبال كفره وفسقه ملازم معه يدخله في النار، ويخلده فيها مهاناً ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما مضى ﴿فَلَا نَفْسٍ يَمُهُدُونَ﴾ [الروم: 44] أي: فهم بإيمانهم وعملهم الصالح يمهدون، ويبسطون لأنفسهم منزلاً ومهاداً في الجنة هم فيها خالدون.

والسر في قيام الساعة والنشأة الأخرى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾

وَأَيُّقُنُوا بِتَوْحِيدِهِ وَبِجَمِيعِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى رِسْلِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الْمَقْبُولَةَ عِنْدَهُ امْتِثَالاً لِمَا أُمِرُوا بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رِسْلِهِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: يَجْزِيهِمْ مِنْ مُحَضِّ فَضْلِهِ وَلُطْفِهِ مَعَهُمْ، وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِأَضْعَافِ مَا اسْتَحَقُّوا بِأَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَيَجْزِي الْكَافِرِينَ أَيْضاً بِمَقْتَضَى عَدْلِهِ بِمِثْلِ مَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ، وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالضَّلَالِ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: 45] الْمَصْرُوفِينَ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، سَيِّمًا بَعْدَ إِرسَالِهِ سَبْحَانَهُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَصْلَحُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَكَذَّبُوهُ وَأَنْكَرُوا لَهُ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا.

﴿وَمِنْ﴾ جُمْلَةٍ ﴿آيَاتِهِ﴾ سَبْحَانَهُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَقِّقِينَ لِمَرْتَبَةِ التَّوْحِيدِ، الْمُتَمَكِّنِينَ بِمَقَرِّ الْوَحْدَةِ الذَّاتِيَّةِ: ﴿أَنْ يُزِيلَ الرِّيحَ﴾ الْمُشْتَمِلَةَ لِأَنْوَاعِ الرُّوحِ وَالرَّاحَةِ، الْمُهَبَّةِ مِنْ نَفْحَاتِ النِّفَسَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ؛ لِيَتَعَرَّضُوا لَهَا وَيَسْتَنْشِقُوا مِنْهَا فَيْضَانِ آثَارِ اللَّطْفِ وَالْجَمَالِ، مَعَ كَوْنِهَا ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ لِمَزِيدِ فَضْلِهِ وَطَوْلِهِ، وَنَزُولِ أَنْوَاعِ رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ﴾ وَيَفِيضَ عَلَيْكُمْ ﴿مِنْ﴾ سَعَةِ ﴿رَحْمَتِهِ﴾ مَا يَنْجِيكُمْ وَيَخْلُصْكُمْ مِنْ لَوَازِمِ بَشَرِيَّتِكُمْ وَنَاسُوتِكُمْ ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ أَي: سَفُنُ تَعِينَاتِكُمُ الْجَارِيَةِ فِي بَحْرِ الْوُجُودِ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وَعَلَى مَقْتَضَى مَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وَتَطْلُبُوا بَعْدَ مَا فُوضَتْكُمْ أُمُورُكُمْ إِلَيْهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَكِيلًا ﴿مِنْ﴾ مَوَائِدِ ﴿فَضْلِهِ﴾ وَإِحْسَانِهِ، وَعَوَائِدِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿وَو﴾ إِنَّمَا فَعَلَ مَعَكُمْ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: 46] رَجَاءً أَنْ تَشْكُرُوا نِعْمَهُ، وَتَفُوزُوا بِمَزِيدِ كَرَمِهِ، وَتَتَحَقَّقُوا بِمَقَامِ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ الَّذِي جَبَلْتُمْ لِأَجَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ سَبْحَانَهُ مَقْسَمًا تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِزَالَةً لِهَمِّهِ وَحُزْنِهِ مِنْ تَكْذِيبِ الْجَهْلَةِ الْمُسْرِفِينَ، الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الْمُسْتَهْزِئِينَ مَعَ رَسُولِهِ: ﴿وَو﴾ اللَّهُ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿رُسُلًا﴾ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ الَّذِينَ ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَعَلَامَاتُ الْكُفْرِ وَالْعُدْوَانِ ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ مُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِنَا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْوَاضِحَةِ، وَالْمُعْجَزَاتِ اللَّائِحَةِ، فَفَاجَتْهُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا بِلا تَدَبُّرٍ وَتَأَمُّلٍ مِنْهُمْ فِي آيَاتِهِمْ وَبَيِّنَاتِهِمْ ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾ بِمَقْتَضَى قَهْرِنَا وَجَلَالِنَا ﴿مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بِالْجَرَائِمِ الْعِظَامِ، سَيِّمًا تَكْذِيبَ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ﴿وَو﴾ كَيْفَ لَا نَنْتَقِمَ عَنْهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا، مَعَ أَنَّهُ ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ بِمَقْتَضَى مَا ثَبَتَ فِي لَوْحِ قَضَائِنَا، وَحَضْرَةِ عِلْمِنَا ﴿نَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] أَي: نَصْرُ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ،

وتغليهم على الكافرين بعدما امثلوا لأوامرنا، واجتنبوا عن نواهينا، وبلغوا جميع ما أمرناهم وأوحيناهم إلى ما أرسلناهم، فكذبوهم ولم يقبلوا منهم؟!.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا يَنْزِلُ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 48-53].

فكيف لا يقبل منهم أولئك البعداء، المنكرون المسرفون وحي الحق إياهم وإلهامهم عليه، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء والصفات الظاهرة، المتجلي على مقتضاها بالاستقلال إرادة واختياراً ﴿الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ المتشئة من محض فضله وجوده بلا سبق سبب يوجبها، وعلة تقتضيها على ما جرى عليه عادته سيحانه في سائر الموجودات ﴿فَتَثِيرُ﴾ وتحرك أجزاء البخار والدخان، ويمتزج بعضها مع بعض فتركما وتكشفها حتى صارت ﴿سَحَابًا﴾ هامراً ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ سبحانه ﴿فِي﴾ جو ﴿السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ عرضاً وطولاً، سائراً وواقفاً، مطبقاً وغير مطبق، إلى غير ذلك من الأوضاع الممكنة الورد عليها.

﴿و﴾ بعدما مهده سبحانه وبسطه ﴿يَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾^(١) أي: قطعاً مختلفة ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ ويفيض ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفتوقه بعدما تكوّن فيه

(1) قال في التاويلات: قطعاً، قطعة: تمطر غيث القربة على النفوس فتطهرها من الذنوب، وقطعة: تمطر على الأسرار بغيث الأنوار فتطهرها عن النظر إلى الأغيار، وقطعة: تمطر على الأرواح بغيث الكشف على الأسرار فتطوى ببساط الحشمة على ساحات قربه وتضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أنهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه ويسقيهم بكأس التجلي شراب ظهور محبته، وبعدها محامهم عن أوصافهم أصحابهم لا بهم ولكن بنفسه والعبارات عن ذلك خرم والإشارات دونها طمس.

بقدره الله من اجتماع أجزاء الأبخرة والأدخنة المتضاعدة الممتزجة، المتراكمة المتكاثفة، المتفاعلة بعضها مع بعض إلى أن صارت ماء فتقطر وتسيل ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أراضى ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ عنايةً منه سبحانه إياهم، وتفضلاً عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْتَبِشُونَ﴾ [الروم: 48] أي: فوجئوا بنزوله إلى أنواع الاستبشار والابتهاج، والفرح والسرور متفائلين بنزوله إلى الخصب والرخاء، وأنواع البهجة والصفاء.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ﴾ أي: من قبل ثوران الأبخرة والأدخنة، وانعقاد السحب وتراكمها منها ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: 49] آيسين قانطين؛ لطول عهد عدم نزوله إياهم.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المؤمن المعتبر، الناظر بنور الله ﴿إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وكمال فضله وجوده ﴿كَيْفَ يُخَيِّ﴾ ويخضر ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: جمودها وبيسها، وعدم نضارتها ونزاهتها، ويظهر عليها أنواع الأزهار والأثمار عنايةً منه سبحانه لعباده، وتفضلاً لهم؛ ليتزودوا بها ويسلكوا سبيل هدايته وتوحيده ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة التامة والاختيار الكامل ﴿لَمُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ ومخرجها ألبتة من قبورها وقت تعلق إرادته بإحيائها ﴿وَوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة حضرة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50] على الوجه الأتم الأكمل بلا فتور وقصور!.

﴿وَوَ﴾ من عدم رسوخهم في الدين القويم، وقلة تثبتهم على الصراط المستقيم ﴿لَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ عليهم ﴿رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: ما هبت عليه من الزروع ﴿مُضْفَرًا﴾ من أثرها بعدما كان مخضراً؛ يعني: لا يربي زروعهم ولا ينميتها، بل يضعفها ويرديها، مع أن إضرارها واصفرارها أيضاً إنما هو بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: صاروا وأخذوا بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 51] بالله وينعمه، وينكرون بعموم فضله وكرمه، مع أن أخذهم بالبأساء والضراء؛ إنما هو ليتضرعوا نحوه، ويلتجئوا إليه منيبين خاشعين خاضعين؛ ليكشف عنهم ما يضرهم؛ إذ لا كاشف إلا هو، ولا منجي لهم سواه.

وبالجملة: هم من خبت طبيعتهم، وجمود قريحتهم أموات حقيقة ومعنى، وإن كانوا من الأحياء صورة، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وشأنهم، ولا تجتهد إلى إهدائهم وتكميلهم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُنصِّحُ الْمَوْتَى﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك إسماع الموتى، بل

ما عليك إلا التبليغ والدعوة ﴿وَلَا تُسْمِعُ الضُّمُّ﴾ الجبلي ﴿الدَّعَاءُ﴾ والدعوة، سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وانصرفوا عنك ﴿مُذْبِرِينَ﴾ [الروم: 52] معرضين منك، مكرين لك، مكذبين رسالتك ودعوتك.

﴿وَوَ﴾ كيف تجتهد وتسعى يا أكمل الرسل في حصول ما هو خارج عن وسعك وطاقتك، مع أنك لا تؤمر به؟! إذ ﴿مَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ إذ هم مجبولون على الغواية الجبلية في أصل فطرتهم، فاقدون بصائر قلوبهم المدركة لدلائل التوحيد وشواهد الوحدة الذاتية، ولا يتأتى لك أن تهديهم إلى طريق التوحيد وترشدتهم إليه ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ بتبليغك وإرشادك ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ونوفقهم على الإيمان بمقتضى ما ثبت وجرى في لوح قضائنا وحضرة علمنا ﴿فَهُمْ﴾ بعدما سبقت العناية منا إياهم ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [الروم: 53] منقادون لك، مسلمون منك جميع ما بلغت لهم من شعائر الدين، ودلائل التوحيد واليقين.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُشَاءَ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: 54-57].

ثم قال 'سبحانه على سبيل الامتتان إظهارًا لكمال قدرته على إبداء الشئون والتطورات الواردة على عباده حسب تعاقب الأزمنة والأوقات في النشأة الأولى، فكيف ينكرون إعادتها في النشأة الأخرى مع أن الإعادة أهون من الإبداء، وإن كان الكل في جنب قدرته على السواء: ﴿اللَّهُ﴾ القادر المقتدر، الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه، العليم بمقتضاها هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وقد روجوكم بعدما أبدعكم من كتم العدم في عالم الطبيعة والهيولي ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ هو ماء النطفة الضعيفة المهينة ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ ما صير وخلق ﴿مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كائن في نشأة النطفة ﴿قُوَّةً﴾ جسمانية متزايدة، مستكملة فيها إلى أن بلغت كمال الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كائنة في

عالم الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ وانحطاطاً ﴿وَشَيْبَةً﴾⁽¹⁾ مضعفة لجميع القوى والآلات، متجهة إلى الهرم الذي عبر عنه سبحانه بأرذل العمر؛ كي لا يعلم صاحبه من بعد علم شيئاً، وبالجملية: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويظهر سبحانه جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ويريد إرادة واختياراً ﴿وَهُوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع ما أحاط عليه إرادته ومشيته ﴿الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] لإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتور وقصور.

﴿وَهُوَ﴾ كيف ينكر من ينكر الحشر والنشر، وإعادة الموتى أحياء بعدما شهد هذه التطورات المتخالفة المتعاقبة؟! اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة المعدة لحشر الأموات من الأجداث ﴿يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقسم ويحلف كل منهم عند صاحبه بمدة لبثهم في الدنيا مترفين متنعمين، واتفقوا بعدما اختلفوا وترددوا في مكثهم فيها أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فيها ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ واحدة بالنسبة إلى طول يوم القيامة، ومن شدة عذابها وأحوالها، وكثرة الهموم والأحزان فيها صار لبثهم في الدنيا مدة أعمارهم فيها ساعة واحدة عندهم، بل بعضهم تخيلوا أقصر منها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل صرفهم عن طول مدة مكثهم في الدنيا يوم القيامة ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: 55] ويصرفون في النشأة الأولى عن طريق التوحيد، وسبيل الهداية والرشاد من كمال غفلتهم وقسوتهم.

﴿وَهُوَ﴾ بعدما سمع منهم المؤمنون الموحدون استقصارهم مدة لبثهم فيها، وانصرافهم عن الحق ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني من قبل الحق ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ بالمفنيات التي أمروا بتصديقها على السنة الرسل والكتب، سيما يوم البعث والنشور رداً عليهم، وتخطئة لهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ في الدنيا بمقتضى ما ثبت ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

(1) قال في التأويلات: في الإيمان لمن كان العقل عقيلته فكما تعقل بعلاقة المعقولات، فينظر فيها بداعية الهوى بنظر مشوب بأفة الوهم والخيال، فيقع في ظلمات الشبهات فتزل قدمه عن الصراط المستقيم والدين القويم فيهلك كما هلك فمن شرع في تعلم المعقولات بلا نور المتابعة ونور الشريعة وسعوا في إبطال الشريعة بظلمة الطبيعة ﴿يُؤْمِنُونَ لِيَلْغُوا فِيهِ فَأْتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ نُورِهِ وَلَهُ كَرَّةُ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8] وأيضاً خلقكم من ضعف أي ضعف التردد والتخير في الطلب، ثم جعل من بعد ضعف قوة في صدق الطلب، ثم جعل من بعد قوة في الطلب ضعفاً في حمل القول الثقيل وهو حقيقة قوله: لا إله إلا الله فإنها توجب الفناء الحقيقي في المعنى ويوجب الضعف الحقيقي في الصورة بحمل المعاتبات والمعاشقات التي تجري بين المحيين فإنها تورث الضعف أو الشيب، كما قال النبي ﷺ: «شيتي سورة هود وأخواتها».

ولوح قضائه، وحضرة علمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ وحشر الموتى، وقيام الساعة ﴿فَهَذَا﴾ اليوم الذي أنتم فيه معذبون الآن ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ الموعود لكم في الدنيا على السنة الرسل ﴿وَلَكِنَّكُمْ﴾ من خبث طبيعتكم وجهلكم ﴿كُتِبَ لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56] ولا تؤمنون به، ولا تصدقون قيامه، بل تنكرونها وتكذبون من أخبر بها من الرسل العظام، مع أنهم مؤيدون من قبل الحق بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الباهرة الظاهرة.

وبعدما فوّتوا الفرص في دار الاختبار، وضيعوا عين العبرة والاعتبار فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين قيام الساعة، وانقضاء أيام التفقد والتدارك ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج عن حدود الله والعرض على عذابه ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذر منهم ليعتذروا عن قصورهم، ويتوبوا عن فتورهم متداركين لما فوّتوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] أي: لا يطلب منهم العتبي حتى يزول عتابهم بالتوبة والإنابة والندم والرجوع؛ إذ قد انقضت نشأة الابتلاء والاختبار، حيث لا يقبل منهم التوبة والعبادة أصلاً.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَتَيْنَا إِلَّا مِثْلُ مَا كُنَّا عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: 58-60].

ثم قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة مشيراً إلى كمال قسوة أهل الزيغ والضلال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وبيننا ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين طريق الوصول إلى توحيدنا ووحدة ذاتنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل من عندنا؛ لتبيين طريق توحيدنا، وسلوك سبيل الاستقامة والرشاد فيه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبئ لهم عنه، وينبئهم عليه، ويبين لهم كيفية التنبيه والتفطن منه، ومع ذلك لم يتنبهوا ولم يتفطنوا إلا قليلاً منه ﴿وَلَوْ﴾ من غلظ غشاوتهم، ونهاية غفلتهم وضلالهم ﴿لَئِنْ جِئْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ملجئة لهم إلى الإيمان، لو تأملوا معناها وتدبروا فحواها ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق، وانصرفوا عن توحيده والإيمان على سبيل الحصر والمبالغة بلا مبالاة بك وبآياتك: ﴿إِنْ أَتَيْنَا﴾ أي: ما أنتم في دعواكم هذه أيها المدعون الكاذبون - يعنون: الرسل والمؤمنين - ﴿إِلَّا مِثْلُ مَا كُنَّا﴾ [الروم: 58] مفترون مزورون، تفترون على الله ما

تختلفون من تلقاء نفوسكم تغريزاً وترويضاً.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل طبعهم وختمهم الذي شهدت يا أكمل الرسل من هؤلاء الجهلة ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، ويختمه ﴿عَلَى قُلُوبٍ﴾ جميع الكفرة والجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 59] الحق، ولا يدعون به؛ لتركب جهلهم في جبلتهم، والجهل المركب لا يزول بالقواطع والشواهد قطعاً ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].

وما متى سمعت يا أكمل الرسل من أحوالهم وأوصافهم ما سمعت من عدم قابليتهم واستعدادهم إلى الهداية والرشاد ﴿فَاضْبِرْ﴾⁽¹⁾ على إيدائهم، وثق بالله وبوعده الذي وعدك بأن يظهر دينك على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ وإنجازه لما وعد به ﴿حَقٌّ﴾ بلا خلف وتردد ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ﴾ أي: لا يحملئك ويبعثك يا أكمل الرسل على الخفة والاضطراب، وقلة التصبر، وعدم الثقة بالله القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60] ولا يتصفون باليقين في أمر من الأمور أصلاً، فكيف بالمعارف والحقائق الإلهية؛ إذ هم مجبولون على فطرة الضلال، مترددون في بيداء الوهم والخيال، لا نجاة لهم منها في حال من الأحوال¹.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجيننا عن مضيق الجهل والضلال، ووصلنا إلى سعة العلم وقضاء الوصال، نحمدك على كل حال، ونستعيز بك منك من جميع الأهوال.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتحقق لمرتبة اليقين العلمي والعيني والحقي - مكنك

(1) في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، وبما عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العريضة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاضطرابات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العاوفين. وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

الحق في مقر لاهوتك، وجنبك عن لوازم ناسوتك مطلقاً - أن تتصبر على أذيات أصحاب التقليدات والتخمينات، وتحمل على تشنعات أرباب الظنون والجهالات المترددون في تيه الجهل والضلال بمتابعة الوهم والخيال، وتصفي خاطرك وضميرك عن معارضتهم ومقابلتهم، والبغض معهم والالتفات إليهم مطلقاً؛ إذ هم قوم خذلهم الله وأحطهم عن مرتبة الإنسان التي هي التحقق بمقام اليقين والعرفان، والتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة من الرحمن المستعان، والتخلق بأخلاق الحنّان المئان، وأسكنهم في مضيق الإمكان مقيدين بسلاسل التقليد وأغلال الحساب، لا نجاة لهم منها أبداً.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك، وتفوض أمورك كلها إليه وتتخذة وكيلاً، وتجعله حسيّاً وكفياً، فإنه سبحانه يكفيك مؤنة شرور أعدائك وحاسديك، ولك التبتل والانقطاع إلى الله في كل الحالات، والرجوع نحوه في جميع المهمات والملامات؛ إذ ما من خير يسرك وشر يضرك إلا منه بدأ وبقدرته ظهر، وعلى مقتضى علمه صدر وبموجب حكمته جرى وقدر.

فلك أن تسترجع إليه، وتتضرع نحوه، وتستعيذ منه به؛ إذ الكل من عنده لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة لقمان

لا يخفى على من تحقق بالمرتبة الحكيمة العلية من مقامات سالك التوحيد، وتمكن عليها مطمئناً راضياً، مداوماً على الميل المعنوي والتوجه التام بجميع الجوارح والأركان نحو الحق، مسقطاً عن نفسه جميع ما يشغله عن التوجه والالتفات إلى المبدأ الحقيقي، والمنشأ الأصلي على الوجه الأتم الأكمل، إن الوصول والتحقق بمرتبة التوحيد والهداية الحقيقية، والتكمن في مقر الاطمئنان واليقين، والنيل إلى شرف الفناء في الله والبقاء ببقائه إنما يحصل برفع الموانع، ورفض الرسوم والعادات العائقة عن إدراك السعادات، وذلك لا يتم إلا بعد خلع خلع الناسوت مطلقاً، وترك مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الجسمانية رأساً.

وذلك لا يتيسر إلا بارتكاب متاعب الطاعات، ومشاق التكاليفات القاطعة القالعة عرق التعلقات المرتكزة في القوى البشرية، وأصول اللذات الوهمية اللازمة للنفوس البهيمية، والهاكل الهولانية المستحدثة من خبث الطبيعة المكدره بأدناس الإمكان المفضي بالطبع إلى الدناءة والنقصان، وأنواع الخسাসات والخسران.

والخلاص عن أمثال هذه الموانع والشواغل إنما هو بتوفيق الله وجذب من جانبه، وإرشاد مرشد نبيه مؤيداً من عنده سبحانه بالدلائل والتنبيهات، وأنواع المعجزات والتبينات الخوارق للعادات.

ولهذه المصلحة العلية، والحكمة السنية خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب به بعدما تيمن بذكره الأجل الأعلى، فقال: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِي أَنشَأَ يَنَّا بَعِ الْحِكْمَةَ مِنْ قُلُوبِ أَنْبِيَآءِهِ وَأَوْلِيَآئِهِ، وَأَجْرَىٰ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ أَنَهَارَ الْمَعَارِفِ وَالْحَقَائِقِ الْمُنْتَشِئَةِ مِنْهَا إِرْشَادًا لِّعَمُومِ عِبَادِهِ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل المؤيدين من عنده بتزول الكتب والصحف تميماً لمكارم أخلاقهم، ومحاسن أطوارهم وشيمهم؛ ليستعدوا بقبول دلائل التوحيد، ونزول سلطان الوحدة على قلوبهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مبدئهم الأصلي ومنشئهم الحقيقي بعد رفع تعيناتهم، ونفي هوياتهم الباطلة.

﴿الذِّكْرُ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ [لقمان: 1-7].

﴿الم﴾⁽¹⁾ [لقمان: 1] أيها الإنسان الكامل اللائق للوامع لطائف أنوار الوجود الإلهي، ولوائح آثار جوده، المكرم المؤيد من عنده بمزيد اللطف والكرم، الممتاز المتخصص من بين جميع مظاهره بالمرتبة الجامعة المستجمعة لجميع المراتب العلية. ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل امتناناً لك، واختصاصاً بشأنك ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: نبذ من آيات الكتاب ﴿الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2] المشتمل على الحكمة المتقنة، المنبعثة عن اجتماع القدرة الكاملة والإرادة الخالصة، المتربتين على العلم الكامل الإلهي الذي لا يغيب عن حضرة حضوره ذرة من ذرائر ما لاحت عليه شمس الوجود.

ولجمعيته وشموله، وصدق نزوله من عند الله اتصف بوصفه سبحانه تأكيداً ومبالغة، ولكونه نازلاً من عنده سبحانه على مقتضى الحكمة البالغة؛ لتأييد رسوله المبعوث إلى كافة الأمم صار ﴿هُدًى﴾ عامًا، ورشدًا تامًا كله للممثلين بما فيه من الأوامر والنواهي، والأحكام والقصص، والتذكيرات والعبر، والرموز والإشارات ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة نازلة من عنده سبحانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 3] الذين لا يرون غير الله في الوجود، ولا يعبدون سواه من الوسائل، ولا ينسبون الحوادث الكائنة في الآفاق إلى الأسباب العادية، والمحسنون المرضييون عند الله، الراضون بما جرى عليهم من نفوذ القضاء.

هم ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ويواظبون عليها في جميع أوقاتهم وحالاتهم، سيما

(1) قال في التأويلات: يشير بالآلف إلى آلاه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبالآلاه رفع الجحد من قلوب الأولياء، وبلفظ عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفياه، وبمجده وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

الأوقات المحفوظة المقبولة ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ وينفقون جميع ما في أيديهم من الرزق الذي يسوق الحق إليهم في سبيله طلباً لمرضاته، سيما ﴿الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم من عنده سبحانه تزكيةً لظواهرهم عن الالتفات إلى ما يشغلهم ﴿وَوَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون أولئك السعداء المقبولون بتهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿هُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد الأعمال وجزاء الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 4] علمًا وعيًا وحقًا.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالخصائل السنية والأخلاق المرضية ﴿عَلَى هُدًى﴾ صريح صحيح، فائض نازل إياهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تفضلاً عليهم، وامتناناً لهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الأمناء المقبولون المرضيون عند الله ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: 5] المقصورون على الفوز والفلاح ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على كفران نعم الله، ونسيان حقوق كرمه وجوده ﴿مَنْ يَشْتَرِي﴾ ويستبدل آيات الكتاب المشتغل على أنواع الفضائل والكمالات، وأصناف الهدى والكرامات ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾⁽¹⁾ أي: يستبدل الآيات الإلهية، ويختار بدلها من الأراجيف الكاذبة ما يلهي النفوس، ويشغلها عما يعينها ويفيدها، ويقربها إلى ما لا يعينها ويضرها، وما ارتكب ذلك الضال المضل بما ارتكب من الاشتراء والاستبدال الفاسد إلا ﴿لِيُضِلَّ﴾ ويصرف ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من يميل إليها ويتوجه نحوها؛ ليتدين بدين الله، وينقاد لنبيه على مقتضى فطرته الأصلية، مع أنه صدر عنه هذا الصرف والمنع ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق به منه نقلاً أو عقلاً، عن جهل مرتكز في جبلته، وحميته مركوزة في خبث طبيعته وطبيعته.

(1) قال في التأويلات: فما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه فهو لهو الحديث، وأما الغناء فمنه محرم وهو ما صرح بتحريمه للشرع مثل المزامير وطبل المخشيين، ومنه ما لم يتعرض له الشرع أنه حلال أم حرام فهي كسائر المباحات، ومن جملتها مثل الدف والغناء بالكف في ظاهر الشرع كما حكم به الشافعي رحمه الله، وأما على مذهب أهل الحقيقة فالحكم في المباح منها ما أفتى به الجنيد - قدس الله روحه - فقال: السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباح لوقوف علومهم وصفاء قلوبهم، واجب على أصحابنا لغناء حظوظهم، وقال أبو بكر الكتاني: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام، فلا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد.

﴿و﴾ بسبب ذلك الجهل الجبلي ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ إلى الآيات الموصلة إلى طريق الحق وتوحيده ﴿هَزُؤًا﴾ أي: محل استهزاء وسخرية؛ لجهله وغفلته عن السرائر المودعة فيها، والأسرار المكنونة في فحوايها ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجبولون عن الغواية والضلالة أصلاً وفرعاً، تابعاً ومتبوعاً ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: 6] يهينهم فيها بدل ما استهانوا بكتاب الله، واستهزءوا برسله ظلمًا وزورًا بلا تدرب وتدبر.

﴿و﴾ من شدة شكيمته، وبغضه بالله ورسوله وكتابه، ونهاية عتوه وعناده ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ﴾ وقرئ عنده ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿وَلَّى﴾ عنها، وأعرض عن استماعها، وانصرف عن قبولها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عليها، متجافيًا كشحه عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مع أنها تلى عليهم قصد الاستماع، ولم يلتفت إليها ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾ صممًا يعوقه عن السماع والاستماع ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أعرض عن كتاب الله، واستنكف عن استماعه وإصغائه مستخفًا عليه، مستحققًا إياه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7] مؤلم في غاية الشدة والألم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ٨ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٩ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ١٠ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ١١ ﴿[لقمان: 8-11].

ثم عقب سبحانه وعيد الكفرة الهالكين في تيه الغي والضلال بوعد المؤمنين على مقتضى مسته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية له سبحانه، المقبولة عنده على مقتضى ما نزل عليهم من الآيات الواردة إياهم، المصفية لظواهرهم وبواطنهم ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى جزاء ما أتوا به من الإيمان والعمل الصالح في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: 8] متزهات مملوءة بألوان النعم، وأصناف الجود والكرم، لا يتحولون منها أصلاً، بل صاروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مترفين بنعيمها لا يمسهم فيها نصب ولا وصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي وعد لخلص عباده من عنده على مقتضى علمه وإرادته لا بد له أن ينجزه ﴿حَقًّا﴾

صدقًا بلا خلف وتردد ﴿وَوَ﴾ كيف يخلف في وعده ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيلة علمه وإرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 9] المتقن في إيجاده وإظهاره على الوجه الذي أراد.

ومن جملة حكمته المتقنة المتفرعة على حضرة علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة أنه ﴿خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسانيد على الوجه الذي ﴿تَرَوْنَهَا﴾ معلقة على الأرض بلا استناد واتكاء ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي عالم المسببات ﴿رَوَاسِيَ﴾ شامخات، وجبالاً راسيات؛ كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتميل عليكم وقت ترددكم وتحرككم عليها ﴿وَيَثَّ فِيهَا﴾ أي: بسط عليها، ونشر ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ تتحرك عليها متبادلة متقابلة كيف اتفق؛ لتستقر وتمكن؛ لأن طبيعتها في حد ذاتها كانت على الحركة والاضطراب؛ إذ هي محفوفة بالماء السائل المجبول على الحركة والسيلان، وبالهواء المتموج بالطبع، وبالنار المضطربة، وبالأفلاك المتحركة بطبقاتها ﴿وَوَ﴾ بعدما شهدناها وألقينا عليها من الرواسي العظام تميمًا لتقريرها ﴿أَنْزَلْنَا مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ مستحدثًا من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة المتراكمة، المستحيلة بالماء بمجاورة الكرة الزمهريرية ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ وأخرجنا بانزال الماء عليها ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض المنبسطة اليابسة بالطبع ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات مزدوج مع شاكلته ﴿كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10] كثير المنافع والفوائد، مصلح للأمزجة، مقوم لها؛ لتعيشوا عليها مترفين متنعمين، شاكرين لنعمنا، غير كافرين بمقتضى جودنا وكرمنا.

ثم قال سبحانه من مقام العظمة والكبرياء، وكمال المجد والبهاء على سبيل الإسكات والتبكيك لمن أشرك معه غيره عنادًا ومكابرة: ﴿هَذَا﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على السمع والإصغاء ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر ذي الحول والقوة الغالبة، والطول العظيم ﴿فَأَرْوَيْنِي﴾ أيها المشركون المسرفون، المفرطون في دعوى الشرك معه سبحانه ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ أي: أي شيء أظهر وأوجد الشركاء ﴿الَّذِينَ﴾ تعبدونهم وتدعون نحوهم في الخطوب، وتدعون أنهم آلهة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه مستحقة للعبادة والرجوع، قادرة على لوازم الألوهية والربوبية، فسكتوا بعدما سمعوا ما سمعوا باهتين، وانقلبوا حيث ذصاغرین ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ المجبولون على الظلم والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، سيما بدعوى الشركة واتخاذ إله سواه - العياذ بالله منه - ﴿فِي ضَلَالٍ

المتجهة نحو مبدعها، المثنية له حالاً ومقالاً، سراً وجهاً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين معناه تذكيراً لهم، وعظة عليهم: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ المسمى بأنعم أو أشكم، أو ماثان قولاً ناشئاً عن محض الحكمة المتقنة، الموهوبة له من عنده سبحانه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ويقصد تهذيب ظاهره وباطنه عن الأخلاق الرديئة والخصائل الدنيئة، منادياً إياه، مصغراً على سبيل التحنن والتعطف، وكمال الترحم والتلطف، مضيفاً إلى نفسه؛ ليقبل منه ما أوصاه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾⁽¹⁾ المنزه عن الشريك والشبيه، والكفاء والنظير، واعلم أن أجل أخلاقك، وأعز أوصافك: التوحيد وتنزيه الحق عن الشبيه والتعديد، وأخس أوصافك، وأرذل أخلاقك، وأردى ما جرى في خلدك وضميرك: الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ﴾ واعتقاد التعدد والاثنية في حق الحق، الحقيقي بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، المستقل بالالوهية والربوبية ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] لا ظلم أعظم وأفحش، أعاذنا الله وعموم عباده منه.

ثم قال سبحانه على سبيل التوصية والمبالغة تأكيداً وتحقيقاً على ما أوصى به لقمان ابنه من النهي عن الشرك، والزجر عنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ والزمنا عليه أولاً بعدما أظهرناه قبلاً لحمل التكاليف المستكملة ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: بإطاعتهما، وبحفظ آداب المعاشرة والمصاحبة معهما، ورعاية حقوقها على ما ينبغي ويليق بلا فوت شيء من حقوقهما، سيما الوالدة المتحملة لأجله أنواع المحن والمشاق؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ بواسطة حملها في بدء وجوده ﴿وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعفاً على ضعف؛ إذ كلما ازداد نشوءه ازداد ضعفها إلى أن انفصل عنها، وبعد انفصاله تداوم لحفظه وحضائنه إلى فطامه ﴿وَفِضَالُهُ﴾ أي: فطامه إنما هو ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ ويعدما انقطم تلازم أيضاً على

(1) رؤية ما دون الله شرك في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الفوص في بحار الالوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفساً وقلباً وروحاً، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

حفظه إلى وقت بلوغه، وبعدما بلغ سن التكليف قلنا له: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي﴾ أيها المكلف المتنعم بأنواع النعم مني أصالةً وتسبيحاً؛ لأنني خلقتك وأظهرتك من كتم العدم ولم تك شيئاً.

﴿و﴾ اشكر أيضاً ﴿لِوَالِدَيْكَ﴾، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] لإقامتهما على حفظك وحضانتك إلى أن كبرت، وبلغت مرتبة أشدك، وكمال عقلك ورشدك، واعلم أن شكرك لهما راجع إليّ أيضاً؛ إذ أقدرتهما ومكنتهما على حفظك، وألقيت محبتك في قلوبهما، وبالجملّة: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14] والمرجع في جميع الأفعال الصادرة من العباد ظاهراً؛ إذ هم وما صدر عنهم من الأفعال مستندون إلينا أولاً وبالذات، وكيف لا تُستند أفعالهم إلينا؛ إذ جميع ما صدر عنهم تابع لوجوداتهم، مترتب عليها؟! والحال أنه ليس لهم وجود في أنفسهم، بل وجوداتهم إنما هي رشحة من رشحات وجود الحق، وفيء من أظلال أوصافه وأسمائه الذاتية.

﴿و﴾ بعدما أكدنا عليكم أيها المكلفون في حفظ حقوق والديكم، وبالغنا فيه ﴿إِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: والداك أيها المكلف، واجتهدا في شأنك، وبالغنا في الجهد والسعي إلى أن قاتلا معك وأرادا مقتك ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ وتعتقد رباً سواي وتعبد به مثل عبادتي، مع أنك خالي الذهن؛ إذ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يتعلق بنفي الشريك وإثباته أيضاً ﴿فَلَا تُطْغَاهُمَا﴾ في أمرهما هذا وسعيهما فيه؛ إذ أصل فطرتك مجبولة على التوحيد سواء تعلق علمك به أو لم يتعلق، فلك ألا تطعهما وتنصرف عن أمرهما هذا ﴿و﴾ مع انصرافك عن أمرهما هذا ﴿صَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ وإن كانا مشركين ﴿مَغْرُوفًا﴾ مستحسنًا عقلاً وشرعاً ومروءةً حفظاً لحقوقهما.

﴿و﴾ لا تتبع بشركهما وكفرهما، بل ﴿اتَّبِعْ﴾ في الدين والملة ﴿مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ ودين من توجه نحوي موحداً إياي، بريئاً من الشرك معي، وبالجملّة: امض على التوحيد واسلك طريقه مادمت في دار الابتلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقضت النشأة الأولى ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ تابِعاً ومتبوعاً، أصلاً وفروعاً ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15] أي: بتفاصيل أعمالكم التي صدرت عنكم في دار الاختبار، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿يَبْقَىٰ لِلَّهِ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ وَشَقَّالَ حَبْرٍ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي

الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقْصِرَ الصَّلَوةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهًا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴿[لقمان: 16-19].

وبعدما سجّل لقمان على ابنه التوحيد بنفي ضده على طريق المبالغة والتأكيد، أراد أن ينبه عليه بأنه لا بدّ له أن يحفظ على نفسه الأدب مع الله في كل الأحوال، بحيث لا يصدر عنه شيء يخالف توحيده، ولا يلائمه ولو كان ذرة حقيرة؛ إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه سبحانه شيء، فقال أيضًا مناديًا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ أي: الخصلة الذميمة التي أتيت بها المنافية للتوحيد، أو الخصلة الحميدة الملائمة له، لا يعزب كلاهما عن علم الله مطلقًا، وبالجملّة: ﴿إِنْ تَكُ﴾ فرضًا ما جئت به من الخصلة الذميمة والحميدة في صغر الحبة والوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ واحدة كائنة ﴿مِنْ خَزْدَلٍ﴾ أي: هي مثل في الحقارة والصغر ﴿فَتَكُنْ﴾ أنت بعدما جئت بها ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في جوفها، وهي أخفى المواضع وأستر الأمكنة ﴿أَوْ فِي﴾ أعلى ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وفوقها، وهو ما وراء الفلك الأطلس ﴿أَوْ فِي﴾ أسفل ﴿الْأَرْضِ﴾ وقعرها.

وبالجملّة: إن كنت في أخفى الأماكن وأحفظها ﴿يَأْتِي بِهَا﴾ أي: بك وخصلتك التي صدرت عنك ﴿اللَّهُ﴾⁽¹⁾ الرقيب عليك في جميع حالاتك، ويجازيك بمقتضاها إن تعلق إرادته ومشيتته بإحضارك وإتيانها، وبالجملّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿لَطِيفٌ﴾ لا يحجبه حجب، ولا يمنعه سدل ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16] ذو خبرة، يعلم كنه الأشياء وإن دقت ورقّت ولا يكتنه ذاته، مع أنه أظهر وأبين في ذاته من عموم مظاهره ومصنوعاته.

(1) قال الورتجبي: كيف يخفى على موجد الأشياء شيء وهو منشئه؛ فهذا تنبيه منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرة من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نواذر الخطرات ويطون الحركات، فإن كان خاطره بادئًا من قهره سبحانه تستر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر ويطون الخواطر.

وبعدما سمعت ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وصف ربك وحيطة علمه وقدرته، ولطافة إطلاعه وخبرته ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: داوم ميلك نحوه بجميع أركانك وجوارحك مخلصاً في ميلك ورجوعك إليه سبحانه، محرماً على نفسك جميع ما يشغلك عن ربك، مجرداً عارياً قلبك عن جميع منسوباتك ومقتضيات بشريتك ولوازم هويتك ﴿وَأْمُرْ﴾ يا بني على بني نوعك أولاً إن قصدت تكميلهم وإرشادهم إلى مقصد التوحيد ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعاً، وكلم معهم على قدر عقولهم بلا إغراء ولا إغواء، ولا تفش عليهم سر التوحيد ما لم يستحقوا لحفظه، ولم يستعدوا له قبوله ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المستهجن عقلاً وشرعاً، وعادةً ومروءةً، ونبههم على وجه القبح والهجنة، وألطف معهم في تبينها لعلهم يتفطنون بقبحها بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها في بدء الأمر.

﴿وَوَعَدُكَ﴾ بالجملة: ﴿اضْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ في تمشية سلوك التوحيد، وتقوية طريقه، وكن متحملاً على مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، وارض من ربك بجميع ما جرى عليك، وثبت لك في لوح قضائه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور؛ أي: كل واحد من الأمور المذكورة والخصائل المأمورة ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17] أي: من الأمور التي عزم الحق عليها، وأوجبها على أولي العزائم الصحيحة من خلص عباده إرشاداً لهم إلى وحدة ذاته، وزلال هدايته الصافية عن كدر الضلالات والجهالات.

وكن يا بني في تمدنك ومعاشرتك مع بني نوعك لنا هيناً، بشاشاً بساماً ﴿وَلَا تُصَغِرْ﴾ أي: لا تمل ولا تعرض ﴿خَدُّكَ﴾ أي: صفحة وجهك التي بها مواجهتك ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولا تلو عنقك عنهم كبراً وخيلاً، كما يفعل أرباب النخوة من الجهلة المستكبرين المتفوقين، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة، والعلوم الرسمية على الفقراء الضعفاء الفاقدين لها ﴿وَوَعَدُكَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَمْشِ﴾ يا بني ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي بسطت للتذلل والانكسار ﴿مَرَحًا﴾ أي: ذا فرح وسرور، مفتخراً بما عندك من الحطام الفاني ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يمشي على وجه الأرض خيلاً، بحيث يتبادر منه الكبر والنخوة في بادئ النظر ﴿فَقُحُورٍ﴾ [لقمان: 18] بما عنده من الحسب والنسب، والمال والجاه بطر بها، مباه بسببها.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾⁽¹⁾ أي: توسط يا بني في مشيك بين الإسراع المذهب بهاء المؤمن ووقاره، وبين الدبيب الموجب للعجب والخيلاء ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أيضًا، وأنقص منه ولا ترفعه وإن كان حسنًا، فإنك - يقصد رفعة صوتك مبالغًا فيها - تشبه الحمار؛ إذ هو مخصوص من بين سائر الحيوانات بترفع الصوت والمبالغة فيه، ومن بالغ في رفع صوته، فقد أشبه نفسه به، ولا شك أن صوته منكر عند جمهور العقلاء، وجميع الحيوانات أيضًا حتى إن الكلب يثأذي من صوته، ويفزع منه عند سماعه من غاية تأثيره وتألمه، وبالجمله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ وأوحشها وأقربها للأذان ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19] وكيف تشبهون أنفسكم أيها المجبولون على الشرف والكمال على أدون الحيوانات، وأذل المخلوقات، وأنزلها رتبة؟!

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 20-22].

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ولم تعلموا أيها المجبولون على الدربة والدراية ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم المتقن في عموم أفعاله ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾ وسهل عليكم تميمًا لفضلكم وكرامتكم جميع ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي علل وأسباب، وإن كانت معلولات في أنفسها ﴿وَمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات؛ أي: هي مسببات عن العلويات وقوابل لما يفيض عنها بطريق جري العادة؛ ليحصل من امتزاجها ما تعيشون بها، مترفعين متنعمين من أنواع الفواضل والنعم.

﴿و﴾ بالجمله: ﴿أَسْبَغَ﴾ أي: أكثر وأوفر سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية، والكمال الجبلي ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ تدركون بها ظواهر الآفاق من

(1) قال في التأويلات: في إظهار الدعاوي وكتمان المعاني كن فاتيًا عن شواهدك مصطلكًا عن قولك مأخوذًا عن حولك وقوتك بما استولى عليك من كشوفات شرك وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستغيق من خمار غفلتك بل من سكر إعجابك وحسانك.

المبصرات والمسموعات والملموسات، والمشمومات والمذوقات ﴿وَبَاطِنَةً﴾⁽¹⁾ تدركون بها سرائر المعلومات والمعنويات، وتنكشفون بها إلى المعارف والحقائق الفائضة على قلوبكم التي أودعها الله العليم الحكيم في بواطنكم؛ ليسع فيها وينزل عليها سلطان وحدته الذاتية السارية في ظواهر الأكوان وبواطنها الكائنة أزلاً وأبداً، مع أنه سبحانه لا يسعه في سعة السموات والأرض وإن فرض لها أضعاف وآلاف، لكنه يسع في قلب عبده العارف المؤمن الموقن، المنكشف بتوحيده وبظهور وحدته الذاتية المتجلية على صفائح ما ظهر وبطن، ومع ظهور وحدته سبحانه في ذاته واستقلاله في إظهار المظاهر الكائنة أزلاً وأبداً.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنسيان، المنهمكين في بحر العناد والطغيان ﴿مَنْ يُجَادِلْ فِي﴾ توحيد ﴿الله﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية، المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته إرادة واختياراً، ويثبت له شريكاً سواء ويعبده كعبادته، مع أن جداله ما يستند إلى سند يصلح للاستناد، بل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي

(1) قال في التأويلات: فالنعمة الظاهرة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الظاهرة من الكواكب السيارة والملائكة المقربين فتسخير الكواكب تيسيرها في البروج على الأفلاك التي دبرها لكل واحدة منها فلكتاً، وقدر لهن القربات والاتصالات وجعلهن مدبرات العالم السفلي متصرفات بالخواص والطبائع في العناصر الأربعة ولقربانتهن واتصالاتهن مقتضيات في إظهار الأمور المقدرة بتقدير العزيز العليم في عالم السفلي من الزماني مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان فظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وأعواناً لها كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر أن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر، والموكلين على الرياح والبحور والمخلوقات، والملائكة الكتاب للناس الموكلين عليهم، ومنهم المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله حتى جعل على الأرحام ملائكة، فإذا وقعت نقطة الرجل في الرحم يأخذ الملك بيده اليمنى وإذا وقعت نقطة المرأة يأخذها الملك بيده اليسرى، فإذا أمر مشجها بمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: 2]، وأما الملائكة الموكلين على الجنة والنار كلهم مسخرون لمصالح الإنسان ومنافعهم حتى الجنة والنار مسخرات لهم تطميحاً وتخويفاً لأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، والنعمة الباطنة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الباطنة وهي القلب والنفس وقد تقدم ذكر ما فيهما.

يمكن التوصل به إلى إثبات ما ادعاه بطريق النظر والاستدلال ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: كشف صريح لدني نبع من قلبه بلا افتقار إلى المقدمات والوسائل العادية التي يستتج منها المطالب ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ [لقمان: 20] أي: دليل نقلي ينور خلده، ويعدده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض، بل إنما نشأ ما ادعاه من محض التقليد والتخمين الحاصل من متابعة الوهم والخيال.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ على سبيل العظة والتذكير إمحاضاً للنصح: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم من الدين والكتاب المشتمل على أنواع الرشد والهداية، والنبى المؤيد من عنده، المبعوث إليكم؛ لهدايتكم وإصلاحكم ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ما نتبع بمفترياتكم المستحدثة التي ابتدعتها من تلقاء أنفسكم، ونسبناها إلى الله تغريزاً وترويجاً ﴿بَلْ تَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ إذ هو مستمر قديم، فنحن بأثرهم متبعون، وبدينهم راضون متخذون.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿أ﴾ يتبعون آباءهم أولئك الضالين ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل إياهم ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ وآباءهم أيضاً إلى الباطل؛ ليصرفهم عن الحق، ويوصلهم ﴿إِلَى عَذَابِ الشَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21] الذي أعد لمتابعيه، ومن يقتفي أثره ويقبل دعوته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ الذي يلي الحق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ويخلص في توجهه نحوه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُخْسِنٌ﴾ ناظر إلى الله بنوره سبحانه، مطالع بوجهه الكريم ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ وتمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾⁽¹⁾ التي لا انفصام لها، وهي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ومن تمسك بها فقد فاز بكشف حفظه وجواره، وأمن من شر الشيطان وغوائله وتضليلاته عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأسماء والصفات المترتبة لما

(1) قال الورتجبي: أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكرر بعطل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالالوهية.

قال سهل: من يخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة. وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ. وقال أيضاً: هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

في الكائنات لا إلى غيره من الوسائل والأظلال العادية ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 22] ومصيرها؟! ومن تشبث بحبل الله مخلصاً، فقد لحق بخلص أوليائه الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرِ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشُقُكُمْ إِلَّا كَفَفْيسٌ وَحِيدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ [لقمان: 23-28].

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن التشبث بحبل توفيقه، وانصرف عن الاستمسك بدلائل توحيده وشواهد استقلاله في آثاره ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كُفْرُهُ﴾ وإعراضه عنا، وعن مقتضى ألوهيتنا وربوبيتنا؛ إذ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم، كما أن منا مبدأهم ومنشأهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ﴾ ونخبرهم، ونفصل عليهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بعدما رجعوا إلينا، ونجازيهم على مقتضاها بلا فوت شيء مما صدر عنهم، وكيف لا يجازون بأعمالهم، ولا يحاسبون عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن من ذرائر الأكوان ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط حضرة علمه ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: 23] وخفيات الأمور وإن دق ولطف، لا يعزب عن حيطة علمه شيء!.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: لا يغتروا بإمهالنا وتمتعينا إياهم، وعدم التفاتنا نحوهم، وعدم انتقامنا عنهم؛ إذ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: زماناً قليلاً تسجيلاً للعذاب عليهم، وتغريزاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بعد بطشنا إياهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24] لا عذاب أغلظ منه وأشد؛ لغلظ غشاوتهم وقساوتهم.

﴿و﴾ كيف لا نأخذ أولئك المكابرين المعاندين ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ سؤال اختبار والزام: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ وأوجد العلويات، وما فيها من الكواكب والبروج وأنواع الفجاج ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ومن عليها، وما عليها مما لا يعد ولا يحصى؟ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ في الجواب مضطرين حاصرين: ﴿اللَّهُ﴾ إذ لا يسع لهم إسناد خلقهما وإيجادهما إلى غيره

سبحانه؛ لظهور الدلائل والشواهد المانعة من الاستناد إلى غيره سبحانه ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما اعترفوا بأن الموجد للعلويات والسفليات هو الله سبحانه بالأصالة والاستقلال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث اعترفتم بتوحيد الله مع أنكم اعتقدتم خلافه، فيلزمهم لقولهم هذا التوحيد الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25] لزومه، ولا يفهمون استلزامه؛ لذلك ينكرون له، ويشركون معه غيره عنادًا واستكبارًا، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكيف لا يعلمون ويفهمون مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستحق للألوهية والربوبية، وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، والممترجات سواء علموا وحدته واستقلاله في ملكه أو لم يعلموا، أو اعتقدوا بتوحيده أو لم يعتقدوا؛ إذ لا يرجع له سبحانه نفع من اعتقادهم، وضر من عدمه، بل نفع اعتقادهم وإيمانهم إنما يرجع إليهم، وضر كفرهم وشركهم أيضاً كذلك؛ إذ هو سبحانه منزّه عنهما جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستغني عن جميع ما ظهر وبطن ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المقصور على الغنى الذاتي ﴿الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 26] بمقتضى أوصافه الذاتية، وأسمائه الحسنى التي بها ظهر ما ظهر وما بطن سواء نطقت بحمده السنة مظاهره وأظلاله أو لم تنطق؛ إذ هو في ذاته متعالٍ عن النقص والاستكمال، واستجلاب النفع والإجلال مطلقاً.

ثم لما أمر اليهود وفد قريش بأن يسألوا رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْثَقُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] كيف قال سبحانه هذا مع أننا قد أنزل إلينا التوراة، وفيها علم كل شيء ظاهراً وباطناً؟ ردّ الله عليهم حصرهم علم الحق بالتوراة، بل بجميع الكتب والصحف المنزلة على عموم الرسل وقاطبة الأنبياء؛ إذ كل ما دخل في حيلة الإنزال والإتيان متناه، وحضرة علمه سبحانه في نفسه غير متناه، ولا نسبة بين المتناه وغير المتناه، بل علمه سبحانه بالنسبة إلى معلوم ومقدور واحد باعتبار شئونه وتطوراته غير متناه، فكيف بعموم المعلومات والمقدورات؟

فقال سبحانه على مقتضى استعداد من على الأرض وقابليتهم وقدر عقولهم، ميّناً عن عدم نهاية حضرة علمه منها لها: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي: كل ما لها ساق من هذا الجنس ﴿أَقْلَامٌ وَابْتِخِرَ﴾ أي: المحيط الذي هو كرة الماء الكائن حول الأرض ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي: يصير مداداً لها وحبّاً لثبتها ومدّها، بل

يفرض أيضًا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد نفاذ البحر المحيط ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مثلاً محيطات كذلك تشيعه وتمد مده، فكتب بهذه الأقلام والمداد على الدوام كلمات الله العليّ العلامة ﴿مَا نَفَذْتُ﴾ وتمت ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ وتنفذ المدد والأقلام المذكورة، بل إن فرض أمثالها وأضعافها وآلافها؛ إذ الأمور الغير متناهية لا تقدر بمقدار المتناه، ولا يكال بمكيال مقدر، وكيف يكال ويقدر علمه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على كل ما جرى في حضرة علمه، مع أنه لا نهاية لمعلوماته ﴿حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27] لا ينتهي حكمته وقدرته بالنسبة إلى مقدور دون مقدور، بل له التصرف في كل واحدة من مقدوراته ومراداته إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبداً؛ إذ لا يكتنه طور علمه وخبرته، وحكمته وقدرته مطلقاً^{١٩}.

ومن جملة مقدوراته الصادرة منه سبحانه على مقتضى حكمته إرادة واختياراً: خلقكم وإيجادكم أولاً على سبيل الإبداع بمقتضى اللطف والجمال، وإعدامكم ثانياً على مقتضى القهر والجلال، وإعادتكم وبعثكم ثالثاً إظهاراً للحكم المودعة فيه هوياتكم وأشباحكم، والمصلحة المندرجة في إيجادكم وإظهاركم.

والمحجوبون المقيدون بسلاسل الأزمان والساعات يتوهمون بين الأطوار الثلاثة والنشأة المتعاقبة أمداً بعيداً وأزمنة متطاولة، وهي عند الله بعدما تعلق إرادته ونفذ قضاؤه، وصدر عنه الأمر بقوله: كن، فيكون الكل بلا تراخ ومهلة في أقصر مدة وآن؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر أفعاله زمان ومكان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿مَا خَلَقُكُمْ﴾ وإظهاركم في فضاء الوجود في النشأة الأولى ﴿وَلَا بَعَثُكُمْ﴾ وحشركم في

(1) أي: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار يصير مداذاً، وبمقدار ما يقبله ينفق القرطاس ويتكلف الكتاب حتى تنكسر الأقلام وتنفى البحار وتستوفى القراطيس ويفنى عمر الكتاب ما نفذت معاني كلام الله؛ لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية ومعاني كلامه لا تنهاى لأنها قديمة والمحصور لا يبقى بما لا حصر له، والإشارة فيه أن الله سبحانه إذا تجلى عبد بصفة المتكلم يفتح الباب على قلبه فمن عالم غير متناه فيشار إليه ما نفذت معاني ما لنا معك من الكلام، والذي يسمعك مما يخاطبك به بحسب الوقت ومقتضى الحال، وما يبتنا من المعاتبات والمعاشقات سرّاً بسر وإضماراً بإضمار لا يطويه الزمان ولا يحويه الزمان ولا يحويه المكان، فإنه منطق المحبة من الحبيب الأزلي إلى الحبيب الأبدى فما لنا معك أزلي أبدي غير متناه وما لك معنا فهو أبدي بغير أزلي ﴿مَا جِئْتُكُمْ بِتَفْذُ وَمَا جِئْتُكُمْ بِتَفْذُ﴾ [النحل: 96] إن الله عزيز لعزته لا يتلكم إلا مع الأعزة حكيم لحكمته. [التأويلات].

النشأة الأخرى بعدما انقرضتم عن الأولى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: إيجادكم جملة أولاً، وبعثكم ثانياً كذلك في جنب قدرتنا وإرادتنا كإيجاد نفس واحدة بلا تفاوت؛ إذ متى صدر عنا قولنا: كن، إشارة منا إلى خلقكم وبعثكم جملة، فيكون الكل في الحال ككون نفس واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر ما ظهر وبطن ﴿سَمِيعٌ﴾ لعموم ما صدر عن السنة استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28] بما لاح عليهم من إشراق نور الوجود.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢) [لقمان: 29-32].

وكيف لا يطلع سبحانه لجميع الكوائن والفواصد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المتأمل المتدبر ﴿أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ ويطلبه بها في الربيع تميماً لتربيتكم وأرزاقكم وأقواتكم ﴿وَيُوَلِّجُ﴾ أيضاً في الخريف ﴿النَّهَارَ﴾ أي: أجزاءه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ ويطلبه بها تقوية وتعميراً للأرض؛ لتربية ما حدث منها ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصلحة معاشكم وتربية نفوسكم إلى حيث ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ ويدور بأمره، ويتم دورته بحكمه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عينه الله سبحانه، وصماه من عنده على مقتضى حكمته تربية لعباده، وتقويماً لأمرجتهم؛ ليشغلوا على ما جُبلوا لأجله ﴿وَوَ﴾ اعلّموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب عليكم في جميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما صدر عنكم من الأعمال والأفعال ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29] لا يعزب عن خبرته ذرة من ذرائر ما لمع عليه نور الوجود.

وإنما ظهر منه سبحانه كل ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على فطرة الدراية والعرفان، والمترصّد لانكشاف سرائر التوحيد والإيقان من بدائع القدرة

والألوهية، وعجائب العلم والإرادة، وغرائب الشئون والأطوار اللامعة من لوائح لوامع شروق شمس الذات؛ ليدل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الأنفس والآفاق بالأصالة والاستحقاق الوجود ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المثبت أزلاً وأبداً، القيوم المطلق، الدائم الباقي وبلا انقضاء ولا انصرام.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ويدعون الوجود له من العكوس والأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿الْبَاطِلُ﴾ المقصور، المنحصر على العدم والبطلان، المستهلك في مضيق الإمكان بأنواع الخذلان والحرمان ﴿وَو﴾ بالجملة: اعلموا أيها المتأملون في آثار الوجود الإلهي المتحقق بوحدة ذاته، وكثرة شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستحق لأنواع التذلل والعبودية ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته لا بالإضافة إلى غيره؛ إذ لا غير معه ﴿الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: 30] في شئونه وتطوراته حسب تجلياته الجمالية والجلالية، واللطيفة والقهرية.

وكيف لا يستقل سبحانه بتصرفات ملكه وملكوته؟! ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبصر ﴿أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ حاملة ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ المنعم المفضل عليكم بمقتضى لطفه وسعة جوده ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده؛ لتتفطنوا منها إلى وحدة ذاته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإجراء والإمداد بالرياح المعينة لجريها، والحفظ من الفرق والهلاك ﴿لَايَاتٍ﴾ دلائل قاطعة، وشواهد ساطعات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ صبر على متاعب ما جرى عليه من القضاء ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31] لما وصل إليهم من الآلاء والنعماء.

﴿وَو﴾ من كمال صبرهم وشكرهم ﴿إِذَا غَشِيَهُمْ﴾ وغطاهم ﴿مَوْجٌ﴾ عظيم، واستعلى مغلقاً عليهم ﴿كَالظُّلُمِ﴾ المغطية إياهم من الجبال والسحب ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنجي لهم عن أمثاله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ منحصرين التوجه والانقياد إليه بلا ميل منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، متضرعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البين على ما هو مقتضى التوحيد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ سبحانه بفضلته من أهوال البحر ومضيقه، وأوصلهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وسعة فضائه سالمين غانمين ﴿فَعِنَهُمْ﴾ حيثنذ ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ أي: معتدل في قصده نحو الحق، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، ومنهم مائل عن الاعتدال، منحرف عنه، ساع إلى تحصيله ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿مَا يَخْجَدُ﴾ منهم، وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار ناقض للعهد الفطري، والميثاق الجبلي ﴿كَفُورٍ﴾

[لقمان: 32] للآلاء والنعماء المترادفة المتواليه.

﴿يَكَايِهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: 33-34].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان، المشغولون عن البغي والعدوان ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ الذي أظهركم من كنتم العدم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، واحذروا عن بطشه وانتقامه، فإن بطشه شديد، وعذابه لعصاة عباده أليم مزيد ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ وأي يوم يوماً ﴿لَا يَجْزِي﴾ أي: لا يقضي ولا يسقط ولا يحمل ﴿وَالِدٌ﴾ مع كمال عطفه ورأفته ﴿عَنْ﴾ وذر ﴿وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ بل كل نفس حينئذ رهينة ما كسبت، ضمانة ما اكتسبت بمقتضى ما وعد الله لها وكتب، وبالجمله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب في إنجازه، ولا خلف في وقوعه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أيها المجبولون على الغفلة والغرور ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بتغريراتها وتليساتها من مالها وجاهها، ولذاتها الفانية الغير القارة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ عفوه وغفرانه، وسعة رحمته وجوده ﴿الْغُرُورُ﴾ [لقمان: 33] أي: الشيطان المبالغ في الغرور والتغريب بأن يجبركم على المعاصي اتكالا على عفوا الله وغفرانه.

ثم لما أتى الحرث بن عمرو رسول الله ﷺ فقال: متى تقوم الساعة، وأني قد ألقيت بذرا على الأرض فمتى تمطر السماء، وامراتي ذات حمل حملها ذكر أم أنثى، وما أعمل غدا، وأين أموت؟

فتزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل باطلاع الغيوب ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وقت قيامها، ولم يطلع أحدا عليها سوى أنه سبحانه أخبر بوقوعها وقيامها في جميع الكتب المنزلة من عنده على رسله ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ أيضا هو ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ولم يطلع أحدا بوقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضا سبحانه ﴿مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ولم يطلع أحدا عليه ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ أيضا ﴿مَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿غَدًا﴾ وإن تدبرت وتدبرت، ويدلت جهدها وسعيها لا تفوز إلى دراية أحوال غدها، بل هو أيضا من جملة المغيبات

التي أحاط بها علمه سبحانه بلا اطلاع أحد عليها ﴿وَمَا تَذَرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٍ﴾ أيضاً، وإن بالغت في السعي وبذل الجهد والطاقة ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾⁽¹⁾ بل هو أيضاً من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، وبالجمله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالالوهية والربوبية، المستجمع لجميع أوصاف الكمال ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرة ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34] لا يخرج عن حيطة خبرته طرفه، وإن كان لا يكتنه علمه وخبرته، والله أعلم بحقائق أسمائه وصفاته، ودقائق معلوماته، ورقائق آثاره ومصنوعاته المترتبة عليها.

ربنا زدنا بفضلك وجودك علماً تنجينا عن الجهل بك وبأسمائك وأوصافك،
إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام التوحيد، والمتمكن في مقعد الصدق، خالياً عن إمارة التخمين والتقليد ألا تتأمل ولا تمنى في نفسك حصول ما لا يسع في وسعك وطاقتك من الأمور التي ليست في استعدادك وقابليتك حصولها وانكشافها دونك؛ إذ الإنسان وإن سعى، وبذل جهده في طريق العرفان بعدما وفقه الحق وجذبه نحوه لا يبلغ إلا إلى التخلق بأخلاقه الله والفناء في ذاته، منخلعاً عن لوازم ناسوته بقدر ما يتمكن له، ويسع في قابليته واستعداده.

وأما الاطلاع على جميع معلوماته سبحانه، والانكشاف بالمغيبات التي استأثر

(1) أي أين تموت؟ وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها، روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل: من هذا؟ فقال له: ملك الموت، قال: كأنه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك، وجعل العلم لله والدارية للعبيد لما في الدارية من معنى الختل والحيلة، والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ماعدهما أبعد وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً على أنه مجرد الظن والظن غير العلم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «مفاتيح الغيب خمس» وتلا هذه الآية. [تفسير النسفي (3/ 114)].

الله به في غيب ذاته فأمر لا يحوم حوله إدراك أحد من الأنبياء والرسل، والكامل من أرباب الولاء والمحبة الخالصة، بل لا يتفوه به أحد من خلص عباده أصلاً؛ إذ هو خارج عن استعداداتهم مطلقاً، وما المعجزات والكرامات الخارقة للعادة الصادرة عن خواص عباد الله من الأنبياء والأولياء، فما صدرت أيضاً منهم هذه الأمور إلا بإطلاع الله إياهم، وتوفيقهم عليها، وهم مجبورون مضطرون في ظهور أمثال تلك الكرامات عنهم، مع أن بعض أرباب المحبة والولاء الوالهيين بمطالعة جمال الله وجلاله تحزنوا، وتغمموا عند ظهور أمثال هذه الخوارق منهم؛ لمنافاتها بصرافة استغراقهم، كما تشاهد من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على معارف أهل الإيمان والعرفان.

وبالجملة: لا بد أن يكون الموحد متمسكاً بحبل الرضا والتسليم بما جرى عليه من صولجان القضاء بلا تطلب منه وترقب له.

جعلنا الله ممن تمكن بمقام الرضا، ورضي بجميع ما أثبت له الحق في لوح القضاء.

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة السجدة

لا يخفى على أهل العناية الموفقين من عند الله باستكشاف ما في طي كتابه من المعارف والحقائق المتعلقة بسرائر التوحيد، والمسترشدين منه بقدر ما يشر الله من الأخلاق الإلهية المودعة فيه أن أمثال هذه الأسرار والرموز والإشارات المندرجة في هذا الكتاب لا يليق إلا بجناب الحكيم الوهاب، المطلع على سرائر ما ظهر وبطن من آثار الوجود غيبًا وشهادة، دنيًا وعقبى؛ إذ لا يسع لبشر أن يتفوه بهذه الحكم والأحكام على هذا النهج والنظام الأبلغ الأكمل، وليس في طاقتهم واستعدادهم الوقوف على المغيبات التي تخصص بها سبحانه، والإحاطة بالأمور التي تعلقت بالنشأتين، وترتب عن المنزلتين.

ومن له أدنى درية بأساليب الكلام، ودراية في اتساقه وانتظامه، وترتيب ألفاظه وكمالاته، وتطبيق معانيه، وترصيف فحوايه ومبانيه جزم أنه خارج عن طرق البشر ومعلوماتهم؛ إذ لا مناسبة لعقولهم به.

ثم لما بلغ المرتابون في قدحه وطعنه، ونسبته إلى الاختلاق والافتراء مجادلةً ومراءً، رد الله سبحانه عليهم على أبلغ وجه وأكده مخاطبًا لحبيبه ﷺ متيمًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل على عبده الكتاب؛ ليعين لهم طريق الصدق والصواب في سلوك سبيل التوحيد والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال الرسول الهادي إلى دار السلام وطريق الجنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم فيها إلى لقاء الرحمن.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ
دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي

يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ مَسْنُوٍ مَّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ [السجدة: 1-5].

﴿الم﴾ [السجدة: 1] أيها الإنسان الأكمل الأعلم للوازم لوازم أنوار الوجود اللائح على صنحات وجود الأكوان بمقتضى الجود، الملاحظ المطالع لها بتوفيق الله الملك الودود.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، المبيّن لأحكام دين الإسلام، المنزل عليك يا أكمل الرسل؛ لتأييدك وترويج دينك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنه نازل من الله الجامع لجميع الأسماء والصفات، كما أن مرتبتك جامعة لجميع مراتب أهل العلم، وأنت مبعوث إلى كافة الأمم؛ ولذا صار كتابك نازلاً ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾ [السجدة: 2] يشكّون ويترددون في نزوله من عنده سبحانه أولئك الطاعنون الضالون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله افتراء ومراء، تفريراً وتليساً، لا تحزن يا أكمل الرسل عليهم، ولا تلتفت إلى قولهم هذا ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المحقق، المثبت نزوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرم، واصطفاك من بين البرايا لرسالته العامة، أنزله إليك مشتملاً على الإنذارات الشديدة، والتخويفات البليغة ﴿لِنُنْذِرَ﴾ بوعيداته ﴿قَوْمًا﴾ انقطع عنهم آثار النبوة والرسالة؛ لبعد العهد أو ﴿مَا أَتَاهُمْ﴾ بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أنذرهم عن الباطل وأرشدهم إلى طريق الحق ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ بل هم على فترة من الرسل فأرسلك إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: 3] بهدایتك وإرشادك إلى توحيد الحق، واتصافه بأوصاف الكمال.

وكيف لا يوحدون ولا يؤمنون بتوحيده وأسمائه وصفاته ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد بقدرته الكاملة ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الممتزجات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وساعات

(1) قال في التأويلات: إذا تعذر لقاء الأحباب فأعز الأشياء على الأحباب كتاب الأحباب أنزل رب العالمين إلى أهل العالمين كتاباً في الظاهر ليقرأ على أهل الظاهر فينذر به أهل الغفلة. ويشر أهل الخدمة، وكتاباً في الباطن على أهل الباطن لتتور بأنواره بواطنهم وتزين بأسراره سرائرهم فينذر له أهل القرية لئلا يلتفتوا إلى غيره ولا يستأنسوا بغيره، فتسقطهم الغيرة عن القرية ويشر به أهل المحبة بالوفاء بوعد الرؤية وباللقاء على بساط الوصلة وبالبقاء بعد الفناء في الوحدة فيتكلموا بالحق عن الحق للحق، فإذا سمع أهل الباطل كلامهم في الحقائق من ربهم وأنكر عليهم أهل الغفلة أنه من الله.

منبسطة في الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم التمهيد والبسط ﴿اِسْتَوَى﴾ واستولى، وتمكن سبحانه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: انبسط على عروش عموم ما ظهر وبطن من الآفاق والأنفس بالاستقلال التام، والتصرف العام على صرافة وحدته الذاتية بلا شائبة شركة وطرق كثرة؛ لذلك ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الأظلال المنعكسة من شمس ذاته ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ يولي أموركم ويتصرف فيكم ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾ ينصركم، ويعاون عليكم سواء سبحانه ﴿أَمْ﴾ تشكّون وتترددون في توحيدهِ وولايته سبحانه أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: 4] وتتعضون بمواعظه وتذكيراته مع أنه كررها مرارًا.

وكيف لا هو الذي ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: عالم الأمر المنبئ عن الإيجاد والإظهار بإنزال الملائكة الذين هم مظاهر أوصافه وأسمائه ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المتعالية عن الأقطار والجهات مطلقًا ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لقبول آثارها، وإنما أنزلهم وأهبطهم إليها؛ ليعد حسب حكمته المظاهر والمصنوعات؛ لقبول فيضان سلطان توحيدهِ ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم على الوجه الأبدع، والنظام الأتم الأبلغ ﴿يُغْرِجُ﴾ ويصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ما يترتب على عالم الأمر من المعارف والحقائق، والأسرار الكامنة في سريان الوحدة الذاتية بعد انقراض النشأة الأولى ﴿فِي يَوْمٍ﴾ معد لعروجه وصعوده ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ أي: مقدار ذلك اليوم في الطول والامتداد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5] في هذه النشأة من الأيام والأعوام.

﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُمْ مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ٨ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ٩ ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ١٠ ﴿قُلْ يَتُوبَ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ١١ [السجدة: 6-11].

ولأنما دبر سبحانه ما دبر من المعارف والحقائق المترتبة على الإيجاد والإظهار، وقدر للعروج والصعود ما قدر لحكم ومصالح استأثر بها سبحانه في غيبه، ولم يطلع أحدًا عليها؛ إذ ﴿ذَلِكَ﴾ الذات البعيدة ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله إدراك أحد

من مظاهره ومصنوعاته ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الذي لم يتعلق به علم أحد سواه ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ المنعكسة منه حسب تجلياته الجمالية والجلالية ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيلة حضرة علمه بأن يتصرف فيه كيف يشاء إرادة واختياراً ﴿الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 6].

﴿الَّذِي﴾ وسعت رحمته كلما لاحت عليه بروق تجلياته؛ لذلك ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: قدر وجوده بعدما دخل في حيلة علمه، وقدرته وإرادته ﴿وَبَدَأَ﴾ من بينهم ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم، وقدر وجوده أولاً ﴿مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7] إذ هو أصل في عالم الطبيعة، قابل لفيضان آثار الفاعل المختار، مستعداً لها استعداداً أصلياً، وقابلية ذاتية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعلق إرادته سبحانه بإبقاء نوعه ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: قدر بصنعه وجود ذرياته المتناسلة المتكثرة، المتخلقة منه على سبيل التعاقب والترادف ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ فضلة منفصلة مني، كائنة ﴿مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ [السجدة: 8] ممتن مسترذل مستقذر؛ لخروجه عن مجرى الفضلة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما قدر خلقه أولاً من الطين، وثانياً من الماء المهين ﴿سَوَّاهُ﴾ سبحانه إظهاراً لقدرته؛ أي: قَوْمٌ وعدل أركانه على أحسن التقويم ﴿وَوَّ﴾ بعد تسويته وتعديله ﴿نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾⁽¹⁾ المضافة إلى ذاته المستجمع لجميع أوصافه وأسمائه تميماً لرتبة خلافته ونيابته، واستحقاقه لمرآتية الحق، قابليته انعكاس شئونه وتطوراته ولياقته؛ للتخلق بأخلاقه ﴿وَوَّ﴾ بالجملة: ﴿جَعَلَ﴾ وهياً ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿الشَّمْعَ﴾ لتسمعوا بها آيات التوحيد، ودلائل اليقين والعرفان ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ ليشاهدوا بها آثار القدرة والإرادة الكاملة المحيطة بذرات الأكوان ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ المودعة فيكم؛ لتأملوا بها سريان الوحدة الذاتية على هياكل الأشباح الكائنة والفاسدة، وتفكروا بها في آلاء الله ونعمائه المتوالية المتوافرة، ومع وفور تلك النعم العظام، والفواضل الجسام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9] وتصرفونها إلى ما مقتضياتها التي جبلها الحق لأجلها.

(1) أضافه إلى نفسه، تشریفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية؛ ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. البحر المديد (51/5).

﴿و﴾ من غاية كفرانهم بنعم الله، ونهاية عمهم وسكرتهم فيه: ﴿قَالُوا﴾ أي: أبي بن خلف ومن معه من المنافقين بعدما سمعوا من البعث والحشر، ويوم العرض والجزاء مستبعدين مستفهمين، مكررين على سبيل المبالغة في الإنكار: ﴿أَنذَا ضَلَلْنَا﴾ واضمحلتنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وصرنا من جملة الهباء المنبثة، المتلاشية المتناصلة التي لا تمايز فيها أصلاً ﴿أَيُّهَا﴾ بعدما كنا كذلك أيها العقلاء المجبولون على الدراية والشعور ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مثلما كنا عليها قبل موتنا؟! كلا وحاشا، ما لنا عود إلى الحياة الدنيا، سيما بعدما متنا وصرنا تراباً وعظاماً، وهم أيضاً ما يقتصرون من شيء بمجرد قولهم هذا ﴿بَلْ هُمْ﴾ من غلظ غشاوتهم وغطائهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم في النشأة الأولى، وأفاض عليهم سجال اللطف والكرم في النشأة الأخرى، وقبض ملك الموت أرواحهم بأمر الله إياه ﴿كَافِرُونَ﴾ [السجدة: 10] منكرون جاحدون.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيايةً عنا بعدما سمعت قولهم: ﴿يَتَوَفَّكُم﴾ ويستوفي أجلكم أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بإذن الله؛ لقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قبضتم في النشأة الأولى، وبعثتم من قبوركم أحياء في النشأة الأخرى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11] للعرض والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 12-14].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها المعتبر الرائي يومئذ بعدما بعث الخلائق، وعرضوا على ربهم حيارى سكارى، تائهين هائمين ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ المنكرون بالبعث والنشور، والعرض والجزاء وشرف اللقاء حينئذ ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من غاية الخجالة والحياء، قائلين من نهاية اضطرابهم واضطرابهم، مناجين معه سبحانه: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامة فكفرناك، وأرسلت لنا رسلاً فكذبناهم عناداً، وأنكرنا عليهم وعلى دعوتهم مكابرة، فاليوم ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما هو الحق المطابق للواقع ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك حقاً صدق

رسلك، وجميع ما جاءوا به من عندك ﴿فَارْجِعْنَا﴾ بفضلِكَ ولطفِكَ إلى الدنيا مرة بعد أخرى ﴿تَعْمَلْ﴾ فيها ﴿صَالِحًا﴾ مرضيًا عندك، مقبولاً على مقتضى ما أبصرتنا وأسمعتنا الآن ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12] اليوم بجميع ما جاء به رسلك، ونطق به كتابك.

لو رأيت حالهم هذا، وسمعت مناجاتهم هذه حينئذٍ لرأيت أمرًا فظيماً فجيئاً، ثم نودوا من وراء سرادقات العز والجلال: الآن قد مضى وقت الاختبار والابتلاء، وانقضى زمان التدارك والتلافي ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق إرادتنا بهدائيتكم أولاً ﴿لَاتَيْنَا﴾ في دار الابتلاء ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ منكم ﴿هَدَاهَا﴾ ووفقكم عليها كما آتينا لخلص عبادنا، ويسرنا لهم الهداية والرشاد ﴿وَلَكِنْ حَقَّ﴾ أي: صَحَّ وثبت ﴿الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿مِنْهُ﴾ على مقتضى حكمتي ومصلحتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بمقتضى عزتي وجلالي ﴿جَهَنَّمَ﴾ المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ التي هي جنود إبليس ﴿وَالنَّاسِ﴾ الناسين مقتضى العهود الفطرية، والمواثيق الجبلية بتغريرات شياطين نفوسهم الأثارة بالسوء ﴿أَجْمَعِينَ﴾⁽¹⁾ [السجدة: 13] وما يبدل القول لدي، ولا معقب لحكمي.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي: قلنا لهم بعدما لم نستجب دعوتهم: ذوقوا اليوم أيها الضالون المسرفون ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي: بسبب نسيانكم ﴿إِلْقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مع أن الرسل بالغوا بإخباره إياكم، والكتب نطقت بتبيينه عليكم على أبلغ وجه وآكده، وأنتم أصررتم على الإنكار غافلين ناسين مكابرين ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ اليوم في أنواع العذاب، كما نسيتم أنتم إيانا فيما مضى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: المخلد المؤبد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 14] من الكفران الدائم، والنسيان المستمر في النشأة الأولى، أعاذنا الله وعموم عباده من ذلك.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

(1) ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم كما تعلقت بإدناء قوم، وإدناء أن يكون للنار قطان كما أردنا أن يكون للجنة سكان إظهاراً لصفات لطفنا وصفات قهرنا؛ لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني لفعال لما أريد. [التاويلات].

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ [السجدة: 15 - 18].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ ويدعن ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا الموحدون المختبون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: بالآيات تبشيرا وإنذارا ﴿خَرُّوا﴾ وسقطوا ﴿سُجَّدًا﴾⁽¹⁾ مستقبلين مبادرين لقبولها، وامثال ما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والتذكيرات الواردة في فحوايها ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿سَبَّحُوا﴾ ونزهوا ربهم عما لا يليق بجناب قدسه، قائلين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عادين نعمه على أنفسهم، مواظبين على شكرها، خاضعين خاشعين أذلاء، واضعين جباههم على تراب المذلة تواضعا وإسقاطا للكبر والخيلاء المذمومين عقلا وشرعا ﴿وَهُمْ﴾ حيث ﴿لَّا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15] عن عبادة الله، وعن الانقياد بأوامره وأحكامه الواردة في كتابه.

ومن كمال إطاعتهم وانقيادهم: ﴿تَتَجَافَى﴾ أي: تتنحى وترتفع ﴿جُنُوبَهُمْ﴾ وضلوعهم ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: البسط والوسائد التي رقدوا عليها في الليل؛ يعني: بعدوا عن مواضع رقادهم واستراحتهم في خلال الليالي ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من بطشه وخشيته ﴿وَطَمَعًا﴾ لمرضاته وعموم رحمته، وسعة جوده ومغفرته ﴿وَوَ﴾ هم لا يقتصرون على قيام الليل للتهجد، بل ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا نحوهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 16] في سبيلنا على الطالبين المتوجهين إلينا، منقطعين عن لذائذ الدنيا ومزخرفاتها، سوى سدّ جوعة وستر عورة، وهم بارتكاب هذه المتاعب والمشاق ما يريدون إلا وجه الله، وما يطلبون إلا رضاه سبحانه، مؤثرين رضاه الله على أنفسهم، مخلصين فيه.

بحيث ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾ ولا تغيب ﴿نَفْسٌ﴾ منهم ﴿مَّا أُخْفِيَ﴾ وأعد ﴿لَهُمْ﴾ من قبل الحق ﴿مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ هي فوزهم بشرف لقائه برؤية وجهه الكريم، وإنما أعد لهم

(1) قال الورتجبي: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبا له وشوقا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الوالهيّن من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته. قال القاسم: إذا وعظوا بها خرّوا سجّدا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا اسمه.

سبحانه ما أعد لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17] على وجه الإخلاص من إشارهم جانب الحق على أنفسهم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: اتظنون أيها الظانون المسرفون، والجاحدون المنكرون أن من كان مؤمناً موقناً بوحداية الله، متصفاً بالأعمال الصالحة المؤيدة لإيمانه، كمن كان فاسقاً خارجاً عن رتبة الإيمان والإخلاص، وحدود الشرائع الواردة لحفظه؟! كلا وحاشا، إنهم ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: 18] في الشرف والكمال، والفوز والنوال.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُقُوا عَذَابَ
النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ
الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة: 19-21].

بل ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بوحداية الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم على وجهها، مع كونهم مخلصين فيها، خاضعين خاضعين ﴿فَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بعدما انقضىوا عن دار الدنيا ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: المتزهات المعدة لأهل الإيمان والقبول تأوي إليها نفوسهم على الرغبة الكاملة والطوع التام؛ ليكون ﴿نُزُلًا﴾ لهم؛ أي: منزلاً يسكنون فيه، ويستريحون فيها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 19] أي: بمقابلة ما يرتكبون من حمل المتاعب والمشاق في طريق الطاعات والعبادات.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: تركوا الإيمان بالله، وخرجوا عن مقتضى الأوامر والنواهي الموردة في كتبه وعلى السنة رسله ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: مرجعهم ومشواهم في النشأة الأخرى ﴿النَّارُ﴾ المعدة لأهل الشقاوة الأزلية، هم فيها خالدون مخلدون، مؤبدون لا نجاة لهم أصلاً، بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا﴾ وأملوا ﴿أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أمهلهم الخزنة إلى أن يصلوا إلى شفيرها، ثم بعد ذلك ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾⁽¹⁾ زجراً وقهراً تاماً

(1) لأنهم في هذه الصفة عاشوا وفيها ماتوا فعليها حشروا وذلك أن دعاة الحق كانوا في الدنيا ينصحون لهم أن يخرجوا من أسفل الطبيعة بحبل الشريعة ورعاية أدب الطريقة حملهم الشوق الروحاني على التوجه إلى الوطن الأصلي العلوي، فلما عزموا على الخروج من الدركات

مهانين صاغرين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: الزبانية الموكلون عليهم بإلهام الله إياهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنكرون المصرون ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20] حين أخبركم الرسل والكتب، وأنذروكم به.

ثم أشار سبحانه إلى رداءة فطنة أصحاب الضلال، وخبث طيبتهم فقال على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ ونصبت عليهم في دار الابتلاء ﴿مِنْ﴾ العَذَابِ الْأَذْنَى﴾ الأنزل الأسهل من القحط والطاعون والوباء، والقتل والسبي والزلزلة، وأنواع المحن والبليات التي هي أدنى وأسهل بمراحل ﴿ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: عند عذاب الآخرة الذي هو في غاية الشدة، ونهاية الألم والفظاعة، وإنما أخذناهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21] مما هم عليه من الكفر والشقاق، ويتفطنون منها إلى كمال قدرتنا واقتدارنا على أضعافها وآلافها، ومع ذلك لم يتفطنوا ولم يرجعوا عن غيهم وضلالهم، بل أصرروا واستكبروا عدواناً وظلماً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (٢٢)
وَلَقَدْ مَآئِنَا مُوسَى الْكَتَبَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: 22-25].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله، وأسوأ أدباً معه سبحانه ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ﴾ ووعظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليهتدي بها إلى الإيمان والتوحيد، ويمثل بمقتضاها؛ ليتخلص عن الكفر والشرك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعها ﴿أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فجأة بلا تفكر وتأمل في معناها، وأنكر على مقتضاها، واستكبر على ما أنزل الله إليه، فكذبه ونسب إليه ما لا يليق بشأنه، وأصر على ما هو عليه عناداً ومكابرة ﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22] أي: قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: إِنَّا منتقمون منهم على أبلغ وجه وأشدّه من عموم المجرمين الظالمين، فكيف من هو أجرم وأظلم منهم، وأصر على البغي والعناد؟! فننتقم عنهم، ونخلدهم في عذاب النار؛

إذ لا عذاب أسوأ منه وأشد، أعاذنا الله وجميع عباده منها.

﴿وَلَا تَظُنُّ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ أَنَّا لَمْ نَنْجِزْ وَعْدَنَا الَّذِي وَعَدْنَا مَعَكَ فِي كِتَابِكَ مِنْ أَنَّا نَنْتَقِمُ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ وَآكِدِهِ، بَلْ لَكَ أَنْ تَتَيَقَّنَ وَتَدْعُنَا بِإِنْجَازِ وَعْدِنَا إِيَّاكَ، مِثْلَمَا أَنْجَزْنَا مَوَاعِيدَنَا مَعَ أَخِيكَ مُوسَى الْكَلِيمِ؛ إِذْ ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ مَقَامِ جُودِنَا أَخَاكَ ﴿مُوسَى الْكِتَابِ﴾ أَي: التَّوْرَةَ مِثْلَمَا آتَيْنَاكَ الْفُرْقَانَ، وَوَعَدْنَا فِيهِ مَعَهُ مِثْلَمَا وَعَدْنَا مَعَكَ فِي كِتَابِكَ هَذَا مِنْ انتِقَامِ أَهْلِ الْفُسَادِ وَالْعِنَادِ، بَلْ وَعَدْنَا هَذَا الْوَعْدَ مَعَ كُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ وَالصَّحْفَ ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ أَنْتِ أَيْضًا يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ ﴿فِي مِزْيَةٍ﴾ أَي: شُكٍّ وَارْتِيَابٍ ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ أَي: بِإِنْجَازِ هَذَا الْمَوْعُودِ وَإِتْيَانِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ فِي التَّوْرَةِ ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ أَي: كَيْفَ تَرْتَابُ فِي وَعْدِنَا هَذَا مَعَ أَنَّا قَدْ ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: التَّوْرَةَ ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: 23] يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى الْمَعَالِمِ الدِّينِيَّةِ، وَالْمَعَارِفِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْحَقَائِقِ الْعَلِيَّةِ، وَالْمَكْتَشَفَاتِ السَّيِّئَةِ ١٩.

﴿وَلَا تَكُنْ﴾ كَيْفَ لَا وَهَمٌ مِنْ خَوَاصِّ عِبَادِنَا وَخُلَصِهِمْ؛ إِذْ قَدْ ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أَمْنَاءَ هَادُونَ، مُهْدِيُونَ مُقْتَدُونَ ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ وَوَحِينَا إِيَّاهُمْ، وَإِلَهَامَنَا إِلَيْهِمْ إِلَى دِينِنَا وَتَوْحِيدِنَا، وَإِنَّمَا أَعْطَيْنَاهُمْ مَا أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أَي: حِينَ وَطَّنُوا نَفُوسَهُمْ عَلَى تَحْمِيلِ مَا لِحَقِّهِمْ فِي إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَإِفْشَاءِ أَعْلَامِ الدِّينِ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَكْرُوهَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى إِتْلَافِ النَّفْسِ، وَبِذَلِّ الْمَهْجِ وَأَنْوَاعِ الْمَصِيبَاتِ ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ هُمْ ﴿كَانُوا﴾ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ النَّازِلَةِ إِيَّاهُمْ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا، الْوَارِدَةِ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَرَدْنَاهُ ﴿يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24] يَدْعُونَ، لَا يَتَرَدَّدُونَ فِيهَا وَلَا يَتَذَبَذَبُونَ، وَأَنْتِ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ أَوْلَى وَأَحَقُّ مِنْهُمْ بِإِيقَانِ آيَاتِنَا وَإِذْعَانِهَا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الَّذِي رَبَّكَ بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَاتِ، وَأَيْدِكَ بِأَصْنَافِ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ ﴿هُوَ﴾ بِذَاتِهِ وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ الْمُتَقَنَّةِ، وَأَحْكَامِهِ الْمُبْرَمَةِ ﴿يَفْصِلُ﴾ وَيَقْضِي ﴿يَتَنَّهُمْ﴾^(١)

(١) قَالَ نَجْمُ الدِّينِ كَبْرِي: يَشِيرُ إِلَى أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ لَوْجُوهَ:

أَوَّلُهَا: لِعَزَّتِهِمْ لِأَنَّهُمْ عِنْدَهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ حُكْمَهُمْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ بَلْ هُوَ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ يَكُونُ حَاكِمًا عَلَيْهِمْ، وَثَانِيهَا: غَيْرَةُ عَلَيْهِمْ لِثَلَا يَطْلُعَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَثَالِثُهَا: رَحْمَةٌ وَكَرَمًا فَإِنَّهُ سَتَارٌ لَا يَفْشِي عِيُوبَهُمْ وَيَسْتُرُ عَنِ الْأَغْيَارِ ذُنُوبَهُمْ، وَرَابِعُهَا: لِأَنَّهُ كَرِيمٌ وَمِنْ سُنَّةِ الْكَرَامِ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، وَخَامِسُهَا: فَضْلًا وَعَدْلًا فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَوَقْفِ مَشِيتِهِ، فَإِنْ رَأَى مِنْهُمْ حَسَنًا

أي: بين المحققين والمبطلين، ويميز كلاً منهم عن صاحبه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للقطع والفصل، وتنفيذ الأحكام والحكومات، فيومئذ يظهر لهم الحق ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: 25] من الأمور الدينية، والمعارف اليقينية.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [السجدة: 26-30].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أهل مكة إلى سبيل الرشاد، ولم يوقظهم عن هجعة الغفلة

فلذلك من نتائج إحسانه وفضله، وأن منهم قبيحاً فذلك من موجبات حكمته وعدله وأنه ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]، ومادسها: عناية وشفقة فإنه تعالى خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فلا يجوز عن كرمه أن يخسروا عليه، ومسابعها: رحمة ومحبة فإنه تعالى بالمحبة خلقهم لقوله: «فأحييت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» (1) وللمحبة خلقهم لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] فينظر في شأنهم بنظر المحبة والرضا وعين الرضا عن كل عيب كليله، وثامنها: لطفًا وتكريماً فإنه نادى عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] فلا يهين من كرمه، وتاسعها: عفواً وجوداً فإنه تعالى عفو يحب العفو، فإن رأى جريمة في جريدة العبد يجب عفوها، وأنه جواد يحب أن يجود عليهم بالمغفرة والرضوان، وهاشرها: أنه تعالى جعلهم خزائن أسرارهِ فهو أعلم بحالهم وأعرف بقدرهم، فإنه خمر طبيعتهم بيده أربعين صباحاً وجعلهم مرآة يظهر لها جميع صفاته عليهم لا على غيرهم، ولو كانت الملائكة المقربون ألا ترى أنه تعالى لما قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30] فما عرفوهم حق معرفتهم حتى قال تعالى فيهم عزة وكرامة لهم ﴿إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] أي: من فضائلهم وشمائلهم، فإنهم خزائن أسراري ومرآة جمالي وجلالي، فأنتم تنظرون إليهم بنظر الغيرة وأنا أنظر إليهم الرحمة والمحبة، فلا ترون منهم ألا كل قبيح ولا أرى منهم إلا كل جميل، فلا أرضى أن أجعلكم حاكماً بينهم بل بفضلي وكرمي أنا أفضل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فأحسن مع محسنهم وأتجاوز عن سيئهم، فلا يكبر على اختلافهم لعلمي بحالهم أنهم لا يزالون مختلفين ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53] ولذلك خلقهم.

ورقاد العناد ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرُونِ﴾ الماضية الهالكة، المغرورين أمثالهم بالكبر والخيلاء بما عندهم من المال والجاه والثروة، مع أن هؤلاء المعاندين ﴿يَمْشُونَ﴾ ويمرون ﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ الخربة، ودورهم المندرسة حين ارتحالهم نحو متاجرهم وما يعتبرون منها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في رؤية تلك المنازل والأطلال المغمورة، والبلاد المقهورة ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحة، وشواهد لاثبات على كمال قدرتنا واختيارنا، وشدة انتقامنا وقهرنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26] مقتضيات الآيات، ولا يتدبرون فيها حق التدبر والتفكير، حتى يتخلصوا عن أودية الضلالات، وأغوار الجهالات، ويتصفوا بأنواع الهدايات والكرامات!؟

﴿أَو لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يبصروا أولئك المعاندون المنكرون على كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا واختيارنا ﴿أَنَا﴾ من مقام جودنا ولطفنا كيف ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بالتدابير العجيبة، والحكم البديعة من تصعيد الأبخرة والأدخنة، وتراكم السحب منها، وتقاطر المطر من فوقها وخلالها ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾⁽¹⁾ التي قطع نباتها من غاية يسها وجمودها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بالماء الذي سقنا ﴿زَرْعًا﴾ أي: أنواعاً من الأقوات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أوراقه وتبته ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ حبوبه وثمرته ﴿أَفَلَا يَتَّبِعُونَ﴾ [السجدة: 27] أولئك المصرون المنكرون هذه القدرة العجيبة، فيستدلون بها على قدرتنا الكاملة، وحكمتنا البليغة البالغة بعدما سمعوا منك يا أكمل الرسل أن ربك يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون!؟

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين معك، متهكمين: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ والفصل الذي وعدتم به، أخبرونا وقته ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: 28] في دعواكم؛ حتى نتها ونترود، ونؤمن به كما أمتم؟

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ هو يوم القيامة المعدة؛ لتتقيد الأعمال والحساب، فيومئذ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النشأة الأولى مدة أعمارهم ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ فيها ﴿وَلَا هُمْ﴾ حيثئذ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [السجدة: 29] ويمهلون؛ حتى يتداركوا

(1) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جذب لا نبات فيها، يقال: جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (3/ 386).

ما قَوَّتُوا عَلَىٰ نَفْسِهِمْ طَوْلَ عَمْرِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْإِمْتِثَالِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتَصَدِيقِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ، وَجَمِيعِ مَعَالِمِ الدِّينِ وَشُعَائِرِ الْإِسْلَامِ.

وَبَعْدَمَا تَمَادَوْا فِي الْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ، وَبِالْغَوَا فِي الْعَتُوِّ وَالْعِنَادِ ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ هُذْيَانَاتِهِمْ، وَاصْرِفْ عَنَّا عِزْمَكَ عَنْ هُدَايَتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ بَعْدَمَا تَاهَوْا فِي تِيهِ الْغِيِّ وَالضَّلَالِ، وَأَصْرُوا عَلَيْهَا ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ، وَالْغَلْبَةَ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: 30] أَيْضًا؛ لِيَغْلِبُوا عَلَيْكَ وَيَظْفَرُوا.

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

خاتمة السورة

عَلَيْكَ أَيُّهَا السَّالِكُ الْقَاصِدُ سَبِيلَ التَّوْحِيدِ، وَالنَّاسِكُ الْمَجَاهِدُ مَعَ أَعْدَى عَدُوِّكَ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، أَعَانَكَ اللَّهُ وَنَصَرَكَ عَلَى عَدُوِّكَ أَنْ تَتَصَبَّرَ عَلَى مَتَاعِبِ الْعِبَادَةِ، وَمَشَاقِ التَّكَالُيفِ الْوَاقِعَةِ فِي إِتْيَانِ الْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَرْكِ الْمَأْلُوفَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، سَيِّمًا فِيمَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَيْكَ، وَدَفَعَهُ عِنْدَكَ مِنْ انْقِهَارِ أَمَارَتِكَ وَانْزِجَارِهَا، وَانْتِقَامِكَ عَنْهَا مَفُوضًا أُمُورَكَ كُلَّهَا إِلَى رَبِّكَ، مُنْتَظِرًا إِلَى أَنْ يَغْلِبَكَ الْحَقُّ عَلَيْهَا بَعْدَمَا وَعَدَكَ بِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ سُبْحَانَهُ سُلْطَانَةَ أَمَارَتِكَ مَأْمُورَةً لَكَ، مَطْمَئِنَّةً بِحُكْمِكَ، رَاضِيَةً بِجَمِيعِ مَا جَرَى عَلَيْهَا مِنْ سُلْطَانِ الْقَضَاءِ بِلَا امْتِنَاعٍ وَإِبَاءٍ.

فَلَكَ حَيْثُذِ أَنْ تَتِمَكَّنَ فِي مَقَامِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ؛ حَتَّى تَصِيرَ مَطْمَئِنَّتَكَ فَانِيَةً مُضْمَحَلَةً، مُتَلَاشِيَةً بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْ هَوِيَّةٍ نَاسُوتِهَا شَيْءٌ، بَلْ فَنِيَتْ هَوِيَّتُهَا فِي هَوِيَّةِ الْحَقِّ مُطْلَقًا، فَحَيْثُذِ فَزَتْ بِدَوَامِ أَبَدِيٍّ، وَبَقَاءِ سِرْمَدِيٍّ بِلَا عُرُوضٍ انْقِضَاءٍ وَانْصِرَامٍ، وَبِلَا لِحُوقِ انْتِهَاءٍ وَانْخِرَامٍ.

هَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ جَذْبَةً تَنْجِينَا مِنْ هَوِيَّةٍ نَاسُوتِنَا، وَتَفْنِينَا فِي هَوِيَّةٍ لَاهُوتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأحزاب

لا يخفى على من تحقق بمقام التقوى، واجتنب عن مهلكات الهوى، ورجع إلى المولى متزهداً عن الدنيا وغرورها وأمانيتها مطلقاً أن الموحد والمتحقق بمقام التمكن والرضا لا بد أن يكون همه منحصرة على التوجه نحو الحق مطمئناً به، راضياً بما جرى عليه من سلطان القضاء، متوكلاً على الله في السراء والضراء، والمنع والعطاء، والمحن والبلاء، مترصداً للوحي الإلهي، مترقباً لإلهاماته الغيبية؛ لأن من انخلع عن خلع الناسوت مخلصاً تشرف بخلعة اللاهوت؛ إذ وقع أجره على الله ورجع أمره إليه، وعاد حكمه وشأنه على ما كان عليه في بدء الأمر، فصار محفوظاً في كنف حفظه وجواره، فله أن يتخذ سبحانه وكيلاً، ويجعله حسيباً وكفيلاً يفرض أمره كله إليه منتظراً وصيته وإلهامه؛ إذ هو سبحانه بذاته عليم بحاله وحاجاته، حكيم في تربيته وإرشاده، وما له إلا الإطاعة والتسليم والمتابعة لما يوحى إليه من ربه العليم الحكيم، ماحياً عن لوح قلبه الالتفات إلى غيره.

كما أمر به سبحانه لحبيبه ﷺ تربيةً وتاديباً؛ وليتأدب به من تابعه وتخلق به من آمن له مخلصاً، فقال منادياً إياه، متلطفاً معه، متمناً باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي اصطفى حبيبه ﷺ من بين البرايا بالخلق العظيم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه في النشأة الأولى بإفاضة أنواع الكمالات اللائقة له على سبيل التبجيل والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ له في النشأة الأخرى بتمكينه في مقعد الصدق، والمقام المحمود الذي هو مقام الرضا والتسليم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

① وَأَتِمِّعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ④ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي

تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ⑤ وَمَا جَعَلَ أَدِمِيَاءَكُمْ أَوْلَادَكُمْ ⑥ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ

الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ [الأحزاب: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيّد من عند العليم الحكيم مقتضى نبوتك التي صرت بها خاتماً لدائرة النبوة والرسالة، متمماً لمكارم الأخلاق، مكملأً لأمر التشريع والتدوين: التقوى والتحفظ من مقتضيات الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة، والتحصن بالله والثقة إليه، وجعله وقايتك عند نزول البلاء وهجوم الأعداء ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ حق تقاته، واجتنب عما لا يرضى به ربك مطلقاً ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في حال من الأحوال أمر ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين خاصموا معك في إسرارهم وإعلانهم، ولا تتبع أهواءهم الفاسدة وآراءهم الباطلة، وابتغ فيما آتاك الله من مقتضيات استعدادك، وما تفضل عليك امتناناً لك؛ لرضاء الله والفوز بشرف لقاء الله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في حضرة علمه الحضورى بقابليتك وبمقتضياتها ﴿حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1] في إفاضة ما يعينك وينبغي لك، ويليق بشأنك.

﴿وَمَا﴾ بعدما جعلت ربك وقاية نفسك، واتخذته وكيلاً لشأنك وأمرك ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ تأييداً لك، وتدبيراً لأمورك وأحوالك، ولا تلتفت إلى هذيانات من عاداك، ولا تبال بمكرهم وحيلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ الرقيب عليك وعليهم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المخائل الفاسدة، والتليسات الباطلة المتعلقة لمقتك وهلاكك ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 2] يكفيك مؤنة شرورهم ومكرهم، ويغلبك عليهم ويظهر دينك على الأديان كلها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أيها المتحصن بكنف حفظه وجواره، وثق بكرمه ولطفه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ أي: كفى بالله المراقب عليك في جميع أحوالك ﴿وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 3] لك يراقبك ويحفظك من شرور من قصد مقتك، وهجومهم عليك، ومكرهم معك، وكن في نفسك متوجّهاً إلى ربك، مخلصاً فيه، مائلاً بوجه قلبك إلى قبلة وجهه الكريم، ولا تلتفت إلى من سواه ولا تُخطر ببالك غيره؛ إذ لا يسع في القلب الواحد إلا هم واحد.

ولهذه الحكمة العلية ﴿مَا جَعَلَ﴾ وخلق ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لِيُزْجِلَ﴾ واحد ﴿مِنْ قَلْبَيْنِ﴾ مشعرين مدركين ﴿فِي جُوفِهِ﴾⁽¹⁾ حتى لا يتفتت ميله، ولا

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على

يتعدد قبله مقصده ومرماه، وإن خلق له عينين وأذنين ويدين وغيرهما ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ وتقولون لهن: أنت علي كظهر أمي ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حقيقة؛ ليرتب عليها أحكام الأمهات من التحريم، وعدم القربان والفراش معها وغيرها ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ أيضًا ﴿أَزْوَاجَكُمْ﴾ أي: الأجانب الذين تدعونهم أبناء من إفراط المحبة والمودة ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حقيقة؛ حتى يترتب عليهم أحكام الأبناء من الميراث والمحرمية، وحرمة زوجتهم وابنتهم وغير ذلك من الأحكام.

﴿ذَلِكَكُمْ﴾ أي: الأمور الثلاثة المذكورة ﴿قَوْلُكُمْ﴾ أي: مجرد قول صدر عن الستكم وتكلمتكم ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا حقيقة لها سوى الاشتهار ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأموركم، المصلح لأحوالكم ﴿يَقُولُ الْحَقُّ﴾ أي: الحكم الثابت المتحقق عنده سبحانه، المترتب عليه أحكامه إرشادًا لكم، وإصلاحًا لحالكم ﴿وَمَا كَيْفَ لَا﴾ ﴿هُوَ﴾ بمقتضى الوهيته وربوبيته ﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] السوي والصراط المستقيم إلى عباده الذين انحرفوا عن سبل السلامة، وطرق الاستقامة في الوقائع والأحكام.

﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِاخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٦﴾ وَلِذَلِكَ خَلَدَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِثْقَلَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَخَلَدْنَا مِنْهُمْ مِثْقَلًا

استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه للكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله. قال الصادق: قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ [الأحزاب: 8-5].

وبعدما سمعتم حقيقة القول في أدعياءكم وحقيقته ﴿اذْعُوهُمْ﴾ أي: سموهم أدعياءكم بأسمائهم، وانسبوهم حين دعائكم وندائكم إياه ﴿لَا بَأْثَإِهِمْ﴾ المولدين لهم حقيقة لا إلى الداعي إن علموا آباءهم الأصلية النسلية ﴿هُوَ﴾ أي: انتسابهم إلى آبائهم ﴿أَنَسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأقوم بين المؤمنين، وأقرب إلى الصدق، وأبعد عن الكذب والفرية؛ إذ كثيرًا ما اشتهر دعوي باسم من تبناه فأراد أن يأخذ منه الميراث، فعليكم ألا تنسبوهم إلا لأبائهم الحقيقيين ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ لتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه كسائر المؤمنين، فخطابوهم مثل خطاب بعضكم بعضًا، فقولوا له: يا أخي، يا صاحبي، ووليي في الدين وغير ذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم ومؤاخذه ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: بقولكم هذا ونسبتكم هذه إذا صدرت عنكم هفوة على سبيل الخطأ والنسيان، سواء كان قبل ورود النهي أو بعده ﴿وَلَكِنْ﴾ تؤاخذون في ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصدّرت عنكم هذا قصدًا؛ إذ قصدكم به يؤدي إلى الافتراء، وتضييع حقوق المؤمنين ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ في حق من أخطأ ونسي ثم ذكر فتاب ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5] عليه يقبل توبته، ويغفر زلته.

ثم أشار سبحانه إلى تأديب كل من الأمم مع نبيه المؤيّد من عنده سبحانه بأنواع التأييدات، والمعجزات الخارقة للعادات، المبعوث إليهم؛ لإرشادهم وتكميلهم، وأمرهم بحسن الأدب معهم والمحافظة على خدمتهم وحرمتهم.

وكيف لا يحسنون الأدب مع الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - إذ كل نبي بالنسبة إلى أمته كالأب المشفق العطوف معهم، بل هو خير آبائهم يرشدهم إلى ما هو أصلح لهم في دينهم الذي هو حياتهم الحقيقية؛ فلهم أن يكونوا معه في مقام التذلل والانكسار التام، والانخفاض المفرط بأضعاف ما وجب عليهم من حقوق الوالد النسبي؛ إذ آثار تربية الأنبياء مؤبدة مخلدة، وآثار تربية هؤلاء الآباء متناهية منقطعة، وإن ترتب على تأديبهم وانخفاضهم معه من المثوبة الأخروية، فإنما هي راجعة إلى تربية نبيهم.

ولاشك أن نينا ﷺ أفضل الأنبياء، وأكملهم في التربية والإرشاد، فيكون أبوته

أيضاً أكمل، وإشفاقه ومرحمته لأمة التي هي أفضل الأمم أتم وأوفر؛ لذلك قال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ﴾ أي: هذا النبي المؤيد المبعوث إلى كافة الأمم، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، المكمل لمعالم الدين ومراسم المعرفة واليقين ﴿أَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وأحق لهم أن يرجحوا جانبه على نفوسهم، ويختاروا غبطته ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾ إذ نسبة تربيته إلى أجسادهم كنسبة تربية الأب المشفق المحافظ ابنه عن جميع ما لا يعنيه، المراقب له في جميع أحواله؛ ليوصله إلى الحياة الأبدية، والبقاء الأزلية السرمدية.

(1) قال سيدي محمد البيطار: قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوَّْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]، فالمؤمنون هم لا هم بل هم هو؛ لأن الإيمان نقلهم منهم إليه، ففرارهم لا منهم بل إليه فيهم؛ لأنه عينهم التي يشربون بها منها فهم ﴿يَفْجَرُونَ﴾ بهذا الإيمان من أنفسهم ﴿تَفْجِئاً﴾، فلولاً هذا الإيمان بهذا النص القرآني لم تفجر منهم الحقيقة المحمدية، فقد استحقوا حينئذ أن يصلي عليهم هو وملائكته كما صلى هو وملائكته على نبيهم؛ لأنه عينهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوَّْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]، فلهذا قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، فاستجبنا لله إذ دعانا بقوله: ﴿فَهَيُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: 50]، واستجبنا للرسول إذ قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِتَّةٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50] فلما سلمنا إليه نفوسنا تسليمًا، وأجبنا الداعي الذي من كونه مؤمنًا أحب لنا ما يحب لنفسه. أخبرنا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: 43]، فعاد الأمر من الله إلى محمد ﷺ ومن محمد ﷺ إلينا، فقلنا أولاً: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» ثم عدنا إليه ﷺ فقلنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فلما تكاثر الأمر وخفنا أن يلهينا التكاثر عن التوحيد قلنا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده» أي: مجلي هوية ذاته ورسول جميع أسمائه وصفاته، فلما استجبنا لله ورسول الله وعرفنا الأحدية المطلقة قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا﴾ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً [النور: 61] فعادت التحيات التي هي لله لنا لما أجبنا الداعي.

ومن هذا المقام قال ﷺ: «لو كنت بدل يوسف لأجبت الداعي» لأنه يراه الداعي في كل داعي، وفي الحديث: «من دعي فليجب»، وقد دعانا الرسول إليه، وأخبرنا أننا له لا لنا، فكان اسمه منطبقاً علينا فقلنا: «اللهم صلي على محمد» لما قال لنا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128]، فعدنا إليه منا فقال: ﴿هَذَا مِنْ بَيْنِنَا﴾ [يوسف: 65] فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ونسبة تربية نفوسهم المدبرة لأبدانهم، وإن كانت هي أيضًا بتوفيق الله وإقداره إنما هي مقصورة إلى حفظ أجسامهم؛ لئلا تنهدم وتنخرم، ولا تزول عنها الحياة المستعارة، وشتان ما بين النسبتين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: وبعدما ثبت أن تربيته ﷺ شاملة، وأبوته كاملة. صارت أزواجه اللاتي في حجوره ﷺ وحضائنه أمهات المؤمنين في الدين، وحرمتهن أعظم وأولى من حرمة أمهاتهم النسبية؛ إذ هن أتباع له ﷺ وأهل بيته فيسري الأدب معه إليهن، وهن أيضًا في أنفسهن من الكاملات اللائقة لأنواع الحرمات والكرامات، ومن جملةها: لياقتهن بشرف صحبة النبي ﷺ.

فعليكم أيها المؤمنون ألا تنكحوا أزواجه أبدًا؛ إذ هن أمهاتكم ﴿وَوَ﴾ بعدما سمعتم أيها السامعون المؤمنون أن النبي خير آبائكم في الدين، وأزواجه فضليات أمهاتكم أيضًا فيه، وسائر المؤمنات والمؤمنين إخوانكم وأخواتكم في الدين، لا تظنوا أن حكم أبوته ﷺ وأمومتهم - رضي الله عنهن - وأخوة المؤمنين تسري في أحكام الميراث والعصوبة أيضًا، بل ﴿أُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ والأقارب المنتمين إليكم بالقرابة النسبية على تفاوت طبقاتهم ذكورًا كانوا أو إناثًا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق شرعًا ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي: بأخذ الميراث من بعض؛ يعني: هم أصحاب الفروض والعصبات يأخذون متروكات المتوفى عنهم، ويحزونها؛ لقرابتهم النسبية على مقتضى سهامهم المقدرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ المنزل عليكم، الموافق لما في حضرة علمه ولوح قضائه من النبي وأزواجه.

وأجانب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وإن كانوا إخوانًا في الدين لا يأخذون من أموالهم شيئًا بلا قرابة نسبية ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: المؤمنون منكم، وتخرجون من أموالهم على الوجه المشروع المستحسن ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ﴾ في الدين مع كونهم أجانب لكم ﴿مُفْرُوفًا﴾ أي: وصية مشروعة مستحسنة عقلاً وشرعًا، غير مؤدية إلى إحراز الثروة وتحريم الورثة، وهي التي لا تكون أزيد من ثلث المال ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي: إخراج الوصية على الوجه المعروف ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي يتلى عليكم، وفيما قبله من الكتب المتلوة على الأمم الماضين ﴿مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: 6] مثبتًا، فللموصي له أن يأخذها على مقتضى ما ثبت في حكم الله وكتابه.

﴿وَوَ﴾ كيف لم يحسنوا الأدب أولئك المؤمنون الماضون مع أنبيائهم، وهؤلاء معك، مع آتينا ما بعثنا الأنبياء والرسل؛ إلا لإرشاد المؤمنين، وهدايتهم إلى توحيدنا، وإيصالهم إلى زلال تفريدنا، وعلى ذلك أخذنا العهود والمواثيق المؤكدة من الأنبياء

تأكيدًا وإلزامًا، اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين؛ ليحافظوا على ما أمروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنْ﴾ عموم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضية ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهودهم الوثيقة المؤكدة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿مِنْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمِنْ نُوحٍ﴾ النجى ﴿وِإِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَمُوسَى﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى﴾ الصفي الخالص عن كدر الناسوت من قبل الأب؛ لأنه ﴿ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لم يمسها ذكر من بني نوعها، بل إنما ولدته بلا أب إرهابًا لها، ومعجزة لابنها.

خص هؤلاء سبحانه بالذكر اهتمامًا بشأنهم - صلوات الله عليهم - ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ﴾ كرهه تأكيدًا ومبالغة؛ أي: كل واحد منهم، وممن لم نذكر أساميهم من ذوي العزائم الخالصة ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7] أي: عهدًا وثيقًا مؤكدًا على ألا تنهائوا، ولا تتكاسلوا في إرشاد العباد وإبعادهم عن الجور والفساد، وإيصالهم إلى ما أعددنا لهم من المراتب العلية والدرجات السنية.

وأنزلنا عليهم الكتب والصحف المشتملة على الأوامر والأحكام المقربة لتوحيدنا، والعبر والنواهي المبعدة عن الكفر والضلال، وأمرناهم أيضًا بتبيين الأوامر والنواهي إلى أممهم وتنبيهها عليهم؛ ليتفطنوا على فطرتهم التي جبلوا عليها في عالم الغيب؛ وليتميز عندهم الحق الحقيقي بالاتباع من الباطل الزاهق الزائل.

كل ذلك ﴿لِنُنْصَلَ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى عن أنبيائه ورسله - صلوات الله عليهم - عن أحوال العباد ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الممثلين بأوامر الله، المجتنبين عن نواهيهم ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ وإخلاصهم في أعمالهم ونياتهم فيها، وأحوالهم ومواجيدهم واعتقاداتهم، وتلقيهم لقبول الحق والمحافظة عليه؛ ليشهد الأنبياء لهم فيفوزوا إلى ما أعد لهم من المراتب والمقامات، وأنواع السعادات والكرامات، مع أن علمه سبحانه بحالهم يغني عن شهادتهم؛ لیسأل أيضًا سبحانه عن عناد العباد المصيرين على الجور والفساد، المجترئين على الله بالخروج عن حدوده وعن مقتضيات أحكامه؛ ليشهدوا - صلوات الله عليهم - فيساقوا صاغرين مهانين إلى ما أعد الله لهم من الدركات الهوية الجهنمية ﴿وَ﴾ اعلّموا أن الله سبحانه ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين لأوامر الله ونواهي المنزلة في كتبه على رسله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 8] لا عذاب أشد إيلامًا منه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنْكُمْ وَلَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ
 ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا
 وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ [الأحزاب: 9-12].

ثم نادى سبحانه المؤمنين الموحدين، المواظبين على الطاعات بارتكاب الأوامر واجتناب المنهيات؛ كي يصلوا إلى ما أعد لهم ربهم من المثوبات والمكرمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: تعداد نعم الله عليكم، وإحصاء فواضله المتوالية المتتالية المتسقة ﴿اذْكُرُوا﴾ في عموم أوقاتكم وأحوالكم ﴿نِعْمَةً اللَّهُ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾⁽¹⁾ على تعاقب الأزمان، وتلاحق الآناء والأحيان، سيما نعمة إنجائكم من أعدائكم ونصركم عليهم، مع كونكم آيسين منه، اذكروا يا أهل يثرب ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ متعددة وأحزاب متعاقبة متلاصقة قاصدين لمقتكم واستئصالكم، وهم قريش

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنواع نعمه الظاهرة والباطنة.

أولها: نعمة الإيجاد من كتم العدم، وثانيها: إذ أخرجكم من العدم جعلكم أرواحاً مطهرة إنسانية ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] لا حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وثالثها: يوم الميثاق شرفكم بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] ثم وفقكم لاستماع خطابه ثم دلکم إلى إصابة جوابه، ورابعها: أنعم عليكم بالنفخة الخامسة عند بعثك إلى القلب الإنساني؛ لثلا ينزلوا المنزل من المنازل السماوية والكوكبية والجنية والشیطانية والنارية والهوائية والمائية والأرضية والنباتية والحيوانية وغيرها من المنازل إلى أن أنزلکم في المقام الإنسانية، خامسها: عجن طينة قالبكم بيده أربعين صباحاً ثم صوركم في الأرحام سواكم ثم نفخ فيه من روحه، وسادسها: شرف روحكم بتشريف إضافته إلى نفسه بقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ [ص: 72] وما أعطى هذا التشريف لروح من أرواح الملائكة المقربين، وسابعها: ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78] ثم بالإلهامات الربانية علمكم ما يحتاجون إليه من أسباب المعاش، وثامنها: ألهمكم فجوركم وتقواكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد للرجوع إلى المعاد، وتاسعها: أرسل إليكم الأنبياء والرسل ليخرجوكم من الظلمات الخلقية إلى نور الخالقية، وعاشرها: أنعم عليكم بالإيمان ثم بالإيقان ثم بالإحسان ثم بالعرفان ثم بالعيان ثم بالعين ثم أتاكم من كل ما سألتموه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] وذكر نعمة استعمالها في عبودية إذا شكر نعمة، وشكر النعمة رؤية النعمة أن يرى نعمة توفيقه لأداء شكره إلى أن نعجز عن أداء شكره، فإن نعمه غير متناهية وشكرك متناه، ف رؤية العجز عن أداء الشكر حقيقة الشكر، ومن الشكر بذكر ما سلف من الذي دفع عنده وأنت بصدده من أنواع البلاء والمحن والمصائب والمكائد.

وغطفان، ويهود بني قريظة وبني النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، وأنتم قليلون فحفرتم الخندق على المدينة، ثم خرجتم تجاه الأعداء ثلاثة آلاف، والخندق بينكم وبينهم فقامتكم متقابلين، ومضى عليها قريب شهر لا حرب بينكم إلا بالترامي بالنبل والحجارة فاضطربتم واضطربتم، فأوجستم في نفوسكم خيفة، وصرتم متذبذبين متزلزلين لا إلى القرار ولا إلى الفرار.

وبعدما أبصرناكم كذلك فاجأنا بإرسال الريح والملائكة إمداداً لكم، وتأيداً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا، فهبت عليهم إلى حيث تقلع أوتادهم، وتسقط الخيام عليهم، وتطفى نيرانهم، وتكفي قدورهم، وتجيل خيولهم، وكانت في ليلة شاتية باردة في غاية البرودة ﴿وَوَ﴾ أرسلنا عليهم أيضاً ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ظهرت جوانب معسكرهم، بحيث ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ في تلك الليلة المظلمة، بل لم تروها جنوداً مثلها أصلاً، فقال حيثن صناديدهم وكبراؤهم: النجاء النجاء، فإن محمداً قد بدأ بالسحر فانهزموا من غير قتال، فنجوتم سالمين عناية من الله، وإنجازاً لوعده، ومعجزة لرسوله ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، والتزلزل والتذبذب، والرعب الخفي، وبما يعملون من التحزب والتوافق على استئصالكم ﴿بُصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9] راتياً عليكم منكم أمارات التذبذب والتزلزل.

وكيف لا يتزلزلون ﴿إِذْ جَاءَكُمْ﴾ وهم غطفان ﴿مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق ﴿وَوَ﴾ جاءوكم قريش ﴿مِّنْ أَسْفَلِ مِّنْكُمْ﴾ أي: من أسفل الوادي من قبل المغرب، وأحصرتم حيثن؛ إذ ليس معكم ما يقابل أحد الجانبين، فكيف بكليهما ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ حيثن منكم، ومالت عن مستوى نظرها، وتقلقت حيرة وشخوصاً ﴿وَوَ﴾ اضطربتم في تلك الحالة إلى حيث ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من غاية الرعب؛ لأن رثكم قد انتفخت من الرعب المفرط فارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي متهى الحلقوم الذي هو مدخل الطعام والشراب.

﴿وَوَ﴾ حيثن ﴿تَنْظُنُونَ﴾ أيها الظانون المرعوبون ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي وعدكم الغلبة على الأعداء، وإظهار دينكم وإعلاءه على الأديان كلها ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10] أي: أنواعاً من الظنون، بعضها صالح وبعضها فاسد، على تفاوت طبقاتكم في الإخلاص وعدمه، فمنكم من يظن أن الله منجز وعده الذي وعده لرسوله من إعلاء دينه ونصره على الأعداء؛ إذ لا خلف لوعده سبحانه، ومنكم من يتردد ويتحير بين الأمرين إلى

حيث لا يرجح أحدهما؛ لذلك يخاف من ضعف الثقة بالله، وعدم رسوخه في الإيمان.
وبالجملة: ﴿هَٰذَا لِكَيْ تُبْلَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ وجربوا واختبروا؛ كي يتميز المخلص منهم من المنافق، والثابت الراسخ من المتردد المتزلزل ﴿وَلِكَيْ لَذَلِكِ﴾ لذلك ﴿تُزَلَّزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11] من شدة الفزع والهول المفرط إلى حيث كاد أن يخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَلِكَيْ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ حيث ﴿وَلِكَيْ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ بقي ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ من أمارات الشقاق، ولم يصفوا بعد؛ لحدثة عهدهم حتى يتمكنوا على الوفاق، ويتمرنوا بالاتفاق ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر على الأعداء، وانتشار هذا الدين في الأقطار والأنحاء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12] قولاً باطلاً، وزوراً زاهقاً زائلاً، وبالغوا في ذلك حيث قال متعب بن قشير: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز للقتال مع هؤلاء الفرق، فظهر أن وعده ما هو إلا غرور باطل.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ (١٤) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَثَرِ وَلَا كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (١٥) ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦) ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِّنْ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْم مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧) [الأحزاب: 13-17].

﴿وَلِكَيْ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من منافقي المدينة، والذين في قلوبهم مرض وضعف اعتقاد ويقين من المؤمنين: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي: أصحاب المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا يحسن إقامتكم الآن ومقاومتكم في مقابلة هذه الأحزاب؛ إذ هم ذوو عدد وعدد كثيرة، وأنتم شرذمة قليلون بالنسبة إليهم ﴿فَارْجِعُوا﴾ عن دين محمد، وتشتتوا عن حوله؛ حتى تسلموا من يد الأعادي ﴿وَلِكَيْ﴾ بعدما سمعوا قول أولئك المنافقين آمرين بالرجوع والارتداد صاروا مترددين متزلزلين في دينهم؛ حتى ﴿يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ معتردين معللين للرجوع والذب عن حول

النبي: ﴿إِنْ بَيُّوتُنَا غَوْرَةٌ﴾ غير حصينة، خالية عن المحافظ، فأذن لنا حتى نرجع إلى بيوتنا ونستحفظها ﴿و﴾ الحال أن بيوتهم ﴿مَا هِيَ بِغَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة محفوظة لا خلل فيها، بل ﴿إِنْ يُرِيدُونَ﴾ أي: ما يريدون ويقصدون من هذا القول ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13] عن الزحف، وإعراضاً عن الدين.

﴿و﴾ من كمال ضعفهم في الدين، وعدم تثبتهم ورسوخهم في الاعتقاد واليقين: ﴿لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وحصنت جميع جوانبها، بحيث لا يمكن الظفر عليها إلا لهؤلاء الأحزاب ولا لغيرهم من عساكر الأعداء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تحصنت عليهم بيوتهم كذلك صاروا آمنين من ظفر العدو مطلقاً ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: الارتداد عن الإيمان والإسلام، والنصر على المؤمنين ﴿لَا تَوَّهَا﴾ وأعطوها ألبتة هؤلاء الجهلة الضعفة، المتماثلين إلى الكفر ومؤاخاة الكفرة عن صميم فؤادهم، ولجأوا بالردة عن الدين والقتال مع المسلمين على الفور ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ وتوقفوا ﴿بِهَا﴾ أي: بإعطاء الفتنة والردة بعدما سئلوا عنها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 14] أي: آناً واحداً إلا زماناً مقدار ما يفهمون سؤال السائل واقتراحه.

﴿و﴾ كيف لا يعطونها وهم ﴿لَقَدْ كَانُوا﴾ أي: بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَاهِدُوا﴾ الله ﴿أي: عهدوا العهد الوثيق مع الله﴾ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل حفر الخندق، وذلك في يوم أحد حين أرادوا أن يفشلوا عن رسول الله ﷺ أو تخلفوا عنه يوم بدر، فلما رأوا ما أعطى الأحديون والبديون من الكرامة العظيمة آجلاً وعاجلاً قالوا معاهدين: لئن أشهدنا الله قتلاً فلنقاتلن، وحلفوا ﴿لَا يُولُونَ الْأَذْيَارَ﴾⁽¹⁾ أصلاً، فالآن قد تذبذبوا

(1) عن المحاربة مع الشيطان وعند الجهاد مع النفس، فلما شرعوا في الحرب والجهاد مع أحزاب النفس والشيطان، وقد حمل كل حزب منهم أسلحتهم وأخذوا خدعات الحرب ومكائده، وهم الشجعان والأقوياء والأبطال المجربون وعساكر طلاب القلوب المرضى، وهم بعد إغمار غير مجربي الحروب والقتال وإن كان لهم الأسلحة ولكنهم بمعزل عن استعمالهم لضعفهم وعدم العلم بكيفية الاستعمال، فإذا قام الحرب ودام الضرب، غلب الأقوياء على الضعفاء وانهزم المرضى عن الأصحاء، فلم يشد أزهرهم الصدق ولم يعاونهم العشق ولم يذكروا حقيقة قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: 15]، ولا يتذكروا في قوله: ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب: 16] أيها الطالبون: إن فررتم وإن تفروا إلى الله لينفعكم، فإن الفرار من الموت أو القتل أو موت النفس وقتلها بالمجاهدة لا ينفع عند نزول الآجال، وإن لم تأتكم الآجال فهي من غاية الشقاوة، وإذا لا تمتعون كالبهائم والأنعام في رياض الدنيا إلا قليلاً ولا نهاية لتلك

وتضعضوا، وكادوا أن يولوا ﴿و﴾ لم يعلموا أنه ﴿كَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾ الذي عاهدوا معه سبحانه من قبل ﴿مَنْثُولًا﴾ [الأحزاب: 15] عنه وعن نقضه ووفائه، وهم مجزيون بمقتضى ما ظهر منهم من النقض والوفاء!؟.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تحقق عندك قصد فرارهم وذبيهم عنك: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ﴾ أبدًا، بل ﴿إِنْ فَرَرْتُمْ﴾ من ضعف يقينكم، ووهن اعتقادكم ﴿مَنْ الْمَوْتِ﴾ حتف الأنف، كما يفر الناس من الطاعون والوباء والزلزلة وغير ذلك ﴿أَوْ الْقَتْلِ﴾ في يوم الوغاء ﴿وَإِذَا﴾ أي: بعدما تفرون حينئذٍ ﴿لَا تُمَتَّعُونَ﴾ تمتعًا كثيرًا مؤبدًا، بل ما تمتعون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 16] في زمان قليل؛ إذ لكل منكم أجل، ولكل أجل قضاء وانقضاء، ولا دوام إلا لمن هو متعال عن الأجل والقضاء والانقضاء، منزّه عن الابتداء والانتهاء، وعن الإعادة والإبداء، مقدس عن تعديد الأزمنة وتحديد الأمكنة مطلقًا.

وإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، وعاندوا بالفرار والتحصن ننجي من العدو وإهلاكه بحيث لا تبقى لهم يد علينا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التبيكيت والإلزام: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَغْصِمُكُمْ﴾ ويحفظكم ويحرزكم ﴿مِنْ﴾ قهر ﴿اللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: إصابة بلاء وشدة ومحنة ﴿أَوْ﴾ من ذا الذي يمنع عنكم لطفه سبحانه إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ عطفًا ومحبة!؟ ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ أولئك المتذبذبون المتضعضون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المراقب عليهم في جميع أحوالهم ﴿وَلِيًّا﴾ يولي أمور تحصنهم وتحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 17] ينصرهم على أعدائهم، وبالجملة: جميع أعمال العباد وأفعالهم مفوضة إلى الله أولاً وبالذات، مقهورة تحت قدرته الكاملة، فلهم أن يفوضوها إليه؛ ليسلموا من غوائل العناد والإصرار.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
 ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَكِنْ بَأَتْ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ [الأحزاب: 18-20].

وإن اعتذروا بك، وتبرءوا عما كانوا وصاروا عليه، قل لهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ المشبطين ﴿مِنْكُمْ﴾ عن رسول الله ﷺ، المتخلفين عنه في الحروب والمعارك، وهم المنافقون ﴿وَوُ﴾ يعلم أيضا ﴿الْقَائِلِينَ﴾ منكم أيها المنافقون من أهل المدينة ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن في قلوبهم مرض من المؤمنين: ﴿هَلُمُّ إِلَيْنَا﴾ أي: قربوا أنفسكم نحونا؛ لتنجو عن المخاوف والمهالك ﴿وَوُ﴾ بعدما سمعوا منكم إخوانكم قولكم هذا ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي: الحراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18] أي: إتيانا قليلا، بل يشيطون ويسرفون، ويعتذرون بالأعذار الكاذبة.

وبعدما أتوا ما أتوا إلا ﴿أَشِحَّةً﴾ أي: بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون لما معكم من المعاونة والنفقة في سبيل الله، أو خوف الظفر وفوت الغنيمة، أو من خوف العاقبة، وإنما فعلوا ذلك قبل القتال ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ وظهرت أمارات القتال والحراب ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدة خوفهم وخشيتهم ﴿تَدُورُ﴾ أي: تتحرك وتضطرب ﴿أَهْلِيَّتَهُمْ﴾ أي: آماقهم في أحداقهم ﴿كَأَلَدِي يَغْشَى﴾ أي: يحل ويدور ﴿عَلَيْهِ مِنْ﴾ أمارات ﴿الْمَوْتِ﴾ ولاح عليه علامات السكرات ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وزال الرعب والخشية، وانهزم العدو، واجتمعت الغنائم ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ أي: جاءوكم متسلقين متسلطين عليكم ﴿بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ ذربة قاطعة، باسطين أيديهم إلى الغنائم وقت قسمتكم، صائحين عليكم: لستم أولى منا وأحق بهذه الغنائم؛ لأننا شهدنا القتال معكم، بل نحن لا نقصّر وأنتم قاصرون، فبم ترجحون أنتم علينا، وإنما سلفوكم بها حال كونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي وصل إليكم من الغنائم العظام ١٩.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه النفاق والشقاق ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بتوحيد الله، ولم يخلصوا الإيمان به وبرسوله وكتابه، بل إنما آمنوا واعترفوا باللسان، لحقن الدماء والأموال خداعا ومكرًا؛ ولذلك مكر الله المطلع على نياتهم بهم ﴿فَأَخْبَطَ

اللَّهُ أَعْمَالُهُمْ الصَّالِحَةِ، وَأَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ بِلا ترتيب الجزاء والمثوبات، كما لأعمال المخلصين من المؤمنين ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط والإبطال ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر لجميع ما ثبت في لوح قضائه ﴿يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19] سهلاً غير عسير عنده.

وإن استعسرتهم أيها المحجوبون بالحجب الظلمانية الكثيفة، ومن كمال غيهم وضلالهم، ونهاية جبنهم ورعبهم من الأحزاب ﴿يَخْشَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينهزموا، مع أنهم ذهبوا منهزمين إلى حيث لم يبق منهم أحد ﴿وَوَ﴾ هم من كمال محبتهم ومودتهم مع الأحزاب ﴿إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ ويكروا بعد الفرار ﴿يَوْدُوا﴾ هؤلاء المنافقون إتيانهم إلى حيث تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ﴾ ظاهرون ﴿فِي﴾ البدو ﴿الْأَغْزَابِ﴾ أي: فيما بينهم، خارجون عن أظهر المسلمين، لاحقون بالكفرة، معدودون من عدادهم حتى ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من قبلكم ﴿عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ وأخباركم، وما جرى عليكم أيها المؤمنون من الوقائع الهائلة والمصيبات المهولة ﴿وَوَ﴾ من كمال ودادتهم مع الكفرة: ﴿لَوْ﴾ فرض أنهم ﴿كَانُوا فِيكُمْ﴾ وقت كر الكفرة عليكم ﴿مَّا قَاتَلُوا﴾ من المنافقين من قبلكم مع أعدائكم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 20] منهم، وهو أيضاً على سبيل الرياء والسمعة، ومقتضى ما زعموا من جلب النفع أو دفع الضر، لا لرضاء الله وإعلاء دينه ونصرة نبيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝٢٣ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٤﴾ [الأحزاب: 21-24].

ثم قال سبحانه تحريكا لحمية المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون، الطالبون التخلق بأخلاق الله، الهاربون عن أخلاق أعدائه ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ المبعوث، لإرشادكم وإهدائكم ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽¹⁾ أي: خصلة حميدة بديعة يجب

(1) قال الشيخ نجم الدين: أي: فقد أحستته، وذلك بأن أول شيء تعلق به القدرة للإيجاد كان روح رسول الله ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روعي» والأسوة الحسنة عبارة عن تعلق القدرة بأرواح

التأسي والاتصاف بها ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ أي: لقاءه ومطالعة وجهه الكريم ﴿وَوَجَّهَ﴾
يرجو أيضاً ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الموعود فيه هذه الكرامة العظيمة، وبواسطة هذا الرجاء
وغلبة هذه الأمنية العظيمة في خاطره ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21] في عموم
الأعيان والأحياء؛ لتلذذه بذكره سبحانه؛ حتى ينال ما وعد من الفوز بشرف اللقاء، ومن
كان كذلك، وهمه ذلك فهو مؤتس بالرسول ﷺ في تلك الخصلة المحموده، والديانة
المسعودة المقبولة عند الله التي هي الرضا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

ومن علامات الثبات على العزيمة، وتحمل الشدائد، ومقاساة الأحزان، وارتكاب
المتاعب والمشاق في إعلاء دين الله وكلمة توحيده، والتوكل نحوه في الضراء والسراء،
وكظم الغيظ عند هجوم الغضب، والعفو عند القدرة وغير ذلك من الخصائل الحميدة
والأخلاق الجميلة المرضية ﴿وَوَجَّهَ﴾ من شدة تأثير هذه الخصائل الجميلة في قلوب
المؤمنين ﴿لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ حواليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين

هذه الأمة لإخراجهم من العدم إلى الوجود عقيب إخراج روح رسول الله ﷺ من العدم إلى
الوجود، فمن أكرم بهذه الكرامة يكون لها أثر في عالم الأرواح قبل تعلقه بعالم الأشباح، فأما
أثره في عالم الأرواح فتقدمه على الأرواح بالخروج إلى عالم الأرواح وترجيئه في الصف
الأول بقرب روح رسول الله ﷺ أو في الصف الذي يليه، ويتقدمه في قبول الفيض الإلهي
ويتقدمه عند استخراج ذرات الذرات من صلب آدم في استخراج ذرته بإحضارها في الحضرة
ويتقدمه في استماع خطاب ﴿الْسُّبُّ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] ويتقدمه في إجابة الرب تعالى
بقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] ويتقدمه في المعاهدة مع الله ويتأخره في الرجوع إلى
صلب آدم ويتأخره في الخروج عن أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وفي الخروج عن الرحم
ويتأخر تعلق روحه بجسمه، فإن الله الذي هو المقدم والمؤخر في هذه التقديمات والتأخرات
حكم بالغة، ولها تأثيرات عجيبة يطول شرحها، وأما أثره في عالم الأشباح فاعلم أنه بحسب
هذه المراتب في ظهور أثر الأسوة يظهر أثرها في عالم الأشباح عند تعلق نظر الروح بالنطفة في
الرحم أولاً إلى أن تربي النطفة بنظره في الأطوار المختلفة، وتصير قالباً مستوي الروح مستعداً
للقبول تعلق الروح به فمثل القلب المستوي مع الروح كمثل الشمعة مع نقش الخاتم إذا وضع
عليها تقبل جميع نقوش الخاتم، فالروح المكرم إذا تعلق بالقلب المستوي يودع فيه جميع
خواصه التي استفاد من تلك التقديمات والتأخرات الأسوية، فكل ما يجري على الإنسان من
بداية ولادته إلى نهاية عمره من الأفعال والأقوال والأحوال كلها من آثار خواص أودعها الله في
الروح فبحسب قرب كل روح الرسول ﷺ وبعده عنه له أعمال ونيات تناسب حاله في الأسوة،
فأما حال أهل القرب منهم بأن يكون علمهم على وفق السنة خالصاً لوجه الله.

لوعد الله، مثبتين على دينه، متشمرين لإعلاء كلمة توحيده: ﴿هَذَا﴾ الوقت وقت إنجاز ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصر والغلبة على الأعداء، والفوز بأنواع الغنائم والعطاء عاجلاً وآجلاً بقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [البقرة: 214]، وقوله ﷺ: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم»⁽¹⁾، وقوله ﷺ: «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر»⁽²⁾.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في جميع ما جاءنا من قِبَلِ الله ورسوله من الوعد والوعيد، وأنواع النعم والعطاء، والمحن والبلاء ﴿وَو﴾ من كمال تثبتهم وتفويضهم على الله، وتوكلهم نحوه: ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ إمام الخطوب وحدث الوقائع، ونزول المحن والبليات ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ بالله وكمال قدرته وعلمه وإرادته، وسائر صفات الذاتية والفعلية ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22] لعموم ما جرى عليهم من صولجان قضائه بلا تلثم وتذبذب في إيمانهم واعتقادهم.

ومن غاية خلوصهم في إيمانهم وتسليمهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المشمرين لإعلاء دين الله ونصرة رسوله على العزيمة الكاملة الصادقة ﴿رِجَالٌ﴾ أبطال كاملون في الإخلاص والشجاعة والوفاء ﴿صَدَقُوا﴾ في جميع ﴿مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: نجزوا مواعيقهم، ووفوا عموم عهودهم التي عهدوا مع الله ورسوله من الثبات على العزيمة، والتصبر في المعركة، وعدم التزلزل من المحل الذي عين لهم الرسول ﷺ في صف القتال، ولم يجبنوا ولم يضعفوا أصلاً.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قُضِيَ نَحْبُهُ﴾ ووفى نذره بأن قاتل مع أعداء الله على مقتضى ما عاهد ونذر حتى استشهد ووصل إلى مرامه ومبتغاه، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر - رضوان الله عليهم أجمعين - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ الشهادة، كعثمان وطلحة فقاتلوا مع الأعداء وقتلوه، ونجوا منهم سالمين منتظرين إلى قتال آخر؛ ليستشهدوا فيه ﴿وَو﴾ من كمال تثبتهم وتمكنهم في تعيينهم، وإخلاصهم في إيمانهم: ﴿مَا بَدَّلُوا﴾ من النذور والعهود التي أتوا بها عازمين عليها جازمين، ولا أضمروا في أنفسهم، كالمنافقين ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23] شيئاً حقيراً من التبديل والنقص، فكيف

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (24/11).

(2) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (9/5).

بالعظيم الكثير ١٩ بل زادوها وأكدوها.

كل ذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ المجازي لأعمال عباده ﴿الصَّادِقِينَ﴾ المخلصين منهم ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: جزاء حسناً يناسب صدقهم وإخلاصهم، أو بواسطة صدقهم وإخلاصهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وليجازيهم بمقتضى كفرهم ونفاقهم تعذيباً مخلداً مؤبداً ﴿إِنْ شَاءَ﴾ وتعلق إرادته ومشيته بتخليدهم في العذاب ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على الإيمان والإخلاص، إن تعلق إرادته بإيمانهم وإنقاذهم من العذاب الأبدي ﴿إِنْ أَلَّه﴾ القادر المقتدر على جميع ما أحاط تحت قدرته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ سائراً للذنوب من وفقهم على التوبة من عصاة عباده ﴿رُحِيمًا﴾ [الأحزاب: 24] يقبل توبتهم، ويرحم عليهم بعدما أخلصوا فيها.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ وكفى الله المؤمنين القتال وكانت الله قوتاً عزيزاً ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: 25-27].

﴿و﴾ من كمال لطف الله على المؤمنين، ووفور رحمته وإحسانه عليهم ﴿رَدَّ﴾ الله عنهم كيد أعدائهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الأحزاب المزدحمين حواليتهم، المتفقين على مقتهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: مع كمال غيظهم في مقت المؤمنين، ووفور تهوورهم وجراتهم عليك؛ لذلك طردهم سبحانه خائنين خاسرين، بحيث ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مما أملوا في نفوسهم من الظفر على المؤمنين واستئصالهم ﴿و﴾ من كمال رأفته سبحانه على المؤمنين: ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: مؤنة قتال الأحزاب بريح الصبا وجنود الملائكة، بحيث لم يقدم أحد من المؤمنين لقتالهم فانهزموا إلى حيث لم يلتفت أحد منهم خلفه، ولم يعاون أخاه ﴿و﴾ ليس بيدع من الله أمثال هذه الكرامات لأنبيائه وأوليائه؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿قَوِيًّا﴾ قديراً في نفسه يقوي أوليائه ﴿عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25] غالباً ينصرهم ويغلبهم على أعدائهم فضلاً لهم وكرامة عليهم.

﴿و﴾ بعدما كفى الله المؤمنين مؤنة الأحزاب أراد أن يكفيهم مؤنة معاونيهم؛ لذلك ﴿أَنْزَلَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ وعاونوهم؛ أي: الأحزاب ﴿مِنْ أَهْلِ

الكتاب⁽¹⁾ يعني: يهود قريظة والنضير ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم وقلاعهم، جمع صيصية، وهي ما يتحصن به من الجبل وغيره، وذلك أنه بعدما انهزم الأحزاب، ورجعوا خائبين خاسرين إلى بلادهم، ورجع ﷺ إلى المدينة مع أصحابه، وشرع يغسل رأسه، والأصحاب قد انتزعوا عن أسلحتهم، فجاءه جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، والنقع على ثنياه وعلى فرسه الذي اسمه حيزوم، وقال: وضعتم السلاح، إن الملائكة لم تضع أسلحتها منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك بالمشير إلى قريظة، وإني منزل حصونها، وكان ﷺ قد غسل نصف رأسه فعصبه وأذن بالرحيل، فقال: «من كان سامعاً ومطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»⁽²⁾.

وأعطى رايته علياً - كرم الله وجهه - فسار بالناس حتى دنا من الحصن فحاصروهم ﷺ إحدى وعشرين، أو خمسا وعشرين ليلة، وأجهدهم الحصار وضعفوا ﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبُ﴾ أي: الخوف مع كونهم متحصنين، فأرسل ﷺ فقال لهم: أتزلون بحكمي فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ، فرضوا بحكمه فزلوا، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبر النبي ﷺ فقال: «لقد حكمت بحكم الله يا سعد من فوق سبعة أرقعة»⁽³⁾ فقتل منهم ستمائة وأكثر، وأسر منهم سبعمائة، كما قال سبحانه: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: 26].

﴿و﴾ بعدما استأصلوا بالأسر والقتل ﴿أَوْرَثَكُمْ﴾ الله سبحانه إليكم أيها المؤمنون ﴿أَرْضَهُمْ﴾ أي: مزارعهم ﴿وَوُدْيَارَهُمْ﴾ التي تسكنون فيها مع ما فيها من الأمتعة والرخوة ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: مواشيهم ونقودهم وتجارتهم تفضلاً عليكم، وامتناناً ﴿و﴾ كذا تفضل سبحانه عليكم، وأورثكم ﴿أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها﴾ أي: لم تتحركوا عليها، بل لم تبصروها ولم تسيروا إليها أصلاً، وهي خير أو مكة، أو فارس أو الروم، أو كل أرض

(1) وهم العلماء المداهنون بفنون الرخص لا ريب الطلب ويفرونهم عن التجريد والمجاهدة وترك الدنيا والعزلة والانقطاع، ويقولون هذه زهبانية وليست عن ديننا ويتمسكون بآيات وأخبار لها ظاهر وباطن، فيأخذون بظاهرها ويبتلون ويضيعون باطنها، ولا يعلمون أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فيؤمنون ببعض هو على وفق طباعهم ويكفرون ببعض، هو على خلاف طباعهم، أولئك أحوان النفوس والشياطين. [التأويلات].

(2) رواه البخاري (321/1)، رقم (904)، ومسلم (1391/3)، رقم (1770)، وابن حبان (320/4)، رقم (1462).

(3) ذكره حقي في «تفسيره» (32/11).

يفتح الله إلى يوم القيامة ﴿و﴾ لا تتعجبوا من كمال فضل الله وسعة جوده أمثال هذه الكرامات؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المتفرد بالقدرة الكاملة، والقوة التامة الشاملة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 27] لا يعسر عنده مقدور دون مقدور، بل الكل في جنب قدرته على السواء، ﴿فَازْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] في مقدور حكيم قدير ﴿ثُمَّ اَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّخْكُنَّ مَرَاجِعَ جَمِيلًا﴾ (٢٨) ﴿وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أُجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مِّمَّنْ يُفْتَنُ يَضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَعَلَ مِمَّا نُؤْتِيهَا لَئِنْ أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١) [الأحزاب: 28-31].

ثم لما اشتكت أزواج النبي ﷺ من العسرة في المأكل والمشرب والملبس، وسألن منه ثياب الزينة والزيادة في النفقة، والسعة في المعيشة، وليس معه ﷺ من حطام الدنيا ما يكفي مؤنتهن على هذا الوجه اغتم رسول الله ﷺ، وتحزن حزناً شديداً، فقال تعالى منادياً له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المباہي بالفقر والعسرة ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ حين يسألن عنك أسباب التمتع والترفيه، وسعة العيش على سبيل التخير: ﴿إِن كُنْتُنَّ﴾ أيتها الحرائر العفائف ﴿تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: مطاعمها الشهية، وملابسها البهية ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ وتراضين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطيكن المتعة حسب ما ترضين ﴿وَأُسَرِّخْكُنَّ﴾ أي: أطلقكن بعد إعطائها ﴿مَرَاجِعًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28] طلاقاً يتنا لا بدعياً بلا ضرر ولا إضرار.

﴿وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: رضاء الله ورضاء رسوله ﴿و﴾ تطلبن ﴿الذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: المثوبات المعدة فيها، والجنان الموعودة عليها فعليكن أن تصبرن على ملاذ الدنيا ومشتهياتها، وسعة مطعموماتها ولين ملبوساتها؛ حتى تكن من زمرة المحسنات اللاتي تحسن في توجههن نحو الحق واللذة الأخروية، ماثلات من أمتعة

الدنيا ولذاتها وشهواتها، منصرفات عنها وعن أمتعتها وألبستها، سوى سدّ جوعة وستر عورة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعَدَّ لِلْمُخْسِنَاتِ﴾ المرجحات جانب الله وجانب رسوله على مقتضى نفوسهن، واللذات الأخروية على الدنيا وما فيها ﴿مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 29] يُستحقر دونها الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير باقية.

ثم لما نبه سبحانه عليهن طريق الإحسان، وعلمهن سبيل الفوز إلى درجات الجنان أراد أن يجنبهن ويبعدهن عن دركات النيران، فقال منادياً عليهن؛ ليقبلن إلى قبول ما يتلى عليهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ - أضافهن سبحانه إياه ﷺ؛ للتعظيم والتوقير - من شأنكن التحصن والتحفظ عن الفحشاء، والتحرز عن المكروهات مطلقاً ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ﴾ وفعلة قبيحة، وخصلة ذميمة عقلاً وشرعاً ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ أي: بينة ظاهرة فحشها بنفسها، أو ظاهرة واضحة قبحها شرعاً وعرفاً - على كلتا القراءتين - ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾⁽¹⁾ يعني: عذابكن ضعف عذاب سائر الحرائر لا أزيد منها؛ حتى لا يؤدي إلى الظلم المنافي للعدالة الإلهية، كما يضاعف عذاب سائر الحرائر بالنسبة إلى الإماء ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ التضعيف ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 30] يعذبكن أن تأتي إحداكن بها.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ﴾ ويطع على سبيل الخضوع ﴿مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويداوم على إطاعتها وانقيادهما بإتيان الواجبات، وترك المحظورات والمكروهات ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من النوافل والمندوبات ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا﴾ أي: جزاء أعمالها وطاعاتها في يوم الجزاء ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على مقابلة الأعمال المأتية ومقتضى الطاعات المرضية، ومرة

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها تزيد وتنقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة كحد الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص وذلك لأن أهل السعادة صنفين: صنف منهم السعيد والآخر الأسعد، فالسعيد: من أهل الجنة، والأسعد: من أهل الله، فإذا صدر من السعيد طاعة فأعطى أجراً واحداً من الجنة، وإن صدر معصية فأعطى بها عذاباً واحداً من الجحيم، وإذا صدر من أهل الأسعد طاعة فأعطى أجره مرتين وذلك بأن له درجة في الجنة ومرتين في القربة، وإن صدر منه معصية يضاعف له العذاب ضعفين نقص في درجته من الجنة ونقص في مرتبته من القربة أو عذاب من ألم مس النار، وعذاب من ألم مس البعد ذلك الحجاب ومن هنا كان دعاء الشري السقطي - قدس سره -: اللهم إن كنت معذبي بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب.

على ترجيحها رضا الله ورضا رسوله على مشتبهات نفسها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ تفضلاً ﴿لَهَا﴾ وامتثالاً عليها وراء ما استحققت بالأعمال والطاعات ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 31] صورياً في الجنة مما تشتهي نفسها وتلذ عينها، ومعنوياً من الحالات الطارئة عليها عند استغراقها بمطالعة جمال الله وجلاله.

﴿يَلِسَ الْنَّبِيُّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النَّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشُكُّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: 32-34].

ثم ناداهن سبحانه تعظيماً لهن، وتنبيهاً عليهن فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ الأفضل الأكمل من بين الأنبياء والرسل، كما أن ﴿لَسُنَّ﴾ ليس في الكرامة والنجابة كآحاد الناس، بل ليس كآحاد الأنبياء والرسل، كذلك ﴿لَسُنَّ﴾ أيضاً لنسبتكن إليه ﴿كَأَحَدٍ﴾ أي: كواحدة ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأن فضيلته ﴿تسري﴾ إليكن، فعليكن ألا تغفلن عنها، ولا تذهلن عن مقتضاها ورعاية حقوقها، بل من شأنكن التحصن والتقوى، والتحرز عن ملهيات الهوى مطلقاً، فلكن ﴿إِنْ أَتَيْتَنَّ﴾ يعني: إن أردتن أن تتصفن بالتقوى عن محارم الله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: لا تُلن وتلطفن ﴿بِالْقَوْلِ﴾ وقت احتياجكن إلى التكلم مع آحاد الرجال من الأجانب، ولا تجبن عن سؤالهم هينات لينات مرييات، مثل تكلم النساء المريدات لأنواع الفسادات مع المفسدين من الرجال ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وميل إلى الفجور إليكن بعدما سمع منكن تليينكن في قولكن ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿قُلْنَ﴾ بعدما تحتجن إلى التكلم معهم ضرورة ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32] مستحسناً عقلاً وشرعاً، بعيداً عن الريية المشيرة للطمع، خالياً عن وصمة الملاينة المحركة للشهوات.

﴿وَقَرْنَ﴾ أي: امسكن ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: يا نساء النبي من شأنكن التقرر والتخلي في البيوت بلا تبرز إلى الملا بلا ضرورة رعاية لمرتبكن التي هي أعلى مرتبة عموم النساء ﴿وَوَ﴾ إن احتجتن إلى التبرز والخروج أحياناً ﴿لَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تبخترن في

مشيتكن مظهرات زيتكن، مهيجات لشهوات الناظرين ﴿تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى﴾ أي: كتبختر النساء المثيرات لشهوات الرجال في الجاهلية القديمة التي هي جاهلية الكفر، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام.

خِصَّ سبحانه الأولى بالذكر، وإن كانت كلتاها مذمومتان محظورتان شرعاً؛ لأنها أفحش وأقبح وأظهر فساداً؛ لأن النساء فيها يتزين بأنواع الزينة، ويظهرن على الرجال بلا تستر واستحياء، بل بملاينة تامة وملاطفة كاملة على سبيل الغنج والدلال، وأنواع الحركات المطمعة للرجال ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ من حقن يا نساء النبي الاجتناب عن مطلق المنكرات، والاشتغال بالطاعات والأعمال الصالحات، سيما المواظبة على الصلوات النوافل والمفروضات ﴿أَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ المقربة لكُنْ إلى الله على الوجه الذي علمتن من النبي ﷺ ﴿وَأَتِينَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لنفوسكن عن الشح، وأنواع المرض المتولدة من حب الدنيا وأمانيتها إن بلغ أموالكن النصاب المقدر في الشرع.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إطاعة مقارنة بكمال الخشوع والخضوع، والتدلل التام بالعزيمة الصحيحة الخالصة، الخالية عن شوب الرياء والرعونات مطلقاً في جميع ما أمرتن بها، ونهيتن عنها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده الخُلص بإتيان هذه المواعظ والتذكيرات البليغة، والتنبيهات العجيبة البديعة ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾⁽¹⁾ أي: يزيل القدر المستقبح المستهجن عقلاً وشرعاً بالمرة يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ المجبولين على الكرامة والنجابة ﴿وَيُطَهِّرَكُمُ﴾ عن أدناس الطبيعة، وأكدار الهبولي المانعة عن الصفاء الجبلي الذاتي ﴿تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] بليغاً، بحيث لا تبقى فيكم شائبة شين، ووصمة عيب أصلاً، ذكر الضمير؛ لأن النبي وعلياً وابنيه ﷺ فيهم فغلب هؤلاء الذكور له على فاطمة وأزواج النبي، رضوان الله عليهم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ بعدما سمعتن يا نساء النبي ما يليق وينبغي بشأنكن ﴿أَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى﴾ لإصلاح أحوالكن وتكميلكن في الدين ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ غيز مخرجات لطلبه؛ إذ بيوتكن مهبط الوحي الإلهي، ومحل نزول الآيات المنزل، فلكن أن تلازمين خدمة النبي ﷺ، وتشاهدن عليه من برحاء الوحي الموجب لقوة الإيمان وكمال اليقين والعرفان، فليس

(1) الرجس: هاهنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصصات بالصدقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدم الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن. قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات.

لَكُنْ أَنْ تَخْرُجْنَ مِنْ بَيْوتِكُنَّ، وَتَتَعَبْنَ أَنْفُسَكُمْ فِي طَلَبِ مَا يَتْلَى ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى تَوْحِيدِ ذَاتِهِ، وَكَمَالِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ الْمُتَقَنَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى مَتَانَةِ فَعْلِهِ وَوَثَاقَةِ تَدْبِيرِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الْمَطْلُوعُ لِلْسَّرَائِرِ وَالْخَفَايَا ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾ يَعْلَمُ دَقَائِقَ مَا فِي ضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَرَقَائِقِهِ ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34] ذُو خَبْرَةٍ كَامِلَةٍ عَلَى سَوَاحِ صُدُورِهِمْ، وَخَوَاطِرِ قُلُوبِهِمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ مَا أَتَوْا بِهِ، وَاجْتَنَبُوا مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَانْقَادُوا لَهُ، وَيَسْلَمُوا إِلَيْهِ مَفُوضِينَ أُمُورَهُمْ كُلَّهَا.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِظِينَ وَالْخَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 35-36].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ الْمُسْلِمِينَ الْمَخْلُصِينَ، الْمَفُوضِينَ أُمُورَهُمْ كُلَّهَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الْمَفُوضَاتِ الْمَخْلُصَاتِ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمَوْقِنِينَ الْمَوْحِدِينَ ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الْمَوْقِنَاتِ الْمَوْحِدَاتِ ﴿وَالْقَانِينَ﴾ الْخَاضِعِينَ، الْمُتَذَلِّلِينَ مَعَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، بَلْ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ﴿وَالْقَانَاتِ﴾ الْخَاضِعَاتِ الْخَاشِعَاتِ ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ، الْمَخْلُصِينَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ أَيْضًا كَذَلِكَ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لِجَمِيعِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَضَاءِ ﴿وَالصَّابِرَاتِ﴾ أَيْضًا كَذَلِكَ ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ الْمُتَوَاضِعِينَ، الْمُتَضَرِّعِينَ نَحْوَ الْحَقِّ بِجَوَانِحِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أَيْضًا كَذَلِكَ ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ فَوَاضِلِ الصَّدَقَاتِ طَلَبًا لِمَرْضَاتِ اللَّهِ، وَهَرَبًا مِنْ سَخَطِهِ ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أَيْضًا كَذَلِكَ.

﴿وَالصَّامِتِينَ﴾ الْمَمْسُوكِينَ نَفُوسَهُمْ مَطْلَقًا عَمَّا لَا يَرْضَى عَنْهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَالصَّامِتَاتِ﴾ الْمَمْسُوكَاتِ أَنْفُسَهُنَّ كَذَلِكَ ﴿وَالْخَافِظِينَ قُرُوجَهُمْ﴾ عَنْ أَمَارَاتِ الزَّنَا، وَمَقَدِّمَاتِ السَّفَاحِ مَطْلَقًا ﴿وَالْخَافِظَاتِ﴾ أَيْضًا ﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾ الْمُشْتَغَلِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ

باللسان والجنان والأركان ﴿الله﴾ باسمه الجامع الشامل لجميع الأسماء والصفات لا على سبيل التعديد والإحصاء، ولا في حين دون حين، بل ﴿كثيراً﴾ مستوعباً لجميع الأعيان والأزمان، والأوقات والحالات ﴿والذِّكْرَاتِ﴾⁽¹⁾ أيضاً كذلك ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ المصلح لأحوالهم، المطلع لما جرى في ظهورهم وبواطنهم من الإخلاص على وجه التدلل والانكسار ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المتصفين بالصفات المرضية، والأخلاق المحمودة المقبولة عند الله ﴿مَغْفِرَةً﴾ سترًا وعفواً لما صدر عنهم من الصغائر هفوةً، ومن الكبائر أيضاً بعدما تابوا عنها، وأخلصوا في التوبة والإنابة على وجه الندامة ﴿وَأَجْزَأَ﴾ جزيلاً جميلاً لصالحات أعمالهم ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35] بأضعاف ما استحقوا بحسناتهم تفضلاً عليهم وامتناناً.

ثم لما أراد رسول الله ﷺ أن يزوج بنت عمته التي هي أميمة بنت عبد المطلب، المسماة زينب بنت جحش لزيد بن الحارثة الذي هو مولى رسول الله ﷺ وعتيقه، فأبت

(1) الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفاً وعياناً، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحاً، لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويقنون، فإذا فنوا استغاثوا منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهمهمهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبداً؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والتمتئ منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة.

واعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142] عبارة عن العدم؛ أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

هي وأما أميمة، وأخوها عبد الله بن جحش، فأعرضوا عن تزويجها إليه، ولم يختاروا؛
لثلا يلحق العار عليهم من تزويج الشريفة بالمولى، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني: ما صح
وجاز ﴿لِلْمُؤْمِنِ﴾ أي: لواحد من المؤمنين ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ واحدة من المؤمنات بعدما
أخلصوا الإيمان بالله ورسوله أن يتخلفوا عن حكمهما أصلاً، سيما ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ﴾
الحكيم المتقن في أفعاله.

﴿وَ﴾ نفذ ﴿رَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور المقضية، وحكماً من الأحكام المبرمة ﴿أَنْ
يَكُونَ﴾ ويبقى ﴿لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ أي: الاختيار وال ترجيح بأن يختاروا ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾
المحكوم به، والمقضي عليه شيئاً يخالف الحكم الواقع منهما أو يوافقه، بل لهم، أي:
يطيعوا وينقادوا لحكم رسول الله ﷺ الذي هو حكم الله حقيقة ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ﴾ بتغير ما حكم به رسول الله ﷺ، وادعاء الاختيار في الأمور به ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾
عن طريق الهداية ﴿ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36] وانحرف عن منهج الصواب والرشاد
انحرافاً عظيماً، وبعدهما نزلت الآية رضيت زينب وأما وأخوها، فخطبها رسول الله ﷺ
وأنكحها على زيد.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ
لَهُدًى إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: 37-39].

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل من زيد ما سمعت اذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بأن يوفقه للإيمان وقبول الإسلام، وشرفه بشرف خدمتك وصحبتك
﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن اعتقه ودعوته ابناً ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعدما لم يريك منها
شيئاً ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعدما لم يريك منها
وصمة عيب ظهرت عنها، وصمة نقص لاحت منها ﴿وَ﴾ أنت يا أكمل الرسل حيث
﴿تُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ حين قولك لزيد هذا ﴿مَا اللَّهُ﴾ المظهر لما في الصدور ﴿مُبْدِيهِ﴾

مظهره ومعلنه من ميلك إلى زينب ونكاحها، وإرادتك لطلاق زيد وافتراقه عنها ﴿و﴾ سبب إخفائك هذا، وإظهارك ضد مطلوبك أنك ﴿تَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يعيروك بمناكحة زوجة عتيقك ودعيتك، ويرموك بما لا يليق بشأنك، مع أنك بريء عنه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من ﴿أَنْ تَخْشَاهُ﴾⁽¹⁾ وتستحي منه؛ إذ هو سبحانه غيور ينتقم عمن يشاء، ويأخذه على من يشاء.

وهذا عتاب شديد وتأديب بليغ، قالت عائشة - رضي الله عنها -: لو كتم النبي شيئاً مما أنزل إليه لكتّم هذه الآية، فطلقها زيد ومضى عليها العدة، قال ﷺ: اذهب فاذكروها عليّ فذهب، فقال: يا زينب إن نبي الله أرسلني إليك بذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤمر من ربي، وقامت إلى الصلاة، فنزلت: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا﴾ أي: من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي: حاجة، وطلقها ومضت عدتها ﴿زَوْجَنَّا كَهَا﴾ يعني: زوجناك يا أكمل الرسل زينب بلا نصب ولي من الجانبين على الرسم المعهود في الشرع، بل أبحنّا لك الدخول عليها بلا عقد، وجعلناها زوجتك بلا مهر؛ لذلك كانت تباهي على سائر نسائه ﷺ قائلة: إن الله تولى نكاحي، وأنّن زوجكن أولياؤكن.

فدخل ﷺ عليها بلا إذن، ولا عقد نكاح، ولا صداق، ولا شهود، وأطعم الناس خبزاً ولحمًا، ثم قال سبحانه: ﴿لَكِنِّي لَا﴾ يعني: فعلنا ذلك؛ لكيلا ﴿يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيق وإثم ﴿فِي﴾ تزوج ﴿أَزْوَاجٍ أَذْعَبْنَاهُمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ يعني: بعدما طلقوهن وسرحوهن سراخاً جميلاً ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وحكمه النبرم، المثبت في لوح قضائه ﴿مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37] مقضياً نافذاً كائنًا على تعاقب الأحيان والأزمان.

ثم قال سبحانه تسليّةً لنبيه، وخطأً عنه العار في أمثال هذه الأفعال الكائنة في قضاء الله، المقضية في حضرة علمه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما لحق وعرض ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ المؤيد من عند الله بأنواع التأييدات المنتظرة على الوحي والإلهام في جميع أفعاله وأعماله ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وإثم سامة، ووخامة عاقبة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ﷺ؛ أي: في جميع ما قدر الله له، وكتب لأجله في لوح قضائه من الحوادث الكائنة الجارية عليه ﷺ.

(1) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به شيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكتّم هذه الآية، نظم الدرر (430/6).

على تعاقب الأزمان والأوقات، ومن جملتها: هذا النكاح، وليس أمثال هذا بيدع منا مخصوص بهذا النبي ﷺ، بل ﴿سُنَّةُ اللَّهِ﴾ الحكيم العليم، المتقن في أفعاله المستمرة القديمة التي سنّها سبحانه ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ المثبت في لوح قضائه، وحكمه المبرم في حضرة علمه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] حتمًا مقضيًا، مبرمًا محكومًا به ألبتة.

وكيف لا يقضي ولا يحكم بالسنن المقدرة للأنبياء والرسل، وهم ﴿الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ المحمولة عليهم إلى من أرسلوا إليهم من الأمم بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾ ويخافون عنه سبحانه في جميع أحواله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني: من ديدنة الأنبياء والرسل، وخصلتهم الحميدة: ألا يخافوا من الناس ولا يستحيوا منهم، لا من لوم لائم، ولا من تعيره وتهديده بالقتل والضرب وغير ذلك، بل ما يخافون إلا الله الغيور المنتقم، المقتدر على أنواع العذاب والعقاب ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ خَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39] ظهيرًا ومعينًا يكفي مؤنة أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم، وجميع ما قصدوا عليهم من المقت والمكر، وأنواع الأذى والضرر.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ٤٠ ﴿بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهُ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ ٤١ ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٤٢ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ٤٣ ﴿فَيَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ٤٤ [الأحزاب: 44-40].

ثم لما عثر الناس رسول الله ﷺ بأنه تزوج زوجة ابنه ودعيه، وهو زيد ردّ الله عليهم تعييرهم هذا وتشنيعهم فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأجانب من المؤمنين على الحقيقة سواء كان زيدًا أو غيره؛ حتى تسري حكم الحرمة في تزويج زوجته بعدما قضى الوطر عنها ﴿وَلَكِن﴾ كان ﷺ ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ الهادي لعباده أرسله إليكم؛ ليهديكم إلى طريق الرشاد على مقتضى مسته المستمرة في الأمم السابقة ﴿وَلَكِن سَنَ شَأْنِهِ أَنَّهُ صَارَ﴾ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وختم المرسلين؛ إذ بيعته ﷺ كملت دائرة

النبوة وتمت جريدة الرسالة، كما قال: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] أي: ببعثته ﷺ.

والسر فيه والله أعلم: إنه ﷺ بُعِثَ عَلَى التَّوْحِيدِ الذَّاتِيِّ، وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّمَا بُعِثُوا عَلَى التَّوْحِيدِ الْوَصْفِيِّ وَالْفِعْلِيِّ، وَبَعْدَمَا بُعِثَ ﷺ عَلَى تَوْحِيدِ الذَّاتِ خُتِمَ بِهِ أَمْرُ الْبَعْثَةِ وَالرَّسَالَةِ، وَكُمِّلَ أَمْرُ الدِّينِ؛ إِذْ لَيْسَ وَرَاءَ الذَّاتِ مَرْمَى وَمُنْتَهَى ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ الْمَطْلَعُ عَلَى جَمِيعِ مَا ظَهَرَ وَبَطَنَ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جَرَى أَوْ يَجْرِي فِي مَلَكِهِ ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40] يَعْلَمُ بِعِلْمِهِ الْحَضُورِيِّ جَمِيعَ مَا لَمَعَ عَلَيْهِ نُورُ وَجُودِهِ، حَكِيمًا فِي بَعْثَةِ الرُّسُلِ فِي تَنْبِيهِ مَنْ وَفَّقَهُ وَجَبَلَهُ فِي سَابِقِ قَضَائِهِ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، مَخْتَارًا فِي خَتْمِ الْبَعْثَةِ وَتَكْمِيلِ الدِّينِ بَعْدَمَا وَصَلَ غَايَةَ كَمَالِهِ وَظَهُورِهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ، وَعَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَكَمَالَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مُقْتَضِي إِيْمَانِكُمْ وَعِرْفَانِكُمْ: الْمَدَاوِمَةُ عَلَى ذِكْرِهِ ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ، الْفَرْدَ الصَّمَدَ، الْمُتَصِفَ بِجَمِيعِ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، الْمُسْتَجْمِعَ لِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] مُسْتَوْعِبًا لِجَمِيعِ أَوْقَاتِكُمْ وَحَالَاتِكُمْ، وَبِالْغَوَا فِي ذِكْرِهِ؛ كَيْ تَصْلُوا مِنَ الْيَقِينِ الْعِلْمِيِّ إِلَى الْعَيْنِيِّ.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أَي: نَزْهَوْهُ عَنْ جَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ مِنْ لَوَازِمِ الْحُدُوثِ وَأَوْصَافِ الْإِمْكَانِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 42] أَي: فِي جَمِيعِ آنَاءِ أَيَّامِكُمْ وَلَيَالِيكُمْ، طَالِبِينَ التَّرْقِي مِنَ الْيَقِينِ الْعَيْنِيِّ إِلَى الْيَقِينِ الْحَقِيقِيِّ.

وَكَيْفَ لَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ، وَلَا تَسْبِّحُونَ لَهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مَعَ أَنَّ شُكْرَ الْمُنْعَمِ الْمَفْضُلِ وَاجِبٌ عَقْلًا وَشَرْعًا؟ ﴿هُوَ الَّذِي﴾ سُبْحَانَهُ ﴿يُصَلِّي﴾ وَيَرْحَمُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِذَاتِهِ، وَبِمُقْتَضِيَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ يَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ بِإِذْنِهِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ بِكُمْ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْكِرَامَةُ الْعَظِيمَةُ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾⁽²⁾، ظِلْمَةُ الْعَدَمِ الْأَصْلِيِّ، وَظِلْمَةُ الطَّبِيعَةِ وَالْهَيُولَى، وَظِلْمَةُ الْحِجْبَةِ التَّعِينِيَّةِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أَي: نُورِ

(1) رواه البيهقي في «السنن» (472/2).

(2) قال في التاويلات: وما قال: «لتخرجكم» لمعنيين: أحدهما: لئلا يكون للملائكة منة عليكم بإخراجكم من الظلمات إلى النور، والثاني: لأنهم لا يقدرُونَ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْهَادِي مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْإِيمَانِ؛ بَلْ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَصِفَاتِهَا إِلَى نُورِ الرُّوحَانِيَّةِ وَصِفَاتِهَا وَمِنْ ظُلُمَاتِ الْخَلْقِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ إِلَى نُورِ الرُّبُوبِيَّةِ بِجَذَبَاتِ تَجَلِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

الوجود البحت، الخالص عن ظلمات التعينات والكثرات مطلقاً ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموفقين على التوحيد الذاتي ﴿رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43] يوفقهم إلى الإيمان بمقتضى رحمته الواسعة، ثم يوصلهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان، مترقياً من مضيق الإمكان إلى سعة فضاء الوجوب عنايةً لهم وتفضلاً عليهم، ثم يشرفهم بشرف لقائه بلا كيف، ولا أين بعدما انخلعوا عن جلباب الناسوت، وتشرفوا بخلعة اللاهوت. لذلك ﴿تَجِثُّهُمْ﴾ وترحيبهم من قبل الحق ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتطهير عن رذائل التعينات، ونقائص الأنانيات والهويات المستتعبة لأنواع الضلالات والجهالات ﴿وَأَعَدُّ لَهُمْ﴾ سبحانه نزلاً عليهم ﴿أَجْزًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 44] وجزاء عظيمًا مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وداعياً إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَمَرْحُوهُنَّ مَرَكَحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ [الأحزاب: 45-49].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد، المخصوص بأنواع الفضائل والكرامات ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى كافة البرايا وعامة العباد ﴿شَهِيدًا﴾⁽¹⁾ تشهد لهم الحقائق، وتحضرهم المعارف، وتوصلهم بالتنبيهات الواضحة

(1) قال الورتجبي: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خير صدق، فنهدي بك قلوباً صمياء، أرسلناك شاهداً لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل، فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال. قال الواسطي: شاهداً بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق. وقال جعفر: داعياً إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجاً منيراً يبله على سبيل الرشاد، ويصبره عيوب النفس وغيبها.

إلى مرتبة الكشف والشهود؛ لكون أصل فطرتهم وجبلتهم مجبولة عليها ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تبشرهم بالتوحيد المسقط للإضافات المستتبعة لأنواع الكثرات المشوشة لنفوسهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45] تنذرهم عن مقتضيات القوى البهيمية من الشهوية والغضبية الجالبة لأنواع الخذلان والحرمان.

﴿وَدَاعِيًا﴾ دعوهم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ المنزه عن التعديد والتجديد دعوة مسبقة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه؛ أي: بوحيه وإلهامه ﴿وَوَعْدًا﴾ بالجملة: أرسلناك إلى عموم العباد ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46] تضيء لهم، ويستضيئون منك في ظلمات الضلالات والجهالات المتراكمة من الحجب الظلمانية والكثافات الهيولانية، المتولدة من الكدورات الطبيعية، الباقية من ظلمة العدم.

﴿وَوَعْدًا﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل سبب بعثتك وسره ﴿بَشِيرٍ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بتوحيد الله، المترقين من اليقين العلمي إلى العيني، الطالبين الوصول إلى اليقين الحقي ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: حق وثبت لهم عنده سبحانه ﴿مِّنْ﴾ عناية ﴿اللَّهِ﴾ معهم ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47] لا فضل أكبر منه، وهو الرضا والفوز بشرف اللقاء.

﴿وَوَعْدًا﴾ بعدما سمعت وظيفتك يا أكمل الرسل مع المؤمنين المسترشدين منك الطالبين هدايتك وشرف صحبتك ﴿لَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد المجاهرين به ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يخفون كفرهم وضلالهم عنك لمصلحة دنيوية ويظهرون عندك خلاف ما في نفوسهم، ولا تجلس معهم ولا تصاحبهم أصلاً ﴿وَوَعْدًا﴾ إن أذك في مرورك عنهم وملاقاتك معهم بغتة ﴿دَعِ أَذَاهُمْ﴾ أي: اتركهم وأذاهم ولا تلتفت إلى الانتقام عنهم، واصبر على مضضهم، فإن صبرك يقتلهم عن الغيظ، ويطفى لهب غضبهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في دفع شرورهم، وثق إليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 48] حسيًا كافيًا يكفي عنك مؤنة أعدائك، ويكفي عنك أذاهم عناية لك واهتمامًا بشأنك.

ثم لما أشار سبحانه إلى ما أباح على نبيه ﷺ بلا حرج أراد أن يشير إلى ما أباح أيضًا على عموم المؤمنين بلا حرج لهم فيه وضيق، وقال سبحانه مناديًا لهم على وجه العموم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بجميع أوامره ونواهيه المنزلة من عنده، مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ وعقدتم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اللاتي هن أحقاء بنكاحكم من المسلمات والكتايات ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي تطنوهن وتجامعوهن

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: ما لزم ووجب لكم فيما يتلى عليكم ﴿عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ وتحصونها، كما للمدخلات بهن والمتوفات عنهن من المدة المقدرة في الشرع، وبعدها لم تلزم عليكم العدة أيها المطلقون ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن المتعة المستحسنة عقلاً وشرعاً إن لم يكن صدقاتهن مقدرة، وإن كانت مقدرة فأعطوهن نصف ما قدر من المهر بلا تنقيص ومما طلة ﴿و﴾ بعد أن أعطيتموهن المتعة أو النصف من المهر المقدر ﴿سَرَّخُوهُنَّ﴾ وأخرجوهن من منازلكن ﴿سَرَّاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] إخراجاً هيناً ليناً، بلا ضرر وإضرار، وتنقيص مما استحققن عليه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ أَخِيكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: 50].

ثم أشار سبحانه إلى تعداد ما أحل لحبيبه ﷺ من الأزواج، فقال منادياً له تبجيلاً وتعظيماً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المفضل المكرم من لدنا على سائر الأنبياء والرسل بالعنايات العلية والكرامات السنية ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَخْلَلْنَا﴾ وأبحنا ﴿لَكَ﴾ في شرعك ودينك ﴿أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ﴾ وأعطيت ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن معجلاً ﴿و﴾ أبحنا لك أيضاً ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء المردودة إليك ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿عَلَيْكَ﴾ ورده سبحانه من خيار المسييات وصفيات المنعم إليك، وصفية - رضي الله عنها - منهن ﴿و﴾ أحللنا لك أيضاً في دينك ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ أَخِيكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ من مكة حباً لك، وطلباً لمرضاة ربك، وما أبحنا لك ممن لم تهاجر معك.

﴿و﴾ أبحنا لك أيضاً خاصة ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ قيد بها؛ لأن الكافرة لا تليق بفراشه ﷺ ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ تبرعاً بلا جعل ومهر، فعليه الخيار ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: يطلب أن يدخل عليها ويقبلها للفراش أحللناها ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿لَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تكريماً لك وتعظيماً لشأنك ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم نبها لغيرك من أمتك، بل هي من جملة الأمور التي اختصت بها، كالتزوج فوق

الأربعة وغيرها، وإنما نخص أمثال هذا لك يا أكمل الرسل ولم نعممها من أمتك؛ لأننا من وفور حكمتنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ بعلمنا الحضورى من ظواهر أحوال المؤمنين وبواطنهم استعدادهم على ﴿مَا فَرَضْنَا﴾ وقدرنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حتمًا ﴿فِي﴾ حقوق ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ من المهر والولي والشهود، وجميع متممات النكاح ومكملاته.

﴿و﴾ علمنا أيضًا منهم سبب ما قدرنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المسببات الزائدة، ألا يدخلوا عليهن إلا أن يملكوا بوجه آخر، لكن أنزلنا عندك يا أكمل الرسل بعض ما أوحينا عليهم، وخصصناك بها دونهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق في تحميلها، مع أنا نعلم من ظواهرك وبواطنك أنك لا تهمل شيئًا من حقوق الله ولا حقوق عباده، ولا يقع منك ظلم على أحد من خلق الله؛ لذلك لم نضيق عليك أمر النكاح وضيقتنا على المؤمنين ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده، المصلح لمفاسدهم ﴿عَفُورًا﴾ يستر ويعفو عنهم بعض ما يعسر عليهم التحرز في رعاية حقوق المؤمنين والمؤمنات ﴿رُحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50] يرحمهم ويعين عليهم في حفظها ورعايتها.

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عِيْنَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١ ﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢ ﴾ [الأحزاب: 51-52].

ثم لما وسعنا يا أكمل الرسل أمر نكاحك، وأبحنا لك ما لم يبيح لغيرك، فلك الخيار في أزواجك ﴿تَرْجِي﴾ أي: تؤخر وتترك مضاجعة ﴿مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي﴾ أي: تلصق وتضم ﴿إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ منهن بلا حرج وضيق، بل ﴿وَمِنْ ابْتِغَيْتَ﴾ وطلبت نكاحها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ وطلقت تطليقًا ثلاثًا أو أقل ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ﴿عَلَيْكَ﴾ أن تعيدها إلى نكاحها بلا تحليل وتزويج للغير؛ إذ من جملة خواصك: تحريم مدخولتك على الغير مطلقًا ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تفويض أمورهن إليك ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب ﴿أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ﴾ إذ نسبتك إليهن حيثن على السواء، بلا ميل منكر وترجيح.

﴿و﴾ المناسب لهن أن ﴿لَا يَخْزَنَ﴾ بعد التفويض، بل ﴿و﴾ لهن أن ﴿يَرْضَيْنَ بِمَا

آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ ﴿٥٠﴾ إِذْ لَا تَتَفَاوَتُ نَسَبُكَ إِلَيْهِنَّ أَصْلًا؛ لَأَنَّكَ مُجْبُولٌ عَلَى الْعَدْلِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، سِيَمَا بَيْنَ أَزْوَاجِكَ الْمُتَسَيِّبِينَ إِلَيْكَ كُلَّهِنَّ بِنَسْبَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿وَاللَّهُ﴾ الْمَطْلَعُ لَضُمَائِرِ عِبَادِهِ ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ يَجْرِي ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَضُمَائِرِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمِيلِ إِلَى بَعْضِ النِّسَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَنَبِينَا ﷺ مَنَزَهُ عَنْ هَذَا الْمِيلِ وَأَمَثَالَهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ الْمُرَاقِبَ لِأَحْوَالِكُمْ ﴿عَلِيمًا﴾ بِمَا جَرَى عَنْهُ فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْمِيلِ إِلَى الْهَوَى ﴿حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 51] يَتَّقَمُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ لَا يَعَجَلُ.

ثُمَّ لَمَّا خَيْرَ سَبْحَانَهُ حَبِيبِهِ ﷺ فِي أَمْرِ نِسَائِهِ، وَفَوَّضَ أُمُورَهُنَّ كُلَّهَا إِلَيْهِ ﷺ، وَرَضِيَ كُلَّهِنَّ بِحُكْمِهِ بِلَا إِبَاءٍ وَمَنْعٍ، أَرَادَ سَبْحَانَهُ أَنْ يَمْنَعَ وَيَنْهِيَ حَبِيبَهُ ﷺ عَنْ تَطْلِيقِهِنَّ وَتَبْدِيلِهِنَّ وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهِمْ بَعْدَمَا بَلَغْنَ التَّسْعَةَ، فَقَالَ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿النِّسَاءُ﴾ أَيُّ: تَزْوِجُهُنَّ ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أَيُّ: بَعْدَ أَنْ يَتَفَقَّنَ أَوْلَئِكَ التَّسْعَةُ عَلَى حُكْمِكَ وَأَمْرِكَ، وَفَوَّضَ أُمُورَهُنَّ إِلَيْكَ ﴿وَلَا﴾ يَحِلُّ لَكَ أَيْضًا ﴿أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَّ﴾ أَيُّ: تَطْلُقَ بَعْضَهُنَّ وَتَبْدُلَ بَدَلَهُنَّ ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ آخَرَ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ ﴿وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ^(١) أَيُّ: حَسَنَ الْأَجْنِيَّاتِ، لَا يَحِلُّ لَكَ تَزْوِجُهُنَّ كَمَا حَلَّ لَكَ فِيهَا مَضَى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ بِدُخُولِهَا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ الْمَطْلَعُ عَلَى مَقَادِيرِ أَعْمَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا جَرَى فِي مَلِكِهِ وَمُلْكُوتهِ ﴿رُقِيًّا﴾ [الأحزاب: 52] يَرِاقِبُهُ وَيَحَافِظُهُ إِلَى أَنْ يَكْمَلَ، ثُمَّ يَمْنَعُ عَنْهُ عَلَى مَقْتَضَى حُكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْطِئِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِنَّا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا

(١) قَالَ نَجْمُ الدِّينِ: لِأَنَّ حِلَاوَتَهُ تَزِيدُ فِي الْحَرَارَةِ الَّتِي يَتَوَلَّدُ مِنْهَا عَيْنُ الْقُلُوبِ لِتُسْكِنَ الْحَرَارَةَ وَرَفَعِ الصَّفْرَاءَ وَلَا عِتْدَالَ الْمَزَاجِ الْقَلْبِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، وَمِنْهَا: مَا يَتَعَلَّقُ بِتَرْبِيَةِ نَفُوسِ أَزْوَاجِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ضَيَّقَ الْأَمْرَ عَلَيْهِنَّ فِي بَابِ الصَّبْرِ عَلَى مَا أَحْلَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَوَسَّعَ أَمْرُ النِّكَاحِ عَلَيْهِ وَغَيْرِهِ فِي الْإِرْجَاءِ وَالْإِيوَاءِ إِلَيْهِ كَانَ أَحْمَضُ فِي مَذَاقِهِنَّ وَأَبْرَدُ شَيْءٍ لِمَزَاجِ قُلُوبِهِنَّ فَغَلَا مِنْ بَحْلَاوَةٍ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ مِنْ الْعَدَمِ وَمُسْكِنَ بِهَا بِرُودَةِ مَزَاجِ قُلُوبِهِنَّ حِفْظًا لِسَلَامَةِ قُلُوبِهِنَّ وَجَبْرًا لِانْكَسَارِهَا، وَمِنْهَا: مَا يَتَعَلَّقُ بِمَوَاقِعِ نَفُوسِ رِجَالِ الْأُمَّةِ وَنِسَائِهَا لِيَتَعَطَّلُوا بِأَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْوَالِ أَزْوَاجِهِ أُمَتِهِ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رُقِيًّا﴾ [الأحزاب: 52] يَرِاقِبُ مَصَالِحَهُمْ.

فَتَلَوْتُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
 إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ [الأحزاب: 53-54].

ثم أشار سبحانه إلى آداب المؤمنين مع النبي ﷺ في استئذانهم منه، ودخولهم عليه وتناولهم الطعام عنده وبين يديه، وتكلمهم مع أزواجه ﷺ، إلى غير ذلك من الأدب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، مقتضى إيمانكم رعاية الأدب مع رسولكم ﷺ، سيما من قبل بيوته ومحارمه ومساكنه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ بغتة بلا استئذانٍ منكم، بل بيوت سائر المسلمين أيضًا ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دعوة ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ حاضر عنده حال كونكم ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً﴾ أي: منتظرين لوقته ﴿وَوَ﴾ عليكم ألا تدخلوا بلا دعوة ﴿لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ واطعموا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ واخلجوا على الفور وتفرقوا.

﴿وَلَا﴾ تتمكنوا بعد الطعام عنده ﴿مُنْتَشِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يتحدث بعضهم مع بعض، أو تسمعونه منه ﷺ أو من أهل بيته، أو لهم آخر من مهماتكم ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ أي: اللبث على أي وجه ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَخِي﴾ ﷺ ﴿مِنْكُمْ﴾ أن يخرجكم حسب مقتضى حميته البشرية؛ لأنه ﷺ حيي حليم، يصبر على أذاكم ولا يخرجكم عنوة ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده، المنبه لهم مصالحهم ﴿لَا يَسْتَخِي مِنْ﴾ إظهار كلمة ﴿الْحَقِّ﴾ التي يجب إيصاله إلى المؤمنين؛ ليرسخ في قلوبهم ويتمرنوا عليه ويتصفوا به ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواجه ﷺ ﴿مَتَاعًا﴾ وحوائج ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ متسترين ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بحيث لا يقع نظركم إليهن ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الستر والتحجب من أزواج النبي ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من أمارات الإثم ومخائل المعصية وسوء الأدب ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أيضًا ترغيبًا للشيطان، وتطهيرًا لنفوسكم من غوائله وتلبساته.

﴿وَوَ﴾ بالجملة: اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لَكُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بشيء يكرهه ويستنزه عنه مطلقًا ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ﴾ المدخولة عليها ﴿مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ سواء كن حرائر أم إماء ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ أي: إبداءه ﷺ ونكاح نسائه بعده ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور، المقتدر على أنواع الانتقام ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53] مستجلبًا لأليم العذاب وعظيم العقاب.

واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿شَيْئًا﴾ حقيقًا مما يتعلق بإيذائه ﷺ من قبل أزواجه في حياته ﷺ وبعد مماته ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ في أنفسكم غير مجاهرين به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على مكنونات صدوركم ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر على ألسنتكم أو خطر ببالكم ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 54] لا يعزب عن علمه شيء من الدقائق والرقائق.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: 55-58].

ثم لما نزلت آية التستر والحجاب قيل: يا رسول الله، الأبناء والآباء والأقارب والعشائر أيضًا يتكلمون معهم من وراء الحجاب؟ نزلت: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم ولا ضيق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أزواجه ﷺ ﴿فِي﴾ اختلاط ﴿آبَائِهِمْ﴾ والتكلم معهم بلا سترة وحجاب ﴿وَلَا أَبْنَائِهِمْ﴾ أيضًا ﴿وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ﴾ إذ الكل بعيد عن التهمة، مصون عن الريبة ﴿وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ يعني: النساء المؤمنات لا الكتابيات ﴿وَلَا﴾ جناح أيضًا في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من العبيد والإماء، وقيل: من الإماء خاصة دون العبيد، كما مر في سورة «النور».

﴿و﴾ بالجملة: يا نساء النبي المحفوظ، المصون عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿أَتَّقُوا اللَّهَ﴾ الغيور المنتقم، واحذرون عن محارمه ومنهياته مطلقًا، وامتنعوا بأوامره حتى تشاركون معه ﷺ في أخص أوصافه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائركن ﴿كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلج في خواطر كن من الإثم واللمم ﴿شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: 55] حاضرًا عنده، غير مغيب عنه إلى حيث لا يخفى عليه سبحانه خافية وإن دق ولطف.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، والاعتناء بشأنه وعلو منزلته ومكانه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ المهيمين عنده، الوالهيين بمطالعة جماله، المستفرقين بشرف لقائه ﴿يُصَلُّونَ﴾ يعتنون ويهتمون بإظهار

فضله؛ تبجيلاً وتعظيماً ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ الحقيق لأنواع التوقير والتمجيد، المستحق لأصناف الكرامة والتحميد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله بوسيلة نبيه ﷺ، وتحققوا بتوحيده سبحانه بإرشاده ﷺ أنتم أولى وأحق بتعظيمه وتصليته وتسليمه ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ مهما سمعتم اسمه وذكرتم بأنفسكم، وقولوا: اللهم صل على محمد ﴿وَسَلِّمُوا﴾ له ﴿تَسْلِيمًا﴾⁽¹⁾ [الأحزاب: 56] قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة عليه ﷺ للمؤمنين كلما جرى ذكره في أي حال من الأحوال والأحيان اللائقة للدعاء.

ثم لما أشار سبحانه إلى علو شأن نبيه ﷺ وسمو برهانه، وأوجب على المؤمنين تعظيمه وتوقيره والانقياد إليه في جميع أوامره ونواهيه، أراد أن يشير إلى أن من قصد إيذاءه وأساء الأدب معه، يستحق اللعن والطرده، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ حيث يأتون بالأفعال الذميمة القبيحة، المستكرهة عقلاً وشرعاً عنده ﷺ فيؤذونه بها، ذكر سبحانه نفسه؛ تعظيماً لشأن حبيبهِ ﷺ وإلا فهو منزّه عن التأذي والتأثر، أو لأن إيذاءه ﷺ مستلزم لإيذائه سبحانه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم عنهم، وطردهم عن سعة رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على السنة خلص عباده، وأبعدهم عن مجالسهم ومحافلهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ عن عز حضوره وسعة رحمته وجنته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في النار ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57] مؤلماً مزعجاً، لا عذاب أسوأ منه وأشد.

ثم أردف سبحانه إيذاءه ﷺ بإيذاء المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بزمائم الأفعال والأقوال، وقبائح الحركات ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جريمة صدرت عنهم واستحقوا الجناية عليها ﴿فَقَدْ اخْتَمَلُوا﴾ وتحملوا هؤلاء المؤذنين المفترين ﴿بُهْتَانًا﴾ جالباً لأنواع العقوبات ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 58] ظاهراً عظيماً

(1) صلوات الله على النبي أن بلغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمة، وصلوات الملائكة عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمة، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل. قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلوة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني استفتحته. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقداراً تظن أنك تقضي به من حقه شيئاً بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك، إذ حقه أجل من أن يقضيه أمة أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى.

مستعقبا، مستتبعا لأسوأ الجزاء وأشد العقاب والنكال؛ إذ رمي المحصنات من أفحش الجنايات.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ لئن لم يُلْهِنَّ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْبِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 59-62].

ثم أشار سبحانه إلى آداب النساء، وصيانتهم عن الرجال واستحيائهم منهم؛ ليسلمن عن افتراء المفترين ورمي الرامين، فقال مناديا لحبيبه ﷺ ليبلغ إلى أمته وأزواجه وأزواجهم أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد من عندنا، المبعوث إلى إرشاد البرايا ذكورهم وإناثهم ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ أولاً على سبيل الشفقة والنصيحة ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ أيضا ﴿وَو﴾ عموم ﴿نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا برزن لحوائجهم أحيانا ﴿يُدْنِينَ﴾ ويغطين ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على أيديهن وأرجلهن وجميع معاطفهن ﴿مِنْ﴾ فواضل ﴿جَلَابِيبِهِنَّ﴾ وملاحفهن، بحيث لا يبدو من أعضائهن شيء سوى العينين، بل عين واحدة؛ ليميزن بها عن الإمامة والبغيات المرييات، المطاعم لأهل الفجور والفسوق ﴿ذَلِكَ﴾ التستر والتغطي على الوجه الأتم الأبلغ ﴿أَدْنَى﴾ وأقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ ويميزن أولئك الحرائر العفائف عن الإمامة والمرييات، وبعدها عرفن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولا يفترين بهتانا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لما اختلج في جوانحهن ﴿غَفُورًا﴾ لهن بعدما ثبتن إلى الله وأثبتن ﴿رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59] يقبل توبتهن ويرحم عليهن إن أخلصن فيها.

ثم قال سبحانه مقسما مبالغا: والله ﴿لئن لم يَتَّخِ﴾ ولم يتزجر ﴿الْمُتَفَقِّهُونَ﴾ المفترون الرامون عن إيذاء المؤمنات الحرائر، المصونات المحفوظات، والسرايا العفائف بعدما تحفظن وتسترن على الوجه المذكور ﴿وَو﴾ لم يكف عنها المتعرضون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ وضعف إيمان، واعتقاد وميل إلى الفسق والفجور ﴿وَو﴾ خصوصا ﴿الْمُرْجِفُونَ﴾ المجاهرون المترددون ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالأراجيف والأخبار الكاذبة والمفتريات الباطلة الغليظة، ويذيعونها فيها عنادا أو فسادا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ولنأمرنك بقتالهم وإجلالهم، ولنسلطنك عليهم بإقامة الحدود الشديدة والتغريبات

البليغة إلى حيث لا يمكن التمكن والإقامة فيها، فيضطروا إلى الجلاء ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعدما وضعنا الحدود وأمرناك بإقامتها ﴿لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا﴾ أي: لا يستطيعون ولا يقدرّون بمجاورتك في المدينة ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 60] يستعدون فيه للبعد والجلاء والهرب من بين المسلمين والفرار عنهم.

والى أن يفروا ويهربوا أولئك المبعدون المطرودون حتى لا يؤاخذون ولا يؤسرون؛ إذ هم كانوا بين المؤمنين ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين، مبعدين عن روح الله وكنف جوار رسوله وجوار المؤمنين؛ لكونهم مؤذنين متعرضين لعورات المسلمين، الباهتين المفترين إياهن بيهتان عظيم، والموصوفين بهذه الصفات المذمومة ﴿أَنتُمْ تَقْفُوا﴾ ووجدوا ﴿أُخِذُوا﴾ وأسروا ﴿و﴾ إن لم يمكن أسرهم ﴿فَقَتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 61] شديداً إلى حيث استوصلوا بالمرة.

واستتصال أمثال هذه الغواة المطرودين المردودين ليس ببدع، بل ﴿سُنَّةُ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم، القديمة المستمرة، التي سنّها سبحانه ﴿فِي﴾ حق المؤذنين المفترين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ المستمرة الجارية على مقتضى حكمته المتقنة ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62] إذ لا يبدل حكمه، ولا يغير حكمته، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٤ خَلِّفَيْنِ فِيهَا آدَمًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ٦٧ رَبَّنَا آتِنَا مِنْكَ الْعَذَابَ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ٦٨﴾ [الأحزاب: 63-68].

ثم نبه سبحانه على حبيبه ﷺ بما سيسأل عنه الكافرون تهكمًا واستهزاءً، وأشار إلى جواب سؤالهم؛ تعليمًا له ﷺ وإرشادًا، فقال: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿النَّاسُ﴾ الناسون عهدوهم التي عهدوا مع الله في مبدأ فطرتهم ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي جئت بها من عند ربك، وأخبرت بقيامها بوحى الله وإلهامه، كما أخبر بها سائر الرسل والأنبياء السالفة - صلوات الله عليهم - مستهزئين معك، سائلين عن تعيين وقتها وقيامها،

أقرب هو أم بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك عنها: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا﴾ أي: علم قيامها وتعيين وقتها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم، لا يطلع عليها أحدا من خلقه، بل هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها في غيبه، بل أخبر سبحانه بوقوعها حتماً، وأبهم تعيين وقتها، فمجرد تحقق وقوعها يكفي في الخوف من أهوالها ﴿وَوَعَدَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بوقوعها وأبهم في تعيين وقتها ﴿مَا يُذَرِّكَ﴾ ويطلعك أيها المخاطب تعيينها، ومن أنى لك أن تبعتها أو تنكر وقوعها ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة ﴿تَكُونُ﴾ شيئاً ﴿قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63] تقع عن قريب، فأنى لم تتزود لها، ولم تنها أسبابها أيها المفرور في الدنيا الدنية وأمتعتها الفانية ولذاتها المتناهية؟

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿لَعَنَ﴾ رد وطرده عن ساحة عز قبوله ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على إنكار يوم الجزاء والأمور الواقعة فيه ﴿وَوَعَدَ لَهُمْ﴾ قهراً عليهم وزجراً ﴿سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: 64] مصعراً مملوءاً من النار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً لا بأنفسهم ولا بواسطة غيرهم من شفعاينهم ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرهم وينقذهم منها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 65] ينصرهم ويعين عليهم لإخراجهم عنها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقْلُبُ﴾ وتصرف ﴿وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من جهة إلى جهة؛ تشديداً للعذاب عليهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حيثذ متمنين متحسرين: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾ كما أخبر علينا الرسل والأنبياء ﴿وَأَطَعْنَا الرُّسُلَ﴾ [الأحزاب: 66] المبعوث إلينا، المنذر عن هذه العقوبات التي تلحق بنا اليوم، فلن نبلى ونصيب بهذا العذاب المؤبد المخلد.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً، متضرعين إلى الله على سبيل التمني والتناجي: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات وأحسن تربيتنا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكذبنا الكتب والرسل وأنكرنا عليهما عناداً ﴿إِنَّا أَطَعْنَا﴾ يا ربنا في إنكار كتبك وتكذيب رسلك ﴿سَادَتْنَا وَكُتِبَآءُنَا﴾ الذين هم أصحاب الثروة والرئاسة بيننا، فعلل جميع أمورنا وعقدتها بأيدي أولئك الرؤساء البعداء الضالين ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 67] السوي المستقيم الموصل إلى توحيدك وتصديق رسلك وكتبك، وأنت أعلم منا يا ربنا بأننا ما ضللنا إلا بإضلال أولئك الطغاة الضالين المضلين.

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ﴾ جزاء لإضلالهم وانتقاماً عنهم ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: آتهم

ضعف عذابنا، ضعفًا لضلالهم وضعفًا لإضلالهم إيانا ﴿وَالْعَنُوهُمْ﴾ واطردهم ربنا وأبعدهم عن سعة رحمتك الواسعة ﴿لَعَنَّا كَيْبَرًا﴾⁽¹⁾ [الأحزاب: 68] طردًا عظيمًا وتبعيدًا بعيدًا حيث لا يُرجى نجاتهم، طردًا كثيرًا متواليًا متتاليًا مستمرًا على التعاقب والترادف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۖ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 69-71].

ثم وصى سبحانه عموم المؤمنين بألا يكونوا مع نبيهم ﷺ مثل بني إسرائيل مع موسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - ولا يقصدوا آذاه ﷺ كما قصدوا، ولا يرموه بشيء لا يليق بشأنه كما رموا به موسى عليه السلام؛ لأن معاشر الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقًا، بل عن الصغائر أيضًا، فلا بد لمن آمن لهم ألا يرموهم بمكروه، ولا يليق بشأنهم مع أنه سبحانه أظهر براءتهم وطهارة ذيلهم، فبقي إثم الافتراء والمراء على المفترين، فينتقم سبحانه عنهم منها ويأخذهم بها.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ مقتضى إيمانكم به أن ﴿لَا تَكُونُوا﴾ قاصدين آذاه ﷺ بنسبة المكروه المنكر إليه، وبتعييره وتشنيعه بأمر صدر عنه ولم تفهموا سره ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ صلوات الله وسلامه عليه، فاغتم منها وتحزن حزنًا شديدًا ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ﴾ المطلع على نجابة طيبته وطهارة ذيله وأظهر طهارته ﴿مِمَّا قَالُوا﴾ أي: من مقولهم؛ يعني: مؤداه ومضمونه.

وذلك أن قارون استأجر بغية بجعل كثير على أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها، فرموه بها، ثم أحضروها في المجلس؛ لتفضحه عليه السلام على رءوس الملا، فأقرت

(1) يشير إلى تهديد المنافقين ومن بصددهم من منافقي أهل الطلب من المتصوفة والمتعرفة الذين يلبسون في الظاهر ثيابهم ويلبسون في الباطن ما يخالف مقرهم وسرائرهم، وأنهم لو لم يمتنعوا عن أفعالهم لم يتغيروا عن أحوالهم لأجرى معهم سته في التدبير والتغيير على من سلف من نظرائهم ونزل بكبرائهم، ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك واستهزائهم بالمؤمنين بها، ثم استعجالهم إتيانها من غير استعداد لها، ثم أخبر عن صعوبة العقوبة التي علم أنه يعذبهم بها وما يقع عليهم من الندامة على ما فرطوا فلا تنفعهم الندامة، ولا يكون سوى الغرامة والملامة. [التأويلات].

لعصمته ﷺ وأظهرت ما أعطوها من الجعل، فدعا موسى عليه، ففعل بهم وبما معهم سبحانه ما فعل من الخسف على ما مر في سورة «القصص» أو قذفه بعيب في بدنه من برص أو أدره، فبرأه الله سبحانه بأن تذهب الحجر بشيابه بين الملا وهو يعشي على عقب ثيابه عرياناً يظهر، حتى يظهر براءته من العيب لهم ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كيف لا يبرؤه سبحانه، ولا يظهر طهارته؛ إذ ﴿كَانَ﴾ موسى ﷺ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ الذي اصطفاه للنبوّة والرسالة والتكلم معه ﴿وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69] في كمال الوجاهة والقربة؛ لذلك اختاره بسمع كلامه بلا واسطة.

وبعدما سمعتم حكاية ما جرى على أولئك البغاة الغواة المؤذنين المفترين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المتقّم الغيور، ولا تؤذوا رسوله ﷺ ﴿وَقُولُوا﴾ له بعدما تكلمتم معه في شأنه ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70] صحيحاً سالماً، بعيداً عن وصمة الأذى والتهمة والافتراء؛ حتى لا يلحقكم ما لحق على قوم موسى.

ولكم الإخلاص بالله ورسوله، وأخلصوا واستقيموا في الأفعال والأقوال وأطيعوا ﴿يُضْلِحْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ لثمر لكم الثمرات العجيبة والدرجات الرفيعة عنده سبحانه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي صدرت عنكم ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ حق إطاعته ويخلص في أعماله ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إطاعة خالية عن وصمة الأذى والرعونات المؤذية إلى أنواع المكروهات والمنكرات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونال ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71] هو الدخول بدار الخلود، والفوز بقاء الخلاق الودود.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٧٣﴾ [الأحزاب: 72-73].

ثم لما أراد سبحانه بمقتضى تجلياته الحبيبة اللطيفة أن يطالع ذاته الكاملة المتصفة بصفات الكمال في مرآة مجلوة تصير نائبة عنها، خليفة لها، يترأى فيها جميع أوصافه وأسمائه الذاتية على ما أشار إليه الحديث القدسي، عرض سبحانه أمانة الخلافة والنيابة على استعدادات المظاهر وقابليات المصنوعات، فامتنع الكل عن

حملها، وأبى عن قبولها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى تجلياتنا الجمالية المنبعثة عن الشئون الحَيَّة والتطورات اللطيفة ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ أي: أمانة الخلافة والنيابة، وأردنا أن نحمل أعباء العبودية المشتملة على التخلق بالأخلاق الإلهية والتكليفات الشاقة، القالعة للأوصاف البهيمية والأدناس الإسكانية الراسخة في القوى الطبيعية؛ لتحصل التصفية والتزكية عن أكدار الهولي المانعة عن الوصول إلى الملأ الأعلى ﴿عَلَى﴾ استعدادات ﴿السَّمَوَاتِ﴾ العلا ﴿وَوَ﴾ قابليات ﴿الْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَالْجِبَالِ﴾ الأسنى، وعلى استعدادات ما بينهما من المركبات العظمى والمؤلفات الكبرى ﴿فَأَبْنِ﴾ وامتنعن؛ أي: كل منهن ﴿أَنْ يَخْمِلُنَّهَا﴾⁽¹⁾ إذ ما أودع سبحانه في استعداداتهم وقابلياتهم ما يسع لحمل هذه الأمانة العظيمة والكرامة الكريمة.

﴿وَوَ﴾ لذلك ﴿أَشْفَقْنَا مِنْهَا﴾ أي: خفن وخشين من حملها ألا يفين حقها ﴿وَوَ﴾ بعدما امتنعن وخفن جميعًا عن حملها ﴿حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ المجبول على صورة الرحمن، المنتخب من بين الأكوان بالقوة القدسية المودعة فيه، المقتضية لحملها

(1) قال في التاويلات: أي: عليها وعلى أهاليها يشير إلى أن حقيقة الأمانة وهي التي عبر عنها بالفوز العظيم، وقد فسرنا الفوز العظيم بالفناء في الله والبقاء بالله وهو عبارة عن قبول الفيض الإلهي بلا واسطة فالحاصل أن حقيقة الأمانة هي الفيض الإلهي بلا واسطة ولهذا سمي بالأمانة؛ لأنه من صفات الحق تعالى فلا يملكه أحد وقد اختص الإنسان بقبول هذا الفيض وحمله من سائر المخلوقات لاختصاصه بإصابة رشاش النور الإلهي لقوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظِلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ فَقَدْ اهْتَدَى» فكل روح أصابه رشاش نور الله صار مستعدًا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة فكان عرض الفيض الإلهي على المخلوقات وحمل الفيض خاصًا للإنسان؛ لأن نسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص، فالعالم شخص وقلبه الإنسان فكما أن عرض فيض الروح عام على الشخص الإنساني وقبوله وحمله مخصوص بالقلب بلا واسطة، ثم من القلب بواسطة العروق والشريانات وعروق ممتدة تصل عكس فيض الروح إلى جميع الأعضاء فيكون متحركًا به كذلك عرض الفيض الإلهي عام لاحتياج الموجودات به وقبوله وحمله خاص للإنسان ومنه يصل عكس الفيض إلى سائر المخلوقات ملكها وملكوتها، فأما في ملكها: وهو ظاهر الكون أعني الدنيا فيصل الفيض إليه بواسطة صورة للإنسان من بصنائه الشريفة وحرفه اللطيفة التي به العالم معمور ومزين، وأما إلى ملكوتها: وهو باطن الكون أعني الآخرة فيصل الفيض إليها بواسطة روح الإنسان هو أول شيء تعلق بالقلبة فيعلق الفيض الإلهي من أمر كن أولًا بالروح الإنساني، ثم يفيض منه إلى عالم الملكوت فظاهر العالم وباطنه معمور بظاهر الإنسان وباطنه هذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان.

﴿إِنَّهُ﴾ حيثُ من كمال شوقه ووفور تحننه وذوقه ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ على نفسه بارتكاب هذه التحميلات البليغة والتكليفات الشديدة الثقيلة من قطع المألوفات الطبيعية، والمشتهيات البهيمية واللذات الحسية ﴿جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] ذهولاً عن مقتضيات ناسوته وملائماتها بحسب القوى البشرية لغلبة القوى الروحانية الجالبة للسعادة الأزلية الأبدية على القوى الجسمانية المستتعبة للشقاوة السرمدية، فأين هذا من ذلك؟
 رزقنا الله المنعم المفضل ألا نظلم على نفوسنا، ونمنعها عن مقتضياتها وأمانيتها، بمَنه وجوده.

ومن جملة الأمانات المحمولة على الإنسان: حفظ السرائر ورعاية الآداب والحقوق الجارية بين ذوي الألباب من الرجال والنساء، وإنما حملها سبحانه عليهم ابتلاء لهم واختباراً ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ المخفين، الساترين كفرهم وشركهم والخيانات الصادرة عنهم لمصلحة دنيوية ﴿وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ منهم كذلك ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين المجاهرين بكفرهم وشركهم وخياناتهم ﴿وَالْمُشْرِكَاتِ﴾⁽¹⁾ أيضاً كذلك تعذيباً شديداً لعدم وفائهن على الأمانات المحمولة

(1) قال في التاويلات: هذه اللام لأمر الصيرورة والعاقبة يشير إلى أن الحكمة في عرض الأمانة أن يكون الخليفة في أمرها على ثلاث طبقات:

طبقة منها: تكون للملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون في ذلك لهم ثواب ولا عذاب، وطبقة منها: من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها، فهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلمية على أنفسهم وضيقوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها حاصل فهم أمرهم العذاب المؤبد، وطبقة منها: من يحملها ويؤد حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسان يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع إلى الحضرة بالتضرع والابتهاال مقرباً بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات ليتوب الله عليهم لقوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: 73] والحكمة في ذلك فتكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال صفة من صفاتها.

فالتبقة الأولى: إذ لم تحمل الأمانة وتركوا نفعها لضررها فهم مرآة جمال صفة عدله، والتبقة الثانية: إذا حملوها طمعاً في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعرض من الدنيا الفانية، ﴿فَمَا رَبَّحتَ تَبَارَتْهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَلِينَ﴾ [البقرة: 16] فهم مرآة فيها جمال صفة قهره، والتبقة الثالثة: إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوها حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبره ووقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاه وابتلاء بغير اختيارهم، ثم اجتنبهم ربهم قتاب عليهم، وهداهم بجلبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الأحزاب: 73] للمؤمنين

عليهم ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والإنابة بعدما صدر عنهم شيء من الخيانة وعدم الوفاء بالأمانة التي ائتمنوا بها من حقوق الله وحقوق العباد، وبعدما تابوا وأنابوا على وجه الإخلاص والندامة، فقد أدوا حق الأمانة ووفوا بها على وجهها ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر عنهم من الخيانة قبل التوبة ﴿رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73] يقبل توبتهم ويرحم عليهم بعدما تابوا وأخلصوا.
رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لمرتبة الخلافة والنيابة، القاصد لحمل الأمانة الإلهية، المتحمل لأعباء العبودية بالقوة الذاتية القدسية والقابلية الفطرية، يسر الله عليك الأداء والوفاء بجميع حقوقه وعهوده وأماناته، وحقوق جميع عباده ورعاية لوازم الإخاء والمصاحبة معهم، وأطاقك سبحانه على حمل التكاليف من المفترضات والنوافل والمسئوليات، وأعانتك على التخلق بأخلاقه، أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك وتتخذة وكيلاً في أمرك الذي هو التخلق بأخلاقه سبحانه؛ ليتيسر لك مرتبة الخلافة ويتم عليك أمر النيابة.

فلك أن تعرف أولاً شياطينك التي هي أمانيك النفسانية، المتولدة من القوى البهيمية، المانعة عن الوصول إلى الدرجات العلية، وتفصلها على وجه لا يشذ عنك منها شيء، وتلازم على زجرها ومنعها إلى أن تصير الكل منزجرة مقهورة للقوى الروحانية، بحيث لا يبقى لها قوة مقاومة ومقابلة مع الروحانيات أصلاً.

ثم لك أن تنفي وتفني أوصافك وأخلاقك في أوصاف الحق وأخلاقه إلى أن تضمحل وتتلاشى أوصافك وأخلاقك في صفاته وأخلاقه سبحانه، ويرتفع اسمك ورسمك عن البين، ويتصفي العين من الغين، والشأن عن الشين، ولم يبق البون والبين، واتصل العين بالعين، وحيث صرت ما صرت، وفزت بما فزت، وتمكنت في مقعد صدق الخلافة والنيابة عند ملك مقتدر.

رزقنا الله التقرر والتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وتبديل.

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة سبأ

لا يخفى على من انكشف بسعة حضرة العلم الإلهي إجمالاً، واعتقد إحاطتها وشمولها واستيعابها لجميع ما ظهر وبطن في الأولى والأخرى، وفيما لا سبيل للعباد إليها لا تعقلاً ولا تخيلاً وتوهماً تفصيلاً، أن معلوماته سبحانه أجل من أن يحيط بها عقول مصنوعاته وخيالاتهم وأوهامهم، ومن تحقق من السالكين المجاهدين في سبيل الله المشمرين نحوه بكمال وسعهم وطاقتهم سعة قلب الإنسان وكمال إحاطته ووسعة قضائه، فقد انكشف هو بالجملة بسعة حضرة علمه سبحانه، وكثرة معلوماته فوجب له الإتيان بالحمد والثناء على الوجه الذي انكشف له واستر عنه أيضاً.

لذلك حمد سبحانه نفسه، وأثنى على ذاته تعليماً لعباده وإرشاداً لهم على سبيل شكر نعمه وأداء حقوق كرمه، بعدما تيمن باسمه الأعظم الجامع لجميع الأسماء والصفات فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى على جميع ما ظهر وبطن من مظاهره ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم مصنوعاته بإفازة رشحات وجوده عليهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده بإفازة العقل المنشعب من حضرة علمه إليهم؛ ليدركوا به أحوال مبدئهم ومعادهم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُقَرَّبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٣ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سبأ: 1-4].

﴿الْحَمْدُ﴾ المحيط، المستوعب لجميع المحامد الناشئة من السنة عموم ما لمع عليه برق الوجود، ثابت ﴿لَهُ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء المرية لعموم

الاشياء الكائنة غيبًا وشهادة ﴿الَّذِي﴾ ثبت ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا وإظهارًا وإعدامًا وإعادةً جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: علويات عالم الأسماء والصفات والأعيان الثابتة في الأزل ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ أي: سفليات عالم الطبيعة المنعكسة من العلويات وما بينهما من الكوائن والفواصد التي برزت بنور الوجود على مقتضى الوجود، من مكنم العدم إلى فضاء الظهور ﴿وَوَ﴾ بعدما ثبت أن الكل منه بدأ وإليه يعود في الانتهاء، ثبت ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من عموم السنة المظاهر، المتوجه نحو المظهر الموجد طوعًا لا غيره من الوسائل والأسباب العادية؛ إذ انتهى الكل إليه ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ كما أن مبدأه منه في الأولى، فله الحمد في الأولى والآخرى ﴿وَوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله بالاستقلال بلا شريك وظهير ﴿الْخَبِيرُ﴾ [سبا: 1] عن كيفية اتحاد المظاهر وإعدامها، أولاً وآخرًا، أزلاً وأبدًا.

إذ هو سبحانه بمقتضى علمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ظلمة الطبيعة القابلة لفيضان الاستعدادات، الفائضة من المبدأ الفياض ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من المعارف والحقائق الكامنة المخفية فيها على مقتضى تربية مربيها ومظهرها ﴿وَوَ﴾ كذا يعلم بعلمه الحضوري ﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء إلى أرض المظاهر والمسميات من الفيوضات والفتوحات، الشاملة لأنواع الكمالات ﴿وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا﴾ متصاعدة من المكاشفات والمشاهدات الحاصلة من تلك الفتوحات الهابطة ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الرَّحِيمُ﴾ لعباده بإفاضة أنواع الكرامات بمقتضى رحمته الواسعة ﴿الْغَفُورُ﴾ [سبا: 2] لذنوب أنانياتهم وتعيناتهم الباطلة بعدما رجعوا إليه وتوجهوا نحوه تائبين آيين مخلصين.

رزقنا الله الوصول إلى محل القبول.

﴿وَوَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بقيام الساعة في كتبه وعلى السنة رسله، سيما في كتابك يا أكمل الرسل وعلى لسانك ﴿قَالَ﴾ الجاحدون المنكرون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(1) قال في التأويلات: يشير إلى الثناء على نفسه والمدح لذاته إخبارًا عن كمال جلاله واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامد لنفسه محمود وأحمد موجود وفي الأزال معبود وبالطلحات مقصود الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكًا وملكًا لا شركة لأحد فيهما فلا ملك ولا مالك إلا هو وإن جرى هذان الاسمان على مخلوقه، فإن ذلك المخلوق داخل في ملكه وملكه وأنه الرزقي لا يتغير عن لونه، وإن سمي كافورًا.

بالحق، وستروه بالباطل وكذبوا الرسل وعاندوا معهم يا أكمل الرسل، مستهزئين: ﴿لَا تَأْتِيْنَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة على لسانك أيها المدعي مع أنك ادعيت الصدق في جميع أخبارك وأقوالك، فكيف لا تأتي الساعة التي ادعيت إتيانها، وأخبرت بها؟ لعلك كذبت وافتريت إلى ربك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما استهزءوا معك، ونسبوك إلى الكذب والافتراء، وأنكروا بإتيان الساعة: ﴿بَلَى﴾ تأتي الساعة الموعودة عليّ وعلى جميع الرسل والأنبياء، لاشك في إتيانها وقيامها ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كِلَاءٌ إِذْ يُذَكَّرُونَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ القادر المقتدر على إنجاز جميع ما وعد بلا خلف ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة الموعودة من عنده؛ إذ وعده سبحانه مقضي حتماً جزماً، بلا شائبة شك وطريان غفلة عليه وسهو عنه، وكيف يطرأ عليه سبحانه سهو وذهول، وهو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بالعلم الحضورى، فالمغيبات حاضرة عنده غير مغيبة عنه؛ إذ ﴿لَا يَغْزِبُهُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنَّهُ﴾ سبحانه وعن حيلة حضرة علمه ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ومقدار خردلة لا من الكوائن ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَلَا﴾ من الكوائن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات، ولا من المكونات الحادثة بينهما ﴿وَلَا أَضْفَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: 3] هو حضرة علمه ولوح قضائه.

إنما أثبت وأحضر الكل في لوح قضائه ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، واعترفوا بتصديق رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة إليه سبحانه، المقبولة عنده، خير الجزاء ويعطيهم أحسن المواهب والعطاء ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عنده المستحقون لأنواع الكرامات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما تقدم من ذنوبهم تفضلاً عليهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبا: 4] صوري في الجنة، ومعنوي عند وصولهم إلى شرف لقائه، بلا كيف وأين ووجهة وجهة ومكان وزمان.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ آيَةٍ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾
 ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَحْنُ بِمُتْلَأٍ حَالٍ مُتْلَأٍ ۚ وَإِنَّا لَمُرْكَبَةٌ مُقْرَنَةٌ بِرَبِّكُمْ وَإِنَّا لَمُتْلَأُونَ ۚ
 ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
 الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ مَلَأَتْ مِنْ تِلْكَ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَا يُنْزَلُ مِنْهَا مِنْ بَرَقٍ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ

بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ [سبا: 5-9].

﴿و﴾ ليجزي سبحانه أيضًا أسوأ الجزاء وأشد العذاب والنكال الكافرين ﴿الَّذِينَ سَعَوْا﴾ واجتهدوا ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إتيان الآيات البينات، منكرين لإيجادنا وإنزالنا إياها، مكذبين رسلنا الحاملين لوحينا، صارفين الناس عن تصديقهم وعن الإيمان بنا وبهم، وملتهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون، المبعدون عن روح الله وسعة رحمته، المنهمكون في الغي والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أشد وأسوأ ﴿مِّن﴾ كل ﴿رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ [سبا: 5] وعقوبة مؤلمة؛ لعظم جرمهم وسعيهم في إبطال آياتنا الناشئة عن كمال قدرتنا ووفور حكمتنا، وإنما سعوا واجتهدوا في إبطال آياتنا؛ لجهلهم بنا وبها وبما فيها من الهداية العظمى والسعادة الكبرى، وعدم تأملهم وتدبرهم في مرموزاتها ومكنوناتها؛ لذلك أنكروا بها واجتهدوا في إبطالها وتكذيبها جهلاً وعناداً.

﴿وَيَرَى﴾ يا أكمل الرسل العنماء العرفاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من قبلنا فضلاً منا إليهم المتعلق بأن الكتاب ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ تأييداً لشأنك وترويضاً لأمرك ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع، الحقيق بالمتابعة والإطاعة، الثابت المثبت نزوله عندنا بلا ريب وتردد ﴿و﴾ كيف لا يكون حقاً ﴿يَهْدِي﴾ بأوامره ونواهيهِ أو تذكيراته الضالين المنصرفين عن جادة العدالة ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْقَرِيزِ﴾ الغالب، القادر المقتدر على انتقام المنحرفين عن منهج الرشاد ﴿الْحَمِيدِ﴾ [سبا: 6] المستحق في ذاته لجميع المحامد والكرامات، لولا تحميد الناس له وتمجيدهم إياه، وصراطه هو التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال، المنبئ عن إسقاط عموم الإضافات.

﴿و﴾ بعدما سمع المشركون عن رسول الله ﷺ من أحوال الحشر والنشر والمعاد الجسماني، وأحوال الفرع الأكبر ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بعض لبعض على سبيل الاستهزاء والتهكم مع رسول الله ﷺ مستفهمين مستنكرين، متعجبين من قوله: ﴿هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون الرسول ﷺ، وإنما أنكروه لاستبعادهم قوله وإنكارهم على مقوله، وإنما يتحدثون به بينهم؛ لغرابته ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ بالمحال العجيب ويخبركم بالممتنع الغريب معتقداً إمكانه، بل جازماً بوقوعه ووجوده، وهو أنكم ﴿إِذَا مَرَّكُمْ﴾ وفرقتم ﴿كُلَّ مَرْقٍ﴾ أي: تفرقاً بليغاً وتشتتاً شديداً، إلى حيث صرتم هباء تذهب به الرياح

﴿إِنَّكُمْ﴾ بعدما صرتم كذلك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١) [سبأ: 7] على النحو الذي كتتم عليها في حياتكم قبل موتكم بلا تفاوت، كما يتجدد الأعراض بأمثالها.

بعدما سمعتم قوله هذا، كيف تتفكرون في شأن هذا الرجل الذي يدعي النبوة والوحي والرسالة من عند الحكيم العليم، مع أنه صدر عنه أمثال هذه المستحيلات، أي شيء تظنون في أمره هذا؟

﴿أَفْتَرَى﴾ وكذب عن عمد ونسبه ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تفريرًا وتلييسًا على ضعفاء الأنام؛ ليقبلوا منه أمثال هذه الخرافات، ويعتقدوه رسولاً مخبراً عن المغيبات وعجائب الأمور وغرائبه ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ خبط واختلال يعرض في دماغه، فيتكلم بأمثال هذه الهذيان هفوة بلا قصد وشعور بها، كما يتكلم بأمثاله سائر المجانين، وسماه وحياً وإلهاماً؟

ثم لما بالغ المشركون في قدحه ﷺ وتجهيله، رد الله عليهم بأنه لا افتراء في كلامه ﷺ وإخباره، ولا خبط في عقله؛ إذ هو ﷺ من أعقل الناس وأبعدهم عن الافتراء والمراء وأسلمهم عن الكذب وجميع الكدورات الطبيعية مطلقاً ﴿بَلِ﴾ الكافرون الضالون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ والأمور التي أخبر الله بوقوعها فيها، ولا يصدقون أيضاً بما نطق به الكتب والرسل، مخلصون في النشأة الأخرى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿وَوَ﴾ متوغلون في ﴿الضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: 8] عن الهداية أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، ومن شدة غيهم وضلالهم تكلموا بأمثال هذه الهذيان الباطلة بالنسبة إلى من هو منزّه عن أمثالها مطلقاً.

ثم أشار سبحانه إلى كمال قدرته واقتداره على انتقام المكذبين ليوم الحشر والجزاء والمفترين على رسوله ﷺ على سبيل الجزاء من الخبط والجنون، وغير ذلك من الأمور التي لا يليق بشأنه ﷺ، فقال مستفهماً على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿أَ﴾ عموا وفقدوا أبصارهم أولئك المعاندون ﴿قُلْمْ يَزُوا﴾ ولم ينظروا ويصروا ﴿إِلَى مَا يَتَنَزَّلُ﴾

(١) قال في التأويلات: يشير إلى أن تراكم الغفلة على القلوب وظلمات الشهوات النفسانية وغلطات الصفات الذميمة الحيوانية إذا استولى أرخيت حجبها بين الروح والقلب، فيحرم القلب من الاستغادة بنور الروح ويصود بظلمات صفات النفس ويقسو حتى ينسى الله وينسى عالم الأرواح الذي هو الآخرة كالطفل الصغير يسير إلى بعض البلاد فينسى وطنه الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه إن ذكر الآخرة، وهي وطنه الأصلي لم يتذكر ويكفر به.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَقَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ المحيط بهم خلفاً ووراء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الممهدة لهم بين أيديهم، يتمكنون عليها ويتنعمون بمستخرجاتها وبما نزل عليها من السماء، ولم تفكروا وتأملوا أن إحياء الموتى أهون من خلق السموات العلا على إيجادهما أكمل من القدرة على إعادة المعدوم، فينكروا قدرتنا عليها مع أنهم يرون منا أمثال هذه المقدورات، ولم يخافوا من بطشنا وانتقامنا، ولم يعلموا أننا من مقام قهرنا وجودنا وجلالنا ﴿إِنْ نَشَاءُ﴾ إهلاكهم واستئصالهم ﴿نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون وأمثاله ﴿أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾ بالتحريك والتسكين على القراءتين؛ أي: قطعاً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فنهلكهم بها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ البيان على وجه التقرير والتعير ﴿لَايَةً﴾ دالة على قدرتنا وقهرنا على انتقام من خرج عن ربة عبوديتنا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ﴾ تحقق بمقام العبودية وفرض أموره كلها إلينا ﴿ثَنِيْبٍ﴾ [سبا: 9] رجع إلينا وهرب عن مقتضيات قهرنا وجلالنا، بعدما عرف أن الكل منا بدأ، ويحولنا وقوتنا ظهر وعاد أيضاً كما بدأ؛ إذ منا المبدأ وإلينا المنتهى، وليس وراءنا مقصد ومرمى.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَّعَهُ وَالطُّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدُ ۝١٠ أَنْ أَعْمَلَ مَنِيغَتٍ وَقَدَرِي السَّرْدُ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلِسَلِمَتِنَ الرِّيحُ غُلُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۝١٢ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۝١٣ وَمَن يَزِجُ مِثْمَهُمْ عَنْ أَمْرِئَانَا فَذُقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٤ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ ۝١٥ وَجَفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ۝١٦ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَعَاتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٧﴾ [سبا: 10-14].

﴿و﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ عبدنا ﴿دَاوُدَ﴾ المتحقق بمقام الخلافة والحكومة التامة ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ له، وامتناناً عليه مما لم نقض بأمثاله إلى سائر الأنبياء وهو أننا أمرنا الجمادات والحيوانات بإطاعته وانقياده إلى أن قلنا منادياً لها: ﴿يَا جِبَالُ أَوِيِّي﴾^(١) أي: أرجعي ﴿مَعَهُ﴾ التسبيح، وسيري معه حيث صار، ولا

(١) قوله: «أَوِيِّي» الحامة على فتح الهمزة، وتشديد الواو، أمراً من الثاويب وهو الترجيع، وقيل:

تخرجي عن حكمه، فانقادت له الجبال إلى حيث متى سبج، سُمع منها التسبيح والتذكير؛ وإلى حيث سار، سارت معه ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا سخرنا له ﴿الطُّيُورُ﴾ وصارت تنقاد لحكمه وأمره كسائر العقلاء، فيحكم عليها ويأمرها، فامتثلت بأمره وأطاعت بحكمه بلا منع وإباء ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من جملة فضلنا إياه: إِنَّا ﴿أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبا: 10] بلا نار ومطرقة، حيث جعلناه ليناً في يده كالشمعة، يبدله كيف يشاء بلا تعب ومشقة.

وبعدما أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَمَرْنَاهُ ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ يا داوود بإرشادنا وتعليمنا ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروعاً واسعات ﴿وَقَدَرِ﴾ أي ضيق وكثف ﴿فِي السُّرُودِ﴾ والنسج بقدر الحاجة، لا يمكن مرور السهام عنها أصلاً ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما آتينا وأتباعه الملك والولاية التامة والنبوة العامة فضلاً وامتناناً له أصالة ولأصحابه تبعاً، قلنا لهم تعليمنا: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا آل داوود ﴿صَالِحًا﴾ من الأعمال والأخلاق مقبولاً عندي، مرضياً لدي ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى علمي وإطلاعي ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [سبا: 11] أنقد كلاً منها، أقبل صالحها وأرد فاسدها.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أيضاً من مقام فضلنا وجودنا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داوود، عليهما السلام ﴿الزَّيْعَ﴾ العاصفة، وجعلناها مسخرة تحت حكمه وتصرفه، بحيث تحمل كرسي سليمان وجنوده عليها وتسير إلى حيث أشار وشاء ﴿عُدُوَّهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها في الغداة مسيرة شهر ﴿وَزَوَاجُهَا شَهْرٌ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أيضاً من كمال جودنا إياه ﴿أَسَلْنَا﴾ وأذبنا ﴿لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي: النحاس، فذاب في معدنه، ونبع منه نبوع العيون الجارية في كل شهر ثلاثة أيام، قيل: أكثر ما في الناس من النحاس من ذلك.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سخرنا له أيضاً؛ عناية منا معه ﴿مِنَ الْجِنَّةِ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مقهوراً تحت حكمه وتصرفه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أمرهم سبحانه بإطاعته وانقياده بحيث لا ينصرفون ولا يستكفون عن حكمه أصلاً ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط معهم سبحانه تأكيداً لإطاعتهم إياه، أنه

التسبيح بلفظ الخبشة، وقال القشيري: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أذأبي النهار كله بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحى معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فسروه بارجع مع التسبيح، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.

وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: أويي بضم الهمزة أمراً من آب يؤوب أي ارجع معه بالتسبيح.

﴿مَنْ يَزِغْ﴾ أي: يعدل ويمل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ المبرم المحكم إياهم، وهو إطاعتهم نبينا سليمان عليه السلام ﴿نَذِقُهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مِنْ عَذَابِ الشَّعِيرِ﴾ [سبا: 12] لأنه قد وكل سبحانه على الجن ملكًا بيده سوط من نار، فمن مال منهم عن حكم سليمان ضربه به، فأحرقه ولا يراه الجنى.

لذلك صاروا مقهورين تحت حكمه، أمرهم ما يشاء حيث ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ﴾ أي: مساجد لطيفة وحصون حصينة وأماكن منيعة، إنما سمي بها، يحارب عليها ويلتجأ إليها في الشدة ولدى الحاجة، ومن جملة ما عملوا له من المساجد الحصينة العجيبة: بيت المقدس، في غاية الحسن والبهاء وكمال المنعة، ولم يزل على عمارته عليه السلام إلى أن خربه بختنصر ﴿وَتَمَائِيلَ﴾⁽¹⁾ هي الصور من الزجاج ورخام ونحاس وصفر وشبهه، فكانوا يعملون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في البقاع الشريفة والمساجد والمعابد؛ ترغيبًا للناس في دخولها والعبادة فيها وتنشيطًا، وقد عملوا له في أسفل كرسيه أسدين، وفي فوقه نسرين، فإذا أراد الصعود عليه بسط له الأسدان ذراعيهما فارتقى، وإذا تمكن عليه أظله النسران بجناحيهما، وحرمة التصاوير شرع مجدد ﴿وَجِفَّانِ﴾ أي: صحاف عظيمة وقصاع كبيرة وسبعة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض الكبار، ومن غاية كبرها يقعد على كل جفنة عند الأكل ألف رجل ﴿وَقُدُورِ رَأْسِيَّاتٍ﴾ ثابتات على أثافيهن بحيث لا تنزل عنها؛ لثقلها وكبرها، وقيل: أثافيهما متصلة بها، وكانت يترقى إليها بالسلالم.

وبعدما أعطى آل داود من الجاه والثروة والعظمة ما لم يعط أحدًا من العالمين، قيل لهم من قبل الحق؛ تنبيهًا عليهم وحثًا لهم إلى مواظبة الشرك ومداومة الرجوع نحو المفضل الكريم: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آل دَاوُدَ﴾ عملاً صالحاً مرضياً عند الله، ولا سيما اشكروا ﴿شُكْرًا﴾⁽²⁾ مستوعبًا لجميع جوارحكم وجوانحكم وأوقاتكم وحالاتكم بحيث

(1) أي: مما يتوجه به إلى الله فإن الله تعالى اختص للشيطان بهذه الصفة من بين سائر المخلوقات أعني التوجه إلى الله والسجود له والإباء والاستكبار عن سجدة غيره، وهذا أخلص عبودية لله وأخص وصف وأشرفه في الموجودات إذا كان بإذن الله وأردى خصلة وأخص وصف وأخبثه إذا كان بالطبيعة وخلاف أمر الله وموجبًا للطرد واللعن. [التأويلات].

(2) يشير به إلى شكر داود الروح وسليمان القلب، ومن آله السر والخفي والنفس والبدن، فإن هؤلاء كلهم من متولدات الروح، فشكر البدن استعمال الشريعة لجميع أعضائه وحول رجليه ومحال الحواس الخمس، ولهذا قال: ﴿وَاعْمَلُوا﴾، وشكر النفس: بإقامة شرائط التقوى والورع وشكر

لا يشذ عنكم وقت لم يصدر عنكم فيها شكر ﴿و﴾ اعلموا أنكم وإن بالغتم في أداء شكر نعم الله وببالغتم بمقتضى المرتبة القصوى منه، ما أدبتم حق شكره؛ إذ ﴿قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبا: 13] لأنه وإن استوفى واستوفر في أدائه إلى حيث يستوعب جميع أركانه وجوارحه وجوانحه وجميع خواطره وهواجس نفوسه وسره ونجواه، ومع ذلك لا يوفي حقه؛ لأن توفيقه وإقداره سبحانه عليه أيضًا نعمة مستحقة للشكر، مستدعية له لا إلى نهاية، ولذا قيل: الشكور من يرى نفسه عاجزًا عن الشكر؛ إذ لا يمكن الإتيان به على وجه لا يترتب عليه نعمة أخرى مستلزمة لشكر آخر.

ثم لما كان داود عليه السلام أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل تمامه، فوصى بإتمامه إلى سليمان عليه السلام، فاستعمل الجن فيه، فلم يتم أيضًا، إذا أخبر من قبل الحق بأجله، فتغصم غمًا شديدًا بعدم إتمام البيت، فأراد أن يعطي ويستر على الجن موته ليتموه، فأمرهم أن يعملوا له صرخًا من قوارير له باب، فعملوا له صرخًا كذلك.

فدخل عليه على مقتضى عادته المستمرة من التحنث والتخلي للعبادة شهرًا وشهرين وسنة وستين، فاشتغل بالصلاة متكئًا على عصاه، فقبض وهو متكئ عليها، فبقي كذلك إلى أن أكلت الأرضة عصاه، فخر، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت يومًا وليلة مقدارًا منها، فقاسوا على ذلك، فعلموا أنه قد مات منذ سنة، وكان عمره حينئذ ثلاثًا وخمسين سنة، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وأبداً لعمارة البيت لأربع مضي من ملكه.

أخبر سبحانه في كتابه هذا، وحكاه على الوجه الذي مضى، وأوجزه فقال: ﴿قُلْنَا قُضِيَتْ أَمْرُهُ﴾ أي: على سليمان ﴿الْمَوْتُ﴾ فأخبرنا له بموته، فدعا نحونا بأن نعطي على الجن أمر موته؛ حتى يتموا عمارة البيت، فأعطيناهم وسترنا عليهم موته إلى أن تم عمارة البيت، وبعدما تم ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ وما هداهم ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ وما أخبرهم عنه ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: عصاه، وهو متكئ عليها ﴿قُلْنَا﴾ أكلتها.

القلب لمحبة الله وخلوه عن محبة ما سواه، وشكر السر: مراقبة عن التفاته بغير الله، وشكر يبلل وجوده على نار المحبة كإفراش على شعلة الشمعة، وشكر الخفي قبول الفيض بلا واسطة في مقام الوحدة مختفيًا بنور الوحدة عن نفسه. [التأويلات].

انكسرت عصاه ﴿خَزْ﴾ وسقط السوط على الأرض، فحيثُذ ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ أي: ظهر لهم وانكشفت عندهم أمر موته، وعلموا بعدما التبس الأمر عليهم موته بخروجه وسقوطه، فظهر حيثُذ للإنس أن الجن لم يكونوا مطلقين على الغيوب على ما زعموا في حقهم؛ لأنهم لو كانوا من المطلقين لعلموا موته أول مرة، ولم يعلموا مع ﴿أَنْ﴾ أي: أنهم؛ أي: الحق ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ مطلقاً، لعلموا أمر موته حين وقع، ولو علموا ﴿مَا لَبِثُوا﴾ واستقروا ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا: 14] الذي هو عذاب العمل المتضمن لأنواع المتاعب والمشاق، مع أنهم لم يرضوا به، لكنهم لبثوا وعملوا سنة بعد موته، فظهر أنهم ما كانوا عالمين بالغيوب.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَوِشٍ مِّنْ مِّثْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبا: 15-18].

وبعد ما ذكر سبحانه قصة آل داود وسليمان، ومواظبتهم على شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، أردف سبحانه بكفران أهل سبا على نعمه سبحانه، وإنكارهم على حقوق كرمه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي: لأولاد سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي: مواضع سكناهم، وهي باليمن، يقال لها: مأرب، بقرب صنعاء، مسيرة ثلاث مراحل ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة ونعمة جسيمة دالة على كمال معطيها وموجدتها، وعلى اتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الحسنى، وهي ﴿جَنَّتَانِ﴾⁽¹⁾ حافتان محيطتان ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: جنة عجيبة عن يمين بلدهم، وأخرى عن يسارها.

(1) قال في التأويلات: أي: جنة الروح عن يمين السر وحية القلب عن شمال السر، وذلك لأن السر لطيفة خلقت من بين الروح والقلب فما يرد من فيض الروح وداود الحق تعالى يصل إلى السر، ومنه يرد إلى القلب وما يصدر من القلب من أنوار الذكر والطاعات أو ظلمة أوصاف النفوس في معاملاتها يصعد إلى السر، ومن السر يصعد إلى الروح فالسر بين هاتين جنتين في رغد من العيش وسلامة من الحال، فأمر بالصبر على العاقبة والشكر على النعمة.

وبعدما أعطيناهم هاتين الجنتين المشتملتين على غرائب صنعنا وبدائع مخترعاتنا، قلنا لهم على طريق الإلهام: ﴿كُلُوا﴾ أيها المتنعمون المتفضلون من عندنا ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع الكرامات ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه، وواظبوا على أداء حقوق كرمه مع أن بلدتكم التي تسكنون فيها ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ماء وهواء، بريثة عن المؤذيات مطلقاً ﴿وَالَّذِي رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم فيها بأنواع الكرم ﴿رَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبا: 15] سائر عليكم فرطاتكم بعدما أخلصتم في شكر نعمه وأداء حقوق كرمه.

وبعدما نبهنا عليهم بشكر النعم والمداومة عليها، لم يتبهاوا ولم يتفطنوا، بل ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، واشتغلوا بأنواع الكفران والطغيان والإنكار على المفضل المنان، المكرم الديان، وبعدما انصرفوا عنا وعن شكر نعمنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وهي الحجارة المركومة بالجص والنورة، وأنواع التدبيرات المحكمة للأبنية والأساس.

وذلك أنه كان لهم سد قد بته بلقيس بين الجبلين، وجعلت لها ثلاث كوات بعضها فوق بعض، وبنت دونها بركة عظيمة، فإذا جاء المطر اجتمع عليها مياه أوديتهم، فاحتبس السيل من وراء السد، فيفتح الكوة العليا عند الاحتياج، ثم الثانية، ثم الثالثة السفلى، فلا ينفد ماؤها إلى السنة القابلة.

فلما طغوا وكفروا لنعم الله بعدما أمروا بالشكر على السنة الرسل، قيل: أرسل الله عليهم ثلاثة عشر نبياً، فكذبوا الكل وأنكروا لهم، سلط الله على سدهم الجُرذ - قيل: هي نوع من الفأرة - فنقبت في أسفل السد بإلهام الله إياها، فسال الماء، ففرقت جتتهم ودفنت بيوتهم في الرمل، وكان ذلك من غضب الله عليهم على كفران نعمه.

﴿وَالَّذِي أَعْرَضُوا عَنْ شُرْكَنَا، وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّيْلِ مَا أَرْسَلْنَا﴾ بِجَنَّتَيْهِمْ ﴿الْمَذْكُورَتَيْنِ، الْمَشَابِهَتَيْنِ لِلْجَنَّةِ الْآخِرِيَّةِ﴾ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ آخرين، سماهما سبحانه على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿ذَوَاتِنِ أَكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَفِطٍ﴾ بشع سمج كزقوم أهل النار ﴿وَالَّذِي ذَوَاتِي﴾ طرفاء لا ثمر لها ﴿وَشَيْءٌ مِنْ سِنْدٍ﴾ نبق ﴿قَلِيلٍ﴾ [سبا: 16] أي: قليل النفع؛ إذ لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ذَلِكَ﴾ الجزء الذي ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ من تبديل النعمة والجنة ججيماً، واللذة ألماً ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ لنعمنا، وأنكروا لحقوق كرمنا؛ أي: بشؤم كفرانهم وطغيانهم، وكما غيروا الشكر بالكفران، بدلنا عليهم الجنان بالحرمان والخذلان، وبما كفروا لربنا وكذبوهم

بلا مبالاة لهم ويدعوتهم، وبجميع ما جاءوا به من عندنا إياهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بضم النون وكسر الزاي، بأمثال هذا الجزاء ﴿إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبا: 17] المعرض عن شكر نعمنا، الجاحد على حقوق لطفنا وكرمنا، والمبالغ في ستر الحق، المصر على الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَوَيْتَنَ الْقَرْيَ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وكثرنا الخير على ساكنيها بتوسعة الأرزاق والفواكه والمتاجر، وهي: أرض الشام ﴿قَرْيَ ظَاهِرَةٍ﴾ متواصلة متظاهرة، يرى كل من الأخرى مترادفة على متن الطريق؛ تسهيلاً لهم، ليتجروا بلا كلفة وتعب ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ لهم ﴿فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: في تلك القرى المترادفة على قدر مقيلهم ومبيتهم غادياً ورائحاً، بحيث لا يحتاجون إلى حمل زاد وماء؛ لقرب المنازل والخصب والسعة، وبعدها أعطيناهم هذه الكرامات، قلنا لهم على السنة الرسل المبعوثين إليهم أو إلهاماً لهم بلسان الحال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على التعاقب والتوالي حيث شئتم لحوائجكم ومتاجركم ﴿آمِينَ﴾ [سبا: 18] عن جميع المؤذيات، مصونين عن كيد الأعداء، شاكرين لنعمنا، غير كافرين عليها.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِآخِرَةِ مِّنْ هَؤُلَاءِ فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ ۚ حَوُّوَ إِذَا تُرِجَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبا: 19-23].

وبعد توجه الفقراء إلى ديارهم، وازدحموا لكمال الخصب والرفاهية والمعيشة الوسيعة وسهولة الطريق ﴿فَقَالُوا﴾ مشتكين إلى الله من مزاحمة الفقراء وإلزامهم عليهم، كافرين لنعمة التوسعة والسهولة: ﴿رَبَّنَا بَاعِذْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ حتى نحتاج إلى حمل الزاد وشد الرواحل؛ ليشق الأمر على الفقراء، فيتنحوا عنا ولم

يزدحموا علينا ﴿وَوَلَّيْنَا عَنْهُمْ آلَهُمْ﴾ بطلب هذا التعب، فأجاب الله دعاءهم، وخرب القرى التي بينهم وبين الشام، وانصرف الفقراء عنهم، وانقطع دعاؤهم لهم، فاشتد الأمر عليهم، وتشتوا في البلاد، ولم يبق عليهم شيء من التوسعة والرفاهية، بل صاروا متفرقين مشتتين ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: قصة أمنهم ورفاهيتهم وجمعيتهم، بعدما عكسنا الأمر عليهم ﴿أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدثون بينهم، متعجبين قائلين على سبيل التحسر في أمثالهم: «تفرق أيدي سبا».

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَجْزَى﴾ أي: فرقناهم في البلاد تفريقاً كلياً إلى حيث لحق غسان منهم بـ «الشام»، وأنمار بـ «يثرب»، وجذام بـ «تهامة»، والأزد بـ «عمان» ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ التبديل والتشتيت، وأنواع المحن والنقم بعد النعم ﴿لَايَاتٍ﴾ دلائل واضحات على قدرة القدير الحكيم العليم، المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المتاعب والمشاق الواردة عليه بمقتضى ما ثبت له في لوح القضاء، ومضى على الرضا بمقتضيات الحكيم العليم ﴿شَكُورٍ﴾ [سبا: 19] لنعم الله الفائضة عليه، مواظب أداء حقوقه.

ثم قال سبحانه مقسماً: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَدَقَ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الهالكين في تيه الخسران والكفران ﴿إِنِّي﴾ العدو لهم، المصير المستمر على عداوتهم من مبدأ فطرتهم ﴿ظَنُّهُ﴾ الذي ظن بهم حين قال لأبيهم آدم: ﴿لَاخْتَنِكَ فُرْيَةُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62] وقوله: ﴿لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] وقوله: ﴿لَا ضِلَّائُهُمْ وَلَا مَعِيَّتُهُمْ﴾ [النساء: 119] إلى غير ذلك، وبعدما أضلهم عن طريق الشكر والإيمان ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ كفروا النعم والمنعم جميعاً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: 20] الموقنين بتوحيد الله، المصدقين لرسله، المتذكرين لعداوته المستمرة، فانصرفوا عنه وعن إضلاله، فبقوا سالمين عن غوائله.

﴿وَالَّذِينَ﴾ العجب كل العجب أنهم اتبعوا له وقبلوا إغواءه وإغراءه وتغريه، مع أنه ﴿مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة قاهرة غالبة ملجئة لهم إلى متابعتهم وقبول وسوسته من قبله، بل من قبلنا أيضاً، وما ابتلينا وأغرينا هؤلاء البغاة بمتابعتهم - لعنه الله - ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونميز ونظهر التفرقة بين ﴿مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ وجميع المعتقدات التي أخبرها الله بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي: من النشأة الآخرة، والأمور الكائنة فيها ﴿فِي شَكٍّ﴾ تردد وارتياب، ولهذه التفرقة والتمييز، أتبعناهم إليه ﴿وَالَّذِينَ﴾ لا تستبعد يا أكمل

الرسول أمثال هذه الابتلاءات والاختبارات من الله؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك على الهداية العامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته الكائنة والتي ستكون، والجارية على سرائر عبادته وضمائرهم، والتي ستجري ﴿حَفِظْتُ﴾ [سبا: 21] شهيد، لا يغيب عنه إيمان مؤمن، وكفر كافر، وشكر شاكر، وشك شاك، وإخلاص مخلص.

وبعدما أثبت المشركون المصرون على كفران نعم الله أمثال هؤلاء الغواة المذكورين آلهة سوى الله سبحانه، وسموهم شفعاء وعبدوا لهم مثل عبادته سبحانه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيًا: ﴿ادْعُوا﴾ أيها الضالون المشركون الآلهة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وأثبتم ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليستجيئوا لكم في مهماتكم، ويستجلبوا لكم المنافع، ويدفعوا عنكم المضار، كما هو شأن الألوهية والربوبية، وكيف تدعونهم لأمثال هذه المهام مع أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضرر، لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا استقلالاً؛ إذ هم ليسوا قابلين للآلوهية ﴿وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا مشاركة؛ إذ ﴿مَا لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في خلقهما وإيجادهما ﴿مِنْ شِرْكَ﴾ مشاركة مع الله في ألوهيتهم؛ لأنهم من جملة مخلوقاته، بل من أدناها، ولا شركة للمخلوق مع خالقه ﴿وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا مظاهره؛ إذ ﴿مَا لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: 22] ولا من غيرهم أيضاً، معاون له في ألوهيته وربوبيته؛ إذ هو سبحانه منزّه عن المعاونة والمظاهرة مطلقاً.

﴿وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كذلك ليس لهم عنده سبحانه شفاعة مقبولة حتى يشفعوا لهم ويخلصوهم من عذاب الله بعدما نزل عليهم؛ إذ ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ سبحانه من أحد من عبادته ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة لغيره؛ لاتصافه بالكمال، أو بشفاعة الغير من الشرفاء له؛ لاستحقاقه بالكرامة وإن كان منغمساً بالردالة، وبعدما وقعت الشفاعة وأذن بها من عنده سبحانه، ينتظر الشافعون المشفعون بعد وقوعها وجلين، خائفين مهابة من سطوة سلطنة جلاله سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ﴾ وكشف الفزع، وأزيل الخوف والوجل ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب الشافعين والمشفعين ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض، أو المشفعون للشافعين: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في جواب شفاعتكم، أيقبلها أم يردها؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الشفعاء: القول ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت عنده، المرضي دونه، وهو سبحانه يقبل شفاعتنا في حقكم، وأزال عنكم عذابه ﴿وَلَا يَخَافُونَ مِنْ اللَّهِ وَلَا يُهَابُونَ﴾ أي: الشفعاء - عن ساحة عز حضوره؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَلِيُّ﴾ ذاته وشأنه، المقصور المنحصر

على العلو، لا أعلى إلا هو ﴿الكَبِيرُ﴾ [سبا: 23] بحسب أوصافه وأسمائه؛ إذ الكبرياء رداءه، لا يسع لأحد أن يتردى به سواه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْليَاكُمْ لَعَلَىٰ هٰذِهِ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ٢٦ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ آلَاحَقُّهُمْ بِهِ شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٩ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَّوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ٣٠﴾ [سبا: 24-30].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التبكيت والإلزام، مقررًا إياهم: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم المسببات، فيهتون عن سؤالك ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بهتوا: ﴿اللَّهُ﴾ إذ هو متعين للجواب وإن سكتوا عنه وتلعنوا مخافة الإلزام، أضمرُوا في قلوبهم هذا؛ إذ لا جواب لهم سواه، ولا رازق إلا هو ولا معطي غيره ﴿وَرَبُّهُ﴾ بعدما بهتوا وانحسروا، واستولى الحيرة والقلق عليهم، قل لهم على سبيل المجازاة والمداراة: ﴿إِنَّا﴾ يعني: فرق الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني: فرق المشركين؛ أي: كل منا ومنكم ﴿لَعَلَّىٰ هٰذِهِ﴾ أي: على الحق المطابق للواقع ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: 24] ظاهر انحرافه، موصل إلى الباطل الزاهق الزائل، المضاد للحق الحقيق بالمتابعة والانقياد.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل المجازاة والمبالغة في المداراة معهم، بحيث تسند الجرم إلى أنفسكم والعمل إليهم؛ مبالغة في الإسكات والتبكيت: ﴿لَا تُسْأَلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ وجئنا به من الآثام ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ﴾ نحن أيضًا ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبا: 25] من الأعمال، بل كل منا ومنكم رهين ما اكتسبنا من العمل، فعليكم ما حملتم، وعلينا ما حملنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا على طريق الملاينة والملاطفة في الإلزام والتبكيت: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم نحشر إليه ونعرض عليه ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم

وفصل ﴿يَتَنَّا﴾ ويرفع نزاعنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل السوي بلا حيف وميل، فيساق المحقون نحو الجنة والمبطلون نحو النار ﴿وَوَ﴾ كيف لا يحكم ويفصل سبحانه ﴿هُوَ الْفَاتِحُ﴾ لمعضلات الأمور، الحاكم لمعلقات القضايا ﴿الْعَلِيمُ﴾ [سبا: 26] الذي يكتنه عنده كل معلوم، ولا يشتهيه عليه شيء منها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أشبعت الكلام على إسكاتهم وإلزامهم: ﴿أُزَوِّنِي﴾ وأخبروني أيها المشركون ﴿الَّذِينَ الْحَقُّمُ بِهِ﴾ أي: بالله سبحانه، وادعيتموه ﴿شُرَكَاءَ﴾ معه، مستحقين للعبادة مثله، وأخبروني عن أخص أوصافهم التي بها يستحقون الألوهية والمعبودية، لا تأمل أيضًا في شأنهم والتدبر في حقهم، ثم رد عليهم سبحانه؛ ردعًا لهم وزجرًا عما هم عليه، وإرشادًا لهم إلى ما هو الحق الحقيق بالاتباع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا أيها المشركون، المسرفون عن دعوى الشراكة مع الله الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ليس له شريك ولا نظير ولا وزير ولا ظهير ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية، بل هو في الوجود والتحقيق ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر الظاهر على من دونه من الأظلال الهالكة المضمحلة، المتلاشية في شمس ذاته، المتشعشة المتجلية حسب أسمائه وصفاته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [سبا: 27] المتقن في أفعاله المترتبة على علمه وإرادته وقدرته، يفعل ما يشاء إرادة واختيارًا، ويحكم ما يريد استقلالًا، ليس لأحد أن يتصرف في ملكه وملكوته.

﴿وَوَ﴾ بعدما ثبت ألا معبود في الوجود سوانا، ولا مستحق للعبادة غيرنا، فاعلموا أننا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما انتخبناك من بين البرايا واصطفيناك منهم ﴿إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي: رسالة عامة، شاملة لقاطبة الأنام؛ لتكفهم عن جميع الآثام، وتمنعهم عن مقتضيات نفوسهم ومشتبهات قلوبهم مما يعوقهم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة، وبعدها أرسلناك إليهم، صيرناك عليهم ﴿بَشِيرًا﴾ تبشرهم إلى درجات الجنان، والفوز بقاء الرحمن ﴿وَنَذِيرًا﴾⁽¹⁾ تنذرهم وتبعدهم عن دركات النيران وأنواع

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن إرسال ماهية وجودك التي عبرت عنها مرة بنورك وتارة بروحي من كتم العدم إلى عالم الوجود لم يكن منا إلا ليكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة من أهل الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد لاحتياجهم بك من بدأ الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلي شفاعتي حتى إبراهيم» فأما في بدأ وجودهم فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة كن، تابعين لروحك احتاجت إلى أن

العذاب والحرمان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: 28] حكمة الإرسال والإرشاد والهداية إلى سبيل الصواب والسداد؛ لذلك عاندوا معك وكذبوك وأنكروا بكتابك، وبجميع ما جئت به من عندنا عنادًا ومكابرة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك منكبين متهمين، بعدما وعدتهم بقيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم، وحشر الأموات من الأجداث: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي وعدتنا به، عَيَّنُوا لنا وقت وقوع الموعود ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا: 29] في وعدكم ودعواكم، هذا يعنون بالخطاب رسول الله ﷺ والمؤمنين جميعًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعدما اقترحوا على سبيل الإنكار: يناجي ﴿لَكُمْ﴾ أيها المنكرون للبعث بغتة ﴿مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعده أو زمانه بحيث ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبا: 30] أي: لا يسع لكم متى فاجأكم أن تطلبوا التأخر عنه آنا أو التقدم عليه طرفة.

يكون لها بشيرًا ونذيرًا؛ لتعلقها بالأجسام لأنها علوية بالطبع لطيفة روحانية، والأجسام سفلية بالطبع كثيفة ظلمانية لا يتعلق بها، ولا يميل إليها لفسادة بينهما، فيحتاج إلى بشيرها يشرها بحصول كمال لها عند الانتقال بها لترغب إليها وتحتاج إلى نذير تنذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام يحرم عن كمالها، وتبقى ناقصة غير كاملة مثل حبة فيها شجرة مركززة بالقوة، وإن تزرع وتربي بالماء تخرج الشجرة من القول إلى الفعل إلى أن تبلغ كمالها بشجرة مثمرة، فالروح بمثابة البذر، والقالب بمثابة الأرض، والشخص الإنساني بمثابة الشجرة، والتوحيد والمعرفة ثمرتها الشريفة بمثابة الماء لتربيتها والبشير والنذير بمثابة المربي، فيعد تعلق الروح بالقالب واطمئنانه إليه واتصافه بصفة يحتاج إلى بشير بحسب مقامه يشره بنعيم الجنة وملك لا يلى، ثم يشره بقرب الحق تعالى ويشوقه إلى جماله وبعده بوصاله وينذير ينذره أولاً بنار جهنم يوعده بالبعد عن الحق، ثم بالقطيعة والهجران، وإذا أمنت النظر وجدت شجرة الموجودات منبته من بذر روحه ﷻ وهو ثمرة هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضًا ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعية كماله لا من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد فيجد كل بشير ونذير فرعًا لأصل بشريته ونذيرته، والذي يدل على هذا التحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] دخلت شجرة الموجودات كلها تحت الخطاب ويقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6] يشير إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة، وما وصلوا إلى رتبة الثمرة لا يعلمون حقيقة ما قدرنا؛ لأن أحوال الثمرة ليست معلومة للشجرة إلا لثمرتها مثلها ووصفها ليكون واقعًا بحالها.

وبالجملة: قيام الساعة إذا حل عليكم، لا يمكنكم هذا، ولذا قيل: الموت هو القيامة الصغرى، وقال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»⁽¹⁾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنتُمْ مَكْدُونٌ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُرْ بَلْ كُنتُمْ ثَجْرِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبا: 31-33].

﴿و﴾ من كمال غيظ المشركين معك يا أكمل الرسل وشدة إنكارهم على كتابك؛ بسبب اشتماله على الأوامر والنواهي الشاقة والتكاليف الشديدة، وبما أخبر فيه من قيام الساعة وأحوال الفرع الأكبر والطامة الكبرى ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عن مقتضاه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ ونصدق أبداً ﴿بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ وبما فيه من الإنذارات والتحذيرات، سيما حشر الأجساد وإعادة المعدوم بعينه ﴿وَلَا﴾ نصدق أيضاً ﴿بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المشتملة على ذكر القيامة.

وذلك أنهم فتشوا عن أخبار اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتب، فسمعوا منهم أنه ذكر في كتابهم نعت محمد ﷺ ووصف كتابه، وذكر الحشر والنشر، وجميع المعتقدات الأخروية؛ لذلك بالغوا في تكذيب الكتب رأساً، وصرفوا الناس أيضاً عن تصديقها والإيمان بها ويمن أنزل إليهم، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي لرأيت أمراً فظيماً فجيئاً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن رتبة العبودية بتكذيب الرسل وإنكار الكتب وما فيها من أحوال النشأة الأخرى، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ محبوسون يوم العرض للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يتجاورون فيما بينهم ويتراجعون في الأقوال، ويتلاومون

ويتلاعنون فيها، حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا﴾ من الأتباع المتسمين بذل التبعية ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من المتبوعين المتعززين بعز الرئاسة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ موجودون مقتدون بيننا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: 31] موقنين بتوحيد الله، مصدقين لرسله وكتبه، وبجميع ما جرى على السنة الرسل والكتب.

ثم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: المتبوعون المتعظمون بعز الرئاسة والثروة والسيادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا﴾ أي: الأتباع السفلة: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ أي: لم نكن صَادِينَ، صارفين لكم عن الإيمان بالرسل والكتب ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ الرسل بالكتب المشتملة على الهدى والبيانات، ودعواكم إلى الإيمان، ونحن ما صددنا إلا نفوسنا بلا تغرير وتضعيف منا إياكم ﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ حيثذ ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [سبا: 32] تاركين الإيمان والهداية تقليداً علينا بلا صد منا.

﴿وَقَالَ﴾ الضعفاء ﴿الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: لم يكن إضلالكم إيانا وتغريركم علينا منحصرًا في الصد والذب باللسان والأركان ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مكركم وحيلتكم في تضليلنا دائماً مستوعباً للأيام والليالي، ليس مخصوصاً بوقت دون وقت؛ لأنكم رؤساء بيننا، أصحاب الثروة فينا، فتخدعون بنا قولاً وفعلاً، وتميل قلوبنا إلى ما أنتم عليه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده وتنكر رسله وكتبه ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ﴾ أي: نثبت ونعتقد لله الواحد الأحد، المتزه عن الشريك ﴿أَنذَادًا﴾ شركاء معه في استحقاق العبادة والإطاعة والتوجه والرجوع في مطلق المهام.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿أَسْرُوا﴾ أي: أظهروا وأخفوا ﴿النَّدَامَةَ﴾ على ما فات عنهم ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم بما صدر عنهم في النشأة الأخرى، أظهروا الندامة؛ تحسراً وتحزنًا، أو أخفوها؛ مخافة التعيير والتقريع ﴿و﴾ بعدما أردنا تعذيبهم ﴿جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ الممثلة لهم من تعذيبهم وظلمهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وأثبتوا له أندادًا، وأنكروا لكتبه ورسله تابعًا ومتبوعًا، ضالاً ومضلاً، وقلنا لهم توبيخاً وتعيراً: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء البعداء عن مساحة عز القبول ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: 33] أي: ما يجازون إلا بمقتضى أعمالهم وأفعالهم، وعلى طبقها على مقتضى العدل الإلهي.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثَرُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ [سبا: 34-39].

﴿و﴾ كيف لا نأخذهم بشؤم أعمالهم وأفعالهم؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ من النذر المبعوثين لإصلاح مفاسدهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: متنعموها، للرسول من فرط عتوهم وعنادهم، اتكاء على ما عندهم من الجاه والثروة على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: بجميع ما أُرسلتم أيها المدعون للرسالة والهداية والدعوة العامة، وإقامة الحدود بين الأنام ﴿كَافِرُونَ﴾ [سبا: 34] جاحدون منكرون، لا نقبل منكم أمثال هذه الخرافات.

﴿وَقَالُوا﴾ مفتخرين بما عندهم من الجاه والثروة: نحن أولى بما ادعيتم من النبوة والرسالة؛ إذ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ إذ بالأموال تنال كل مطلوب، وبالأولاد يظهر على كل ملمة ومكروه ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: 35] لا في الدنيا لما سمعت من كرامة الأموال والأولاد، ولا في الآخرة أيضًا إن فرض وقوعها؛ لأننا قوم أكرمنا الله بها في الدنيا، فكذا يكرمنا في الآخرة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الافتخار والمباهاة بما عندهم من حطام الدنيا ومتاعها: ﴿إِنْ رَبِّي﴾ القادر المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿يَبْسُطُ﴾ ويكثر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري الدنيوي ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده؛ اختبارًا لهم وابتلاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقل ويقبض على من يشاء؛ تيسيرًا له وتسهيلًا عليه حسبه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على السهو والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: 36] حكمة قبضه وبسطه؛ لذلك يفرحون بوجوده ويحزنون بعدمه، ولم يتفطنوا أن وجوده يورث حزنًا طويلًا وعذابًا أليمًا، وعدمه يوجب أنواع الكرامات ونيل المثوبات.

ثم قال سبحانه تقريبًا على المفتخرين بالأموال والأولاد: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا

أَوْلَادُكُمْ ﴿١﴾ أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ بِهِمَا، الْمَحْرُومُونَ عَنِ اللَّذَاتِ الْآخِرِيَّةِ بِسَيِّئِهِمَا، إِلَّا وَسِيلَةً وَوَاسِطَةً ﴿بِأَلْتِي﴾ أَيُّ: بِالْخَصْلَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي ﴿تَقْرَبُكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَأْمُورُونَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْنَا بِالْأَعْمَالِ الْمَقْبُولَةِ ﴿عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أَيُّ: تَقَرُّبًا مَطْلُوبًا لَكُمْ، مَصْلَحًا لِأَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَمَوَاجِيدِكُمْ ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمَتَمَوْلُونَ الْمُتَكَثِّرُونَ لِلأَوْلَادِ، وَآيَقُنْ بِتَوْحِيدِهِ سُبْحَانَهُ وَصَدَّقْ رِسْلَهُ وَكُتِبَ ﴿وَعَمِلَ﴾ عَمَلًا ﴿ضَالِحًا﴾ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ، مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، بِأَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ، وَعَلَّمَ أَوْلَادَهُ عِلْمَ التَّوْحِيدِ وَالْأَحْكَامِ وَالْعَقَائِدِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السَّعْدَاءُ الْمَقْبُولُونَ عِنْدَ اللَّهِ، الْمَبْسُوطُونَ مِنْ عِنْدِهِ بِالرِّزْقِ الصَّوْرِيِّ فِي هَذِهِ النَّشْأَةِ ﴿لَهُمْ﴾ فِي النَّشْأَةِ الْآخَرَى ﴿جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيُّ: جَزَاؤُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْمَعْنَوِيِّ أضعاف ما اسْتَحَقُّوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْعَشْرَةِ، بَلْ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْكَثْرَةِ، بَلْ ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ﴾ الْمَعْدَةُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ ﴿آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37] مَصُونُونَ عَنْ جَمِيعِ الْمُؤْذِيَّاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالْكَافِرُونَ الْمُنْكَرُونَ الْمَكْذِبُونَ رَسَلْنَا وَكُتِبْنَا﴾ ﴿الَّذِينَ يَشْعُونَ﴾ وَيَجْتَهِدُونَ ﴿فِي﴾ قَدَحِ ﴿آيَاتِنَا﴾ الدَّلِيلَةِ عَلَى عَظَمَةِ ذَاتِنَا، وَكَمَالِ أَسْمَانَا وَصِفَاتِنَا، وَعَلَى الْأَحْكَامِ الْجَارِيَةِ بَيْنَ عِبَادِنَا، الْمُتَعَلِّقَةِ لِأَحْوَالِهِمْ فِي النَّشْأَتَيْنِ حَالِ كَوْنِهِمْ ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قَاصِدِينَ عَجَزْنَا عَنْ إِقَامَةِ الْحُدُودِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَاتِّخَاذِ الْعَهْدِ مِنْهُمْ، وَوَضْعِ التَّكَالِيفِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَدَابِ بَيْنَهُمْ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْبَعْدَاءُ، الطَّاعِنُونَ لِآيَاتِنَا الْكُبْرَى، الْغَافِلُونَ عَنْ فَوَائِدِهَا الْعَظْمَى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ الْمُؤِيدِ الْمَخْلُذِ ﴿مُخْضَرُونَ﴾ [سبأ: 38] لَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَغْيِيُونَ.

﴿قُلْ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ لِلْمُسْرِفِينَ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ نَجَادَةِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، مُتَكَبِّرِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ، مُفْتَخِرِينَ بِهَا تَفَوُّقًا وَتَبَجُّحًا: ﴿إِنْ رَزَيْ﴾ الْعَلِيمُ، الْمَطْلَعُ عَلَى جَمِيعِ اسْتِعْدَادَاتِ الْعِبَادِ، الْحَكِيمُ فِي إِفَاضَةِ مَا يَلِيقُ لَهُمْ ﴿يَسْطُ﴾ يَزِيدُ وَيُفِيضُ ﴿الرِّزْقِ﴾ الصَّوْرِيِّ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تَارَةً عَلَى مُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ وَمَرَادِهِ ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أَيُّ: يَنْقُصُ وَيَقْبِضُ الرِّزْقَ عَنْهُ مَرَّةً أُخْرَى إِرَادَةً وَاخْتِيَارًا عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهَا فِي غَيْبِهِ وَحَضْرَةِ عِلْمِهِ ﴿وَالَّذِينَ سَمِعْتُمْ هَذَا أَعْلَمُوا أَيُّهَا الْمَبْسُوطُونَ الْمُنْعَمُونَ﴾ ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ اسْتَخْلَفَكُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَمْرَكُمْ بِإِنْفَاقِهِ عَلَى فَقَرَاءِهِ ﴿فَهُوَ﴾ سُبْحَانَهُ ﴿يُخْلِفُهُ﴾ وَيَعْرِضُ عَنْهُ بِأَضْعَافِهِ وَآلَافِهِ، إِنْ صَدَرَ عَنْكُمْ الْإِنْفَاقُ بِالْإِعْتِدَالِ بِلَا تَبْذِيرٍ وَتَقْتِيرٍ ﴿وَالَّذِينَ كَيْفَ لَا

يخلف سبحانه الرزق الصوري لخلص عباده مع أنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: 39] بالرزق الصوري والمعنوي، المخلص لهم عن مقتضيات بشريتهم ومشتريات أهويتهم البهيمية.

﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْمُولَاءُ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ إِنَّا بِمَن تَنَسَّيْتُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤٣) [سبا: 40-43].

﴿وَهُوَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عبد الملائكة واتخذوهم أربابًا من دون الله مستحقين للعبادة والرجوع في الملمات مثله سبحانه، وسموهم شفعاء ﴿يَوْمَ يَخْشَرُهُمْ﴾ في المحشر ﴿جَمِيعًا﴾ العابدون والمعبودون ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على رؤوس الأشهاد، وتفضيحا للعابدين، وتقريفا لهم: ﴿أَهْمُولَاءُ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (١) [سبا: 40] يعني: أهولاء المسرفون المشركون يعبدون إياكم كعبادتي، بل يخصوصونكم بالعبادة ويهتمون بشأنكم، هل تستعبدونهم وتسترضون عبادتهم وتوالون معهم، أم يعبدونكم من تلقاء نفوسهم؟

﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة خائفين من بطشه سبحانه، مستحيين، متضرعين نحو

(1) يشرعون الملائكة منهم وينزهون الله ويقولون سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن كذلك من يعبد الله بقول الوالدين والأستاذين أو أهل بلده أو بالتعصب والهوى كما يعبدون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس وأهل البدع والأهواء ببراء منه ويقول: أنا منزّه من أن أعبد، يقول: من يعبدني بالهوى أو أعبد بالهوى فإن من عبدني بالهوى فقد عبد الهوى ومن عبدني بإعانة أهل الهوى إياه على تعبدني فقد عبد أهل الهوى لأنه ما عبدني مخلصا كما أمرته ﴿وَمَا أَمْزُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5] ولهذا المعنى أمرنا الله ﷻ أن نقول في عبادته في الصلاة ﴿إِنَّاكَ نُعْبُدُكَ﴾ [الفاتحة: 5] أي: لم نعبد غيرك ﴿وَلِإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] على عبادتك لنعبدك بإعانتك لا بإعانة غيرك. [التأويلات].

جنابه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نزهك يا مولانا عما لا يليق بشأنك ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ وأنت المراقب علينا، المطلع على سرائرنا وضمائرنا، المتولي لجميع ما صدر عنا، وأنت تعلم يا مولانا ألا موالاة بيننا وبينهم؛ إذ لا يخفى عليك خافية، ومن أين يسع لنا ويتأتى منا الرضا بأمثال هذه الجرأة والجرائم العظيمة، وأنت أعلم يا مولانا بمعبوداتهم التي اتخذوها هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكون في تيه الجهل والغفلة؛ لعلو شأنك وشأن ألوهيتك وربوبيتك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين الداعين لهم إلى عبادتهم، الراضين بها؛ لأنهم يتمثلون بصور الملائكة، ويدعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويأمرونهم بالعبادة لأنفسهم، بل ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كل المشركين، وجملة المتخذين أندادًا لله ﴿بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: 41] أي: بالشياطين، عابدون لهم، متوجهون نحوهم في عموم مهامهم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ تبلى السرائر، وظهر ما في الضمائر، ولاح سلطان الوحدة الذاتية، وانقهر الأظلال الأغيار، وظهر أن الأمور كلها مفوضة إليه سبحانه، وإن كان قبل ذلك أيضًا، كذلك ﴿لَا يَغْلِيكَ بَغْضُكُمُ﴾ أيها الأظلال المستهلكة في شمس الذات ﴿لِيَغْضِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا جلبًا ولا دفعًا، ولا لطفًا ولا قهْرًا ﴿وَوَ﴾ بعدما انقطع عنهم التصرف مطلقًا، لا معنى ولا صورة، ولا مجازًا ولا حقيقة ﴿نَقُولُ﴾ على مقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وخرجوا عن ربة عبوديتنا ومقتضيات حدودنا الموضوع لإصلاح أحوال عبادنا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها الضالون المنهمكون في بحر العدوان والطغيان ﴿عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ [سبا: 42] في نشأتكم الأولى بعدما أخبرتم على السنة الرسل والكتب.

﴿وَوَ﴾ كيف لا نقول لهم ما نقول؛ إذ هم كانوا من غاية عدوانهم وظلمهم على الله وعلى رسله وكتبه ﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على إصلاح أحوالهم المتعلقة بالنشأتين مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات في الدلالة على أهم مقاصدهم ومطالبهم ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم على رسول الله: ﴿مَا هَذَا﴾ المدعي للرسالة والنبوة - يعنون الرسول ﷺ - ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ حقير مستبد برأيه، مستبدع أمرًا من تلقاء نفسه ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ ويستبعمكم؛ أي: يجعلكم تابعين له، بل يستعبدكم بأمثال هذا التليس والتقرير ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا في حق القرآن: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ أي: كذب مخلق غير مطابق للواقع، افتراء

على الله؛ تلييسًا وتقريرًا على ضعفاء الأنام ﴿و﴾ بالجملة: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح، وستروه بالباطل عدوانًا وعنادًا ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين عاينوا به وعلموا أنه من الخوارق العجيبة، واضطروا خائبين حائرين عن جميع طرق الرد والمنع، غير أنهم نسبوه إلى السحر وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي سماه قرآنًا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبا: 43] ظاهر سحره، عظيم إعجازه.

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْقَىٰ وَقُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ [سبا: 44-48].

ثم أشار سبحانه إلى غاية تجهيل المشركين ونهاية تسفيههم، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا عليهم ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ وفيها دليل الإشراك وإثبات الآلهة، بل كل الكتب منزلة على التوحيد وبيان طريقه ﴿و﴾ كذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: 44] ينذرهم عن التوحيد، ويدعوهم إلى الشرك، بل كل من أرسل من الرسل، فإنما هو على إرشاد التوحيد والإنذار عن الشرك المنافي له. ثم أشار سبحانه إلى تسلية رسول الله ﷺ وتهديدهم بالأخذ والبطش، فقال: ﴿و﴾ كما كذب هؤلاء المكذبون بك يا أكمل الرسل وبكتابك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلهم والكتب المنزلة عليهم ﴿و﴾ هم؛ أي: هؤلاء الغواة المكذبون لك يا أكمل الرسل ﴿مَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: عشر ما أعطينا لأولئك المكذبين الماضين من الجاه والثروة والأمتعة الدنيوية وطول العمر، ومع ذلك ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فأخذناهم مع كمال قوتهم وشوكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبا: 45] أي: إنكاري وانتقامي إياهم بالتدمير والهلاك، مع إنكارهم على رسلي وكتبي بالتكذيب والاستخفاف.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغ إلزامهم وتهديدهم غايته: ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ

بِوَاحِدَةٍ أَي: ما أذكر لكم وأنبه عليكم إلا بخصلة واحدة كريمة، وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتُوَحِّدُوهُ عَنْ وَصْمَةِ الْكَثْرَةِ مطلقاً، وتواظبوا على أداء الأعمال الصالحة المقربة إليه، المقبولة عنده سبحانه، وتخلصوها لوجهه الكريم بلا شوب شركة ولو ث كثره وخباثة. رياء ورعونة، سمعة وعجب، واسترشدوا من رسول الله ﷺ ﴿مَتْنِي﴾ أَي: اثنين اثنين ﴿وَفَرَادَى﴾ أَي: واحد واحد؛ يعني: متفرقين بلا زحام مشوش للخاطر، مخلط للأقوال، حتى يظهر لكم شأنه ﷺ ويتبين دونكم برهانه ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ترددتم عليه ﷺ على وجه التعاقب والتفريق ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ فيما لاح عنكم منه ﷺ، وتأملوا فيه حق التأمل والتدبر على وجه الإنصاف، معرضين عن الجدل والاعتساف؛ لينكشف لكم أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ يعني: محمد ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَي: جنون وخبط يعرضه ويحمّله على ادعاء الرسالة بلا برهان واضح يتضح له وينكشف دونه، كما زعم في حقه ﷺ مشركوا مكة - لعنهم الله - كي يفتضح على رموس الأشهاد، كما نشاهد من متشيخة زماننا - خذلهم الله - أمثال هذه الخرافات بلا سند صحيح.

وبعدما لم يساعدهم البرهان والكرامة افتضحوا، وهو ﷺ مع كمال عقله ورزاقه رأيه ومثانة حكمته، كيف يختار ما هو سبب الشنعة والافتضاح؟ تعالى شأنه ﷺ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

والمعنى: ثم بعدما جلستم عنده ﷺ على الوجه المذكور، تكلمتم معه على طريق الإنصاف، تتفكرون وتأملون، هل تجدونه ﷺ معروضاً للخبط والجنون، أم للأمر السماوي الباعث له ﷺ على أمثال هذه الحكم والأحكام والعبر والأمثال التي عجزت دونها فحول العقلاء وجماهير الفصحاء والبلغاء، البالغون أقصى نهاية الإدراك، مع وفور دعاويهم، وبمعارضتها والتحدي معها؟ بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أَي: ما هذا الرسول المرسل إليكم المؤيد بالبراهين الواضحة والمعجزات اللاتعة المثبتة لرسالته ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ من قبل الحق ﴿يَتَنَزَّلُ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سبا: 46] أَي: قيل الساعة، وقدام يوم القيامة المعدة لأنواع العذاب والنكال على عصاة العباد.

وإن اتهموك يا أكمل الرسل بأخذ الأجر والجعل على أداء الرسالة وتبليغ الأحكام، بل حصروا ادعاءك الرسالة ودعوتك على هذا فقط ﴿قُلْ﴾ لهم على طريق الإسكات والإلزام: ما سألت منكم شيئاً من الجعل أصلاً، وإن فرض أني سألت منكم شيئاً، فاعلموا أن ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على إرشادكم وتكميلكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَي: هبة

لكم، مردود عليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري وجعلي على تحمل هذه المشاق والمتاعب الواردة في تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أرسلني بالحق، ويعثني بالصدق، وهو المراقب المطلع على جميع أحوالي، الحكيم بإفاضة ما ينبغي ويليق بي ويشأني ﴿وَ﴾ كيف لا يطلع سبحانه على أحوال عباده؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من الموجودات ولاح عليه لمعة الوجود ﴿شَهِيدٌ﴾ [سبا: 47] حاضر دونه، غير بعيد عنه ومغيب عليه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تمادى وراء أهل الضلال وتطاول جدالهم: لا أبالي باستهدائكم واسترشادكم، ولا أبالغ في تكميلكم، بل ﴿إِنْ رَبِّي﴾ العليم باستعدادات عباده، الحكيم بإفاضة الإيمان والعرفان على من أراد هدايته وإرشاده ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقيه وينزله على قلوب عباده الذين جبلهم على فطرة الإسلام واستعدادات التوحيد والعرفان، إذ هو سبحانه ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾⁽¹⁾ [سبا: 48] يعرف استعدادات عباده وقابلياتهم على قبول الحق، ويميزهم عن أهل الزيغ والضلال، المجبولين على الغواية الفطرية، والجهل الجبلي.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ٤٩ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ٥٠ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ٥١ ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَازُؤُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٢ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٣ ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ ٥٤ [سبا: 49-54].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريق الحق كلامًا ناشئًا عن محض

(1) على أفعال أهل الخلاف فيضمحل اجترأؤهم ويحيق بهم شؤم معاصيهم ويقذف بالحق إذا حضر أصحاب المعاني على ظلمات أصحاب الدعاوى فيحمل ما أنذرهم ويفتضحون في الحال ويفضح عوارهم، وذلك لأنه تعالى ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل واحد، وما في ضمير كل واحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علام بلفظ المبالغة ليتناول علمه معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغير في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال بحيث لا يشغله شأن حال عن حال. [التأويلات].

الحكمة، خاليًا عن وصمة الكذب مطلقًا: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع، وظهر الإسلام الجدير بالإطاعة والاستسلام، فلکم أن تغتنموا الفرصة وتنقادوا له مخلصين ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ الرِّسَالَ لَا يَخْلُقُونَ أُمَّةً مِن دُونِ آلِ مَرْيَمَ بِمَا عَمِلُوا فَيَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّرْكُومًا﴾
 ﴿يَبْدِئُ﴾ ويحدث ﴿الْبَاطِلُ﴾ الذي زهق واضمحل ظلمته بنور الإسلام، وغار مناره في مهاوي الجهل وأغوار الخذلان ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ الرِّسَالَ لَا يَخْلُقُونَ أُمَّةً مِن دُونِ آلِ مَرْيَمَ بِمَا عَمِلُوا فَيَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّرْكُومًا﴾ [سبا: 49] أصلًا في حين من الأحيان.

سبحان من أظهر أنوار الإسلام ورفع أعلامه، وقمع الكفر وأخفض أصنامهم.

ثم لما طعن المشركون على رسول الله ﷺ، وعيروه بأنك تركت دين آبائك واخترت دينًا من تلقاء نفسك، فقد ضللت باختيارك هذا، بتركك ذاك عن منهج الرشاد، رد الله سبحانه عليهم قولهم هذا وتعيرهم، أمرًا لنبيه على وجه الامتتان: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما عيروك وطعنوا في شأنك ودينك: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ وانحرفت عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ وانحرف ﴿عَلَى نَفْسِي﴾ وبمقتضى أهويتها ومشتياتها، وشؤم لذاتها وشهواتها ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى التوحيد والعرفان، ونلت إلى أمباب درجات الجنان ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: بسبب وحيه وإلهامه إليّ، وامتثانه عليّ بالهداية إلى أنواع الكرامات وأصناف اللذات الروحانية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: 50] يسمع مناجاتي، ويقضي جميع حاجاتي على وجهها إن تعلق إرادته ومشيتته بها بعدما جرى وثبت في حضرة علمه، ومضى عليها قضاؤه في لوحه بحيث لا يفوته شيء.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ الرِّسَالَ لَا يَخْلُقُونَ أُمَّةً مِن دُونِ آلِ مَرْيَمَ بِمَا عَمِلُوا فَيَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّرْكُومًا﴾ من كمال قرب الله سبحانه لعباده ﴿لَوْ تَرَى﴾ أيها الراثي وقت ﴿إِذْ قَرَّبُوا﴾ أي: الكفرة والمشركون وقت حلول الأجل ونزول العذاب عليهم في يوم الساعة، لرأيت أمرًا فظيماً ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي: حين لا فوت لهم عن الله، لا منهم ولا من أعمالهم وأحوالهم شيء ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ الرِّسَالَ لَا يَخْلُقُونَ أُمَّةً مِن دُونِ آلِ مَرْيَمَ بِمَا عَمِلُوا فَيَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّرْكُومًا﴾ إن تحصنوا بالحصون الحصينة والقلاع المنيعه والبروج المشيدة، بل ﴿أَخِذُوا﴾ حيثما كانوا ﴿مِّن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبا: 51] من الله، ولو كانوا في قعر الأرض، أو قلل الجبال، أو في قلب الصخرة، أو فوق السماء، أو في أي مكان من الأماكن المخفية، وبالجمله: أخذوا من مكان قريب بالنسبة إليه سبحانه؛ إذ هو سبحانه منزّه عن الأمكنة، شهيد حاضر في جميعها، غير مغيب عنها.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ الرِّسَالَ لَا يَخْلُقُونَ أُمَّةً مِن دُونِ آلِ مَرْيَمَ بِمَا عَمِلُوا فَيَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّرْكُومًا﴾ بعدما اضطروا إلى الهلاك أو العذاب في يوم الجزاء ﴿قَالُوا﴾ بعدما

انقرض وقت الإيمان ومضى أوانه: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾⁽¹⁾ أي: من أين يتأتى ويحصل لهم تناول الإيمان وتلافيه ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: 52] بمراحل عن الإيمان؛ إذ قد انقرض مدة التكليف والاختبار.

وحين كانوا قريبين، قادرين على تناوله وتعاطيه، لم يختاروه ولم يتصفوا به، بل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ ﷺ وأنكروا عليه وعلى كتابه ودينه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى، أو في زمان الصحة؛ أي: قبل ما عاينوا بالعذاب والهلاك ﴿وَهُمْ قَدْ كَانُوا فِي زَمَانِ الْإِيمَانِ بِهِ﴾ ﷺ ويكتابه ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يرمونه ويرجمونه رجماً بالغيب، ويقولون في حقه على سبيل التخمين والحسبان عدواناً وظلماً: إنه كاهن، شاعر، مجنون، وكتابه أساطير الأولين، بل كلام المجانين، مع أن أمثال هذه الخرافات بالنسبة إليه ﷺ وعلى كتابه ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: 53] بمراحل عن شأنه العلي العظيم، وكتابه الجلي الكريم، وإيمانهم في حالة اضطرابهم أبعد عن محل القبول بمراحل أيضاً.

﴿وَهُمْ بَعْدَ مَا آيَسُوا عَنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَقْتَ الْاضْطِرَارِ﴾ ﴿حِيلَ﴾ وحجب ﴿بَيْنَهُمْ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان والنجاة المترتبة عليه، ففعل بهم حيثئذ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ وأشباههم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من الكفرة الماضين الهالكين، الملتجئين إلى الإيمان وقت اضطرابهم وهجوم العذاب عليهم، كفرعون وقارون وغيرهما ﴿إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا﴾ أمثال هؤلاء الغواة المنهمكين ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿مُرِيبٍ﴾ [سبا: 54] موقع أصحابه في رب عظيم، وكفر شديد، وإنكار غليظ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله بمئه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتدرج في درجات اليقين من العلم إلى العين إلى الحق - وفقك الله إلى أعلى مطالبك، وأعانك في إنجاحه - أن تتمكن في مقعد الصدق الذي

(1) قال في التأويلات: إذا تابوا وقد أغلقت الأبواب وندموا وقد تقطعت الأسباب فليس إلا الخسران والندم، ولات حين ندامة، كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يستف من غفلته يتجاوز عنه مرة، ويتغنى عنه كرامة، فإذا استمكنت منه القسوة وتجاوز سوء الأدب خد الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة؛ يحصل له من الحق ردة، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يسمع له دعاء، ولا يؤخّم له بكاء.

هو مرتبة الرضا، معرضاً عن الشك والتردد في مقتضيات القضاء، ومبرمات الأحكام المثبتة في حضرة العلم الإلهي، وأن تتوجه نحوه سبحانه في جميع حالاتك بذيل كرم نبيه المؤيد من عنده الذي أرشدك إلى توحيده، مسترشداً من آيات كتاب الله المنزل على رسوله، الممين لسلوك طريق التوحيد واليقين، وأحاديث النبي الموضح لمغلفات الكتاب، المشير إلى رموزه وإشاراته.

فلك في كل الأحوال التبتل إلى الله، والتوكل نحوه، والتفويض إليه، فاتخذه سبحانه وكيلك في جميع حوائجك، وحسيبك في جميع مهماتك، يكفيك معيناً، ويكف عنك شرور أعدائك مطلقاً.

وإياك إياك أن تختلط مع أصحاب الغفلة وأرباب الثروة، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه، والنسب العلي والحسب الذي يباهي صاحبه ويتفوق على أقرانه ويطلب الرئاسة والسيادة بسببه.

وإن أردت أن تجلس مع بني نوعك وتصاحب معهم، فاختر منهم من انقطع عن الدنيا وأمانيتها، وتزهد عنها وما فيها، سوى سد جوعة وستر عورة وكنّ يحفظه عن البرد والحر، وصاحب معه مصاحبة الحائر التائه في بيداء، لا يدري أين طرفاها، متفكرين متدبرين للخروج منها، والنجاة عن أهوالها وأغوالها.

فلك أن تتذكر في عموم أوقاتك قوله ﷺ، واجعله نصب عينيك في جميع حالاتك وهو: «كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور»⁽¹⁾.

جعلنا الله ممن امثل به، وتذكر وعمل بمقتضاه، ووجد في نفسه حلوة معناه بفضله ولطفه.

(1) رواه البخاري (267/21).

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة فاطر

لا يخفى على من تحقق بسعة قدرة الله وإحاطة علمه وإرادته، وشمول عموم أوصافه وأسمائه الذاتية والفعلية، أن مظاهر الحق ومجاليه حسب شئونه وتطوراته لا تكاد تنحصر وتحصى؛ إذ لا يكتنه ذاته ووصفه واسمه؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، بل كل آن في شأن.

وبعدما كان شأنه سبحانه كذلك، كيف يعد مظاهره المترتبة على شئونه وتجلياته الغير محصورة، إلا أنه سبحانه حمل لنفسه باعتبار معظم مظاهره ومصنوعاته بالنسبة إلى هؤلاء الأرضيين؛ تعليمًا لهم وإرشادًا؛ ليواظبوا على أداء حقوق كرمه بقدر وسعهم وطاقاتهم، فقال سبحانه لنفسه بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى باعتبار أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره ومصنوعاته بإفاضة نور الوجود عليهم على مقتضى الفضل والجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده بإطلاعهم على منشأ الوجود ومنبع خزائن الفيض والجود.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّقِيٍّ وَتِلْكَ وَرُبَعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ۝٤﴾ [فاطر: 1-4].

﴿الْحَمْدُ﴾ المحيط المشتمل على جميع ما صدر عن السنة عموم المظاهر حالاً ومقالاً ثابت ﴿لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: الذي فطر؛ أي: أظهر وأبدع الأجرام العلوية من كتم العدم بعدما شق وخلق ظلمته بأشعة نور الوجود، المنعكسة من الصفات الأسنى والأسماء الحسنى الإلهية ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأجسام السفلية أيضاً كذلك؛ ليتحقق

الفاعل والقابل ويتكون منهما من الكوائن والفواسد ما شاء الله بحوله وقوته ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: الذي جعل الملائكة الذين هم سدة سدته العلية وخدمة عتبه السنية ﴿رُسُلًا﴾ أي: وسائل ووسائط بينه سبحانه وبين خواص عبادته من الأنبياء والرسل والأولياء المؤيدين من عنده سبحانه بالرتبة العلية والدرجة الرفيعة، يبلغون إليهم من قبل الحق ما تفضل بهم سبحانه من الوحي المتعلق بخير الدارين ونفع النشأتين؛ ولذلك صيرهم سبحانه ﴿أُولِي أجنحة﴾ متعددة متفاوتة يسرعون بها نحو مصلحة بعثهم الله إليها وأمرهم بتبليغها ﴿مُشَى وَثَلَاثَ وَرِيَاعَ﴾⁽¹⁾ أي: لبعضهم أجنحة اثنين اثنين، وبعضهم ثلاثة ثلاثة، وبعضهم أربعة أربعة إلى ما شاء الله، بلا انحصار في عدد دون عدد، بل ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ أي: في جميع مخلوقاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا حد وحصر؛ إذ لا ينتهي قدرته دون مقدور، بل له أن يتصرف فيه إلى ما لا يتناهى، كما روي: «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح»⁽²⁾.

وهذا دليل على أن ذكر العدد ليس للحصر، فالآية تدل على أن له سبحانه أن يتصرف في ملكه وملكوته كما شاء وكيف شاء ومتى شاء، فيجوز أن يخلق أنواعاً لم يخلقها قبل من أي جنس كان، ويخلق أيضاً في فرد نوع أموراً عجيبة من الملاحظة والصباحة وحسن الصوت والصورة، وكمال العقل ورزانة الرأي، وخواص غريبة لم يخلقها قبل لأفراد آخر من هذا النوع.

ولهذا يتفاوت أشخاص الإنسان في المعارف والحقائق وجميع الأمور المتعلقة بالعقل المتفرعة على الإدراك بحسب الأدوار والأعصار، بل في زمان واحد أيضاً؛ إذ

(1) قال البقلي: وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فيجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، ويجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، ويجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، ويجناح الشوق تطير إلى الرصال.

قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان. قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقربين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

(2) رواه الترمذي (107/12).

بعضهم في نهاية البلاء، وبعضهم في كمال الجلالة، وبعضهم في كمال الحسن واللطافة، وبعضهم في نهاية الكثافة والقباحة.

وبالجملة: له سبحانه التصرف في ملكه وملكوته بالاستقلال والاختيار بلا فترة وفتور في علمه وقدرته وإرادته، إذ هو سبحانه منزّه عن السّامة والملال، وأوصافه بريئة عن وسمة الفترة والكلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق به إرادته ومشيته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1] لا بدّ أن يتكون باختياره بلا تخلف كل ما لمع عليه برق إرادته.

ومن كمال قدرته سبحانه أنه ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾ المدير لأحوال عباده ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين حقوق تربيته وتدبيره سبحانه ﴿مِنْ رَّحْمَةٍ﴾ فائضة لهم بمقتضى جوده تفضلاً عليهم من النبوة والرسالة والولاية والكرامة والعلم والمعرفة والرشد والهداية، وغير ذلك من الكمالات الفائضة من عنده سبحانه ﴿فَلَا تُفْسِدْ لَهَا﴾ أي: لا مانع لها يمنعها عنهم ﴿وَمَا يُفْسِدُ﴾ ويمنع سبحانه من أمر بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَلَا مُزِيلَ لَهُ﴾ يرسله إليهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد منعه سبحانه ﴿وَوَ﴾ كيف يسع لأحد ما يمنعه؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المقصود، المنحصر ذاته على العزة والغلبة، لا عزيز دونه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2] المستقل في المنع والإرسال إرادة، لا يُسأل عن فعله، ولا مبدل لقوله، ولا معقب لحكمه.

ثم نادى سبحانه أهل النعمة وخاطبهم؛ ليقبلوا عليه ويواظبوا على شكر نعمه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا له؛ أداء لحقوق كرمه، وتفكروا في آلائه ونعمائه ﴿هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ المتوحد بوجوب الوجود ودوام البقاء ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من امتزاج العلويات بالسفليات، واختلاط الفواعل والأسباب مع القوابل والمسببات المسخرة تحت قدرة العليم الحكيم؛ لينكشف لكم ويتبين أنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ويتوجه إليه، ويُسند الحوادث إلى حكمه والنعم الفائضة إلى فضله وجوده ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الله الحق الحقيق بالإطاعة والرجوع، لا مرجع سواه ولا مقصد إلا هو ﴿فَأَنى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3] وكيف تُصرفون عن توحيدِهِ، وتُردون عن بابه أيها الأفكون المجرمون.

﴿وَوَ﴾ بعدما بعثت يا أكمل الرسل لإرشاد أهل الضلال وتبليغ الرسالة إليهم، فلك أن تتصبر على المتاعب والمشاق الواردة في حملها ﴿إِنْ يَكْذِبُوكَ﴾ هؤلاء

الضالون بعدما دعوتهم إلى الحق، فتأس بإخوانك الرسل واصبر على أذى تكذيبهم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا﴾ عظام كثير ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أمثالك، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ﴾ إلى الله الواحد الأحد، القادر المقتدر على الإنعام والانتقام، لا إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿تُزَجِّعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: 4] الكائنة من التصديق والتكذيب والصبر والأذى، وغير ذلك من الحوادث؛ إذ كلها مستندة إلى الله أولاً وبالذات، حاضرة في حضرة علمه، ثابتة في لوح قضائه، يجازي كلاً من المحققين والمبطلين، المصدقين والمكذبين على مقتضى علمه وخبرته.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْنِيكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنِيْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ مَوَدَّةٌ عَلَيْهِمْ فَرَمَاهُمْ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَصَرْتِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ [فاطر: 5-8].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المنهمكون في بحر الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الغرور والخسران ﴿إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي وعده في النشأة الأخرى لعموم عباده شقيهم وسعيدهم، مطيعهم وكافرهم ﴿حَقًّا﴾ ثابت، لازم إنجازه على الله بلا خلف، فلکم أن تزودوا لأخراكم وتهبوا أمر عقابكم؛ كي تصلوا إلى ما أعد لكم مولاكم ﴿فَلَا تُغْنِيْكُمْ﴾ وتعوقنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها الفانية وشهواتها الزائلة عن الحياة السرمدية، والبقاء الأبدي واللذات الأزلية ﴿وَلَا يَغْنِيْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: 5] يعني: لا يلبس عليكم الشيطان المكارر الفرار الغدار بأن يقع في قلوبكم أن رحمة الله واسعة وفضله كثير ولطفه عام، وأن الله سبحانه مستغن عن طاعتكم وعبادتكم، وأن فعل الإيلام لا يتصور من الحكيم العلام، إلى غير ذلك من الحيل العاتقة لكم عن التقوى والتزود للنشأة الأخرى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ﴾^(١) قديم، مستمر عداوته من زمان أيكم

(١) أي: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبداً؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل

﴿فَاتَّخِذُوهُ﴾ أي: الشيطان، أنتم أيضًا ﴿عَدُوًّا﴾ لأنفسكم عداوة مستمرة بحيث لا تصغوا إليه ولا تقبلوا منه قوله، ولا تلتفتوا إلى تغريره وتليسه أصلاً، فإنه يواسيكم ويغريكم إلى مشتبهات نفوسكم، ويوقعكم في فتنة عظيمة، كما أوقع أباكم آدم عليه السلام على الغواية والضلال ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] المعد لأصحاب الشقاوة الأزلية مثل الشيطان وأحزابه وأتباعه.

نجنا بفضلك من سخطك، وأعدنا بلطفك من تغرير عدونا وعدوك.

ثم قال سبحانه كلاماً جميلاً، شاملاً لعموم العباد؛ تذكيراً وعظة، مشتملاً على الوعد والوعيد بكلا الفريقين: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عنه في النشأة الأولى عناداً ومكابرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: إحراق بالنار في النشأة الأخرى؛ جزاء لما اقترفوا في النشأة الأولى؛ إذ لا عذاب أشد من الإحراق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله المؤيدين من عنده بالصحف والكتب المنزلة إليهم، المبينة

بالعصمة وأنوار التأيد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذ عدواً وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفك من محاربه طرفة عين كلما عارضه شيء قابله بغيره إن عارضه بزيئة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائم متبعة مستعد لمحاربه؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضيء المبادرة في العهد وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساو من، كما أن بضيء النهار طرد الكلاب من المحابس .. وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوهم لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء. [عرائس البيان].

لسلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم في تلك الكتب والصحف ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ستر وعفو لما صدر عنهم من الذنوب قبل الإيمان والتصديق ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: 7] وجزاء عظيم على ما عملوا بعده بمقتضى الأمر الإلهي المبين في الكتب المنزلة من عنده.

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: أيزعم أن من زين وحسن له الشيطان عمله السيئ القبيح في الواقع فخيله حسناً بحسب زعمه الفاسد واعتقاده الباطل، كمن كان عمله حسناً في الواقع حقاً في نفس الأمر واعتقده أيضاً كذلك، حتى يكونا متساويين في استحقاق الأمر الجزيل والجزاء الجميل ١٩ كلا وحاشا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المقتدر على جميع ما يشاء ﴿يُضِلُّ﴾ عن صراط توحيده بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عصاة عباده ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بمقتضى لطفه وجماله إلى مقر توحيده وفضاء بقاءه، ومتى سمعت يا أكمل الرسل أن الإضلال والضلال، والإرشاد والهداية إنما هي مستمدة أولاً وبالذات إلى مشيئة الله وإرادته، لا مدخل لأحد من خلقه فيها أصلاً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ أي: لا تتعب ولا تهلك نفسك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على غواية من أردت أو أحيت هدايته ﴿خَسِرَاتٍ﴾ أي: حال كونك متحسراً ومتأسفاً تحسراً فوق تحسر، وتحزناً فوق تحزن على ضلالهم وعدم قبولهم الهداية، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله، فحسنه على نفسه واعتقده حقاً جهلاً مع أنه باطل في نفسه، وبذلك ضل عن طريق الحق وانحرف عن سوء السبيل، وبعد بمراحل عن الهداية، وأنت يا أكمل الرسل أذهبت وأهلكت نفسك حسرة عليهم وضجرة لما لم يهتدوا ولم يؤمنوا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب على جميع حالاتهم ﴿عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [فاطر: 8] يجازيهم على مقتضى علمه بسوء صنيعهم، ولا تتعب نفسك عليهم بما يفوتون على نفوسهم من الرشد والهداية.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَحَابَا فَسَقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَلَنَحْنَا بِهِ الْآرِضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ١٠﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ١١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
[فاطر: 9-11].

﴿و﴾ كيف لا يعلم سبحانه ضمائر عباده واستعداداتهم مع أنه ﴿الله﴾ المدبر لعموم أفعالهم وأحوالهم وحوائجهم، هو ﴿الَّذِي أَرْسَلَ﴾ بلطفه ومقتضى جوده ﴿الرِّيَّاحَ﴾ العاصفة ﴿فَتَشِيرُ﴾ وتهيج ﴿سَحَابًا﴾ هامة، مركبة من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة، القابلة لأن تتكون منها مياهًا بمجاورة الهواء البارد الرطب ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ بعدما تم تركيبه عناية منا ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّتَّيْتٍ﴾ يابس في غاية اليبس بحيث لا اخضرار له أصلاً ﴿فَأَخْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر الحاصل من السحاب ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ وَهَيْجِهَا﴾ أي: جفافها ويبسها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحيائنا الأرض اليابسة بعد يبسها وجمودها ﴿النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9] أي: إحيائنا الأموات الجامدة ونشرهم من قبورهم؛ بإعادة الروح المنفصل منهم إلى أبدانهم التي تفتت أجزاءها، بإرسال نفحات نسيمات لطفنا ورحمتنا لتثير سحب العناية الماطرة قطرات ماء الحياة المسوقة إلى أراضي الأبدان اليابسة الجامدة بالموت الطبيعي، إنما أحييناهم وأخرجناهم من الأجداث؛ إظهارًا لقدرتنا، وتتميمًا لحكمتنا واستقلالنا في آثار تصرفنا في ملكنا وملكوتنا، وتعززنا وكبريائنا في ذاتنا.

وبالجملة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الكاملة، التي لا يعقبها ذل أصلاً، فله أن يسترجع إلى الله ويتوجه نحو توحيده ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ والغلبة والسلطنة الكاملة والبسطة الشاملة ﴿جَمِيعًا﴾ ومن أراد أن يتعزز بعزة الله، فله في أوائل سلوكه إلى الله أن يتذكر سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا إلى أن ينتهي تذكره إلى التفكير الذي هو آخر العمل وصار متفكرًا في ذاته، مستكشفًا عن أستار جبروته سبحانه، إلى أن صار مستحضرًا له، مكاشفًا إياه، مشاهدًا آثار أوصافه وأسمائه على صفائح الأكوان بلا مزاحمة الأغيار، وبالجملة: فله أن يشتغل بالتذكر في أوائل الحال؛ إذ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ من الأسماء الحسنى والصفات العظمى الناشئة من السنة المخلصين المتفكرين في آلاء الله ونعماته.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ المقرون بالإخلاص والتبتل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع العمل المنبئ عن الإخلاص، والكلم الطيب إلى درجات القرب من الله، فمن كان إخلاصه في عمله أكمل، كان درجات كلماته المرفوعة نحوه سبحانه أرفع وأعلى عند الله ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ مع الله المنكرات ﴿السُّيُئَاتِ﴾ يعني به سبحانه: المكر السيئ الذي

مكر به المشركون - خذلهم الله - مع حبيبه ﷺ ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاء لما مكروا به ﴿وَوَ﴾ إن كان ﴿مَكْرُؤُكُ﴾ الماكرين ﴿هُوَ﴾ أي: مكروهم في نفسه ﴿يُؤَزُّ﴾ [فاطر: 10] يفسد ويبطل، ويعود وباله ونكاله عليهم بلا أثر لمكروهم بالممكور به ﷺ.

﴿وَوَ﴾ كيف لا يعود ضرر مكروهم إليكم أيها المشركون؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ الذي قصدتم المكر معه ومع من اختاره واصطفاه ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وقدر وجودكم ﴿مِّنْ تُرَابٍ﴾⁽¹⁾ جامد، لا حسن لها ولا شعور ﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، مستحدثة من أجزاء النبات المتكون من الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ وصيركم حيواناً ﴿أَزْوَاجًا﴾ ذكورا وإناثا؛ لتوالدوا وتكثروا ﴿وَوَ﴾ يربيكم على الوجه الأحسن الأصلح؛ إذ هو عليم بجميع ما يعنيكم وما لا يعنيكم وبكل ما جرى عليكم إلى حيث ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ حملة ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وإذنه سبحانه، وهو معلوم له لا يغيب عنه ﴿وَوَ﴾ بعد وضع الحمل ﴿مَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ﴾ يبلغ عمر نهايته ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ بأن لم يصل إليها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي:

(1) في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكنين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقا تفصيليا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سر الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانا وإناثا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيد، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتعاضد، والذكورة والأنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمُعَمَّرُ مَنْ أَطِيلَ عُمرُهُ، (مِنْ مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّيَ معمرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤل إليه؛ والمعنى وما يُعْمَدُ في عمر أحد. ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعد؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَنْ شأنه أن يُعْمَرَ؛ أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقضا. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغير ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائاه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، وأتبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

مثبت مسطور في حضرة العلم الإلهي ولوح القضاء ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ أي: حفظه وثبته ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11] وإن كان عندكم عسير، بل متعذر ممتنع؛ إذ لا يسع لكم استحضار أنكم ولحظتكم، فكيف أحوال يومكم وشهركم وحولكم؟ فكيف أحوال طفوليتكم وكونكم جنيئاً؟

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَنُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: 12-14].

ثم مثل سبحانه كلا الفريقين المؤمن والكافر بالبحرين العذب والمالح، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ في النفع والفائدة الحاصلة منهما؛ إذ ﴿هَذَا﴾ أي: المؤمن المصدق لبحر الإيمان والعرفان، المترشح من بحر الوحدة الذاتية ﴿عَذْبٌ﴾ حلو في كمال الحلاوة ﴿فُرَاتٌ﴾ يكسر غليل أكباد المتعطشين في سراب الدنيا يبرد اليقين ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: سهل انحداره للمجبولين على فطرة التوحيد.

﴿وَهَذَا﴾ أي: الكافر المتوغل في بحر الغفلة ﴿مِلْحٌ﴾ لا مصلح يصلح من يذوق منه، بل ﴿أُجَاجٌ﴾ مر مفسد للمزاج، من ذاق منه هلك هلاكاً أبدياً بحيث لا نجاة له، بل ﴿وَالْبَحْرُ الْأُجَاجُ﴾ له نفع، ولا نفع للكفر والضلال أصلاً؛ إذ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ من البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ مثل السمك وغيرها ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منهما ﴿حِلْيَةً﴾ أي: أنواعاً من التزيينات اللاتي ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإنما أباح لكم سبحانه أيها المكلفون منافع بره وبحره ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَنُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12] أي: رجاء أن تشكروا نعمه، وتزيدوا على أنفسكم مزيد كرمه.

ومن كمال فضل الله عليكم ورحمته أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ أي: يدخل ظلمته ﴿فِي﴾ نور ﴿النَّهَارِ﴾ فيطول أجزاء النهار بإيلاج أجزاء الليل في الصيف؛ تنميماً لمصالح

معيش عباده ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا في الشتاء ﴿يُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فيطوله بأجزائه؛ تسكيناً للقوى النامية، وتمكيناً لها؛ ليجدها للخدمة المفوضة إليها ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضاً؛ تمييزاً لمصالح عباده إلى حيث ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويدور بإذن الله وإلهامه ﴿لَّأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي من مبدأ دوره إلى انتهاءه، أو إلى انقراض نشأة الدنيا ﴿ذَلِكُمْ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار، المدير بكمال العلم والخبرة ووفور الحكمة والدربة، هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع النعم والكرم، وكيف لا يريكم سبحانه بعدما أبدعكم؛ إذ لا متصرف في الكائنات إلا هو ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ لا مالك له سواه ولا مدبر غيره.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ وتَدْعُونَ ﴿مِن دُونِهِ﴾ من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة تعثاً وعناداً، مع أن ما يسمون أولئك الجاهلون آلهة سواه سبحانه، ويسندون الأمور إليهم مكابرة ﴿مَا يَفْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] أي: ليس لهم أن يتصرفوا في قشرة رقيقة ملتفة على ظهر النواة، وهذه مثل في القلة عند العرب فكيف في غيرها؛ إذ الألوهية مسبوقة بوجوب الوجود بالصفات الكاملة الذاتية والأسماء الحسنى التي لا تعد ولا تحصى.

وليس لهؤلاء الأظلال الهالكة وجود في أنفسها، ومن أين يتأتى منهم الألوهية؟ بل هم من أدنى الممكنات وأدون المكونات؛ لكونهم جمادات لا شعور لهم أصلاً إلى حيث ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ وتلتجثوا نحوهم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إذ ليس لهم قابلية السماع والاستماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ يعني: لو فرض أنه سمعوا على سبيل الفرض المحال ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس لهم القدرة والإرادة والأوصاف الكاملة اللازمة للألوهية والربوبية ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ مع عدم نفهم إياكم أنتم أيها الجاهلون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ﴾ ويؤاخذون ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ وإشراككم؛ أي: اتخاذكم إياهم شركاء مع الله، وهم يتبرءون عنكم وأنتم عنهم ﴿وَلَا يُنصِّرُكُمْ﴾ ويخبركم أيها المخاطب النبيه الفطن أحوال النشأة الأخرى، وما سيجري بينك وبين شركائك من البراءة والملاعنة ﴿مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: 14] وهو الله العليم الحكيم، الذي لا يعزب عن إحاطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لا في الأولى ولا في الأخرى، وعنده مفاتيح الغيب ومقاليد الأمور لا يعلمها إلا هو.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنفَرًا﴾ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنَّ يَسَاءَ

يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ [فاطر: 15-18].

ثم نادى سبحانه عموم عباده على سبيل الاستغناء عنهم وعن أعمالهم وعن محامدهم وأثنيهم الجارية على ألسنتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون عهد الله ومواثيقه التي واثقكم بها ربكم مع أنكم تنسون نعمه، وتذهلون عن حقوق كرمه ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾⁽¹⁾ المحتاجون بالذات المقصورون على الافتقار ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ورباكم بأنواع النعم، سيما العقل المفاض، الذي هو مذكركم عن مبدئكم ومنشئكم، فلم تشكروا نعمة مبدعكم ومربيكم أيها الغافلون الجاهلون مع أنكم محتاجون إليه.

﴿وَاللَّهُ﴾ المتزه بذاته عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المنحصر على الغنى الذاتي، بحيث لا احتياج له ولا استكمال أصلاً؛ إذ كمالاته سبحانه كلها بالفعل بحيث لا ترقب في شئونه مطلقاً ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] المحمود في نفسه

(1) قال في التاويلات: يشير أن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بين سائر المخلوقات وإن كانت المخلوقات محتاجة إلى الله بأجمعها ولكنه تعالى ما شرف شيئاً من المخلوقات بتشريف خطاب ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ والله خلق الملائكة المقربين لأن الفقر على ثلاثة أوجه: فقر خلقة: وهو للعوام، وفقر صفة: وهو للخواص، وفقر كرم: وهو لأخص الخواص.

فقر الخلق: عام لكل أحد ولكن حادث فقر من محدثه فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في أول حاجة وجوده ليبيده وينشئه في الثاني من حال بقائه ليديمه ويقيمه ويحضر، وأما فقر الصفة: فهو خاص وهو التجرد عن الدنيا وما فيها والتجرد عن الآخرة وما فيها متوجهاً إلى الله بكل وجوده فهو فقير عن صفاته المفتقرة إلى الكونين لفنائه بالله عن الكونين، وافتقار إلى الله بدلاً عن الكونين لافتقاره إلى الكونين ولكن يمكر بهما، وأما فقر الكرم: فهو للأخص وهو التفرد عن الوجود بالوجود وأجب الوجود والتوحد به فهو الفقر الحقيقي عن عينه والفناء الحقيقي بالله بعينه فكان افتقار المخلوقات إلى أفعال الله وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته كمثل سلطان يكون له رعية وهو صاحب الجمال فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه ويكون افتقار عشاقه إلى ذاته وصفاته فيكون غني كل مفتقر بما يفتقر إليه فقر الرعية يكون بالمال والملك وغنى العاشق يكون بمعشوقه.

على الوجه الذي يليق بشأنه؛ إذ لا يتأتى عن مصنوعاته الحمد الحقيقي بذاته، وإنما أظهركم أيها الأظلال الهالكة بمقتضى جماله ولطفه؛ لتواظبوا على عبادته وعرفانه، كي تصلوا إلى توحيده صاعدين من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب الذاتي علمًا وعيًا وحقًا، فأنتم تتكاسلون وتتمايلون إلى أهوية نفوسكم البهيمية ومشتبهات قواكم البشرية، أما تخافون وتأملون أيها المغرورون؟

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن فضاء البروز بالمرة إلى كمون العدم ﴿وَيَأْتِ﴾ بذلك ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: 16] أي: بمخلوق سواكم؛ تمييزًا لحكمة العبادة والمعرفة.

﴿و﴾ اعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة أنه ﴿مَا ذَلِك﴾ التبديل والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إظهار جميع ما لاح عليه برق علمه وإرادته ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 17] غير متعذر، بل عنده ويجنب سرعة نفوذ قضائه سهل يسير.

﴿و﴾ بعدما عرفتم قدرة الله وسمعتم كمال استغناؤه، فلكل منكم الإتيان بمأموراته والاجتناب عن منهياته؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَأَزْرَهُ﴾ آثمة عاصية ﴿وَزَرَ﴾ نفس عاصية ﴿أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ﴾ وتطلب نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار والمعاصي ﴿إِلَى جَمَلِهَا﴾ أي: حمل بعض من الأوزار المحمول عليها ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي: لا يحمل أحد شيئًا من أوزاره، وإن رضي بحملها على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو للحمل ﴿ذَا قُزِّيَ﴾ أي: من قرابة الداعي، بل كل واحد من النفوس يومئذ رهينة ما اقترفت من المعاصي، ما حملت إلا عليها وما حوسبت بها إلا هي.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ في شأن عبادته: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يعني: ما تفيد إنذاراتك التي تلوت يا أكمل الرسل على هؤلاء الغفلة إلا القوم الذين يخافون من الله، ومن عذابه وعقابه حال كونهم غائبين عنه، سامعين له، خاشعين من نزوله، خائفين من حلوله بغته ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المأمورة، المقررة لهم إلى جناب قدمه، المخلصين فيها، المطهرين نفوسهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ وطهر نفسه عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفع تزكيته عائد إليه، مفيد له في أولاه وآخره ﴿و﴾ بعد تزكيته عن لوازم بشريته ومقتضيات بهيميته العائقة عن الوصول إلى مبدأ فطرته ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المتزه عن مطلق النقائص، المبرء عن جملة الرذائل ﴿الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18] أي: المنقلب والمآب؛

يعني: مرجع الكل إليه، ومقصده دونه سبحانه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا
الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَةُ وَلَا الْأُمْتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعُ مَن فِي الْقُبُورِ
۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤
وَلَئِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر: 19-26].

﴿و﴾ لكن ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾ في القرب والرتبة بالنسبة إليه سبحانه ﴿الْأَعْمَى﴾ الغافل الجاهل عن كيفية الرجوع والتوجه ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: 19] العارف العالم بأمارات الصعود والعروج.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ المتراكمة المتكاثفة بعضها فوق بعض، وهي: ظلمة الطبيعة وظلمة الهيولي وظلمة التعينات، والهويات الممتزجة المتكاثفة إلى حيث يصير حجابًا غليظًا وغشاء كثيفًا يعمي أبصار المبحولين على الإبصار، والاعتبار على مقتضى الشئون القهرية الجلالية ﴿وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: 20] المتشعشع المتجلي من وحدة الذات حسب شئونه اللطيفة الجمالية.

﴿وَلَا الظِّلُّ﴾ الإلهي، المروح لأرواح أرباب المحبة والولاء بنفحات نسائم أنواع الفتوحات والكرامات ﴿وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: 21] أي: السموم المهلكة المنشأة من فوحان الأماني الإمكانية، الممتزجة ببحموم الطبيعة المتصاعدة من أبخرة الأهوية ونيران الشهوات.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾ عند الله العليم الحكيم ﴿الْأَخْيَاءُ﴾ بحياة المعرفة والإيمان واليقين والعرفان، حياة أزلية أبدية سرمدية، لا أمر لها حتى تنقضي ولا حدوث لها حتى تنعدم ﴿وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ بموت الجهل والضلال، وأنواع الغفلة والنسيان، الهالكين في هوية الإمكان، الخالدين في زاوية نيران الخمول والحرمان ﴿وَلَا إِنْ﴾ الله العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿يُسْمِعُ﴾ ويهدي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده؛ عناية لهم وامتنانًا عليهم إلى صراط توحيده ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ هاد مرشد ﴿مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22] أي: من كان راسخًا متمكنًا في هاوية الجهل

المركب، وجميع الإمكان وأحداث الغفلة والنسيان؛ إذ هم مجبولون على الغواية الفطرية والجهالة والجبلية لا يتأتى لك إهداؤهم وإرشادهم أصلاً.

بل ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي: ما أنت أيها المختار لتبليغ الرسالة ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 23] لهم من قبلنا، فلك أن تبلغ الإنذارات والوعيدات الهائلة النازلة منا إليهم، ولا تجتهد في هدايتهم وقبولهم؛ إذ ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ من كمال لطفنا معك ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، داعياً لعموم عبادنا إلى توحيدنا ﴿بَشِيرًا﴾ بما أعددنا لهم من المراتب العلية والمقامات السنية ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم أيضاً بما أعتدنا من دركات النيران الموجبة لزفريات القلوب وحسرات الجنان ﴿وَ﴾ إرسالنا إياك ليس بيدع منا، بل ﴿إِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا غَلَا﴾ ومضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24] ينذرهم عما لا يعينهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت ﴿إِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أولئك الكفرة المصرون على الشرك والعناد، وأنكروا بك ويكتابك، لا تبال بهم ويإنكارهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الكفرة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين رسلهم مع أنه ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ المبعوثون إليهم حال كونهم مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الدلائل الواضحات من المعجزات المثبتة لنبوتهم ورسالاتهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ والصحف المنزلة إليهم، المشتملة على أصول أديانهم وبيان طرقهم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [فاطر: 25] المظهر لسرائر التوحيد بحججه وبراهينه القاطعة وحكمه وأحكامه الساطعة آثارها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذبوا رسلهم وأنكروا الكتب التي جاءوا بها من عندنا على مقتضى وحيينا، وأصروا على كفرهم وشركهم ﴿أَخَذْتُ﴾ بمقتضى عزتي وقدرتي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق مستكبرين، مصرين على الباطل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: 26] أي: إنكاري بالنسبة إلى إنكار أولئك الهلكى، العاجزين في تيه الغفلة والضلال، وإهلاكى إليهم بحيث لم يبق منهم أحد يخلفهم، ويحيي اسمهم ورسومهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيظٌ مُودٌ ۚ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالنَّوَابِ وَأَلْأَنفِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

يَرْجُونَ نَجْرَةً لَّنْ تَكْبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ [فاطر: 27-30]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المقتدر بالقدرة الكاملة كيف ﴿أَنْزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِّنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الذاتية ﴿مَاءً﴾ محيياً لأموات الأراضي المائنة الجامدة، الباقية على صرافة العدم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء المفاض، المترشح من بحر الذات على أرض الطبيعة ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ فواكه متنوعة من المعارف والحقائق والخواطف والواردات المختطفة على قلوب أرباب المحبة والولاء حسب حالاتهم ومقاماتهم ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وكيفياتها علماً وعيناً وحقاً ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ التي هي الأوتاد والأقطاب القابلة لفيضان تلك الكرامات والفتوحات ﴿جُدَدٌ﴾ أي: ذوو طرق وسبل إلى كعبة الذات، وعرفات الأسماء والصفات ﴿بَيْضٌ﴾ مصفى في غاية الصفاء، بلا خلط ومزج لها بالأوان التعينات والهويات أصلاً ﴿وَوَحْمَرٌ﴾ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ باختلاف مراتب قربهم وبعدهم عن المرتبة الأولى ﴿وَوَحْمَرٌ﴾ بعضها ﴿غَرَائِبٌ سُودٌ﴾ [فاطر: 27] أي: متناه في السواد والظلمة، بحيث لا يبقى فيها شائبة شبه بالمرتبة الأولى، بل هي مباين لها، مناقض إياها بحيث لا يبقى المناسبة بينهما أصلاً.

قيل: يشير سبحانه بالجدد البيض إلى طائفة الصوفية الذين هم صفوا بواطنهم عما سوى الحق من الأمور المنصبغة بصبغ الأكوان والأوان الإمكان، وبالحمرة المختلف الألوان إلى طائفة المتكلمين الذين بحثوا عن ذات الله وصفاته، متشبثين بالدلائل العقلية والنقلية الغير المؤيدة بالكشف والشهود، المفيدة للظن والتخمين إلا نادراً، وبالغرائب السود إلى طائفة الفقهاء الذين كثفت حجبهم وغلظت أغشيتهم وأعطيتهم إلى حيث لم يبق في فضاء قلوبهم موضع يليق لقبول انعكاس أشعة أنوار الحق، بل سؤدوها وصبغوها إلى حيث أخرجوها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

﴿وَوَحْمَرٌ﴾ أخرجنا به أيضاً؛ أي: من الآثار تربية الماء وإحيائها أموات الأراضي ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿وَالْدُّوَابِّ﴾ المنسلخة عن رتبة الإدراك والشعور المتعلق بالمبدأ والمعاد ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ المشغوفة بتوفير اللذات الجسمانية والمشتتهيات النفسية ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: أجناسه وأنواعه وأصنافه وأشكاله وهيئاته، وبالجمله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ ويخاف من بطشه ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ الذين أبدعهم

وأظهرهم من كتم العدم بإفاضة رشاشات رشحات بحر وجوده بمقتضى جوده ﴿الْعُلَمَاءُ﴾⁽¹⁾ العرفاء بالله وبأوصافه الكامنه الفائضة عليهم، وأسمائه الحسنی الشاملة، المتحققون بمرتبة التوحيد، المنكشفون بسر سريان الوحدة الذاتية على عموم المظاهر؛ إذ أخشى الناس من الله أعرفهم بشأنه؛ لذا قال ﷻ: «إني أخشاكم لله وأتقاكم له»⁽²⁾، وكيف لا يخشى العارفون منه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على انتقام من أراد انتقامه من عباده ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28] ذنوب من تاب إلى الله ورجع نحوه عن ظهر القلب.

ثم أشار سبحانه إلى خواص عباده، ونبيههم على ما هو المقبول منهم عنده سبحانه من أعمالهم، وحثهم عليها امتناناً لهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ المنزل على رسوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، المكتوبة في الأوقات المحفوظة، المأمورة إياهم في كتاب الله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ طلباً لمرضاتنا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا إليهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿سِرًّا﴾ خفية من الناس؛ اتقاء عن وصمة الرياء والسمعة، ومن الفقراء المستحقين أيضاً؛ صوتاً لهم عن أن يتأذوا حين أخذوا ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أيضاً بعدما اقتضى المحل إعلامه، ولم يتأت منه الإخفاء ﴿يَزْجُونَ﴾ من الله بالأفعال المذكورة ﴿تِجَارَةً﴾ من الأحوال والمقامات ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29] أي: لن تهلك وتفسد وتفنى أصلاً.

وإنما فعلوا ذلك ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ ويوفر عليهم سبحانه ﴿أَجُورَهُمْ﴾ التي يستحقون بأعمالهم بها ﴿وَيَزِيدَهُمْ﴾ عليها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ما لا يعد ولا يحصى من الكرامات؛ امتناناً لهم، وكيف لا يوفيههم ويزيدهم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ عز شأنه وجل برهانه ﴿غَفُورٌ﴾ في ذاته لفرطات عباده، يغفر لهم ذنوبهم ﴿شُكُورٌ﴾ [فاطر: 30] يقبل منهم يسير

(1) قال في التأويلات: بحسب اختلافهم في العلم فمنهم من هو عالم بأحكام الله من أوامره ونواهيه فيكون خوفه من قوت الجنان وعذاب النيران، ومنهم من هو عالم بصفات الله من صفات اللطف والقهر فيكون خوفه من الحرمان عن مقامات القرب والخلدان إلى دركات البعد، ومنهم من هو عالم بالله بنور الله فخوفه يكون هبة من ذاته تعالى. كما قال: ﴿وَيُخَلِّزُكُمُ اللَّهُ تَفْتَةً﴾ [آل عمران: 28] فيقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف كما قال ﷻ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه».

(2) رواه أحمد في «مسنده» (253/56).

طاعاتهم التي أتوا بها مخلصين، فكيف بعسیرها؟!.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴿[فاطر: 31-35].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، الحاوي لمعظمت أصول الدين ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المنزل من عندنا، المثبت في حضرة علمنا ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما يقدم عليه من الكتب والصحف المنزلة من عندنا، الميِّنة لحكمنا وأحكامنا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع لجميع أحوالهم الظاهرة والباطنة حتى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31] بما جرى وسيجري عليهم في أولاهم وآخرهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل بالرسالة العامة، وأيدنا أمرك بإنزال القرآن المعجز، الموجز، المشتمل لجميع فوائد الكتب السماوية مع زيادات خلت عنها الكل ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ المنزل إليك، وأبقيناه بعدك بين القوم ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١) واخترناهم بإرسالك إليهم ويعثك بينهم، فجعلناهم في اقتباس نور الهداية

(1) قال في التأويلات: يشير إلى إراثهم الكتاب حيث علمهم القرآن بلا واسطة كما قال: ﴿الرُّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 1-2] وذلك قبل خلقهم؛ لأنه قال: ﴿الرُّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: 1-3] أي: علمهم القرآن وهم بلا هم وهذا علم القرآن لسان الطيور ثم خلقهم؛ لأنه قال وعلمهم البيان قال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 3-4] وهذا النوع من الإيراد مخصوص بهذه الأمة لأنه كما جاء في الخبر لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «أمّتي ورب الكعبة ثلاث مرات» (1) وإنما ذكر بلفظ الميراث لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له ولا نسب ولا ميراث له فالسبب هاهنا طاعة العبد

والتوحيد من مشكاة النبوة، والرسالة الختمية المحمدية، الحاوية لمراتب جميع الرسل الذين مضوا قبله ﷺ أصنافاً ثلاثة: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من كمال شوقه إلى مبدئهم الأصلي وغاية تحننهم نحو الفطرية الجبلية التي فطر الناس عليها في بدء الأمر ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ البشرية، بحيث يمنع عنها جميع حظوظها النفسانية ومقتضيات قواها الجسمانية إلى حيث اتصل بعضهم من كمال احتماء نفسه عن مقتضياتها البهيمية بالملأ الأعلى قبل انقراض النشأة الأولى، وهم شطار الأولياء الذين صرفوا همهم بالوصول إلى مبدئهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ معتدل، مائل عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، بحيث لا يمنع نفسه عن ضرورياتها والمقومة لها ولا يكثرها عليها، بل يمنعها عن الزيادة على الضروري في عموم الحوائج، وبالجمل: يقتصد في الأعمال والأفعال والأقوال وجميع الأحوال، وهم الأبرار من الأولياء ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ مواظب على الطاعات، مشمر دائماً بالأعمال الصالحات وفواضل الصدقات، والإنفاق على طلب المرضاة للفقراء والمهاجرين في سبيل الله، المنصرفين عن الدنيا وما فيها ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وعلى مقتضى ما ثبت في كتابه ونطق به لسان رسوله، وهم الأخيار المحسنون من الأولياء ﴿ذَلِكَ﴾ الإيراث والتوريث والإعطاء والاصطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32] من الله إياهم في أولاهم، والفوز العظيم، والنوال الكريم لهم في أخراهم.

والنسب فضل الرب فأهل الطاعة هم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الذين يرثون الفردوس ﴿[المؤمنون: 10-11]﴾ فهم ورثوا الجنة بسبب الطاعة وأصل وارثهم بالسببية المباينة التي جرت بينهم وبين الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111] فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون وأهل الفضل هم أهل الله وفضله معهم بأن أورثهم المحبة والمعرفة والقرية، كما قال ﴿يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: 54] فمن لا سبب له ولا نسب فلا ميراث له ولما كانت الوراثة بالنسب والسبب، وكان السبب جنساً واحداً كالزوجية وهي صاحب الفرض وكان النسب من جنسين الأصول والفرع الأصول كالأباء والأمهات، والفرع كما يتولد من الأصول كالأولاد والإخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم وهم صاحب فرض وعصبة فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف صنف صاحب الفرض بالسبب وصنف صاحب الفرض بالنسب وصنف صاحب الباقي وهم العصبة كذلك الورثة هاهنا ثلاثة أصناف.

جعلنا الله من خدامهم ومحبيهم، ومقتفي أثرهم.

ومن جملة فضل الله إياهم في أخراهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ معدة لهم نزلاً ومنزلاً من عند الله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فرحين مسرورين آمنين فائزين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿يُحَلَّونَ فِيهَا﴾ تزييناً وتفضلاً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جزاء ما اقترفوا بأيديهم من الحسنات ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ خالص مقابلة لإخلاصهم في أعمالهم ﴿وَلَوْلُؤَا﴾ أي: يحلون أيضاً من أنواع اللآلئ بدل ما يتقون نفوسهم من الميل إليها في نشأتهم الأولى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33] بدل ما يلبسون من الخشن في طريق المجاهدة والسلوك نحو الحق في النشأة الأولى.

﴿و﴾ بعدما وصلوا إلى مقام القرب، بل اتصلوا برفع أنانيتهم وهوياتهم الباطلة عن البين إلى ما انقلبوا ﴿قَالُوا﴾ بالسنة استعداداتهم موافقاً لقلوبهم: ﴿الْحَمْدُ﴾ أي: جنس الحمد والثناء الشامل لجميع محامد جميع الحامدين قولاً وفعلاً وحالاً ومقالاً، مختص ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق بالاستحقاق الذاتي والوصفي ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾ وأزال ﴿عَنَّا الْحَزْنَ﴾⁽¹⁾ المورث لنا من لوازم تعيناتنا وإمكاننا ﴿إِنْ رَبَّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع الكرامة، ونجانا عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوب أنانياتنا ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر: 34] يقبل منا، يقربنا إلى فضاء توحيده بتوفيقه وتأيدته.

إذ هو ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ وأقامنا بفضله ولطفه ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: منزل الإقامة والخلود ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ بنا ولطفه معنا؛ إذ لا موجب منا يوجبها لنا، ولا يجب عليه سبحانه إيصالنا إليها آمنين مترفين بحيث ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ﴾ تعب وعناء مثل ما مسنا في الابتلاء ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 35] أي: فترة وكلال تعقب النصب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ

(1) قال روزبهان: أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان.

صَلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ [فاطر: 36-38].

نفى سبحانه بعد نفى الملزوم؛ مبالغة وتأكيداً، ثم أردف سبحانه وعد المؤمنين بوعيد الكافرين على مقتضى سنته المستمرة في كتابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأعرضوا عن كتبه ورسله، وأنكروا بالبعث والحشر وإعادة المعدوم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي: معدة مسعرة لهم؛ ليعذبوا بها في النشأة الأخرى تعذيباً شديداً إلى حيث ﴿لَا يُقْضَى﴾ ولا يحكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت من عنده سبحانه ﴿فَيَمُوتُوا﴾ كي يستريحوا، بل كلما أشرفوا على الهلاك يعادوا ويعذبوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ أبداً، ولا يمهلون ساعة حتى يتنفسوا، بل صاروا معذبين على التعاقب والتوالي أبداً بلا فرجة أصلاً، كأبناء الدنيا المعذبين في دار الحرمان بيران الإمكان إلى حيث تستوعب جميع أوقاتهم وأزمانهم، بحيث لا يسع لهم التنفس والتفرج أصلاً ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما نجازي أولئك المصرين على الكفر والعناد ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: 36] لحقوق نعمنا، منكر لمقتضيات جودنا وكرمنا.

﴿وَهُمْ﴾ من شدة فزعهم وهولهم ﴿يَضْطَرُّونَ فِيهَا﴾ ويستغيثون من الله، صارخين، متحسرين، قائلين من كمال الضجرة والحسرة: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم، فكفرناك وأعرضنا عنك وعن كتبك ورسلك ﴿أَخْرَجْنَا﴾ وأعدنا منها إلى الدنيا كرة أخرى ﴿نَعْمَلُ صَالِحًا﴾ مقبلاً عندك، مرضياً لك ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي﴾ كُنَّا نَعْمَلُ ﴿عَنَادًا وَمَكَابِرَةً﴾، فالآن ظهر لنا الحق وبطلان ما كنا نعمل من الأعمال الفاسدة الغير المطابقة لكتبك ودين رسلك، فلو أخرجتنا وأعدتنا لآمنا بك وكتبك ورسلك، وبجميع ما جاءوا به من عندك.

وبعدما تمادوا وتطالوا في بث الشكوى، قيل لهم من قبل الحق على ميل التوبيخ والتقريع: ﴿أَ﴾ تطلبون المهلة منا وتستمهلون عنا ﴿وَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ونمهلكم أيها المسرفون المفرطون في الدنيا طويلاً إلى حيث يسع فيه جميع ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ أي: وقت وسيع، يتذكر فيه من كان بصدد التذكر والتنبه، وهو من وقت البلوغ إلى ستين سنة غالباً، ولم تتذكروا في تلك المدة لا من تلقاء أنفسكم مع أنكم مجبولون

على فطرة التذكر ﴿و﴾ مع ذلك ﴿جَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ المذكر، المنذر لكم عن أمثال ما أنتم عليه الآن، فأنكرتم له ولم تتذكروا أيضًا بقوله، حتى ظهر عليكم أمارات الشيب المذكر المخبر لكم للرحيل إلى السفر الطويل، ومع ذلك لم تتزودوا لها، فالآن قد انقضى وقت التذكر والتدبر، ومضى أوان التدارك والتلاقي، تطلبون العود والخروج؟ هيهات هيهات، إن وقت التفقد قد فات ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب المخلد بدل تلك اللذات، فاعلموا الآن ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله ﴿مِنْ نُصِيرٍ﴾ [فاطر: 37] ينصرهم في رفع العذاب، أو يشفع لهم عند الله لتخفيفه عنهم، بل هم خالدون في النار أبد الآباد، لا سبيل لنجاتهم أصلاً.

ربنا بعدنا عن سخطك وغضبك، وأحينا وأمتنا على مقتضى إرادتك ورضاك وارزقنا في النشأة الأخرى لقياك، إنك على ما تشاء قدير.

وكيف يسع لأحد من المخلوقات أن يشفع عنده سبحانه لعصاة عباده أو ينصرهم في الإنقاذ عن عذابه بعدما ثبت جرائمهم في حضرة علمه وتعلق إرادته بأخذهم على ظلمهم؟.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما لاح عليه برق الوجود ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: بواطن ما في العلويات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: بواطن ما في السفليات أيضًا، وكيف يخفى عليه سبحانه ما في سرائر عباده وضمائرهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: 38] أي: جميع مكنونات الصدور ومضمراتها، ومقتضيات استعداداتهم وقابلياتهم مطلقًا؛ لأنه المراقب لهم في جميع حالاتهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كَفَرْتُمْ عَنْهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّهُمْ ظَالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا ظُنُّوا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسِطُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا خَفِيرًا ﴿٤١﴾ [فاطر: 39-41].

فكيف تغفلون عنه سبحانه وتذهلون عن تذكره أيها الغافلون، مع أنه سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَاقًا﴾^(١) عن ذاته وأظهركم على صورته وأعطاكم التصرف ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وسلطكم على عموم ما عليها، وسخر لكم جميع ما فيها من المواليد؛ تمييزاً لخلافتكم وتكريماً لكم على سائر مخلوقاته، وبعدما فعل بكم سبحانه من الكرامة والإفضال وحسن الفعال ما فعل ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان به سبحانه وبكتبه ورسله وبما جرى في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: يحمل عليه وبال كفره وإعراضه، وينتقم عنه على مقتضاه بلا لحوق شين وعيب عليه سبحانه؛ إذ هو في ذاته منزّه عن إيمان عباده وكفرهم، بل ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ أي: إصرارهم على الشرك واستنكافهم عن الإيمان بالله والكتب والرسول ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: غضباً وبغضاً شديداً منه سبحانه إياهم، وطردهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَوَالْجُمْلَةُ﴾: ﴿لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ وشركهم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: 39] نقصاناً وحرماناً في النشأة الأخرى عما أعد للمؤمنين من أنواع الكرامات والمقامات العلية، لا خسران أعظم منه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين؛ تقريباً لهم وتبكيئاً بعدما سجلنا عليهم المقت والطرود وأنواع الخسران والخذلان: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأبصرتهم أيها المجبولون على الفجوة والعناد ﴿شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدعون آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مشاركين له سبحانه في الألوهية والربوبية ﴿أُرُونِي﴾ وأخبروني أيها المكابرون المعاندون ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ وأوجدوا ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا في الأرض بالاستقلال والاختيار حتى يتصفوا بالالوهية؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: أروني هل لهم مشاركة مع الله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: خلقها وإبداعها ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي: أروني هل أنزلنا عليهم كتاباً دالاً على مشاركتهم معنا في الألوهية والربوبية؟ ﴿فَهُمْ﴾ أي: أولئك المدعون المكابرون مطلقون، فاتزون ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجج ودلائل واضحة من الكتاب دالة على

(١) قال في التاويلات: يشير إلى أن كل واحد من الأفاضل والأراذل خليفة من خلفائه في أرض الدنيا والأفاضل يظهرون جمال صفاته في مرآة أخلاقهم الربانية وهو سبحانه يتجلى بذاته وجميع صفاته بمرآة قلوب الصادقين منهم؛ لتكون مرآة قلوبهم لجمال صفاته وجلال ذاته مظهره، والأراذل يظهرون جمال صنائعه وكمال بدائعه في مرآة حرفهم وصنعة أيديهم ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان يغزله وينسج منه الثوب بالخلافة.

شركة أولئك التماثيل العاطلة مع العليم القدير الحكيم، فظاهر أنه ما أنزل إليهم كتابًا كذلك ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس الباعث لهم على ادعاء الشرك أمثال هذه المذكورات من الدلائل العقلية والنقلية، بل لا باعث لهم سوى الوعد الكاذب الذي يعد بعضهم بعضًا، وبالجمله: ما يعد الظالمون الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: 40] وتغريزًا من الشرفاء بالأراذل منهم، والرؤساء بالضعفاء، وتلييسًا من أصحاب الثروة على ذوي الأحلام السخيفة منهم؛ حفظًا لجاههم وسيادتهم، والله المطلع بجميع حالات عباده يعلم تغريزهم وتلييسهم ويمهلهم، ولا يعاجل بالانتقام لكمال حلمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿يُمْسِكُ﴾ ويضبط ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ويمنعهما من ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ بشرك المشركين، وافترائهم على الله بإثبات الشركاء له، وبشؤم عصيانهم وفسقهم فيما بينهم ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ ولم يمسكهما سبحانه ﴿إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: ما أمسكهما عن الزوال من أحد بعد الله سبحانه، لكنه سبحانه أمسكهما، ولم يعاجل بانتقام عصاة عباده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ في ذاته ﴿خَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام عند ثهور الجرائم ﴿عَفُورًا﴾ [فاطر: 41] لمن تاب عنهما، وأتاب إلى الله مخلصًا.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢) ﴿أَمْسِكَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَسَّنَّتْ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) [فاطر: 42-43].

﴿و﴾ من كمال حلم الله وإمهاله على المستوجبين لأنواع المقت والانتقام بعدما عهدوا مع الله ونقضوا عهودهم، وإن كفار قريش خذلهم الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في تأكيدها، وبالغوا في تغليظها قبل بعثة النبي ﷺ حين سمعوا أن من أهل الكتاب قوم كذبوا رسلهم، فأنكروا عليهم ولم يقبلوا من الرسل قولهم، فأنكروا عليهم مقسمين: والله ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ﴾ يعني: قريشًا ﴿نَذِيرٌ﴾ مرسل من عند الله، ينذرهم عما لا يعنيههم ويرشدهم إلى ما يعنيههم ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ في الإطاعة والانقياد للنبي النذير البشير ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: كل واحد واحد منا أهدى من كل واحد

وأحد من النصارى واليهود وغيرهم من الأمم، فواثقوا عهودهم مع الله على ذلك ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نذير وبشير هو أكمل من سائر المرسلين المبشرين المنذرين، وأفضل منهم؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئته وبعثه ﴿إِلَّا تَقْوَا﴾ [فاطر: 42] أي: نفرة عن الحق وإعراضاً عن أهله، وتباعداً عن قبول قوله ودينه.

ولما أنكروا له وأعرضوا عنه وعن دينه ﷺ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: طلبوا كبراً وخيلاءً ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: طلبوا أيضاً أن مكروا المكر السيئ، وأصل التركيب هذا، فعدل إلى صورة المضاف إلى السيئ اتساعاً؛ تأكيداً ومبالغة، والمكر السيئ: كل عمل قبيح صدر عنهم أو الشرك أو إرادة قتله ﷺ.

قال ﷺ: «لا تمكروا وتعينوا ماكرًا فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَجِئُ﴾ - أي: يحل ويحيط - ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»⁽¹⁾ وهو الماكر، فلحق وبال الشرك للمشركين وكذا وبال كل قبيح ومكروه عائد إلى فاعله ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما يمهلون ويستظرون أولئك المشركون؛ يعني: أهل مكة ﴿إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم بأن عذب سبحانه مكذبيهم ومصريهم على الإنكار والتكذيب، وبعدما ثبت في علم الله ولوح قضائه تعذيبهم فلا بد أن يقع حتماً ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ وهي: نزول العذاب على المكذبين ﴿تَبْدِيلًا﴾ إن تعلق مشيئته به وثبت في لوح قضائه؛ إذ لا يبدل الحكم دونه سبحانه ﴿وَوَ﴾ أيضاً ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَخْوِيلًا﴾ [فاطر: 43] بأن يتقل عذاب المكذبين العاصين إلى المصدقين المطيعين البرئين من العصيان والطغيان.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شُوْعِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَهُ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ يَبْكَادُ بِصِيرَةٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: 44-45].

﴿أ﴾ ينكرون سنة الله في الأمم الماضية الهالكة بتعذيب الله إياهم بسبب تكذيب الرسل والإنكار عليهم ﴿وَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ

(1) ذكره حقي في تفسيره (303/11).

عَاقِبَةُ ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مكذبين لرسله ﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ قَدْ﴾ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ أَي: من هؤلاء المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿قُوَّةٌ﴾ وقدرة، وأكثر شوكة وأموالاً وأولاداً ﴿وَمَعَ﴾ ذلك ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ المتميز برباء العز والعلاء على جميع ما جرى في ملكه من الأشياء ﴿لِيُفْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن يفوت عنه شيء حقير ويعزب عن حضرة علمه ذرة يسيرة لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أَي: العلويات ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: السفليات، وكيف يفوت عن خبرته سبحانه شيء ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يعزب عن حضرة علمه شيء ﴿قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44] على إظهار ما في خزانة علمه بلا فترة وفتور، وفطور وقصور.

﴿وَمِنْ﴾ من كمال حلم الله على عباده، ونهاية رأفته ورحمته منهم أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ﴾ الله المطلع لجميع ما جرى في ملكه من الجرائم الموجبة للأخذ والانتقام ﴿النَّاسِ﴾ الذين كلفوا من عنده سبحانه بترك الجرائم والآثام المانعة من الوصول إلى المبدئ الحقيقي ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أَي: شؤم ما اكتسبوا لأنفسهم من المعاصي التي منعوا عنها ﴿مَا تَرَكَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أَي: على ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: متحركة من المكلفين غير مأخوذة بجرم، بل بجرائم كثيرة عظيمة؛ إذ قلما يخلو إنسان عن طغيان ونسيان ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أَي: يؤخر أخذهم سبحانه ويمهلهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معين مقدر للأخذ والانتقام، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ الموعود المعين عند الله، المعلوم له سبحانه فقط، بلا إفشاء وإطلاع منه لأحد من أنبيائه ورسله، أخذوا حيثنذ بما اقترفوا من الجرائم والمعاصي بلا فوت شيء منها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب، المحافظ على جميع ما جرى في ملكه وملكوته ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ في جميع أوقات وجودهم، بل باستعداداتهم وقابلياتهم، وما جرى عليهم فيها ﴿بَصِيرًا﴾ [فاطر: 45] شهيداً مطلقاً يجازيهم على مقتضى إطلاعه وخبرته بأعمالهم ونياتهم فيها.

ربنا أصلح لنا عواقب أمورنا ويسر علينا كل عسير.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتشمر لإعداد زاد يوم الميعاد، وفقك الله على إتمامه أن تلف شملك وتجمع همك للركون إلى الآخرة التي هي دار الخلود والقرار، وتجتهد في رفع الموانع والشواغل العائقة عن هذا الميل، فلك أن تنقطع عن مألوفاتك ومشتهياتك التي هي أسباب الأخذ والبطش الإلهي، وتنخلع عن لوازم تعيناتك

المشتملة على أنواع الفتن والمحن حسب ما يشر الله عليك، معرضاً عن الدنيا الدنية ومستلذاتها البهية ومشتهياتها الشهية؛ إذ لا قرار لها ولا مدار لما يترتب عليها، بل كلها زائل فان، مورث لأنواع الحسرات في النشأة الأولى، ولأشد العذاب والزفرات في النشأة الأخرى.

والمؤيد من عند الله بالعقل المفاض المميز بين الصلاح والفساد، وبين الفاني والباقي، والمرشد والهادي إلى فضاء التوحيد، المتذكر له، كيف يختار الفاني على الباقي واللذات الجسمانية الزائلة سريعاً، الجالبة للأحزان الطويلة على اللذات الروحانية القارة المستتعة للحالات العلية، والمقامات السنية التي لا يعرضها انقراض ولا انقضاء ولا نفوذ ولا انتهاء^{١٩}.

ربّ اختتم بفضلك عواقب أمورنا بالخير والحسن، إنك على ما تشاء قدير
وبرجاء الراجين جدير.

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يس

لا يخفى على من ترقى من حضيض الجهل وأودية الضلال إلى أوج المعرفة وفضاء الوصال، ومن مهاوي الإمكان وأغوار التعينات المقتضية لأنواع الانحرافات والضلالات إلى استقامة الحالات، وارتفاع المقامات وعلو الدرجات في سبيل السعادات ونيل المرادات، ومن دركات التلون وظلمات التقليد إلى درجات اليقين ونور التوحيد ومقر التمكين، والتقرر فيه بلا تذبذب وتزلزل، أن الوصول والنيل إلى مقعد الصدق الذي هو مقصد أرباب المحبة الخالصة والمودة الصادقة، إنما هو بالاستقامة والاعتدال في عموم الأوصاف والأفعال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعاً بحيث لا يبقى له انحراف عن صراط الله الأقوم الأعدل؛ ليتيسر له التحقيق في مرتبة التخلق بأخلاقه، واللياقة برتبة النيابة وأخلافه.

وأكمل المتخلفين وأليقهم للخلافة نبينا ﷺ؛ لذلك ختم بعثته ﷺ أمر الرسالة والنبوة، وتم به ﷺ مكارم الأخلاق، ولم تُبق بعثته ﷺ شائبة شبهة في توحيد الذات وسقوط عموم الإضافات، ولهذا قد اضمحل دون ظهور شرعه ﷺ جميع الرسوم والعادات.

لذلك أشار سبحانه إلى كمال مرتبته الجامعة بجميع المراتب، وخاطبه خطاب تعظيم وتكريم بعدما تيمن باسمه الجامع لجميع الأسماء والصفات، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلي على حبيبه ﷺ باسمه الجامع ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم عبادته بإرساله ﷺ إليهم وبعثه عليهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ عليه ﷺ حيث جعله مستوياً على صراط مستقيم هو صراط توحيده الذاتي.

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غَشَاقًا فَهُمْ مُنْمَقُونَ ٨

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَنًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾
[يس: 1-9].

﴿يس﴾^(١) [يس: 1] يا من تحقق بينوع بحر اليقين، وسبح فيه سالماً عن الانحراف والتلزين

﴿و﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: 2] المحكم نظمه وأسلوبه، المتقن معناه وفحواه.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل وخاتم الأنبياء، المبعوث إلى كافة البرايا ﴿لَمِنَ الْمُزْصِلِينَ﴾ [يس: 3] المتمكنين

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: 4] موصل إلى التوحيد الذاتي، بلا عوج وانحراف.

وكيف لا يكون القرآن العظيم حكيماً مع أنه ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي: منزل من عند ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب، القادر على جميع المقدورات على الوجه الأحكم الأبلغ ﴿الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5] في إنزاله على الأنام؛ ليقظهم عن نوم الغفلة ونعاس النسيان.

إنما أنزل الحكيم المنان عليك يا أكمل الرسل هذا القرآن ﴿لِتُنذِرَ﴾ أنت ﴿قَوْمًا﴾ لم يبعث فيهم نذير من قبلك ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ الأقربون أيضاً؛ إذ هم ليسوا من أهل الكتاب وتابعي الملة؛ لتمادي مدة فترة الرسل بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - أو المعنى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: 6] بالذي أنذره آبائهم الأبعدون.

وبعدما قد تطاول أيام الفترة، انقطع عنهم أثر الإنذار، وصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، وبالجمله ﴿فَهُمْ خَافِلُونَ﴾ [يس: 6] أي: القوم الذين قد أرسلت إليهم يا أكمل الرسل، ذاهلون عن الإنذار والمنذر، بل عن مطلق الرشده والهداية؛ إذ هم متولدون في زمان فترة الرسل.

وكيف لا ينذرهم سبحانه ولا سيرسل إليهم من يصلح أحوالهم ﴿لَقَدْ حَقَّ

(١) قال البقلى: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الباء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفات: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي، [العرائس].

الْقَوْلُ) وسبق الحكم من الله، ومضى القضاء منه سبحانه ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: أكثر أهل مكة بالكفر والعذاب، وعدم الوصول إلى خير المنقلب والمآب، وبعدها قد ثبت في حضرة علمه سبحانه كفرهم وضلالهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 7] بالله، ولا يصدقون برسوله وكتابه.

وكيف يؤمنون أولئك المصرون على الكفر والعناد، المقضيون من عندنا بالشقاوة الأزلية ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي هي سبب التفاتهم وتمايلهم نحو الحق وآلة انعطافهم للإطاعة والانقياد بالدين القويم ﴿أَغْلَالًا﴾ وصيرناهم مغلولين من الأيدي إلى الأعناق، بحيث لا يمكنهم الطأطأة والانخفاض أصلاً، ولا بدُّ للتدين والانقياد من التذلل والخضوع، وكيف يمكنهم هذا ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ أي: أغلالهم متجهة إلى لحيتهم ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ [يس: 8] رافعون رؤوسهم، مضطرون برفعها بسبب تلك الأغلال الضيقة، بحيث لا يسع لهم التفات يمنة ويسرة، وفوقاً وتحتاً.

بل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم من كمال غضبنا إياهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿سُدًّا﴾ حجاباً كثيفاً ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أيضاً ﴿سُدًّا﴾ غطاء غليظاً كذلك، فصاروا محفوفين بين الحجب الكثيفة المانعة عن إبصار نور الهداية والتوحيد، وبالعجالة: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعمينا عيون بصائرهم التي هي سبب رؤية الآيات ودرك الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة ﴿فَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ﴾ [يس: 9] الشواهد الظاهرة والآيات الباهرة حتى يرشدهم إلى الهداية والإيمان، فحرموا عن قبول الحق، وانصرفوا عن صراطه، فهلكوا في تيه الغواية والضلال، أعاذنا الله وعموم عباده عن ذلك.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ⑪ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑫ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑬ [يس: 10-12].

﴿و﴾ بعدما سجلنا عليهم الكفر وحكمنا شقاوتهم حكماً مبرماً، لا يفيدهم إنذارك يا أكمل الرسل وإرشادك إياهم، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 10] إذ ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة

غليظة مانعة عن قبول الحق والتذكر به وإبصار علاماته، وبالجمله: هم مقضيون في سابق علمنا ولوح قضائنا بالعذاب الأليم والضلال البعيد، فلا تتعب نفسك يا أكمل الرسل في هدايتهم وإرشادهم، إنك لا تهدي من أحبت من قرابتك وأرحامك، ولكن الله يهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون من الكفر والإصرار.

بل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويقبل منك الإنذار المصلح والإرشاد المفيد ﴿مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: سمع القرآن سمع قبول، وامثل بأوامره ونواهيه عن تدرب تام وتأمل صادق، واتعظ بتذكيراته، واعتبر عن عبره وأمثاله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خاف عن قهره وانتقامه واجتنب عن سخطه وغضبه ملتبئاً ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل نزول العذاب وحلوله، معتقداً أنه سبحانه قادر على جميع أنواع الانتقامات ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمع بالآيات سمع قبول ورضاً، وامثل بما فيها مخلصاً، خائفاً، راجياً ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ لفرطانه المتقدمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 11] لأعماله الصالحة الخالصة بلا فوت شيء منها، بل بأضعافها وآلافها عناية منا إياه وتفضلاً عليه.

وكيف يفوت عن إحاطة علمنا شيء من حقوق عبادنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿نَخْنُ نُخْبِي﴾ ونهدي حسب اقتضاء تجلياتنا اللطيفة والجمالية ﴿الْمَوْتَى﴾ الهالكين بموت الجهل والضلال، التائهين في بيداء الوهم والخيال حيارى سكارى، مدهوشين، محبوسين، مسجونين في مضيق الإمكان بحياة العلم والإيمان والتوحيد والعرفان ﴿وَنُكْتُبُ﴾ في لوح قضائنا وحضرة علمنا جميع ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وأسلفوا لأنفسهم من خير وشر، وحسنة وسيئة، بحيث لا يشذ منها شيء لنجازيهم بها على مقتضاها ﴿وَنُكْتُبُ﴾ أيضاً ﴿آثَارَهُمْ﴾ من السنن المستحسنة والأخلاق المحمودة والآداب المرضية المقبولة، وكذا أيضاً ما سنوا ووضعوا من أسوأ العادات والأخلاق وأخسها ﴿وَنُكْتُبُ﴾ بالجمله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ صدر ويصدر من عبادنا ﴿أَخْصَيْنَاهُ﴾ وفصلناه بحيث لا يشذ عن حيطه إحصائنا وتفصيلنا شيء من نقيير وقطمير، بل الكل مكتوب مثبت ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12] هو لوح قضائنا وحضرة علمنا.

﴿وَأُخْرِجَ لَهُمْ مَثَلًا أَحْصَبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا فِي سَائِرِ الْقُرَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا

أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَوَّءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلِنَمَسِّنَنَّكُمْ مَتَاعَ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ [يس: 13-19].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: مثل يا أكمل الرسل للمشركين المصريين على الشرك والطغيان مثلاً من الذين خلوا من قبلهم، مصريين على الضلال والعناد أمثالهم، بحيث لا ينفعهم إنذار منذر وإرشاد مرشد؛ يعني: ﴿أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ﴾ المصريين على الشرك والعناد، المنهمكين في بحر الغفلة والغرور، والقرية: هي «أنطاكية» والمبشر المنذر هو عيسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي: القرية ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 13] ترى من قبل عيسى عليه السلام؛ ليرشدوا أهلها إلى الإيمان والتوحيد.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وأمرنا لنينا عيسى عليه السلام أولاً بالإرسال ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ هما يونس ويحيى، وقيل: غيرهما، فلما جاء إليهم وأظهرا دعوتهم، وكانوا من عبدة الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فاجتوا في تكذيبهما بلا تراخ ومهلة وتأمل وتدبر، وبعدما كذبوهما لم يقبلوا منهما دعواتهما، بل ضربوهما وحبسوهما، واستهزءوا بقولهما ودعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَاهُ﴾ أي: قويناهما وأيدنا أمرهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي: برسول ثالث، وهو: شمعون ﴿فَقَالُوا﴾ أي: الرسل بعدما صاروا جماعة: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: 14] من قبل عيسى، المرسل من قبل الحق، ينذركم عما أنتم عليه من الباطل الفاسد، وهو عبادة الأوثان، وندعوكم إلى دعوة الحق الحقيق بالالوهية والربوبية، المستحق للعبودية، نرشدكم ونهديكم إلى دينه المنزل من قبل ربه.

وبعدما سمع المشركون منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم مستبعدين منكبين: ﴿مَا أَنْتُمْ﴾ أيها المدعون لرسالة الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4.3] ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مناسبة لكم مع مرسلكم الذي ليس هو من جنس البشر، فلا بد من المناسبة بين المرسل والرسل ﴿وَوَ﴾ دعوكم الإنزال والإرشاد من عند الإله المنزه عن المكان والجهة ما هي إلا غرور وتليس ﴿مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ﴾ المستغني عن الزمان والمكان، المنزه ذاته عن سمات

الحدوث والإمكان ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ إذ أمثال هذه الأفعال إنما هي من لوازم الأجسام وأوصاف الإمكان، وهو سبحانه على الوجه الذي وصفتم شأنه مقدس عن أمثاله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: 15] يعني: ظهر من دعواكم واستنادكم أمثال هذه الأفعال إلى ربكم أنه ما أنتم في دعواكم هذه إلا كاذبون، مفترون على ربكم ما هو منزّه عنه.

وبعد ما تفتن الرسل منهم الإنكار والإصرار المؤكد ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم أيضًا على سبيل المبالغة والتأكيد؛ تميمًا لأمر التبليغ والرمالة: ﴿رَبَّنَا﴾ الذي أرسلنا إليكم بوحيه وإلهامه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُزْسلُونَ﴾ [يس: 16] من عنده على مقتضى إرادته واختياره؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ولا يقع إلا ما يريد.

﴿و﴾ ما لنا شغل بإيمانكم وقبولكم، ولا بكفركم وشرككم، بل ﴿مَا عَلَيْنَا﴾ على مقتضى وحي الله إلينا ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: 17] أي: التبليغ الصريح الظاهر والبيان الواضح الموضح لرسالته إياكم، بلا فوت شيء منها وتقصير وتهاون بها، وإهداؤكم وإيمانكم مفوض إليه سبحانه في مشيئته، لا علم لنا به.

وبعد ما سمعوا منهم المبالغة والتأكيد، انصرفوا عن المقاومة والمكالمة نحو التهديد بالقتل والرجم، حيث ﴿قَالُوا﴾ متطيرين متشائمين من نزولهم ومجيئهم، مستبشرين دعوتهم، منكرين لها: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاء منا بقدمكم، إذ منذ قدمتم ما نزل القطر علينا، اخرجوا من بيننا وارجعوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم هذه ولا تتفوهوا بها بعد، والله ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن هذياناتكم ومفرياتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة البتة ﴿و﴾ بالجملة: لو لم تنتهوا ولم تكفوا ﴿لَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽¹⁾ [يس: 18].

وبعد ما سمعتم أيها الغرباء كلامنا هذا، فلکم الإصغاء والقبول والعمل بمقتضاه، وإلا فقد لحق بكم ما لحق.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل، بعد ما سمعوا منهم ما سمعوا وتفرسوا بغلظتهم وتشدهم في الإنكار والجحود: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم إنما هو من أنفسكم ويسوء صنعكم وأعمالكم ﴿أ﴾ لم يتبهوا ولم يتفطنوا أنكم ﴿يُنْذِرُكُمْ﴾ وقبلتم قولنا،

(1) وذلك أن الإلهام والجنبة يقويان القلب وصفاته ويذيان النفس وصفاتها ويمنعان النفس عن استيفاء شهواتها والبلد بلدتنا الدنيا فلها أنشأ النفس وصفاتها بهؤلاء المرسلين. [التأويلات].

واتصفتكم بما ذكرنا من الإيمان والتوحيد، لم يلحقكم شيء من المكروه، ومتى لم تتعظوا ولم تتصفوا لحقكم ما لحقكم بشؤم أنفسكم، فتطيطون بنا عدوانًا وظلمًا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: 19] مجاوزون في الإلحاد والعناد عن سبيل الهداية والرشاد، ومن كمال إصرافكم وإفراطكم تطيرتم بدين الله ودعوة رسله إليه.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢٠)
 أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ^(٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ^(٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَا تَفْنَى شَفَعَتُهُمْ
 شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ^(٢٣) إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٢٤) إِنْ أَمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوا
 قَوْلَ آدْخِلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ^(٢٥) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
 الْمُكْرَمِينَ^(٢٦)﴾ [يس: 20-27]

﴿و﴾ بعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا، صمموا العزم إلى قتلهم واجتمعوا ليرجموهم، وانتشر الخبر بين أظهر المدينة، وسعى من يسمع نحوهم حتى ﴿جاء﴾ حيثئذ ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ من السامعين، وهو حبيب النجار، وكان مؤمنًا موحدًا، يعبد الله، وكان قد لقي الرسولين الأولين حين دخلا المدينة أولاً، فسلم عليهما وتكلم معهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالوا: رسولاً عيسى النبي ﷺ، إنما أرسلنا لندعوكم إلى طريق الحق ونتقذك من عبادة الأوثان، فقال: أمعكما آية؟ قالوا: ونبرئ الأكمه والأبرص، فجاء بابنه المريض منذ سنين فمسحاه، فقام الابن سالمًا، نشفي المريض، فأمن لهما وصدقهما وانفصل عنهما مؤمنًا، واشتغل بعبادة الله.

فدخلا البلد، وأظهرا الدعوة لأهلها وأنكروا عليهما، واتفقوا بقتلهما، فأخبر الحبيب بذلك، فجاء على الفور حال كونه ﴿يَسْعَى﴾ ويذهب سريعًا، فلما وصل المجمع ورآهم مجتمعين عليهما، فسألهما على رؤوس الملاء: من أنتما؟ قالوا: رسولاً عيسى النبي ﷺ ندعوكم إلى توحيد الحق، قال: هل تسألان الأجر والجعل لرسالتكما؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على ربنا، ثم التفت نحو القوم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم على نفسه؛ ليقبلوا منه كلامه، وكان مشهورًا بينهم بالورع واعتدال الأخلاق: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20] المبعوثين إليكم بالحق؛ ليرشدوكم إلى طريق الحق

وتوحيده، إنما جمع المرسلين مع أنهما اثنان؛ لأن الحبيب منهم حقيقة.
﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: اتبعوا هاديًا بالحق على الحق إلى الحق،
خالصًا لوجه الحق بلا غرض نفساني من جعل وغيره، كالمتشيخة المزورين الذين
يجمعون بتليساتهم وتغريراتهم أموالاً كثيرة من الحمقى المتماثلين نحو أباطيلهم
وتزويراتهم ﴿و﴾ كيف لا تتبعون أيها العقلاء الطالبون للهداية والصواب ﴿هُمْ
مُهْتَدُونَ﴾ [يس: 21] مصيبون، متصفون بالرشد والهداية قولاً وفعلاً.

ثم لما سمع القوم من الحبيب ما سمعوا، عيروه وشنعوا عليه، وقالوا له: لست
أنت أيضاً على ديننا ودين آبائنا، بل ما أنت إلا على دين هؤلاء المدعين ﴿و﴾ بعدما ما
تفرس الحبيب منهم الإنكار عليه أيضاً، قال كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والفطنة
على وجه العظة والتذكر لنفسه؛ ليتعظوا به على سبيل الالتزام؛ إذ هو أسلم الطرق في
العظة والتذكير، وأدخل في النصيحة والتنبيه: ﴿مَا لِي﴾ أي: أي شيء عرض علي
ولحق بي ﴿لَا أُعْبُدُ﴾ وأتوجه على وجه التذلل والانكسار للمعبود ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾
على فطرة العبودية؛ أي: أبدعني وأظهرني من كتم العدم ولم أك شيئاً مذكوراً، ورياني
بأنواع اللطف والكرم وأفاض علي من موائد لطفه وإحسانه، سيما العقل المفاض
المرشد إلى المبدأ والمعاد ﴿و﴾ كيف لا أعبد وأتوجه نحوه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه
الموصوف بالأسماء الحسنى ونعوت الجلال والجمال، لا إلى غيره من الأوثان
والأصنام الحادثة، الهالكة في ذواتها، العاطلة عن الأوصاف الكاملة، المنحطة عن رتبة
الالهية والربوبية ﴿تُزَجَّعُونَ﴾ [يس: 22] أنتم أيها الأظلال الهالكون، التائهون في
بيداء ظهوره، حيارى هائمين رجوع الأضواء إلى شمس الذات، والأمواج إلى بحر
الوحدة الذاتية.

﴿أ﴾ أنكروا المعبود على الحق، المظهر لما في الوجود ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ آلِهَةٍ﴾
باطلة من الأوثان، عاطلة عن التصرفات مطلقاً، منحطة عن رتبة العبودية، فكيف عن
الربوبية والالهية؟ وسميتهم شفعاء مغشيين لدى الحاجة مع أنه ﴿إِنْ يَرَوْا الزَّخْمَ﴾
القادر المقتدر على أصناف الإنعام والانتقام ﴿يَضُرُّ﴾ أي: مصيبة وسوء يتعلق مشيته
على إنزاله إلي ﴿لَا تُغْنِي﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من بأس الله وعذابه، بل لا
تفني شفاعتهم أصلاً ﴿وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ [يس: 23] بالمعاونة والمظاهرة عن عذابه
سبحانه أيضاً.

وبالجملة: ﴿إِنِّي﴾ بواسطة اتخاذهم شركاء لله، شفعاء عنده ﴿إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 24] وغواية عظيمة ظاهرة؛ إذ اختيار ما لا ينفع ولا يضر على الضار النافع المعطي المانع، أو ادعاء مشاركتهم معه وشفاعتهم عنده سبحانه من أشد الضلالات وأردأ الجهالات.

﴿إِنِّي﴾ بعدما تفتنت بوحدة الحق واستقلاله في الوجود والآثار ﴿آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو ربي ورب جميع ما في حیطة الوجود وتحت ظله من الأكوان غيبًا وشهادة، واعترفت بتوحيده واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته بعدما كوشفت بوحدة ذاته ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ [يس: 25] أيها العقلاء السامعون، المدركون مضمون قولي، واتصفوا بما فيه، وتذكروا به إن كنتم تعلمون.

فلما سمعوا منه توصيته وتذكيره، أخذوا في قتله وهلاكه، فوطئوه بأرجلهم إلى حيث يخرج أمعاءه من دبره، وهو في تلك الحالة زاد انكشافه بربه، واستولى عليه سلطان الوحدة وجذبه العناية الإلهية، وأدركته الكرامة القدسية حيث ﴿قِيلَ﴾ له من قبل الحق حينئذ: اخرج من هويتك وانخلع من أنايتك ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: فضاء الوحدة التي لا فيها صب ولا نصب، ولا عناء ولا تعب، فخرج وانخلع، فدخل على الفور واتصل، ثم بعدما وصل إلى ما وصل ﴿قَالَ﴾ متمنيًا، متحسرًا لقومه بعدما لحق بفضاء الوصال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 26].

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وانكشف علي وجذبي نحوه بعدما ستر عني أنايتي ومحا مني هويتي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ﴾ [يس: 27] المكرمين: الأمنين الفائزين المستبشرين الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) إن كانت إلا صبيحة واحدة فإذا هم خبيدون (٢٩) يحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٣٠) أترى أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١) وإن كل لما جميع لدينا محضرون (٣٢) وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) [يس: 28-35].

﴿و﴾ بعدما قتلوه ورفعناه عنايةً منا إياه، وأدخلناه في جنة وحدتنا مغفورًا مسرورًا، وكشفنا عنه غطاءه، أخذنا في انتقام قومه عنه، فأهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام عليهم بأمرنا إياه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: قوم الحبيب، وهم: أهل أنطاكية ﴿مِنْ بَغْدِهِ﴾ أي: بعد قتله؛ لنتقم عنهم لأجله ﴿مِنْ جُنْدٍ مِّنْ جُنُودِ السَّمَاءِ﴾ وما كنا مُنزِلِينَ ﴿يس: 28﴾ أي: وما ثبت منا، وما جرى في لوح قضائنا إنزال الملائكة لإهلاكهم كما جرت سنتنا لإهلاك سائر الأمم الهالكة.

بل ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي: ما كانت علة هلاكهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما وقعت وصدرت منا لإهلاكهم إلا صيحة واحدة - على القراءتين بالرفع والنصب - وذلك أنا بمقتضى قهرنا وجلالنا أمرنا جبريل عليه السلام بأن يأخذ بعصاة باب مدينتهم، فأخذ وصاح عليهم مرة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ﴿يس: 29﴾ أي: فاجثوا جميعًا على الخمود والجمود بعدما سمعوا الصيحة الهائلة؛ يعني: صاروا كالرماد بعدما كانوا أحياء كالنار المشتعلة الساطعة.

ثم قال سبحانه من قبل عصاة عباده، المأخوفين بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام: ﴿يَا خَسِرَةٌ﴾ وندامة وكآبة عظيمة وحزنًا شديدًا ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المصيرين على العناد بعدما عاينوا العذاب الدنيوي أو الآخروي النازل عليهم حتمًا بسبب إنكارهم على الرسل والمرسل جميعًا، وتكذيبهم بجميع ما جاءوا به من عند ربهم، وليس لهم حينئذ قوة المقاومة والمدافعة؛ لذلك صاروا حيارى، سكارى، هائمين، متحسرين بلا ناصر ومعين وشفيع حميم من نبي ورسول كريم؛ إذ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رُّسُولٍ﴾ في نشأتهم الأولى يصلح أحوالهم وأعمالهم لثلا يترتب عليهم الوبال والتكال الموعود في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كبرهم وخيلائهم ﴿بِهِ﴾ أي: بالرسول المصلح المرشد لهم ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ⁽¹⁾ ﴿يس: 30﴾ ويستحقرونه ويستكفون عن قبول دينه

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن للعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم وذلك لانخراطهم كلهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل والاستهزاء بهم ومنافاة أولياء الله سبحانه، كما غلبت هذه الخصال الرديئة على أهل زماننا هذا الذين يسمعون القول من المحققين فيتبعون أقبحه ويقعون في أولياء الله ويستهزءون بهم ويكلماتهم المستحسنة إلا من شاء الله به خيرًا من أهل النظر وأدب بأدب الإرادة وقليل ما هم فهددهم الله بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ﴿يس: 31﴾ يعني: هؤلاء الغفلة الجهلة.

ودعوته، وينكرون عليه كهؤلاء المسرفين المشركين معك يا أكمل الرسل.

﴿أ﴾ يستهزئون معك - يعني: أهل مكة - وينكرون بدينك وكتابك ﴿لَمْ يَرْؤَا﴾ ولم يخبروا ولم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية، ولم يعتبروا مما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسلهم مع ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الأمم الهالكة السالفة ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 31] أي: لا يرجعون إلى هؤلاء المفسدين، المسرفين في تكذيبك وإنكارك يا أكمل الرسل في نشأتهم هذه، بل مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، وهؤلاء أيضًا سينقرضون إثرهم، ولم لم يتنبهوا ولم يعتبروا مما جرى عليهم مع أنهم إن أخذوا صاروا كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا أمثالهم!؟

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنْ كُلُّ﴾ أي: ما كل من الفرق والأحزاب المنقرضة عن الدنيا عن التعاقب والترادف مردودون إليها، مجتمعة في وقت من الأوقات، بل ﴿لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 32] يعني: لا يجتمعون إلا عندنا ولا يحضرون جميعًا إلا لدينا في يوم العرض والجزاء، وفي حضرة علمنا ولوح قضائنا.

وبالجملة: لا اجتماع لهم بعد انقراضهم ماداموا مسجونين في سجن الإمكان، مقيدين بسلاسل التعينات وأغلال الهويات والأنانيات، بل متى خلصوا عن مضيق الطبيعة وانخلعوا عن لوازمها، حضروا واجتمعوا، بل وصلوا واتصلوا، وحيث لم يبق الفرق، وصاروا ما صاروا.

لا إله إلا هو ولا موجود سواه، هذا على قراءة «لَمَّا» بالتشديد، وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف كان «إِنْ» حيثند مخففة من الثقيلة، و«ما» في «لما» مزيدة للتأكيد، واللام للفرق بين المخففة والنافية، والمعنى: أنه - أي: الشأن - كل من الأمم الهالكة السالفة مجموعون ألبتة لدينا، محضرون عندنا يوم الجزاء، أو في حضرة لاهوتنا بعد انخلاعهم عن لوازم ناسوتهم.

﴿وآيَةٌ﴾ عظيمة منا، دالة على كمال قدرتنا على جمعهم وإحضارهم يوم الجزاء ﴿لَهُمْ﴾ أن يستدلوا بها على صدقها ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ اليابسة الجامدة، التي ﴿أَخْيَيْنَاهَا﴾ وأحضرناها في وقت الربيع بإنزال قطرات الماء المترشحة من بحر الحياة عليها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: جنسًا من الحبوب التي يقتاتون بها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 33] وبه يعيشون وينعمون، كذلك في النشور أحيينا الأبدان المائة الجامدة البالية،

المتلاشية في أراضي الأجداث بإنزال الرشحات الفائضة من بحر حياة الوجود بمقتضى الجود، فأعدناهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم.

﴿و﴾ أيضاً من جملة الآيات التي تدل على كمال قدرتنا: إِنَّا ﴿جَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ومنتزهات مملوءة ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ومن سائر ما يتفكرون به؛ تميمًا لتنعمهم وترفهم ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي: أخرجنا وأجرينا ﴿فِيهَا﴾ أي: في خلال البساتين ﴿مِّنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: 34] والينابيع الجارية التي لا صنع لهم في إخراجها وإخراجها؛ عناية منا إياهم، إبقاء لنضارتها ونزاهتها.

كل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: من ثمر ما ذكر وقوته، ويقوموا أمرجتهم بأنواع ما وهبنا عليهم من النعم حتى يقوموا ويواظبوا على شكرها؛ أداء لحقوقنا إياهم ﴿و﴾ كذا علمناهم وأقدرناهم على عموم ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من العقارات والمزارع والبساتين وإجراء الأنهار والقنوات وحفر الآبار ﴿أ﴾ ينكرون على كمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا ﴿فَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 35] نعمنا الفائضة إياهم على التعاقب والتوالي ولا ينسبونها إلينا، بل ينسبونها إلى الوسائل والأسباب العادية جهلاً وعنادًا، وطغيانًا وكفرًا.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَلْبِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: 36-40].

﴿سُبْحَانَ﴾ القادر المقتدر القيوم المطلق المنزه عن الشبيه والنظير، المتبرئ عن الشريك والوزير، المستقل في التصرف والتدبير ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ وقدر الأصناف المتوالدة المتزايدة ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ذكورهم وإناثهم أنواعًا وأصنافًا وأشخاصًا، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأصنافها وأنواعها ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36] من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعا؛ لأن الفردية والوترية والصمدية كوجوب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية، لا شركة فيها للمصنوع أصلاً؛ إذ لا يتوهم التعدد والكثرة في الوجود الذي هو الواجب قطعًا.

﴿و﴾ أيضًا ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَهُمْ﴾ أن يتأملوا فيها ويستدلوا بها على كمال قدرتنا وأحكامنا وعلمنا وإرادتنا ﴿اللَّيْلُ﴾ المظلم؛ أي: العدم الأصلي، حين ﴿نَسْلَخُ﴾ ننزع ونظهر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الليل المظلم ﴿النَّهَارُ﴾ المضيء؛ أي: نور الوجود الفاضل منا إياهم حسب امتداد أظلال أسمائنا وصفاتنا عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾⁽¹⁾ [يس: 37] مستقرون في ظلمة العدم لولا إفاضة الوجود عليهم.

(1) قال العارف بالله البيطار فيما أمدّه الله من الأنوار: اعلم - رحمك الله - أنك إذا جعلت المعنى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نبرز منه النهار ونوجدّه ونظهره، لا يناسب حيثنذ قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: 37]، بل المناسب: فإذا هم منيرون أو مضيئون أو مشرقون، وما شاكل ذلك، مع أن المقصود خلاف ذلك وهو أن الأمر بين الليل والنهار دوري ما بين الحقائق الأربع المنسحب معناها على كل شيء في الوجود، وهي الأمهات التي هي: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3].

فهذه الحقائق هي أم كتاب الوجود الإلهي والكوني وبيان كشف المعنى، حيثنذ أن جميع المعاني المختلفة عين الحقيقة المؤتلفة فكل معنى من المعاني إن كان أولاً، فآخره ما يقابل معناه، وهذا الآخر هو عينه؛ لأن آخر الدائرة ليس إلا المبتدأ، فالأول عين الآخر، وهما مظهر وظاهر، فإن ظهر الشيء كان ضده هو باطنه، فهو مظهر له، فإن ظهر ما كان باطنًا بطن فيه ما كان ظاهرًا وهو هو، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33] فهي تقرأ طردًا وعكسًا.

فعلى حسب ما قررناه أن النهار إذا تجلّى، فالليل هو مظهره المتجلي فيه، فإذا انسلك فيه النهار من جهة الاسم الظاهر بطن فيه، فكان الليل هو الظاهر والنهار هو الباطن، فلذا قال تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: 37] أي: نقلب الأمر ونجعل الليل ظاهرًا والنهار باطنًا، ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: 37]، وبهذا التمهيد الذي بيناه اتضح المعنى غاية الوضوح كما لم يخف على كل نبيه منصف.

ويتفرع على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: 38]، أفاد تعالى أن شمس الحقيقة الوجودية الذاتية العينية جريانها مستمر ظهورًا وباطنًا هو المستقر الذي منه بدت نورًا، وهما علم من وراء الأفهام اقتضاه الاسم: ﴿الْعَزِيزُ﴾ [يس: 38]، الموصوف بأنه: ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يس: 38].

فمن حقيقة العزة بدا هذا العلم إذ على ما قررناه أولاً أن الدور ما بين الأسماء المختلفة في الأوليّة والآخرية والظاهرية والباطنية يفيدك حيثنذ أنه إن ظهر الحق فالخلق باطنه، وإن ظهر الخلق فالحق باطنه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷻ: «مولى القوم من أنفسهم» ويقول ﷻ: «سلمان

منا أهل البيت» الإشارة بـ سلمان للوجود الإلهي السالم من العدم فهو منا أهل البيت الإلهي، إذ ليس أهل الظاهر إلا المظاهر.

ألا ترى أن الظاهر لا يظهر منه إلا الصورة، والصورة هي عين الخلق، فالحق باطنا، إنه ظهرنا ونحن باطنه إن ظهر، وعلى هذا يترتب حكم الأول والآخر، فنحن أهل البيت الإلهي الذي دائماً يريد الله أن يذهب عنا الرجس؛ رجس العدم؛ لانا مظاهر أسمائه التي هي شئون ذاته ويظهرنا من السوي تطهيراً، فقد عاد توحيدنا علينا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]، قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

وهذه الطهارة هي غاية الطهارة، إذ لا أطهر من الله جلّ وعلا، فاندفع رجس الشقاء وشره، ولذا نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿طه﴾ [طه: 1] أي: يا طاهر من السوي، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [طه: 2] أي: قرآن ذاتنا ﴿لِتَشْقَى﴾ [طه: 2]، بل لتظهر بحقيقتك النورانية التي هي عين ذاتنا، ثم نبه بقوله: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه: 3] أي: يخشى رجس السوي من مظاهر حقيقتك، فهذا التذكير نريد أن نذهب عنه الرجس وهو ذاهب في نفس الأمر، ولكن لما سافر إلى بلده الخليفة نسي المواطن الحقيقة، فذكرنا الله بهذا التذكير، وهذا التذكير هو عين التطهير. ومما قررناه يبدو لك علم الانقلاب فكما أن محمد ﷺ يقول: «أنا من الله العالم مني» كذلك الحق يقول: «أنا من محمد والعالم مني» فكل منهما لباس للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

ولما انكشف لي هذا الأمر أجبت الحق بقوله: «الصوم لي» كما ورد في الحديث: «خلقت القطر لي فأنا باطنك في صيامك، إذ لولا الاسم المفطر لم يكن الاسم الصائم بل أنا الصائم فأنت لي وصومك لي فبطن أنت وظهر أنا كما كنت أنت الظاهر وأنا الباطن». وبذلك يتحقق أنني أنا معنى اسم رمضان فقد قال ﷺ: «إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى» والاسم الإلهي (رمضان) يندرج فيه الاسم (المفطر) و(الصائم)، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه» فعادل الإفطار لقاء الرب، وعادل الصيام تنزيه الرب، فمن أفطر فقد شبه من حقيقة: «جعت فلم تطعمني»، ومن صام فقد نزه، ولذلك ورد في الحديث: «الصوم لا مثل له» فهو من حضرة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]. وأما اسم رمضان فهو يجمع التنزيه والتشبيه، ولذلك كلن نوم صائمه عبادة، فلما ضمت وكنت مظهر هذا الاسم الإلهي، وصدق علي اسم الله الصائم فتحت أبواب جنان ذاتي الجمالية، وغلقت أبواب نيران شهواتي الجلالية؛ لأن الصوم من المكاره ومظاهرها الجنان والشهوات الطبيعية من الجماليات الظاهرة، وهي في الحقيقة نيران.

ولما ضمت سلسلت وقيدت شياطين جوارحي وظهرت ملائكتها، فقيّد شيطان لساني عن الكذب والغيبة، وظهرت منه ملائكة ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله، فمن قرأ القرآن فقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقبل القراءة لا استعاذة إلا تلفظاً ودعاء، والدعاء إجابته

﴿و﴾ أيضًا من جملة آياتنا العظام: ﴿الشَّمْسُ﴾ المضيئة، المشرقة على صفائح الكائنات كإشراق نور الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات حسب التجليات الإلهية ﴿تَجْرِي﴾ وتسري بلا قرار وثبات بمقتضى أمرنا وحكمنا ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قدرناه إياها منتهى ومنزلاً بمقتضى حكمتنا المتقنة المترتبة على تجلياتنا الحية، المتشئة من ذاتنا المتصفة بالأوصاف اللطيفة الجمالية ﴿ذَلِكَ﴾ الجري والسراية على هذا النظام الأبلغ الأبدع ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب المقتدر على عموم المقادير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] باستعداداتها وقابلياتها.

﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَاهٍ﴾ أي: عينا حسب قدرتنا الغالبة وحكمتنا البالغة لمرآة القمر الخالية عن النور الذاتي، القابلة لأن يكتسبه من قرص الشمس حسب المقابلة والمحاذاة بينهما، كذلك جعلنا له ﴿مَنَازِلَ﴾⁽¹⁾ متفاوتة في الوضع، فعند تمام المقابلة والمحاذاة يبدو بدرًا كاملاً بلا نقصان في قرصه أصلاً، ثم ينقص شيئاً فشيئاً، يوماً فيوماً ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر في آخر المنازل الثمانية والعشرين التي وضعت له في علم التنجيم

على حسب ما يريد الله بخلاف من قرأ القرآن، أي: تحقق به، فإنه على بصيرة من أمره، ولذلك قال الله تعالى للسيد الأعظم ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]، فكَذلك من صام فقد قيدت شياطينه بالنسبة لصومه، وإلا فالشياطين في رمضان مشترون في سائر البلدان، فلا ينجو منهم إلا من قرأ القرآن، أي: إلا من كان مظهرًا له متمثلًا لأوامره مجتنبًا لزواجه، وهذا الوارد من بركات صوم رمضان المبارك، أقر الله به دائماً عيون أمة محمد ﷺ ونفعهم به، آمين.

(1) الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنواً ازداد في نفسه نقصاناً إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرى، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبّه الشمس عارف أبداً في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعاده دائماً، لا يأخذه كسوف، ولا يستره محاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقبه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.

والتقويم لاستفادته النور من الشمس ﴿كَالْفُزَجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39] أي: كعذق النخل العتيق الذي عليه الشماريخ المعوجة المصفرة من طول المدى.

وكذا عينا بمقتضى قدرتنا وحكمتنا لسير كل واحد منهما حسب الفصول الأربعة مقداراً من الزمان، بحيث لا يتخلف سيرهم عنه؛ لينتظم أمر المعاش؛ لذلك ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ أي: لا يصح ويتيسر لها ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: تسرع في سيرها إلى أن تدرك القمر، بل هي بطيئة السير، تقطع البروج الاثني عشر في سنة والقمر سريع السير يقطعها في كل شهر ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يسع ويتيسر له أن يسبق ويدخل في النهار، بل لكل منهما مدة مخصوصة مقدرة من عند الحكيم العليم، لا يسع لهما التجاوز عنها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كُلُّ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة المتسعة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] ويسرون فيه ويدورون فيه على الانبساط والاستقلال، بلا توهم السبق والإدراك.

﴿وَعَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١١ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ١٢ ﴿وَلَنْ نَشْأَنَّفِرَهُمْ فَلَا صَرْيَخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ ١٣ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ١٤ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٥ ﴿وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ١٦ [يس: 41-46].

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَهُمْ﴾ أي: يستدلون بها أيضاً على كمال قدرتنا، ويواظبون على شكر نعمتنا، وتلك الآية ﴿أَنَا﴾ من كمال تربيتنا وتديرونا إياهم ﴿حَمَلْنَا﴾ أولاً عند طوفان نوح عليه السلام ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم وأسلافهم، فإن اسم الذرية كما يطلق على الأبناء يطلق على الآباء أيضاً باعتبار أنهم كانوا أبناء لآباء آخر ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ⁽¹⁾ [يس: 41] المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء عناية منا إياهم وإبقاء لنسلهم.

(1) يشير إلى حمل عباده في سفينة الشريعة خواضهم في بحر الحقيقة، دعواتهم في بحر الدنيا، فإن من نجا من تلاطم أمواج الهوى في بحر الدنيا، إنما نجا بحمله العناية في سفينة الشريعة، وكذلك من تلاطم أمواج الشهوات في بحر الحقيقة بحمله عواطف إحسان ربه في سفينة الشريعة، بملاحية أرباب الطريقة. [التاويلات].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدرنا وجعلنا لهم اليوم بتعليم منا إياهم ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: سقنا من جنسه، وهو ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: 42] في متاجرهم وأسفارهم في البحر.
 ﴿وَإِنْ نُّشَأْ﴾ إفناءهم واستئصال نوعهم بالمرّة ﴿نُغْرِقَهُمْ﴾ بالطوفان ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيث لهم حيثئذ ينصرهم وينجيهم من الغرق ﴿وَلَا هُمْ﴾ بأنفسهم ﴿يُنْقَذُونَ﴾ [يس: 43] وينجون من تلك المهلكة.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ أدركتهم وأنجتهم من الغرق ﴿وَوَ﴾ أمهلناهم أيضًا بعد إنجائنا إياهم ﴿مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: 44] أي: تمتيعًا لهم ولأخلافهم وذرياتهم إلى قيام الساعة كي نختبرهم، هل يصلون إلى ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد والهداية والإيمان مع أنا أرسلنا إليهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين؟!

﴿وَ﴾ هم - أي: أسلافهم - مثل هؤلاء الضالين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إصلاحًا لأحوالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مما جرى على أسلافكم من الوقائع الهائلة والنوائب الشديدة السالفة، الواصلة إليهم بشؤم مفسدهم وطغيانهم على الله وعلى أنبيائه ورسله بالخروج عن إطاعتها وانقيادهما ﴿وَ﴾ احذروا عن ﴿مَا خَلَفَكُمْ﴾ من العذاب الموعود لعصاة العباد، المتمردين على ربقة العبودية وصراط التوحيد، الضالين عن جادة السلامة بترك مقتضيات الحدود الإلهية ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ [يس: 45] من عند الله بتقواكم عن محارمه ومحظوراته.

﴿وَ﴾ هم أيضًا أمثالكم أيها المفرطون في الإعراض عن الحق في سبيله، بل ﴿مَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ﴾ مشيرة لهم إلى ما يعينهم ويليق بحالهم، رادعة عما لا يعينهم ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الصادرة عن محض الحكمة والعدالة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ⁽¹⁾ [يس: 46] مكذبين لها، مستهزئين بمن جاء بها أمثالكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَن لَّوِ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أُنْشِرَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨) مَا

(1) قال في التاويلات: هذا حال المسيئين في أودية الخذلان الموسومين بسمة الحرمان، فلا يأتيهم منه آية من آيات الله لينجيهم من بحر الغفلة ويريحهم من تيه الحيرة إلا قابله بآعراضهم ونازعه باعتراضهم.

يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ [يس: 47-50].

﴿و﴾ هم أيضا من كمال قسوتهم وبغيهم أمثالكم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إحاضا للنصح وتنبهوا لهم على محض الخير: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من فواضل نعمكم إلى الفقراء الفاقدين لها؛ لتصفوا بالكرم وتفوزوا بمرتبة الإيثار ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا منهم بآيات الله بعدما سمعوا الأمر الإلهي الوارد على الإنفاق من ألسن المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى المصدقين الممثلين بأوامر الله ونواهيه إيمانًا واحتسابًا على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَنْطَعِمُ﴾ أي: تأمروننا أيها الجاهلون الضالون أن نعطي ونطعم ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على إطعام عباده جملة ﴿أَطْعَمَهُ﴾ وبعدها لم يشأ مع قدرته لم يطعمهم، فأنتم من تلقاء أنفسكم تأمروننا بالإطعام، وبالجملة: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي: ما أنتم بدينكم وأمركم بما لا يشاء ولا يرضى منه سبحانه ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 47] وغواية عظيمة ظاهرة، ادعيتم الإيمان بالله، وأمرتم بخلاف مشيئته وإرادته.

﴿و﴾ مهما سمعوا من المؤمنين أمثال هذه الأوامر الجالبة لروح الله ورحمته في اليوم الموعود ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل الاستهزاء والتهكم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي أوعدنا به، عينوا لنا وقته ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: 48] في دعواكم، يعنون بها الله وأصحابه.

ثم قال سبحانه في جواب هؤلاء الضالين المبطلين: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ويتظنون هؤلاء المنكرون المعاندون ﴿إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بغتة ﴿وَهُمْ﴾ حين وقوعها ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: 49] أي: يختصمون ويتخاصمون بعضهم مع بعض في العقود والمعاملات.

ومتى فاجأتهم الصيحة الفظيعة الفجيعة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرון ﴿تَوْصِيَةً﴾ وإيصاء كما هو المعروف بين الناس في حال النزاع؛ أي: لا يمهلهم الفرع المهلك مقدار أن يأتوا بالوصية ﴿وَلَا﴾ يمهلهم أيضًا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 50] أي: ينقلبون إلى بيوتهم، ويتكلمون مع أهلهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْنَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُكُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا نَبَاكِ مَا

بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥١﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ [يس: 51-54].

وبالجملة: متى سمعوا الصيحة الأولى ماتوا فجأة بلا إمهال لهم ساعة ﴿٥١﴾ بعدما ماتوا بالصيحة الأولى، وصاروا كسائر الأموات ﴿تُفْعَخُ فِي الصُّورِ﴾ مرة أخرى بعد الصيحة الأولى ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي: جميع الأموات، صاروا أحياء قائمين هائمين، خارجين ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذي يناديهم للعرض والجزاء ﴿يَتَسَلَّوْنَ﴾ [يس: 51] يذهبون ويسرعون طوعًا وكرهًا؛ إذ لا مرجع لهم سواه، ولا ملجأ إلا هو.

ثم لما أفاقوا من ولهم وحيرتهم ورأوا مقدمات العذاب والنكال ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض متحيرين متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكنا، تعال فهذا أوانك ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: قبرنا الذي كنا فيه مستودعين؛ أي: كل منا مستودع على صاحبه، وإن كان هنالك عذاب أيضًا، لكن لا تفضيح، أو المعنى: من أيقظنا عن نومنا الذي كنا عليه قبل النفخة الثانية المجيئة، وبعد النفخة الأولى المهيئة، إنما قالوا ما قالوا تحسّرًا وتحزنًا.

ثم قيل لهم حيثئذ من قبل الحق: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: يومكم هذا هو اليوم الموعود الذي وعده الرحمن، وأخبره على السنة رسله وكتبه؛ لينقذكم من عذابه بمقتضى سعة رحمته ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52] في جميع ما جاءوا من قبل ربهم من الأمور المتعلقة بالنشأة الأخرى، وأنتم من كمال بغيكم وبغضكم على الله ورسوله في النشأة الأولى أنكرتم الرحمن وكذبتم الرسل الكرام، فاليوم يلقاكم ما كذبتم به.

ثم قال سبحانه تفریعًا وتوبيخًا على المشركين المنكرين لقدرته وكمال عزته ومسطوته واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وإظهارًا لعلو شأنه وسمو برهانه بأن أمثال هذه المقدورات في جنب قدرتنا الكاملة في غاية اليسر والسهولة؛ لذلك ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما كانت الفعلة منا في أمر البعث وقيام الساعة وحشر الأموات ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صادرة بأمرنا فجأة، وهي الصيحة الثانية، أو ما وقعت الفعلة منا وبأمرنا إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كل الأموات مجموعون ﴿لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

[يس: 53] عندنا، مع أنه صدر عنا في إحضارهم وجمعهم إلا صيحة واحدة دفعية.
﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: بعدما حضر الكل لدينا واجتمع عندنا للعرض والحساب وتنفيذ الأعمال، وجزاء الأفعال الصادرة عنهم في دار الاختبار ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ولا تنقص من أجور أعمالها الصالحة ﴿وَلَا تَزَادُ أَيْضًا عَلَى فَاْسِدِهَا عَلَى مَقْتَضَى عَدْلِنَا، بَلْ ﴿لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: 54] أي: بمقتضى عملهم، إن كان خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ ٥٥ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ﴾ ٥٦ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاْكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ٥٧ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ٥٨ ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٥٩ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ٦٠ ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ٦١ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٢ [يس: 55-62].

ثم فصل سبحانه أحوال الأنام في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهم الواصلون إلى مقر التوحيد والمعرفة علمًا وعينًا وحقًا ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة المعد للجزاء ﴿فِي شُغْلٍ﴾ عظيم من أنواع المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات القالعة لغرق التقليدات، والتخمينات التي هي من لوازم الإمكان الذي هو من أسفل دركات النيران ﴿فَاْكِهُونَ﴾^(١) [يس: 55] فرحون، متلذذون أبدًا بلا انقراض

(١) قال في التأويلات: فيها إشارات:

منها: إنه لما كان الغالب عليهم طلب الجنة والأخذ بمجامع قلبهم، أمرها: أضيفوا إليها، قيل لهم: إن أصحاب الجنة كما أنه من الغالب عليه طلب الدنيا، وهو في أمرها أضيف إليها، وقيل له: صاحب الدنيا.

ومنها: إنه لما كانت همهم مقصورة على طلب الجنة شغلهم الله بالفاكهة مع أزواجهم عن طلب الله دون المعاشقة عند المشاهدة والمعانية، وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ﴾ [يس: 56] أي: يكونوا متكئين على هذه الحالة وهذه الأحوال، وإن جلث عنهم بالنسبة إلى أصحاب الجحيم، ولكنها بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر من الملوك والسلاطين، الذين هم أهل الله وخاصته يتقامرون، وعلى هذا يدل قوله: ﴿إِنْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبِلَهُ﴾ عن بعض أرباب النظر أنه كان واقفًا على باب الجامع يوم الجمعة، والخلق قد فرغوا من

الصلاة وهم يخرجون عن الجامع، قال: «هؤلاء حشر الجنة»، وللمجالسة أقوام آخرون، ومن كان في الدنيا عن الدنيا حُرًا فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حُرًا، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 15]، ولعل يكون هذا الخطاب لأقوام فارغين عن الالتفات إلى الكونين مراقبين للمشاهدات، الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ يعني: عن تعلقات الكونين ﴿فَإَنْصَبْ﴾ [الشرح: 7]؛ أي: اطلب الحق تعالى، ﴿وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 8]، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: 55] ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس: 56] أي: أشكالهم، فارغبوا أنتم إلي واشتغلوا بي، وتنعموا بنعيم وصالي، وتلذذوا لمشاهدة جمالي، وتصدروا بطالعة جلالي، وقيل: قرئ عند الشبلي قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ...﴾ [يس: 55] الآية، فشهِق شهقة وغاب فلما أفاق قال: فإنهم مساكين لو علموا أنهم عما شغلوا لهلكوا.

ومنها: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، يعني: في الدنيا ﴿فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ بأنواع الطاعات والعبادات عن طلب الحق والشوق إلى لقائه كانوا يطلبون منه، وما كانوا يطلبون كما روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رأيت رب العزة في منامي، فقال لي: يا معاذ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد، فإنه يطلبني، وروي عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي في المنام، فقال لي: يا أبا يزيد أنا بك اللّازم فالزم بك، فاعلم أن كل مطلوب يوجد في الآخرة أنه ثمرة بذر طلبه في الدنيا، كما قال ﷺ: «يموت الناس على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه».

ومنها: يجود كمال كرمه أنه تعالى يخاطب بهذا الأقوام من عصاة الموحدين، وهم في العرصات بعد لم يدخلوا الجنة، فيقول الحق تعالى لهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53] إن كان أهل النار لا يتفرغون إليكم لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغل عنكم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهاليهم وأشكالهم، فليس لكم اليوم إلا أنا من فرط كرمي ورحمتي، فيدعون منه السلامة عن النار برحمته، ودخول الجنة بكرمه، فيعطي سؤلهم ويبذل مأمولهم، وذلك تحقيق قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 57. 58].

ومنها: إن الله عبادًا استخصهم للتخلق بأخلاقه في سر قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا فيسمع وبني يبصر»، فلا يشغلهم شأن اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم عن شأن شهود مولاهم في الجنة، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفة بأي حال من حالاتهم، ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم من معارفهم، ويقول: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58]، يشير إلى أن سلامه تبارك وتعالى كان قولاً منه بلا واسطة وأكده بقوله: ﴿مِنْ رَبِّ﴾ ليعلم أنه ليس سلام على لسان سفيره، وقوله: «من رحيم» فالرحمة في تلك الحالة أنه يرزقهم الرؤية في حال ما تسلم عليهم؛ ليكمل لهم النعمة.

وإشارة أخرى أن السلام من الرب الرحيم لو لم يكن صادرًا عند تجليه ﷺ لأهل الجنة لتلاشت من سطوة جلاله الجنة وما فيها، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج على بساط قرب أو أدنى في

وانقضاء أصلاً.

بل ﴿هُمْ﴾ في شهودهم ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ التي هي نتائج أعمالهم الصالحة ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: ظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿عَلَى الْأَرْزَاقِ﴾ أي: المعارج العلية والدرجات السنية ﴿مُتَكَبِّرُونَ﴾ [يس: 56] متمكنون راسخون، لا يتحولون منها ولا ينقلبون.

بل ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ عناية منا إياهم ﴿فَاكِهَةً﴾ كثيرة من تجددات المعارف والحقائق وتلذذات المكشوفات والشهودات على مقتضى التجليات الإلهية ﴿وَوُكَّالَةً﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ﴾ فيها ﴿مِمَّا يَدْعُونَ﴾ [يس: 57] ويتمنون من مقتضيات التجليات المتشعبة حسب الشئون والتطورات الإلهية التي لا نهاية لها، بلا تناه وتكرر.

وقيل لهم من قبل الحق حينئذ: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وترحيب لهم وتكريم ﴿قَوْلًا﴾ ناشئاً ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58] أي: مرب مشفق لهم، يريهم بمقتضى سعة رحمته على فطرة التوحيد، ويوصلهم إلى مقر الوحدة الذاتية بعدما رفعوا الشواغل المانعة عن التوجه إليها، ورفضوا العلائق العائقة عن التمكن دونها والتحلي بها.

﴿وَوُكَّالَةً﴾ قيل حينئذ للمشركين المصريين على الشرك والعناد: ﴿اِفْتَارُوا﴾ وتميزوا ﴿الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59] المفرطون المسرفون في الإعراض عن الله بمتابعة الشيطان المضل المغوي عن طريق توحيدهم.

ثم قرأهم سبحانه وعاتبهم، زجراً لهم وطرذاً على وجه العموم، لكلاً يأمن المؤمنون مع اطمئنانهم على الإيمان ورسوخهم في العرفان ﴿أَلَمْ آخِذًا إِلَيْكُمْ يَا بَنِي

خلوة «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» بتجلي ذاته وصفاته سبحانه وتعالى على وجه لم يتخصص به أحد من العالمين قبله ولا بعده، ما أثبتته إلا قوله تعالى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، ما سلم من تلك السطوة إلا في حفاوة سلامه كما سلم إبراهيم عليه السلام من البرد حين قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، ويقول: ﴿وَأَفْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59] يشير إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر بلبعض وجه المؤمن، واسوداد وجه الكافر، وإيتاء كتاب المؤمن بيمينته، وإيتاء كتاب الكافر بشماله، ويثقل الميزان بالنور ويخفقه بالظلمة، وثبات القدم على الصراط وزلة القدم.... وغير ذلك.

﴿أَدَمَ﴾ ولم آخذ منكم موثقاً وثيقاً في مبدأ فطرتكم وبالسنة استعداداتكم وقابلياتكم ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ أي: بالألّا تعبدوا ﴿الشَّيْطَانَ﴾ ولا تطيعوا منه ولا تقبلوا منه قوله ووساوسه المبعدة المحرفة لكم عن طريق توحيدني، إنما أحذركم يا ابن آدم عن إطاعته وانقياده ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60] ظاهر العداوة يريد أن يصدكم عمّا جبلتم عليه بإغرائه وإغوائه.

﴿وَأَنْ اٰغْبُدُونِي﴾ ووحيدوني، واعتقدوا كمال أسمائي وأوصافي واستقلالي في عموم تدبيراتي وتصرفاتي في ملكي وملكوتي، وامثلوا أمري ولا تشركوا معي في الوجود شيئاً من مظاهري ومصنوعاتي ﴿هَذَا﴾ المعهود الموثوق ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 61] موصل إلى توحيدني، فاتخذوه سبيلاً، ولا تركنوا إلى الذين ضلوا عن طريقي وظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودي وأوامري وأحكامي وحكمي وتذكيراتي.

﴿وَ﴾ كيف تعبدون الشيطان وتتبعون أثره وتنقادون أمره أيها العقلاء المجبولون على فطرة الهداية والرشاد؛ إذ ﴿لَقَدْ أَضَلُّ﴾ وأغوى هذا الغاوي المغوي ﴿مِنْكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ وجماعة متعددة من بني نوعكم، فانهرفوا بإضلاله عن سواء السبيل ونقضوا بإغوائه وإغرائه الموائيق والعهود، فحرموا بذلك عن الجنة الموعودة لهم، فاستحقوا جهنم البعد ونيران الخذلان ﴿أَ﴾ تعبدون الشيطان وتقتفون أثره ﴿فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 62] أي: لم تستعملوا عقولكم في فظاعة أمره وشدة عداوته ووخامة عاقبة متابعتة، وفيما يترتب على إضلاله من العذاب المخلد والنكال المؤبد، فتختارون متابعتة وتقبلون منه تغريره، وتتركون طريق التوحيد، أفلا تعقلون أيها المسرفون المفرطون ١٩.

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ١٣ ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ١٤
 الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ١٥ ﴾ وَلَوْ
 نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿ ١٦ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ
 لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَائَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿ ١٧ ﴾ وَمَنْ يَعْصِرْهُ
 نُصْحَيْنَا فِي الْخَلْقِ ٢٨ ﴿ ٢٨ ﴾ [يس: 63-68].

وقيل لهم حيثئذ مشيرًا إلى منقلبهم ومشواهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ فِيهَا﴾ الضالون، الغاؤون، المغرورون ﴿تُوعَدُونَ﴾ [يس: 63] في النشأة الأولى بالسنة الرسل والكتب.

﴿اضْلَوْهَا﴾ وادخلوها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: 64] أي: بشؤم ما تنكرون بذات الله وكمال أسمائه وصفاته، وبما تكذبون كتبه ورسله، وتعرضون عنهم وعن دعوتهم ظلمًا وعدوانًا.

وبعدما عاينوا العذاب وأنواع النكال، وعلموا أن أسبابها ما هي إلا أفعالهم الصادرة عنهم في دار الاختبار عزموا على الإنكار، وقصدوا أن يقولوا معتذرين: والله ما كنا يا ربنا مشركين لك، مكذبين كتبك ورسلك، فيقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ ونمنعها عن الكلام؛ حتى لا تفوهوا بالأعذار الكاذبة ﴿وَتَكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ ليتكلمن بما صدر عنهن ظلمًا وعدوانًا ﴿وَتَشْهَدُ﴾ أيضًا ﴿أَزْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾ [يس: 65] بها من المعاصي والسعي في طلب المنهيات والمحرمات.

وبالجملة: أنطق الله القدير العليم الخبير الحكيم جميع جوارحهم وأركانهم، فاعترف كل منها بما اقترف به صاحبه.

وفي الحديث - صلوات الله وسلامه على قائله -: «يقال للعبد: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، ثم قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق كل بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول للجوارح بعدما أقرت واعترفت: بَعْدًا لَكُنَّ وَشَحَقًا، فَعَنَكُنَّ كُنْتَ أَناضِلُ»⁽²⁾ انتهى الحديث.

والسر في إنطاق الله سبحانه الأعضاء والجوارح بما صدر عنها هو الإشارة إلى

(1) قال في التأويلات: فيشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، والغالب على الأعضاء الصدق، ويوم القيامة يسأل

الصادقون عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء فإنها كثيرة الصدق، تشهد بالحق، أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحيين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضًا لهم بالإحسان، فكما قيل: بيني وبينك يا ظلم الموقف والحاكم العدل الجواد المثقف، وفي بعض الأخبار المروية المسندة: أن عبدًا يشهد عليه أعضاءه بالزلة فتطير شعرة جفن عين عبدي واحتجني عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له، وينادي مناد هذا عتيق الله بشعرة.

(2) رواه مسلم (15/19).

أن الالتفات إلى السوى والأغيار مطلقاً مضر لذوي الأبواب والاعتبار، وسبب تفضيح وتخذيل لدى الملك الجبار الغيور القهار، فلا تذهب إلا إلى الله، ولا تصحب إلا مع الله، ولا تعتمد إلا بالله، ولا تتوكل إلا على الله، فاتخذة سبحانه وكيلاً، وكفاك سبحانه حسيّاً وكفياً.

رزقك الله وإيّانا حلاوة صحبته، وجنبك وإيّانا عن الالتفات إلى غيره بمَنه وجوده.

ثم قال سبحانه إظهاراً لكمال قدرته واختباره: ﴿و﴾ كما ختمنا على أفواههم حيثنّ وطبعنا على قلوبهم قبل ذلك حينما قبلوا دعوة الرسل ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ أن نعميهم ونذهب بأبصارهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ وصيرناها مطموسة ممسوحة كسائر أعضائهم، بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ وبادروا ﴿الصِّرَاطَ﴾ والطريق المعهود لهم، وهم قد مروا عليها مراراً كثيرة ﴿فَأَنى يَبْصُرُونَ﴾ [يس: 66] فكيف يبصرون بعدما صاروا مطموسين.

بل ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ أي: نسقطهم عن رتبة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ وأخرجناهم عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية، بل عن الحيوانية إلى الجمادية أيضاً، إلى أن صاروا جامدين. خامدين ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ كالجمادات الآخر بحيث لا يسع أن يتحولوا عنها أصلاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 67] يعني: لو نشاء مسخناهم وأخرجناهم عن رتبة الخلافة والنيابة وفطرة التكليف والتوحيد، لصيرناهم جمادات لا قدرة لهم على الذهاب والإياب أصلاً.

وبالجملة: هم بسبب أعمالهم الفاسدة وأفعالهم القبيحة وأوصافهم الذميمة وأخلاقهم الغير مرضية أحقاء أن يفعل لهم ما ذكرنا، لكن سبقت رحمتنا واقتضت حكمتنا أن نمهلهم زماناً إلى أن يتنبهوا أو يتولد منهم من يتنبه ويتفطن.

﴿و﴾ كيف لا نقدر على الطمس والمسخ مع أننا بمقتضى قدرتنا وقوتنا ﴿مَنْ نُعِزُّهُ﴾ منهم، ونطيل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ونضعفه بالآخر إلى أن نرده إلى أرذل العمر؛ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، ثم نميت الكل ونصيرهم تراباً وعظاماً، ولاشك أن من قدر على الإحياء والإماتة والتطويل والتكيس، قادر على المسخ والتطمس، فمن أين يتأتى لهم أن ينكروا قدرتنا واختيارنا في أفعالنا، واستقلالنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا؟ ﴿أَفَلَا يَغْقِلُونَ﴾ [يس: 68] ويتأملون آثار قدرتنا الكاملة

الظاهرة على الآفاق والأنفس أولئك العقلاء المتأملون حتى يتفطنوا ويتيقنوا بها.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَمَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنشَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: 69-76].

ثم لما قال كفار مكة خذلهم الله: إن محمدًا شاعر، وما جاء به مفترى إلى ربه من جملة الأشعار والقياسات المخيلة المشتملة على الترغيبات والتنفيرات والمواعيد والوعيدات، وإدعاء النبوة والوحي والمعجزة ما هو إلا قول باطل وزور ظاهر.

رد الله عليهم قولهم هذا على وجه المبالغة والتأكيد فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: ما جعلنا فطرته الأصلية واستعداده الجبلي قابلة على القياسات الشعرية المبنية على محض الكذب والخيال المرغب أو المنفر، بل ما جعلناها إلا منزلة عنها، بريئة عن أمثالها، ظاهرة عن أدناس الطبيعة مطلقًا، خالصة عن شوائب الإمكان ولوث الجهل والتقليد، متحلية باليقين والبرهان المنتهي إلى الكشف والعيان، ثم إلى الحق الذي هو متهى الأمر في باب العرفان، بل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ويليق بشأنه وبشأن كتابه أن ينسب هو وهو إلى الشعر والشعراء اللذين هما أبعد بمراحل عن ساحة جلالهما، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الكلام المنزل على خير الأنام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ناشئ عن العلم والحكمة المتقنة الإلهية مشير إلى التوحيد الذاتي، منه عليه ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69] مشتمل على أحكام ظاهرة وآيات واضحة وبيانات لائحة، محتوية على الأوامر والنواهي الإلهية، والحدود والقوانين الموضوعة بالوضع الإلهي بين عباده، ليوصلهم إلى طريق توحيده، منزلة على رسوله المستعد لحمله وقبوله.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أنت يا أكمل الرسل بالتبليغ، إن قرئ على صيغة الخطاب، أو القرآن إن قرئ على الغيبة ﴿مَنِ كَانَ حَيًّا﴾ بحياة الإيمان، موفقًا من عندنا باليقين والعرفان، معدودًا عن عداد السعداء في حضرة علمنا ولوح قضائنا ﴿وَمَا يَنْبَغِي الْقَوْلُ﴾

ويجب الحكم منا بلحوق العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 70] المصيرين على الكفر والعناد الماتنين بموت الجهل والإنكار.

﴿أ﴾ ينكرون أولئك المنكرون المشركون توحيدنا، ويكفرون نعمنا الفائضة عليهم على التعاقب والتوالي ﴿وَلَمْ يَرْوُا﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَا﴾ بمقتضى جودنا ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ بمحض قدرتنا وحكمتنا ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ بلا صنع لهم وتسبب ومظاهرة ﴿أَنْعَامًا﴾ أجناسًا وأنواعًا وأصنافًا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾⁽¹⁾ [يس: 71] متصرفون فيها، ضابطون لها، قاهرون عليها.

﴿و﴾ كيف لا يملكون ولا يتصرفون فيها بأنواع التصرفات مع أنا قد ﴿ذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخرناها؛ أي: أجناس الأنواع مع كمال قوتها وقدرتها ﴿لَهُمْ﴾ ولم نجعلها آية وحشية عنهم، بل مقهورة لهم مذلة لحكمهم؛ لذلك ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مراكبهم التي يركبون عليها كالإبل والخيول ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 72] من لحومها وشحومها.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام ﴿مَنْفَعٌ﴾ كثيرة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونتائجها ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 73] نعم الله الفائضة عليهم، المهمة لهم، المقوية لأمزجتهم.

﴿و﴾ من علامة كفرانهم بنعم الله، ونسيانهم حقوق كرمه أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالالوهية والربوبية أولياء وسموهم ﴿آلِهَةً﴾ مستحقة للعبادة والرجوع في المهمات وكشف الملمات ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [يس: 74] بهم ويشفاعتهم عن بأس الله ويطشه مع أنهم لكونهم جمادات ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرון ﴿نُصْرَهُمْ﴾ أي: نصر عابديهم، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: العابدون ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمعبودين ﴿جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ [يس: 75] حولهم، حافظون لهم، مزينون إياهم بأنواع التزيينات، وبالجملات: هم منسلخون عن مقتضى العقل بعبادتهم إياهم واتخاذهم أولياء

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما خلق بالوسائط وغير الوسائط، ومما خلق بغير الوسائط خلق لهم أنعامًا، ذكر عظيم منته عليهم وجميل نعمته لديهم بما خلق لهم المخلوقات، وبما سخر لهم من الأنعام التي يتفنون بها بوجوه من الانتفاع فهم لها مالكون؛ ليتفنون بركوبها وأكل لحومها وشحومها ويشرب ألبانها، وما يحمل عليها بالتقرب بها في قطع المسافة البعيدة إلى الزيارات والمواضع الشريفة والمزارات العترة، ثم بأصوافها وأدبارها وشحورها.

شفعاء، وتسميتهم آلهة دون الله.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل حالهم وحال معبوداتهم ﴿فَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ بأنك شاعر أو مجنون، وبأن كتابك شعر، ومن أساطير الأولين، وبأنك كاذب في دعوى الرسالة والنبوة، وبأن إخبارك بالبعث زور باطل ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا الحضورى ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من الكفر والإنكار بتوحيدنا واستقلالنا بالتصرف في ملكنا وملكوتنا ﴿وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ [يس: 76] من الفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى حدودنا ظلماً وعدواناً، فنجازيهم على مقتضى علمنا بهم وبأعمالهم.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨٠) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدُّهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) [يس: 77-83].

ثم لما بالغ الكفرة المنكرون المصرون في إنكار البعث وتكذيبه، وجادلوا مع رسول الله ﷺ على وجه العناد والمكابرة، حتى أتى أبي بن خلف، أتى بعظم بال، وفته عند النبي ﷺ فقال متعجباً على سبيل الإنكار مستبعداً: ﴿أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [المؤمنون: 82] كذلك إنا مخرجون مبعوثون ﴿هَنِيهَاتَ هَنِيهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: 36].

رد الله سبحانه لمن أنكر قدرته على البعث فقال: ﴿أ﴾ ينكر المنكر قدرتنا على إعادة الروح إلى الجمادات ﴿وَلَمْ يَزِ الْإِنْسَانُ﴾ المجبول على الدراية والشعور، ولم يتذكر ولم يعلم ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ﴾ وقدرنا وجوده أولاً ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، وهي أرذل من التراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ اليوم بعدما سويناه رجلاً كاملاً في العقل والرشد ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77] ومجادل زعيم، ظاهر المرء والمجادلة معنا، منكراً لقدرتنا، مع أنه كان جماداً أرذل في غاية الرذالة والحقارة.

﴿وَمَا يَسْتَحْيِي مِنَّا وَمَن قَدَرْتَنَّا حَتَّىٰ ﴿ضَرْبَ لَنَا مَثَلًا﴾ مَوْضِعًا لِنَفِي قَدَرْتَنَّا ﴿وَمَا يَسْتَحْيِي خَلْقَهُ﴾ أَي: خَلَقْنَا إِيَّاهُ، وَمَن كَمَال نَسْيَانِهِ وَضَلَالِهِ ﴿قَالَ﴾ مَتَعَجِبًا عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِنكَارِ: ﴿مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ﴾ الْبَالِيَةَ ﴿وَمَا الْحَالُ أَنَّهُ ﴿هِيَ رَمِيمٌ﴾﴾⁽¹⁾ [يس: 78] بَالِيَةَ فِي غَايَةِ الْبَلَىٰ إِلَىٰ حَيْثُ تَتَفَتَّتْ أَجْزَاؤُهَا وَتَطِيرُ بِالرِّيَّاحِ.

﴿قُلْ﴾ يَا أَكْمَلِ الرُّسُلِ فِي جَوَابِهِمْ بَعْدَمَا بِالْغَوَا فِي الْإِنكَارِ وَالْإِسْتِبْعَادِ: ﴿يُخَيِّهَا﴾ أَي: الْعِظَامَ، وَيُعِيدُ الرُّوحَ إِلَيْهَا ﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ أَي: الْمَحْيَى، الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ عَلَىٰ خَلْقِهَا وَإِبْرَانِهَا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مَن كَتَمَ الْعَدَمَ إِنْشَاءً إِبْدَاعِيًّا بَلَا سَبْقِ مَادَّةٍ وَمُدَّةٍ ﴿وَمَا﴾ إِنْ اسْتَبْعَدُوا وَاسْتَحَالُوا جَمِيعَ الْأَجْزَاءِ الْمُنْبِثَةِ الْمَفْتَتَةِ، الْمَمْتَزِجَةِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ إِلَىٰ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ امْتِيَازُهَا وَافْتِرَاقُهَا أَصْلًا، قُلْ: ﴿هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ وَمَخْلُوقٍ مِّنْ نَّقِيرٍ وَقَطْمِيرٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ [يس: 79] بَعْلَمَهُ الْحَضُورِيُّ، لَا يَغِيبُ عَنْ حَيْطَةِ عِلْمِهِ ذَرَّةً، وَلَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِّنْ مَّعْلُومَاتِهِ، فَلَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَمِيزَ أَجْزَاءَ كُلِّ شَخْصٍ شَخْصًا، وَيَرْكِبُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي النِّشْأَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يَعِيدُ الرُّوحَ عَلَيْهِ، فَصَارَ حَيًّا كَمَا كَانَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

وَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ عَلَىٰ امْتِيَازِ أَجْزَاءِ الْأَنَامِ وَالتَّثَامِهَا وَإِعَادَةِ الرُّوحِ إِلَيْهَا هُوَ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ الرُّطْبِ الَّذِي يَتَقَاطَرُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴿نَارًا﴾ مَعَ أَنَّ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ مِنَ التَّضَادِّ، وَكَيْفَ تَنْكَرُونَ إِخْرَاجَ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الرُّطْبِ ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80] حِينَ كَثِيرًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: شَجَرَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمَرْخُ، وَلِلْآخَرِ: الْعَفَّارُ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْهُمَا النَّارَ، قَطَعَ مِنْهُمَا غَصْنَيْنِ مِثْلَ السَّوَاكِينِ، وَهُمَا خَضِرَاوَانِ يَقْطُرُ مِنْهُمَا الْمَاءُ، فَيَسْحَقُ الْمَرْخُ عَلَى الْعَفَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهُمَا النَّارَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

(1) قَالَ شَيْخُ الْمَصْنُفِ رُوزْبَهَان: إِنَّ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَوُجُوهِ الْحَسَانِ مِنْ عِلَامَاتِ قُدْرَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ فِي الْكَوْنِ؛ لِأَنَّ الْكَوْنَيْنِ وَالْعَالَمَيْنِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْجُونٌ وَفِيهِ عَمَلُهُ مَعْلُومٌ، وَلَوْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ؛ لِأَنَّ الْخَلِيقَةَ مِرَاةَ الْخَلِيقَةِ تَجَلَّتْ فِي الْخَلِيقَةِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَزُبُّ قَلْبٍ مِيتٍ يَحْيَا بِجَمَالِهِ بَعْدَ مَوْتِ جِهَالَتِهِ، وَإِحْيَاؤُهُ بِمَعْرِفَتِهِ. قَالَ الْوَاسِطِيُّ: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ إِعْلَامًا لِّصَحَّةِ الطَّرِيقِ لِلْمُوحِدِينَ عَلَىٰ حِدَةٍ، وَلِلْعَالَمِينَ عَلَىٰ حِدَةٍ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا مِنْ رَوَائِعِ نَفَحَاتِهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ تَوْحِيدِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ.

ولهذا قال الحكماء: لكل شجر نار إلا العناب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى كمال قدرته واختياره فقال: ﴿أَ يَنْكُرُ الْمُنْكَرُونَ قَدَرَنَا عَلَى الْبَعْثِ وَحْشَرَ الْمَوْتِ﴾ ﴿وَلَيْسَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات وما فيها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفليات وما عليها ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ويعيدهم أحياء كما كانوا ﴿بَلَى﴾ من قدر على خلق السموات العلا والأرضين السفلى، قادر على بعث الموتى وحشرهم في النشأة الأخرى ﴿وَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ﴾ ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ المبالغ في تكثير الخلق والإيجاد، إبداء وإعادة ﴿الْعَلِيمُ﴾⁽¹⁾ [يس: 81] بجميع المعلومات، أزلًا وأبدًا على التفصيل بحيث لا يخرج عن حيطه حضوره ذرة من ذراتها ما كان ويكون، بل الكل عنده ممتاز محفوظ.

ولا تستبعدوا أيها الجاهلون بالله وبعلمه، وقدرته وسائر أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة أمثال هذا، بل هي بالنسبة إليه سبحانه سهل ويسير.

وكيف لا يسهل عليه سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ وشأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي: تعلق إرادته بتكوين شيء من معلوماته ومقدوراته ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ﴾ بعد تعلق إرادته: ﴿كُنْ﴾ المؤدي لأمره وحكمه ﴿فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] الأمور المحكوم بلا تراخ ومهلة، والتعقيب إنما نشأ من العبارة وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه سبحانه. إياك وم احتملات الألفاظ، فإنها بمعزل عن أداء كيفية أمر الله وشأن حكمه وقضائه على وجهه، ومتى سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ومتانة حكمته وحيطه علمه وإرادته ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وله التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته، يعني: تنزه ذات من يبدئ مقاليد الملك والملكوت من أن يعجز عن إعادة الأموات أحياء بعدما أبدعهم عن العدم كذلك، ولم يكونوا حيث شئنا مذكورًا، تعالى شأنه عما يقولون في حقه علواً كبيراً ﴿وَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ سُبْحَانَهُ عَلَى

(1) قال في التأويلات: بهذه الإشارات مهد سبيل الرشاد إلى الاستدلال، وقال: إن الإعادة في الابتداء، فإذا أقررتم بالابتداء فأي إشكال بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ ثم قال: الذي قدر على خلق النار في الأخصان الرطبة من المرخ والغفار قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائها بكل وجه، وأنه يحيي النفوس بعد موتها في البرصعة، كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلب بالعرفان لأهل الإيمان كما يحيي نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان.

البعث والإحياء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه في الوجود ولا إله سواه موجود ومشهود ﴿تَرْجَعُونَ﴾ [يس: 83] رجوع الأمواج إلى الماء، والأضواء إلى الذكاء، سبحانه من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في كيفية رجوع الكائنات إلى الوحدة الذاتية وإيناط المظاهر والمصنوعات إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي - أزال الله عن بصر بصيرتك سبل الحول، وأعانك على رفع الحجب وكشف العلل - أن تصفي باطنك عن الميل إلى الغير مطلقاً، بحيث يصير باطنك مملوءاً بمحبة الله، فتترسخ تلك المحبة فيه وتتمرن إلى أن خفي عليك خواطرك وهواجس نفسك، ثم تسري من باطنك إلى ظاهرك، فيشغلك عن جميع مشتغياتك ومستلذاتك، ومقتضيات قواك وجوارحك، فيمتلئ منها ظاهرك وباطنك، فحينئذ لم يبق لك التفات إلى الغير مطلقاً، فصرت حيراناً، مدهوشاً، مستغرقاً بمطالعة وجهه الكريم، وبعدها صرت كذلك، جذبك الحق عنك وسترك عليك إلى أن غبت فيه وفنيت، فحينئذ حق لك أن تقول بلسان استعدادك بعدما فنيت آثار رسومك في الله: إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الصافات

لا يُخفى على أرباب الصفوة من المنجذبين نحو الحق المنكشفين بانسباط وحدته الذاتية، حسب شئونه وتطوراته المنتشرة من أسمائه وصفاته الذاتية على صفائح المظاهر، والمجالي الغير المحصورة والعكوس والظلال الغير المتناهية، أن الوحدة الحقيقية الحقية لما أرادت أن تتجلى بالتجلي الحبي لإظهار الكمالات المندمجة في ذاتها، المقتضية للظهور والجلال، تنزل مرتبة الأزلية الأحدية والعمى، فظهرت المراتب والكثرات.

فأول كثرة ظهرت منها هي الأسماء الحسنى، والصفات العليا غير المنحصرة، الموسومة عند أرباب الأذواق بالملائكة، المهيمنين الوالهيين بمطالعة وجهه الكريم، الصافين حول عرشه العظيم، ثم ظهرت من تلك الأسماء والصفات كثرة الآثار والأظلال المنعكسة، ثم تترتب على تلك العكوس والأظلال من اللوازم والعوارض الفانية للحصر.

وبعدما بلغت الكثرة نهايتها تكونت الطبائع والهيولي، والجواهر والأعراض، وحدثت الفتن والأمراض، واختلفت المذاهب والأغراض، وتشعبت الطرق والأحزاب، وتكثرت الملل والنحل، وتزاحمت الأفكار والآراء، وتعارضت الأمنيات والأهواء.

فحينئذ اقتضت الحكمة الإلهية وضع الحدود والقوانين، وتحميل التكاليف الشاقة على العباد، وتشريع الطاعات عليهم، وإرسال الرسل والأنبياء المؤيدين من عنده سبحانه بالكتب المنزلة الفارقة بين الحق والباطل من السبل، والأحكام الميينة للأمم براهين التوحيد وحجج اليقين؛ لتمييز المحق من المبطل، والموحد من الملحد، والمؤمن العارف من الكافر الجاهل.

ولهذا المطلب العلي والمقصد السني الذي هو التوحيد، أقسم سبحانه بأعظم مخلوقاته وأقربها إلى الذات، وهم الملائكة الصافون حول الذات الأحدية، المهيمنون

عند سرادقات العز والجلال، المستغرقون بمطالعة الجمال.

فقال تبارك وتعالى مفتحاً بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ملائكته الحافين بذاته، الصافين حول عرشه العظيم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بعموم فيضه وشمول رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بعكوف في بابه، وبقهرهم عند خبابه.

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّلِيَّتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا أَزِينَةُ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا لَآ أَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُخُورًا لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَلَّفَ الْخُلَفَاءَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: 1-10].

﴿وَالصَّفَّاتِ﴾ أي: وحق الأسماء والصفات الإلهية الصافين حول الذات الأحدية، المنتظرين لشئونه وتجلياته؛ إذ هو سبحانه في كل آن في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿صَفًّا﴾ [الصافات: 1] لا يتحولون منه أصلاً، بل هائمون دائمون والهون مستغرقون، منتظرون بماذا يأمرهم ربهم من التدابير المخزونة في حضرة علمه ولوح قضاءه.

ومتى تعلقت إرادته بمقدور من مقدوراته ومراداته المأمورة إياهم وحينئذ زاجرات ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ المدبرات على الفور لما يأمرهم الحق من التدبيرات المتعلقة بنظام الكائنات غيباً وشهادة ﴿زَجْرًا﴾ [الصافات: 2] أي: تدبيراً تاماً كاملاً، حسب المأمور والمقدور بلا فتور وقصور.

وبعدما صدر أمره سبحانه، وجرى قضاءه بقوله: ﴿كُنْ﴾ [غافر: 68] فهم حينئذ التابعون لامثال المأمور المقضي، بلا فترة وتسويق ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ التابعات لإنفاذ قضائه سبحانه القارئات المبلغات ﴿ذِكْرًا﴾ [الصافات: 3] ^(١) منه، ووحياً من لدنه سبحانه لمن

(1) أقسم بطوائف الملائكة، الصافين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقاً إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرض لهم. البحر المديد (224/5).

أمرهم الحق بتبليغه إياهم، وهم الأنبياء والرسل المؤيدون بالوحي والإلهام، المصطفون من بين البرايا بالخلافة والنيابة عن الله، المتحملون لأعباء النبوة والرسالة.

يعنى: وبحق هؤلاء الملائكة الذين هم من سدنة حضرة اللاهوت، وخدمته عتبة جناب الرحموت، المنتظرون لما صدر عنه سبحانه من الأمور المتعلقة بالملك والملكوت ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ﴾ الذي أظهركم وأبدعكم من كتم العدم، ولم تكونوا أيها العكوس المستهلكة في شمس الذات شيئاً مذكوراً، لا حساً ولا عقلاً ولا وهماً ﴿لَوْاحِدٌ﴾ [الصافات: 4] أحد صمد فرد وتر، ليس له شريك في الوجود ولا نظير في الظهور والشهود.

فهو وحده بوحده ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ العلا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَمَا يَتَّبِعُهَا﴾ من الكوائن والفواصد الممتزجة منهما إلى ما لا يتناهى، ولا مربى للمذكورات سواء، ولا مظهر للكائنات إلا هو ﴿وَهُوَ سَبْحَانَهُ﴾ ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: 5] أي: الاستعدادات القابلة لشروق شمس ذاته المتأثرة من أشعة أسمائه وصفاته.

وبعدما ثبت استقلالنا وتوحيدها في تصرفات ملكنا وملكوتنا ولاهوتنا وجبروتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾ أي: القربى لكم أيها المكلفون، حيث ترون ما فيها ﴿بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6]⁽¹⁾ أي: بزيينة هي الكواكب، أو البدل على كلا القراءتين بتنوين وبلا تنوين، تزييناً تبهجون بها حين تنظرون إليها، وتتأثرون سعداً ونحساً إقبالاً وإدباراً.

﴿وَهُوَ جَعَلْنَاهَا﴾ ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: بعدما زينا السماء بها صيرناها صائنةً حفظاً لها ﴿فَمِنْ﴾ وصول ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: 7] خارج عن إطاعة الله، مائل عن توحيده إياها.

كي ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: مرده الشياطين ولا يصغون ﴿إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: إلى الأذكار والاستغفار وسائر الأسرار الجارية على ألسن الملائكة، إذ هم؛ أي:

(1) قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال براه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. «تفسير ابن كثير» (8/177).

الشياطين والجن أشبه المخلوقات إلى الملائكة، وإنما منعهم سبحانه عن الإصغاء إليهم؛ لأنهم من كمال عداوتهم مع بني آدم يعكسون عليهم ما يسمعون، فيضلونهم به عن الصراط المستقيم، أو يدعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويحتجون بما يسمعون من الملائكة ترويحاً وتغريزاً، ويلبسون الأمر على ضعفه الأنام، فيحرّفونهم عن جادة التوحيد والإسلام ﴿و﴾ لذلك ﴿يُفْذَقُونَ﴾ ويُطردون أولئك الماردون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: 8] من جوانب السماوات وآفاقها.

﴿دُحُورًا﴾ طردًا بليغًا وزجرًا شديدًا ﴿و﴾ مع ذلك الطرد والزجر ﴿لَهُمْ﴾ أي: للشياطين ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَأَصِْبْ﴾ [الصافات: 9] مؤبد دائم، لا ينفك عنهم في حين من الأحيان.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: يُطرد الماردون، ولا يسمعون إلا من اختطف واختلس من الملائكة الخطفة على سبيل المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي: تبعه ولحقه على الفور حين اختطافه واختلاسه ﴿شِهَابٌ مُنْقَابٌ﴾ [الصافات: 10] أي: كوكب مضيء كجذوة النار، يثقب الجني فيقتله، أو يحرقه، أو يخبله.

والقول بأن الشهب من الأمور الكائنة في الجو من الكواكب قول تخميني ابتدعه الفلاسفة من تلقاء نفوسهم، لا يعضده عقل، ولا يوافقه نقل.

وأما قولهم في ضبط الحركات الفلكية والأجرام العلوية، وتقويم الكواكب والبروج، وتقدير الأشكال والصور إلى غير ذلك من الأمور المؤدية إلى الحس ربما يؤدي إلى اليقين، أمّا في طبائع المكونات وحقائق الموجودات، وكيفية تراكيب الماهيات وغير ذلك من الأمور الحقيقية التي لا مجال للحس فيها ولا لعقل، ما هو إلا تخمين زائل وزور باطل؛ إذ لا يعرف كنه الأشياء إلا خالقها ومظهرها، لا يسع لأحد أن يتفوه عنها، وعن كلفتها وكميتها وكمية التامها على ما هي عليها والتركيبات الحقيقية.

وهم؛ أي: مرده الشياطين بمجرد تلك الخطفة المختلصة يضلون كثيرًا من الناس إلى حيث يستعبدونهم، ويأمرونهم بالإطاعة والانقياد إلى أنفسهم، والعبادة إياهم باتخاذهم أولياء آلهة من دوننا جهلاً وعنادًا.

﴿فَأَسْتَفْهِمُ أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾﴾ بَلْ

عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا ذَكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا أَوْفَاءُ بَعْدَ نَذْرٍ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا مِخْرُمِينَ ﴿١٥﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُونَا ﴿١٦﴾ أَوْ مَا بَدَأْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَوَدُّكَ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ [الصافات: 11-21].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: المشركين المتخذين الشياطين أولياء آلهة من دوننا، واستخبرهم يا أكمل الرسل على سبب التبكيت والتعير تنصيضا على غيهم، وتصريحا بكفرهم واستحقاقهم العذاب المؤبد والنكال المخلد ﴿أَهْمُ﴾ أي: آلهتهم وشياطينهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادا وتأثيرا ﴿أَمْ مِنْ خَلْقِنَا﴾ وأظهرنا بمقتضى قدرتنا الكاملة من المخلوقات المذكورة التي هي الملائكة الصافات، والسموات المطبقات، والكواكب المتفاوتة في التأثيرات فيها، والأرض وما عليها من المركبات والمواليد، وبينهما من الممترجات وغير ذلك من الاستعدادات القابلة لشروق شمس الذات، سيما ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجود هؤلاء المتخذين لغيرنا أربابا أولا ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] لاصق متن مهين لازم التن والهوان، ثم ريناهم بأنواع التربية إلى أن سويناهم رجالا عقلاء؛ ليعترفوا بتوحيدها وبألوهيتها وربوبيتها، ويواظبوا على شكر نعمتنا، فعكسوا الأمر واتخذوا أولياء من دوننا، واعتقدوهم آلهة سوانا، وبالعجلة: انقلبوا خاسرين.

أو المعنى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ وسلهم؛ أي: المشركين ﴿أَهْمُ﴾ في أنفسهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأعظم مخلوقا ﴿أَمْ مِنْ خَلْقِنَا﴾ من المخلوقات المذكورة سابقا مع أنهم لم يتخذوا إلها سوانا، ولم يعبدوا غيرنا، هؤلاء الحمقى كيف اتخذوا من دوننا أولياء، ويسمونهم آلهة شفعاء، مع أنهم أضعف بالنسبة إليهم، مخلوقون من أدون الأشياء وأرذلها؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] مسترذل متن تستكرمه الطبائع.

ومهما سمعت يا أكمل الرسل قولهم وإنكارهم للتوحيد وإشراكهم بالله أدون الأشياء مع ضعف خلقهم، وتأملت حالهم استبعدت منهم هذا ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أنت - أو «عجبت» أنا على القراءتين - منهم أمثال هذا، مع أنهم مجبولون على فطرة الدراية والشعور، مرهون لهم العقل المفاض المشير لهم إلى التوحيد وتصديق البعث والحشر

وجميع الأمور الآخروية ﴿و﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: 12] ⁽¹⁾ بك متى سمعوا

(1) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ خطاب للرسول ﷺ وجوز أن يكون لكل من يقبله . ﴿وبل﴾ للاضراب إما عن مقدر يشعر به ﴿فاستفتهم﴾ [الصافات: 11] إلخ؛ أي: هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق بل مثلك ممن يدّعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الأمم الماضية وليس بشيء إذ لم يسبق لهذه الأمم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسموات والأرض وما سمعت مع أن حرف التعقيب مما يدل على خلافه، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الإمام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السموات والأرض ورب المشارق والزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم: فانتظروا الإهلاك كمن قبلكم لأنهمك لستم أشد خلقاً منهم فوضع موضعه ﴿فاستفتهم أنهم أشد خلقاً﴾ [الصافات: 11] وقوله تعالى: ﴿إنا خلقناهم﴾ [الصافات: 11] تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقاً أو دليل لاستكبارهم المتج للعناد . وأيده بدلالة الإضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الإضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفي الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الإهلاك كسالف الأمم؛ وتعليل نفي الأشدية بما علل ليس بشيء لوضوح أن السابقين أشد في ذلك، وكم من ذلك في الكتاب العزيز، وأما الإضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يدّعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مسأخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل . وقرأ حمزة . والكسائي . وابن سعدان . وابن مقسم ﴿عَجِبْتَ﴾ بناء المتكلم ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن مسعود . والنخعي . وابن وثاب . وطلحة وشقيق . والأعمش، وأنكر شريح القاضي هذه القراءة وقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم، وإنكار هذا القاضي مما أفتى بعدم قبوله لأنه في مقابل بينة متواترة، وقد جاء أيضاً في الخبر عجب ربكم من الكم وقنوطكم، وأولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أي لو كان العجب مما يجوز علي لعجبت من هذه الحال أو التخيل فيجعل تعالى كأنه لانكاره لحالهم بعدها أمراً غريباً ثم يثبت له سبحانه العجب منها، فعلى الأول تكون الاستعارة تخيلية تمثيلية كما في قولهم: قال الحائط للوتد لم تشقني فقال صل من يدقني، وعلى الثاني تكون مكنية وتخيلية كما في نحن لسان الحال ناطق بكذا والمشهور في أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازاً مرسلًا فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيمًا أي بالغاً الغاية في الحسن أو القبح، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغاً الغاية في القبح، وليس استعظام الشيء مسبوقاً بانفعال يحصل في الروح عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال: إن التأويل المذكور لا يحسم مادة الاشكال . «تفسير الألويسي» (75/17).

منك الأخبار والآيات الواردة في أمر البعث والحشر.

بل ﴿و﴾ هم من شدة قسوتهم وعمهم في سكرتهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا بالإنذارات والتخويفات الشديدة المتعلقة للآخرة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: 13] أي: لا يتأثرون ولا يتعظون.

﴿و﴾ لا يقتصرون على عدم القبول والتذكر بل ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾ أي: علموا وسمعوا ﴿آيَةً﴾ معجزة نازلة في شأن البعث والنشور ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: 14] بهاء ويستهزئون بك يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا.

﴿وَقَالُوا﴾ من شدة بغضهم وضغيتهم معك يا أكمل الرسل ومع كتابك: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي جاء مفتريًا إلى ربه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 15] أي: سحرية ما جاء به ظاهر، وهو في نفسه ساحر ماهر، لكن مضمون كلامه زور باطل.

﴿أ﴾ نبعث ونحيي ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ وانفصل عنا روحنا، سيما ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية رميمه ﴿أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: 16] بعدما صرنا كذلك.

﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: 17] الأقدمون يبعثون ويحشرون ﴿هَٰنَٰهَا هَٰنَٰهَا﴾ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: 36-37].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث، واستحالة نشأة النشور: ﴿نَعْم﴾ تبعثون أيها الضالون المنكرون، وإلى ربكم تحشرون، وعن أعمالكم تسألون، وعليها تحاسبون، وإلى جهنم تساقون ﴿وَأَنْتُمْ﴾ حيثذ ﴿دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: 18] صاغرون ذليلون مهانون.

وكيف تنكرون قدرتنا على البعث وقيام الساعة ١٢ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: الساعة والبعث بعدما تعلققت مشيئتنا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة منشرة لهم عن قبورهم، زاجرة لهم نحو المحشر زجر الراعي الصائح للغنم، وبعدما سمع الأموات الصيحة؛ أي: النفخة الثانية في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: 19] حيارى سكارى تائهين واليهين.

﴿وَقَالُوا﴾ بعدما قاموا كذلك متحسرين متمنين الهلاك والويل: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ وهلاكنا أدركنا! ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الصافات: 20] والجزاء الذي وعدنا الله به

على السنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فتحن قد كنا ننكره ونكذبه ونستهزئ بمن جاء به وأخبر عنه عنادًا ومكابرة، فالآن نُبتلى به، يا حسرتنا على ما فرطنا في ترك الإيمان به وتصديق مخبره.

وبعد ما قالوا ما قالوا، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التقريع والتعير إظهارًا لكمال القدرة: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ﴾ والقضاء بالعدل ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: 21] أيها الضالون المنكرون المصرون على التعنت والعناد.

﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ مَلَكٍ بِأَنَّكُمْ قَوْمٌ طَالِغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) [الصافات: 22-33].

ثم أمر سبحانه للملائكة المترصدين لأمره القائمين لحكمه: ﴿أَخْشَرُوا﴾ وسوقوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، واجمعوهم للحشر ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: أشباههم وأمثالهم وقرناءهم الذين اقتدوا واقتفوا أثرهم معهم ﴿و﴾ أحضروا له أيضًا معهم ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 22] ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ظلمًا وعدوانًا أي: معبوداتهم الباطلة تميمًا لإلزامهم ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ أي: قدموهم ودلوهم جميعًا ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23].

وبالجملة: سوقوهم بأجمعهم عابدًا ومعبدًا إلى نيران الطرد وجحيم الخذلان ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واحبسوهم في الموقف ساعة ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24] عن أعمالهم التي جاءوا بها في نشأتهم الأولى محاسبون عليها.

وبعد ما سئلوا وحوسبوا جوزوا بمقتضاها ثم سوقوا إلى النار، والسر في السؤال والله أعلم: تسجيل العذاب عليهم؛ لئلا ينسب سبحانه إلى الظلم والعوان ظاهراً، ولئلا يجادلون معه سبحانه؛ إذ كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ثم قيل لهم من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما شأنكم، وأي شيء

عرض عليكم أيها الضالون المضلون ﴿لَا تَنَاصِرُونَ﴾ [الصافات: 25] أي: لا ينصر بعضكم بعضاً أي: معبوداتكم لا تنصر بتخليص عابديهم مع أنكم اتخذتموهم أولياء واعتقدتموهم آلهة شفعاء، فلم لا ينصرونكم ولا ينقذونكم من عذابنا؟ ولم لا تمكرون ولا تحيلون أنواع الحيل والخداع؟ ولم لا تعتذرون بالأعذار الكاذبة؛ لأنقاذكم من عذابنا كما تزعمون في النشأة الأولى ١٢.

وهم حينئذ من شدة الهول هائمون حاثرون ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِمُونَ﴾ [الصافات: 26] منقادون خاضعون، ومن خوف اشتداد العذاب عليهم خائفون خاشعون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ حين يساقون نحو النار ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 27] أي: يتخاصمون ويتلاومون.

﴿قَالُوا﴾ أي: الضعفاء السفلة منهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المضلون كنتم من شدة شغفكم، وحرصكم على تضليلنا، ومنعنا عن تصديق الرسل وقبول دعوتهم ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: 28] ⁽¹⁾ أي: عن أقوى جوانبنا، أو عن أقوى الطرق الموصلة إلى مطلوبكم منا، وهو المال وحطام الدنيا، فتعطوننا منها، وتحرفوننا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء في جواب الضعفاء: ما قولكم هذا إلا افتراء منكم إيانا ومراء، كيف نؤثر نحن في قلوبكم بحيلنا ومكرنا، أو بعطائنا المال إليكم والإحسان عليكم لو كنتم مؤمنين، والإيمان من أفعال القلوب ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا﴾ في أنفسكم

(1) ﴿قَالُوا﴾ يعني: السفلة للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ يعني: من قبل الحق أي: الدين فزيتم لنا ضلالتنا. وروي عن الفراء أنه قال: ﴿اليمين﴾ في اللغة القوة والقدرة. ومعناه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ بأقوى الحيل، وكنتم تزينون علينا أعمالنا. وقال الضحاك: تقول السفلة للقادة: إنكم قادرون وظاهرون علينا. ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم. روى ابن أبي نجيع عن مجاهد قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن الحق. يعني: الكفار يقولون: للشيطان. وقال القتيبي: إنما يقول هذا: المشركون لقرنائهم من الشياطين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ يعني: عن إيماننا لأن إبليس قال: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] وقال المفسرون: من أتاه الشيطان من قبل اليمين، أتاه من قبل الدين، وليس عليه الحق. ومن أتاه من قبل الشمال، أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه، وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحماً، ولم يؤد زكاة. «بحر العلوم» للسمرقندي (487/3).

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 29] مصدقين، فتميلون على ما كنا عليه طبعًا وهوى، فتفترون اليوم علينا وراء.

﴿و﴾ إن ادعيتكم إكراهنا إياكم حيثذ فقد كذبتهم؛ إذ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وغلبة إلى حد تخافون عن قهرنا وإهلاكنا، لو لم تكفروا ﴿بَلْ كُثِّمَ﴾ في أنفسكم كما كنا ﴿قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات: 30] طغيتم وبلغتكم على الله كما طغينا وبلغنا.

وبالجملة: إنا وإياكم لفي ضلال مبين ﴿فَحَقُّ﴾ أي: لزم وثبت وجرى ﴿عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وحكمه المبرم الميث في لوح قضائه وحضرة علمه، بآنا وأنتم من الأشقياء المردودين المستحقين لأنواع العذاب والنكال ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات: 31] بأجمعنا اليوم ما كتب لنا ربنا من العذاب.

وبالجملة: سلمنا أنا أضللناكم عن الهدى بمكرنا وخداعنا ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ﴾ عن التوحيد والإيمان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ أيضًا ﴿غَاوِينَ﴾ [الصافات: 32] أمثالكم، فلحق بنا ما لحق بكم، إلى متى تعيروننا وتخاصموننا ١٩.

وبعدما تطاول وتمادى جدالهم وتخاصمهم، قيل لهم من قبل الحق: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ضالاً ومضلاً، تابِعًا ومتبوعًا ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: 33] كما كانوا مشتركين في أسبابه وموجباته في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ٢٠ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٢١ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهَيْتَا لِشَاعِرٍ يَجْثُونَ ٢٢ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ٢٣ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ٢٤ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٥ [الصافات: 34-39].

﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وجلالنا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الهائل الذي هو سوقهم جميعًا إلى النار ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: 34] المتخذين لنا شركاء من دوننا، الخارجين عن ربة عبوديتنا بالالتفات والتوجه إلى غيرنا.

وكيف لا نفعل به مع المجرمين المشركين كذلك ١٩ ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية عتوهم وعتادهم ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ تذكيرًا وتنبهًا: ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود يعتد به ويرجع إليه

في الخطوب ﴿إِلَّا اللَّه﴾ الواحد الأحد الأحد الصمد الفرد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: 3-4]﴾ هم حيثذ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35]
 ويعرضون عن كلمة التوحيد ومقتضاها، ويمتنعون عنها وعن معناها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حيثذ من غاية تعنتهم، وإصرارهم على الشرك على سبيل الإنكار
 والاستبعاد: ﴿أَيْنَا﴾ مع كمال عقلنا ورشدنا ﴿لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا﴾ الذين كنا نحن وآباؤنا
 وأسلافنا لها عابدين عاكفين ﴿لِشَاعِرٍ مُّجْتَوٍ﴾ [الصافات: 36] يتكلم بكلام المجانين،
 وقد جاء بأباطيل من تلقاء نفسه، مشتملة على أساطير الأولين؛ يعنون الرسول ﷺ.

ثم لما تمادوا في طعنه وطفياه ﷺ، وبالفوا في قدح القرآن وإنكاره، رد الله
 عليهم على أبلغ وجه وأوضح بيان، فقال سبحانه إضراباً عن قولهم: ﴿بَلْ جَاءَ مُحَمَّدٌ
 ﷺ مَلْبِسًا﴾ [بِالْحَقِّ] داعياً على الحق إلى الحق ﴿وَوَ﴾ علامة حقيقته وصدقه أنه ﴿صَدَقَ
 الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 37] المنزلين من عندنا على الحق اليقين.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المكذبون به ﷺ، ويكتابنا المنزل عليه من عندنا ﴿لَذَائِقُوا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الصافات: 38] المعد لكم وأمثالكم في قعر الجحيم.

﴿وَوَ﴾ اعلّموا أنكم ﴿مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 39] أي: مثلما
 عملتم وبمقتضاه، بلا زيادة عليه ونقصان، عدلاً منا وقهراً على من انحرف عن جادة
 توحيدنا.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٠ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ ١١ ﴿فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ ١٢
 فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ١٣ ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ١٤ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ١٥ يَبْتَغِيهِ لُذُنُ
 الشَّارِبِينَ ١٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ١٧ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْعُرْفِ ١٨ عَيْنٌ ١٩ كَأَنَّهُنَّ
 بَيْضٌ مَكْنُوزٌ ٢٠ [الصافات: 40-49].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 40] الموفقين على الإيمان والأعمال
 الصالحة، خالصاً لوجه الله الكريم.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المرضييون لديه سبحانه ﴿لَهُمْ﴾ من فضل
 الله إياهم ولطفه معهم ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 41] معد، معين عنده سبحانه صورياً
 ومعنوياً، عينياً وعلمياً، كشافياً وشهودياً على ما عملوا من صالحات الأعمال

والأخلاق والحالات.

بل لهم تفضلاً عليهم ومزيداً لتكريمهم ﴿فَوَاكِهَ﴾ كثيرة يتلذذون بها حسب ما يشتهون ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿هُمْ مُكْرَمُونَ﴾ [الصافات: 42] عند ربهم، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: 43] المشتملة على الرزق الصوري والمعنوي، متكئين ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ رفيعة حسب رفعة درجاتهم في الإيقان والعرفان والكشف والعيان ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: 44] متواجهين مع قرنائهم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ تشريقاً لهم وتجديداً لذوقهم وحضورهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ مملوء ﴿مِنْ﴾ ماء ﴿مُعِينٍ﴾ [الصافات: 45] هو خمر الجنة، سمي به؛ لأنه عان ونبع من بحر اللاهوت، وترشح من عين الحياة المنتشئة من حضرة الرحموت.

﴿يَبْيَضُّ﴾ لا لون له يدركها النظر ويخبر عن كیفيتها الخبر ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: 46] أي: لذية للعارفين المتعطشين بزالال التوحيد وببرد اليقين، لا يدرك كیفيتها إلا من يذوقها، ومن يذوقها لا يظلم منها أبداً، ولا تخرج نشوتها عنه أمداً، بل يطلب دائماً مزيداً.

إذ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلة خماز وصداع يترتب عليها كما يترتب على خمر الدنيا ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُتَزَفُونَ﴾ [الصافات: 47] يسكرون إلى حيث يذهب عقولهم ويفسد أمزجتهم ويختل خواطرهم، وينسون مطالبهم ويضلون عن مقاصدهم كما في خمر الدنيا، بل يزيد منها شوقهم وذوقهم ويتكامل طلبهم.

﴿وَعِنْدَهُمْ﴾ من الأرواح المزدوجة معهم، المقبولة عندهم ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ عليهم، ولا يلتفتن إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: 48] أي: حسان العين والحواجب والأجفان والأكامق.

﴿كَانَّهُنَّ﴾ في صفاء البدن وبياضه ﴿يَبْيَضُ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: 49] مصون محفوظ عن الغبار، مخلوط بأدنى صفرة كلون الفضة، وهو أحسن ألوان جسد الإنسان.

﴿قَائِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ يَقُولُ لَوْ نَكَّ لَيْنَ الْمَصِيقِينَ ٥٢ لَوْ نَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظْمًا لَّوْنَا ٥٣ قَالَ هَلْ أُشْرِكُ بِمُطَلِعُونَ ٥٤ فَأَمْلَحَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْحَجِيرِ ٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَأُزِيدَنَّ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ

الْمُخَضَّرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ [الصافات: 50-61].

وبعد ما يشربون من المعين وشملهم كيفيتها، أخذوا يتحدثون ﴿فَأَقْبَلَ﴾ والتفت ﴿بَغْضُهُمْ عَلَى بَغْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 50] ويتناولون مما جرى عليهم في نشأة الدنيا، وما ادخروا فيها للنشأة الأخرى من المعارف والحقائق والأعمال والأحوال والمواجيد، والأخلاق والعبر والأمثال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ على سبيل التذكر والتحكي عن إنكار المنكرين يوم البعث والنشور ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: 51] ^(١) في دار الدنيا، منكر لهذه النشأة، وأنا معتقد لها، منتظر لقيامها.

﴿يَقُولُ﴾ يوماً على سبيل النصيح والإنكار والاستبعاد: ﴿أَنْتَ﴾ أيها المعجول على الدارية والشعور ﴿لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ﴾ [الصافات: 52] والمعتقدين الموقنين.

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (5/ 210): ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الضاحب في الدنيا. والثاني: أنه الشريك روي عن ابن عباس. والثالث: أنه الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أنه الأخ؛ قال مقاتل: وهما الأخوان المذكوران في سورة [الكهف: 32] في قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً رجُلَيْنِ﴾ والمعنى: كان لي صاحب أو أخ يُنكر البعث ﴿يقول أنتَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ﴾ قال الزجاج: هي مخففة الصاد، من صدق يصدق فهو مصدق، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد. قال المفسرون: والمعنى: أنتَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ بالبعث؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة ﴿الْمُصْذِقِينَ﴾ بتشديد الصاد. قوله تعالى: ﴿أَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ عِزَّهُمْ وَمُؤَلَّفَاتُ الْأَيْدِي﴾ أي: أتأتون بأعمالنا؟ يقال: دُئِيَ بما صنع، أي: جازته، فأحب المؤمنين أن يرى قرينه الكافر، فقال لأهل الجنة، ﴿هل أنتم مُطْلِعُونَ﴾ أي: هل تحبون الإطلاع إلى النار لتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهلها؟ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو عمران، وابن عمر: ﴿هل أنتم مُطْلِعُونَ﴾ بإسكان الطاء وتخفيفها ﴿فَأُطْلِعَ﴾ بهزة مرفوعة وسكون الطاء. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عمير: ﴿مُطْلِعُونَ﴾ بكسر النون. قال ابن مسعود: أطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي؛ قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار، قوله تعالى: ﴿فَرَأَاهُ﴾ يعني قرينه الكافر ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسطها. وقيل: إنما سمي بالوسط سواة، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. قال خليل الغضري: والله لولا أن الله عزَّه [ثابه، ما عرفه، لقد تغير خبره ويبره. فعند ذلك ﴿قال تالله إن كذبت لثُرْدِين﴾ قال المفسرون: معناه: والله ما كذبت إلا تُهْلِكُنِي؛ يقال: أرديت فلاناً أي: أهلكته ﴿ولولا نعمة ربِّي﴾ أي: إنعامه عليّ بالإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ﴾ معك في النار.

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ﴾ تعتقد أنت وتصدق ﴿ثُمَّ لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:

53] أي: مجزيون بأعمالنا التي كنا نعمل، مسئولون عنها، محاسبون عليها ١٢.

كلا وحشا، ما هي إلا حياتنا في الدنيا وما نحن مبعوثين، ثم ﴿قَالَ﴾ لقرنائه في الجنة، مستفهما عن حال قرينه المنكر للبعث: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: 54] يعني: هل أنتم تريدون وتطلبون أيها المسرورون في الجنة أن تطلعوا عن ذلك القرين في النار، قالوا له: أنت أحق بإطلاع حاله؛ إذ هو مصاحبك وقرينك.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بعدما نظر من الكوى المفتوحة في الجنة نحو النار ﴿فَرَأَاهُ﴾ أي: قرينه المنكر ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55] أي: وسطه معذبًا بأنواع العذاب.

﴿قَالَ﴾ له بعد ما رآه في النار مقسم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُزْدِينَ﴾ [الصافات: 56] يعني: والله إنك أيها الجاهل المفرد، قد قاربت من إهلاكى بإغرائك وإغوائك ونصحك إلتى، وتذكيرك على ما يدل على إنكار البعث واستدلالك على استحالة.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وتوفيقه إبانى بالعصمة والثبات على عزيمة الإيمان والتوحيد ﴿لَكُنْتُ﴾ مثلك ﴿مِنَ الْمُخَضَّرِينَ﴾ [الصافات: 57] معك في وسط الجحيم؛ يعني: أنا أيضًا من جملة أهل النار مثلك.

ثم أخذ يباهي على قرينه بالنعيم المقيم واللذة المستمرة، بلا تريان موت وعذاب، فقال مستفهما: ﴿أ﴾ تعلم أنا في الجنة مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات: 58] أي: مائتين متحولين عنها، بل لا موت لنا ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى﴾ التي متنا عن الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الصافات: 59] ⁽¹⁾ أيضًا أمثالكم.

(1) قوله تعالى: ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إذا ذبح الموت، قال أهل الجنة: ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾، إلا مَوْتَنَا الْأُولَى التي كانت في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ؟ فيقال لهم: لا، فعند ذلك قالوا: ﴿إِنْ هَذَا لَهَوُ الْقَوُورِ الْعَظِيمِ﴾، فيقول الله تعالى ﴿لِيُمِثِّلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾، قاله ابن السائب. وقيل: يقول ذلك للملائكة. والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: ﴿إِنْ هَذَا لَهَوُ الْقَوُورِ الْعَظِيمِ﴾، قاله مقاتل. وقال أبو سفيان الدمشقي: إنما خاطب المؤمن أهل الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النعيم، لا على طريق الاستغهام، لأنه قد عليم أنهم ليسوا بميتين، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سرورًا. والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يتركه، ذكره الثعلبي. قوله

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الخلود والتنعم والسرور بلا طريان ضد عليه ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
[الصافات: 60] والكرم الجسيم من الله العليم الحكيم إيانا.

ثم قيل من قبل الحق؛ ترغيباً للمؤمنين على الطاعات وحثاً لهم إلى الإتيان
بالأعمال الصالحات، وتطيباً لقلوبهم بترتب أمثال هذه الحسنات على أعمالهم
وأخلاقهم ومواجيدهم وحالاتهم، وبالجمل: ﴿لِيُمَثِّلَ هَذَا﴾ الفوز العظيم والنول الكريم
﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: 61] في النشأة الأولى، لا للحظوظ الفانية واللذات
الزائلة الدنيوية، المقتضية لأنواع الآلام والحسرات.

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ٦٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ٦٣ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ٦٤ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ ٦٥ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَائِلُونَ مِنْهَا
الْبُطُونَ﴾ ٦٦ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاقٍ مِنْ حِمِيمٍ﴾ ٦٧ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ٦٨ ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَا
ءَ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ﴾ ٦٩ ﴿فَهُمْ عَلَى مَآثَرِهِمْ يَعْرُغُونَ﴾ ٧٠ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٧١ ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ٧٢ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٧٣ ﴿إِلَّا جِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ﴾ ٧٤ [الصافات: 62-74].

ثم قال سبحانه: ﴿أَذَلَّكَ﴾ المذكور من الرزق المعلوم واللذة المستمرة والنشر
الدائم بلا صداع ولا خمار، والحياة الأبدية والمسرة السرمدية ﴿خَيْرٌ نَزْلًا﴾ لأهل الجنة
﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: 62] لأهل النار، وهي ثمرة شجرة مرة كريهة الرائحة
والطعم، يستكرهه طباع أهل النار، إلا أنهم يتناولون منها للضرورة.

ثم لما عبر سبحانه عن نزل أهل الجحيم بالزقوم، فسمعها كفار أهل مكة، قالوا:
كيف يكون في النار شجرة، ومن شأنها إحراق ما يجاورها؟

فاستهزءوا برسول الله ﷺ، وقال ابن الزبيري لصناديد قريش: إن محمداً يخوفنا
بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: الزيد والتمر، فأدخلهم أبو جهل في بيته، فقال يا جارية

زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: ترمقوا، فهذا ما يوعدكم به محمد ﷺ.

رد الله سبحانه قولهم واستهزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: الشجرة المذكورة ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِلْظَالِمِينَ﴾ [الصافات: 63] وسيًا لازدياد العذاب وتشديد النكال عليهم؛ إذ هم يتناولون فيهم ويحملونها إلى لغة أخرى، ويتخذون لها محملاً جيداً، ويستهزئون بسببها بالنبي ﷺ، فيستحقون أسوأ العذاب والعقاب، ويطعمون منها حين دخولهم في النار.

﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وتبت ﴿فِي أَضَلِّ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64] أي: منبتها في قعرها وأغصانها في دركاتها.

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرتها التي تطلع منها أو تحصل ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65] في القبح والهجنة، هذا من قبيل التشبيه المحسوس بالمتخيل، كتشبيه الطيور الحسنه بالملائكة؛ يعني: يستكره من رؤيتها الطباع استكراهها من رؤوس المردة من الجن المصورة على أقبح الصور وأهولها.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المنكرون المستهزئون، وجميع من في النار من الكافرون ﴿لَا يَكُلُونَ مِنْهَا﴾ إذ لا مأكول لهم فيها سواها ﴿فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: 66] أي: يملثون بطونهم منها؛ لشدة الجوع، أو يجبرون لأكلها؛ زجراً عليهم وتشديداً لعذابهم؛ إذ هي أحر من النار وأبرد من الزمهرير.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد ما ملثوا بطونهم منها مع كمال حرارتها واشتداد العطش عليهم ﴿عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: 67] أي: لخلطاً ومزاجاً من ماء حار في غاية الحرارة بعد أن يخرجهم الخزنة من الجحيم، ويوردهم إليها ورود البهائم في الماء، يشربون منها فيقطع أمعائهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد ما أصدرهم، فأخرجهم الخزنة من الماء ﴿إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 68] ألبتة؛ إذ لا مرجع لهم سواها، وإنما ابتلوا من العذاب المؤبد والعقاب المخلد.

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاهٌ﴾ أي: صادفوا ووجدوا ﴿أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: 69] منحرفين عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة التي هي التوحيد والإسلام.

﴿فَهُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف بعدما وجدوا أسلافهم كذلك ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾

يُهْرَعُونَ» [الصافات: 70] ويسرعون على الفور، ويعملون مثل عملهم، تقليدًا لهم بلا تدبر وتأمل.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿أَكْثَرُ الْأُولِينَ﴾ [الصافات: 71] من الأمم السالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ أي: في الأولين الماضين ﴿مُنْذِرِينَ﴾ [الصافات: 72] مثل ما أرسلناك إليهم بالإنذارات البليغة، فلم يفدهم إنذار أولئك المرسلين كما لم يفد إنذارك إلى هؤلاء المسرفين، فأخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعبر الخبير ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: 73] بعدما لم يندروا بالإنذارات البليغة الواصلة إليهم من قبل الرسل، ولم يتنبهوا منها إلى الطريق المستبين، انقلبوا ضالين خاسرين صاغرين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 74] الذين تنبهوا منها إلى الصراط المستقيم، بل تفتنوا إلى الحق اليقين، فانصرفوا عن العذاب الأليم إلى النعيم المقيم، لذلك انقلبوا بنعمة من الله وفضل عظيم.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ٧٥ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ٧٦ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ٧٧ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ٧٨ ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ وَبِالْغَايَةِ إِنَّا كُنَّا بِكَ بِخَيْرٍ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٨٠ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٨١ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ٨٢ [الصافات: 75-82].

ثم أخذ سبحانه في تعداد أهل الضلال الجاحدين على الرسل المنذرين بعدما أجمل فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ حين أردنا إهلاك قومه بالطوفان نداء مؤمل ضريع لاستخلاصه واستخلاص من آمن معه من قومه، فاجنباه ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: 75] نحن لأوليائنا المخلصين.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن معه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: 76] أي: من الغم الذي لحقه دائمًا من أذى قومه وضربهم عليه، ومن أنواع زجرهم وشتيمهم، أو من كرب الطوفان.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: من تناسل منه ومن أبنائه ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77]

إلى قيام الساعة.

روي أنه مات من بعدما نزل من السفينة من كان معه من المؤمنين، ولم يبق إلا هو وبنوه وأزواجهم، فتناسلوا إلى انقراض الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وثناء جزيلاً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 78] أي: في الأمم المتخلفة منهم، يذكرونه بالخير، ويقولون تكريماً له وترحيباً: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتكريم من الله ومن خواص عباده ﴿عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 79] ⁽¹⁾ أي: في النشأة الأولى والأخرى.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى لطفنا وجودنا لخلص عبادنا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزيينا نوحاً على إحسانه وإخلاصه ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 80] من عبادنا، لو أنابوا إلينا، وتوجهوا نحونا على وجه الإخلاص.

وكيف لا نبقي له ذكراً جميلاً ولا نجزيه جزاء جزيلاً؟ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 81] الموقنين بتوحيدنا، المتوكلين علينا، المفوضين أمورهم إلينا، المخلصين فيما جاءوا به من الأعمال والأفعال.

﴿ثُمَّ﴾ إِنَّا بمقتضى لطفنا فعلنا معه ما فعلنا من الإنعام والإحسان، ونجينا من كرب الطوفان ﴿أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 82] أي: كفار قومه بها، واستأصلناهم

(1) لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكليب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «سام، وحام ويافث». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة: أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن أبي عروبة. «تفسير ابن كثير» (22/7).

إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض، سوى أصحاب السفينة وأشياعه المؤمنين معه، ومن تشعب وتناسل منهم.

﴿وَأَنذَرْتُكَ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَهُ رُبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَفَبِكُلِّ مَالِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧ فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَمِيعٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَهُ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَهَنَّمَ ۝٩٧ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات: 83-98].

﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من جملة من شايعه في التوحيد والإيمان، بل من أجلة من تابعه على أصول الدين ومعالم اليقين ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 83] المتصف بكمال العلم والحلم والمعرفة واليقين وإن طال الزمان بينهما.

قيل: كان بين نوح وإبراهيم - عليهما السلام - ألفان وستمئة وأربعون سنة. اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 84] سالم عن جميع الميول الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم الخليل، صلوات الرحمن عليه وسلامه ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين انكشف بالتوحيد الإلهي، وتمكن في مرتبة الشهود العيني والحققي، مستفهما على سبيل الإنكار والتوبيخ، غيرة على الله وإظهارا لمقتضى الخلقة: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 85] أي: لأي شيء تعبدون هذه الأصنام الباطلة العاطلة عن لوازم الألوهية والربوبية، أيها الجاهلون بتوحيد الله ويكمال أوصافه وأسمائه.

﴿أَفَبِكُلِّ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 86] أي: أتريدون أيها المعاندون أن تثبتوا آلهة متعددة سوى الله الواحد الأحد، الصمد القيوم المطلق، المستحق للألوهية والربوبية استحقاقا ذاتيا ووصفيا على سبيل الإفك والمراء والكذب والافتراء؟!

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ أيها الجاهلون المكابزون ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 87] أنظنون أن له شريكا في الوجود، أو له نظيرا في الشهود وسواه موجود؟! والله ما ظنكم هذا إلا خيال باطل وزينغ زائل.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا، انصرفوا عنه وأنكروا عليه وعلى ربه، فأراد الله أن يكأيدهم في أصنامهم، ويخادع في كسرهما، وقد قرب حيثذ يوم عيدهم. وكان من عادتهم الإتيان بالقرايين والهدايا عند أصنامهم ومعابدهم، فيتقربون بها، ويتخذون منها أنواعاً من الأطعمة، فيطبخونها عنده في ليلة العيد، ثم يخرجون صبح العيد إلى الصحراء، فيتعيدون فيها بأجمعهم، ثم ينصرفون منها، فينزلون في معابدهم وعند أصنامهم، ويمهدون موائد كثيرة من الأطعمة المهيأة، فيأكلون منها ويتبركون بها، وكان عادتهم كذلك.

ثم لما اجتمعوا على المعبد عند الأصنام، قالوا له: أخرج أنت أيضاً معنا غداً يا إبراهيم إلى الصحراء، نعيد فيها ونرجع ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم عليه السلام حيثذ ﴿نَظْرَةً فِي﴾ دفتر ﴿النُّجُومِ﴾ [الصافات: 88] وهم كانوا يعملون بالأحكام النجومية معتقدون لها، وهو الله مشهور بضبطها.

﴿فَقَالَ إِنِّي﴾ اليوم ﴿سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] الآن، أو سأسقم عن قريب بالطاعون، وهم قد يفرون من المطعون فرارهم من الأسد.

﴿فَقُولُوا عَنْهُ﴾ وانصرفوا من عنده بعدما سمعوا منه القول الموحش ﴿مُذْبِرِينَ﴾ [الصافات: 90] رهباً وروعاً، فخرجوا من الغداة إلى الصحراء، ولم يخرج الله معهم.

ثم لما بقي الأصنام خالياً عن الخدام، وقد طبخ عندها أنواع من الطعام ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال وانصرف الله ﴿إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ﴾ أولاً على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: 91] أيها المعبودون من هذه الأطعمة المطبوخة المهيأة.

ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ [الصافات: 92] أي: ما عرض ولحق لكم، لا تتكلمون معي أيتها الآلهة المستحقون للعبادة والرجوع في المهمات ١٩.

وبعدما استهزأ مع هؤلاء الأصنام الصم البكم الجامدين بما استهزأ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ضربهم ﴿ضَرْبًا بِلَيْمِينَ﴾ [الصافات: 93] أي: بكمال القوة والغلظة، فكسرها تكسيراً، وفتت أجزاءها تفتيتاً.

ثم لما أخبروا بانكسار أصنامهم وانفتاتها حين كانوا في الصحراء في معييدهم، ظنوا بأجمعهم، بل جزموا أنه ما فعل هذا بالهتهم إلا إبراهيم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ عازمين جازمين على انتقامه ومقتة ﴿يَزِفُونَ﴾ [الصافات: 94] أي: يسرعون ويعدون

ويتحIRON ويتبخترون.

ثم لما وصلوا إليه حصروا عن التكلم معه من غاية غيظهم ونهاية زفرتهم؛ لسبقهم ^{الظلمة} بالتكلم حيث ﴿قَالَ﴾ مقررًا عليهم: ﴿أَتَغْبُدُونَ﴾ أيها الجاهلون الضالون ﴿مَا تَتَّبِعُونَ﴾ [الصافات: 95] وتصنعون بأيديكم، وتعتقدونه إلهًا خالقًا موجدًا، مظهرًا لكم من كتم العدم، وتعبدونه ظلمًا وزورًا، فمن أين يتأتى لهؤلاء الجمادات العاطلة لوازم الخلق والإيجاد والإظهار، أفلا تعقلون.

بل ﴿وَاللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالالوهية والربوبية ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] أي: جميع أعمالكم وأفعالكم التي صدرت عنكم، ومن جملتها: صنعكم ونحتكم للأصنام والأوثان.

ومن هذا ظهر أن جميع أفعال العباد مثل ذواتهم مستندة إلى الله أولاً وبالذات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

ثم لما سمعوا منه ^{الظلمة} ما سمعوا، انصرفوا عن مقاولته ومكالمته، وهموا العزم إلى قتله.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم حين كانوا متشاورين في كيفية قتله بعدما أقر رأيهم عليه: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 97] أي: في النار المسعرة؛ حتى تتقموا عن آلهتكم، فبنوا حائطًا من الحجر سمكه ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وملأوه من الحطب، وأوقدوا فيه نارا، فنفخوا فيها بالمنافع حتى تسمرت، ثم طرحوه بالمنجنيق فيها.

وبالجملة: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ﴾ وقصدوا له ﴿كَيْدًا﴾ ليستقموا عنه مستعلين عليه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: 98] المقهورين، الخاسرين، الخائين عما فعلوا معه عناية مئة إياه وفضلاً وامتناناً عليه، حيث جعلناها له بردًا وسلامًا وروحًا وريحانًا، فانقلبوا بعدما رأوا حاله في النار على هذا الوجه صاغرين محزونين، فجعلناهم الأسفلين.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِحُلُمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِلَيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكُونُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

وَقَدِّتَهُ أَنْ يَكْبَرَهُمْ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدِّتَهُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ [الصافات: 99-110].

وبعد ما خرج الخليل - صلوات الرحمن عليه وسلامه - منها اختار الجلاء والخروج من بينهم بوحى الله إياه وإلهامه ﴿و﴾ لهذا ﴿قَالَ﴾ حين خروجه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ وإلى كنف حفظه وجواره وسعة رحمته ﴿سَيَهْدِين﴾ [الصافات: 99] بلطفه إلى منزل يمكنني التوجه فيه إليه ويطمئن فيه قلبي، فذهب إلى الشام بإلهام الله إياه، وتوطن في الأرض المقدسة.

وبعدما توطن فيها ناجى مع الله، فطلب منه سبحانه الولد المحيي لاسمه، فقال: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على أنواع النعم والكرامات ﴿هَبْ لِي﴾ ولدا صالحا مرضيا لك مقبولا عندك، معدودا ﴿مِنْ﴾ عبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 100] الموفقين من عندك على الصلاح والفوز بالفلاح.

وبعدما تضرع نحونا راجيا من رحمتنا ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ﴾ هو إسماعيل عليه السلام ﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101] ذو حلم كامل، وتصبر تام على متاعب العبودية وشدائد الاختبارات الإلهية.

ثم لما ولد له إسماعيل عليه السلام، ورباه إلى أن ترقى من الطفولية، وظهر منه الرشد الفطري والفطنة الجبلية، إلى أن بلغ سبع سنين أو ثلاث عشرة، هي أول الحلم وعنفوان الشباب.

وبالجملة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ للحوائج والمهمات المتعلقة لأمر المعاش، وصار يذهب ويجيء مع أبيه إلى الاحتطاب وسائر الأشغال، وكان أبوه يتتصر به في الأمور ويستظهر، وكان مشفقاً له، رحيماً عليه بحيث لا يفارقه أصلاً من كمال عطفه وتحنته.

ثم لما بلغ عليه السلام في عطف ولده وارتباط قلبه به مع أنه متمكن في مقام الخلّة مع ربه، غار عليه سبحانه فاختر خلته، حتى رأى في المنام بإلقاء الله في متخيلته أن الله يأمره بذنب ولده إظهاراً لكمال خلته، واصطبار ولده على البلاء، وإظهار حلمه عند المصيبة، فانتبه عن منامه هولاً من الواقعة الهائلة، فخيّلها من أضغاث الأحلام،

فاستغفر ربه وتعوذ من الشيطان، ثم نام فرأى أيضًا كذلك، ثم استيقظ كذلك خائفًا مرعوبًا، ثم استغفر ونام، فرأى ثالثًا مثلما رأى، فتفطن بنور النبوة أنه من الاختبارات الإلهية.

فأخذ بامثال المأمور خائفًا من غيرة الله وكمال حميته وجلاله، كيف يطيق أحد أن يتخذ سواء محبوبًا، سيما من اختار الله لخلته واصطفاه لمحبه، فأمر ابنه بأن يأخذ الجبل والسكين؛ ليذهب إلى شعب الجبل للاحتطاب كما هو عادتهما، فذهبا وقد اشتعل في صدره نار المحبة والخلعة الإلهية، فشرع يظهر رؤياه لابنه ليختبره كيف هو. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ ناداه وصغره تحنًا وعطفًا: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ بأمر الله إياي، تقريبًا مني إليه سبحانه، وهديًا نحوه ﴿فَانظُرْ﴾ يا بني وتأمل ﴿مَاذَا تَرَى﴾⁽¹⁾

(1) لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلاً لقربان الحق، وفداء كشف جماله، وذلك أيضًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، ففار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليين شيء من الحدثان، قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقبل له أذبحه فإنه لا يصلح للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يفرح بسواه، فابتلي بذبحه، ثم لما سلم وقام مقام الاستقامة وأتبع الأمر فداء بذبح عظيم، وقال البغوي: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني المشي معه إلى الجبل. وقال مجاهد عن ابن عباس: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم والمعنى: بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله. قال الكلبي: يعني العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى، واختلفوا في سنه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهرى، والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وقالوا: كانت هذه القصة بالشام، وروي عن سعيد بن جبير قال: أرى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمعنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش، ذبحه وسار به مسيرة شهر في راحة واحدة وطويت له الأودية والجبال، وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن البصري، ومجاهد، والريبع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهي رواية عطاء بن أبي رباح، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس، قال: المفدى إسماعيل، وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، ومن ذهب إلى أن اللبيح إسحاق احتج من القرآن بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِقَلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فلما بلغ معه

أي: أي أمر تفكر وتفتي في هذه الواقعة الهائلة أتصبر على بلاء الله أم لا؟
وبعد ما سمع ابنه ما سمع من الرؤيا ﴿قَالَ﴾ معتصمًا بحبل التوفيق، راضيًا بما

السعي ﴿(الصافات-101) أمره بذبح من بشره به، وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ (هود-71) ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين﴾ (الصافات-112) دل على أن المذبوح غيره، وأيضًا قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (هود-71) فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه، قال القرطبي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلا كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق، ومن الدليل عليه: أن قرني الكباش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، قال الشعبي: رأيت قرني الكباش منوطين بالكعبة، وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكباش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، قد وحش، يعني يس، قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صبيح أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، وأما قصة الذبح قال السدي: لما دعا إبراهيم فقال: رب هب لي من الصالحين، وبشر به، قال: هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذكرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بذبح ابنه، فقال عند ذلك، لإسحاق: انطلق فقرب قربانًا لله تعالى فأخذ سكينًا وحبلًا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر﴾ وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقبل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرمانه، أمر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له: إن الله يأمرك بذيح ابنك هذا، فلما أصبح روي في نفسه أي: فكر من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عز وجل، فمن ثم سمي يوم عرفة، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متواليات، فلما يقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ترى﴾ بضم التاء وكسر الراء -ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى، وعزيمته على طاعته، وقرأ العامة بفتح التاء والراء إلا أبا عمرو فإنه يميل الراء. «تفسير البغوي» (46/7. 48).

جرى عليه من قضاء الله مسلماً نحوه، مستقبلاً منادياً لأبيه لينبئ عن كمال إطاعته له وانقياده لحكم ربه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ من قبل الحق، فاذبحني في سبيل الله تقرباً منك نحوه، وطلباً لمرضاته، ولا تلتفت إلى لوازم الأبوة والبنوة، وكن أنت صابراً لبلاء الله بذبح ولدك بيدك بإذنه وفي سبيله ﴿سَتَجِدُنِي﴾ أيضاً ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بأن اصبر على بلائه الذي هو قتل أبي إياي بيده ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102] ⁽¹⁾ المتمكنين على تحمل الشدائد والمصيبات الآتية من قبل الحق.

وبعدما تشاورا وتقاولا، فوُضِيَ الأمر إليه سبحانه، وانقادا لحكمه، ورضيا بقضائه طوعاً ورضية ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: سلماً واستسلماً؛ أي: كل منهما أمره إلى ربه ووصلا الموقف والمنحر، توجه الخليل نحو الحق ناوياً التقرب إليه سبحانه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] ⁽²⁾ أي: صرع ابنه على شقه الأيمن أمثالاً لأمر ربه مثل صرع البهائم

(1) قال له ابنه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني غد الحبل والمدينة ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. «تفسير البغوي» (48/7).

(2) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على الأرض. قال ابن عباس: اضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه: يا أبت اشد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا يتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرا عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن أيضاً يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك السكين، ويروى أنه كان يجر الشفرة في حلقه فلا تقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر، كل ذلك لا تستطيع، قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي على جيني فلأنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين ونودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أقتن عند هذا آل إبراهيم لا أقتن منهم أحداً أبداً، فتمثل له الشيطان رجلاً وأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدريين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به

حال الذبح، بعدما شدَّ بالحبل يده ورجله، فأخذ الشفرة فأمرها على حلقه، فلم تمض ولم تعمل، فأخذ حجرًا المحدث فأحدها، ثم أمرها، ولم تمض أيضًا، وهكذا فعل مرارًا لم تعمل شيئًا فتحير في أمره، قال له ابنه حيثئذ: يا أبت أكبني على وجهي فاذبحني من القفا؛ لئلا يمنعك من ذبحي رؤيتك وجهي ففعل كذلك فلم تمض.

﴿و﴾ بعدما جربناهما ووجدناهما على كمال التصبر والرضا بما جرى عليهما من القضاء ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ من مقام عظيم جودنا إياه ولطفنا ﴿أَنْ﴾ أي: بأن قلنا له مناديا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: 104] المختص بخلتنا الراضي بمصيبتنا، قد صدقت الرؤيا وامثلت بالمأمور، ورضيت بذبح ولدك لرضانا، واختبرناك به فوجدناك متمكنًا على مرتبة الخلقة والتوحيد، فقد أتيت مخلصًا ما طلبنا منك، كان لك من الفضل والعطاء منًا جزاء لفعلك ما لم يكن لأحد من بني نوعك؛ لإخلاصك في أمرك وصحة عزيمتك وخلوص طويتك في نيتك.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير لعباده بمقتضى عظيم جودنا: ﴿قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكُ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم ونجيناه من الكرب العظيم ﴿نَجْرِي﴾ جميع ﴿الْمُخْسِنِينَ﴾ [الصافات: 105] المخلصين في حسناتهم ونياتهم، في

يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إنني لا أرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام فقال: إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئًا مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى، وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله ﷻ قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (تفسير البغوي) (48/7 - 49).

جميع أعمالهم وحالاتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنْ هَذَا﴾ المأمور لإبراهيم الأواه الحليم من ذبح ولده في طريق الخلّة مع ربه ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: 106] الظاهر صغوبته وشدته على عموم المكلفين.

وبعدما عزم عليه بالعزيمة الخالصة الصحيحة، وأقدم على امثاله عن محض الاعتقاد وصميم الفؤاد إلى حيث لو لم نمنع مضاء شفرته، مع أنه بالغ في إمرارها بقوة تامة، وأحدها مراراً لذبحه ألبته، فمنعناها بعدما ظهر إخلاصه لدينا.

﴿و﴾ بعدما منعنا مضاء شفرته ﴿فَدَيْتَاهُ﴾ أي: الذبح الذي هو ابته ﴿بِذْبَح﴾ أي: بما يذبح فيه فيتم تقربه إلينا، وينال من لدنا ما نعدّ له من الثواب والجزاء ﴿عَظِيم﴾ [الصافات: 107] ⁽¹⁾ أي: عظيم القدر؛ إذ ما يفديه الحقّ لنيه أعظم مما يفديه العباد.

قيل: لما سمع إبراهيم نداء الهاتف، التفت فإذا هو جبريل ^(عليه السلام)، ومعه كبش أملح أقرن، فقال له: هذا فداء ابنتك بعثه الله إليك، فاذبحه دونه، وهذا قد رعى في الجنة أربعين خريفاً لتلك المصلحة، فأخذ إبراهيم الكبش، فأتى به المنحر من منى فذبحه عنده، وفاز بمبتغاه من الله ما فاز عاجلاً وآجلاً، مما لا مجال للعبارة والإشارة إليه

(1) ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ الراو في ﴿ونادينا﴾ مقحمة صلة، مجازة: نادينا كقوله: ﴿واجتمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه﴾ (يوسف-15) أي: أوحينا إليه، فتودي من الجبل: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ تم الكلام هاهنا ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُخْشِينَ﴾ والمعنى: إنا كما عفونا إبراهيم عن ذبح ولده نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه. ﴿إِنْ هَذَا لَهِوَ الْبَلَاءِ الْمُبِينُ﴾ الاختيار الظاهر حيث اختبره بذبح ابنه. وقال مقاتل: البلاء هاهنا: النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش، فإن قيل: كيف قال: صدقت الرؤيا، وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟ قيل: أجعله مصداقاً لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا. وقيل: [كان قد] رأى في النوم معاجلة الذبح ولم ير إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، فلذلك قال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنتك فاذبحه دونه، فكبر جبريل، وكبر الكبش، وكبر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه، قال أكثر المفسرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفاً، ودوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قره ابن آدم هابيل، قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيماً. قال مجاهد: سماء عظيماً لأنه مقبل، وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله. وقيل: عظيم في الشخص. وقيل: في الثواب. «تفسير البغوي» (50/7).

سبيلاً.

﴿و﴾ من جملة ما جزينا إبراهيم عاجلاً: إن من كمال خلقتنا معه ﴿تَرْكْنَا عَلَيْهِ﴾ وأبقينا له في الآخرين؛ أي: في الأمم الذين يلون ويأتون بعده إلى قيام الساعة ثناء حسناً وذكرًا جميلاً، حيث يقولون دائماً ﴿فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ﴾ [الصافات: 108-109] وترحيباً منا وبركات من الله، ورحمة نازلة دائماً مستمرة ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109].

ثم قال سبحانه حقاً للمؤمنين: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 110] إن أحسنوا وأخلصوا في نياتهم وحسناتهم.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١١ ﴿وَنَشْرَحُهُ بِأَمْسَحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١١٢ ﴿وَتَرْكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ١١٣ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ١١٤ ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ١١٥ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ١١٦ ﴿وَأَلَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ ١١٧ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١١٨ ﴿وَتَرْكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ١١٩ ﴿سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ١٢٠ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٢١ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٢ [الصافات: 111-122].

وكيف لا نجزي خليلنا؟ ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ خُلَص ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 111] الموحدين الموقنين بذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وأسمائنا، واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا. وبعدما ابتليناه أولاً بذبح الولد، وفديناه عن ولده عناية منا إياه وإلى ولده ﴿وَنَشْرَحُهُ﴾ بولد آخر مسمى ﴿إِسْحَاقَ﴾ وجعلناه ﴿نَبِيًّا﴾ من الأنبياء، معدوداً ﴿مِنْ﴾ زمرة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112] لمرتبة الكشف واليقين.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿بَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: كثرتنا الخير والبركة على إبراهيم ﴿و﴾ كذا ﴿عَلَى﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ كثرتنا نسلهما إلى أن جعلنا ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في الأعمال والأخلاق والأحوال، ذو نفع كثير على عباد الله وفقراء سبيله ﴿وَوَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: تارك لحظوظ نفسه من الدنيا ﴿مُبِينٌ﴾ [الصافات: 113] ظاهر في الترك، مبالغ فيه

إلى حيث يمنع عنها ضرورتها أيضًا، منجذبًا نحو عالم اللاهوت، منخلًا عن لوازم الناسوت، مائلًا نحو الحق بجميع قواه وجوارحه، طالبًا الفناء فيه والبقاء ببقائه، ومنهم النبي ﷺ والوصي - كرم الله وجهه - وابناه وأولادهما بطنًا بعد بطن سلام الله عليهم أجمعين؛ حيث لا يلتفتون إلى حطام الدنيا ومزخرفاتها، إلا مقدار سدّ جوعة ولبس خرقه خشن.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا الْمَكْرَمِينَ الْمُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِنَا: مُوسَى وَهَارُونَ ﴿وَلَقَدْ مَتَّأ﴾﴾
أيضًا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 114] أخيه مئة عظيمة.

﴿وَمِن ذَٰلِكَ أَنَا ﴿نَجِّنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ أَي: مَنْ آمَنَ لهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مِنَ الْكَذِبِ الْعَظِيمِ﴾﴾ [الصافات: 115] الذي هو غلبة فرعون وغرق اليم.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أَي: هُمَا وَقَوْمُهُمَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: 116] عليهم بعدما صاروا مغلوبين منهم.

﴿وَمِن بَعْدِهَا صِيرْنَاهُمْ غَالِبِينَ ﴿آتَيْنَاهُمَا﴾ أَي: مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الْكِتَابَ الْمُنَشِّينَ﴾﴾ [الصافات: 117] وهو: التوراة الذي هو آيّن الكتب وأوضحها في ضبط الأحكام الإلهية المتعلقة بنظام الظاهر، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ أَيضًا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: 118] الموصل إلى الحق اليقين في مراتب التوحيد.

﴿وَمِن كَمَالِ تَكْرِيمِنَا إِيَّاهُمَا ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ أَي: أَبْقَيْنَا ذِكْرَهُمَا بِالْخَيْرِ ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾﴾ [الصافات: 119] اللاحقين لهما من الأمم؛ حيث يقولون في حقهما عند ذكرهما: ﴿سَلَامٌ﴾ مِنْ اللَّهِ وَتَحِيَّةٌ مِنَّا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 120] وذلك من جملة امتناننا عليهما وتكريمنا إياهما إنّنا من كمال جودنا ولطفنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 121] المحسنين في حسناتهم وجميع حالاتهم.

وكيف لا نجزيهما خير الجزاء وأحسنه؟ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 122] الموقنين بتوحيدها، المصدقين لاستقلالنا في ملكنا وملكوتنا.

﴿وَلَئِنْ يَدْعُوا إِلَىٰ نَارِ الْإِيمَانِ لَيَسْأَلْنَهُمْ أَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ الْآلَاءِ ﴿١٢٦﴾﴾ فَكُفُّوا فَمَنِّكُمْ لِمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ لَا عِبَادَ إِلَّا لِلْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ وَتَرَكْنَا طَائِفًا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

﴿۱۳۰﴾ إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿۱۳۱﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۳۲﴾ [الصافات: 123-132].

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ ابن ياسين من أولاد هارون أخي موسى ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 123] من عندنا المؤيدين بوحينا وإلهامنا.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة بالظلم على عباد الله والخروج عن حدوده ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: 124] وتحذرون عن بطش الله أيها المفسدون المفرطون في الإشراك بالله والدعوة إلى غير الله.

﴿أَتَدْعُونَ﴾ أيها الجاهلون ﴿بِغُلَا﴾ أي: صنما مسمى به في المهمات والملمات ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: 125] أي: تتركون الدعوة والرجوع إلى الحق الحقيقي بالإطاعة والانقياد، المستحق للعبودية والرجوع إليه في الخطوب.

﴿اللَّهُ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنصب على البدل، وكذلك ﴿رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الصافات: 126] برفع البائين ونصبهما على الخبر والبدل على القراءتين؛ أي: مربيكم ومظهركم في كتم العدم وأسلافكم أيضا، فتعدلون عن عبادته، وتعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم ظلما وزورا.

وبعدما سمعوا منه دعوته إلى التوحيد، ورفض عبادة آلهتهم، وقدحه إياها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبا، ولم يلتفتوا إلى قوله ودعوته بل طردوه، وعزموا أن يقتلوه ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بشؤم تكذيبهم رسول الله، وإيائهم عن دعوته إلى التوحيد، واتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة دون الله، شركاء معه في استحقاق العبادة والرجوع إليه في الوقائع ﴿لَمُخْضَرُونَ﴾ [الصافات: 127] في العذاب الأليم، مؤبدون في نار الجحيم أبد الآباد.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 128] منهم، المبادرين إلى الإيمان بعدما سمعوا دعوة الرسل بلا ميل منهم إلى الإنكار والتكذيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إياس أيضا ذكرا جميلا ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 129] حيث يقولون حين ثنائهم عليه وتكريمهم إياه: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 130] وهو لغة في إياس؛ كجبريل في جبرائيل، وسينين في سينا.

﴿إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 131] المستحفظين على أحكامنا

ومقتضيات أوامرنا ونواهيها.

وكيف لا نجزيه أحسن الجزاء ١٩ ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 132] المتمكنين في مقر التوحيد واليقين، الفائزين بمقام الكشف والشهود.

﴿وَإِنْ لُّوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٣ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٣٤ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ١٣٥ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ١٣٦ ﴿وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيْهِمْ تُصْبِحِينَ﴾ ١٣٧ ﴿وَيَالَيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٣٨ ﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٩ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ١٤٠ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ١٤١ ﴿فَالنَّقْمَةُ لِلْعُوثِ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ١٤٢ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ١٤٣ ﴿لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ﴾ ١٤٤ ﴿إِنْ يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾ ١٤٥ [الصافات: 133-144].

﴿وَإِنْ لُّوطًا﴾ أيضًا ﴿لِّمَنِ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 133] الفائزين بمرتبة الحق اليقين.

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين المؤمنين وقت ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ أي: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي: أولاده وأهل بيته ﴿أَجْمَعِينَ﴾ * ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ [الصافات: 134-135] وهي: امرأته بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: 135] الهالكين بالعذاب المنزل عليهم بشؤم فعلتهم الشنيعة، المتناهية في القباحة والشناعة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما نجيناه وأهله ﴿دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ [الصافات: 136] من قومه وأهلكناهم أجمعين.

﴿وَلَا تَكْذِبُوا﴾ يا أهل مكة ﴿لَهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أطلالهم ومنازلهم المنقلبة بشؤم فعلتهم وقت ترحالكم إلى الشام، وهي على متن الدرب ﴿تُصْبِحِينَ﴾ [الصافات: 137] إن كنتم سائرين في أسفاركم في الليالي، ﴿وَيَالَيْلُ﴾ إن كنتم سائرين في أيامكم، يعني: إن سرتهم ليلاً تصبحون عندها، وإن سرتهم نهارًا تمسون دونها.

وبالجملة: هي على طريقكم أيها المجبولون على العبرة والعظة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 138] وتفكرون فيما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسل الله ليعتبروا منهم ومن أطلالهم ورسومهم المندرسة المنكوسة، ولا تفعلوا مثل أفعالهم.

﴿وَإِنْ يُونس﴾⁽¹⁾ ابن متى أيضا. ﴿لَمَنَ المرسلين﴾ [الصافات: 139] من عندنا،

(1) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُونس لَمَنَ المرسلين﴾ إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ فيه مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُونس لَمَنَ المرسلين﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانس، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها، ثم إن إلياس ستم ضيق البيوت فلهق بالجبال، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت في أثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيى لها ولدها، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس بن متى بدعوة إلياس عليه السلام، وأرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدم بيانه في سورة "يونس" ومضى في "الأنبياء" قصة يونس في خروجه مغاضبا، واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده، قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: ألتمس حذاء، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر، قال: فتساهموا، قال: فسهم، فجاء الحوت يصبص بذنبه، فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا، إنما جعلناك له حززا ومسجدا، قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبله، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى، حدثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوة، وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل إليهم إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إليهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلم القوم العذاب وغشيهم - كما قال الله تعالى في تنزيله - تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعدا فكذب وعدي، فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جربوا عليه الكذب، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد مضى هذا في ﴿الأنبياء﴾ وهو الصحيح على ما يأتي عند قول تعالى: ﴿وَأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات: 147] ولم ينصف يونس، لأنه اسم أعجمي ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت في أول الياء، لأنه ليس في الأفعال يفعل كما أنك إذا سميت بيعفر صرفته، وإن سميت بيعفر لم تصرفه. الثانية - قوله تعالى: ﴿إِذَا أبق﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد، ومنه غلام أبق.

وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق، لأنه خرج بغير أمر الله ﷻ مستترا من الناس. ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أي المملوء. ﴿والفلك﴾ يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدم. قال

الترمذي الحكيم: سماه أبقا لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عندما اشتدت عليه العزيمة من الملك حسب ما تقدم بيانه في [الأنبياء]، وآثر هواه لزمه اسم الأبق، وكانت عزيمة الملك في أمر الله لا في أمر نفسه، ويحفظ حق الله لا يحفظ نفسه، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه أبقا ومليما.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فساهم﴾ قل المبرد: فقارع قال: وأصله من السهام التي تجال. ﴿فكان من المدحضين﴾ قال: من المغلوبين، قال القراء: دحضت حجته وأدحضها الله، وأصله من الزلق، الرابعة: قوله تعالى: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ أي أتى بما يلام عليه، فأما المعلوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أو لم يستحق، وقيل: المليم المبعيب، يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معييا بذلك العمل ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ قال الكسائي: لم تكسر ﴿أن﴾ لدخول اللام، لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال، إنما اللام في جواب لولا. ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي من المصلين للبث ف بطنه إلى يوم يبعثون " أي عقوبة له، أي يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة، واختلف كم أقام في بطن الحوت، فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوما، الضحال: عشرين يوما، عطاء: سبعة أيام، مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة، والله أعلم. الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله تعالى ذكره - حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخذش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر قال: فسبح وهو في بطن الحوت قال: فسمعت الملائكة تسيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وهو سقيم﴾ وكان سقمه الذي وصفه به الله - تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم، وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفار قهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يغير منه شيء فأسلموا، ذكره الزمخشري في تفسيره، وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: أنه سئل عن الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك، قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: لا تفضلوني على يونس بن متى فقيل له: ما وجه الدليل في هذا الخير؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديننا، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال لا يتبع بها اثنين، لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي علي، فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه ضريف الأقلام، ومنا جاء ربه بما ناجاه به، وأوحى

المتحملين لأعباء رسالتنا.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب من نزول العذاب الموعود على قومه حين دعاهم إلى الإيمان والتوبة، فلم يجيبوا له ولم يقبلوا منه دعوته، فدعا عليهم، وبعدما قرب حلول العذاب عليهم، خرج من بينهم هارباً، حتى لا يلحقه ما

إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في، بطن الحوت في ظلمة البحر. السادسة: ذكر الطبري: أن يونس عليه السلام لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم، فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين، فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البعد، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت، وروى أنه لما ركب في السفينة بقنع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاعتهم ريح كادت السفينة أن تغرق، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا، فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح، ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فارتفعت الريح، قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم! هذا من أجلى قلوبكم طرحتوني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع، قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر، قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحوني فمن أجلى أوتيتهم، فقالوا لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى، ففعلوا فوقع: على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحوني فمن أجلى أوتيتهم، فذلك قول الله عز وجل: ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ أي وقع السهم عليه، فانطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالبقمه الحوت، فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء، فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة ﴿فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿وقد تقدم ويأتى، ففي هذا من الفقه أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في آل عمران، قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن: الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهم خرج سهمها خرج بها معه، الثاني: أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له فأقرع بينهم، فاعتق اثنين وأرق أربعة. الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال: «أذهبا وتوخيا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه». فهذه ثلاثة مواطن، وهى القسم في النكاح والعتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال. تفسير القرطبي - (15/221 - 125).

يلحقهم، فلما وصل البحر ركب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: 140] المملوء من الناس والأحمال والأثقال، فاحتبست السفينة على أهلها فاضطربوا، فقال البحارون: إن في السفينة عبداً أبقأ، فبادروا إلى القرعة على ما هو عادتهم في أمثاله، وبعد خروج القرعة باسم واحد من أهلها، طرحوه في الماء فأخذت في الجري والذهاب. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع حيثذا أهلها، فخرجت القرعة باسم يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 141] المغلوبين المفرقين بمقتضى القرعة.

وبعدما خرجت القرعة باسمه، تظن أنه من الاختبارات الإلهية، فقال: أنا العبد الأبق، فرمى نفسه في الماء خوفاً من غضب الله وكمال غيرته وحميته، وتوطئاً على مقتضى قضاء الله، مفوضاً أمره إليه سبحانه.

وبعدما وصل إلى جوف الماء ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ بإلهام الله إياه على الفور، وابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142] نفسه، نادم على فعله الذي فعله بلا نزول وحي من ربه؛ لذلك أخذ حيثذا سبوح له سبحانه عما لا يليق بشأنه.

وبالجملة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: 143] المنكشفين بوحدة الحق، وتنزهه عن سمات الكثرة مطلقاً.

﴿لَلْبَيْتِ﴾ واستقر ﴿فِي بَطْنِهِ﴾ أي: بطن الحوت ﴿إِلَى يَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الصافات: 144] وصار له بطنه كالقبر لسائر الأموات، وبالجملة: لا ينجو منه أبداً.

﴿فَبَلَغَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ١٤٥ ﴿وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ١٤٦ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ دَاقَةِ آفِ أَوْزَيْدُونَ﴾ ١٤٧ ﴿فَنَامُوا فَتَنَقَّطَهُمُ الْإِنِّجِينُ﴾ ١٤٨ ﴿فَاسْتَفْتَاهُ رَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ١٤٩ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ١٥٠ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ مِن قَبْلُ مِمَّا هُمْ يَرْثُونَ﴾ ١٥١ ﴿وَلَدَّ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٥٢ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ١٥٣ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٥٤ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٥٥ ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ ١٥٦ [الصافات: 145-156].

ولما كان من أهل التسبيح والتقديس، المنكشفين بوحدة واستقلالنا في شئوننا وتطوراتنا ﴿فَبَلَغَهُ﴾ أي: طرحنا يونس ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الساحل الخالي عن شيء يغطيه ويظله من شجر وغيرها عناية منا إياه ونجاة له.

وذلك بأن ألهمنا الحوت أولاً حين سقوطه في البحر بالتقامه، فالتقمه بلا لحوق ضرر له من الماء، ثم ألهمناه أن يخرج رأسه من الماء حتى يتنفس في بطنه، إلى أن بلغ الساحل.

قيل: كان في بطنه يوماً أو بعض يوم، وقيل: ثلاثة أيام، أو سبعة وعشرين، أو أربعين.

فلما بلغ الساحل أخرجه من بطنه، ولفظه الموج إلى الساحل العاري عن الظل، والشمس في غاية الحرارة ﴿وَهُوَ﴾ حيثن ﴿مَقِيمٌ﴾ [الصافات: 145] ضعيف، صار بدنه كبذن الطفل حين ولد.

﴿وَوَ﴾ بعدما لم يكن له متعهد، وليس هناك مظلة ولا شيء يحفظه من الذباب ﴿أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ في الحال من كمال رحمتنا وعطفنا معه ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَّفْطِينٍ﴾ [الصافات: 146] وهي: شجرة تنبسط على وجه الأرض، ولها أوراق عظام بلا ساق تقوم عليه - قيل: هي الدباء - فغطيناها بأوراقها وربيناها بظلها؛ إذ ظلها من أكرم الأظلال وأحسنها هواء، وألهمنا أيضاً إلى وعلة - وهي المعز الوحشي - حتى جاءت عنده صباحاً ومساءً، وهو يشرب لبنها، إلى أن قوي وقوم مزاجه على الوجه الذي كان.

﴿وَوَ﴾ بعدما ربيناها كذلك ﴿أَزْسلْنَاهُ﴾ مرة أخرى ﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: 147] أي: الناظرون في بادئ النظر؛ يعني: حكم الناظر عليهم على التخمين والظن، فيقول: إنهم مائة ألف أو أكثر، وهؤلاء هم الذين قد هرب منهم أولاً، وهم أصحاب «نينوى» هي قرية من قرى الموصل.

﴿فَأَمَّنُوا لَهُ﴾ وقبلوا منه دعوته بعدما أرسل إليهم ثانياً ﴿فَمَثَّغْنَاهُمْ﴾ مؤمنين مصدقين موحدين ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: 148] أي: إلى انقضاء آجالهم.

ثم لما أثبت مشركو مكة - خذلهم الله - الله المتزه عن الأنداد والأشباه ولذا، بل أوضع الأولاد وأدناها، وهي الأنثى، ونسبوا الملائكة الذين هم من أشرف المخلوقات المتزهون عن لوازم الأجسام مطلقاً إلى الأنوثة، التي هي بمراحل عنها، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، ولم يكن له ابن، وتمادوا على هذا إلى حيث اتخذوها مذهباً، وبالغوا في ترويجه.

رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده، حيث أمر حبيبه ﷺ بالاستفتاء والاستفسار عن قولهم هذا، ونسبتهم هذه فقال: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ وسلمهم؛ أي: كفار مكة يا أكمل الرسل، واستخبرهم على سبيل التويخ والتفريع ﴿الرَّبِّكَ﴾ أي: أيشتون لربك الواحد

الأحد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] ﴿الْبَنَاتُ﴾ أي: أوضع الأولاد وأردأها ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: لأنفسهم ﴿الْبَنُونَ﴾ [الصافات: 149] تعالى سبحانه عما يقولون.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: اتظنون وتعتقدون أننا خلقنا الملائكة الذين هم من سدة سدتنا السنية، وخدمة عتبتنا العلية ﴿إِنَّا وَهُمْ﴾ حين خلقنا إياهم ﴿شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: 150] حاضرون، يشهدون أنوثتهم ويبصرونها، مع أنها لا مجال للعقل إلى الاطلاع بأنوثتهم، ولم ينقل منا أحد من الرسل والأنبياء، مع أنه لا سبيل للخواس الآخر إلى دركها سوى البصر، ومن أين يتأتى لهم الحضور حيثذا؟.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والاستبعاد: ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون الموقنون بوحدة الله، ووجوب وجوده، وتقديسه عن لوازم الإمكان مطلقاً ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك الضالون المغمورون في الجهل والطغيان ﴿مِمَّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: 151-152] الواحد الأحد المستغني لذاته عن الأهل والولد، قولاً باطلاً ظلمًا وزورًا ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: 152] فيما يقولون، مقصرون على الكذب المحض بلا مستند عقلي أو نقلي.

﴿أَضْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ أي: اتعتقدون أيها الجاهلون بقدر الله ووحدة ذاته المستغنية عنه مطلق المظاهر والمحال، فكيف عن لوازم الحدوث والإمكان الذي هو أمارات الاستكمال والنقصان، إنه سبحانه مع كمال تعاليه وتقديسه، اصطفى واختار لنفسه البنات المسترذلة الدنية ﴿عَلَى الْبَيْنِ﴾ [الصافات: 153] الذين هم أشرف بالنسبة إليهن، وأكمل خلقًا وخلقًا، وكمالًا وعلماً، ورشدًا ويقينًا؟.

﴿مَا لَكُمْ﴾ وما شأنكم ولحق بكم أيها المفسدون المفرطون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: 154] على الله ما لا يرتضيه العقل، ولا يقتضيه النقل؟.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: 155] ولا تتذكرون أن ذاته سبحانه منزّه عن أشرف الأولاد فكيف عن أردئها؟.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ حجة وبرهان نقلي ﴿ثُبِينُ﴾ [الصافات: 156] واضح في الدلالة على مدعاكم هذا؟.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجِنَّةَ إِنِّي أَنَا مُخْضَرُونَ﴾ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَلَا تَكْرُمُوا لِلْجَنَّةِ﴾ ﴿لَا

أَمَرَ عَلَيْهِ بَقِيَّتَيْنِ ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿٣٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٣٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [الصافات: 157-170].
﴿فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ النازل عليكم من قبل الحق المثبت لدعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: 157].

﴿و﴾ من إفراطهم في حق الله، وجعلهم بكمال ذاته وصفاته وأسمائه ﴿جَعَلُوا﴾ وأثبتوا ﴿بَيِّنَةً﴾ سبحانه ﴿وَبَيِّنَ الْجَنَّةِ﴾ الذين هم مخلوقون من النار ﴿نَسَبًا﴾ أي: نسبة بالمصاهرة، ويزعمون - العياذ بالله - أنه سبحانه تزوج منهم امرأة، فحصلت منها الملائكة ﴿و﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفترين على الله بأمثال هذه المفتريات البعيدة عن جنبه وراء ﴿لَمُخَضَّرُونَ﴾ [الصافات: 158] في العذاب المخلد، والنكال المؤبد بقولهم هذا، ونسبتهم هذه.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتقدس ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 159] به هؤلاء المعاندون الجاهلون.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 160] منهم، وهم الذين ينكشفون بقدر الله، ووحدته ذاته، واستقلاله في وجوب الوجود ولوازم الألوهية والربوبية، بلا شائبة شركة وتوهم مظاهره ولوث إمكان وشين نقصان.

وبعد ما ثبت تنزهه سبحانه من مضمون ما تنسبون بذاته أيها المفترون المفرطون ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المعزولون عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي ﴿و﴾ أيضًا ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 161] من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿مَا أَنْتُمْ﴾ وآلهتكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِقَاتِنِينَ﴾ [الصافات: 162] أي: مفسدين معرضين، صارفين عموم الناس عن عبادته وإطاعته سبحانه بإغوائكم وإغرائكم ضعفة الأنام، وتغريركم إيّاهم بعبادة الأصنام.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 163] أي: الذين حق عليهم القول وجرى عليه حكمه سبحانه، ومضى قضاؤه بأنهم من أصحاب النار وأهل الجحيم، لا بد لهم أن يصلوها ويدخلوها بلا تردد وتخلف، يعني: ما يفيد إضلالكم وإغراؤكم إلا لهؤلاء المحكومين بالنار في أزل الأزال دون المجبولين على فطرة الإسلام والتوحيد. ثم لما اتخذ بعض المشركين الملائكة آلهة، واعتقدوهم بنات الله، وعبدوا لهم

كعبادته سبحانه، ردُّ الله عليهم حاكياً عن اعتراف الملائكة بالعبودية، فقال سبحانه من قبل الملائكة: ﴿وَكَيْفَ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَرْضَى بِمَا افْتَرَى الْمُشْرِكُونَ عَلَيْنَا مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ وَالشَّرْكَةِ فِي الْإِلَوهِيَّةِ؛ إِذْ ﴿مَا مِنَّا﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَجُّهِ نَحْوَ الْحَقِّ ﴿مُغْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] ⁽¹⁾ معين مقدر من عنده سبحانه، لا يسع له أن يتجاوز عنه بلا إذن منه سبحانه، بل يلزم كل منا مقامه لمقدر له من ربه، متوجّهاً إليه سبحانه، منتظراً لأمره وحكمه بلا غفلة وفترة.

﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَخُنُ الضَّافُونَ﴾ [الصافات: 165] على الاستقامة حول عرش الرحمن كصفوف الناس في المساجد، لا يسع لأحد منا أن يتعدى من مكانه مستقبلاً أو مستدبراً ﴿وَإِنَّا لَنَخُنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 166] المترهون المقدسون لله الواحد الأحد الصمد عن توهم الكثرة والشركة مطلقاً، الراسخون المتمكنون في مرتبة التنزيه والتقديس، فكيف يتأتى منا أن نرضى بمفتريات أهل الزيغ والضلال بنا؟! عصمنا الله وعموم عباده عن زيغ الزائغين وضلالهم.

﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أي: قد كان أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال يعني: كفار قريش خذلوا الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الصافات: 167] على سبيل التمني والتحسر تشنيعاً وتعييراً على من مضى من الأمم السالفة: ﴿لَوْ أَنَّ جُنْدَنَا﴾ ونزل علينا ﴿ذِكْرًا﴾ كتاباً ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 168] أي: من جنس كتبهم كتاباً سماوياً منزلاً من الله مثل كتبهم.

﴿لَكُنَّا﴾ نَحْيُثِدُّ ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 169] أخلصنا العبادة له، ولا

(1) أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحددين؛ فإنهم مستغرقون في بحر الذات والصفات، وليس لهم مقام معلوم؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف؛ حيث أفتاهم قهر الجلال والجمال والمعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد. قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة. وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى؛ من تجاوز حده ملك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعة. قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات. وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

نتجاوز عن مقتضى ما جاءنا من عنده في كتابه، ولا نتعدى عن حكمه وحدوده وأحكامه، ولا نهمل عن عظته وتذكيراته، ونعتبر من قصصه وأمثاله، وبالجمله: نتعامل معه أحسن المعاملة لا كمعاملة سائر أصحاب الكتب.

ثم لما نزل عليهم ما هو أفضل الكتب تربية، وأكملها رشدًا، وأشملها حكمًا، وأتمها وأبلغها حكمة وبرهانًا، وأوضحها بيانًا وتبيانًا، فكفروا به، وأنكروا نزوله، وأعرضوا عنه وعن أحكامه، واستهزؤوا بمن أنزل إليه وكذبوا رسالته ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: 170] آجلًا وعاجلاً جزاء ما يفعلون ويستهزئون، ويدوقون وبال ما ينكرون ويعرضون، ألا أنهم هم المفسدون لأنفسهم ولكن لا يشعرون، فسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ قَبُولَ عَنَّهُمْ حَقَّ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَنصَرَّمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْنَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلَ عَنَّهُمْ حَقَّ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَنصَرَّ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: 171-182].

﴿و﴾ كيف لا يعلمون ولا يدوقون العذاب أولئك المسرفون ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ﴾ أي: حقت وثبتت منَّا ﴿كَلِمَتُنَا﴾ المشتملة على الوعد والنصر ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 171] ⁽¹⁾ وهي قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

(1) قال البقلي: سبقت لهم كلمة الحسنى باضطغائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مزادهم بكل ما أرادوا له، أنزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدرت سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات، قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نزه نفسه أن يلحق به ويتزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنزيهه

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الرسل والأنبياء ﴿لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: 72] المقصورون على النصر والغلبة على الأعداء، القاهرون القادرون على من غلبهم وظلمهم واستهزأ معهم عناداً ومكابرة.

وكيف لا يغلبون أولئك الأولياء على الأعداء، إنهم من جندنا وحزينا ﴿وَلَا جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 173] القاهرون على جنود الأعداء وأحزابهم المسلطون عليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مضمون وعدنا على عموم الأولياء من الرسل والأنبياء ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: كفار قريش، واعرض عن محاربتهم ومخاصمتهم ﴿حَتَّى جِئَ﴾ [الصافات: 174] أي: إلى حين حلول العذاب الموعود المعهود من لدنا.

﴿وَأَنْبِئْهُمْ﴾ العذاب إذا نزل عليهم عاجلاً، وهو عذاب يوم بدر ﴿فَسَوْفَ يَنْصَرُونَ﴾ [الصافات: 175] أجله في يوم الجزاء بأضعاف ما لحقهم عاجلاً وآلاً.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا على العذاب الآجل مع نزول العذاب العاجل عليهم يوم بدر ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ الآجل في الجزاء ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: 176] ويقولون: متى هذا؟ بعدما سمعوا فسوف يبصروه آجله زيادة في الجزاء بأضعاف ما لحقهم، أما يستحيون من الله، فيستعجلون عذابه، ولم يتفطنوا مما جرى عليهم عاجلاً، ولا يخافون من نزوله وحلوله بغتة.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب الموعود لهم آجلاً ﴿بِإِسْخَاتِهِمْ﴾ أي: بفناء دارهم، وهذا كناية عن قربهم وإمامه بغتة ﴿فَسَاءَ﴾ ويشس حيثئذ ﴿صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: 177] إذ أصبحوا مفاجئين على أنواع العذاب والنكال، فلم يستعجلون بها أولئك الجاهلون الهالكون في تيه الضلال والطغيان ١٩.

﴿وُ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والطغيان، وبالفوا في العتو والعصيان ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَتَّى جِئَ﴾ [الصافات: 178] أي: حين إمام العذاب الموعود.

﴿وَأَنْبِئْ﴾ إياهم بعدما ألم ونزل ﴿فَسَوْفَ يَنْصَرُونَ﴾ [الصافات: 179] أي: أي

شيء يترتب على إنكارهم، وتكذيبهم يوم الجزاء أولئك الضالون.
 وإنما كرره سبحانه ما كرره تأكيداً ومبالغة في التهديد والتوعيد، تسلياً لحبيبه ﷺ
 فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وتزهت ذاته عن معتقدات أهل التشبيه مطلقاً،
 وما نسبوا إليه سبحانه من أمارات الإمكان وعلامات النقصان، وكيف ينسبون إلى
 ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والقدرة والغلبة والكبرياء والاستقلال التام والاستيلاء العام، المتزهة ذاته
 عن الإحاطة، وصفته عن العَدِّ والإحصاء، تعالى شأنه عن التحديد والتوصيف ﴿عَمَّا
 يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] به أولئك المسرفون المفرطون من إثبات الولد له والإيلاد
 والاستيلاء.

﴿وَسَلَامٌ﴾ من الله وبركاته ﴿عَلَى﴾ عباده ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 181] من
 عنده؛ لتبيين توحيده وتقديسه وتعاليه عن إحاطة مطلق المدارك والعقول.
 ﴿وَالْحَمْدُ﴾ من ألسنة جميع من يتأتى منه الحمد والثناء حالاً ومقالاً ﴿لِلَّهِ﴾
 الواحد الأحد الصمد، المتزه عن اتخاذ الأهل والولد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:
 182] الذين ظهروا من شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته، ورباهم أيضاً على
 حسبها إظهاراً لكمال قدرته وعموم إحاطته.

وعن المرتضى الأكبر المتحقق بمقام التسليم والرضا - كرم الله وجهه - أنه قال:
 من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من
 مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180-182].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بجلال الحق، وكمال كبريائه، واستغنائه عن عموم
 مظاهره ومصنوعاته، واستيلائه على جميع ما ظهر وبطن من الأمور الكائنة والمنعكسة
 من بروق تجلياته حسب أسمائه وصفاته المندرجة في شمس ذاته، أن تلاحظ شئون
 الحق على هياكل الموجودات، وتطالع ظهورها على صحائف الكائنات التي هي
 بالحقيقة كالمرايا لظهور آثار الأسماء والصفات الإلهية، وتتفكر في خلق السفليات
 والعلويات، وتتأمل في كيفية ارتباطاتها ورجوعها إلى الوحدة الحقيقية الحقية، وكيفية
 سريان الوحدة الذاتية عليها بلا حلول واتحاد واتصال وانفصال وحصول وامتنال، وكذا

عن كيفية انبساط أظلال الوجود الإلهي على ذرات الأكوان، وامتداداتها على مرايا الإعدام على سبيل التجدد والتقضي بلا طريان ضد وحلول فترة وانقطاع أصلاً.

ومن تأمل ظهور الحق على الأفاق والأنفس على الوجه الذي تلا، فقد تحقق بعزة الله، وانكشف له وحدته المحتوية على عموم الكثرات بلا توهم كثرة في ذاته المستغني عن التعدد مطلقاً، فحيث ارتفع عن بصر شهوده غير الحق وشئونه، ولا يرى في فضاء وجوده سوى الله موجوداً ومشهوداً، فتمكن حيث في مقام التوحيد، وأخذ في التنزيه والتقديس والتسليم والتكبير والتحميد، قائلاً بلسان استعدادده: ﴿شُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 180-181] المنبهين على مرتبة التوحيد، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 182] آمين.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة ص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وإحاطته وشموله على عموم ما لاح عليه بروق شئونه ولوامع تجلياته الغير المحصورة، أن الحقيقة الحقية المنزهة عن لوث التعينات وشوب الإضافات مطلقاً، لما أراد أن يتجلى لذاته بذاته، ويطالع أسماءه الحسنی وصفاته العليا التي اتصف بها ذاته على التفصيل، حتى ينقلب حضوره شهوداً وعلمه عيناً، تنزل من مرتبة الأحدية المستهلكة دونها الكثرات مطلقاً المتلاشية عنده الإشارات والإضافات رأساً.

فالتفت نحو العدم بعدما أفاض عليه خلعة الاستعداد والقبول، فانعكس فيه من شئون الحق وأشعة أنوار شمس ذاته، ما لا يتناهى أبد الأباد من الصور والآثار الغير المتكررة، فيتراعى أي: هذا النظام المشاهد المحسوس من تلك الآثار والأظلال المنعكسة من شمس الذات، فانبسط عليها بالاستقلال والاستيلاء التام بلا مشاركة ومظاهرة، فيوجد الكل به وله وفيه، ويرجع الكل إليه رجوع الأضواء إلى الشمس والأمواج إلى الماء.

فمن خرج عن رتبة عبوديته بعدما سمع كيفية ظهوره، فقد لحق بالأخسرین أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُخْسِبُونَ﴾ أَنَّهُمْ يُخْسِبُونَ ضُئْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿الكهف: 104-106﴾.

وما ذلك إلا بسبب جهلهم وضلالهم، وخروجهم عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بينهم بالوضع الإلهي، المنبه به على الأنبياء العظام والرسل الكرام إلا من استكبارهم وتغررهم الحاصل لهم بتفجير شيطان أماراتهم عليهم، وتضليله إياهم وتليسه.

لذلك أقسم سبحانه بكتابه المجيد المنزل من عنده، المشتمل على فوائد الكتب السالفة المنزلة من لدنه بأن كفرهم وإنكارهم بتوحيد الله وتصديق رسله وكتبه، إنما نشأ

من استكبارهم في أنفسهم، واستعلائهم على عباد الله عدوانًا وظلمًا، ابتلاء من الله إياهم، وافتتانًا لهم على مقتضى أسمائه المقتضية للإذلال والإضلال، إظهارًا للقدرة الكاملة والحكمة الباعثة على وضع التكاليف المستلزمة للثواب والعقاب والإحسان والخذلان والإنعام والانتقام.

فقال مخاطبًا لحبيبه الذي اختاره لرسالته إلى كافة البرايا بالدعوة العامة والتشريع التام الكامل المكمل، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم المتعلقة لسلوك طريق التوحيد، بعدما تيمن باسمه العظيم الجامع لجميع الأسماء والصفات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه ﷺ بمقتضى عموم أسمائه وصفاته، فأرسله إلى عموم البرايا وكافة الأمم، وختم بيعته أمر التشريع والتكميل ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليهم بجعله وإرساله رحمة للعالمين ﴿الرَّحِيمُ﴾ عليه ﷺ بخلقه وإيجاده على الخلق العظيم.

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقِي ۝٢ كَرَاهَلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَّا ۝٣ وَنَجَّبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۝٤ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٥ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٦﴾ [ص: 1-5].

﴿ص﴾^(١) أيها الصفي، الصافي مشربه عن الأمور المنافية لتوحيد الحق وإيجاده

(١) هذا الحرف من كنوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشف قهر القدم صفات الحديث، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمَام محبته من صحاري البريات، وصفاء بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوا من بحر النبوة، صاحبًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفر الصحر في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشريات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهيين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، ويان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزها عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببيصري؛ حتى تطلع على غيوبة جلال وصالتي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي، ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد

وصرافة وحدته الذاتية، والصدوق الصادق في ادعاء الرسالة والنبوة بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه، والصبور الصابر على متاعب الدعوة والتبليغ وحمل أعباء الرسالة.

﴿وَقَدْ حَقَّ الْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1] والبيان وأنواع الدلائل والبرهان، المنزل من عندنا عليك يا أكمل الرسل؛ لتبين أحكام دين الإسلام، وتحقيق شعائر الإيمان، والتنبيه على مرتبة التوحيد والعرفان المنتهي إلى الكشف والعيان، ما الكفار المنكرون بك ويكتابك ودينك مطلقون بغيث ونقصان في دينك وكتابك يتشبهون به.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عنا وعنك وعن كتابك لا سند لهم أصلاً لا عقلاً ولا نقلاً، بل هم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ كبر وخيلاء عند نفوسهم ﴿وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] خلاف لنا ولك بعيد عن توحيدنا وتصديقك.

وبعدما سمعت حالهم لا تبال بهم وبخلافهم ومرائهم وكبرهم وخيلائهم، اذكر ﴿كَمْ﴾ أي: كثير ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أمثالهم ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ﴾ أهل ﴿قُرُونٍ﴾ مغمورين في الكبر والخيلاء، متمكنين في الخلاف والشقاق أمثالهم ﴿فَنَادَوْا﴾ واستغاثوا متضرعين إلينا، راجين منا عفونا إياهم حين أخذناهم بظلمهم بغتة ﴿وَلَا تَحِثُّنَا فِي الْأَفْثَةِ﴾ [ص: 3] أي: ليس حيثئذ وقت تأخير ونجاة لهم وخلاص، فلم نجبهم لذلك؛ لمضي وقت الاختبار والاعتبار، بل أهلكناهم واستأصلناهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: 44].

﴿وَقَدْ حَقَّ الْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ من شدة شقاقهم وخلافهم ﴿عَجِبُوا﴾ وتعجبوا؛ أي: أهل مكة ﴿أَن جَاءَهُمْ﴾ وأرسل عليهم ﴿مِّنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم وبني نوعهم؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ من كمال تعجبهم وشدة إنكارهم واستبعادهم، وضع الظاهر موضع الضمير تنصيهاً بأنه ما حملهم على هذا القول إلا كفرهم وإنكارهم: ﴿هَذَا﴾ أي: محمد ﷺ فيما أظهره في صورة المعجزة الخارقة للعادة ﴿سَاحِرٌ﴾ يسميه معجزة تغريزاً وتليسياً، وفيما نسبته إلى الوحي والإنزال ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: 4] مبالغ في الكذب

سيد أهل الصحو ﷺ بقوله: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ» ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد.

مستغرق فيه.

ثم لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون فازدحم صناديدهم عند أبي طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وسيدنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء، فأتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ، فأحضره معهم، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال، فلا تمل كل الميل على قومك.

فقال ﷺ: «وماذا يسألون؟».

قالوا له: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، وعلى هذا نعاهد معك عند عمك.

فقال ﷺ: «أعطوني كلمة واحدة، وتملكون بها العرب وتدين بها المعجم؟».

فقال أبو جهل: لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله»⁽¹⁾.

فنفروا من ذلك، وقاموا قائلين على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فمن أتى يسع الإله الواحد للخلق الكثير؟ ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي يطلب هذا المدعي ﴿لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ [ص: 5] أي: عجيب بديع ابتدعه من تلقاء نفسه.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ لِيَأْمُرُوا عَلَى مَا لِهَيْكُمُ لَنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾⁽⁶⁾ مَا مَعَنَا بِهَذَا فِي الْإِلَهَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا كَخَلْقِ⁽⁷⁾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَنْدَرُجُ الْغَاسِقُ أَذْهَبَتْ مِنْ حَزَائِنِ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَنَزُ الْوَهَابِ⁽⁸⁾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْهُمَا فِي الْأَنْبَسِ⁽⁹⁾ جُنْدٌ مَا هُنَا لِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ⁽¹⁰⁾ [ص: 6-11].

﴿و﴾ بعدما تنفروا من قوله، وتعجبوا من طلبه ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: أشرافهم قائلين: ﴿أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا﴾ أي: اثبتوا ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿الْهِتِكُمْ﴾ ولا تصالحوا معه ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي حدث بيننا وابتدع فينا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: 6] بنا من شؤم الزمان وريبه.

وما لنا إلا الصبر والثبات إلى أن تتجلى الغيايب وترتفع النوائب، مع أننا ﴿وَمَا

(1) رواه أبو داود في «السنن» (437/14).

سَجِفْنَا بِهَذَا) أي: بالتوحيد الذي يقوله هذا الداعي ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي النصرانية؛ إذ النصارى يقولون بالأقانيم⁽¹⁾ الثلاثة، ولم ينقل منهم توحيد الإله، ولا من الذين مضوا قبلهم من أرباب الملل السالفة، وبالجملية: ﴿إِنْ هَذَا) أي: ما هذا التوحيد الذي ظهر به ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: 7] أي: كذب اخترعه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي افتراء ومراء، قاصداً به التفرير والتليس على ضعفة الأنام.

﴿أ﴾ تعتقدون أيها العقلاء المتدربون أنه ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ) أي: على يتييم أبي طالب ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الوحي والقرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ مع أنه مثلنا ومن بني نوعنا، بل أدون منا، ونحن أشرف منه، وأكبر سناً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأكرم جاهاً وثروة، وأعلى سيادة ورياسة، إنما يقولون هذا على سبيل الإنكار والاستبعاد لا أنهم معتقدون على الوحي والإنزال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب عظيم ﴿مَنْ ذِكْرِي﴾ ووحى إليه، بل إلى جميع المرسلين ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [ص: 8] أي: إنما قالوا هذا، وشكوا في الوحي وارتابوا؛ لأنهم لم يذوقوا عذابي، ولو أنهم ذاقوه لما قالوا، فمن أين يقولون هذا ويحكمون أن الوحي لو نزل لنزل على رؤسائنا وساداتنا.

أهم يعلمون الغيب ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ أي: عند أولئك البعداء المنهمكين في بحر الغفلة والضلال ﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ومقاليد نعمه ومفاتيح كرمه؛ ليكون لهم الخيرة في أمره سبحانه، فيعطونها على من يشاء، ويمنعونها عن من يشاء، فكيف يحكمون على ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره في تصرفات ملكه وملكوته بالاستقلال والاختبار ﴿الْوَهَّابِ﴾ [ص: 9] على من شاء وأراد بلا مشاورة ومظاهرة.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: يدعون أن لهم التصرف في العلويات والسفليات والممتزجات، وإن ادعوا ذلك لأنفسهم ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ وليصعدوا ﴿فِي الْأَشْبَابِ﴾ [ص: 10] التي هي معارج الوصول إلى منشأ الوحي والإلهام، ومنبع النزول والإنزال، فليأتوا بالوحي إلى من أرادوا واختاروا.

وبالجملية: من أين يتأتى لأولئك الكفرة العجزة المقهورين الصاغرين الخيرة في أمره سبحانه وحكمه بمقتضى قضائه، حتى يتفوهوا عنه وعن أفعاله وأحكامه؛ إذ لا يسع لأحد من أقوياء عباده أن يسأل عن فعله مع أن أولئك الحمقى ﴿يُجْنَدُ مَا﴾ أي:

(1) الأقانيم: الأصول، واجدها: أفثوم. مختار الصحاح (1/263).

شرذمة قليلة في غاية القلة ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: وضعوا ونصبوا أنفسهم بمعاداتك في أبعد الأمكنة وأعلى المرتبة، مع أنهم ﴿مُهْزُومٌ﴾ مغلوب ﴿مِنْ﴾ جميع ﴿الْأَحْزَابِ﴾ [ص: 11] الذين تحزبوا على رسل الله وأنبيائه، مع كمال شدتهم وقوتهم ووفور شوكتهم وصولتهم، فانهزموا واستوصلوا إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ١٢ ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ ١٣ ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ١٤ ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ﴾ ١٥ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا هَاجِلْ لَنَا قُطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ١٦ ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ١٧ ﴿إِنَّا سَخَرْنَا لِمَعْنَىٰ مَعَهُ يُسَيِّتَنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ١٨ ﴿وَالطَّيْرِ تَحْشُورَةً كُلٍّ لِّهٖ أَوَّابٌ﴾ ١٩ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآيَاتُهُ الْحِكْمَةُ وَفَصَّلَ لِنِطَابِ﴾ ٢٠ [ص: 12-20].

إذ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ مع كمال قوتهم وقدرتهم نوخًا، فأغرقناهم أجمعين بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ مع نهاية عتوهم وعنادهم هودًا، وأهلكناهم بالريح العاصفة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: 12] أي: صاحب الدولة الثابتة التي ادعى بسببها الألوهية لنفسه موسى، فأغرقناه وجنودهم في اليم.

﴿وَتَمُودُ﴾ المتناهي في القوة والشدة صالحًا، فأهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ المتبالغ في الجحود والإنكار على الله وحدوده لوطًا، فقلبنا عليهم ديارهم، وأمطرنا عليهم الحجارة فأهلكناهم بها ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ شعبيًا، فاستأصلناهم كذلك ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المنحرفون عن صوب السداد والصواب هم ﴿الْأَحْزَابُ﴾ [ص: 13] الذين كذبوا الرسل، وتحزبوا عليهم، وقاتلوا معهم مع كونهم أشداء أقوياء، فانهزموا عنهم بنصرنا إياهم، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وبالجملة: ﴿إِنْ كُلُّ﴾ أي: ما كل من الأمم السالفة المذكورة ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المذكورين ﴿فَحَقَّ﴾ أي: لذلك لزم ولحق عليهم ﴿عِقَابِ﴾ [ص: 14] أي: أنواع عذابي ونكالي عاجلاً وآجلاً.

﴿وَمَا يَنْظُرُ﴾ ويتنظر ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المعاندون معك، المنكرون لدينك، المكذبون لرسالتك وكتابك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينفخها إسرافيل في الصور بإذن منّا فيسمع

هؤلاء الضالون، فيموتون على الفور بلا توقف؛ إذ ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: 15] قرار ووقوف مقدار خروج النفس ورجوعه.

وهذا كناية عن سرعة نفوذ قضاء الله، حين حلول عذابه عليهم إلى حيث لا يسع فيه تمييز التقدم والتأخر أصلاً، بل ينزل بغتة.

﴿وَعَلَّمَ كَفَّارَ مَكَّةَ أَوْصَافَ أَهْوَالِ يَوْمِ الْجَزَاءِ﴾، وافتراق الناس فيها فرقاً وأحزَاباً، بعضهم أصحاب يمين، وبعضهم أصحاب شمال، فيعطى لكل فرد كتاباً كتب فيه أعمالهم الصالحة والفسادة، فيحاسب كل على أعماله، فيجازى على وفقها ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين؛ يعني: أهل مكة بعدما سمعوا أهوال يوم الجزاء وأفزاعها: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا﴾ أي: صحيفة أعمالنا، وقسطنا من العذاب المترتب عليها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 16] ونحن نرضى بها وبالعذاب المترتب عليها بلا حساب.

وبعدما قالوا كذلك، واستهزءوا مع الرسول، وضحكوا من قوله، ونسبوه إلى الخبط والجنون، أمر سبحانه حبيبه بالتصبر على مقاساة ما جاءوا به مما لا يليق بشأنه، فقال: ﴿اضْمِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك، وفي شأنك أولئك الجاهلون عناداً أو مكابرة، ولا تلتفت إلى هذياناتهم، ولا تحزن من أباطيلهم المستهجنة، فعليك يا أكمل الرسل أن توطن نفسك على الصبر المأمور، ولا تتجاوز عن مقتضاه، ولا تتعب نفسك بالقلق والاضطراب والمجادلة معهم والمخاصمة إياهم إلى أن تكف عنك ضرورهم، ولا تلتفت إلى هواجس نفسك، حتى لا تقع في محل الخطاب والعتاب ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وما جرى عليه من العتاب الإلهي من عدم حفظه نفسه عن مقتضياتها ومشتهياتها حتى ابتلاه الله سبحانه بما ابتلي مع أنه ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: صاحب القدرة والقوة في الحفاظ وحفظ النفس عن محارم الله ومنهياتها، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17] ⁽¹⁾ رجّاع إلى الله وإلى مرضاته سبحانه في

(1) هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمتة تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بالحنان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسييحه وتنزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوضلة منه صفرت بصفير التنزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار

جميع حالاته.

ومن كمال رجوعه إلينا وحفظه لمرضتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿سَخَرْنَا الْجِبَالَ﴾ له، وجعلناها تحت حكمه إلى حيث سارت ﴿مَعَهُ﴾ حيث شاء ﴿يَسْبَحْنَ﴾ بمشايسته وموافقته حين يسبح ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18] أي: بالليل والنهار، يعني: ما دام يميل ويتوجه إلى ربه، مالت الجبال معه ازديادًا لثوابه وتكثيرًا لفضائله.

﴿وَوُكِّلَ﴾ كذا سخرنا له ﴿الطُّيُورَ﴾ أي: جنس الطيور يستمعن قوله ﴿مَخْشُورَةً﴾ على فنائه مسخرة لحكمه - على قراءة النصب - «والطيور محشورة» عنده محكمة لأمره يسبحن بمشايسته بالغدو والأصاال كتسبيح الجبال على قراءة الرفع، وبالجملية: ﴿كُلُّ﴾ أي: كل واحد من داوود والجبال والطيور ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 19] أي: رجّاع إلى الله، مسبح له سبحانه، مقدس عما لا يليق بجنابه على الدوام والاستمرار.

﴿وَمِنْ كَمَالِ جُودِنَا وَلُطْفِنَا مَعَهُ﴾ ﴿شَدِّدْنَا﴾ له ﴿مُلْكَهُ﴾ الظاهر، أي: قوينا استيلاءه وتسليطه على الأنام، وألقينا هيته على قلوبهم إلى حيث لم يخرجوا عن الحدود الموضوعه في شرعه خوفًا من اطلاعه.

وسبب هيته أن تحاكم عنده رجلان، فادعى أحدهما على الآخر بأنه غصب منه بقرة عدوانًا وظلمًا، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بيته، فأريناه في منامه أن يقتل المدعي عليه، ويحكم بالبقرة للمدعي، فلما استيقظ كذب نفسه واستغفر، فنام فأريناه مثل ذلك، واستيقظ فاستغفر ثانيًا، فنام فرأى ثالثًا مثل ذلك، فتبين أنه من الله، فهم أن يقتله تنفيذًا لما ألهم إليه، فقال المدعي عليه: أتقتلني بلا بيته.

فقال ~~الله~~: نعم والله لأنفذ حكم الله تعالى فيك، فلما تفتن الرجل منه الجزم في عزمه، اضطر إلى الاعتراف، حيث قال: لا تعجل يا نبي الله حتى أخبرك، والله ما أخذت بهذا الذنب ظلمًا وزورًا، ولكني قتلت والد هذا المدعي اغتيالًا وخداغًا.

فقتله ~~الله~~، وعظمت هيته في قلوب الناس، حتى انزجروا عن مطلق المحرمات والمنهيات خوفًا من اطلاعه، وقالوا: لا نعمل شيئًا إلا علمه، فيقضي علينا بمقتضى

فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خوصيات لهن عشق ومعرفة كالهدمد والبلبل والعندليب والقمرى والحمامة ومالك الحزين، وكان ~~الله~~ يعرف أصواتهن وتسيحهن من حيث المحبة والعشق، [العرائس].

علمه، هذا تأييدنا وتقويتنا إياه بحسب الظاهر والسلطنة الصورية.

﴿و﴾ أما بحسب الباطن والحقيقة ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ المتقنة التي يتصرف بها في حقائق الأمور، ويطلع على سرائرها بنور النبوة والولاية الموروثة له من أسلافه الكرام، الموهوبة إياه من الحكيم العلام تأييداً له وتقوية لشأنه ﴿و﴾ آتيناه أيضاً ﴿فَضْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: 20] أي: قطع الخصومات على التفصيل الذي وقع بين المتخاصمين بلا حيف وميل إلى جانب على ما هو مقتضى العدل الإلهي بالخطاب المفصول الموضح الواضح المقتصد بلا اقتصار مخل وإطنا ب ممل، وبالجمله: بلا إغلاق يشبه مضمونه على المتخاصمين.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْفُلُطَاءِ لَيَبْنِي بِعَضْنِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص: 21-24].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ وحصل عندك يا أكمل الرسل ﴿نَبَأُ الْخَضِمِ﴾ أي: خبر الملكين المتكلفين المصورين بصورة الخصمين اللذين جاءا للحكومة عند أخيك داوود ^{عليه السلام}، حين اعتزل في محرابه للعبادة على ما هو عادته في تقسيم أيامه ثلاثة أقسام: يوم لعيش النساء، ويوم لقطع الخصومات بين الأنام، ويوم للتوجه نحو الحق والمناجاة معه سبحانه في محرابه.

وكان في محرابه والباب مغلق عليه، والحراس على الباب فجاءا - أي: الملكان - في صورة رجلين متخاصمين على الباب، فمنعهما البواب، فأخذا يستعليا ^ن المحراب.

اذكر نباهما وقت ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ أي: صعدوا على حائط ﴿الْمِحْرَابِ﴾ [ص: 21] واستعلوا على سوره بقصد الدخول عليه.

اذكر وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ من غير الباب بأن شق لهما الجدار، فدخلا

عليه ﴿فَفَزَعَ﴾ داوود ﴿مِنْهُمْ﴾ واستوحش من دخولهم. لا من الطريق المعهود، وبعدما تفرسوا منه الرعب والفزع ﴿قَالُوا﴾ له تسليّة وتسكينًا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا، ولا تحزن من إلبامنا إياك؛ إذ نحن ﴿خَضَمَانٌ﴾ تحاكمنا إليك حتى تقضي بيننا، وقد ﴿بَنَى﴾ أي: ظلم واستولى ﴿بَغْضًا عَلَى بَغْضٍ﴾ أي: أحدنا على الآخر ﴿فَاخُكُم﴾ أيها الحاكم العدل العالم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل السوي ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجر ولا تتجاوز عن مقتضى القسط الإلهي ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22] أي: أعدل الطرق وأقوم السبل في سلوك طريق الحق.

ثم أخذوا في تقرير المسألة، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ في الدين ورفيقي في سلوك طريق التوحيد واليقين ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وهي الأنثى من الضأن، كنى بها العرب عن المرأة ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فقط، ﴿فَقَالَ﴾ لي عدوانًا وظلمًا: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلًا لها، مالكًا إياها، حتى صارت نعاجي مائة، ولم تبق لك نعجة ﴿وَوَ﴾ لم يقتصر على مجرد القول، بل ﴿عَزَّنِي﴾ وغلب علي ﴿فِي﴾ مضمون ﴿الْخِطَابِ﴾ [ص: 23] المذكور بحجج لا أقدر على دفع، ولا أسمع المقاومة معه.

وبعدما سمع كلام المدعي وتأمل في تقريره، قال للمدعى عليه: هل تصدقه فيما ادعاه عليك؟ قال: بلى.

ثم التفت ~~إليه~~ نحو المدعي، متعجبًا مستبعدًا عما جرى عليه من الظلم والعدوان حيث ﴿قَالَ﴾: تالله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا الظالم ظلمًا صريحًا ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليأخذها منك ويضيفها ﴿إِلَى نِعَاجِهِ﴾ ليكثرها بها ويخلطها عليه حرصًا منه إلى تكميل مشتهة نفسه الأمارة ﴿وَوَ﴾ لا تستبدع هذا الأمر، ولا تستبعد منه هذا، بل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الذين خلطوا أموالهم وتشاركوا فيها ﴿لَيَبْغِي﴾ أي: يظلم ويتعدى ﴿بَغْضَهُمْ﴾ عَلَى بَغْضٍ ﴿ظَلَمًا وَزُورًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الخلطاء بالله، واستقاموا على صراطه الموضوع من عنده على العدالة والاستقامة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية عنده سبحانه، سيما في الأمور المتعلقة لحقوق عباده، ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: هم قليل في الدنيا في غاية القلة والندرة، و«ما» مزيدة لكمال القلة والإبهام.

ثم التفت ~~إليه~~ إلى المدعى عليه، فقال له بعدما سمع منه اعترافه: إن رمت هذا، ضربنا منك هذا، إشارة إلى طرف أنفه، فقال المدعى عليه: أنت أيها الحاكم أحق بذلك الضرب، فنظر ~~إليه~~ ولم ير أحدًا ﴿وَوَ﴾ حيثذ ﴿ظَنَّ﴾ بل تيقن ﴿وَدَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

وابتليناه بالذنب ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ عما جرى عليه من افتتان الله إياه ﴿وَحَزَّ﴾ ساجداً من خشية الله، بعدما كان ﴿زَاكِئًا﴾ مكسور الظهر، منكوس الرأس عن ارتكاب الذنب ﴿وَأَنَابَ﴾ [ص: 24]⁽¹⁾ إلينا على وجه الندم والخجل مستحيًا عنا، مستوحشًا عن

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي﴾ وهذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه له، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغراه حتى قُتل امرأة واحدة؛ فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته، فقال له أحدهما: (إِنَّ هَذَا أَخِي) يقول: أخي على ديني. كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه: (إِنَّ هَذَا أَخِي): أي على ديني (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً). وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أَثَى) وذلك على سبيل تأكيد العرب الكلمة، كقولهم: هذا رجل ذكر، ولا تفسير يكادون أن يفعلوا ذلك إلا في المؤنث والمذكر الذي تذكيره وتأنينه في نفسه كالمرأة والرجل والناقة، ولا يكادون أن يقولوا هذه دار أثى، وملحفة أثى، لأن تأنينها في اسمها لا في معناها. وقيل: عنى بقوله: أثى: أنها حسنة، ذكر من قال ذلك: حدثت عن المحاربي، عن جوير، عن الضحاك (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أَثَى) يعني بتأنينها، حسنها وقوله (فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا) يقول: فقال لي: انزل عنها لي وضمها إلي كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله (أَكْفُلْنِيهَا) قال: أعطنيها، طلقها لي، أنكحها، وخلّ سبيلها. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، فقال: (أَكْفُلْنِيهَا) أي احملني عليها؛ وقوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) يقول: وصار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إن تكلم فهو أبين مني، وإن بطش كان أشد مني فقهرني. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله في قوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها، حدثنا ابن وكيع، قال: ثني أبي، عن المسعودي، عن المنهال، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: ما زاد على أن قال: انزل لي عنها، وحدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: ما زاد داود على أن قال: (أَكْفُلْنِيهَا) حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت ويطش كان أشد مني، فذلك قوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أي ظلمني وقهرني حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: قهرني، وذلك العزّ قال: والخطاب: الكلام، حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ): أي قهرني في الخطاب، وكان أقوى مني، فحاز نعمتي إلى نعاجه، وتركني لا شيء لي، حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۖ﴾ (٢٥) ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَحُكِّم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ۖ﴾ (٢٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۖ﴾ (٢٨) ﴿كِتَبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّتَذَكَّرُوا آيَاتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (٢٩) [ص: 25-29].

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ الذنب بعدما أخلص في الإنابة والرجوع إلينا، بل جميع ذنوبه

تكلم كان أبين مني، وإن بطش كان أشد مني، وإن دعا كان أكثر مني، القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاِسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ يقول تعالى ذكره: قال داود للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه، وهذا مما حذفته منه الهاء فأضيف بسقوط الهاء منه إلى المفعول به، ومثله قوله عز وجل: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَالْمَعْنَى: مَنْ دَعَاهُ بِالْخَيْرِ، فَلَمَّا أَلْقَيْتَ الْهَاءَ مِنَ الدُّعَاءِ أَضِيفَ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْقِي مِنَ الْخَيْرِ الْبَاءُ، وَإِنَّمَا كُنِيَ بِالنَّعْجَةِ هَا هُنَا عَنِ الْمَرَأَةِ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعَشَى: قَدْ كُنْتُ رَايِدَهَا وَشَاةً مُخَاذِرًا... خَلَرًا يُقْلُ بِغَيْنِهِ إِغْفَالَهَا، يَعْنِي بِالشَّاةِ: امْرَأَةً رَجُلٌ يَحْذَرُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَعْنِي: لَقَدْ ظَلَمْتَ بِسُؤَالِ امْرَأَتِكَ الْوَاحِدَةَ إِلَى التَّسْعِ وَالتَّسْعِينَ مِنْ نِسَائِهِ، وَقَوْلُهُ (وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) يَقُولُ: وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الشُّرَكَاءِ لَيَتَعَدَّى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) بِاللَّهِ (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يَقُولُ: وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَانْتَهَوْا إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهُ (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وَفِي «مَا» الَّتِي فِي قَوْلِهِ (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وَجِهَانِ: أَحَدُهُمَا أَنْ تَكُونَ صِلَةً بِمَعْنَى: وَقَلِيلٌ هُمْ، فَيَكُونُ إِثْبَاتُهَا وَإِخْرَاجُهَا مِنْ الْكَلَامِ لَا يَفْسِدُ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَالْآخَرُ أَنْ تَكُونَ اسْمًا، وَ«هُمْ» صِلَةٌ لَهَا، بِمَعْنَى: وَقَلِيلٌ مَا تَجِدُهُمْ، كَمَا يُقَالُ: قَدْ كُنْتَ أَحْسَبَكَ أَهْقُلَ مِمَّا أَنْتَ، فَتَكُونُ أَنْتَ صِلَةً لَهَا، وَالْمَعْنَى: كُنْتَ أَحْسَبَ عَقْلِكَ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ، فَتَكُونُ «مَا» وَالْاسْمُ مُصَدَّرًا، وَلَوْ لَمْ تَرُدِ الْمَصْدَرُ لَكَانَ الْكَلَامُ بِمَنْ، لِأَنَّ مِنَ الَّتِي تَكُونُ لِلنَّاسِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَمَحْكِي عَنْ الْعَرَبِ: قَدْ كُنْتَ أَرَاكَ أَهْقُلَ مِنْكَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَدْ كُنْتَ أَرَى أَنَّهُ غَيْرُ مَا هُوَ، بِمَعْنَى: كُنْتَ أَرَاهُ عَلَى غَيْرِ مَا رَأَيْتُ. «تفسير الطبري» (177/21).

التي صدرت عنه ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ كَيْفَ لَا نَغْفِرَ﴾ (إِنْ لَّهُ) أي: لداود عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة قريتنا وعزتنا ﴿لَزُلْفَى﴾ لقربة ومنزلة رفيعة ﴿وَوَحْشَنَ مَابٍ﴾ [ص: 25] أي: خير مرجع ومنقلب من مقامات القرب ودرجات الوصول.

وأمر في ابتلاء الله إياه أنه لما رأى في كتب التواريخ أوصاف أسلافه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أضمر في نفسه أن يؤتى له مثل ما أتى إياهم من الخير والحسن، فأوحى إليه أنهم قد ابتلوا فصبروا، فأعطي لهم ما أعطي فقال داود عليه السلام: يا رب لو ابتليت لصبرت أيضًا مثلهم، فأوحى أنك تُبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاستحفظ الأوقات.

فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق الباب على نفسه، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن والبهاء ووقعت بين رجله، فأراد أخذها؛ ليرى بني إسرائيل عجائب صنع الله وبدائع قدرته، فطارت وجلست في كوة هناك فأراد أخذها فذهبت فنظر من الكوة فإذا هو بامرأة حسناء من أجمل النساء تغتسل فتعجب منها، قالت وأبصرت ظله فنفضت شعرها، فغطى جميع بدنها، فازداد داود عجبًا فوق العجب.

وبالجملة: قد ابتلي عليه السلام بمحبة تلك المرأة، وكان عمره حينئذ سبعين سنة، فسأل عنها، فقيل: هي امرأة أوريا بن حنان، فأوجس في نفسه قتله ليتزوج امرأته، وكان أوريا حينئذ مع ابن أخت داود في جيش، فأرسل إلى ابن أخته أن يقدم أوريا قدام التابوت، وكان من عادته من يقدمه قدام التابوت لا يحل له الرجوع حتى يفتح أو يقتل، فقدمه ففتح، فأمره أن يقدمه إلى أخرى، فقدمه ففتح أيضًا، ثم أمر أن يقدمه ثالثًا، فقدمه إلى جيش عظيم فقتل.

وبعدما انقضت عدة امرأته تزوجها داود عليه السلام، وهي أم سليمان عليه السلام، فعاتبه سبحانه بما عاتبه، فاستغفر ربه وخز راکعًا وأناب، والعهدة على الراوي، وأنكر بعضهم هذه القصة؛ لأن الأنبياء معصومون عن أمثاله.

وعن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: من تحدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، والعلم عند الله.

ثم لما عاتب سبحانه داود عليه السلام بما عاتب، وقبل توبته بعدما استغفر وأناب، أراد

سبحانه من كمال خلوصه في توبته رجوعه نحو الحق عن صميم طويته أن يشرفه
بخلعة الخلافة، فقال منادياً له، إظهاراً لكمال اللطف والكرم معه: ﴿يَا دَاوُدُ﴾ المتأثر
عن عتبنا، التائب إلينا، المنيب نحونا عن محض الندم والإخلاص ﴿إِنَّا﴾ بعدما طهرناك
عن لوث بشرتك، وغفرنا لك ما طرأ عليك من لوازم هويتك ولواحق ناسوتك
﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وأنواع الفتن والعناد،
فلك أن تستخلف عليها نيابة عنا.

﴿فَاخْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ المستحكمين لك، المتمردين إليك في الوقائع والخطوب
ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ السوي بلا ميل إلى كلا طرفي الإفراط والتفريط على الوجه الذي
وصل إليك في كتابنا صريحاً أو استنبط منه ضمناً ﴿وَعَلَيْكَ﴾ أن ﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ في
حكوماتك وقطعك للخصومات بين الأنام؛ يعني: عليك أن ترجع في جميع الأحكام
إلى كتابنا، ولا تميل في حال من الأحوال إلى ما تهواه نفسك ويقتضيه رأيك ويشتهي
قلبك، إن كان مخالفاً لما في الكتاب، وإن اتبعت إليه بعدما نهيناك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ اتباعك
إياه ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصول إلى توحيده، المبني على القسط والاعتدال ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي استوى على عروش عموم ما لمع
عليه بروق تجلياته بالقسط والاستقامة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم يرجعون إلى الله،
ويحشرون إلى عرصات العرض ﴿إِنَّمَا نَسُوا الْإِيمَانَ﴾ [ص: 26] أي: بسبب
فطرتهم الأصلية، وعهدهم الذي عهدوا مع الله فيها، وإنكارهم على تنقية الحق
أعمالهم في يوم البعث والجزاء، وضلالهم عن الإيمان به وبجميع ما فيه من الأمور
الأخروية.

﴿وَعَلَيْكَ﴾ كيف لا نبعث الأموات، ولا نحاسب أعمالهم التي أتوا بها في دار
الاختبار؛ إذ ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ وجميع ما فيها ومن فيها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وجميع ما عليها
وما عليها ﴿وَعَلَيْكَ﴾ كذا ﴿مَا يَتَّبِعُهُمَا﴾ من الممترجات الكائنة فوق الأرض وتحت السماء
﴿بِاطِلًا﴾ عبثاً بلا طائل ومصلحة تقتضيها الحكمة الباعثة على إظهارها، مع أننا ما كنا
من العابثين الملاعبين.

وما يليق بشأننا أن ينسب أفعالنا إلى البطلان، والخلو عن الحكمة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: في
القول ببطلان أفعالنا، وخلائها عن الفائدة، وعرائها عن الحكمة والمصلحة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ بالحق العليم الحكيم، وأعرضوا عن الإيمان وأنكروا توحيده فاستحقوا بذلك

﴿و﴾ بعدما كرمناه بتشريف خلعة الخلافة ﴿وَهَبْنَا لِذَاوُودَ﴾ ولدا خلفا عنه، وارثا لملكه وخلافته، محييا اسمه ومراسم دينه ومعالم ملته؛ يعني: ﴿سُلَيْمَانُ نِعْمَ الْمَبْدُ﴾ سليمان؛ لأنه مقبول عندنا، مقرب في حضرتنا، مكرم لدينا، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّا أَتَيْنَا﴾ [ص: 30] رجاء إلينا، ملتجئ نحونا في عموم الأوقات وشمول الحالات على وجه الخلوص والتفويض التام.

اذكر يا أكمل الرسل كمال رجوعه وإخلاصه فيه وقت ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ وهو مشمر إلى الغزو ومهتئ لأسبابه، متمكن على كرسيه لضبط العسكر وآلات القتال بالعشي ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ من الخيل، وهي التي تدور سريعا كالرحى على طرف حافر من حوافره، إن أراد الركاب تدويره، وهي من أكمل أوصاف الخيل وأحمدتها عند أصحاب القتال؛ لأن المبارز كثيرا ما يحتاج إلى تدوير فرسه يوم الوغى ﴿الْجِيَادُ﴾ [ص: 31] سريعة الجري والعدو.

وذلك أنه جلس على كرسيه يوما بعدما فرغ من ورده في الظهيرة؛ لإعداد أسباب الغزو والقتال الذي قصد أن يخرج إليه يومئذ، فأمر بعرض الخيول عليه، فأشغله الالتفات والتوجه نحو الخيول عن ورد عصره، فتذكر والشمس قد غربت، فاغتم غما شديدا، وتحزن تحزنا بليغا إلى حيث لم يطرأ عليه مثله.

﴿فَقَالَ﴾ من شدة أسفه وضجرته متأوها لائما على نفسه: ﴿إِنِّي أَخْيِثُ﴾ الخيل ﴿حُبُّ الْخَيْرِ﴾ أي: كحب الخير والتوجه المقرب إلى الله، لذلك ألهاني ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] وفات عني وردي الذي كان قبل الغروب.

وبعدما وقع ما وقع من الغفلة، تسارع إلى التدارك والتلافي، فأخذ يقطع عرق الباعث إلى الإلهاء والإغفال، فقال للشرطة: ﴿رُدُّوْهَا﴾ أي: الصافنات ﴿عَلَيَّ﴾ وكثروها إلي، فأعادوها معرضين ثانيا ﴿فَطَفِقَ﴾ سليمان، وأخذ السيف الصارم بيده، يمسح ويمضي ﴿مَنْحَا﴾ وإمضاء ملاصقا ﴿بِالشُّوقِ﴾ وهي جمع: ساق ﴿وَالْأَغْتَاقِ﴾ [ص: 33] يعني: أخذ بقطع قوائمها ورءوسها، ليزول حبها عن قلبه، ويتصدق بها طلبا لمرضاة ربه، وجبرا لما انكسر من ورده.

وعن المرتضى المجتبى - كرم الله وجهه -: أن الضمير في ﴿رُدُّوْهَا﴾ راجع إلى الشمس؛ يعني: أمر سليمان الحوكلين على الشمس بإذن الله ووحيه إياه، أن يردوها

الشمس بعدما غربت؛ ليأتي سليمان بورده، فأتى بما أتى، وذلك من كمال كرم الله معه.
﴿وَمَعَ كُونَهُ مَقْبُولًا عِنْدَنَا مَمْدُوحًا لَدِينَا﴾ ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمَانَ﴾ بفتنة عظيمة، وأخذنا منه ملكه بجريمة صدرت من أهل بيته بأدنى ملابسة له ورضا من جانبه.

وذلك أنه عليه السلام غزا «صيدون» من الجزائر، فقتل ملكها فأصاب ابنته اسمها جرادة، وهي من أجمل النساء وأحسنها شكلاً، فأعجب سليمان بحسنها وخصها لنفسه، وهي أحب عليه من سائر نسائه، وكانت من شدة حزنها وكآبتها على أبيها لا يرقى دمعها، ولا يزال همها، فأمر عليه السلام الشياطين فمثل لها صورة أبيها، فكانت تغدو إليها وتروح مع ولاتها يسجدون لها، على ما هي عادت في حياته وملكه.

ومضى عليها أربعون يوماً، فاستشعر بها آصف بن برخيا فأخبره، فكسر الصورة وضرب المرأة والولائد، فخرج عليه السلام إلى الصحراء باكباً متألماً مستحيّاً من ربه، وكان من عادته عليه السلام إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه الذي فيه ملكه إلى أمة له اسمها أمينة، فأعطاه يوماً فتمثل بصورة سليمان شيطان اسمه صخر، فجاء فطلب الخاتم من أمينة فأخذه فتختم به، وجلس على كرسیه، واجتمع الخلق عليه، وقضى ما قضى ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه، وغیر سليمان عن هيئته وسلطنته، فأتى أمينة بطلب الخاتم فطرده وأنكرت عليه، فعرف أن الفتنة قد أدركته.

فأخذ يدور حول البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبد في بيته الصورة، وبعد انقضاء المدة المذكورة، طار الشيطان من كرسیه وقذف الخاتم في البحر، فابتلعه سمكة فوقعت في يد سليمان من قضاء الله ومزيد كرمه وعطائه عليه، فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به، فعاد ملكه عليه، وخرّ ساجداً وأتاب إلى الله متضرعاً كما أخبر سبحانه.

وبعدما فتناه بفتنة عظيمة وهي عبادة غيرنا في بيته برضاء منه، وأخذناه عليها وأخرجناه من ملكه بفقد الخاتم عنه ﴿أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ وأجلسنا بدله عليها ﴿جَسَدًا﴾ تمثالاً وصورة لا حقيقة لها، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ابتليناه بما ابتليناه قد ﴿أَنَابَ﴾ [ص: 34] إلينا مخلصاً متضرعاً، فقبلنا توبته عناية منا إياه؛ حيث ﴿قَالَ﴾ في مناجاته معنا، وعرض حاجاته إلينا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى لطفك وجودك، وأعطيتني من مواهبك ما لم تعط أحداً من خلقك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ ذنبي، واعفُ زلتي بسعة رحمتك

وجودك ﴿و﴾ بعدما غفرتني ومحوت عني معصيتي ﴿هَبْ لِي مَلَكًا﴾ كما وهبتي قبل هذا، وخصصتني به بمقتضى جودك وإحسانك علي؛ إذ ﴿لَا يُثْبِتِي﴾ ويليق بشأنك وبمزيد لطفك وإحسانك أن تعطيه ﴿لَاخِذْ مِنِّي بِغَدِي﴾ إذ لا راد لفضلك، ولا مانع لعطائك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ المحسن ﴿الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35] ⁽¹⁾ المقصور المنحصر على إعطاء المواهب والكرامات، بلا عوض ولا غرض؛ إذ لا معطي سواك ولا مفضل غيرك.

وبعدما توجه إلينا وتضرع نحونا على وجه الإنابة والخضوع والتدلل والخشوع، آتينا ملكه، وأجرينا حكمه كما كان ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ بعدما انتقمنا عنه، وجعلناها مقهورة له، محكومة بحكمه؛ حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ منقادة بحكمه ﴿رُخَاءً﴾ لينة هينة، بلا تضعضع وتزعزع يتعب منه الراكب ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36] أي: يجري بأمره أي صوب أراد، وجانب قصد.

﴿و﴾ أيضًا سخرنا له ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ وجعلناهم منقادين لحكمه ﴿كُلُّ بَنَاءٍ﴾ منهم مبني له أبنية عجيبة، وقصورًا مشيدة منيعة، وحصونًا محكمة، لا يسع للإنس أن يعمل مثلها ﴿و﴾ كل ﴿غَوَاصٍ﴾ [ص: 37] منهم يفوصون لأجله في لجج البحار، ويستخرجون لخزائنه من اللآلئ النفيسة ما لا يعد ولا يحصى.

﴿وآخرين﴾ من الشياطين، وهم المردة الممتنعون عن الإطاعة والانقياد، جعلناهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين محبوسين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 38] أي: القيود والأغلال المضيقة بمقتضى أمره وحكمه.

ثم قال سبحانه امتنانًا عليه، وتنبهًا على تعظيمه وتكريمه: ﴿هَذَا﴾ المذكور من الحكومة والخلافة والتسخيرات السالفة ﴿عَطَاؤُنَا﴾ عليك يا من اصطفيناك لوراثة النبوة والخلافة ﴿فَأَمْنٌ﴾ منه لمن شئت، واجعل حق المستحقين محفوظًا به ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ لنفسك، ولا تعط أحدًا؛ يعني: لك الخيار في المنع والإعطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39]

(1) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم طلب المملكة بعده، ثم دلت الآية أيضًا على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لفتح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولاً، ثم توصل به إلى طلب المملكة. الباب (369 / 13).

عليك، وسؤال عن فعلك، إذ أمره مفوض إليك.

﴿و﴾ كيف لا يفوض لأمر ما أعطيناه إياه ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لسليمان عليه السلام ﴿عِنْدَنَا﴾ وفي ساحة عز حضورنا ﴿لَزُلْفَى﴾ درجة قريبة من درجات الوصال ﴿وَحُسْنِ مَأْبٍ﴾ [ص: 40] أي: خير مرجع ومنقلب من مراتب التمكن في التوحيد. والتقرب في مقر القبول.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ٤١ ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ٤٢ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ٤٣ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٤٤ ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ٤٥ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ٤٦ ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ٤٧ ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ٤٨ [ص: 41-48].

﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن اسحاق، وامرأته لينا بنت يعقوب، أضافه سبحانه إلى نفسه لكمال رضاه منه ولطفه معه؛ حيث صبر على ما مضى عليه من بلائه وجرى عليه من قضائه، كما شكر على آلائه ونعمائه، ولم ينقص من إخلاصه حالتي السراء والضراء.

ادرس يا أكمل الرسل كمال تصبر أخيك أيوب، وإخلاصه في توجهه إلينا للمتذكرين. الاعتبارين من أمتك؛ كي يتذكروا من قصته، ويتخلقوا بشيء من تصبره وتمكنه في مقر التفويض والتسليم ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ الذي رباه بين الخوف والرجاء وأنواع العناء والعطاء؛ لكمال اضطباره ووقاره بما جرى عليه من مقتضيات ربه، قائلاً حين اضطرابه إلى الالتجاء نحو ربه والتضرع إليه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] أي: نفخ في، وأحاط نفخه جميع أجزاء بدني؛ بحيث لم يبق في عضو لم يلحقه ضرر من شؤم نفخه، وعذاب شديد مؤلم مزعج، فاضطرني هجوم الأعداء والعناء ونزول أنواع المحن والبلاء إلى بث الشكوى نحوك يا مولاي، فأنا عبدك، وعلى عهدك ما استطعت، وما توفيقى إلا بك وثقتي إلا عليك، فارحمني بسعة رحمتك؛ إذ لا راحم سواك ولا مغيث غيرك.

وبعدما استغاث إلينا مخلصًا مضطرًا راجيًا من الإجابة والقبول، أدركته العناية، وشملته الرحمة والكرامة من لدنا، حيث قلنا له ملهمين إياه، مستقبلين إجابته: ﴿ازْكُضْ﴾ واضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ على الأرض، فركض امتثالاً للأمر الوجوبي فنبعت عين جارية، ثم قلنا له تعليمًا وتنبيهًا: ﴿هَذَا﴾ الماء ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ يبرد ويرأ ظاهر جسدك من الحرارة العارضة لبدنك من شؤم نفس عدوك الذي خلق من عنصر النار ﴿وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42] شاف لباطنك من الذي أعرض عليك من انحراف مزاجك بسبب خروج أخلاطك عن الاعتدال الفطري بشؤم نفخه.

وبعدما سمع أيوب ما سمع اغتسل منه، فشرب وبرأ من المرض ظاهرًا وباطنًا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ بعد ما حصل له الصحة والنظافة من إياه، سقط نحونا ساجدًا حامدًا شاكرًا، مناجيًا معنا، مخلصًا متضرعًا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ تميمًا لكمال لطفنا وعنايتنا معه ﴿أَهْلَهُ﴾ أي: جميع من مات من أولاده بسقوط السقف عليهم ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي: وهبنا له إحسانًا عليه وامتنانًا من إياه مثل أهله مع أهله، وإنما فعلنا معه ذلك بعدما ابتليناه واختبرناه؛ ليكون ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إياه ﴿وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 43] الذين يتذكرون بقصته، ويتخلقون بأخلاقه؛ ليفوزوا بما فاز.

وبعدما صححناه من الأسقام وهبنا له أهله وماله، وزدنا عليه مثله تفضلاً من إياه، أمرناه ثانياً تعليمًا له بأن يتدارك قسمه وحلفه الذي حلف في مرضه، حين ذهبت امرأته ليا أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف لحاجة، فأبطأت، فحلف: إن برئت عن مرضي لأضربك مائة جلدة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ قلنا له تعليمًا: ﴿خُذْ بِيَدِكَ﴾ لحلفك ﴿ضِفْثًا﴾ حزمة مشتملة على مائة من أغصان صفار، فاضرب به - أي: بالضفث - امرأتك مرة، بحيث وصل أثر جميع ما في الحزمة من الأغصان إليها ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَخْنُثْ﴾ حيث شد في حلفك، فحللنا يمينك بها، عناية منّا لك ولامرأتك، فصارت رخصة باقية في حدود الشرائع إلى الآن. وكيف لا نزيل شكواه، ولا نحسن إليه، ولا نجزيه أحسن الجزاء؟ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ عبدًا ﴿ضَافِرًا﴾ لجميع ما هجم عليه من أنواع البلاء المتعلقة بماله وأولاده وبدنه ﴿يَقْمُ الْعَبْدُ﴾ عبدنا أيوب الصبور المسليم المفوض بلا جزع وتزعزع، فكيف يجزع ويتزعزع ﴿إِنَّهُ أَتَابٌ﴾ [ص: 44] رجاع إلينا، متشمر نحونا في عموم أوقاته وحالاته، طالبًا للفتاء فينا والبقاء ببقائنا.

روي أن أيوب عليه السلام كان متمولاً منعمًا عظيمًا، وكان له جميع أنواع متاع الدنيا، ومع ذلك شاكراً راضياً منفقاً في سبيل الله لفقراء الله طلباً لمرضاته، وبعدما بالغ في شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، حسد عليه إبليس فقال مناجياً إلى الله: نظرت في عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكر لك، ولو ابتليته بالفاقة لم يكن كذلك، فقال سبحانه: «سلطتك يا ملعون على ماله» فقال إبليس لعفارىت: أيكم أشد وأقوى على إتلاف ماله؟ فقام أحدهم وتحول إعصاراً من نار فأحرق إبله، وجميع من كان معها من الراعي، وصاح أحد منهم على أغنامه ورعاتها فهلكوا بالمرّة، وآخر جاء بريح عاصفة على حرثه فنسفت ولم يبقَ منهما شيء.

فتمثل إبليس بصورة راعٍ، وآخر من أعوانه بصورة حارث، وأتياه وهو يصلي وقالوا: أقبلت نار فغشيت إبلك فأحرقتها ومن معها، وصاح على غنمك شيطان فهلكت بالمرّة، وهبت على حرثك ريح فنسفت وصار كأن لم يكن، فقال أيوب: الحمد لله إنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها، وقد كنت قدماً قد وطنت نفسي ومالي على القضاء.

وبعدما آيس إبليس من هذا الطريق قال: إلهي إنك متعته بأولاد فشكر لك لأجلها، فهل أنت مسلطي على أولاده: إذ هي من أعظم المصيبات لا يصبر عليها أحد من الناس؟ قال: «نعم»، فأتاهم اللعين وهم مجتمعون في قصر عند معلم أديب، فلم يزل يزلزلها ويحركها حتى أسقطها عليهم فأهلكهم بالمرّة، فتمثل اللعين بصورة معلمهم فأتاه وهو صريخ جزوع، فقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا، ونكسوا إلى حيث سال دمهم ودماعهم وشقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم، فقال أيوب عليه السلام متأوهاً: ليت أُمي لم تلدني، ثم أفاق واستغفر عن ضجرته سريعاً.

ورجع خاسئاً وقنط اللعين من هذا أيضاً، وقال: إلهي إنما صبر أيوب عليه السلام على إهلاك أمواله وأولاده، ولازم توجهه بنجوك؛ لأنك متعته بصحة البدن وسلامة الجسد، وهل أنت مسلطي على جسده؟ قال سبحانه: «سلطتك على غير لسانه وقلبه»، فأتاه فوجده ساجداً، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم، فوقع في حكة فلم يزل يحكه حتى قرح جسده وأنتن لحمه، فأخرجته أهل القرية منها، ورفضوه من كان من أرحامه سوى امرأته «رحمة» فتمثل لها إبليس في صورة رجل، فقال لها: أين بعلك؟ هو ذلك يحك قروحه وتردد الديدان في جسده.

فلما سمعتها خيلت أنها كلمة جزع صدرت منه، فذكر لها تغريزاً ما كان فيه من

النعيم ثم أتى بسخلة⁽¹⁾، فقال لها: ادفعيها إلى أيوب ~~عليه السلام~~ ليذبح لي حتى يبرأ من السقم فجاءت مع السخلة تصرخ يا أيوب إلى متى يعذبك ربك أين الأموال والأولاد والوجه الحسن؟! اذبح هذه واسترح، فقال أيوب: أذاك عدو الله فنفخ فيك، أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمئذ كم ابتلينا؟ قالت: سبع سنين وأشهرًا، قال: ويلك ما أنصفت لنصبرن في هذا البلاء ثمانين سنة كما لنا في الرخاء، أما تستحين من الله؟ أمرتني أن أذبح لعدو الله، لا أذوق شيئًا مما تأتيني به بعد اليوم، اعزلي عني ودعي معي ربي.

فلما ذهبت امرأته ورأى أيوب ليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق، اضطر إلى بث الشكوى مع المولى فسقط ساجدًا، وقال مناجيًا صارخًا ضارعًا: ﴿أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِغَضَبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] وسمع حينئذ من الهاتف: ارفع رأسك فقد استجبت لك، فرفع رأسه وأوحى إليه من قبل ربه ﴿إِزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عِبَادَنَا﴾ الذين هم أجدادك وأسلافك ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ سبطه ﴿يَعْقُوبَ﴾ واذكر من شمائلهم الجميلة وخصائلهم الحميدة؛ ليتعظ من سماعها ذوو الاعتبار من المؤمنين، ويقتدون بمآثرهم؛ لأنهم كانوا ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45] أي: ذوي القوة في الطاعة والبصيرة في مراسم الدين ومعالم اليقين، ولهم التمكن في مقر التوحيد، والوصول إلى درجات التجريد والتفريد. ولا بد للذين يلونهم أن يقتدوا بهم، ويسترشدوا من أخلاقهم وآثارهم، ويتصفوا بأوصافهم؛ كي يفوزوا بمعارفهم، وينكشفوا بمكاشفتهم ومشاهدتهم؛ لأنهم قدوة أصحاب التوحيد، وزبدة أرباب الشهود.

وكيف لا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معهم ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ وجعلناهم مخصوصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أي: بخصلة خالصة صافية عن كدر العلاقات الناسوتية، خالية عن شوب مقتضيات القوى الشهوية البشرية، العائقة عن التحقق بمرتبة اللاهوتية ألا وهي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 46] الدار الآخرة التي هي مقام التمكن في التوحيد

(1) يقال لأولاد الغنم ساعة توضع من الضأن والمغز جميعًا ذكرًا كان أو أنثى: سخلة، وجمعها: سخال. لسان العرب (56/12).

والانكشاف بسرائر الوحدة الذاتية، وسريانها في ملابس الأسماء والصفات المقتضية للتعدد والتكثر.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَفِّينَ﴾ المتخيين لحمل أعباء الرسالة ﴿الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47] المتخيين الصالحين للاتصاف بسرائر التوحيد واليقين؛ أي: أولئك الأنبياء العظام الساعين لطلب الخير في طريق الدين ومرتبة اليقين.

﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم الخليل، وتذكر تصبره ورجوعه ورسوخه في مقام التفويض والتسليم، راضيًا بما جرى عليه من مقتضيات ربه، مع أنه لم يبلغ الحلم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب، استخلفه إلياس النبي على بني إسرائيل، ثم استنبح ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ هو ابن عم اليسع المذكور، أو بشر بن أيوب، قيل: إنما لُقّب به؛ لأنه فر إليه مائة من بني إسرائيل، فأواهم وكفلهم ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 48] أي: كل واحد من الأنبياء المذكورين معدود من الأخيار الأبرار، مثبت في حضرة علمنا ولوح قضائنا من زميرتهم.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٥١﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٢﴾ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٣﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَافِرِ ﴿٥٤﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٦﴾﴾ [ص: 49-54].

﴿هَذَا﴾ الذي يتلى عليكم من الأمر بتذكير أولئك الثقات الكرام ﴿ذِكْرٌ﴾ جميل وإثبات شريف وكمال لهم، إنما ذكرناهم وأمرناك بذكرهم تنبيهًا على جلال قدرهم وعظم شأنهم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محظوراتنا، المتصفين بمأموراتنا، الطالبين لمرضاتنا، الهاربين من سخطنا وانتقاماتنا ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 49] عندنا، وخير منقلب ومتاب في كنف جوارنا وساحة عز قبولنا.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ عطف بيان «لحسن مآب» وهي عبارة عن درجات القرب إلى الوحدة الذاتية، وتجددات التجليات الشهودية على أبواب الكشف والعيان، ولكمال تحفظهم عن مقتضيات القوى ومشتهيات الهوى، وخلوصهم في التوجه نحو المولى، صارت الجنات ودرجات القرب والوصول ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: 50] أي: مفتوحة الطرق، واضحة السبل بالنسبة إليهم، يدخلون فيها من كل باب بلا منع

وحجاب.

وبعد دخولهم فيها، وتحققهم عندها صاروا ﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا﴾ متمكنين على أرائك القبول وسرر الإخلاص، ولهم فيها ما تشتهي قلوبهم من المعارف المتجددة بتجدد التجليات الحية المنبعثة من حضرة الرحمت؛ إذ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من أنواع ما يتفكهون ويتلذذون علمًا وعينًا وحقًا ﴿وَشَرَابٍ﴾ [ص: 51] يشربون من رحيق الحق ولا يروون.

﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَصُورُونَ﴾ أعمالهم المقبولة وأحوالهم المرضية ومقاماتهم العلية في سلوك طريق التوحيد أزواج أبكار ﴿قَاصِرَاتِ الطُّرُفِ﴾ عليهم، لا ينظرون إلى غيره ﴿أَثَرَابٍ﴾ [ص: 52] أحداث كلهن مستويات في السن، ليس فيهن صغر ولا كبر، بل كلهن على كمال اللطافة والعدالة؛ إذ كل ما فيها على كمال الاعتدال.

وبعدما تمكنوا فيها وترفها بنعيمها، قيل لهم من قبل الحق امتثانًا عليهم وتشويقًا: ﴿هَذَا﴾ الذي بين يديكم من النعيم المقيم واللذة الدائمة ﴿مَا تُوَعَّدُونَ﴾ بالسنة الكتب والرسل ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 53] أي: لأجله أو فيه؛ إذ لا وصول إليها إلا بعد الحساب.

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور ﴿لَرِزْقُنَا﴾ المعد لخواص عبادنا، المنجذبين إلينا بانخلاصهم عن لوازم هوياتهم الباطلة، وعن مقتضيات تعيناتهم العاطلة من المأكول والمشرب والمناكح الفانية، فنستبدل لهم بدلها ﴿مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: 54] أي: رزقًا معنويًا لا انقطاع له أصلًا.

﴿هَذَا وَابْتَغِ الْوَعْدَ لِشَرِّ مَنَاقِبٍ﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَقْسِرُوا إِلَيْهَا﴾ ﴿هَذَا ظِلُّ قَوْوَةٍ حَمِيمٍ وَعَسَاقٍ﴾ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ ﴿هَذَا قَوْجٌ مُّقْتَنِجٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَجًا يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿قَدْ مَشُوهَ لَنَا فَيَقْسِرُوا الْقَرَارُ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿أَخَذْنَهُمْ مِصْرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ فَخَصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: 55-64].

خذ ﴿هَذَا﴾ أيها المتشمر نحو الحق، والراغب إلى ما عنده من موائد الإنعام.

والإفضال، وكما فضلنا على المطيعين بأنواع التعظيم والتنعيم، وكرمناهم بأنواع الكرامة والتكريم، انتقمنا عن العاصين الجاحدين ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ الذين طغوا علينا بخروجهم عن مقتضيات حدودنا الموضوعة فيهم، المنبهة إلى مبدئهم ومعادهم ﴿لَشَرِّ مَا بَ﴾ [ص: 55] وأسوا منقلب ومثاب على عكس المطيعين المتقين.

يعنى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان ﴿يَضْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بأنواع حسراتهم والزفرات بين أصناف العقارب والحيات، وأنواع الحشرات المصورة لهم من سيئات أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار ونشأة الاعتبار، وبالجمله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِهَا﴾ [ص: 56] والفراش مهد أصحاب الجحيم وفراشهم.

﴿هَذَا﴾ منقلبهم ومآبهم، ثم بعدما دخلوا في النار، قيل لهم من قبل الحق لخزنة جهنم: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: كل واحد منهم نزلاً لهم شراباً، هو ﴿حَمِيمٌ﴾ وهو الماء الحار الذي يشوي وجوههم ويخرق أمعاءهم، يسخنه نيران شهواتهم التي أتوا بها على خلاف ما أمر الله وحكم عليه ﴿وَعَسَاقٌ﴾ [ص: 57] الماء البارد الزمهريري الذي يتجمد في فيهم، وفي أجوافهم، يبرده كمال بلادتهم وجهلهم بالله الحكيم العليم، وبما وضع سبحانه من الحدود والأحكام الصادرة عن محض الحكمة المتقنة المتعلقة لإصلاح أحوالهم، ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أيضاً ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ أو من جنس الشراب المذوق ومثله، أو «وأخر» من أنواعه على القراءتين ﴿أَزْوَاجٌ﴾ [ص: 58] أصناف وأنواع، بعضها أسوأ من بعض؛ ليكون عذاباً فوق عذاب.

ثم لما اقتحم القادة من أصحاب النار، وأدخلوا أنفسهم عليها خوفاً من الموكلين الذين يسوقوهم نحوها بمقامع من حديد، وازدحم عقيهم أتباعهم على الفور، فضيقوا على القادة مكانهم، وصرخوا على الخزنة من تضيقهم، قال الخزنة لهم بعدما سمعوا صيحتهم وصرائحهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ بعدكم، معقبين عليكم مضيقين عليكم، فالتفتوا أثرهم أهولاء أتباعنا ﴿مُعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ ولا يوسع عليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ [ص: 59] أي: داخلوها أمثالنا.

ثم لما سمع الأتباع قول قادتهم هذا: ﴿قَالُوا﴾ على سبيل المعارضة والمخاصمة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون حقاً أن يقال لكم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ إذ ﴿أَنْتُمْ﴾ بشؤم إضلالكم وإغرائكم ﴿قَدْ مَثُوهُ﴾ أي: الكفر الذي هو سبب دخول النار، وابتدأتموه أولاً، ثم أغريتمونا بتغريركم وتضليلكم، حتى كفرنا بسعيكم، وابتلينا بها

أمثالكم ﴿لَنَا فَبَشِّرْ الْقَارِئِينَ﴾ [ص: 60] أي: بشئ مقرنا ومقركم جهنم الطرد والحرمان. وبعدهما بالغ الأتباع في تعيير القادة وتشنيعهم، تضرعوا نحونا داعين على رؤسائهم؛ حيث ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، وأشركتناك بشؤم هؤلاء المشركين المضلين، ونرجو من عدلك ﴿مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ ودلنا عليه بتغريبه ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: ضعف عذابنا ﴿فِي النَّارِ﴾ [ص: 61] إذ نحن ضالون، وهم ضالون مضلون.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء القادة بعدما توغلوا في ألوان العذاب على سبيل التحسر والتقرير على أنفسهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي شيء عرض لنا، ولحق بأبصارنا ﴿لَا نَرَى رَجَالًا﴾ فقراء أراذل بيننا، أحاطتهم أنواع الفاقة والعناء كذلك ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: 62] الأراذل الساقطين عن درجة الاعتبار، وبالفنا في طردهم.

حيث ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سَخِرِيًّا﴾ واستهزأنا معهم تهكمًا وتقريعًا، لا نرى اليوم منهم أصلًا في النار، أهم ما يدخلون النار كما هو دعواهم ﴿أَمْ﴾ هم أيضًا داخلون، لكن ﴿زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: 63] أي: مالت عن رؤيتهم أبصارنا، واحتجبوا منّا، يعنون بهؤلاء الرجال: فقراء المسلمين الذين استرذلوهم واستهزؤا معهم.

ثم قال سبحانه على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا عن أهل النار ﴿لَحَقُّ﴾ مطابق للواقع، لا بد أن يتكلموا به حين دخولهم فيها، وهو ﴿تَخَاضَعُ أَهْلُ النَّارِ﴾ [ص: 64] في النار على الوجه الذي ذكر.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ طَعْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا لَمَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ [ص: 65-74].

ثم لما بالغ سبحانه في حقبة ما حكى عن أهل النار، أمر حبيبه ﷺ بأن بلغ للأنام التوحيد المبعد لهم عن النار والعذاب المؤبد فيها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

للمشركين المستحقين لعذاب النار إنقاذاً لهم عنها، إن قبلوا منك قولك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لكم بإذن الله ووحيه عن أمثال ما ذكر من العذاب في النشأة الأخرى ﴿و﴾ اعلموا أنه ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب، ويُلتجأ نحوه في النوائب والمصائب ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الأحد الصمد الحي القيوم الذي لا شريك له في الوجود، ولا شيء غيره في الشهود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [ص: 65] للأغيار مطلقاً؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] رجوع الأظلال إلى الشمس، والأمواج إلى البحر.

وهو بتوحيده واستقلاله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مظهر كل ما في العلو والسفل وما في حشوهما، والمحاط بهما؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، وكيف لا وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره في خلقه وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ إذ هو ﴿الْغَفَّارُ﴾ [ص: 66] الستار المخاء لهويات الأغيار، وهياكل الأظلال الغير القار.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم توحيد الحق، واستقلاله في تصرفاته وتدابيره: ﴿هُوَ﴾ أي: الذي بلغت لكم بوحى الله من إحاطة الحق، وشموله لجميع ما لمع عليه بروق تجلياته ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67] وخبر خطير، يخبركم به الحق، وينبهكم عليه من كمال إعطافه وإشفاقه؛ لينقذكم به عن عذابه المترتب على كفركم وشرككم.

﴿أَنْتُمْ﴾ من كمال توغلكم في الجهل والظلال ﴿عَنَّةٌ مُّغْرَضُونَ﴾ [ص: 68] مع أنه أنفع لكم وأصلح بحالكم، وهو سبحانه أعلم بشأنكم منكم، وبمقتضى علمه بحالكم، أنزل كتابه عليكم ليرشدكم إلى جهة معرفته ووجهة توحيده، ومالي إلا تبليغ ما أوحى إلي كسائر الرسل.

إذ ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: الملائكة السماوين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] وقت خلافة آدم ونبوته ونيابته، فألهمني الله بوحيه ما جرى عليهم من الحجج والمعارض، وإفحامهم بعد جدالهم واصطفاء الله إياه، وأمرهم بسجوده تكريماً وتعظيماً.

وبالجملة: ﴿إِنْ يُوْحَى﴾ أي: ما يوحى ﴿إِلَيَّ﴾ من عند ربي ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: 70] أي: إنما أنا منذر لكم عن أن يفتنكم الشيطان وجنوده المرتكزة في

هياكلكم، فيضلوكم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة الموصلة إلى وحدة ذات الحق وكمال أسمائه وصفاته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على مقتضى الجمعية المنتهية إلى الوحدة الذاتية التي جئت لإظهارها وإيضاح منهجها ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ المهيمين بمطالعة وجهه الكريم على سبيل المشورة معه؛ ليظهر كرامة آدم وجلالة قدره: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى بدائع صنعتي وغرائب قدرتي ﴿خَالِقٌ﴾ أي: مظهر موجد ﴿بَشَرًا﴾ أي: جسدا متخذا ﴿مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71] ⁽¹⁾ ليكون مرآة يتراءى فيها عموم أوصافي وأسمائي.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وعدلت قلبه على الوجه الذي جرى في حضرة علمي ولوح قضائي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بعد تعديله ﴿مِّن رُّوحِي﴾ أي: أفيض عليه من حياتي ومن مقتضيات أسمائي وصفاتي؛ ليستحق بخلافتي ونيابتي، ويظهر فيه ومنه آثار أسمائي وصفاتي ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ وخزوا عنده؛ لتعظيمه وتكريمه ﴿سَاجِدِينَ﴾ [ص: 72] ⁽²⁾ متذللين له، واضعين جباهكم على تراب المذلة دونه.

ثم لما سمع الملائكة منه سبحانه ما سمعوا ﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ

(1) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْنِي﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم ملكا وفلكا، فقد وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والسالوسيين والمرائين المداهنيين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الأبد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق.

(2) بيّن الله سبحانه هنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشادة أنوار الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفت بالاهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر هنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، فهو عين هذا النفس بفتح الغاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

أَجْمَعُونَ ﴿[ص: 73] امثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ المعدود من عدادهم، المنخرط في سلوكهم ﴿أَسْتَكْبَرُ﴾ عن سجوده وتعظيمه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: 74] بترك الانقياد للأمر الإلهي.

﴿قَالَ يَإِيبْلِسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾
 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾
 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: 75-81].

ثم لما امتنع إبليس عن إطاعته وتعظيمه مع ورود الأمر الوجوبي من قبل الحق ﴿قَالَ﴾ معاتباً عليه منادياً له سائلاً عن سبب امتناعه: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ المستكبر المتخلف عن أمرنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ أي: أي شيء منعك عن سجود التكريم ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ وصورته بقدرتي، وبمقتضى صورتي، وبكمال حولي وقوتي؛ ليكون مرآتي ووليقي بخلتي وخلافتي ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن طاعة حكمنا وامثال أمرنا ﴿أَمْ كُنْتَ﴾ احتسبت نفسك ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75] المتفوقين عليه، بحيث لا تجوز لنفسك أن تتذلل عنده وتنقاد له؟.

وبعدما سمع اللعين منه سبحانه الخطاب المشتمل على أنواع العتاب ﴿قَالَ﴾ اللعين بعدما اختار الشق الثاني من الترديد: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ صورة ومادة؛ إذ ﴿خَلَقْتَنِي﴾ بكمال قدرتك ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ هي أعلى العناصر وأرفعها قدراً وإمكاناً ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 76] هي أسفل العناصر وأرذلها قدراً وأدناها مكاناً، والأمر بسجود الأفضل الأعلى للأرذل الأدنى غير موافق ومطابق لحكمتك المتقنة.

ثم لما خرج إبليس عن رتبة الإطاعة التعبدية، وأتى بالحجة الإقناعية الجدلية ﴿قَالَ﴾ سبحانه مغاضباً عليه من كمال غيرته وقهره: أنى يطيق أحد من مظاهره ومصنوعاته أن يخالف أمره ويحتج عليه؟ ﴿فَاخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من مرتبة الملكية وأعلى مرتبة العبودية ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: 77] مرجوم مطرود عن سعة رحمتنا، وشرف عز حضرتنا، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وتبعيدي عن ساحة عز قربتي، مستمرة عليك ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: 78] وبعد ذلك عذابك مؤبد أبداً الأبدين.

ثم لما قنط إبليس عن روح الله وسعة رحمته ﴿قَالَ﴾ بعدما آيس مناجيًا: ﴿رَبِّ﴾
يا من رباني على فطرة الإطاعة، فعصيت أمرك بشؤم عجبني ونخوتي ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾
وأ مهل علي، بعدما بعدتني عن كنف قربك وجوارك، وطردتني عن محل كرامتك
وجودك ﴿إِلَى يَوْمٍ يَتَعَثُونَ﴾ [ص: 79].

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 80-
81] وهو النفخة الأولى.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ
وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾
[ص: 82-88].

وبعدما أنظره سبحانه وأنجح مسئوله ﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا في التهديد
لبنی آدم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وجلالك ﴿لَا أُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: لأضلن بني آدم عن جادة التوحيد
﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] إذ لا يسع لهم أن يسدوا مداخلي فيهم، وطرق مخادعتي إياهم.
﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83] وهم الموقنون المخلصون، الذين
أخلصوا في عموم أعمالهم وأحوالهم معك، واعتصموا بحبل توفيقك، راجين رحمتك
ورضوانك، هاربين من سخطك بلا ميل لهم إلى ما يلهيهم عن ربهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه إظهارًا لكمال الاستغناء والقدرة: ﴿فَالْحَقُّ﴾ ما قلت
لك في هذه النشأة يا ملعون، من الطرد والتبديد، وإنظارك فيما بينهم للاختبار والاعتبار
﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [ص: 84] أي: أقول الحق أيضًا فيما يترتب على إغرائك وإغرائك
إياهم، واتباعهم لك، وما يترتب على متابعتهم في النشأة الأخرى.

وهو هذا: والله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ المشتملة على الأودية السبعة، المملوءة من نار
الخدلان والحرمان، المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية من المنحرفين عن جادة العدالة
الإلهية، الضالين عن صراطه السوي ﴿مِنْكَ﴾ أي: من جنسك الذي هم من الجن
﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من جنس الإنس ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85] تابعا ومتبوعا،
ضالاً ومضلاً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرمل بعدما بلغت ما يوحى إليك من الحق الصريح على وجهه
بلا خلط وخبط وزيادة ونقصان كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والعدالة: ﴿مَا

أَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الْمَكْلُفُونَ ﴿عَلَيْهِ﴾ أَي: على تبليغي إياكم ما أُمِرْتُ بِتَبْلِيغِهِ ﴿مِنْ أَجْرِ﴾
 أَي: جعل ومال على عادة أصحاب التلبس من المتشيعين، اللذين هم من أعونة
 إبليس وأنصاره ﴿وَمَا أَنَا﴾ أَيضاً ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86] المتصفين بخصائل ليست
 فيهم على سبيل التلبس والتدليس.

بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أَي: ما هذا القرآن المنزل علي ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أَي: عظة وتذكير
 ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 87] من الثقلين المكلفين بالهداية والإيمان والتوحيد والعرفان.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أَيُّهَا الْمَتَذَكِّرُونَ بِتَذَكِيرَاتِهِ، وَالْمَعْرُضُونَ عَنْهَا ﴿نَبَأُهُ﴾ أَي: صدق
 إخباره ومواعيده ووعيداته، وما يترتب عليها وعلى قصصه وأحكامه، وما ينكشف من
 حكمه ورموزه وإشارته ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 88] أَي: بعد انخلاعكم عن لوازم
 ناسوتكم، واتصافكم بخلق اللاهوت في النشأة الأخرى، حين تُبْلَى السرائر، وتُكْشَفُ
 الضمائر، وترتفع الحجب والأستار، فاعتبروا الآن يا أولي الأبصار، وذوي الاعتبار ما
 فيه من السرائر والأسرار.

خاتمة السورة

عليك أَيُّهَا السَّالِكُ الْمُتَأَمِّلُ فِي مَرْمُوزَاتِ الْقُرْآنِ، وَالْمَتَدَبِّرُ فِي دَرْكِ إِشَارَاتِهِ الْخَفِيَّةِ
 تَحْتَ أَسْتَارِ أَلْفَاظِهِ وَأَحْكَامِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ لَتَهْذِيبِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَتَصْفِيَةِ السَّرِّ عَنِ التَّوْجِهِ
 نَحْوِ الْغَيْرِ مُطْلَقًا، أَنْ تَعْرِفَ أَوَّلًا مَا فِي نَفْسِكَ مِنْ أَعْوَانَةِ الشَّيْطَانِ وَجُنُودِهِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ،
 الْمَزْعُوجَةِ لَكَ إِلَى قَبُولِ مَأْمُورَاتِهَا الْمُقْتَضِيَةِ لِلْبَعْدِ عَنْ جَادَةِ الْعَدَالَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ، الَّتِي
 هِيَ صِرَاطُ اللَّهِ الْأَقْوَمِ، وَتَجَاهِدَ مَعَهَا أَمْكَنَكَ وَأَعَانَكَ الْحَقَّ وَوَفَّقَكَ لِتَسْخِيرِهَا إِلَى أَنْ
 صَارَتْ مَغْلُوبَةً لَكَ مَقْهُورَةٌ تَحْتَ قَهْرِكَ، حَسْبَمَا يَسِّرُ اللَّهُ وَوَفَّقَكَ عَلَى غَلْبَتِهِ.

ثم بعد ذلك نبع من صدرك ينابيع الحكمة المترشحة من بحر الوحدة الذاتية،
 وجري على لسانك ما أراد الله جريه وشاء، بعدما أفناك عنك، وأبقاك ببقائه، وصار
 سبحانه قلبك وسمعك وبصرك وجميع قواك، وحيثما اجتمع الفرق، وارتبقت الفتق، واتحد
 الظهور والبطون، وانطوى الأزل والأبد، واتصل الأول والآخر والظاهر والباطن.

وبالجملة: هو بكل شيء عليم ليس كمثله شيء ولا معه شيء، وهو الحي القيوم
 السميع العليم.

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزمر

لا يخفى على الموحدين المحمدين المندرجين من سفل الإمكان وحضيض التقيد إلى أوج الوجوب وذروة الإطلاق، التي هي الوحدة الذاتية المنطوية دونها الكثرات مطلقاً، أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأسنى إنما هو بتوفيق الحق على متابعة كتبه وإطاعة رسله المرسلين من عنده سبحانه؛ لتبيين ما في كتبه من الحكم والأحكام والمعارف والحقائق المرموزة فيها.

ولا شك أن أفضل الكتب وأكمل الرسل هو القرآن ونبينا محمد ﷺ، فمن تمثل بمقتضيات كتاب الله، وتمسك بسنن صدرت من معدن الرسالة وأحاديث شاعت واستفاضت من مشكاة النبوة والولاية، فقد أفاض عليه الحق من سجال لطفه وفضله، وفاز بما جبل لأجله.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، وأوصاه بامثال ما في كتابه المنزل عليه، وتبليغه إلى من وفق بمتابعته، وجبل من زمرة، وهدي بإرشاده وهدايته، فقال بعدما تيمن باسمه الأعظم المشتمل على كل أسمائه الحسنی: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل كتابه معرباً عما فصله في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عبادته بإنزال الكتاب إليهم؛ ليهديهم إلى درجات جنانه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته، بعدما أفناهم عن مقتضيات تعيناتهم المقتضية للكثرة.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② أَلَا هُوَ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَوْ رَادَّ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④﴾ [الزمر: 1-4].

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ المبين لطريق التوحيد، المنبه على وحدة الحق وكمالات أسمائه الحسنی وأوصافه العظمی ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المدبر لجميع ما جرى في ملكه وملكوته؛ إذ لا منزل في الوجود سواء سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أمره بالاستقلال والاختيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الزمر: 1] ⁽¹⁾ المتقن في فعله حسب علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة.

وبعدما بين سبحانه أمر التنزيل عمومًا أشار إلى التنزيل المخصوص المتمم المكمل لأمر التنزيل والإنزال مطلقًا، فقال مشيرًا إلى عظم قدر المنزل إليه، وجلالة شأنه، ورفع رتبته ومكانه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تعظيمًا لشأنك وتأيدًا لأمرك ﴿الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، مع زوائد خلت عنها كلها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بلا شوب شك وريب في نزوله منَّا ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ الذي اصطفاك لرسالته وخصصك بكتابه، هذا حال كونك شاكرا لنعمه، معترفًا بكرمه ﴿مُخْلِصًا﴾ في عبوديتك وعبادتك إياه، مجتنبًا عن مداخل الشرك ورعونات الرياء مطلقًا؛ إذ ﴿لَهُ الدِّينُ﴾ [الزمر: 2] أي: لا مستحق للإطاعة الخالصة والانقياد الصافي سواء، ولا يعبد بالحق إلا إياه.

وبعدما أمر سبحانه بالعبادة والإخلاص في الإطاعة والانقياد، نبه على عموم عباده بالإخلاص في الطاعات، والخلوص في نيات العبادات، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ⁽²⁾ أي: تنبهوا أيها المجبولون على فطرة التوحيد أن الدين الذي كلفكم

(1) قال الورتجبي: أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص، قال الأستاذ: كتاب عزيز نزل من ربِّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والمعجب منها، كيف لا ترهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها

(2) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملة لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمر به، ولولا هذا لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَالَمِ مُخْلِصٌ. «تفسير القشيري» (7/ 12).

الحق عليه، وأوجه عليكم، هو الدين الخالص عن أمارات الشرك ومقتضيات الهوى، الصافي عن شوب العجب والسمعة وشين الرياء، وبعدما وضع أن الدين الخالص لله، ولا مستحق له سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: والمشركون الذين ادعوا الولاية لغير الله، واستحقاق الإطاعة والانقياد لسواه، قالوا في تعليل اتخاذهم حين سئلوا عنه ونجوا عليه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: هؤلاء الغرائق العلا التي هي الأصنام والأوثان، وجميع ما يعبد من دونه سبحانه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: تقرِّبنا كاملاً؛ لأنهم كملة مقبولون عنده، مكرمون لديه سبحانه، فتوسل بهم؛ لنصل إلى قرب الحق وجواره.

لا تبالوا أيها الموحدون المتمسكون بحبل التوفيق الإلهي بقولهم هذا، ولا تلتفتوا إلى أباطيلهم الزائفة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الشرك والعناد على سبيل الرشاد والثبات ﴿يَخْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبينكم بمقتضى علمه وخبرته ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الشرك ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ معكم أيها الموحدون بأن يدخلهم في النار بأنواع المذلة والهوان، ويوصلكم إلى الجنة بالمغفرة والرضوان، وكيف لا يدخل سبحانه المشركين النيران بأنواع الخزي والهوان ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يوفق على الهداية والرشاد ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في حق الله ومقتضى الوهيته وربوبيته، واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3] بنعمه الموهوبة له من فضله وكرمه.

حيث أثبت له سبحانه شريكاً ولذا مع أنه ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل في الألوهية والوجود، المنزه عن الأهل والولد ﴿أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ويختار صاحبة ﴿لَا ضَظْفَى﴾ واختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من بين سائر مخلوقاته في جميع شئونه وحالاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أولى وأنسب له، وأليق بشأنه من مريم وعيسى، فكيف من الأصنام والأوثان ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تعالى شأنه وتنزه ذاته الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد عن إيجاد صاحبة والولد، بل ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ من جميع الوجوه، المستقل بالألوهية والوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4] لعرق السوى والأغيار مطلقاً قطعاً لعرق الشراكة عن أصله.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ [الزمر: 5-6].

ويعتقضى توحيده سبحانه وقهره، وإظهار كمالاته المندمجة في وحدة ذاته باعتبار شئونه وتطوراته اللازمة للحي الأزلي الأبدى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: قدر وأعد الأسماء الذاتية الفعالة، المنعكسة من شئونه الذاتية والأوصاف القابلة المنفعلة من تلك الأسماء المظهرة لأثارها ملتبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع، ولا ينبغي أن يرتاب فيه أحد بعدما انكشف بسرائر الوجود والتوحيد حسب الود الإلهي، ويعتقضى هذا الازدواج المعنوي الجاري بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يغشي ويغيب سبحانه على وجه التلخيص والتخليط أضواء الأسماء والصفات بظلام الهيولي والتعينات في النشأة الأولى، فكذا يغطي ويغيب في النشأة الأخرى حجب الطبائع وأظلال الهويات بأشعة أنوار الذات المنشئة منها، ويعتقضى الشئون والتطورات المثبتة للأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَعَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ أي: جعله قادراً على معرفة ما لم يكن يعلم، ويعتقضى بالاستيلاء والاستقلال ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ أي: جذب وقبض نحوه سبحانه ويعتقضى الجاذبة المعنوية الحية الكاملة الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات المنعكسة من الأسماء والصفات الإلهية ﴿وَالْقَمَرَ﴾ أي: الهويات القابلة لانعكاس شمس الذات المستخلقة عنها، إظهاراً لكمال قدرته ومثانة حكمته؛ لذلك ﴿كُلُّ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى حلول أجل معين مقدر من عند ربه ويعتقضى جذبه وعنايته، فإذا حل الأجل، انقطع الجري والسير وارتفع السلوك.

﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿هُوَ﴾ أي: الموصوف بهذه الصفات الكاملة ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز ذاته عن أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله بإدراك العقول المتحيرة والأوهام المدهوشة، لكنه ﴿الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5] السَّارِ لغيوم تعيناتكم بإشراق شمس الذات، وانقهار جميع ما لمع عليه نور الوجود على مقتضى جلاله وتفردته في نعوت كماله.

﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: أظهركم وأوجدكم بالتجليات الجمالية ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي طبيعة العدم القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ وأظهر ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إبقاءً للتناسل، وتسميًا للازدواجيات الغير المتناهية حسب الأسماء والصفات المتقابلة، الغير المتناهية الإلهية، إظهارًا لكمال القدرة.

﴿و﴾ بعدما أتم سبحانه أمر إيجادكم وإثباتكم ﴿أَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي: قسم وقضى لأجلكم تسميًا لأمر معاشكم عناية منه وتكريمًا ﴿مِنْ الْأَنْعَامِ﴾ المناسبة لتغذيتكم وتقوية أمزجتكم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكرًا وأنثى على مقتضى جبلتكم لتدوم بدوامكم، وهي الأصناف الثمانية المذكورة في سورة الأنعام، هذا في ظهوركم وبرزكم في عالم الشهادة، وفي عالم الغيب والبطون ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ ويفدر موادكم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: تقديرًا بعد تقدير أصعب وأغرب من سابقه؛ بأن قدركم أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم سواك إنسانًا، ونفخ فيكم روحًا من روحه، وبالجمل: أظهركم بعدما أخفاكم مدة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هي أصلاب آبائكم وحجب تعيناتكم ويطون أمهاتكم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل بكم هذه الأفعال الجميلة المتقنة ﴿اللَّهُ﴾ المستقل بالالوهية والتصرف في ملكه وملكوته ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم وأحسن تربيته لا مربى لكم سواه؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ والملكوت خاصة لا يشارك في ملكه، ولا ينازع في سلطانه وشأنه، فظهر أنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد له ويرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، المستحق بالالوهية والربوبية ﴿فَأَنى تُضْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] وتعبدون أيها المشركون المنحرفون عن جادة توحيده.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ وَلَقَدْ مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرُّ دَعَارِهِ مُبَيِّنًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ مُنْقِصَةً مِّنْهُ لَمَسَّ مَا كَانَ يَدَّهْوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَهُ لَكُمُ امْتِصًا لِّخَيْلٍ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: 7-8].

مع أنكم أيها الأظلال المنهكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ يا الله وتكفروا ظهوره واستيلاءه على ما ظهر ويطن بالاستقلال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتمرّز برءاء

العظمة والكبرياء ﴿غَنِي عَنْكُمْ﴾ وعن إيمانكم وإطاعتكم ﴿و﴾ غاية ما فيه أنه عز شأنه ﴿لَا يَرْضَى﴾ ولا يحب ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الذين ظهروا منه سبحانه بمقتضى أوصافه وأسمائه ﴿الْكُفْرَ﴾ والجحود بذاته سبحانه، عطفًا لهم وترحمًا عليهم؛ لأنهم جبلوا على فطرة الإيمان والعرفان، وإلا فهو سبحانه أعز وأعلى من أن يفتقر إلى إيمان أحد وإطاعته، أو يتضرر بكفره وإنكاره ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: وكذا غني عنكم وعن شكركم نعمه الفائضة عليكم؛ إذ لا يعلل فعله سبحانه بالأغراض والأعراض، لكن يرضى عنكم لو شكرتم نعمه، ويزيد عليكم بأضعافها لإتيانكم بالمأمور وامثالكم أمره، مع أن نفع شكركم عائد إليكم.

﴿و﴾ بالجملة: لا بد لكل واحد من المكلفين أن يمثلوا بما أمروا من عنده سبحانه، حتى يصلوا ما وعدوا من المثوبات والكرامات، واجتنبوا عما نهوا أيضًا عنه؛ ليخلصوا من المهالك والدركات؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَأَزْرَهُ﴾ مرتكبة بحمل أثقال الأوزار والآثام ﴿وَزَرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَى﴾ كما لا تتصف بحسناتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ كافة كما كان منشاكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم سبحانه بعد رجوعكم إليه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما جرى عليكم من سيئاتكم وحسناتكم، بلا فوت شيء منها، ويجازيكم على مقتضاها، وكيف لا يخبركم ويحاسبكم بأعمالكم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7] أي: بجميع الأمور الكائنة المكنونة في صدور عباده؛ أي: بما خفي في ضمائرهم ونياتهم، فكيف بما صدر عن جوارحهم وآلاتهم.

وبعد ما نبه سبحانه إلى أحوال عباده، شرع يعد مساوئهم وأخلاقهم الذميمة الناشئة من بشريتهم ويهيئهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي: لحقه وأحاط به ﴿ضُرٌّ﴾ مؤلم مزعج ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ متضرعًا نحوه ﴿مُنِيئًا إِلَيْهِ﴾ إذ لا مرجع له سواه، ملجأ لكشفه وإزالته ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ سبحانه وأزال عنه كربيه وضره، وأعطاه وأفاض عليه متعهدًا له، متفقدًا حاله ﴿نِعْمَةً﴾ موهوبة له ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من لدنه سبحانه تفضلاً وتكريماً إياه ﴿نَسِيَ﴾ ونبذ وراء ظهره ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ عن شدة ضره، وسورة كربيه.

﴿و﴾ مع ذلك لم يقتصر على النبذ والنسيان، بل ﴿جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿لِلصِّدِّقِ﴾ المتميز عن الضد والند ﴿أَنْدَادًا﴾ وأدعاهم شركاء له سبحانه، وإنما جعل وفعل كذلك ﴿لِيُفْلِلَ﴾ الناس الناسين عهد ربهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ويحرفهم عن طريق توحيدهم، ساعيًا

في إغوائهم وإضلالهم، مجتهداً فيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نبابة عنا مهدداً إياه: ﴿تَمَتُّعٌ﴾ أيها الضال المضل ﴿بِكُفْرِكَ﴾ هذا في نشاطك هذه ﴿قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً، ومدة يسيرة ﴿إِنَّكَ﴾ ألبتة في النشأة الأخرى ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8] أي: من ملازميها، ومن جملة ما فيها.

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسًا رَيْكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر: 9-10].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ أي: يتعجب المشرک المثبت لنا شركاء وأنداداً من تهديدنا إياه بالنار وعذابها، فيظن أن من هو قائم على أداء العبادات، مواظب عليها ﴿آناء الليل﴾ أي: في خلاله وأطراف النهار ﴿ساجداً﴾ متذلاً واضعاً جبهته على تراب المذلة من خشيتنا ﴿وقائماً﴾ على قدميه مدة متطاولة تعظيماً لأمرنا، مع أنه ﴿يحذر الآخرة﴾ أي: العذاب الأحق فيها بمقتضى جلالنا وسخطنا ﴿ويرجو رحمة ربه﴾ على مقتضى لطفه وجلاله وجماله كهؤلاء الكفرة بالله، الجهلة بشأنه، المتخذين له سبحانه أنداداً ظلمًا وزورًا، مع تعاليه عنه سبحانه.

وبعد ما تفرست يا أكمل الرسل منهم هذا الظن والتسوية ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التبيكيت والإلزام، مستفهما إياهم على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ المكلفون ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الحق بذاته وأسمائه وأوصافه، ويعبدون له سبحانه بمقتضى علمهم به، وبأوامره ونواهيهم ﴿والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذاته ولا شيئاً من أوصافه وأسمائه، ولا يعبدون له أيضاً؟ كلا وحاشا، من أين تتأتى المساواة، فستان ما بين العالم والجاهل، والعابد والعاصي، إلا أنه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9] أي: ما يتذكر ويتعظ بأمثال هذه المواعظ والتذكيرات المنبهة على سرائر التوحيد، إلا أولو الأبواب الناظرون إلى لبِّ الأمور، المعرضون عن قشوره.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نبابة عنا منادياً لخلص عبادنا: ﴿يَا عِبَادِ﴾ أضافهم إلى نفسه اختصاصاً وتكريماً ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم بوحدة ذاتي وظهوري حسب بشوني وتطوراتي بمقتضى أسمائي وصفاتي، مقتضى إيمانكم التقوى عن مقتضيات الهوى.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ واجتنبوا عن محارمه ومنهياته، واتصفوا بمأموراته، واعلموا أنه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الأدب مع الله ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الاعتبار والاختبار ﴿حَسَنَةً﴾ وبأضعافها وآلافها أيضًا في الآخرة التي هي دار القرار، فاعتبروا يا أولي البصائر والأبصار.

فعلحكم الإتيان بالإحسان في كل حين وأوان وزمان ومكان ﴿و﴾ لا تفتروا عنه، وعن المواظبة عليه بتفاقم الأحزان وتلاطم أمواج الفتن في الأوطان؛ إذ ﴿أَرْضُ اللَّهِ﴾ المعدة لأداء العبادات والاشتغال بالطاعات ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فسيحة، فعليكم الجلاء لأجل الفراغ والخلاء، فتهاجروا إليها متحملين ما لحقكم من الشدائد والمتاعب في الانتقال، صابرين على مفارقة الأوطان والخلان، ومصادفة الكروب والأحزان، واعلموا ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ﴾ المتحملون لأنواع الشدائد والمشاق في طريق الإيمان ﴿أَجْرَهُمْ﴾ ويوفر عليهم الحسنات وأنواع المثوبات والكرامات ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] إلى توفية وتوفير لا يمكن ضبطه بالعد والإحصاء تفضلاً عليهم وتكريماً.

وفي الحديث صلوات الله على قائله: «تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»⁽¹⁾.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۖ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلْ اللَّهُ أَغْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝١٤ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ ۚ يَعْبُدُونِ ۝١٦﴾ [الزمر: 11-16].

ثم قال سبحانه أمراً لحبيبه بالتوصية والتبليغ لعموم عباده كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة، خالياً عن رعونات الرياء، متمحضاً للنصح والتكميل: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (211/15).

﴿إِنِّي أُمِزْتُ﴾ من قبل ربي ﴿أَنْ أَغْبَدَ اللَّهَ﴾ حق عبادته، وأطيعه حق إطاعته ﴿مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ﴾ [الزمر: 11] والانقياد الصادر مني، لآتسبب بإطاعتي وانقيادي على وجه الإخلاص كي أعرفه حق معرفته، ويفيض على قلبي زلال توحيده وكرامته.

﴿وَأُمِزْتُ﴾ أيضًا من عنده ﴿لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: 12] أي: أسبق المسلمين المفوضين أمورهم كلها إليه، منخلعين عن لوازم بشريتهم ومقتضيات أهوية هويتهم. ثم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي﴾ مع كمال وثوقي بكرم الله وسعة رحمته ووفور فضله وجوده علي ﴿أَخَافُ﴾ خوفًا شديدًا ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخرجت عن عروة إطاعته وانقياده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: 13] فظيع؛ لعظم ما فيه من الجزاء المترتب على الجرائم العظام.

وبعد ما بلغت ما بلغت ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على وجه الحصر والتخصيص: ﴿اللَّهُ أَغْبَدُ﴾ لا غير؛ إذ لا غير معه ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14] حسب وسعي وطاقتي.

﴿فَاغْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغي والضلال ﴿مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الكاسدة، واعلموا أنه ما يترتب على عبادة غير الله إلا الخيبة والخسران ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بعبادة غير الله والانحراف عن جادة توحيده، ﴿وَوَ﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ أيضًا بالإغواء والإضلال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدلة لجزاء الأعمال ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15] والحرمان العظيم، نعوذ بك منه يا ذا القوة المتين.

وكيف لا يكون خسران المشركين ميئًا وحرمانهم عظيمًا؛ إذ ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وأطباق ﴿مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كذلك بالنسبة إلى من في الطبقة السفلى؛ لأن دركات النيران مثل دركات الإمكان متطابقة بعضها فوق بعض، فيكون سكانها أيضًا كذلك ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي سمعت وصفه ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ في دار الاختبار، ويحذرهم عنه، ثم ناداهم؛ ليقبلوا إليه ويعتبروا من تخويفه، فقال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16] واحذروا من بطشي وتعذبي.

﴿وَالَّذِينَ لَبِثُوا الظُّلُمَاتِ أَنْ يَسُبُّوا اللَّهَ وَلَنَا بَوَالِ اللَّهِ لَهُمُ الشَّرُّ فَيَشْرَعُ اللَّهُ﴾ ١٧ ﴿لِلَّذِينَ

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْآلَةِ﴾ ١٨

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَبَّهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِهَا عُرْفٌ مَبِينَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ [الزمر: 17-2].

﴿و﴾ المؤمنون الموحدون ﴿الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المبالغ في الطغيان العدوان، وهي الشيطان المضل المغوي، واستنكفوا ﴿أَنْ يَغْبُدُوا﴾ ويقبلوا منها سوستها، ويصفوا إلى إغوائها وتغريها ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَنَابُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في النشأة الأولى على وجه الإخلاص والخضوع، نادمين عما صدر عنهم من الجراءة الجريئة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ في النشأة الأخرى بالدرجة العليا والمثوبة العظمى.

﴿فَبَشِّرْ﴾ بها يا أكمل الرسل ﴿عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: 17-18] حق الذي صدر منا، ولا يمترون فيه، بل ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ويمثلون بما أمروا به، يجتنبون عما نهوا عنه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الموفقون على استماع قول الحق والامثال، هم ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى طريق توحيده، ووفقهم إلى الفناء فيه والبقاء ببقائه ﴿و﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18] ⁽¹⁾ الواصلون إلى لبِّ الباب.

(1) ورد في التأويلات: عباد الله قد اجتنبوا طاغوت الهوى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَغْبُدُوا﴾ [الزمر: 17]، يشير إلى أن طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب عبادة الطاغوت من خالف هوى نفسه، وعائق رضاه مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه رجوعاً بالكلية، ويقول: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 18] يشير إلى معانٍ كثيرة: منها: إن أهل البشارة من يكون مخصوصاً بخاصية العبدية التي هي فصاحة إلى الله أي: يكون جسداً عما سوى الله. ومنها: إنهم مبشرون بالوصول والوصول، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: 18] إلى الحضرة. ومنها: إن الألف واللام في القول المعموم، فيقتضي أن لهم حسن الاستماع في كل قول من القرآن وغيره، ولهم أن يتبعوا أحسن من يحتمل كل قول إتباع درايته والعمل به، وأحسن كل قول ما كان من الله أو لله، أو يهدي إلى الله، وعلى هذا يكون استماع أتباع قول القوال من هذا القبيل. ومنها: إن القول يسمع الإنسان والشيطان والنفس والملك والإله، فيسمع من الإنسان أن الحق والباطل، ومن الشيطان الباطل، فإنه يشير إلى المعاصي دعوة الشهوات مما لها فيه نصيب، ومن الملك دعوة الطاعات، ومن الحق تعالى الخطاب في حقائق التوحيد والدعوة إلى الحضرة، كما قال تعالى: ﴿أَزِجْني إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفجر: 28]، وقال: ﴿وَتَبْلُغْ إِلَيْهِ تَبْيِلاً﴾ [المزمل: 8]، فأحسن الأقوال قول الله وأحسن الاستماع أن يستمعوا من الله، ومن عرف الله لا يسمع إلا بالله ومن الله، ومن أحسن

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والتأديب: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾
 أتسعى وتجتهد يا أكمل الرسل في تخليص من ثبت منّا في سابق قضائنا وحضرة علمنا
 الحكم بتعذيبه؛ يعني: أبا لهب وولده وأتباعه ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: 19]
 أي: أنتظن وتعتقد في نفسك أنك تقدر على إنقاذ من هو مخلد في نار جهنم بمقتضى
 قهرنا وجلالنا، فلا تتعب نفسك فيما ليس في وسعك؛ إذ لا يبدل قولنا، ولا يغير
 حكمنا.

﴿لَكِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ في جميع شئونهم وحالاتهم، خائفين من
 قهره وغضبه، راجين رحمته ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿غُرُفٌ﴾ درجات عليّة ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾
 ﴿غُرُفٌ﴾ درجات أعلى منها، كأنها منازل ﴿مُتَبَيِّنَاتٌ﴾ على الأرض، بعضها فوق بعض على
 تفاوت طبقاتهم في مراتب القرب ﴿تَجْرِي﴾ على التعاقب والتوالي ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾
 الأنهار أي: أنهار المعارف والحقائق المترسّحة من بحر الذات على مقتضى الجود
 الإلهي، وما كان ذلك إلا ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي وعدها لخُلص عباده الذين سلكوا في
 سبيله، متعطشين إلى زلال توحيده، فله أن ينجزه حتماً؛ إذ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ﴾ القادر
 المقتدر على جميع ما شاء وأراد ﴿الْمِيعَادِ﴾ [الزمر: 20] الذي وعده للعباد سيما لأهل
 العناية منهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
 مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربه؛ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ
 ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: 21-22].

أتعجب وتستبعد من الله إنجاز المواعيد الموعودة من عنده؟ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها
 المعتبر الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة والاختيار ﴿أَنْزَلَ﴾ وافاض بمقتضى

أن يسمع من الله أحسن أن يسمع عباد الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَتَأْتُمُ اللَّهَ﴾ [الزمر: 18] بجذبات
 الطافه إلى أعطائه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18] الذين عبروا عن قسرية الأشياء
 ووصلوا إلى الباب حقائقها.

جوده المعهود ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿مَاءٌ﴾ أي: حياة مترشحة من عين الوجود، وبحر الذات ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعُ﴾ أي: أدخله في ينابيع التعينات، والهويات المنعكسة من تلك السماء والصفات، وأجراه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأرض الطبيعية القابلة لقبول الآثار الفائضة ﴿ثُمَّ﴾ بعد إخراجها عليها ﴿يُخْرِجُ بِهِ﴾ بمقتضى حكمته المتقنة ﴿زَرْعًا﴾ أي: هياكل أنواعا، وأصنافا مثمرة ثمر العقائد والمعارف والحقائق ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ حسب اختلاف الاستعدادات الفائضة عليها من عنده.

﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ أي: بعدما ظهر منها ما ظهر، وترتب عليها ما ترتب، يجف ويبس إلى حيث يذهب نضارتها ورواؤها المترتب على الإمداد الإلهي ﴿فَتَرَاهُ﴾ حينئذ ﴿مُضْفَرًا﴾ مشرفا على الانهدام والانعدام ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾ يقبض ما فيه من رشاشات الحياة ﴿حُطَّامًا﴾ فتاتا ورفاتا، تذروه رياح الآجال، وتعيده إلى ما عليه من العدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21] أي: تذكيرا بليغا، وبرهانا قاطعا على وجوب وجود من هو منبع الجود، ومبدأ جميع الوجود، لا يطرؤه زوال، ولا يعرضه انتقال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إلا أنه يتذكر به، ولا يتنبه منه إلا أولو الألباب، الناظرون بنور الله على لب الأمور، المعرضون عن قشوره.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعني: أيستوي من وسع الله قلبه بنزول توحيده، ووفقه لقبل شرائع الإسلام ومعالم الدين المبين لدلائل التوحيد واليقين ﴿فَهُوَ﴾ بواسطة تشرح الله وتوفيقه إياه ﴿عَلَى نُورٍ﴾ انكشاف تام يقين كامل ﴿مَنْ رَّاهُ﴾⁽¹⁾ بحيث يفنى فيه، ويبقى ببقائه، وينظر بنوره، ومن طبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، فأعماه عن إِبصار آيات وجوب وجوده، وأصمته عن استماع دلائل توحيده؟! كلا وحاشا.

(1) بين الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وثباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرّمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته.

بل ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد معد ﴿لِلْقَاسِيَةِ﴾ المضيق المكدرة ﴿قُلُوبُهُمْ﴾
 مِن ﴿سَمَاعِ﴾ ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ واستماع ما نزل من عنده من الآيات العظام الدالة على وحدة
 ذاته ووجوب وجوده ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول والحضور
 ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22] وجهل عظيم، وغفلة شديدة، وغشاة غليظة، لا نجاة
 لهم منها.

وبالجملة: لا يرتفع عن عيون بصائرهم حجبهم الكثيفة أصلاً ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ
 اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: 40].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشِرُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
 رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ
 لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٤﴾ [الزمر: 23-24].

فكيف يتيسر لأحد أن يعرض عن ذكر الله وعن استماع كلامه ١٢ مع أنه: ﴿اللَّهُ﴾
 الذي دبر أمور عباده، وأرشدهم إلى طريق معاده؛ حيث ﴿نَزَّلَ﴾ تميماً لترتيبهم
 ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وأبلغه في الإفادة والبيان ﴿كِتَابًا﴾ جامعاً لما في الكتب السالفة
 ﴿مُتَشَابِهًا﴾ بعض آياتها ببعض في حسن النظم، واتساق المعنى ﴿مَّثَانِي﴾ أي: ثني
 سبحانه، وكرر الأحكام فيه تأكيداً ومبالغة، أمراً ونهيًا، وعداً ووعدًا، وثواباً وعقابًا، عبرًا
 وأمثالاً، قصصاً وتذكيرًا.

وجعله في كمال الإيجاز والإعجاز والتأثير؛ بحيث ﴿تَقْشِرُ﴾ أي: تنقبض
 وتضطرب على الاستمرار ﴿بِئْسَ﴾ أي: من سماعه ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ مهابة
 ﴿رَبِّهِمْ﴾ في جميع حالاتهم، خوفًا من سلطة سلطنة جلاله ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ﴾
 تطمنن ﴿قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجاء من سعة رحمته، بمقتضى لطفه وجماله.

وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الكتاب الرفيع الشأن، الواضع البرهان ﴿هُدًى﴾ الهادي
 الهادي لعباده ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ويعوق على الهداية والرشاد بمقتضى ما فيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من
 عباده، ويضل به وعن الاستغادة بما فيه من يشاء إرادة واختيارًا ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾

بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23] ⁽¹⁾ إذ لا يبدل قوله، لا ينازع

(1) أخبر عن خطابه وكتابه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: 23]، يشير إلى معانيها: إنها نزل على محمد ﷺ القرآن، أحسن حديث مما نزل على جميع الأنبياء والمرسلين. ومنها: إنه أحسن حديث؛ لأنه كلام الله وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث. ومنها: إنه كتاب متشابه في اللفظ، مثنائي في المعنى من وجهين: أحدهما لكل لفظ منه معاني مختلفة، بعضها يتعلق بلغة العرب وبعضها يتعلق بأحكام الشرع، وبعضها يتعلق بإشارات الحق تعالى، كمثل الصلاة فإن معناها في اللغة الدعاء، وفي أحكام الشرع؛ هي عبارة عن هيئات وأركان وشرائط وحركات مخصوصة بها، وفي إشارة الحق تعالى هي الرجوع إلى الله تعالى، كما جاء روحه من الحضرة بالنفخة الخاصة إلى الغالب، فإنه عبر على القيام الذي يتعلق بالسموات، ثم على الركوع الذي يتعلق بالحيوانات، ثم على السجود الذي يتعلق بالنباتات، ثم على التشهد الذي يتعلق بالمعادن، فبالصلاة يشير الله تعالى إلى رجوع الروح إلى حضرة ربه على طريق جاء منها؛ ولهذا قال النبي ﷺ «الصلاة معراج المؤمنين» وليس هاهنا مقام شرح رجوع الروح إلى حضرة ربه بمعراج الصلاة، وقد شرحنا حقيقة هذا في كتابنا الموسوم بـ «منارات السائرين إلى حضرة الله ﷻ ومقامات والطائرين» ولكن المعاني والإشارات والأسرار والحقائق مثنائي فيها إلى لا متناهي، وإلى هذا أشير بقوله: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَاذًا لِكَلِمَاتٍ رَبِّي...﴾ [الكهف: 109]. ﴿تَفْشِيرُ مِثْلِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: 23]، إذا قرعت صفة الجلال أبواب قلوبهم من خشية الله وهيئته، ﴿ثُمَّ تَلِيَنَّ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر: 23] بتجلي صفات جماله ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23] بالشوق والطلب، ﴿ذَلِكَ﴾ [الزمر: 23] أي: ذلك التجلي ﴿هُدًى لِلَّهِ﴾ [الزمر: 23] ليس للإنسان إليه سبيل إلا بالطلب رد، والسبيل سد، ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ [الزمر: 23] بأن يكله إلى نفسه وعقله ويحرمه عن الإيمان بالأنبياء ومتابعيهم، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23] من براهين الفلاسفة والدلائل العقلية. وقال روزبهان: وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفة الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهاً لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ أنه خبر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزيه والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاص، مذكور مبين لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في العراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولي على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم

حكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي﴾ أي: يصل ويدخل ﴿بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أشده وأسوأه؛ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أيديهم، يسبحون إلى النار بحيث لا يصل منهم إليها أولاً إلا وجوههم، كمن آمن منه وسلم عن مطلق المكاره؟ كلا وحاشا ﴿وَقِيلَ﴾ حينئذ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين من مقتضى الحدود الإلهية ظلماً وعدواناً على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغفلة والشهوات جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 24] في دار الاختبار، بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الباطلة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥) ﴿فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ لِلْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِمُحَمَّدٍ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) [الزمر: 25-29].

وليس هذا التكذيب، والجزاء المترتب عليه مخصوصاً بهؤلاء الكفرة المكذبين

من الصدور على الجلود، فتقشر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلامة؛ لهيئتهم إلى رؤية جماله؛ ذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشد في المعرفة، مرشد في التوحيد، راسخ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين. قيل في قوله: ﴿تَقْشِرُ﴾ و﴿تَلَيْنُ﴾ أي: تقشر بالخوف، وتلين بالرجاء. وقيل: بالقبض والبسط. وقيل: بالهبة والأنس. وقيل: بالتجلي والاستار. وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد. وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين. وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

لك يا أكمل الرسل، بل كل من ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين
رسلهم المبعوثين إليهم ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ فجاءة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 25]
مقدماته وأماراته أصلاً.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿الْعِزِّي﴾ أي: الذل والهوان، والخيبة والخسران
﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم فيها ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أشد وأفزع ﴿لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 26] شدته وفضاعته لما ارتكبوا ما يؤول إليه ويوقعهم فيه.

﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهدونا وموآثيقنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾
المتكفل لإهداء عموم الضالين ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبههم على معالم الدين ومراسم
التوحيد واليقين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27] رجاء أن يتعظوا بما فيه، ويتفطنوا
بسرائره ومرموزاته.

مع أنا جعلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أوضح بياناً، وأعظم شأنًا، وأجل تبياناً وبرهاناً ﴿غَيْرِ
ذِي عِوَجٍ﴾ أي: بلا اختلال واختلاف في معناه، موجب للتردد والالتباس والشك
والارتياب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28] عن محارمنا، ويحذرون عما نهيناهم عنه، ومع
ذلك لم يتقوا، بل لم يتنبهوا ولم يتفطنوا أصلاً.

ولهذا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما في استعدادات عباده وقابلياتهم
﴿مَثَلًا﴾ موضعًا لحال الموحد منهم والمشارك، وشبه كلتا الطائفتين برجلين مملوكين
﴿رُجُلًا﴾ مملوكًا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: له أرباب متشاركون فيه، كلهم ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي:
متشاكسون متخالفون في استخدامهم، متنازعون في شأنه، يتجادبون على مقتضى
أهويتهم وأمانيتهم بكمال الاستيلاء والغلبة، هذا مثل المشركين بالنسبة إلى معبوداتهم
الباطلة.

﴿وَرَجُلًا﴾ أي: مملوكًا آخر ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي: مسلمًا مخصوصًا لمالك فقط
بلا شوب شركة فيه، ونزاع في أمره، هذا مثل الموحد بالنسبة إلى ربه الواحد الأحد
الصمد، الذي لا تعدد فيه ولا كثرة أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ويتماثلان ﴿مَثَلًا﴾ هذان
الرجلان المملوكان ﴿الْحَقُّ لِلَّهِ﴾ الذي لا شركة في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، بل
ولا نزاع لأحد في حكمه، يفعل ما يشاء بالإرادة والاختيار، ويحكم ما يريد بالاستقلال

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29] ⁽¹⁾ وحدته واستقلاله في التصرفات الواردة، باعتبار شئونه وتطوراته، لذلك يشركون به غيره ظلماً وجهلاً.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ⁽²⁾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ⁽³⁾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْيُسُورُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ⁽⁴⁾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِمِثْلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ⁽⁵⁾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ⁽⁶⁾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽⁷⁾ ﴿[الزمر: 30-35].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني: كيف لا يستقل سبحانه بالوجوه والآثار المترتبة عليه، مع أنك يا أكمل الرسل وأشرف الكائنات وأفضلهم معطل في ذاتك وفي نشأتك هذه عن استناد ما ظهر منك إليك؛ إذ لا وجود لك من ذاتك ﴿وَأِنَّهُمْ﴾ أي: غيرك من أشخاص بالطريق الأولى ﴿مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] معطلون عن آثار الوجود مطلقاً في هذه النشأة، بل كلكم أنتم وعموم العباد مسخرون تحت حكمه وأمره، ما عليكم إلا الامتثال والانقياد.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيها الموحدون والمشركون جميعاً ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ المعدة للحساب والجزاء ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ المطلع على جميع ما جرى عليكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31] ⁽²⁾

(1) قال البقلي: شبه الله المتشبهين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبه المتفردين بنعت الإخلاص بالله وفي الله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبد قن له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قمام الخلل؛ إذ هو محفوظ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبد مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

(2) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ مَيِّتٌ عَنْ قَلِيلٍ، وَإِنْ هُوَ إِلَّا الْمَكَلِّيكَ مِنْ قَوْمِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ يقول: ثم إن جميعكم المؤمنين والكافرين يوم القيامة عند ربكم تختصمون ليأخذ للمظلوم منكم من الظالم، ويفصل بين جميعكم بالحق، واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عني به اختصاص

بعضكم مع بعض فيما أنتم عليه في نشأتكم الأولى، ثم تحاسبون وتجاوزون بمقتضاه، فتعلمون حيث أی منقلب ينقلبون.

ثم قال سبحانه على سبيل الاستبعاد والتفريع: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضل طريقاً ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وأنكر وجوده واستقلاله فيه، وفي الآثار المترتبة عليه ﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يعني: بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ مبيناً لتوحيد الحق، واستقلاله في الوجود ﴿النَّاسِ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والحرمان ﴿مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 32] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق الظاهرة في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق، مع أنه معد لهؤلاء المردة المطرودين عن ساحة العز القبول.

﴿وَ﴾ الموحّد ﴿الَّذِي﴾ من قبل ربه ﴿جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ بلا افتراء ومراء ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ إيماناً واحتساباً بلا شوب شك وتردد فيه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الصادقون المصدقون

المؤمنين والكافرين، واختصاص المظلوم والظالم، فمن معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يقول: يختصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: أهل الإسلام وأهل الكفر، وعن عبد الرحمن بن حاطب بن الزبير، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَعِيَّتُ وَإِنَّهُمْ مَعِيَّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أينكر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال النبي ﷺ: «نَعَمْ حَتَّى يُؤْذَى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ» وقال آخرون: بل عني بذلك اختصاص أهل الإسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، عن ابن عمر، قال: نزلت علينا هذه الآية وما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم في ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾. وعن إبراهيم، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكَ مَعِيَّتُ وَإِنَّهُمْ مَعِيَّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ...﴾ الآية، قالوا: ما خصومتنا بيننا ونحن إخوان، قال: فلما قُتل عثمان بن عفان، قالوا: هذه خصومتنا بيننا، حدثت عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: هم أهل القبلة، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: عني بذلك: إنك يا محمد ستموت، وإنكم أيها الناس ستموتون، ثم إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوقكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكل منكم ممن لصاحبه قبله حق حقه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأن الله عم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ خطاب جميع عباده، فلم يخص بذلك منهم بعضاً دون بعض، فذلك على عمومته على ما عمه الله به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلاً في حكمها كل ما كان في معنى ما نزلت به. «تفسير الطبري» (287/21).

﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33] الذين يحفظون عن الميل إلى ما لا يرضى منهم سبحانه. وبسبب اتصافهم بالتقوى عن محارم الله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات الروحانية ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرامة، ووقفهم للهداية إلى جنبه، والعكوف حول بابه تفضلاً عليهم وتكريماً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من الكرامات ﴿جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 34] الذين يحسنون الأدب مع الله بحسب ظواهرهم وبواطنهم، ويأخذون ما نزل من عنده من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة الخالصة عن شوب الرياء والرعونات المنافية لإخلاص العبودية.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إخلاصهم في عزائمهم ﴿أَسْأَأَ﴾ العمل ﴿الَّذِي عَمِلُوا﴾ فكيف أسهله وأصغره ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: يعطيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿بِأَخْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 35] أي: أحسن من حسناتهم، وأوفر منها؛ لخلوصهم فيها.

﴿الَّذِينَ يَكْفَى عَبْدُهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 36-38].

﴿الَّذِينَ يَكْفَى عَبْدُهُ﴾ القدير العليم ﴿بِكَافٍ عَبْدُهُ﴾ المتوكل عليه، المفوض أمره إليه ليكفيه ما ينفعه، ويكف عنه ما يضره ﴿وَهُمْ﴾ هم من جهلهم بالله وكمال علمه وقدرته ﴿يُخَوِّفُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: قريشاً ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بأصنامهم الذين يدعونهم آلهة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه جهلاً وعناداً، ويقولون لك على سبيل النصيحة: لا تذكرهم بسوء، فإننا نخاف عليك أن يخلوك، ويفسدوا عقلك، وما ذلك إلا من نهاية جهلهم بالله، وغوايتهم عن طريق توحيده ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 36]

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالاختيار.

والاستحقاق لا يجري في ملكه إلا ما يشاء ﴿الْيَسَّ اللَّهُ﴾ العليم القدير ﴿بِعَزِيزٍ﴾ منيع غالب على أمره ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: 37] شديد على من أراد انتقامه من أعدائه.

ثم أشار سبحانه إلى توضيح دلائل توحيده تعريضاً على المشركين، وتسجيلاً على غوايتهم وغباوتهم، فقال مخاطباً لحبيبه ﷺ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: كفار قريش ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، ومن أوجدها وأحدثها وأظهر ما فيها من العجائب والغرائب ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ألبته: ﴿اللَّهُ﴾ المتفرد بالخلق والإيجاد، المتوحد بالألوهية والربوبية؛ إذ لا يسع لهم العدول عنه لظهوره.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم قولهم هذا، إلزاماً لهم وتبكيئاً: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ عياناً أو سمعتم بياناً من ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من هؤلاء المعبودات الباطلة، وتدعونها آلهة شركاء مع الله قوة المقاومة وقدرة المخاصمة معه سبحانه مثلاً ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾ وجرى حكمه على أن يمسنى ﴿بِضَرْ هَلْ هُنَّ﴾ أي: آلهتكم ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ سبحانه عني على سبيل المعارضة ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ﴾ فائضة من عنده علي ﴿هَلْ هُنَّ مُنْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يمنعونها عني، ويدفعون وصولها إلي؟!

وبعدما بهتوا وسكتوا عند سماع هذه المقالة نادمين ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض التوحيد واليقين، خالياً عن أمارات الريب واليقين والتخمين: ﴿خَشِيَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الكافي لمهام عموم عبادته، الرقيب عليهم في جميع حالاتهم؛ إذ ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38] المفوضون أمورهم كلها إليه، حيث يتخذونه وكيلاً، ويعتقدونه كافياً وحسيباً.

﴿قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣٩ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ٤٠ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْفَكَتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ٤١ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزمر: 39-42].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾
وحالكم ما شئتم من الأعمال ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضًا على مكاتي وحالي ﴿فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 39] مآل ما يعملون وغايته.

واعلموا أن ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ منا ومنكم ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه في الدنيا ﴿وَوَ﴾ هو
دليل على أنه ﴿يَجِلُّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: 40] دائم
مؤبد، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ونحن نترصد أيضًا.

ثم قال سبحانه على وجه التأديب لحبيه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع المشتمل على عموم مكارم الأخلاق
ومحاسن الشيم؛ لتكون هاديًا ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ مبلغًا إياهم جميع ما فيه من الوعد
والوعيد ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ ووفق على قبول ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿فَلْيَنْفُسِ﴾ أي:
نفع هدايته واهتدائه عائد إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ كذلك ﴿وَوَ﴾ بعدما
وضح الأمر لديك، لا تتعب نفسك في إهدائهم؛ إذ ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:
41] ضمين لإهدائهم وتكميلهم، بل ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

وكيف لا يكون حساب العباد على الله، ولا يكون في قبضة قدرته؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾
المستوي على عروش ما ظهر ويطن بالاستيلاء التام والقدرة الكاملة الشاملة ﴿يَتَوَفَّى
الْأَنْفُسَ﴾ ويقطع إمداده بالحياة عليها بمقتضى النفس الرحماني ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي:
حين تعلق إرادته سبحانه بقطع علة عنها، وإرجاعها إلى ما كانت عليه من العدم ﴿وَوَ﴾
كذا تنفسي النفس ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي: لم تحكم عليها بقطع العلة والإمداد عنها
﴿فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يفصل عنها ما هو مبدأ الآثار والأفعال، وما يترتب عليه التمييز
والشعور، ويبقى رفق منه عنها ﴿فَيُنْفِثُ﴾ ويقبض سبحانه بعد الفصل والتوفي النفس
﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿وَيُنْزِلُ الْأُخْرَى﴾ أي:
يعيدها إلى أبدانها، ويمهلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾⁽¹⁾ معين مقدر عنده؛ لقطع الإمداد

(1) قال البقلي: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله،
فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقيضت من
الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستشقت تفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف

والارتباط.

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة. ولهذا قيل: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتعارف ما شاء الله، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وبه ورد الحديث صلوات الله على قائله: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليتنفّض فراشه بداخله إزاره، فإنه لا يذري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارخمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»⁽¹⁾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التوفي والفصل، والإمساك والإرسال ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحة وشواهد لانتحات على قدرة الصانع الحكيم القدير العليم ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42] في مقدوراته سبحانه، ويشاهدون آثار قدرته عليها.

﴿أَمْ أَمُتُّ وَإِنَّ دُونَ اللَّهِ لَشَفَعَاءُ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَآ يَحْكُمُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْفَظُونَ﴾
﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽¹¹⁾

عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجلّدت عليها لذائد المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبته في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيتها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أرواح المؤمنين تصعد كل ليلة إلى تحت العرش، فكن نائم على طهارة أذن لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يؤذن» قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف، فالذي يتوفى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفساً لطيفاً، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتاً. وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضاً: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفس الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (108/21).

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٥﴾ [الزمر: 43-46].

وبعد ما سمع قريش كمال قدرة الله، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته حسب إرادته واختياره، ينبغي لهم أن يوحّدوه سبحانه، ويتخذوه وكيلًا، ويجعلوه حسيبًا وكفيلًا، ومع ذلك لم يتخذوه ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل اتخذوا من تلقاء أنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أولياء من الأصنام والأوثان، وسموهم ﴿شُفَعَاءَ﴾ عنده سبحانه، لذلك يعبدونهم كعبادته ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيثًا: ﴿أَوْ لَوْ كَانُوا﴾ أي: اتخذون الأصنام والأوثان شفعاء أيها الحمقى، وتستشفعون منهم، ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من جلب النفع ودفع الضرر ﴿وَلَا يَغْقِلُونَ﴾ [الزمر: 43] ويدركون مقاصدهم أصلاً ١٢ وما هو إلا وهم باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما لاح عندك غباوتهم وضلالهم على وجه العظة والتذكير؛ لعلهم يتنبهوا: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: مطلق الشفاعة، مختصة لله، مستندة إليه أصالة، كائنة من عنده، لا يسع لأحد من أهل العناية أن يشفع لمجرم عنده سبحانه إلا بإذنه، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما ظهر من العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، بلا تصرف فيها بالاستقلال والاختيار، بلا مزاحمة أنداد وأغيار ﴿ثُمَّ﴾ لو وقعت شفاعة من أحد ممن أذن له الرحمن، ورضي له قولاً، فإنما هي أيضاً آيل إليه سبحانه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تَرْجَعُونَ﴾ [الزمر: 44] رجوع الأضواء إلى الشمس.

﴿و﴾ من شدة قساوة المشركين وجهلهم بالله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالالوهية والربوبية ﴿وَخَذَهُ﴾ على ما كان بلا مشاركة أحد معه في الثبوت والوجود ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أي: انقبضت وضافت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بالانكشاف التام في النشأة الأخرى، المفني لأظلال السوى والعكوس مطلقاً ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ﴾ يدعونهم ﴿مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45] أي: فاجؤوا عند ذكر آلهتهم إلى البسط والاستبشار.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل عند ياسك عنهم وعن إيمانهم وتنبههم، مسترجعاً إلى

ربك، مفوضاً أمور عباده إليه، سيما هؤلاء المعاندين: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومظهرهما من كتم العدم بالإرادة والاختيار، يا ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل؛ بحيث لا يعزب عن حيطة علمك مثقال ذرة من ذرات ما لمع عليه برق وجودك بمقتضى جودك ﴿أَنْتَ﴾ بذاتك حسب شئونك وتطوراتك ﴿تَحْكُمُ﴾ وتقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ هؤلاء وبيني ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] معي في أمور الدين القويم المنزل من عندك، والكتاب المبين طريق توحيدك.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٨) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) [الزمر: 47-49].

ثم قال سبحانه تسجيلاً على عدم قابليتهم واستعدادهم لقبول الحق وفيضان أسرار التوحيد ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: بعدما جبلوا على فطرة الشقاوة من عند الله الحكيم لو حق وثبت لهم ملك ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الزخارف الإمكانية ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ في سبيل الله، راجين النجاة ﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ المعد لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ جزاء لأعمالهم لما حصل لهم هذا، ولا نجاة لهم منه أصلاً؛ إذ لا يبدل قولنا ولا يغير حكمنا، بل ﴿وَبَدَا﴾ أي: لاح وظهر ﴿لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47] (١) من قبله؛ إذ هم عند الإتيان بفواسد الأعمال

(1) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترُّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضاً سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزين والعبادة، واغترُّوا بعراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بياناً يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين،

والعبادات على معبوداتهم، زاعمين جزاء ترتب جزاء الخير عليها، وقد انعكس الأمر عليهم.

﴿وَ﴾ حين ظهر عليهم عكس المطلوب ﴿بَدَا لَهُمْ مَيِّتَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: تحقق عندهم كون أعمالهم التي أتوا بها سيئات كلها ﴿وَ﴾ حيثذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ خجالة ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: 48] من الأمور الدينية والمعتقدات الأخروية الجارية على ألسن الرسل والكتب في النشأة الأولى، ولم ينفعهم الندم والخجالة حيثذ؛ لانقضاء التدارك والتلافي.

ثم أشار سبحانه إلى تزلزل الإنسان، وعدم ثباته على العزيمة الخالصة نحو ربه فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ مثا مؤلم مزعج إلى التوجه والتحنن إلينا ﴿دَعَانَا﴾ واستكشف عنا الضر على سبيل الإلحاح والاقتراح ﴿ثُمَّ﴾ بعد كشفنا عنه ضره ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه ووسعنا عليه ﴿نِعْمَةً﴾ تفضلاً ﴿مَثَا﴾ وتكريماً؛ لنختبر كيف يشكر على دفع الضر وحصول النعمة بعده ﴿قَالَ﴾ حيثذ على سبيل الكفران: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ من النعم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه وجمعه وأرباحه وأخذه.

أو المعنى: ما أوتيت وأعطيت بما أوتيت إلا بسبب علمي بوجوه جمعه وتحصيله، لا من حيث لا أحسب، هكذا يقول من الهذيان الدالة على الكفران والطفیان، مع أن نعمته ما هي نعمة في نفسها ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء مثا إياه، واختبار لتنظر أشكر أم يكفر؟ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49] ولا يفهمون فتتنا واختبارنا، لذلك ينهمكون في بحر الكفران والطفیان.

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ﴾

وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقاً، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعايينات، فإذا عرف أنه هالك فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحيان من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية والطاقفه الأبدية ما يضمنحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدق، ووعدته حق، وإشارته حقيقة، فأول الآية واضحة، وآخر الآية إشارة. [العرائس].

مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَبَإَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾
 أُولَئِكَ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
 ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
 الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 50-53].

وليس هذا مخصوصاً بهؤلاء الكفرة التائبين في تيه الغفلة والكفران، بل ﴿قَدْ قَالَهُ﴾ أي: الكلمة المخصوصة التي من جملة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49] الكافرون المسرفون ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون وغيره ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ أي: كفى ودفع ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 50] من الزخارف شيئاً من عذاب الله حين أحاط بهم ونزل عليهم العذاب، فكذلك ما أغنى عن هؤلاء أمتعته شيئاً من العذاب حين حلولة.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أي: الكفرة الماضين في النشأة الأولى ﴿سَبَإَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ مثل الخسف والكسف والفرق وغيرها ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة المستخلفين منهم، القائلين بقولهم؛ يعني: قريشاً ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ عن قريب ﴿سَبَإَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أمثال أولئك الهالكين ﴿وَمَا هُمْ﴾ أي: هؤلاء ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: 51] الله القادر المقتدر على أنواع التعذيب والانتقام، فقتل صناديدهم يوم بدر، وقُحطوا سبع سنين، ثم وسع عليهم رزقهم؛ ليتنبهوا أن مقاليد الأمور بيده، وخزائن الرزق من عنده، ومع ذلك لم يعلموا.

﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ ولم يتنبهوا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتكفل بأرزاق عباده ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض عمن يشاء منهم إرادة واختياراً على مقتضى علمه بتفاوت استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية الفائضة عليهم من الحكيم الوهاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القبض والبسط المستلزمين للدقائق والرقائق الغير المحصورة في الأمور الإلهية ﴿لَآيَاتٍ﴾ براهين واضحات على حكمة القدير العليم ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52] بذات الله، وكمال أوصافه وأسمائه.

وبعدما تنبهوا على حقية الحق وتفطنوا لدلائل توحيده ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نياية عنا، منادياً لهم على وجه الاختصاص، مضيفاً لهم إلينا عطفاً ولطفاً: ﴿يَا عِبَادِي

الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴿طُولُ دَهْرِهِمْ قَبْلَ انْكِشَافِ الْأَغْطِيَةِ وَالسُّدُلِ عَنْ عِيُونَ
بَصَائِرِهِمْ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ وَلَا تَيَاسُوا ﴿مِنْ﴾ فَيُضَانُ ﴿رُخْمَةُ اللَّهِ﴾ عَلَيْكُمْ بَعْدَ انْكِشَافِهَا
وَرَفْعِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الْمَطْلَعُ عَلَى ضُمَائِرِ عِبَادِهِ وَنِيَاتِهِمْ ﴿يَغْفِرُ﴾ وَيَسْتُرُ ﴿الدُّنُوبَ﴾ الَّتِي
صَدَرَتْ عَنْكُمْ حِينَ غَفَلْتُمْ ﴿جَمِيعًا﴾ وَكَيْفَ لَا يَغْفِرُهَا سُبْحَانَهُ ﴿إِنَّهُ﴾ بِمَقْتَضَى ذَاتِهِ
وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ الْمَقْصُودُ عَلَى الْعَفْوِ وَالسُّتْرِ لِعُمُومِ عِبَادِهِ، سِيَمَا عَلَى
أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنْهُمْ ﴿الزَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] لَهُمْ يُوَصِّلُهُمْ بَعْدَ رَفْعِ الْحُجُبِ عَنْهُمْ إِلَى
مَقَرِّ التَّجْرِيدِ وَالتَّفْرِيدِ.

﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ
﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْثَةً
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ
السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ
تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: 54-58].

﴿و﴾ بَعْدَمَا سَمِعْتُمْ سَعَةَ رَحْمَةِ الْحَقِّ وَجَمِيلَ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ﴿أَنْبِئُوا﴾ أَي: تَقْرِبُوا
وَتَوَجَّهُوا أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الَّذِي رَبَّكُمْ لِمَصْلَحَةِ
الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ، وَاجْتَنِبُوا عَنْ نَوَاهِيهِ بِالْعَزِيمَةِ
الْخَالِصَةِ عَنْ كَدْرِ الرَّعُونَاتِ وَشَيْنِ الشَّهَوَاتِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ الْمَوْعُودُ
فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ ﴿ثُمَّ﴾ بَعْدَ نَزْوِهِ وَإِتْيَانِهِ ﴿لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: 54] إِذْ حِينَئِذٍ لَا يَسَعُ
لَكُمْ التَّدَارُكُ وَالتَّلَافِي؛ لِانْقِضَاءِ زَمَانِ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ.

﴿و﴾ بِالْجُمْلَةِ: إِنْ أَرَدْتُمْ النِّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
رَبِّكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَكْلُفُونَ عَلَى الدِّينِ الْمُسْتَبِينَ، أَلَا وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى خَيْرِ
الْأَنَامِ وَأَفْضَلِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، وَامْتَثِلُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي عَلَى وَجْهِ
الْعَزِيمَةِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْثَةً﴾ فَجَاءَ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 55]
عَلَامَاتِهِ حَتَّى تَتَذَكَّرُوا وَتَحْذَرُوا مِنْهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ: احْذَرُوا مِنْ يَوْمٍ هَائِلٍ مَهُولٍ مَخَافَةً ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ فِيهِ ﴿نَفْسٌ﴾ وَازَرَةً
مِنْكُمْ، مَقْصُورَةً عَنِ الْإِنَابَةِ وَالرَّجُوعِ حِينَ حُلُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهَا: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ وَبِإِدَامَتِنَا

﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ وَقَصَرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانبه ورعاية حقه في إطاعته وانقياده
﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: 56] أي: فرطت في حقه سبحانه، والحال أنني
حيثُذ من الساخرين بالأنبياء الهادين والعلماء الراشدين المنبهين علي، وبالجملة:
فندمت حيثُذ، وما ينفع الندم.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متحسراً على كرامة أهل العناية: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ ووفقني على
التوبة والإنابة نحوه كسائر أوليائه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57] المتحفظين
نفوسهم عن الإفراط في حق الله ورعاية جانبه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متمنياً مستبعداً ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يحل عليها، ويحيط بها: ﴿لَوْ
أَنَّ لِي كَرْةٌ﴾ أي: رجوعاً إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَأَكُونُ﴾ حيثُذ ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[الزمر: 58] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويصدقون رسله وكتبه، وإنما تقول حيثُذ ما
تقول من كمال تحسرها على ما فات منها، وشدة هولها مما نزل عليها.

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾ [الزمر: 59-63].

ثم قيل لها من قبل الحق ردّاً لقولها: ﴿بَلَى﴾ هداك الله؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي﴾
لهدايتك وإرشادك على السنة رسلي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وبهم ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عليها وعليهم
﴿وَكُنْتَ﴾ حيثُذ بتكذيبك واستكبارك ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 59] الذين ستروا الحق
الحقيق بالإطاعة والاتباع، وأظهروا الباطل الزائع الزاهق الزائل، فاتخذوه معبوداً،
وعبدوا له ظلماً وزوراً، عناداً واستكباراً.

﴿وَلَا تَبَالُوا أَيُّهَا الْمُوَحَّدُونَ بَعْتُوهُمْ وَاسْتَكْبَارَهُمْ فِي هَذِهِ النِّشَاءِ﴾ إذ ﴿يَوْمَ
الْقِيَامَةِ﴾ التي تُبلى السرائر فيها ﴿تَرَى﴾ فيها أيها الرائي ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بإثبات
الولد والشريك له، افتراء ومراء ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: تراهم حال كونهم مسودة
الوجوه؛ لأنهم حيثُذ ملازموا النار وملاصقوها، تستبعد وتستغرب أيها المعتبر الرائي

حالتهم هذه ﴿الْيَسَّ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان ﴿مَشْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60] الذين يتكبرون على الله وعلى أوليائه بأنواع الفسق والعصيان والكذب والطغيان، مع أنه ما هي إلا معدة لهؤلاء البغاة الطغاة الهالكين في تيه الكبر والعناد.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ المفضل المحسن بمقتضى لطفه وجماله من أهوال يوم القيامة وأفزاعها ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله ﴿بِمَقَارَاتِهِمْ﴾ أي: بفوزهم وفلاحهم المورث لهم فتح أبواب السعادات وأنواع الخير والبركات ﴿لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ﴾ أي: ينجيهم؛ بحيث لا يعرضهم شيء يسوؤهم في النشأة الأخرى ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ [الزمر: 61] ⁽¹⁾ فيها أصلاً.

وكيف لا ينجي سبحانه أوليائه؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما ظهر وبطن ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته عليه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62] يولي أمره، ويحفظه عما يضره.

إذ ﴿لَهُ﴾ وفي قبضة قدرته ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح العلويات والسفليات، وما يتولى بينهما، ويتصرف فيهما بالإرادة والاختيار، ما شاء بلا منازع ومخاصم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وأنكروا دلائل توحيده واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه باختياره ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء الضالون عن طريق التوحيد، المنحرفون عن جادة العدالة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: 63] المقصورون على الخسران والحرمان، لا يرجى نجاتهم منه أصلاً.

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ١١ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ١٢ ﴿بَلَىٰ اللَّهُ فَاغْبُذْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٣ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

(1) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مشي المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمقارزتهم بالأعمال الحسنة) «البحر المديد» (337/5).

الْقِيَمَةِ وَالسَّكَوَاتِ مَطْوِيَّتًا بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر: 64-67].

ثم إن أرادوا - يعني: قريشاً - أن يخدعوك ويلبسوا عليك الأمر، بأن أمروك باستلام بعض آلهتهم ليؤمنوا بإلهك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعبير والتوبيخ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالإطاعة والعبادة ﴿تَأْمُرُونِي﴾ أي: تأمروني ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] بالله وباستحقاقه للعبادة والانقياد، وبالأصالة والاستقلال.

ثم قال سبحانه مقسماً على سبيل التأكيد والمبالغة في التأديب، تحريكاً لحمية المؤمنين، وتثبيتاً على محبته ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَالِي﴾ الرسل ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنت مع كمال ودادتك وخلتك، وكل واحد منهم أيضاً مع كمال محبتهم وخلوصهم، وأتيت أنت وهم بشيء يلوح منه الإشراك المنافي للتوحيد ﴿لَيَخْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وعملهم؛ أي: ليضيعن ألبته صالح عملك الذي جئت به ليفيدك ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ حيثن ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] خسراناً ميبئاً.

فعليك ألا تصاحب مع المشركين، ولا تقبل منهم قولهم، ولا تمثل أمرهم ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ﴾ أي: بل إن أردت العبادة والإطاعة، فاعبد الله خاصة خالصة، ولا تلتفت إلى غيره ﴿وَكُنْ﴾ في شأنك هذا ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66] الصارفين لنعم الله إلى ما خلق لأجله؛ إذ هم جبلوا على فطرة العبادة والعرفان، بالنسبة إليه سبحانه حتى يتخذوه وكيلاً حسيباً.

﴿وَاللَّهُ﴾ بالجملة: المشركون الذين اتخذوا أولياء من دونه سبحانه، وادعوا الوجود له وشركتهم معه سبحانه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ أي: ما وسعوا الحق باعتبار ظهوره بهذا الاسم المخصوص المستجمع لجميع الأسماء والصفات، المعبر به عن الذات الأحدية كاسمه العليم، لذلك لم يعرفوا ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾⁽¹⁾ وقدر ظهوره وبطونه، ولو وسعوا له،

(1) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكاً بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه، يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به

وعرفوا حق قدره، لما أثبتوا له شريكاً؛ إذ كل من تحقق بوحدة الحق وكيفية سريانه على هياكل الأظلال والعكوس المنعكسة، لم يبقَ عنده شائبة شك في ألا تعدد في ذاته سبحانه، ولا تكثر بل يتجلى ويتجدد في كل آن بشأن، ولا شك أن كل ما ظهر من الشئون فإن ﴿وَيَتَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

﴿و﴾ من جملة ما انعكس من بعض شئونه سبحانه ﴿الْأَرْضُ جَمِيعاً﴾ أي: جميع ما يتولد من الطبيعة والهيولي المنعكسة من التجليات الإلهية حسب اقتضاء أسمائه الحسنی وصفاته العليا، فيها ﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي: مقبوضة في كف قدرته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى التي انقهرت دونها أظلال السوى مطلقاً، مندكة في نفسها، معدومة في حد ذاتها، لا وجود لها ﴿و﴾ كذا ﴿السَّمَوَاتُ﴾ حيث ﴿مَطُورَاتٌ﴾ معطلات عن مقتضياتها التي هي الأفعال والحركات، ساقطات في زاوية العدم على ما كانت عليها أزلاً وأبداً؛ أي: تنزه ذاته وتقدس أسمائه ﴿بِإِمِينِهِ﴾ وقدرته ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] له غيره ظلمًا وزورًا.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ٦٨ ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ٦٩ ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ٧٠ ﴿[الزمر: 68-70].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمشركين يوم ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لرد الأمانات التي هي الوجودات المترشحة من بحر الذات على هياكل الهوايات ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: خز وسقط مغشياً من فزعه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: جميع العلويات ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع السفليات خوفاً من انقطاع الأمور الإلهية بمقتضى النفس الرحماني ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الاعتبارين الفانين في الله، الباقيين ببقائه، فإنهم قد قامت قيامتهم ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ أي: فاجزوا

على القيام، بعدما صاروا مغشياً عليهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] حينئذ حيارى سكارى مبهوتين هائمين، كأنهم صرعى مخبولين.

﴿و﴾ بعد ذلك ﴿أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: صارت الطبيعة والهيولي منورة بنور الله على ما كانت عليه قبل الفتح، وحينئذ عرضوا على الله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: مكتوب أعمال كل من النفوس الزكية والخبيثة بين أيديهم، وحوسبوا بمقتضى ما فيه ﴿و﴾ بعدما تم حسابهم وتنقيد أعمالهم ﴿جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين كل منهم إلى أمة من الأمم؛ ليشهدوا على أممهم بما كانوا عليه في النشأة الأولى ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ أي: وجيء بالشهداء أيضاً؛ يعني: أنطق الله أركانهم وجوارحهم التي أتوا بها ما أتوا من خير وشر فيشهدون.

﴿و﴾ بعد انكشاف أحوالهم وضبط أعمالهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى العدالة الإلهية بلا حيف وميل ﴿وَهُمْ﴾ حيثئذ ﴿لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69] بالزيادة والنقصان ثواباً وعقاباً.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿و﴾ كيف لا يوفى؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ واحفظ منهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: 70] أي: بجميع أفعالهم وأعمالهم الصادرة منهم، صالحها وفاسدها، نقيرها وقطميرها.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 71-72].

﴿و﴾ بعد ذلك ﴿سِيقَ﴾ سوق البهائم إلى المسلخ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإعراض عن الحق وأهله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والخذلان ﴿زُمَرًا﴾ فوجاً بعد فوج، وطائفة إثر طائفة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ يعني: جهنم ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ أي: أبواب النيران المعدة لأهل الكفر والطغيان على تفاوت طبقاتهم فيه، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ حينئذ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الضالون المستحقون لهذا الوبال والنكال ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من بني نوعكم مبعوثون إليكم من قبل الحق ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

رَبِّكُمْ ﴿أَي: دلائل توحيده، وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَنُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: يخوفونكم عن لقاء هذا اليوم الذي تدخلون فيه النار بأنواع الخيبة والخسران؟.

وبعد ما سمعوا منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿بَلَى﴾ قد جاءت إلينا رسل ربنا بالحق، وتلوا علينا آياته المشتملة على أنواع الإنذار والنذير ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يفد بنا إنذارهم وتبشيرهم؛ إذ ﴿حَقَّتْ﴾ أَي: صدرت وثبتت منه سبحانه في سابق قضائه وحضرة علمه حتمًا ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71] المعرضين عن الحق وآياته، وعن من بلغها إليهم بإذنه، لذلك أعرضنا عنها وعنهم، فوجبت لنا النار.

وبالجملة: أتوا بالعدرو ما ينفعهم بل ﴿قِيلَ﴾ لهم من قبل الحق: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها الضالون المجرمون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أَي: كل فرقة منهم بباب يخصها في سابق القضاء، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لكم منها ﴿فَبَشِّرْهُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72] أَي: الكافرين المستكبرين وأهله جهنم الخذلان وجحيم الحرمان والخسران، أعاذنا الله وعموم المؤمنين منها بفضله العظيم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: 73-75].

﴿وَسِيقَ﴾ أيضًا سوق الحمام إلى المسرح ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره ونواهيه الجارية على السنة رسله وكتبهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ المعدة لقيضان أنواع اللذات الروحانية على أهلها ﴿زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ فرحين مسرورين، وتحتنوا نحوها ﴿وَقَدْ﴾ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ عناية من الله إياهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ حيث ﴿خَزَنَتُهَا﴾ ترحيًّا وتكريمًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المهديون المهتدون الذين ﴿طِبْتُمْ﴾ وطهرتم أنفسكم في دار الاختبار عن دنس الشهوات ودين المزخرفات ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ أَي: الجنة

المشتملة على أنواع الكرامات وأصناف السعادات الآن، وكونوا ﴿خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] فيها أبد الأباد بلا نقل وتحويل، إلا إلى ما شاء الله لأهل العناية من الدرجات العلية التي لا تكتنه ولا توصف.

﴿و﴾ بعدما تمكنوا في مقر العز والحضور ﴿قَالُوا﴾ مسترجعين إلى الله، عادين موائد إنعامه وإفضاله على أنفسهم، قائمين لأداء حقوقها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمنة لله ﴿الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَهُ﴾ أي: جميع ما وعدنا الله به في النشأة الأولى بوحيه النازل على السنة أنبيائه ورسله من المعتقدات الأخروية.

﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ﴾ أي: المقر الموجود الذي بشرنا به الرسل الكرام، وهي الجنة الموروثة لأهل العناية من سوابق الإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة الصادرة منهم في دار الاختبار، ومكتنا فيه؛ بحيث ﴿تَنْبُؤُا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وتنزل ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ يعني: ينزل ويستريح كل منّا حيث شاء وأراد من المقامات البهية الدرجات العلية، بلا مضايقة وممانعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74] المخلصين المخلصين نفوسهم عن أودية الجهالات والضلالات بنور الآيات البينات، الواصلين إلى روضة الرضا وجنة التسليم، اللهم ارزقنا بلطفك العميم، واجعلنا من ورثة جنة النعيم.

﴿و﴾ بعدما تقرر أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة ﴿تَرَى﴾ أيها المتعتبر المنكشف بكمال عظمة الله وجلاله ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية، عبر عنها سبحانه بالملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿خَافِينَ﴾ صافين محققين محققين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: حول عرشه العظيم المستغني عن عروش مطلق المظاهر، والحال الكائنة في عالمي الغيب والشهادة؛ إذ هو سبحانه غني بذاته عن مطلق التعينات الطارئة على شئونه وتطوراته، لذلك ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون أولئك المهيمون ذاته سبحانه عن سمات الحدوث والإمكان مطلقاً دائماً، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما وهب لهم المعرفة بعلو شأنه وسمو برهانه، وباستغنائه في ذاته عن مظاهر أوصافه وأسمائه جميعاً ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: هم يحمدونه ويشنون عليه سبحانه أيضاً على عموم قضائه وحكمه، وأحكامه الجارية بين عباده بمقتضى العدل القويم.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿قِيلَ﴾ من قبل كل من يتأتى منه الرجوع إليه سبحانه والتوجه نحوه طوعاً على الوجه الذي أمر به: ﴿الْحَمْدُ﴾ المطلق المستوعب لجميع الأثنية

والمحامد الصادرة من عموم المظاهر ثابت ﴿الله﴾ أي: للذات المستجمع لجميع أوصاف الكمال بالاستحقاق والاستقلال لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75] بمقتضى توحيده وانفراده، فيكون جميع محامدهم مختصة به سبحانه؛ إذ لا مربى لهم سواه. حققنا بكرمك بحق قدرك وبقدر حقك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للتحقيق والإدراك بكمال عظمة الله وجلاله، أن تتأمل في أواخر هذه السورة، وتتعمق فيها وفي كشف سرائرها ومرموزاتها وإشاراتنا الخفية وعباراتها المنبهة على وحدة الحق وحقيقته؛ لينكشف لك أنه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر تحققه وقيوميته زمان ومكان، بل هو كائن على ما كان في كل آن وشأن بلا زمان ومكان.

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة غافر «المؤمن»

لا يُخفى على من ترقى من حضيض التقليد إلى ذروة التوحيد، ومن أودية الجهالات اللازمة للتعينات الإمكانية إلى أقصى درجات الإدراك وأعلاها، أن أجل المعلومات وأولاها وأدق المعارف وأخفاها هو الإطلاع على وحدة الحق وتوحيده في الذات الوجود، وبكثرة حسب الأسماء والصفات المقتضية للشئون والتطورات الغير المحصورة.

لذلك أوحى سبحانه حبيبه بما أوحى من دلائل التوحيد، وأوصاه بحفظ ما نزل من الآيات المنزلة المينة لتلك الآيات الدلائل؛ ليكون على ذكر منها، فقال سبحانه مخاطبًا له بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المفصح المعرب عن الذات الأحدية باعتبار التسمية ونشأة العبارة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الدال على ثبوت عموم الأسماء والصفات لتلك الذات المؤثرة بها آثارًا لا تُعد ولا تحصى ﴿الرَّحِيمُ﴾ الدال على رجوع الكل إليها رجوع الأظلال إلى الأضواء.

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝٣ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٤ مَا يُجَدِّلُ فِي بَآيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْصُرُهُمْ فِي الْأَلْبَدِ ۝٥ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۝٦ فَكَيْفَ عِقَابِ ۝٧﴾ [غافر: 1-5].

﴿حَمْدٌ﴾ [غافر: 1] يا حامل الوحي وحاميه، ويا ماحي الغير والسوى عن لوح الضمير مطلقًا.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، إليك يا أكمل الرسل تأييدًا لك في أمرك وشأنك ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من الذات المعبر بهذا الاسم الجامع

﴿الْعَزِيزِ﴾ المنيع الغالب ساحة عز حضوره عن أن يحوم حول وحيه شائبة الريب والتخمين ﴿الْعَلِيمِ﴾ [غافر: 2] الذي لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما جرى عليه قضاؤه.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ أي: سائر ذنوب الأنانيات، والهويات الحاصلة من انصباع التعينات العدمية بصيغ الأسماء والصفات ﴿وَقَابِلِ الثَّوْبِ﴾ أي: التوبة والرجوع على وجه الإخلاص والندم من إثبات الوجود لغيره سبحانه ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على من خرج عن رتبة عبوديته بإسناد الحوادث إلى نفسه، أو إلى مثله في الحدوث والمخلوقية ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ والغني عن توحيد الموحّد وإلحاد المشرك الملحّد؛ لأنه في ذاته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا موجود سواه يُعبد له ويُرجع إليه في الخطوب؛ إذ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3] أي: مرجع الكل إليه سواء وحده الموحّدون، أو أُلحد في شأنه الملحّدون المشركون.

ثم قال سبحانه توضيحًا وتصريحًا لما علّم ضمنا: ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ ويكابر ﴿فِي﴾ شأن ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده واستقلاله في الآثار المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وسترُوا ظهور شمس الذات، وتحققها في صفحات الكائنات بغيوم هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة ﴿فَلَا يَغْرُوكَ ثَقَلِيَّتُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: 4] أي: لا يغرك يا أكمل الرسل إمهالنا إياهم، يتقبلون في بلاد الإمكان ويقاع الهولي عن إمهالنا وعدم انتقامنا منهم بالطرد إلى هاوية العدم وزاوية الخمول.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل في دعوتك وشأنك وعاندوا معك، فاصبر على أذاهم وتذكر كيف ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا، وكيف صبر هو حتى ظفر عليهم حين ظهر أمرنا، وجرى حكمنا بأخذهم واستصآلهم ﴿وَكَيْفَ كَذَبَتْ الْأَخْرَابُ﴾ والأمم الكثيرة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد قوم نوح رسلهم المبعوثين إليهم للهداية والإرشاد.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿فَمَثَّ﴾ وقصدت ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿بِرُسُولِهِمْ﴾ المرسل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويأسروه، بل ليقتلوه أو يستحقروه ويهينوه ﴿وَيَجَادِلُوا﴾ أولئك الهالكون المنهمكون في تيه الكبر والعناد معهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الزاهق الزائل في نفسه ﴿لِيُنْذِرُوا بِهِ﴾ ويذيلوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ واستأصلتهم بعدما أمهلتهم زمانًا، يعمهون في طغيانهم، ويترددون في بنيانهم ﴿فَكَيفَ﴾

كَانَ عِقَابٌ ﴿غافر: 5﴾ إياهم حين حلّ عليهم ما حلّ من العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٦ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ٧ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٨ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٩ ﴿غافر: 6-9﴾.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 6] أي: ملازموها وملاصقوها أبد الأبد، لا نجاة لهم منها، ﴿لَا تَخْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127].

ثم أشار سبحانه إلى حبّ المؤمنين الموحدين على الإيمان، ومواظبة الشكر على إنعام الله إياهم باليقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم الكروبيون الذين سبقوا بحمل العرش الإلهي، وحفظ ما انعكس فيهم من تجلياته الجمالية بدوام المراقبة والمطالعة بوجهه الكريم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة الذين يطوفون حول العرش، ويقتفون أثر أولئك الحملة السابقين كلهم ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون الحق عن سمات الحدوث والإمكان، ويقدسونه عن عروض السهو والنسيان؛ إذ كمال ما يدرك المدرك منه سبحانه إنما هو التسبيح والتقديس، وإلا فالأمر أعز وأعلى من أن يحيط به الآراء ويحوم حوله الأهواء، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما أولاهم نعمة التوجه إليه والتحنن نحوه.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ سبحانه، ويوحدونه، ويعتقدون أوصافه العليا وأسمائه الحسنی، وإن عجزوا عن كنه ذاته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يطلبون العفو والستر منه سبحانه للذنوب إخوانهم الذين آمنوا بوحدة الحق وكمالات أسمائه وصفاته، مثل إيمانهم سواء كانوا سماويين أو أرضيين، قائلين مناجين مع ربهم حين استغفارهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة تسيحك وتقديسك، ومداومة حمدك

وثنائك، أنت بذاتك بمقتضى كرمك وجودك ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك، وأحاطت حضرة علمك على كل ما لمع عليه بروق تجلياتك وشروق شمس ذاتك ﴿فَاغْفِرْ﴾ لسعة رحمتك وجودك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا نحو بابك نادمين، وامحُ عن عيون بصائرهم سبل الغير والسوى في جنب بابك ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿سَبِيلَكَ﴾ الذي أرشدتهم إليه بوحيك على رسلك ﴿وَوَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7] ⁽¹⁾ أي: احفظهم عن عذاب الطرد والحرمان المعد لأصحاب الخسران في جميع حجتهم الخذلان.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ بفضلِكَ ولطفك ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ﴾ أي: متزهات العلم والعين والحق ﴿الَّتِي وَعَدْتُهُمْ﴾ في كتابك لعموم أرباب العناية من عبادك ﴿وَوَ﴾ كذا أدخل ﴿مَنْ صَلَحَ﴾ عندك لفيضان جودك وإحسانك ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الذين تناسلوا منهم على فطرة التوحيد، وحلية الإيمان والعرفان ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله شائبة وهم أحد من مظاهرك ومصنوعاتك ﴿الْحَكِيمُ﴾ [غافر: 8] في جميع أفعالك الصادرة عنك على كمال الإحكام والإتقان.

﴿وَوَقِهِمْ﴾ بمقتضى حكمتك المتقنة ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الجرائم والآثام المستتعبة لإدخالهم إلى دركات النيران، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من تحفظه أنت بمقتضى لطفك وتوفيقك عن المعاصي في النشأة الأولى ﴿فَقَدْ رَجَعْتَهُ﴾ ألبته في النشأة الأخرى ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: وقايتك وحفظك إياهم عن أسباب الخذلان والحرمان ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾

(1) قال روزبهان: وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبه، وفيض مشاهدته، يطبسون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجلبون منه القدس والتزيه، حمداً لأفضاله، ويأمنونه عن النظر والشيء، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك رسوم العقلية، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده. ثم يثنون أنهم أهل الرقة والرجمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته.

الْعَظِيمِ﴾ [غافر: 9] والكرم العميم واللفظ الجسيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا أَسْتِثْنَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤) [غافر: 10-14].

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح من كفر بالله، وكذب بما نزل من عنده من الأوامر والنواهي الجارية بمقتضى وحيه على السنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا بوحدة ذاته وسريان وجوده الوجداني الذاتي على جميع مظاهر الكائنات حسب شئون الأسماء والصفات، بأن أشركوا فيه سبحانه، وأثبتوا وجوداً لغيره، وادعوا ترتب الآثار عليه ﴿يُنَادُونَ﴾ في الطامة الكبرى، والنشأة الأخرى حين ظهر الحق، واستقر على مقر العز والتمكين، وانقهر الباطل الزاهق الزائل، واضمحل التلون والتخمين ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أي: طرده وتحريمه لكم اليوم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأفزع ﴿مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ وتحريمكم ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ عن موائد لطفه وإحسانه سبحانه.

وذلك ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: وقت دعوة الأنبياء والرسل إياكم بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى الْإِيمَانِ﴾ به سبحانه وتوحيده ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: 10] حيثذ، وتسترون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتكم الباطلة جهلاً وعناداً، بل تشركون له غيره في الألوهية والوجود، وتعبدون له كعبادته سبحانه.

وبعد ما سمعوا من النداء الهائل المهل ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداته متحسرين متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة معرفتك وتوحيذك، فكفرناك وأشركنا بك غيرك، قد ظهر لنا اليوم حقية ما ورد علينا من قبل بعدما ﴿أَمَّنَّا﴾ وأفئتنا في هوتك مرتين ﴿أَسْتِثْنَيْنِ﴾ مرة في النشأة الأولى بانقضاء الأجل المقدر من عندك، ومرة في النشأة الأخرى بعد النفخة ﴿وَوَ﴾ كذا ﴿أَخْيَتْنَا﴾ وأبقينا ببقائك مرتين ﴿أَسْتِثْنَيْنِ﴾ مرة عند حشرنا من أجداث طبائعنا، ومرة بعد النفخة الثانية للعرض والجزاء.

وبعدما لاح علينا من دلائل توحيدك وكمال قدرتك ما لاح ﴿فَاغْتَرَفْنَا﴾ الآن ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ التي صدرت عنا من غاية غفلتنا وجهلنا بك وبقدرتك، ووحدة ذاتك واستقلالك في آثارك الصادرة عنك ﴿فَقُلْ﴾ لنا اليوم مجال ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من عذابك الذي أعددت لنا بمقتضى عدلك حسب جرائمنا وآثامنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: 11] إلى الخلاص والنجاة منه.

ثم بعدما تضرعوا من شدة هولهم وفضاعة أمرهم ما تضرعوا، نودوا من وراء سرادقات القهر والجلال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ﴾ وذكر ﴿اللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَوَحْدَهُ﴾ أي: على صرافة وحدته، واستغنائه عن العالم وما فيه ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم وجوده وكمال أوصافه وأسمائه، وكذبتهم رسله المبعوثين إليكم للتبليغ والتبيين ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ﴾ ويثبت له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا﴾ وتقروا بالشركاء، وتعتقدوا وجودها، وتصدقوا من تقوه بها ﴿فَالْحُكْمُ﴾ المحكم والقضاء الحتم المبرم الآن ﴿لِلَّهِ﴾ الممتز به ذاته عن أن يتردد فيه أو يشرك ﴿الْعَلِيِّ﴾ الغني شأنه عن إيمان المؤمن وكفر الكافر ﴿الْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12] المتعال وحدة ذاته عن أن يحوم حوله إقدام الإقرار والإنكار.

وكيف تنكرون له سبحانه، وتشركون فيه مع أنه سبحانه ﴿هُوَ﴾ الله الكامل في الألوهية والربوبية ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المربية لكم من لدنه ﴿رِزْقًا﴾ صورياً ومعنوياً تميماً لتربيتكم وتكميلكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ منكم بآياته ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: 13] إليه، ويرجع نحوه طالباً الترفي من حضيض التقليد والتخمين إلى ذروة التحقيق واليقين.

وإذا سمعتم كمال تربيته وتكميله سبحانه ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، وتوجهوا نحوه، واعبدوا حق عبادته أيها المكلفون بمعرفته وتوحيده حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد بلا رؤية الوسائل والأسباب العادية في البين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14] المكابرون إطاعتكم إياه، ورجوعكم إليه على وجه الإخلاص والاختصاص.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَهْوِيَّتِهِمْ مَوْتُهُ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ
يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ ﴿١٨﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٩﴾
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا
يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢١﴾ [غافر: 15-20].

وكيف لا يدعون ويعبدون له سبحانه، مع أنه هو في ذاته ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي: درجات قربة ووصوله رفيعة، وساحة عز حضوره منيعة لا يسع لكل قاصد أن يحوم حولها، إلا بتوفيق منه سبحانه وجذب من جانبه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ العظيم؛ إذ لا ينحصر مقر استيلائه وظهوره بمظهر دون مظهر ومجلى دون مجلى، بل له مجالي إلى ما شاء الله؛ إذ هو بمقتضى تجليه الجمالي ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ على وجه الأمانة ويمد الظل ﴿مِنْ عَالَمِ أَمْرِهِ﴾ بمقتضى حبه الذاتي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: استعدادات مظاهر المستظلين بظلال أسمائه وصفاته، وبعد إلقائه ومدّه إياهم، كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للألوهية والربوبية، وإنما كلفهم بما كلفهم ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15] أي: يخوفهم عن زمان الوصول والرجوع في النشأة الأخرى، والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها.

إذ هو ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خارجون من أجداث أجسادهم، راجعون إلى الله جميعاً بأرواحهم، محشورون عنده معرضون عليه؛ بحيث ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾ المحيط بهم ﴿مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم ونياتهم، وبعدما برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين إليه، فأنين فيه، قيل لهم من قبل الحق بعد فناء الكل إظهاراً لكمال قدرته وجلاله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك الوجود والتحقق والثبوت، فأجيب أيضاً من قبله؛ إذ لا موجود سواه، ولا شيء غيره: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ﴾ من كل الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] لنقوش السوى والأغيار، وعكوس الأظلال والأمثال.

وبعدما استقروا استوى سبحانه على الملك المطلق بالإطاعة والاستحقاق على ما كان ويكون في أزال الأزال وأبد الآباد، أشار إلى سرائر ما ظهر منه في النشأة الأولى فقال: ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء والنشأة الأخرى ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى، التي هي نشأة التكلف والاختبار بلا ازدياد وتنقيص عليه؛ إذ ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء؛ لأنه إنما وضع لظهور العدالة

الإلهية والقسط الحقيقي، بل تجزى فيه كل من النفوس بجميع ما صدرت عنها، خيراً وشرّاً نفعا وضرّاً ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما ظهر وبطن من عباده ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 17] عليهم بلا فترة وتلبيس؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يطرأ عليه سهو ونسيان.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: عموم المكلفين ﴿يَوْمَ الْآزِقَةِ﴾ والمشاركة على العذاب الأبدي، حين أحضروا على شفير جهنم للطرح فيها ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب أولئك المحضرين ترتفع حيثند ﴿لَدَى الْخَنَاجِرِ﴾ وتلتصق بحلاقيمتهم من كمال هولهم واضطرابهم، وكانوا حيثند ﴿كَاطِمِينَ﴾ ومملوئين من الغم والحزن وأنواع الكآبة والخذلان، وبالجملة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لهؤلاء المسرفين المقصورين على الخيبة والخسران حيثند ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب يدركهم، ويولي أمرهم، ويسعى في استخلاصهم ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18] أي: شفيع يشفع ويقبل الشفاعة منه لأجلهم.

مع أنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي: خيانتهم التي يتغامزن بعيونهم نحو محارم الله ﴿وَهُوَ﴾ يعلم أيضاً ﴿مَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19] ⁽¹⁾

(1) قال روزبهان: وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئاً يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفاً بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدمها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمam الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جللتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجري في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية». وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من نظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع والطريقة. وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضاً خيانة، وخيانتة في الصبر ألا يصبر في مقام

أي: ما تخفي صدورهم من الميل إلى الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات.
﴿و﴾ بالجملة: ﴿الله﴾ المطلع بظواهرهم وضمائرهم ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم بهم،
ويجازي عليهم بمقتضى علمه وخبرته منهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا حيف وميل إظهاراً لكمال
عدالته ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ﴾ ولا
يحكمون لا لهم ولا عليهم ﴿بِشَيْءٍ﴾ من نفع وضر؛ إذ هم جمادات لا شعور لها ﴿إِنَّ
الله﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع ما صدر من
ألسنة استعداداته ﴿الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20] بما ظهر على هياكل هوياتهم.

﴿أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَاقٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [غافر: 21-22].

ثم أشار سبحانه إلى تقريع أهل الزيف والضلال، وتفضيح أصحاب العناد
والجدال، فقال مستبعداً مستنكراً إياهم: ﴿أ﴾ ينكرون قدرتنا عليهم وانتقامنا عنهم ﴿و﴾
لَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الموروثة لهم من أسلافهم الذين أسرفوا على
أنفسهم أمثالهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر التأمل والاعتبار؛ ليظهر عندهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾
المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مستقرين عليها، متمكنين فيها، مترفين أمثالهم، بل
﴿كَانُوا هُمْ﴾ أي: أسلافهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الأخلاف ﴿قُوَّةً﴾ وقدرة وأكثر
أموالاً ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حصوناً وقلاعاً وقصوراً وأخاديد، وغير ذلك مما
صدر من ذوي الأحلام السخيفة، ومع ذلك ما أغنى عنهم شيئاً من غضب الله وعذابه،
بل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ المتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم على سبيل البطر
والغفلة، فاستأصلهم بالمرّة ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ حيثذ ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿الله﴾ وبطشه ﴿مِنْ﴾

القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم
بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن. قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم،
ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وَاقٍ ﴿غافر: 21﴾ حفيظ لهم، يمنع عذاب الله عنهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذلك البطش والانتقام إلا بسبب أنهم من شدة عتوهم وعنادهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾ من قبل الحق مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والبراهين القاطعة من أنواع الآيات والمعجزات ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله وبهم أمثال هؤلاء التائهين في بيداء الغفلة والغرور، وأنكروا على بيناتهم، ونسبوا إلى السحر والشعبذة، وظهروا على رسل الله بأنواع الخرافات والهديانات ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ القدير الحكيم بكفرهم وعتوهم: بعدما أمهلهم زماناً، يترددون فيما يرومون ويقصدون فيه، وكيف لا يأخذهم سبحانه ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ مطلق، وقدير كامل على من ظهر عليه وخرج عن رتبة عبوديته ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: 22] صعب الانتقام على من كذب وتولى على الرسل الكرام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 23-26].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: 23] أي: حجة واضحة دالة على صدقه في رسالته ودعوته.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغى الذي بالغ في العتو والعناد، حيث تفوه به «أنا ربكم الأعلى» ﴿وَهَامَانَ﴾ المصدق لطغيانه، المعاون على عتوه وعدوانه ﴿وَقَارُونَ﴾ المباهى بالثروة والغنى، وبعدهما بلغ إليهم الدعوة، وأظهر عليهم المعجزة ﴿فَقَالُوا﴾ بلا تردد وتأمل فيما سمعوا وشاهدوا منهم: ما هذا المدعى إلا ﴿صَاحِرٌ﴾ في بيته ﴿كَذَابٌ﴾ [غافر: 24] في دعوته؛ أي: فاجزوا على التكذيب والإنكار بلا مبالاة به وشرانه، بمقتضى ما هم عليه من العتو والاستكبار.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسى ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ مؤيداً ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ وآمن له بنو

إسرائيل حين عاينوا منه الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ﴿قَالُوا﴾ يعني: فرعون أصالة، وملؤه تبعًا لأعوانهم وأتباعهم: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يعني: أعيّدوا على بني إسرائيل الزجر الشنيع الذي أنتم تفعلون معهم من قبل ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للزواج والوقاع، تعبيرًا عليهم وتضعيفًا لهم؛ يعني: هم قصدوا المكر والمقت على أولئك المؤمنين بقولهم هذا ﴿و﴾ ما يظن أنهم مذكورون وممقوتون؛ إذ ﴿مَا كُنْتُ الْكَافِرِينَ﴾ ومكرهم حيث كادوا ومكروا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 25] أي: هلاك ووبار على أهل الحق، لذلك لم ينالوا على ما قصدوا، بل عاد عليهم، ولحق بهم أضعاف ما قصدوا إياهم، ومكروا لأجلهم.

﴿و﴾ بعدما ظهر أمر موسى الكليم وعلا قدره، وانتشر بين الناس حجته وبرهانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملكه الذين قالوا له حين غلب موسى على السحرة، وقصد فرعون قتله فمنعه الملا عن قتله، حتى لا يظهر بين الناس مغلوبيته من موسى، مع أنه ادعى الألوهية لنفسه: ﴿ذُرُونِي﴾ أي: اتركوني على حالي، أنا ﴿أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: يمنعني عن قتله، أو يهلكني لأجله؛ يعني: لا أبالي به وبربه، بل ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ عليكم لو لم أقتله ﴿أَنْ يَبْدُلَ دِينَكُمْ﴾ وانقيادكم على سحره ﴿أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ [غافر: 26] أي: النهب والغارة في أطراف المملكة وأكناف البلاد، وإن لم يقدر على تغيير دينكم وعقائدكم.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾
 ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ [غافر: 27-29].

﴿و﴾ بعدما وصل إلى موسى ما قصد له العدو ﴿قَالَ مُوسَى﴾ متوكلاً على الله مفوضاً أمره إليه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد المراقب على حفظ عباده الخُلص أيها المؤمنون ﴿مِنْ﴾ شر ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ متناه في

الكبر والخيلاء بمقتضى أهويته الباطلة وإرادته الفاسدة؛ إذ ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27] حتى يرتدع عن أمثال هذه الجراءة على رسل الله، ويخلص عباده، فإنه سبحانه يكفي عني مؤنة شره.

﴿وَ﴾ بعدما صمم فرعون عزمه لقتل موسى، وجزم لمقته وهلاكه ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ موحد ما كان له اعتقاد بالوهية فرعون، وإن كان ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لكن ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ منهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ أيها المسرفون المتكبرون ﴿رَجُلًا﴾ موحدًا بمجرد ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ حقًا: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والنظير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] ¹ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات اللائحة من قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم ﴿وَإِنْ يَكْ كَاذِبًا﴾ في دعواه ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: وبال كذبه آيل إليه ﴿وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصْبِحْكُمْ﴾ البتة ﴿بَغْضٍ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ بمقتضى وحي الله وإلهامه، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويوفق على الهداية كل ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في فعله ﴿كَذَابٌ﴾ [غافر: 28] في قوله، فلا حاجة إلى قتله ودفعه؛ إذ قد يرهق عن قريب إن كان كاذبًا.

ثم ناداهم وخاطبهم مضيئًا لهم إلى نفسه إمحاضًا للنصح، واشترأًا معهم في الوبال النازل عليهم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك العمالة مختص لكم

(1) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المثل بكسر الميم وسكون الثاء ويفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ولأسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ولتور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمر وهمي ليس غيرًا لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهما فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: 35]؛ لثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: 35]؛ أي بين الله الأمثال للناس، فانهم.

اليوم بلا منازع ومخاصم، حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ عَالِينَ غَالِبِينَ ﴿فِي﴾ أَقْطَارِ ﴿الْأَرْضِ﴾ كُلِّهَا، والحمد لله والمنة، فلا ترتكبوا فعلاً جالباً لغضب الله عليكم، بل اتركوا قتله، وإلا ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾ وَيَنْقِذَنَا ﴿مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور وعذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ونزل علينا بسبب قتل الصادق الصدوق في الدعوى، المرسل من عند الله تبارك وتعالى، لو نزل بما كيف ندفعه؟.

قيل: هذا القائل المؤمن هو ابن عم فرعون، وهو عنده من المقربين. ثم لما سمع فرعون من كلامه المشتمل على محض النصيح ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معرضاً له مطرَحاً إياه: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ وأشير إليكم في رفع هذا المفسد المدعي ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ واستصوب في رأيي، واستقر عليه فكري، وهو أن يقتله ليدفع شره ﴿وَوَ﴾ اعملوا أيها الملا ﴿مَا أَهْدِيكُمْ﴾ بقولي هذا، وأمرني بقتله ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] الموصل إلى نجاتكم وخلاصكم من مفسد هذا المدعي الساحر.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ٣٠ ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ ٣١ ﴿وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ ٣٢ ﴿يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَذْبُوحِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ٣٣ [غافر: 30-33].

﴿وَوَ﴾ بعدما أكد فرعون أمر القتل، وبالع في تصميم العزم ﴿قَالَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمُ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه إظهاراً لكمال الاختصاص والشفقة: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى عقلي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يوماً هائلاً شديداً ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: 30] الهالكين المستأصلين بحلول عذاب الله عليهم فيه؛ لأن دأبكم وديدنتكم في الخروج عن حدود الله ومقتضيات أوامره وأحكامه، والظهور على رسله وتكذيبهم إياه.

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ﴾ مثل المكذبين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ ظهوراً على رسل الله وكفروا به سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فلحقهم من العذاب ما لحقهم، وكذلك يحل عليكم ما حل عليهم، لو تقتفون أثرهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَوَ﴾ إلا ﴿مَا اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31] المتحرزين عن مطلق الجرائم والآثام المنافية للحدود الإلهية، فلا يعاقب من لا ذنب له، ولا يحل عليه عذابه.

ثم ناداهم القائل الموحد أيضًا على سبيل التأكيد والمبالغة تسميًا لما يخفي في صدره من ترويج الحق وتقوية الرسول المرسل به، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32] أي: العذاب الموعود في يوم القيامة، سميت به، لتفرق الناس فيه وفرار كل منهم عن أبيه وأخيه وأمه وبنيه.

وأخاف أيضًا ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ﴾ وتنصرفون عن موقف العرض والحساب ﴿مُذْبِرِينَ﴾ فهقري هارين فارين من كثرة الآثام والجرائم الجالبة لأنواع العذاب، تخيلوا أيها المسرفون وتحروا في نفوسكم ﴿مَا لَكُمْ﴾ حيثذ ﴿مِنْ﴾ غضب ﴿اللَّهِ﴾ ونزول عذابه عليكم ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم ويدفع عنكم عذابه ﴿وَالْجُمْلَةُ: اَعْلَمُوا أَن﴾ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره وجلاله، ويحملة على ما لا ينبغي له ولا يرضى منه سبحانه، بل إنما ابتلاه وحمله عليه فتنة واختبارًا ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: 33] أي: إنه ماله هاد يهديه إلى ما يعينه ويليق بحاله ويرضى منه سبحانه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذِلْتُمْ فِي شُلُوبٍ مَجَاجِلَةٍ كُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ وَحِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 34-35].

ثم قال القائل المذكور تسجيلاً على غيهم وضلالهم: ﴿وَالْجُمْلَةُ: اَعْلَمُوا أَن﴾ كيف تستبعدون نبوة هذا المدعي ورسالته من عند الله، مع أنه ليس بيدع منه، بل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي: على آبائكم وأسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب رسولاً ﴿مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: من قبل هذا المدعي مؤيداً من عنده سبحانه ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المبينة الموضحة لدعواه ورسالته ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ أي: كنتم دائماً مستمرّاً سلفاً وخلفاً ﴿فِي شُلُوبٍ﴾ وتردد ﴿فَمَا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ في أمر الدين وشأن التوحيد واليقين ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات يوسف ~~عليه السلام~~ وانقرض زمانه ﴿قُلْتُمْ﴾ من كمال تعنتكم وعنادكم على سبيل الجزم، بلا دليل وبرهان نزل عليكم عقلاً ونقلًا: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ مع أنكم شاكون في رسالته أيضاً، بل في مطلق الرسالة والإنزال من الله الواحد القهار.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ضلالكم هذا ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره

وجلاله جميع ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في الخروج عن مقتضى الحدود الموضوعه لحفظ القسط الإلهي والاعتدال الحقيقي ﴿مُزْتَابٌ﴾ [غافر: 34] شك فيما يشتهه البيئات الواضحة والمعجزات اللاتحة.

وبالجملة: المسرفون المكابرون ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة قاطعة وبرهان واضح ﴿أَنَّهُمْ﴾ على سبيل الإلهام والوحي والبيان ﴿كَبُرَ﴾ وعظم حالهم وشأنهم هذا ﴿مَقْتًا﴾ أي: ليكون سبباً لمقتهم وهلاكهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أصالة ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام تبعاً ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿يَطْبَعُ﴾ ويختتم ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ﴾ مجبول على الشقاوة والضلال في أزل الأزال ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] يمشي على الأرض خيلاء ويضر بأهلها، وإنما أمهله سبحانه هكذا؛ ليوفر عليه عذابه المعد لأجله، ويخلده في نار القطيعة والحرمان أبد الأباد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَكْفُرُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ٣٦ ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ٣٧ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ٣٨ ﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ٣٩ [غافر: 36-39].

﴿و﴾ بعدما ظهر أمر موسى وانتشر دينه بين الناس، ودعوته إلى الله الواحد الأحد الموجد للسموات العلا والأرضين السفلى، ومالت النفوس إليه لوضوح براهينه وسطوع معجزاته ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مديراً في دفع موسى، متأملاً في شأنه، مشاوراً مع وزيره أمراً له، منادياً إياه: ﴿يَا هَامَانَ﴾ قد وقع ما نخاف منه من قبل ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ بناءً رفيعاً ظاهراً عالياً من جميع الأبنية والقصور ﴿لَعَلِّي﴾ بالارتقاء والعروج إليه ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: 36] المؤيدة لأمر موسى.

يعني: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: المؤثرات العلوية ﴿فَاطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى﴾ وأسأل منه أمره: أهو صادق في دعواه أو كاذب؟ ﴿وَإِنِّي﴾ بمقتضى عقلي و فراستي

﴿لَا ظَنُّهُ كَذِبًا﴾ ساحرًا مفتريًا على الله ترويعًا لسحره، وتقريظًا لضعفاء الأنام.

قيل: أمر ببناء رصد؛ ليطلع على قوة طالع موسى وضعفه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثلما سمعت ﴿زَيْنَ لِفَزْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ﴾ أي: حسن الله له تدبيره الذي تأمل في دفع موسى بأمثال هذه الأفكار الفاسدة ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الموصل إلى توحيد الحق ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا كُنْتُ فِرْعَوْنَ﴾ ومكره الذي دبره لدفع موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 37] هلاك وخسار.

﴿و﴾ بعدما ألزمهم القائل بأنواع الإلزام، وأسكتهم بالدلائل القاطعة، اضطروا وتحيروا في شأن موسى ودفعه ﴿قَالَ﴾ القائل ﴿الَّذِي آمَنَ﴾ له وكنتم إيمانهم منهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ناداهم ليقبلوا إليه بكمال الرغبة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ واستصوبوا رأيي واقبلوا قولي ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 38] وطريق الصدق والصواب.

﴿يَا قَوْمِ﴾ ما شأنكم وأمركم في دار الفتنة والغرور ومترل الغفلة والشور ﴿وإنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ مستعار بلا مدار واعتبار ﴿وإن الآخرة﴾ المعدة لذوي البصائر وأولي الألباب ﴿هي دار القرار﴾ [غافر: 39].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمٌ مَا لَمْ يَدْعُواكُم إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُم إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: 40-42].

واعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف أن ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في النشأة الأولى ﴿سَيِّئَةً﴾ جالبة لغضب الله، مستتعة لعذابه ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بمقتضى العدل الإلهي ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ مستجلبًا لنعم الله وموائد كرمه، سواء كان ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنفٍ وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بتوحيد الله مصدق برسله وكتبه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ رزقًا صوريًا ومعنويًا رغداً واسعاً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 40] بلا تقدير وموازنة مثل أرزاق الدنيا.

﴿و﴾ قال القائل المذكور أيضاً على سبيل الملاينة والمجاراة في صورة

المناصحة والمقابلة، إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة، وتتميمًا للغرض المسوق له الكلام: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي﴾ أي: أي شيء عرض علي ولحق لي ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ أنا من كمال عطفي ومرحمتي إياكم ﴿إِلَى النَّجَاةِ﴾ من عذاب الله وحلول غضبه، وإلى دخول الجنة المشتملة على أنواع اللذات الجسمانية والروحانية المعدة لأهل التوحيد والإيمان ﴿وَأَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41] المعدة لأصحاب الخيبة والخذلان.

إذ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتفرد بالألوهية والربوبية، وأنكر وجوده ﴿وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أشرك به شيئاً لم يتعلق علمي بالوحيته وشركته مع الله لا يقيناً ولا ظناً ووهماً؛ إذ هو جماد ماله شعور ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل على رسول الله المؤيد بالعقل الفطري المفاض لخواص عباده من لدنه سبحانه ﴿إِلَى الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب في أمره بلا فتور وقصور ﴿الْغَفَّارِ﴾ [غافر: 42] السَّار لنفوس السوى والأغيار مطلقاً.

﴿لَا جُرْمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ١٣ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ١٤ ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سِجَّاتٍ مَكْرُوءًا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ١٥ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ١٦ [غافر: 43-46].

﴿لَا جُرْمَ﴾ أي: حق وثبت ﴿أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وتمدونني نحوه ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي: لا يتأتى منه الدعوة والهداية والإرشاد، ولا ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ إذ لا يتيسر للجمادات دعوة الإنسان وتكميله مطلقاً، ﴿وَأَفَوضُ أَمْرَ آلِهَتِكُمْ وَعَدَمَ لِيَاقَتِهِمْ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ، ظَهَرَ﴾ أَنَّ مَرَدَّنَا﴾ ومرجعنا؛ يعني: أنا وأنتم وسائر العباد والمظاهر عموماً ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، بلا توهم الشركة والنزاع وجوع الأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء ﴿وَأَفَوضُ أَمْرَ﴾ أيضًا ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ الخائضين في توحيد سبحانه بالهذيانات التي تركبها أوهامهم وخيالاتهم، بلا تأييد من وحي إلهي وعقلي فطري ﴿هُم أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 43] ملازموها وملاصقوها أبد الأباد.

﴿فَسْتَذَكِّرُونَ﴾ أيها الممكورون الممقوتون حين تعابنون وتدخلون النار ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ على وجه النصيح من شأن العذاب الموعود لكم في النشأة الأخرى، وبعدها سمعوا من الوعيدات الهائلة، أضمرُوا في نفوسهم عداوته والإنكار عليه، وقصدوا مقتته ﴿وَوَ﴾ لما تفرس منهم السوء، قال مسترجعاً إلى الله متوكلاً نحوه: ﴿أَفَوْضُ أَمْرِي﴾ أي: حفظي وحصانتي عن شروركم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المراقب على محافظة عباده المتوكلين عليه، المتوجهين نحو جنابه، يكفي بلطفه مؤنة شروركم عني وإساءتكم علي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر العليم ﴿بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44] الخُلص، وما في ضمائرهم من الإخلاص والاختصاص.

قيل: فر مناهم إلى جبل، فأرسل فرعون جماعته لطلبه، فلحقوه وهو في الصلاة والوحوش حوله صافين حافين، يحرسون عما يضره، فلم يظفروا عليه، فرجعوا خائبين فقتلهم.

وبالجملة: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: حفظه الله الرقيب عليه من سيئات مكرهم وإساءتهم عليه ﴿وَوَحَاقٍ﴾ وأحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45] النازل إليهم من عند الله العزيز الغيور.

وهي: ﴿النَّارُ﴾ لتعذيب أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية، ولهذا ﴿يُغْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: فرعون وآله على النار حال كونهم في برزخ القبر ﴿غُدُّوا وَعَشِيَا﴾ دائماً في جميع الأزمان قبل انقراض النشأة الأولى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يحشرون من قبورهم صرعى مبهوتين، قبل لهم من قبل الحق بلا كشف وتفتش عن حالهم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46] أي: أفرعه وأخلده، أو قيل للملائكة الموكلين عليهم لتعذيبهم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وأسوأ النكال والويل، وهو تخليدهم في نار القطيعة على القراءتين.

﴿وَإِذْ يَتَحَلَّجُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشْدُّ مَقْنُونًا فَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبَكَارِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ

يَا بَلِيَّتْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَوْا إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ إِنَّا
لَنَصُرُ مُرْسِلَنَاوَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ
مَعْدَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ ﴿٥٢﴾ [غافر: 47-52].

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت ﴿إِذْ
يَتَحَاوُونَ﴾ ويتخاصمون؛ أي: أصحاب النار ﴿فِي النَّارِ﴾ فيقول الضُّعَفَاءُ ﴿منهم﴾ أي:
الأتباع والأرذال ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: لدى رؤسائهم ومتبوعيهـم المستكبرين عليهم،
المستبـعين لهم في النشأة الأولى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، بل أنتم أضللتـمونا
عن متابعة الرسل والهادين ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم ﴿مُعْثُونَ﴾ دافعون مانعون ﴿عَنَّا نَصِيْبًا﴾
جزءًا أو شيئًا، قد صار حظنا ﴿مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: 47] النازلة علينا بسبب اتباعنا إياكم،
واقـتفائنا أثركم، وتديننا بدينكم وخصـلتكم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: الرؤساء المتبوعين ﴿إِنَّا﴾ نحن وأنتم ﴿كُلُّ﴾ منَّا
معدبون ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار، لا يسع أحد منَّا ومنكم، ليدفع شيئًا منها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾
المتقم الغيور ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ﴾ عموم ﴿الْعِبَادِ﴾ [غافر: 48] بأن أدخل بعضًا منهم في
الجنة بفضلـه، وبعضًا في النار بعدله، ولا معقب لحكمه، وهو شديد المحال.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لأصحاب العبرة ما ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا حال كونهم
﴿فِي النَّارِ﴾ محزونين متضرعين ﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهي أعمق أماكن النار وأغورها:
﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أيها الخزنة حسبة لله، واستشفعوا منها سبحانه لأجلنا، وإن لم يغفر لنا،
ولم يعف عن جرائمنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم واحد ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:
49] الدائم المستمر حتى نتنفس فيه ونستريح.

﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة في جوابهم تهكمًا وتوبيخًا على سبيل التجاهل: ﴿أَو لَمْ
تَكُ﴾ أيها الحمقى الهالكون في تيه البعد والضلال ﴿تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ المبعوثون إليكم
﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة البدالة على قبول الإنذارات الصادرة من الله أصالة ومنهم تبعا،
وبعدما سمعوا من الخزنة ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متأوهين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ قد جاءنا نذير
فكلبنا، وقلنا: ما نزل الله من شيء ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة بعدما سمعوا منهم ما سمعوا:
إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴿فَادْعُوا﴾ على حالكم بلا استشفاع منَّا؛ إذ نحن لا نجترئ
بالشفاعة عنده، والاستغفار منه سبحانه لأمثالكم؛ إذ لا يقبل الدعاء منَّا ومنكم في أمثال

هذه الجرائم الكبيرة.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على كفرهم في النشأة الأولى التي هي دار الاختبار؛ لاستخلاصهم في النشأة الأخرى التي هي دار القرار ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 50] ضياع وخسار، لا يسمع من أحد أمثال هذا الدعاء، ولا يُجاب له.

ثم قال سبحانه وعدًا للمؤمنين وحثًا لهم على تصديق رسل الله وكتبه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿لَنَنْصُرُ﴾ ونعاون ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين هم حملة وحينا، وحفظة ديننا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لهم، واسترشدوا منهم طريق الهداية، واجتنبوا بسببهم عن الغي والضلال ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الفتن والاختبارات الإلهية، بتوفيقهم على العمل الصالح، وردعهم عن المفسد والمنكرات، ونصرهم أيضًا نصره تامة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51] أي: يوم القيامة التي تقوم فيها الشهود والعدول من الملائكة والنبين والمؤمنين لنصرة المؤمنين ومقت الكافرين.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية في نشأة الدنيا ﴿مَغْدِرَتُهُمْ﴾ التي آتوا بها يومئذ؛ إذ قد انقضى حيثُ وقت التلافي والتدارك، ومضى زمان الاختبار، بل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والتباعد عن ساحة عز الحضور ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 52] المعدة لأصحاب الخسار والبوار، وهي جهنم البعد والخذلان، أعادنا الله منها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَقِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَمِيرٌ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَامْتَنَفَعُوا لِذَلِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانِ اتَّهَمُوا إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِكَافِينَ﴾
فَأَسْتَوْذِ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [غافر: 53-56].

ثم قال سبحانه تسلياً لحبيبه، وتوطيئاً له على تحمل أعباء الرسالة الجالبة لأنواع المكروهات من النفوس المجبولة على الشقاوة والضلال والتبصر على أذياتهم: ﴿و﴾
الله ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال فضلنا وجودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكلیم ﴿الْهُدَى﴾ أي: الشرائع والمعجزات الدالة على كمال الهداية والإرشاد إلى سبيل الرشاد والسداد ﴿و﴾ بعد

انقراض موسى ﴿أَوْزَنَّا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: 53] أي: التوراة المنزلة عليه.
 وأبقيناها بينهم؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا إلى ما هداهم موسى من الأمور الدينية
 ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكيرًا يتذكرون به إلى ما يرومون من المقاصد الدينية والمعالم
 اليقينية، لا لكل أحد من العوام، بل ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: 54] الألباء المستكشفين
 عن سائر الأمور الدينية بمقتضى العقول المستقيمة المفاضة لهم من المبدأ الفياض.
 ومع ذلك سمعت يا أكمل الرسل قصص أولئك الهالكين في تيه العتو والعناد،
 وما جرى بينهم وبين الرسل المبعوثين إليهم من التحارب، والتنازع المفضي إلى أذى
 الأنبياء العظام والرسل الكرام، فصبروا على أذاهم إلى أن ظفروا عليهم بنصر الله إياهم
 وإعلاء دينه المنزل عليهم من عنده سبحانه.

﴿فَاضِرٍ﴾ أنت أيضًا يا أكمل الرسل على ما أصابك من أذيات هؤلاء الجهلة
 المستكبرين المعاندين معك، وانتظر إلى ما وعدك الحق من النصر والظفر وإعلاء دين
 الإسلام، وإظهاره على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ العليم القدير الحكيم الخبير
 ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق إنجازه ووفائه، إلا أنه مرهون بوقته، فسينصرك ويغلبك على
 أعدائك عن قريب، ويبقي آثار هدايتك وإرشادك بين أوليائك إلى النشأة الأخرى
 ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: اشتغل في عموم أوقاتك بالاستغفار لفرطاتك؛ ليكون
 استغفارك هذا سنة سنية منك لأمتك ﴿وَسَبِّحْ﴾ أيضًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك
 وأوقاتك؛ إذ كل نفس من أنفاسك يستلزم شكرًا منك، سيما ﴿بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾
 [غافر: 55] أي: في أول النهار وأواخره؛ إذ هما وقتان خاليان عن تراحم الأشغال
 وتفاقم الآمال، وبالجمله: كن مع ربك في جميع أحوالك وأطوارك، يكفي مؤنة جميع
 من عاداك وعاندك.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المعاندين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويخاصمون
 معك يا أكمل الرسل ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة عليك لتأييد دينك وشأنك على سبيل
 المكابرة والعناد ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ وفاض عليهم من ربهم
 على طريق الوحي والإلهام ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: ما في صدورهم وضمايرهم شيء
 يبعثهم على المجادلة ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ وخيلاء مركوز في جبلتهم، تقية لثروتهم ورئاستهم
 على زعمهم الفاسد، مع أنه ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ على مقتضى ما جبلوا في نفوسهم؛ إذ هم
 سيغلبون عن قريب في هذه النشأة الأولى، ويحشرون إلى جهنم البعد والخذلان في

الأخرى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ القوي القادر، والتجئ إليه سبحانه عن غدر كل غادر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْغَفُورُ﴾ [غافر: 56] بنياتهم وأفعالهم، يكفيك مؤنة ما يقصدون عليك بمقتضى آرائهم الباطلة.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 57-60].

ومن أعظم ما يجادلون فيه أولئك المكابرون أمر الساعة والمعاد الجسماني، وبعث الموتى من قبورهم وحشرهم إلى المحشر، والله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إظهار العلويات والسفليات من كتم العدم على سبيل الإبداع في النشأة الأولى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وإعادتهم أحياء في النشأة الأخرى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57] قدرة الحق وإقتداره على جميع ما دخل في حيلة علمه الشامل، وإرادته الكاملة؛ لقصور نظرهم عن إدراك الحق وصفاته ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت طبقات عباده في العلم بالله والجهل به وصفاته، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ الغافل عن ظهور ذات الحق ومقتضيات أوصافه العظمى وأسمائه الحسنى ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ العرف الكاشف بوحدة الحق، وظهوره سبحانه على هياكل جميع ما ظهر وبطن سبحانه حسب أسمائه وشئونه الذاتية ﴿وَرَبُّكَ﴾ لا المصلحون المحسنون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واعتقدوا بتوحيده ﴿وَرَبُّكَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده سبحانه من الأعمال والأفعال المترتبة على الإيمان واليقين ﴿وَلَا يُسِيءُ﴾ أي: المسيئون الأدب مع الله، وهم الكفرة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يتصفون بتوحيده، بل يستروحون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتهم الباطلة، وأظلال أنانياتهم الزائلة المضمونة في شمس الذات؛ لذلك عملوا عملاً سيئاً بمقتضى ما تهويه نفوسهم الخبيثة وأخلاقهم السخيفة، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: 58] أي: ما تذكرون

وتتفطنون على عدم المساواة إلا تذكر أقليلاً؛ لذلك تنكرون البعث والحشر.
وكيف تنكرونه؟ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة على السنة عموم الأنبياء والرسل
﴿لَا يَتَى﴾ البتة؛ بحيث ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها ووقوعها بوضوح الدلائل العقلية
الدالة على إمكان إعادة المعدوم، مع أنها مديدة بالوحي والإلهام على عموم الأنبياء
والرسل الكرام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: 59] بها، ولا يصدقون وقوعها
وقيامها؛ لانحطاطهم عن مرتبة الخلافة المترتبة على فطرة التوحيد واليقين.

﴿وَ﴾ بعدما أشار سبحانه إلى مرتبة كلا الفريقين الموحد والمشرک، أشار إلى أن
من توجه نحوه متحنتاً، وقصد تجاه توحيد مجتهداً، ودعا إليه متضرعاً، أجاب له
وأنجح مطلوبه؛ حيث ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والعرفان:
﴿ادْعُونِي﴾ أيها المكلفون بمقتضى العقل المفاض حق دعوتي، وتوجهوا إلي مخلصين
بلا رؤية الأسباب والوسائل في البين ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعوتكم، وأوصلكم إلى
مقصدكم ومقصودكم الذي هو توحيد الذات، فعليكم ألا تستكبروا عن عبادتي
وطاعتي، وبالجمله: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويستكفون ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾
بمقتضى آرائهم الباطلة وأهوائهم الفاسدة ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمَ﴾
الحرمان والخذلان ﴿ذَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] صاغرين ذليين مهانين.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقُ
كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [غافر: 61-65].

وكيف يستكفون ويستكبرون عن عبادة الفاعل على الإطلاق، والمنعم
بالاستقلال والاستحقاق مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتصف بصفات الكمال
ونعوت الجلال والجمال، هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ مظلمًا باردًا ﴿لِتَسْكُنُوا﴾

وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بلا ضرر وإضرار ﴿وَوَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾⁽¹⁾ لتكتسبوا فيه معاشكم، وتجمعوا حوائجكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنعم المكرم على عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم وكرامة كاملة شاملة ﴿عَلَى﴾ عموم ﴿النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على النسيان والكفران ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61] نعمه، ولا يواظبون على أداء حقوق كرمه، جهلاً منهم بالله، وعناداً مع رسله الهادين إليه.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ الذي أفاض عليكم موائد بره وإحسانه، وأظهر عليكم مقتضيات ألوهيته وربوبيته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم، بعدما أوجدكم من كتم العدم؛ إذ هو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم إظهاراً إبداعياً بمقتضى اختياره واستقلاله، فلکم أن تتوجهوا إليه وتحتشوا نحوه مخلصين؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد له بالاستحقاق، ويرجع إليه في الخطوب على الإطلاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الذات الواحدة الموصوفة بالصفات الكاملة، المربية لجميع ما في الكون من العكوس والأظلال المنعكسة منها ﴿فَأَنى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62] وتنصرفون عن عبادته أيها الأفكون المنصرفون؟.

فأين تذهبون من بابه أيها الزاهبون الجاهلون، ما لكم كيف تحكمون أيها الضالون المحرومون؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من المجادلة والمكابرة بلا برهان واضح وبيان لائح ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف عن طريق الحق عموم المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: 63] وينكرون بلا تأمل وتدبر؛ لينكشف لهم ما فيها من المعارف والحقائق المودعة فيها، فكيف تجحدون بآيات الحكيم العليم أيها الجاحدون الجاهلون، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالألوهية والربوبية؟.

إذ ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿قَرَارًا﴾ تستقرون عليها بمقتضى هويتكم ﴿وَوَ﴾ رفع لكم ﴿السَّمَاءَ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿بِنَاءً﴾ أي: سقفاً محفوظاً رقيقاً، تستفيضون منها الكمالات

(1) منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حداثته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برّاً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته [تفسير السعدي] (741/1).

اللائقة لاستعداداتكم وقابلياتكم الموهوبة لكم من عنده ﴿و﴾ بالجملة: ﴿صُورَكُمْ﴾ من آباء العلويات وأمّهات السفليات ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بأن خلقكم على أعدل الأمزجة وأحسن التقويم؛ لتكونوا قابلين لاثقين لخلافة الحق ونيابته.

﴿و﴾ بعدما صوركم فأحسن صوركم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الصورية والمعنوية تقوية وتقويماً لأشباحكم وأرواحكم ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ الذي سمعتم نبأاً من أوصافه الكاملة ونعمه الشاملة ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم بمقتضى لطفه، فأنى تصرفون عنه وعن توحيده وعبادته أيها المسرفون الضالون، مع ألا رب لكم سواه؟ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، العلي بذاته، الجلي بحسب أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64] على الإطلاق بالاستقلال والاستحقاق لا يعرضه زوال، ولا يطرأ له انقراض وانتقال.

بل ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الأزلي الأبدي الدائم، المستغني عن مقدار الزمان ومكيال المكان مطلقاً ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود سواه، ولا موجود يعبد بالحق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وبعدها سمعتم أيها المكلفون خواص أسمائه وصفاته سبحانه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ واعبدوه مخلصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العباداة والانقياد؛ إذ لا مستحق للإطاعة والعبادة سواه، وبعدها رجعتم نحوه مخلصين، وعبدتم له مخلصين، قولوا بلسان الجمع: ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوعب لجميع المحامد الناشئة من السنة عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65] لانفراده في الألوهية، واستقلاله في الربوبية بلا توهم الشراكة والمظاهرة.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَايَمَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ [غافر: 66-68].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لعموم المشركين على وجه التنبيه والإرشاد، بعدما وضح أمر التوحيد، واتضح سبيل الهداية والرشاد: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾ من قبل ربي الذي سمعتم استقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وأنقاد الآلهة الباطلة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الفريد في الألوهية، الوحيد بالربوبية ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: حين نزل علي الآيات المبينة الموضحة ﴿مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ﴾ أيضًا من لدنه سبحانه ﴿أَنْ أَسْلِمَ﴾ أي: أعبد وأنقاد على وجه الإخلاص والاختصاص، بلا رؤية الوسائل والأسباب ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] إذ هو سبحانه منزّه عن التعدد والتكثر مطلقًا، ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات.

وكيف لا يعبدونه سبحانه، ولا ينقادون إليه بتوحيده مع أنه ﴿هُوَ﴾ الخالق المصور ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ قدر صوركم أولاً ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ مسترذل إظهارًا لقدرته الغالبة الكاملة ﴿ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ﴾ مهينة مستحدثة من التراب ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ خبيثة متكونة من النطفة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ كائنًا من أجزاء العلقة، والروح المنفوخ فيها من لدنه سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ يربيكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ﴾ أي: كمال قوتكم وحولكم نظرًا وعملاً ﴿ثُمَّ﴾ أمهلكم وأعمركم زمانًا ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ منحطين منسلخين عن كلتا القوتين معًا ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى﴾ ويموت ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل بلوغه إلى أشده أو شيخوخته ﴿وَ﴾ إنما فعل سبحانه كل ما فعل من الأطوار المتعاقبة ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلًا﴾ معينًا مقدّرًا ﴿مُسَمًّى﴾ عنده بلا اطلاع أحد عليه؛ لقبضكم نحوه ورجوعكم إليه ﴿وَ﴾ الحكمة الباعثة على جميع ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾ [غافر: 67] وتفهمون أن مبدأكم ومنشأكم منه، ومعادكم إليه، فتعبدونه حق عبادته كي تعرفوه حق معرفته.

وكيف لا تعبدونه سبحانه، ولا تعرفونه أيها العقلاء المجبولون على فطرة الدراية والشعور مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ﴾ بامتداد أظلال أسمائه كل ما لاح عليه شمس وجوده ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقبض تلك الأظلال بالإرادة والاختيار، وبالجملّة: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: تعلقّت إرادته ومشيته بإحداث ما ظهر في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ بعد تعلق مشيته: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68] بلا تراخ وتعاقب، مفهوم من منطوق هذا الكلام على ما هو المتبادر من أمثاله، بل كل ما لمع عليه برق إرادته، وصبر منه سبحانه ما يدل على نفوذ قضائه يكون المقضي؛ بحيث لا يسع بين القضاء والمقضي توهم المهلة والتراخي والترتيب أصلاً.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي صُرُوفٍ﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا

بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ
الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾
أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَكَمَا نَتَرِينَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَقَّيْنَاكَ فَإِذَا تَوَلَّى سَاقًا لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّذِينَ هُمْ عَلَى

ومع سرعة نفوذ قضاء الله، وظهور هذه الآثار العظيمة من قدرته الكاملة على
الوجه المذكور ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المشركين المفسدين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾
ويكابرون ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على كمال علمه وقدرته، ومثانة حكمه وحكمته ﴿أَنِّي
يُضْرَفُونَ﴾ [غافر: 69] أي: إلى أين ينصرفون عن عبادته، ويعرضون عن ساحة عز
الوحدة الذاتية؟

سيما إلى المكابرين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن الجامع الكامل المنزل
عليك يا أكمل الرسل ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي: بجميع ما أرسلنا ﴿بِهِ رُسُلَنَا﴾ الذين مضوا
من قبلك من الكتب والصحف المنزلة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَغْلَمُونَ﴾ [غافر: 70] وبال
جدالهم وتكذيبهم في النشأة الأخرى.

وقت ﴿إِذْ﴾ تكون ﴿الْأَغْلَالُ﴾ الثقيلة معقودة ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ بسبب انصرافهم
عن آيات الله، وعدم التفاتهم إلى رسله الحاملين ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في أيديهم وأرجلهم؛
لعظم جرائمهم وآثامهم الباعثة على أخذهم ومقتهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: 71] ويجرون
على وجوههم، ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أي: الجحيم إلى ما شاء الله تفضيحا لهم ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ﴾
المسكرة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 72] ⁽¹⁾ يوقدون، ويطرحون فيها طرح الحطب

(1) وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَغْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ وهذا تهديد من الله المشركين به؛ يقول
جل ثناؤه: فسوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، المكذبون بالكتاب حقيقة ما
تخبرهم به يا محمد، وصحة ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب، حين تجعل الأغلال
والسلاسل في أعناقهم في جهنم. وقرأت قراءة الأمصار: والسلاسل، برفعها عطا بها على
الأغلال على المعنى الذي بينت. وذكر عن ابن عباس أنه كان يقرؤه "والسلاسل يُسْحَبُونَ"

الوقود للنار.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: 73] أي: أين أصنامكم وأوثانكم، وعموم معبوداتكم التي ادعيتم شركتها مع الله في الألوهية، وسميتهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لم لا تنقذكم من عذاب الله، ولم لا يشفعون لكم عنده سبحانه بمقتضى ما زعمتم في شأنكم؟.

وبعد ما سمعوا ما سمعوا من التوبيخ والتقريع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿ضَلُّوا﴾ وخابوا ﴿عَنَّا﴾ آلهتنا وشفعاؤنا التي كنا ندعو إليهم ونستشفع منهم ﴿بَلْ﴾ قد ظهر اليوم أنا ﴿لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى شيئًا ينفعنا، ويدفع عنا من غضب الله ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المنتقم المضل ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: 74] الضالين؛ حيث لا ينكشفون بضلالهم إلا وقت حلول العذاب والوبال عليهم.

ثم قيل لهم مبالغة في توبيخهم وتعيرهم: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: إضلال الله إياكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ في الأرض ﴿وتمشون عليها خيلاء بطرين مسرورين، مستكبرين عن قبول آيات الله المتزلة على رسله، مكذبين لهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا دليل عقلي قطعي، أو سمعي إقناعي، أو ظني، بل بمجرد الوهم الناشئ من كبركم وخيلائكم

بنصب السلاسل في الحميم. وقد حكى أيضا عنه أنه كان يقول: إنما هو وهم في السلاسل يسحبون، ولا يجيز أهل العلم بالعربية خفض الاسم والخافض مضمر. وكان بعضهم يقول في ذلك: لو أن متوهما قال: إنما المعنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل يسحبون. حاز الخفض في السلاسل على هذا المذهب، وقال: مثله، مما رد إلى المعنى. قول الشاعر: قَدْ سَأَلَمَ الْحَيَاتُ مِنْهُ الْقَدَمَاءُ... الْأَفْقَوَانُ وَالشُّجَاعُ الْأَزْقَمَاءُ، فنصب الشجاع والحيات قبل ذلك مرفوعة، لأن المعنى: قد سالمت رجله الحيات وسالمتها، فلما احتاج إلى نصب القافية، جعل الفعل من القدم واقعا على الحيات، والصواب من القراءة عنلنا في ذلك ما عليه قراء الأمصار، لإجماع الحجة عليه، وهو رفع السلاسل عطفًا بها على ما في قوله: (فِي أَغْنَائِهِمْ) من ذكر الأغلال، وقوله: (تُسَجَّرُونَ) يقول: يسحب هؤلاء الذين كتبوا في الدنيا بالكتاب زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى خُرؤه، وبلغ غايته، وقوله (ثُمَّ فِي النَّارِ يُسَجَّرُونَ) يقول: ثم في نار جهنم يحرقون، يقول: تسجر بها جهنم: أي توقد بهم، وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، عن مجاهد، في قوله: (تُسَجَّرُونَ) قال: يوقد بهم النار، حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي (ثُمَّ فِي النَّارِ يُسَجَّرُونَ) قال: يحرقون في النار، قال ابن زيد: يسجرون في النار: يوقد عليهم فيها. «تفسير الطبري» (415/21 - 416).

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [غافر: 75] أي: تتوسعون، وتتفرون على أنفسكم الفرح والسرور بمخالفتكم حدود الله وسنن أنبيائه ورسله عنادًا ومكابرة.

ثم قيل لهم بعد تفضيحهم على رءوس الأشهاد: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها المسرفون الضالون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ المعدة لكم بدل ما قُوتِم على نفوسكم من الدرجات العلية الجنانية، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآباد ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76] وماواهم جهنم البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان، أعاذنا الله وعموم المؤمنين. وبعدهما ظهر واتضح مآل حال الكفرة المستكبرين وعاقبة أمرهم ﴿فَاضْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذاهم، وانتظر إلى هلاكهم الموعود، وثق بالله في إنجاز وعده ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ التقدير الحكيم بإهلاك المشركين المكذبين المسرفين ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق ثبوته ألبتة، بلا خلف منه سبحانه؛ إذ الله لا يخلف الميعاد مطلقًا، إلا أن وعده سبحانه مرهون بأجل مقدر عنده.

ولا تحزن من تأخير الموعود، ولا تعجل لحلول الأجل المعهود ﴿فَإِذَا نُرِيَكَ﴾ أي: فإن نُرِكَ ونبُصِرَكَ، زيدت «ما» في أول الفعل، والنون في آخره للتأكيد والمبالغة ﴿بَغْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من القتل والسبي والجلاء، فذاك تحقق وعدنا إياك ﴿أَوْ نَتَوَفِّيكَ﴾ ونميتك قبل حلول أجل إهلاكهم وتعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُزْجَعُونَ﴾ [غافر: 77] أي: لا تحزن من تأخير الموعود، وبعد توفيك أيضًا؛ إذ نحن نعذبهم، ونتقم عنهم بعد رجوعهم إلينا في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى وآلافها. وبالجمل: بعدما وعدنا لهم العذاب بانحرافهم عن سبيل الرشاد، مصرين على المكابرة والعناد، أنجزنا الموعود ألبتة سواء كان عاجلاً أم آجلاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكِتَابَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَيْرَ هَٰؤُلَاءِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 78]

﴿وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَتَعَبَ نَفْسَكَ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجْلِ الْمَقْدَرِ مِنْ عِنْدِنَا﴾ إِذْ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ مِنْ مَقَامِ جُودِنَا ﴿رُسُلًا﴾ كَثِيرًا ﴿مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَضَيْنَا﴾ قِصَّتَهُمْ ﴿عَلَيْكَ﴾ فِي كِتَابِكَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضِضْ عَلَيْكَ﴾ وَلَمْ نَذْكُرْ قِصَّتَهُمْ فِي كِتَابِكَ؛ إِذْ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ.

﴿وَلَا بِالْجُمْلَةِ﴾: ﴿مَا كَانَ﴾ أَي: مَا صَحَّ وَجَّازٌ ﴿لِرُسُولٍ﴾ مِنَ الرُّسُلِ ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾ وَيُعْجِلَ ﴿بِآيَةٍ﴾ مَقْرَحَةٍ أَوْ غَيْرِ مَقْرَحَةٍ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَيَمَقْضِي مَشِيئَتَهُ وَإِرَادَتَهُ سُبْحَانَهُ، بَلْ أَنْ يَنْتَظِرَ الْوَقْتَ الَّذِي عَيْنُ سُبْحَانِهِ ظُهُورَهَا فِيهِ؛ إِذْ جَمِيعُ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ مُوَهَّوْبَةٌ لِلَّهِ، مَقْسُومَةٌ بَيْنَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ بِمَقْضِي قِسْمَتِهِ سُبْحَانَهُ فِي حَضْرَةِ عِلْمِهِ وَلَوْحِ قَضَائِهِ، لَا يَسَعُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُعْجِلَ بِهَا، أَوْ يُؤَخِّرَ عَنْ وَقْتِهَا، بَلْ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ بِتَعْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ وَإِثَابَةِ الْمُوَحِّدِينَ ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ جَمِيعُ الْمَقْضِيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، سِوَاهُ كَانَتْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالْمُثُوبَاتِ ﴿وَلَا كَمَا﴾ خَيْرَ هُنَالِكَ أَي: عِنْدَ وَقْعِ الْمَقْضِيِّ وَظُهُورِهِ ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] الْمُسْتَوْجِبُونَ لِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَرَبِحَ حَيْثُ الْمُسْتَحَقُونَ لِأَصْنَافِ الْمُثُوبَاتِ وَاللَّذَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ.

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ بِيَدِ اللَّهِ وَقَبْضَتُهُ وَقُدْرَتُهُ؛ إِذْ ﴿اللَّهُ﴾ الْمَتَفَرِّدُ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ هُوَ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآنْعَامَ﴾ مَسْخَرَةً مَقْهُورَةً لَكُمْ، مُحْكَمَةً تَحْتَ أَمْرِكُمْ وَحُكْمِكُمْ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ مَا يَلِيقُ بِرُكُوبِكُمْ تَتِمِيمًا لِتَرْبِيَّتِكُمْ وَحُضُورِكُمْ ﴿وَلَا جَعَلَ لَكُمُ﴾ أَيْضًا ﴿مِنْهَا﴾ أَي: مِنَ النِّعَامِ ﴿مَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: 79] لِتَقْوِيمِ الْمَزَاجِ وَتَقْوِيَةِ الْبَدَنِ.

﴿وَلَا جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا﴾ أَيْضًا ﴿مَنَافِعَ﴾ كَثِيرَةً كَالْأَلْبَانِ وَالصَّوَافِ وَالْأَشْعَارِ وَالْأَوْبَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ أَي: لِتَصْلُوا، وَتَنَالُوا بِالْحَمْلِ وَالرُّكُوبِ ﴿عَلَيْهَا﴾ أَي: عَلَى الْآنْعَامِ ﴿حَاجَةً﴾ مَطْلُوبَةً لَكُمْ مَرْكُوزَةً ﴿فِي ضُلُوبِكُمْ﴾ وَنَفُوسِكُمْ، وَلَوْلَا رُكُوبِكُمْ وَحَمْلُكُمْ عَلَيْهَا، لَمْ تَصْلُوا إِلَيْهَا إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ ﴿وَلَا بِالْجُمْلَةِ﴾: ﴿عَلَيْهَا﴾ أَي: عَلَى الْآنْعَامِ فِي الْبَرِّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فِي الْبَحْرِ ﴿تُخَمَلُونَ﴾ [غافر: 80] يَعْنِي: سَهْلٌ عَلَيْكُمْ سُبْحَانَهُ أُمُورُ مَعَاشِكُمْ فِي إِقَاسَتِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ تَتِمِيمًا لِتَرْبِيَّتِكُمْ وَحِفْظِكُمْ؛ لِتَوَاضَعُوا عَلَى شُكْرِ نِعَمِهِ، وَتَلَازَمُوا لِعِبَادَتِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ بِالتَّبَتُّلِ وَالْإِخْلَاصِ التَّامِ.

﴿وَلَا بِهَذَا﴾ بِهَذَا ﴿يُيْرِيكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَغْمُورُونَ الْمُسْتَغْرَقُونَ فِي بَحَارِ أَفْضَالِهِ وَجُودِهِ ﴿آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى وَجُوبِ وَجُودِهِ، وَوَحْدَةِ ذَاتِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ فِي الْآثَارِ الصَّادِرَةِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ حَسَبَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿فَأَيُّ﴾ آيَةٍ مِنْ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ

وربوبيته ﴿تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: 81] أيها المسرفون المشركون.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمَّا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥) [غافر: 82-85].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أينكر المشركون المصرون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية كمال قدرته سبحانه على أنواع الانتقام والعذاب، فلم يسيروا في الأرض التي هي محل الكون والفساد ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ عليها معتبرين من البلاء والخبرة والأطلال المدرسة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم الهالكة المسرفة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عددا وعددا ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: بسطة واستيلاء ﴿و﴾ أحكم ﴿أَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أبنية وقصورا وقلاعًا وحصونًا مشيدة مرفوعة، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ وأدفع ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: 82] عليها من الأمور المذكورة شيئًا من غضب الله وعذابه، بل لحقهم ما لحقهم من العذاب، بحيث لا شعور لهم بأماراته ومقدماته فاستأصلهم بالمرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فهم في العتو والعناد كانوا كأمثال هؤلاء المسرفين، لما جاءهم رسلهم المبعوثون إليهم بالمعجزات والآيات الواضحات، المبينة لطريق الحق، لم يلتفتوا ولم يلقوا أسماعهم نحوها تعتًا واستكبارًا، بل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الجهل المركب المركوز في طباعهم من تقليد آبائهم على أوجه الإصرار، بلا التفات منهم إلى ما ظهر من الوحي الإلهي المنزل على رسلهم، بل كذبوهم واستهزؤوا معهم ﴿و﴾ لهذا ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ وبال ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: 83] حين دعوة الرسل وإرشادهم إلى طريق الحق بأنواع الوعد والوعيد، وكانوا على ما هم عليه من العناد مصرين مستكبرين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا وبطشنا حل عليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين دعوة رسلهم

متحسرين على ما فؤتوا على أنفسهم: ﴿آمَنَّا بِاللّهِ وَخَدَّهٖ﴾ على الوجه الذي هدانا إليه رسله ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: 84] من الأصنام والأوثان، وسائر ما عبدنا من دونه سبحانه.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا﴾ إذ حيثن قد انقضى زمان التدارك والتلافي، وبالجمله: قد كانت هذه الديانة المستمرة ﴿سُنَّتَ اللّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ المستكبرين عن إطاعته واتباعه حين دعوة الرسل وإرشادهم ﴿وَوَ﴾ بعد حلول أوان اليأس ونزول العذاب ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: عنده ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85] ⁽¹⁾ المصرون على الإنكار والاستهزاء خسراناً عظيماً في

(1) فلما رأوا بأسنا شدة عذابنا ومنه قوله تعالى: بعذاب بئس قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين يعنون الأصنام أو سائر آلهتهم الباطلة: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أي عند رؤية عذابنا لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا يقبل مثل ذلك الإيمان وإيمانهم رفع ييك أسما لها أو فاعل ينفعهم وفي يك ضمير الشأن على الخلاف الذي في كان يقوم زيد ودخل حرف النفي على الكون لا على النفع لإفادة معنى نفي الصحة فكانه لم يصح ولم يستقم حكمة نفع إيمانهم ليأهم عند رؤية العذاب وهنا أربعة فاءات فاء فما أغنى وفاء فلما جاءتهم وفاء فلما رأوا وفاء فلم يك فالفاء الأولى مثلها في نحو قولك: رزق المال فمضع المعروف لما بعدها نتيجة مأكية لما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد والتمتع بالحصون ونحوها والثانية تفسيرية مثلها في قولك: فلم يحسن إلى الفقراء بعد فمضع المعروف في المثال فما بعدها إلى قوله تعالى: (وحاق بهم) إيضاح لذلك المجمل وأنه كيف انتهى بهم الأمر إلى عكس ما أملوه وأنهم كيف جمعوا واحتشدوا وأوسعوا في إطفاء نور الله وكيف حاق المكر السيء بأهله إذ كان في قوله سبحانه: فما أغنى عنهم إيمانهم بأنهم زاولوا أن يجعلوا مغنية والثالثة للتعقيب وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعا عقيبه فلما رأوا بأسنا مترتب على قوله تعالى: (فلما جاءتهم) إلخ تابع له لأنه بمنزلة فكفروا إلا أن فلما جاءتهم الآية بيان كفر مفصل مشتمل على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول فكانه قيل: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ومثلها الفاء الرابعة فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل: فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الاختيار سنت الله التي قد خلت في عباده أي من الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في البعاد وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله وجوز انتصابها على التحليل أي احلروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل (وخسر هنا لك الكافرون) أي وقت رؤيتهم في اليأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفاً وهذا الحكم خاص بإيمان اليأس وأما توبة اليأس فهي مقبولة نافعة بقل الله تعالى وكرمه والفرق ظاهر، وعن بعض الأكابر أن إيمان اليأس مقبول أيضاً ومعنى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أن نفس

الدنيا، وفي الآخرة أعظم منه وأدوم، أعاذنا الله وعموم عباده المؤمنين من بأسه وبطشه بيمينه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد نحو الحق المتوجه إلى توحيده - وفقك الله على إنجاح مهامك، وأوصلك إلى منتهى مقصدك ومرامك - أن تكون على خبرة كاملة من آيات الله النازلة من عنده سبحانه؛ لإهداء عباده التائبين في فضاء وجوده، وعبرة تامة سريان وحدته الذاتية على عموم هياكل ما لمع عليه بروق تجلياته الجمالية والجلالية المنتشرة من ذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى.

فلك ألا تغفل في عموم أحوالك عن مطالعة جمال الله وجلاله في كل ذرة من ذرات الأكوان على وجه الاستبصار والاعتبار، بلا شائبة شك وإنكار وتردد واستكبار؛ لئلا تلحق بالأخسرين الذين يؤمنون بالله وتوحيده، حين لم يكُ ينفعهم إيمانهم؛ لانقضاء نشأة التلافي والاختبار، وذلك حين يعرضون على الملك الجبار، ويساقون إلى النار بأنواع الخسار والبوار.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وقتنا عذاب النار.

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة فصلت

لا يخفى على المستبصرين المستكشفين عن سرائر الكتب الإلهية، وأسرار الآيات المنزلة من عنده سبحانه على رسله وأنبيائه المؤيدين من لدنه بتكميل مرتبتي الولاية والنبوة المتفرعة على اسم الظاهر والباطن والأول والآخر، أن سر الإنزال والإرسال الذي جرت عليه السنة السنية الإلهية، واقتضت حكمته البالغة العلية وعلمه الشامل ورحمته الواسعة، إنما هو لتبنيه أهل الحيرة والضلال من المترددين في فضاء الوجود، بلا شعور منهم إلى مبدئهم ومعادهم؛ لاحتجابهم بالقرب المفرط المعمي عيون بصائرهم وقلوبهم، ليتفطن منهم ويتذكر بها من كان له قلب يقبله الرحمن بأصابع أسمائه وصفاته كيف يشاء، أو ألقى السمع، وهو وإن كان محجوباً لهويته، شهيد حاضر القلب غير مغيب من الله وآثار ألوهيته وربوبيته؛ ليفنى كل من سمع وتذكر عن هويته الباطلة، ويبقى بهوية الله الغير الزائلة.

ولهذا خاطب سبحانه حبيبه، ورمز في خطابه بعدما تيمن بأسماء أسمائه التي هي مقاليد كنوز الوجود، ومفاتيح خزائن الفيض والوجود فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمر عموم مظاهره بمقتضى استعداداتها الفائضة عليها حسب جوده ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليها بإخراجها عن مكنن العدم إلى فضاء الوجود ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواص عباده إيصالهم إلى الحوض المورود والمقام المحمود.

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصْلَتَهُ آيَةً قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي مَآثِنَاتِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: 1-5].

﴿حم﴾ [فصلت: 1] يا حافظ وحي الله، المؤيد من عنده لحفظ حدوده بمقتضى

أوامره ونواهي، هذا القرآن الجامع لمصالح عموم المظاهر والأكوان⁽¹⁾.

﴿تَنْزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من الذات الأحدية بمقتضى اسم الرحمن المستوي به على عروش عموم الأكوان؛ لإصلاح حال كل ما لاح عليه شمس ذاته تميماً لتربيته إياه؛ إذ ما من رطب ولا يابس إلا وهو سبحانه مشتمل عليه ومتكفل لتربيته وتديره ﴿الرَّحِيمُ﴾ [فصلت: 2] بإنزاله لخواص عبادته؛ ليتنبهوا من رموزه وإشاراته إلى وحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته.

وإنما صار القرآن جامعاً بين مرتبتي الظاهر والباطن والأول والآخر؛ لأنه ﴿كِتَابٌ﴾ شامل كامل ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ وأوضحت ﴿آيَاتُهُ﴾ المشتملة على دلائل التوحيد بشواهد القصص والأحكام، ومنبهات العز والحكم، ومحاسن الأخلاق والأعمال، ومقاييح المناهي من الأفعال والأحوال في النشأة الأولى والآخرى، ولهذا صار ﴿بُزْآنًا﴾ فرقاناً واضحاً تبياناً ﴿عَرِيَّانَا﴾ بياناً؛ إذ لا لغة أحسن منه وأشمل وأفضل وأكمل، وإنما فصلت وأوضحت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3] أي: يوفقون من لدنه سبحانه على العلم اللدني والفطرة الأصلية التي هي المعرفة والتوحيد.

ولهذا صار ﴿بَشِيرًا﴾ يشر أهل العناية والسعادة والفوز العظيم الذي هو يحققهم بمقام الرضا والتسليم ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر أصحاب الشقاوة والحرمان عن خلود النيران والعذاب الأليم، ومع علو شأنه ووضوح تبيانه وبرهانه.

﴿فَأَعْرِضْ﴾ عنه، وانصرف عن قبوله وسماعه سمع تدبر وتأمل ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر المكلفين المأمورين من عنده سبحانه بامثال ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وباتصاف ما ذكر فيه من الأخلاق والأعمال، وما رمز إليه من المعارف والأحوال ﴿فَهُمْ﴾ من شدة قساوتهم وغفلتهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 4] ولا يلتفتون نحوه عتواً وحناداً، فكيف عن فحصه وقبوله، ودراية ما فيه من الرموز والإشارات.

﴿وَرَوْى﴾ من غاية عمهم وسكرتهم، ونهاية عتوهم، وإعراضهم عن استماع كلمة الحق والالتفات إليه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والتسخير: ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي في وعاء

(1) معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضاً هو قسم أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبي لهم، وأيضاً بحياتك ومشاهدتك يا حيي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة والكرم عليك وعلى أمتك.

الإيمان والاعتقاد ﴿فِي أَكْثَرِ﴾ وأعطية كثيفة وغشاة غليظة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من المعرفة والتوحيد، لا نتبه ولا نتفطن بحقيقته ﴿و﴾ أيضًا ﴿فِي آذَانِنَا﴾ التي هي وسائل العظة والتذكير ﴿وَقُرْ﴾ صمم مانع عن استماع آياتك الدالة على صدقك في دعواك المينة المثبتة لدعواك.

﴿و﴾ بالجملة: حال ﴿مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ أيها المؤيد بالوحي والإلهام ﴿حِجَابٌ﴾ عظيم يمنعنا عما تدعوننا إليه؛ بحيث لا يتيسر لنا رفعه، ولا نقدر على انكشافه ﴿فَاعْمَلْ﴾ أيها المدعي بمقتضى ما أوحاك إليك ربك وألهمك عليه ﴿إِنَّا﴾ أيضًا ﴿عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 5] بما تيسر لنا ووفقنا عليه؛ إذ كل ميسر لما خلق له.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَذَلِ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ ٦ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ﴾ ٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ﴾ ٨ [فصلت: 6-8].

وبعدما استنكفوا عنك، واستكبروا عليك وعلى دينك وكتابك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض اليقين والتوحيد، خاليًا عن وصمة التخمين والتقليد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: ما أنا إلا بشر مثلكم ما أدعي الملكية لنفسي، غاية ما في الباب أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: يوحى ربي إلي بمقتضى سنته السنية المستمرة في سالف الزمان ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، وأخرجكم من فضاء الوجود ﴿إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ أحد صمد فرد وتر، لا تعدد فيه بوجه من الوجوه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا نحوه مخلصين موحدين ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لقرطاتكم التي صدرت عنكم بمقتضى بشريتكم؛ ليغفر لكم ما تقدم منكم من طغيان بهيميتكم.

﴿و﴾ عليكم ألا تشاركوا معه سبحانه شيئًا من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ ﴿وَذَلِ﴾ عظيم وعذاب أليم معد عنده ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6] المشركين له غيره، الخارجين عن مقتضى توحيده واستقلاله في ألوهيته ظلمًا وزورًا.

والمشركون المستكبرون عن آيات الله هم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لهم من أموالهم تطهيرًا لنفوسهم عن رذالة البخل، ولقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿و﴾ سبب امتناعهم عن التخلية والتطهير، أنهم بمقتضى أهويتهم الفاسدة

وآرائهم الباطلة ﴿هُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لتقيد أعمال العباد ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 7]
منكرون جاحدون، لذلك يمتنعون عن قبول التكاليف الشرعية، وعن الامتثال للأوامر
الدينية المنزلة على مقتضى الحكمة الإلهية.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية: ﴿إِنَّ الْمَوْحِدِينَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة
الحق واستقلاله في الألوهية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أكدوا إيمانهم بصلاحات
الأعمال، مخلصين فيها لمجرد امتثال أمر العبودية، بلا ترقب منهم إلى ما يترتب عليها
من المثوبات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم بدل إخلاصهم ﴿أَجْرٌ﴾ وجزاء ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:
8] أي: بلا منة معقبة للثقل والأذى، بل يحسن ويتفضل عليهم سبحانه من محض
الرضا.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ
أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ ١٠ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ١١ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ
أَمْرًا وَزَيْنًا السَّمَاءُ الْأُتَىٰ بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ١٢ [فصلت: 9-12].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وجحد توحيدَه على سبيل التوبيخ
والتقريع: ﴿أَيْنَكُمْ﴾ أيها الجاهدون المسرفون ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ وتكفرون ﴿بِالَّذِي﴾ أي:
بالقادر العليم الحكيم الذي ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾
يومًا لاستعداداتها القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود، ويومًا لاتصافها بها بمقتضى
الجود الإلهي.

﴿وَلَهُ﴾ من كمال غفلتكم وضلالكم عن توحيد الحق وتوحيده في ذاته ﴿تَجْعَلُونَ
لَهُ أَندَادًا﴾ تثبتون له شركاء في الوجود، مشاركين معه سبحانه في الآثار والتصرفات
الواقعة في الكائنات، وتتوجهون نحوهم في الخطوب والملمات، مع أنه لا رب لهم
سواه سبحانه، ولا مرجع لهم غيره، بل ﴿ذَلِكَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ذكر نبأ
من أخص أوصافه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: 9] أي: موجد جميع ما لاح عليه برق

الوجود، ومربيها بمقتضى الجود.

﴿وَكَيْفَ تَتَكَبَّرُونَ وَحْدَةَ الْحَقِّ، وَاسْتِقْلَالَه فِي مَلِكِهِ وَمَلَكُوتِهِ مَعَ أَنَّهُ ﴿جَعَلَ﴾ بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ ﴿فِيهَا﴾ أَي: فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ ﴿رَوَّاسِي﴾⁽¹⁾ أَي: أَقْطَابًا وَأَوْتَادًا رَفِيعَةً الِهِمَمِ عَالِيَةِ الْقَدْرِ مُسْتَمِرَّةٌ ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ أَي: مِنْ عَالَمِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ﴿وَوَ﴾ لِهَذَا ﴿بَارَكَ فِيهَا﴾ وَكَثُرَ الْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ عَلَيْهَا ﴿وَوَ﴾ مِنْ كَمَالِ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ ﴿قَلَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾⁽²⁾ أَي: قَدَّرَ وَأَظْهَرَ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُهَا مِنَ الرِّزْقِ الصَّوْرِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ تَمِيمًا لِتَرْبِيَّتِهِمْ، وَتَكْمِيلًا لَهُمْ حَسَبَ نَشَاتِهِمْ.

كُلُّ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يَوْمِينَ لِلنَّشْأَةِ الْأُولَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِالظُّهْرِ وَالْبُرُوزِ، وَيَوْمِينَ لِلنَّشْأَةِ الْآخَرَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْكُمُونِ وَالْبَطُونِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَيَّامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿سَوَاءً﴾ أَي: سَبِيلًا سَوِيًّا وَطَرِيقًا مُسْتَقِيمًا ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ [فَصَلَتْ: 10] الْمُسْتَكَشِفِينَ عَنْ مَدَّةِ بُرُوزِ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ عَنْ مَكْمَنِ الْغَيْبِ.

﴿ثُمَّ﴾ أَي: بَعْدَمَا هَبَطَ وَنَزَلَ مِنْ عَالَمِ الْأَسْمَاءِ إِلَى مَهَبَطِ الطَّبِيعَةِ وَالْهَيُولِيِّ، وَصَعِدَ إِلَيْهَا ﴿أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أَي: سَمَاءِ الْأَسْمَاءِ، وَتَمَكَّنَ عَلَيْهَا مُسْتَعْلِيًا مُسْتَغْنِيًا فَارِعًا عَنِ الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ ﴿وَوَ﴾ الْحَالُ أَنَّهُ ﴿هِيَ﴾ أَي: عَالَمِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي أَنْفُسِهَا أَيْضًا ﴿دُخَانٌ﴾ حِجَابٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى صِرَافَةِ الذَّاتِ؛ إِذْ لَا تَخْلُو عَنْ شُوبِ الْكُثْرَةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلظُّلْمَةِ، بَعْدَمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا سُبْحَانَهُ، وَتَمَكَّنَ ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أَي: لِسَمَاءِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

﴿وَلِلْأَرْضِ﴾ أَي: الطَّبِيعَةِ وَالْهَيُولِيِّ إِظْهَارًا لِلْقُدْرَةِ الشَّامِلَةِ وَالسُّلْطَانَةِ الْغَالِبَةِ: ﴿أَنِّيَا﴾ وَتَوَجَّهًا نَحْوَ جَنَابِنَا، مُنْسَلَخِينَ عَنْ هَوِيَّاتِكُمَا الْبَاطِلَةِ وَوُجُودَاتِكُمَا الْعَاطِلَةِ الزَّائِلَةِ ﴿طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَي: طَائِعَتَيْنِ أَوْ كَارِهَتَيْنِ؛ إِذْ لَا وَجُودَ لَكُمَا فِي أَنْفُسِكُمَا، وَبَعْدَمَا سَمِعْتَا مِنَ النَّدَاءِ الْمَهُولِ مَا سَمِعْتَا ﴿قَالَتَا﴾ عَلَى وَجْهِ التَّصْرِيحِ وَالتَّنْذِيلِ، حَسَبِ

(1) قَالَ الْقَشِيرِيُّ: أَي: جِبَالًا مَرْتَفَعَاتٍ، وَجَعَلْنَا بِهَا الْمَاءَ سَقِيًّا لَكُمْ، يُدَكِّرُهُمْ عَظِيمُ مِثْنِهِ بِذَلِكَ عَلَيْهِمُ. وَالْإِشَارَةُ فِيهِ إِلَى عَظِيمِ مِثْنِهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْصِفْ بِكُمْ الْأَرْضَ، وَإِنْ عَمِلْتُمْ مَا عَمِلْتُمْ (17/8).

(2) أَي: حَكَمَ أَنْ يَوْجَدَ فِيهَا لِأَهْلِهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَقْوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُمْ عَلَى مَقْدَارِ مُعِينٍ، تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَشِيشَةُ، وَمَا يَصْلَحُ بِمَعَايِشِهِمْ مِنَ الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَجَعَلَ الْأَقْوَاتِ مُخْتَلِفَةً فِي الطَّعْمِ وَالصُّورَةِ وَالْمَقْدَارِ، وَقِيلَ: خَصَابِهَا الَّتِي قَسَمَهَا فِي الْبِلَادِ. الْبَحْرُ الْمَدِيدُ (391/5).

استعداداتهما الفطرية وقابليتهما الجبلية: ﴿أَتَيْنَا﴾ نحو بابك يا ربنا ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11] من أين يتأتى منا الكره لحكمك، يا من لا وجود لنا إلا منك، لا تحقق إلا بك، نعبدك ونستعين منك على العبادة عبادتك؛ إذ لا معبود لنا سواك، ولا مقصود إلا إياك.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ أي: قضى سبحانه وقدر لإمدادهما ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع التي هي أمهات الأسماء الإلهية ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: يوم الظهور ويوم البطون، يوم لتحصيل المادة، ويوم لتكميل الصورة ﴿وَوَعَدْنَا﴾ بعدما حكم وقضى سبحانه ﴿أَزْوَاجًا﴾ والهم ﴿فِي كُلِّ سَمَاءٍ﴾ من الأسماء المدبرة ﴿أَمْرَهَا﴾ أي: أمورها التي طلب منها ووضع لأجلها ﴿وَوَعَدْنَا﴾ قال سبحانه بعدما رتبها عليها تمييزاً للتربية، وتكميلاً للقدرة الكاملة الشاملة: ﴿زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾ أي: القرب إلى عالم الشهادة المشتملة على الآثار والأعمال، الصادرة من المظاهر والأظلال ﴿بِمَصَابِيحٍ﴾ مقتبسة مسرجة من أشعة أنوار الذات ﴿وَوَعَدْنَا﴾ جعلناها ﴿حِفْظًا﴾ أي: وقاية ورقياً لأرباب العناية من وساوس شيطان الأوهام، والخيالات المترتبة على القوى الطبيعية المائلة بالذات إلى السفلى ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من الخلق والإيجاد على النظام البديع والترتيب العجيب ﴿تَقْدِيرُ﴾ الحكيم ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على إيجاد جميع ما دخل في حيلة إرادته ﴿الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 12] بإظهارها على عموم الصور الممكنة لظهورها.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۚ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۚ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْزِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۚ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۚ﴾ ﴿١٦﴾ [فصلت: 13-16].

وبعدما ظهر من دلائل توحيد الحق ما ظهر، ولاح من آثار قدرته الكاملة ما لاح ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: الكفرة الجهلة المستكبرون عنك يا أكمل الرسل، وعن جميع ما جئت لهم من الآيات البينات لدلائل توحيد الذات، وكمال الأسماء والصفات الإلهية ﴿فَقُلْ﴾ لهم على وجه التحذير والتنبيه: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة

والضلال، أتى بالماضي لتحقيق وقوعه ﴿صَاعِقَةً﴾ أي: بلية عظيمة نازلة عليكم من شدة قساوتكم، وإعراضكم عن الحق وأمله كأنها صاعقة في الحول والشدة ﴿مِثْلُ صَاعِقَةٍ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ [فصلت: 13].

وقت ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم؛ لتكميلهم وإرشادهم، والمبلغون لهم الوحي الإلهي ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: في حضورهم وغيتهم بواسطة وبغير واسطة، المنبهون عليهم، القائلون لهم: عليكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿أَلَا تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا بالعبودية الخالصة ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالإطاعة والانقياد؛ إذ لا معبود لكم سواه، ولا مقصد إلا هو.

وبعد ما سمعوا من رسلهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متهمين مستهزئين: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ الذي ادعيت ربوبيته وألوهيته بالانفراد والاستقلال ﴿لَأَنْزَلَ﴾ بمقتضى قدرته الكاملة التي ادعيت له ﴿مَلَائِكَةً﴾ يخرجوننا من أودية الجهالات ويأدية الضلال والغفلات، وبالجمل: ﴿فَإِنَّا﴾ بأجمعنا ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: بجميع ما جتم به وادعيت الرسالة فيه ﴿كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 14] منكرون جاحدون، إن أنتم إلا بشر مثلنا بلا مزية لكم علينا، ومن أين يتأتى لكم هذا؟

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على عباد الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبار الإلهي ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا انقياد وإطاعة إلى دين ونبي يرشدهم إلى طريق الحق ﴿وَرَوْى﴾ من كمال تعنتهم ويطهرهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه الشرف والمباهاة: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ على وجه الأرض ﴿مِنَّا قُوَّةً﴾ وأكثر عدداً وعدداً، وأنتم بسطة واستيلاء؟

وقالوا هذا حين تخويفهم الرسل بالعام العذاب عليهم، وهم كانوا أعظم الناس جسماً وأوفرهم قوة وقدرة، لذلك اغتروا بما عندهم من القوة والثروة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيت نزوله أيها الكاذبون بوفور حولنا وقوتنا ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القدير العزيز ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأظهرهم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكمل حولاً وقدرة، وأحكم بطشاً وانتقاماً ﴿وَرَوْى﴾ هم وإن جزموا حقية رسلنا المبعوثين إليهم، وآياتنا المنزلة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، لكن ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَلُونَ﴾

[فصلت: 15] وينكرون بحسب الظاهر عنادًا ومكابرة، اغترارًا بما معهم من الثروة والجسامة.

وبعد ما تمادوا على غيهم، وأصروا على عتوهم وضلالهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بمقتضى قهونا وجلالنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة شديدة البرد، عقيمة عن المطر، تعميهم بتقعها، وتصميهم بصريرها ﴿فِي أَيَّامٍ نُّحْسِتِ﴾ لا سعود فيها؛ يعني: إنما بدلنا مسعودات أيامهم بالمنحوسات ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: المذلة والهوان اللازم على العذاب حيث كان ونزل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هم مغرورون فيها، مسرورون بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة للانتقام والجزاء ﴿أَخْزَى﴾ أي: أشد خزيًا، وأتم تذليلًا وتصغيرًا بأضعاف عذاب الدنيا وآلافها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [فصلت: 16] ولا يشفعون فيها بدفع العذاب عنهم لحظة، بل يخلدون في العذاب ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جُلِّتْهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ [فصلت: 17-21].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بإرسال الرسل إليهم؛ ليرشدوهم إلى النجاة، وينقذوهم من الضلال، وبعد ما بلغهم الرسل ما بلغهم من آيات الهداية والرشاد، كذبوهم وأنكروا هدايتهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والضلال بمقتضى عميهم وغفلتهم ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ المنزل عليهم من عندنا على السنة رسلنا، وبعد ما أصروا على ما هم عليه من الغواية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ فجأة ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ المنخزي المذل النازل من نحو السماء على صورة الصاعقة السريعة الجري والحركة، فاستأصلهم بالمرّة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: 17] ⁽¹⁾ أي: بشؤم ما يقترفون من المعاصي والآثام العجالة إليهم شدة غضب

(1) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي بينا لهم، وأرادوا بذلك على ما قيل

بيان طريق الضلالة والرشد كما في قوله تعالى: ﴿وَهْدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البقرة: 10] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِبُوا أَمْرَ الْهُدَى﴾ أي: فاختراروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختراروا أحدهما، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكى عنه أنه قال: أي أعلمناهم الهدى من الضلال، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختراروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإبلاء ظاهر ﴿فَاسْتَجِبُوا﴾ إلخ عنه، واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناءً على أن قوله تعالى: ﴿وَهْدَيْنَاهُمْ﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة، وقوله تعالى: ﴿اسْتَجِبُوا أَمْرَ الْهُدَى﴾ إلخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى، والجواب كما في «الكشف» أن في لفظ الاستجابة ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة، وأن لقدرة العبد مدخلاً ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حباً وهو الاستجابة من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجيب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية أنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه، فهي نفسها غير اختيارية لكنها باعتبار مقدماتها اختيارية، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وفي «طوق الحمامة» لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي، وإليه يشير قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] أي بميل فجعل علة ميلها كونها منها، وهو المراد بقوله ﷺ: «الأرواح جنود مجنونة» وتكون المحبة لأمور آخر كالحسن والإحسان والكمال، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم، وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه، وقرأ ابن وثاب والأعمش ويكر بن حبيب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع مصروفاً وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ [الإسراء: 59] لأنه في المصحف بغير ألف، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه، والمفضل قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروى عن ابن عباس ﴿ثَمُودًا﴾ بالنصب والتنوين، وروى المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة، ومن صرفه جعله اسم رجل، والنصب على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم، وقرئ بضم الشاء على أنه جمع ثمود وهو قلة الماء فكانهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿الْهُدَى قَأْخَذْتُهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي الذي وهو صفة للعذاب أو بدل منه، ووصفه به مصدرًا للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف ونسب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة، وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة: من المعلوم أن انطلاق الكهرباء التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التربة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهرباء السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية

الله وعذابه.

﴿وَمِنْ كَمَالِ قُدْرَتِنَا عَلَى الْإِنْعَامِ وَالْإِنْتِقَامِ﴾ ﴿نَجِّنَا﴾ مِنْ تِلْكَ الصَّاعِقَةِ الْمَهُولَةِ الْمَهْلِكَةِ الْقَوْمَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِرِسْلَانَا وَاهْتَدَوْا هِدَايَتَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِيهِمْ مُجَاوِرِينَ مَعَهُمْ ﴿وَوَيْلٌ لِمَنْ يَكْذِبُ بِتَخْلِيصِنَا إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ﴾ ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18] عَنْ مُحَارَمِنَا وَمُنْهِيَاتِنَا، مَعَ كَوْنِهِمْ مُتَصَفِينَ بِكَمَالِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

﴿وَوَيْلٌ لِمَنْ يَكْمُلُ الرِّسْلَ لِمَنْ عَانَدَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يُخْشَرُ﴾ وَيُسَاقُ ﴿أَغْدَاءُ اللَّهِ﴾ بَعْدَ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ ﴿إِلَى النَّارِ﴾ الْمَعْدَةُ لِحَزَائِهِمْ ﴿فَهُمْ﴾ حِينَئِذٍ ﴿يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: 19] أَي: يَدْفَعُونَ؛ يَعْنِي: حَبَسَ أَوْلَهُمْ وَمَقْدَمَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ؛ لِثَلَا يَنْقَطِعَ تَلَا حَقَّهُمْ وَاجْتِمَاعَهُمْ.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أَي: حَضَرُوا النَّارَ، وَازْدَحَمُوا حَوْلَهُمْ مُجْتَمِعِينَ صَائِحِينَ فَرَعِينَ مُجَادِلِينَ مُنْكَرِينَ بِصُدُورِ أَسْبَابِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ يَحَاسِبُونَ أَوَّلًا ثُمَّ يَسَاقُونَ نَحْوَ النَّارِ، وَلَا يَسْكَاتُهُمْ وَتَبْكِيَتُهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ أَي: اعْتَرَفَتْ جَوَارِحُهُمْ وَقَوَاهِمُ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [فصلت: 20] وَيَقْتَرِفُونَ بِهَا مِنَ الْمَحْرَمَاتِ وَالْمُنْهِيَّاتِ، بِأَنَّهُمْ يَلْهَمُهُمُ اللَّهُ الْاعْتِرَافَ وَالتَّنَطُّقَ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ؛ إِذِ الْكُلُّ مِمَّا أَحَاطَتْ بِهِ قُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ.

﴿وَوَيْلٌ لِمَنْ سَمِعُوا مِنْ قَوَاهِمِ مَا سَمِعُوا مِنَ الْاعْتِرَافِ﴾ ﴿قَالُوا﴾ مَوْتِخِينَ مُقَرَعِينَ ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ وَجَوَارِحِهِمُ الْمَعْتَرِفَةِ بِذُنُوبِهِمْ: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ مَعَ أَنَّا لَا نُعَذِّبُ إِلَّا بِكُمْ وَمَعَكُمْ؟ مِنْ أَيْنَ تَجْتَرِثُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْعَرْضِ عَلَى الْعَذَابِ الْمُؤِيدِ أَيُّهَا الْحَقُّ الْقَادِرُ الْمَقْتَدِرُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بِآيَاتٍ وَجُوبٍ وَجُودِهِ، وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ

فتبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم، وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما ورد في آيات آخر، ولا مانع من الجمع بينهما. وقرأ ابن مقسم ﴿الهوان﴾ بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿بَغْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء. «تفسير الألوسي» (179/18).

بمقتضى جوده، وليس تعجباً من قدرته سبحانه إنطاقنا بما اقترفتُم بنا من المعاصي والآثام المخالفة لأمره وحكمه، غيرة منه سبحانه، وقهراً على من خرج عن رتبة عبوديته بترك أوامره وأحكامه.

﴿و﴾ كيف لا يغار ويقهر سبحانه عليكم أيها المفسدون المترفون مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم خلقاً إبداعياً ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا سبق مادة ومدة، وشركة من أحد ومظاهرة ﴿وَالْيَهُ﴾ أيضاً آخر مرة كذلك ﴿تُزْجَعُونَ﴾ [فصلت: 21] رجوع العكوس والأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء، فمن أين تستنكفون عن عبوديته، وتخرجون عن حكمه وأمره ١٩.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَإِنْ يَصْصِرُوا فَاَلْسَارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥) [فصلت: 22-25].

ثم قال سبحانه تذكيراً لما هم عليه عند ارتكاب المعاصي توبيخاً لهم وتقريعاً: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ﴾ أي: لم تكونوا مسرين مستترين عند ارتكاب الفواحش والمحظورات مخافة ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ عند الله في يوم الجزاء؛ لأنكاركم به، بل إنما تشترون وتكتمون معاصيكم وقبائحكم مخافة فضاحتكم واشتعاركم بين الناس بالمذام ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ بالله ظن السوء، وهو ﴿أَنْ﴾ الله ﴿المطلع لسرائر الأمور وخفائياتها﴾ ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 22] في خلواتكم، لذلك اجترأتم على اقتراف المعاصي والآثام المحرمات.

﴿وَذَلِكُمْ﴾ أي: هذا الذي نسبتم إلى الله بقولكم هذا ﴿ظَنُّكُمْ﴾ السوء، وزعمكم الفاسد ﴿الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ العليم الخبير بجميع ما صدر عنكم، وهذا ﴿أَرَدْتُمْ﴾ وأهلككم في تيه الجهل والضلال، وبعدما قوَّتم على أنفسكم أسباب السعادة والهداية، واخترتم بدلها ما يوجب الشقاوة والضلال ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ﴾ زمرة ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 23] وانقلبتم صاغرين مهانين، وصرتُم في النار خالدين.

وبعدما دخلوا في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿فَإِنْ يَصْصِرُوا﴾ على

فوحاتها والتهاباتها الشديدة ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى﴾ منزلاً ﴿لَهُمْ﴾ أبداً، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ ويثبوا الشكوى والعتبى، ويظهروا الكآبة وعدم الطاقة ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُقْتَبِينَ﴾ [فصلت: 24] المجابين بإزالة العتبى والشكوى، بل كلما أظهروا العتاب ضوعف لهم العذاب.

﴿و﴾ كيف يزال عتابهم، ولا يضاعف عليهم عذابهم؛ إذ قد ﴿قَيَّضْنَا﴾ وقدرنا ﴿لَهُمْ﴾ فيما هم عليه من الكفر والشقاق، وأنواع الفسوق والنفاق ﴿قُرْنَاءَ﴾ أخداناً وإخواناً من الشياطين يوحون إليهم ما يبعدهم عن الحق وأهله ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ وحسّنوا لطباعهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من اتباع الشهوات، وارتكاب المناهي والمحظورات ﴿و﴾ إنكار ﴿مَا خَلَقَهُمْ﴾ من الأمور الأخروية مواعيدها وموعداتها.

﴿و﴾ سبب ارتكاب المعاصي وإصفاؤهم، قول قرنائهم ﴿حَقٌّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ﴾ وكلمة العذاب المؤبد متناً، وليس هذا مخصوص بقوم دون قوم بل جرت سنتا كذلك ﴿فِي﴾ كل ﴿أَمَمٍ﴾ مفسدة مشركة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين المفسرين سواء أكانوا ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: المكلفين منها، وإنما استحقوا العذاب المؤبد والنكال المخلد بسبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 25] خسراناً ميبئاً؛ لاستبدالهم أسباب السعادة والهداية بالشقاوة والضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْمُخْلَدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجُدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ [فصلت: 26-29].

﴿و﴾ من شدة غيهم وضلالهم المفضي إلى الخسران العظيم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك - يا أكمل الرسل - حين تلاوتك وتبليغك عليهم آيات القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ولا تلتفتوا إلى محمد حين قرأ، بل ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ بالصياح، وإنشاد الأشعار، وخلط الأصوات والخرافات ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26] محمداً، وتدفعون قراءتهم، وتخجلونه فيسكت.

وهم من شدة شكيمتهم وغيظهم، وإن بالغوا في تخجيلك وتخذيالك يا أكمل الرسل، لا تبال بهم ويفعلهم هذا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ لهؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وأساءوا

الآدب معك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ منتقمين عنهم في النشأة الأولى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَسْوَأَ﴾ وأشد وأقبح من ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 27] معك بأضعافها وآلافها.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الأسوأ الأشد ﴿جَزَاءُ﴾ أعمال ﴿أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين عاندوا معك يا أكمل الرسل، واستهزؤوا بك وبكتابك، بطرين بما معهم من الجاه والثروة، وهي ﴿النَّارُ﴾ المسعرة المعدة لدخولهم ونزولهم؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: إقامة على وجه الخلود، وإنما صارت كذلك ليكون ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 28] وينكرون بها، ويكذبون بمن أنزل إليه ويستهزئون.

﴿و﴾ بعدما استقر أهل النار في النار بأنواع السلاسل والأغلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه في النشأة الأولى، متحسرين متأسفين، متضرعين إلى الله، مناجين له: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة الإسلام والتوحيد، فكفرنا بك وأشركتنا معك غيرك في ألوهيتك بإضلال قرناتنا الضالين المضلين ﴿أَرِنَا﴾ الشياطين ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ عن طريق توحيد كتبك ورسلك الكائنين ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي: المضلين اللذين أضلانا من هذين الجنسيتين بأنواع الوسوس والزخارف، والتغريرات والتزيينات ﴿نَجْعَلُهُمَا ثُغْتَ أَفْئَامِنَا﴾ لنتقم عنهم جزاء ما فوتوا عنا سعادة الدارين وصلاح النشأتين، وإنما نرجو منك هذا يا مولانا ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: 29] المستبعين لنا، كما كنا كذلك بالنسبة إليهم؛ وإنما قالوا ما قالوا تحسرا وتضرعا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أُولِيَ الْكُفْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلَّيْنَ عَنْ قُرُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ قَالَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 30-33].

ثم قال سبحانه على مقتضى سبته في كتابه: ﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ في السراء والضراء والسر والعلن: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: 3-4] ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وتثبتوا على ما

أَقْرُوا، واعترفوا بأعمالهم وأحوالهم وبيناتهم المترتبة عليها عموم أفعالهم ﴿تَنْزُلُ﴾ على إيعانتهم وشرح صدورهم وتهذيب أخلاقهم ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المترصدون لأمر الله، القائمون لحكمه، قائلين لهم مبشرين إياهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على فرطاتكم التي صدرت عنكم قبل انكشافكم بسرائر التوحيد واليقين ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ بما جرى عليكم من مقتضيات بشرياتكم ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30] ⁽¹⁾ بالسنة أنبيائكم ورسلكم الهادين المهديين.

وبعد ما وفقناكم على انكشاف سرائر توحيدنا، والتخلق بأخلاقنا ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ نولي عموم أموركم؛ بحيث نكون سمعكم وبصركم وجميع قواكم وجوارحكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حسب اسمنا الظاهر ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضاً كذلك حسب اسمنا الباطن ﴿وَلَكُمْ﴾ منا وراء ذلك تفضلاً وإحساناً ﴿فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من اللذات الروحانية حسب استعداداتكم الفطرية وقابلياتكم الجبلية الفائضة عليكم بمقتضى جودنا الواسع ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: 31] تطلبون وتتمنون وقت دعائكم في نشأة الدنيا حسب عقولكم وهوياتكم.

كل ذلك صار ﴿تُزَلَّ﴾ معداً لكم قبل نزولكم فيها تفضلاً عليكم وإحساناً لكم ﴿مَنْ غُفِرَ﴾ سائر لآنانياتكم، محاء لذنوب هوياتكم ﴿رُحِيمٌ﴾ [فصلت: 32] موصل لكم بمقتضى سعة رحمته وجوده إلى زلال توحيده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأصلح عملاً، وأكمل إيماناً واعتقاداً، وأتم معرفة وتوحيداً ﴿مَنْ دَعَا﴾ أي: أرشد وهدى ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالالوهية والربوبية، المتفرد بالوجود والديمومية ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿ضَالِحًا﴾ مطابقاً موافقاً لصفاء مشرب التوحيد، مجتنباً عن رعونات العجب والرياء، وتخمينات التقليد والهوى ﴿وَالْجَمَلَةِ﴾ [فصلت: 33] المسلمين المنقادين، المفوضين إلى الله جميع ما لاح عليهم من بروق تجلياته الجمالية والجلالية، وما لي أيضاً إلا التسليم والرضا بعموم ما جرى عليه القضاء.

(1) قال محمد بن علي الترمذي: تنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تؤعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (402/5).

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٦) وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ (٣٧) وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٨) وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٩) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ [فصلت: 34-38].

ثم قال سبحانه على سبيل التعليم والإرشاد لعموم العباد: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ أي: لا تستوي جنس الحسنات بل هي متفاوتة في الحسن والبهاء ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: وكذا لا تستوي جنس السيئات أيضًا بعضها أسوأ من بعض ﴿ادْفَعْ﴾ أيها السالك القاصد سلوك طريق التوحيد من جادة العدالة المنكشفة لأكمل الرسل وأفضل الأنبياء الهادين، المرشدين إلى بحر الوحدة الذاتية من جداول الأسماء والصقات المترشحة منها حسب تموجاتها وتطوراتها المتفرعة على شئونها الذاتية ﴿بِالَّذِي﴾ أي: بالخصلة الحسنة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحسنات أسوأ السيئات، ودوام عليها، وتخلق بها حتى تستوي وتستقيم أنت على جادة العدالة الإلهية.

وبعد استقامتك وتحققك في هذه المرتبة ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ كان ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ مستمرة ناشئة من القوى البهيمية من كلا الطرفين، صار صديقك وخليبك إلى حيث ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ﴾ حفيظ لك، رقيب على حضانتك عن جميع ما يؤذيك ويرديك، فكيف يؤذيك؛ إذ هو ﴿حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34] مشفق كريم رهوف، رحيم لك، لا يخاصمك أصلاً.

﴿و﴾ لكن ﴿مَا يُلْقَاهَا﴾ أي: الخصلة الحميدة الحسنة التي هي دفع الإساءة بالإحسان، والمكروه بالمعروف، والقهر باللطف ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: الأبطال المتحملون الذين صبروا على كظم الغيظ وتحمل المتاعب والمشاق المتعاقبة على نفوسهم؛ لتحقيقهم بمقام الرضا والتسليم بما جرى عليهم من القضاء، وتمكنهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات، المستلزمة لأنواع الاختلافات والانحرافات ﴿و﴾

بالجملة: ﴿مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35] ⁽¹⁾ ونصيب كامل من الكشف والشهود بأسرار الوجود بمقتضى الجود الإلهي.

﴿و﴾ بعدما أرشد سبحانه عموم عباده إلى طريق النجاة، وعلمهم الخصلة المحمودية المخلصة لهم عن أودية الضلالات والجهالات، وأوصاهم بما أوصاهم من الصبر والثبات على تحمل المشاق والمكروهات، خاطب حبيبه ﷺ بما خاطب حثا له ولمن تبعه واسترشد منه على دفع ما يمنعهم عن الاتصاف بتلك الخصال الحميدة، ويعوقهم منها بالإضلال والإغواء، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَزَعَّتْكَ﴾ ويعرضن عليك يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي ﴿تَزَعَّجُ﴾ نخس يحرك غضبك وحمية بشريتك، ويوقعن فيك بوسوسته فتنة تبعثك على الإساءة والانتقام بترك تلك الخصلة المحمودية ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ بالله أي: بادر إلى الإعادة والالتجاء ﴿بِاللَّهِ﴾ المقلب للقلوب، وفوض أمورك كلها إليه سبحانه على وجه التبتل والإخلاص؛ لتأمن من غوائله وتلييساته ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36] بحاجاتك وخلوص نياتك فيها.

ثم قال سبحانه ردًا على المشركين، المتخذين شركاء الله من مظاهره ومصنوعاته ظلمًا وزورًا، يعبدونهم كعبادته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من جملة الدلائل الدالة على قدرة

(1) بين الله سبحانه هاهنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقًا والبعيد قريبًا، حين دفع غيب بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقًا بخلقته متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنى. قال ابن عطاء: لا يسوي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهال الكبار، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات، وقال الأمتاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة، وبين الله سبحانه ألا يبلغ أحد إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائل وغير الوسائل، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظ من مشاهدته وذو نصيب من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطبق أحد الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمة، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

الصانع الحكيم ﴿اللَّيْلُ﴾ المظلم ﴿وَالنَّهَارُ﴾ المبصر المضيء ﴿وَوَهَّ كَذَا﴾ الشَّمْسُ ﴿المشرق في النهار﴾ ﴿وَالْقَمَرُ﴾ المنير في الليل، قل لهم يا أكمل الرسل على وجه التبيه والتذكير: ﴿لَا تَسْجُدُوا﴾ أي: لا تعبدوا ولا تتذللوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿لِلشَّمْسِ﴾ المستهلكة أمثالكم في شروق ذاته سبحانه ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ المستتير منها بالطريق الأولى.

بل ﴿وَاسْجُدُوا﴾ وتذللوا بوضع جباهكم وجوار حكم على تراب المذلة ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد القدير العزيز ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: أظهرهن، وأوجدهن من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادة وزمان، بل بمجرد امتداد أظلال أسمائه، وبسط عكوس صفاته على مرآة العدم، فعليكم الإطاعة والإنقياد إليه، والتوجه نحوه على وجه الإخلاص والاختصاص فاعبدوه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِثَّاءَ﴾ سبحانه ﴿تَقْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37] أيها العابدون المخلصون.

وبعدما بلغت إليهم بأكمل الرسل ما بلغت من الحق الحقيق بالقبول والاتباع ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ واستنكفا عن سجود الله، وأصروا على ما هم عليه عن سجود الله، اعرض عنهم وعن نصحتهم، ولا تبال لهم وبشأنهم ﴿قَالِ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل من الملائكة المهيمين، المستغرقين بمطالعة جماله وجلاله، والموحدين المغيثين هوياتهم في هوية الله ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ ويقصدون ذاته عن شوب الشراكة مطلقاً، قولاً وفعلًا، وخاطراً وناظراً ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: في عموم الأوقات والحالات ﴿وَهُمْ﴾ من كمال شوقهم وتحنتهم ﴿لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38] أي: لا يملون ولا يفترون منها أصلاً.

﴿وَمِنْ مَّآثِرِهِ﴾ أنك ترى الأرض خشيعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿٣٩﴾ إن الذين يلحدون في مآثرتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خيراً ممن يأتي يوم القيمة أعمالوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴿٤٠﴾ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتب عزيز ﴿٤١﴾ لا يأتى البطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿٤٢﴾ [فصلت: 39-42].

ومع ذلك هو سبحانه غني عن عبادتهم فكيف عن عبادة هؤلاء الحمقى،

المنغمسين في بحر الجهالات التائهين في بادية الضلالات وأودية الشهوات والغفلات ﴿و﴾ أيضًا ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته: ﴿أَنْتَ﴾ يا أكمل الرسل، وإنما وجه سبحانه أمثال هذه الخطابات إلى النبي ﷺ، مع أنه يصلح عموم الناس؛ لكمال لياقته بمطالعة آيات الله، وخبرته منها ﴿تَرَى الْأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة العدمية الجامدة اليابسة ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة ساقطة عن درجات الاعتبار ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ورششنا ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المحيي المترشح من بحر الوجود، الذي هو الحي الأزلي والقيوم السرمدي ﴿اهْتَزَّتْ﴾⁽¹⁾ أي: تحركت وارتعدت اهتزازًا شوقيًا ﴿وَزَبَتْ﴾ أي: زادت ونمت، مع أنها لا شعور فيها، بل لا وجود لها أصلًا.

وبالجملة: ﴿إِنْ﴾ القادر المقتدر الحكيم ﴿الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ مع أنها لم تكن في ذاتها شيئًا مذكورًا ﴿لَمْخِي الْمَوْتِ﴾ مرة أخرى بعدما كانت أحياء بالطريق الأولى، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39] بلا فتور وقصور.

ثم قال سبحانه تهديدًا على منكر الآخرة، وقدرة الله على إعادة الموتى وحشر الأموات: ﴿إِنْ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينحرفون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال قدرتنا على أنواع الانتقام ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: لا يشبه حالهم علينا، بل نحن منكشفون بهم وبجميع ما جرى في ضمائرهم، واختلج في خواطرهم من الميل والانحراف، فيجازيهم على مقتضى إلحادهم وانحرافهم بأشد العذاب وأسوأ الجزاء.

﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ أي: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: إن من يلقي في النشأة الأخرى في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿خَيْرٌ﴾ عندهم ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا﴾ من العذاب مسرورًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأنواع الفتوحات والكرامات الموهوبة له من ربه تفضلاً عليه وإحسانًا، وبالجملة: قل يا أكمل الرسل للملحدين المصرين على الميل والإلحاد على سبيل التبكيث والتهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا تُشْتُمُونَ﴾ من الخوض في آيات الله، والميل عن دلائل توحيده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(1) اهتزت أي: تحركت (وزبت) انتفخت؛ لأن النبات إذا ذنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصلحت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (407/5).

[فصلت: 40] يجازيكم عليه بلا فوت شيء منه، ثم عرض عنهم ودعهم ﴿فِي خُزُؤِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

ثم قال سبحانه على وجه التخصيص بعد التعميم: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المفرطين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا ﴿بِالذِّكْرِ﴾ أي: القرآن الكامل الشامل لما في الكتب السالفة، المنزل على أكمل الرسل تفضلاً منا إياه وتكريماً ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم به الرسول المؤيد من عندنا، المرسل إليهم ليرشدهم به إلى سبيل الهداية والرشاد، وهم يعاندون في تكذيبه، ويكابرون في إنكاره وقدحه عتوا واستكباراً، كيف يفرطون في علو شأنه، ويكابرون في سمو برهانه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41] منبع ساحة عزته ورتبته، وعلو قدره ومكانته عن أن يحوم حوله شائبة الجدل والعناد. إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ الزائغ الزائل في خلال أوامره وأحكامه لا ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بأن يتصف حكمه وأحكامه حين نزوله وظهوره بعدم المطابقة لما في الواقع، وما في علم الله ولوح قضائه ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ بأن يلحقه نسخ وتبديل كالكتب السالفة؛ إذ هو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ كامل في الإتيان والإحكام، عليم بأساليب الحكم والأحكام ﴿حَمِيدٌ﴾ [فصلت: 42] في ذاته، يحمده كل الأنام على ما أفاض عليهم من موائد الإفضال والإنعام.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ١٣
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبٌ وَعَرَفٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ١٤ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخُتِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ١٥ مَنْ حَمَلَ صَلَاحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٦ [فصلت: 43-46].

ثم أخذ سبحانه يسلي حبيبه ﷺ ويزيل عنه أذى الكفرة الجهلة المعاندين معه بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة العاطلة، فقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك ليس ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ الذين مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من

قِيلَ قَوْمِهِمْ، فَصَبَرُوا عَلَى أَذَاهُمْ حَتَّى ظَفَرُوا عَلَيْهِمْ وَانْتَصَرُوا، فَاصْبِرْ أَنْتَ أَيْضًا عَلَى أَذَى هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ حَتَّى تَظْفِرَ عَلَيْهِمْ، وَبَعْدَمَا ظَفَرْتَ يُؤْمِنُوا بِكَ، وَيَصْرُوا عَلَى عِنَادِهِمْ ﴿إِنَّ رَيْكَ لَدُوْ مَغْفِرَةٍ﴾ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِكَ، يَغْفِرُ لَهُمْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِمْ وَمَا تَأَخَّرَ، إِنْ أَخْلَصُوا فِي إِيْمَانِهِمْ ﴿وَذُوْ عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43] عَلَى مَنْ تَوَلَّى وَاسْتَكْبَرَ، وَأَصْرَ عَلَى كَفَرِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ.

وَبَعْدَمَا قَدَحَ كُفَارَ مَكَّةَ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ، وَقَالُوا: هَلَا نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَجَمِ كَالْكِتَابِ السَّالِفَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْ مِنْهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَالَ كِتَابَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ قَطُّ، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَيُّ: الذِّكْرَ الْمُنْزَلَ عَلَيْكَ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا﴾ فِي شَأْنِهِ مِنْ شِدَّةِ بَغْضِهِمْ وَشَكِيمَتِهِمْ مَعَكَ ﴿لَوْ لَا فَضَّلْتَ﴾ أَيُّ: هَلَا أَوْضَحْتَ وَبَيَّنْتَ ﴿آيَاتُهُ﴾ بِلِسَانِ نَفَقَهِهَا وَنَدْرَكَهَا، مَعَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَإِلَيْنَا وَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ لُغَةَ الْعَجَمِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ فِي الْقَدَحِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِوَجْهِ آخِرٍ، وَيَقُولُونَ: ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يَعْنِي: أَيْنَزَلَ كَلَامَ أَعْجَمِيٍّ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ عَلَى سَبِيلِ الْوَحْيِ عَلَى نَبِيِّ عَرَبِيٍّ، لَا شَعُورَ لَهُ بِكَلَامِ الْعَجَمِ أَصْلًا لِيُرْشِدَ الْأَعْرَابَ بِهِ وَيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا فِيهِ؟ أَمْ كَلَّا وَحَاشَا، مَا هَذَا إِلَّا كَذِبٌ مَفْتَرٍ، وَبِالْجُمْلَةِ: لَا يَسْكُتُونَ أَوْلَئِكَ الْمَعَانِدُونَ عَنِ الْقَدَحِ وَالطَّعْنِ فِيهِ بِحَالٍ.

وَبَعْدَمَا وَضَحَ حَالَهُمْ فِي التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ كَلَامًا خَالِيًا عَنِ وَصْمَةِ الْمَجَادَلَةِ وَالْعِنَادِ: ﴿هُوَ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِهِ، وَامْتَثَلُوا بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتَنَبَّهُوا مِنْ رَمُوزِهِ وَإِشَارَتِهِ، وَاعْتَبَرُوا مِنْ عِبَرِهِ وَأَمْثَالِهِ وَقَصَصِهِ وَأَخْبَارِهِ ﴿هُدًى﴾ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ الصَّرِيحِ، وَيُوصِلُهُمْ إِلَى مُحَضِّسِ الْيَقِينِ وَالتَّحْقِيقِ ﴿وَشِفَاءً﴾ لِمَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْجَهْلِ، وَالْأَمْرَاضِ الْعِضَالِ الْمَوْرَثَةِ لَهُمْ مِنْ تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَتَخْمِينَاتِ وَأَوْهَامِ صِنَادِيدِهِمْ وَرُؤُسَاتِهِمْ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا يَصْدُقُونَ نَزْوْلَهُ، بَلْ يَكْذِبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ مَعَ مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ، هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ مُسْتَقَرٌّ وَصَمٌّ شَدِيدٌ يَصْمُهُمْ عَنِ اسْتِمَاعِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى تَهْذِيبِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، بَلْ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ يَعْمِي بِصَائِرِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ عَنِ رُؤْيَا الْحَقِّ الظَّاهِرِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْبَعْدَاءُ عَنِ سَاحَةِ عِزِّ الْحُضُورِ ﴿يُنَادُونَ﴾ إِلَى مَقْصَدِ التَّوْحِيدِ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44] بِمَرَا حِلٍّ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ؛ يَعْنِي: هُمْ وَإِنْ جَبَلُوا عَلَى نَشْأَةِ التَّوْحِيدِ صُورَةً، إِلَّا أَنَّهُمْ حَطُّوا عَنْهَا وَلَحَقُّوا بِمَرْتَبَةِ الْبَهَائِمِ، بَلْ صَارُوا أَبْعَدَ مِنْهَا وَأَنْزَلَ لِذَلِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ إِنْ نُوْدُوا.

﴿و﴾ إن عاندوا معك يا أكمل الرسل، واختلفوا في كتابك بالتصديق والتكذيب لا تبال بهم وبردهم وقبولهم، فإننا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال جودنا أخاك ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتمل على ضبط ظواهر الأحكام وبواطنه، حفظاً لهم وضبطاً لأمر معاشهم ومعادهم، ومع ذلك ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في حق التوراة وشأنه، فقبله بعضهم، ورده الآخر مثلما يفعل هؤلاء الغواة بكتابك هذا، وليس هذه الديانة بيدع من هؤلاء الجهلة، بل هي من عاداتهم المستمرة وشيئتهم القديمة.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ موعودة معهودة ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من أخذ الظالم منهم على ظلمه في يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بأخذهم سبحانه بظلمهم، ويستأصلهم اليوم بالكلية بلا إمهال لهم لاستئصالهم بالأخذ والانتقام، لكن ثبت حكمه سبحانه على ما وعد وقضى؛ إذ ما يبدل القول لديه ﴿وَأِنْهُمْ﴾ من كمال تماديهم في الغفلة والإعراض عن الحق واقتداره على وجوه الانتقام ﴿لَفِي شَكٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: من قضاء الله وحكمه المبرم في يوم الجزاء ﴿مُرِيبٍ﴾ [فصلت: 45] فيه ربنا متهيئاً إلى الإنكار والتكذيب.

وبالجملة: لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبريبتهم، وإنكارهم وطغيانهم، فاعلم أنه ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ من عموم عبادنا عملاً ﴿ضَالِحًا فَلْيَنصِبْ﴾ أي: صلاحه عائد إلى نفسه، راجع إلى إصلاح حاله في معاده ومعاشه ﴿وَمَنْ أَمَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: رجع وبال إساءتها أيضاً على نفسها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المنزه في ذاته عن طاعة المطيع وعصيان العاصي ﴿بِظُلَامٍ لَّالْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] أي: لا ينقص من أجورهم المطيعين، ولا يزيد عن جزاء العاصين، بل يتفضل على أهل الطاعة فوق ما استحقوا بأعمالهم أضعافاً وآلآفاً عناية منه وفضلاً، ويقتصر على أصحاب المعصية والضلال بجزاء ما اقترفوا لأنفسهم عدلاً منه وقهراً.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا ذُنُوبُنَا مِنْ شَيْءٍ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ عَاجِلٍ ۚ أَلَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَلَنْ مَسَّةُ الشَّرِّ فَيَتُوسَّ قَنُوطًا ۚ وَلَئِنْ أَدْنَيْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّتْهُ

لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَنذِرَنَّ عَنِ السَّاعَةِ فَلْتَنبِتَنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ [فصلت: 47-50].

وكيف لا يتفضل حين الجزاء على أرباب العناية، ولا يعدل على أصحاب
الغواية حين الجزاء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من أطلال الوسائل والأسباب ﴿يُرَدُّ﴾
ويرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: العلم المتعلق بوقت قيامها، وكيفية ما جرى فيها من
الأحوال والأفزع؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلع أحدا عليها
﴿و﴾ أيضا يرجع إلى علمه سبحانه ﴿مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ أي: من أجناس الثمار مع
اختلاف أنواعها وأصنافها متى تخرج ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: أوعيتها التي فيها أنوارها
الحاصلة منها الأثمار؛ إذ هي أيضا من جملة الأمور الغيبية المستأثرة بها سبحانه ﴿و﴾
كذا ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ وتحمل ﴿مِنْ أَثْقَى﴾ أي: فوائد الحمل والحبل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها
بمكان من الأمكنة ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ سبحانه؛ إذ هو العالم لا غيره بما في الأرحام ومدة
بقائه فيها وخروجه منها، لا اطلاع لأحد عليها.

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وأثبت الوجود لغيره والشركة في
الهويته وربوبيته عدوانا وظلما ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله لهم حين إرادة الانتقام عنهم، موبخا
لهم ومقرعا إياهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين تزعمون شركتهم معي وشفاعتهم عندي،
أحضروهم؛ لينجوكم من عذابي وشفعوا لكم لدي، وبعدما سمعوا النداء الهائل
﴿قَالُوا﴾ متأسفين متحزين: ﴿أَذْنَاكَ﴾ وأعلمناك يا مولانا اليوم، وإن كنت أعلم منا
بحالنا إنا ﴿مَا مَنَا﴾ أي: ما أحد منا اليوم ﴿مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47] يشهد على شركة
شركائنا الذين ادعينا شركتهم معك ظلما وزورا.

﴿و﴾ بعدما تقولوا ما تقولوا من شدة الأسف ونهاية الحسرة والضجرة ﴿ضَلُّ﴾
وغاب ﴿عَنْهُمْ﴾ وخف عن أبصارهم وبصائرهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون إليه ﴿مِنْ
قَبْلُ وَظَنُّوا﴾ بل تيقنوا حيث ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ﴾ [فصلت: 48] مهرب ومخلص من
عذاب الله، فتندموا وما ينفعهم الندم، ورجعوا إلى الله حيث وما يفيدهم الرجوع؛
لإنقضاء مدة التدارك والاختبار.

ومن العادة القديمة والديانة المستمرة أنه ﴿لَا يَسْأَمُ﴾ أي: لا يمل ولا يفتر
﴿الْإِنْسَانُ﴾ المجبول على جلب الإحسان ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لنفسه وجذب المنفعة

إلى ذاته حريصاً عليها، مولعاً لاقتنائها وجمعها ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وعرض عليه الضر حيناً من الأحيان ﴿فَيُشَوِّشُ﴾ من قدرة الله على دفع الضر عنه، وجلب النفع إياه بعدما أزال عنه ابتلاء ﴿قَنُوطٌ﴾ [فصلت: 49] ⁽¹⁾ من فضل الله عليه وسعة رحمته وجوده.

﴿و﴾ من غاية يأسه وقنوطه عن مقتضى فضلنا وجودنا ﴿لَيْتُنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ ووفرناها عليه؛ بحيث تسري في جميع أجزائه مع كونها تفضلاً ﴿مَثًّا﴾ بلا اقتراف ﴿مِنْ﴾ جانبه سوى أنه ﴿بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّةٍ﴾ لحقت أوائلها؛ إذ المساس يحصل بمجرد الملاقاة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ معرضاً عن الله: ﴿هَذَا لِي﴾ وأنا أستحق بها لاحتمال الشدائد ولكمال فضلي وعلمي، أو هذا لي بمقتضى ذاتي ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ الموهومة الموعودة ﴿قَائِمَةً﴾ آتية ﴿وَلَيْتُنْ﴾ فرضت وقوعها وقيامها على الوجه الذي زعم الرسل المدعون، ونطقت الكتب المزورة المفترية ﴿وَجِئْتُ إِلَى رَبِّي﴾ كما زعموا ﴿إِنْ لِي﴾ أي: ثبت وتحقق لي ﴿عِنْدَهُ﴾ سبحانه ﴿لَلْخُسْنَى﴾ أي: الحالة التي هي أحسن الحالات وأكرم الكرامات؛ لاستحقاقها بها واقتضاء ذاتي إياها، وإنما يقول ما يقول استهزاء وتهكماً.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ونخبرن حين الجزاء الكافرين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوفور قدرتنا على وجوه الانتقام ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الجرائم العظام وكبائر الآثام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ ونحيطن عليهم ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: 50] مؤلم فظيع فجميع، لا يمكنهم الخلاص عنه.

(1) قال الورتجيبي: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف بزه بأوليائه ويكون مقلداً في الدعاء ومعرضاً بسره عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعو بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفر منه، ولا يدعو، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفة بربه فإنه لا يفر من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذ بلائه، كما يستلذ نعمه في لسان الخلائق لنا فيه إشارة؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والالوهية والذات والصفات المنزهة عن مباشرة الحدثان بشرية واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منزلة عن أن يحيط به أحد من خلقه وإن كان نبياً مرسلأ، فإذا وجد نفسه أنه سهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الالوهية عن إدراكه يئأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعاً في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رآته يا عاقل كيف يفر من الحق وهو غضبان عليه معربداً شطاحاً بتكلمه عن سر الانبساط، وبخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى إدراك الحقائق.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾
 ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
 بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ
 يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴿٥٤﴾ [فصلت: 51-54].

﴿و﴾ من شدة طغيان الإنسان ونهاية كفرانه وعدوانه: إنا ﴿إِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وأكرمنا
 من مقام جودنا ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ المجبول على النسيان ﴿أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ﴾ أي:
 تباعد عنا، ولم يشكر على نعمنا، ولم يلتفت إلى موائد كرمنا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ ولحقه
 الضرر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51] كثير ممتد عرضاً وطولاً، وهو كناية عن
 إلحاحهم ولجاجهم في طلب الكشف والتفريع من الله عند نزول البلاء وإلمام
 المصيبة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمنكري القرآن والقادحين فيه عدواناً وظلماً: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾
 أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن منزلاً ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بحسب الواقع مع أنه لاشك فيه ﴿ثُمَّ
 كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ بلا تأمل وتدبر في دلائل صدقه، وبراهين إعجازه لفظاً ومعنى ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾
 سبيلاً وأخطأ رأياً وطريقاً ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 52] وخلاف شديد عن
 الحق وقبوله، وبالجملته: من أضل منكم أيها القادحون المنكرون له مع وضوح محجته
 وسطوع برهانه.

ثم أشار سبحانه إلى وحدة ذاته وظهوره حسب أسمائه وصفاته في عموم
 مظاهره ومصنوعاته، وحيطة عليها، وشموله إياها؛ ليكون دليلاً على حقية كتابه،
 وصدوره منها، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على
 نشأة الإيمان والعرفان، الموقنين على كمال الكشف والعيان ﴿آيَاتِنَا﴾ أي: دلائل
 توحيدنا الدالة على وحدة ذاتنا الظاهرة ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ أي: ذرائر الأكوان الخارجة عن
 نفوسهم المدركة بآلاتهم وحواسهم، سميت بها؛ لطلوع شمس الحقيقة الحقية منها،
 وظهورها عليها ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ذواتهم التي هي أدل دليل على معرفة الحق
 ووحدة الحق.

لذلك قال أصدق القائلين وأكمل الكاملين: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»⁽¹⁾.
ولما نريهم ما نريهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ ويظهر دونهم وينكشف عليهم ﴿أَنَّهُ﴾
أي: الأمر الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيقي بالتحقق والثبوت لصرافة
وحدته الذاتية والقرآن المعجز أيضًا، ومن جملة مظاهره وصفاته.

ثم لما أشار سبحانه إلى وحدة ذاته بالنسبة إلى عموم عباده، أراد أن ينبه على
المستكشفين من أرباب المحبة والولاء، الوالهيين في مطالعة وجهه الكريم، فخطب
حبيبه ﷺ؛ إذ هو الحري بأمثال هذه الخطابات، فقال مستفهمًا على سبيل التعجب: ﴿أَوْ
لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أتشكون في وجود مريبك يا أكمل الرسل ومريهم، وظهوره
وتحققه، ولم يكف دليلًا ﴿أَنَّهُ﴾ بذاته وعموم أسمائه وصفاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما
لاح عليه برق وجوده ورشاشة نوره ﴿شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] حاضر غير مغيب عنه.

وبالجملة: أو لم يكف لهم دليلًا على تحقق الحق وحضوره مع كل شيء من
مظاهره ومصنوعاته.

ثم نور سبحانه ما نبه عليه على سبيل التعجب والتلويح تأكيدًا ومبالغة وزيادة
إيضاح وتوضيح، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ بعدما أضاء لهم شمس الذات من مرايا الكائنات
﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وارتباب ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ فيها ومطالعة وجهه الكريم عنها ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾
بذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره
ومصنوعاته ﴿مُحِيطٌ﴾ [فصلت: 54]⁽²⁾ بالاستقلال والانفراد، إحاطة ذاتية بلا شوب
شركة؛ إذ لا موجود سواه، ولا إله إلا هو.

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

(2) نريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قال الحسن يعني ما أهلك به الأمم السالفة في البلدان فقد
رأوا آثار ذلك وفي أنفسهم أخبر بأنهم تصيهم البلياء فكان ذلك كما قال فآظهره الله عليهم
وابتلاهم بما ابتلاهم به قال يحيى يعني من الجوع بمكة وال سيف يوم بدر حتى يتبين لهم أنه
الحق يعني القرآن أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد أي شاهد على كفرهم وأعمالهم
أي بلى كفى به شهيدًا عليهم قال محمد المعنى أو لم يكف بربك ألا إنهم في مرة في شك من
لقاء ربهم يقولون لا نبعث ولا نلقى الله ألا إنه بكل شيء محيط أحاط علمه بكل شيء. «تفسير
ابن أبي زمنين» (2/135).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المترقب لشهود الحق من ذرائر عموم المجال والمظاهر
الظاهرة في الآفاق والأنفس أن تصفي ضميرك أولاً من وساوس مطلق الأوهام،
والخيالات العائقة عن التوجه إلى صرافة الوحدة، وتجلي خُلدك عن الإضافات
الصارفة عنه.

فلك أيضاً أن تكون في نفسك متوجّهاً إلى ربك الذي هو حصّة لاهوتك، ونشأة
جبروتك، خالئاً عنك وعن لوازم ناسوتك وعوارض بشريتك بالمرّة، بحيث لا شعور
لك عما جرى على هويتك أصلاً.

وبالجملة: كن فانيّاً في الله، باقياً ببقائه، ناظراً بنوره إلى وجهه الكريم تفرّجاً بنعيم
الجنات وعظيم اللذات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم بحمد الله تعالى الجزء الثالث من تفسير سلطان العارفين

سيدي عبد القادر الجيلاني

قدس الله سره العزيز

آمين

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشورى

لا يخفى على من تحقق بمرتبة التوحيد، وتمكن عليها بلا تردد وتلوين أن عموم مراتب الأنبياء والرسل ومشارب الأولياء المتابعين لهم، المقتفين أثرهم إنما هي على صرافة الوحدة الذاتية المسقطة لجميع الكثرات والإضافات، وأن ما أنزل الله على سبيل الوحي والإلهام من الكتب والصحف إنما هو لبيان الطرق الموصلة إليها، ولهذا نبه سبحانه حبيبه على طريق توحيده، بعدما خاطب بما خاطب متيمناً باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بصرافة وحدته الذاتية المحيطة بالكل ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على جميع الكائنات بإفاضة الوجود الذي هو منبع عموم الكمالات ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواصها وخلاصتها بالإيصال إلى منبع ماء الحياة الذي هو وحدة الذات المسقطة لمطلق الإضافات.

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَى ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
الْفُتُورَ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى: 1-6].

﴿حم * عسى﴾ [الشورى: 1-2] ^(١) يا حامل وحي الله، وماحي الوجود عن

(١) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهن ومن كان أهله من سر الذات والصفات والأفعال،
الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه
لأهل العيان، والسين رمز سره وسر سره وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل

غيره يا عالم سرائر قدرة الله، وعارف سريان سر وحدته الذاتية على قلوب خلّص عباده من الأنبياء والأولياء.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر في هذه السورة من سرائر التوحيد والأخلاق المرضية الإلهية ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابك هذا ﴿وَإِلَى الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل في كتبهم وصحفهم ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد بذاته المحيط بعموم مظاهره ومصنوعاته، المستقل بأمر الإرسال والإنزال والوحي والإلهام ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أمره وشأنه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: 3] المتقن في أفعاله وتدبيراته الجارية في ملكه وملكوته.

إِذْ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكًا وتصرفًا، إيجابًا وإعدامًا ﴿وَهُوَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ المستقل بالعلو في مطلق ملكه وملكوته ﴿الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: 4] في شأنه وأمره، لا علو ولا عظمة إلا له، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا حكم ولا حكمة إلا منه.

الكشوف، والقاف عن قديمة وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيًا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحيين بحلاوة محبته، التي برقت منها في عيونها، ثم بسرّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسین سار منا برق سبحانه في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السین نقوش الشين، فأراد بالسین الشين وبيان ﴿حمر﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدى عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، ويرمز العشق مخاطبهم، حتى لا يطلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكبي ومحبي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقديسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سباق كل سابق بالشرف والفضل والتقدم، ويا سباح بحر قدسي وأنسى ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدرتي، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقني يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرت بها إليك، كذلك أشرت بها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

ومن كمال عزته وعظمته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ السبع ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالياء والتاء، أو بالياء والنون معناه على كلتا القراءتين: يتشققن ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من فوق السماوات أو من فوق الأرضين السبع من كمال خشية الله ورهبته، خوفاً من تجليه عليهن باسمه القهار المفني للأغيار مطلقاً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضاً من خشيتهم من كمال غضبه وقهره سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تعديداً لنعمه إياهم بإفاضة الشعور والإدراك على حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، والتمكن والاعتدال على مواظبة عبوديته ومشاهدة آثار سلطنته وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أيضاً بإذنه وبمقتضى أمره ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من خلص عباده الموحدين المجبولين على صورته، المجمعولين لخلافته ونيابته ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ الستار لذنوب أنانياتكم، المحاء لآثام هوياتكم إن تبتم وأخلصتم فيها ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] لكم يقبل توبتكم ويغفر زلتكم، ويوصلكم إلى ما جبلتم لأجله.

ثم قال سبحانه تهديداً على المشركين المتخذين لله المتوحد في ذاته، المستقل في وجوده أندادا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولايتهم سبحانه، ويتوجهون نحوهم مثل توجهه، ولا تلتفت يا أكمل الرسل إليهم، ولا تبالي بشأنهم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأفعالهم وصفاتهم ﴿خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عليم بأعمالهم ونياتهم فيها، ويحاسبهم عليها ويجازيهم بمقتضاها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: 6] كفيل يخلصهم عن مفسد أعمالهم ومقايح أفعالهم، بل ما أنت إلا مبلغ ونذير.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْبَيْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي النَّارِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ ٩ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١١﴾ [الشورى: 7-10].

وبعد ما بلغت وأنذرت لم يبق من أمرك شيء ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ أي: ومثل ما

أوحينا إلى من قبلك من الأنبياء كتباً، وأوحينا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل أيضاً ﴿فَرَأَا
عَرَبِيًّا﴾ نظماً وأسلوباً ﴿لَتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أقطار
الأرض وأنحائها، كما أنذر الأنبياء أقوامهم فيما مضى من مطلق الأمور المنافية لسلوك
طريق التوحيد وسبيل الهداية والرشاد ﴿وَتُنذِرُ﴾ خاصة ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: الخذلان
والحرمان الحاصل لهم يوم الحشر والاجتماع على المحشر، والوقوف بين يدي الله،
الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في إتيانه ووقوعه، وبعدهما اجتمعوا فيه حيارى سكارى
هائمين، يساقون بعدما يحاسبون منهم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ مسرورون مقبولون ﴿وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7] محزونون مطرودون.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده وأراد هدايتهم جميعاً ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
مقتصدة معتدلة على مقتضى صرافة الوحدة الذاتية واعتدالها، ﴿وَلَكِنْ﴾ راعى سبحانه
مقتضيات أوصافه وأسمائه المتقابلة، وشئونه المتخالفة لذلك ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي
رَحْمَتِهِ﴾ ويوصله إلى فضاء وحدته بمقتضى جوده وحكمته عناية منه وفضلاً، وولاية
لهم ونصراً ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى عناية الله، وولايته بمقتضى قهره
وانتقامه إياهم إظهاراً لكمال قدرته ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يواليهم، ويشفع لهم عنده
سبحانه ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ [الشورى: 8] ينقذهم من عذابه، فظهر ألا ولاية ولا نصرة إلا لله،
ولا غالب إلا هو، وإن زعموا آلهة سواه.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل أثبتوا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ واعتقدوهم شركاء له
سبحانه أو شفعاء لهم عندهم، لا تنفعهم موالاتهم واتخاذهم بل تضرهم وتغويهم
﴿فَاللَّهُ﴾ المستقل بالالوهية والربوبية ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ المقصور على الولاية، لا ولي في
الوجود سواه ﴿وَهُوَ﴾ بكمال قدرته ﴿يُخَيِّبُ الْمَوْتَى﴾ ويميت الأحياء بالإرادة
والاختيار، لا فاعل في الوجود إلا هو ﴿وَهُوَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ باستقلاله واختياره ﴿عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 9] بلا فتور وقصور.

﴿وَهُوَ﴾ بعدما ثبت أن الولاية والقدرة منحصرة لله، لا فاعل في الوجود سواه،
فاعلموا أيها المكلفون بسلوك طريق الحق وتوحيده أن ﴿مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي:
من شعائر الدين ومعالم التوحيد واليقين واختلافكم فيه؛ إذ هل هو مفيد لكم في
سلوككم، أم مفسد له ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وأمره موكل إلى كتبه ورسله،
فعليكم التعبد والامثال بما أمرتم به ونهيتهم عنه على السنة الرسل والكتب؛ إذ لا

مدبر لأموركم سواء، ولا متصرف في الوجود إلا هو.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي سمعتم وصفه واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿اللَّهُ رَبِّي﴾ وربكم، فاعبدوه حق عبادته، وفوضوا أموركم كلها إليه، وإن خوفتموني بغيره مع أنه لا غير في الوجود معه، فإنا ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واتخذته وكيلًا، يدفع عني مؤنة جميع من عاداني ﴿وَالَيْهِ﴾ لا إلى الوسائط ﴿أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10] وأرجع في مطلق الملمات والخطوب.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا يَدْرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ [الشورى: 11-13].

وكيف لا أتوكل عليه ولا أنيب؛ إذ هو بذاته حسب شئونه وتطوراته ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومظهرها من كتم العدم، ومدبر ما يتكون بينهما من الطبائع والهيولي وصور المواليد، ومن جملة تديراته سبحانه: إنه ﴿جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد إبقاء لتناسلكم وتوالدكم ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن بني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ أيضًا من جنسكم وصنفكم إبقاء لكم وإدامة لبقائكم ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أيضًا ﴿أَزْوَاجًا﴾ تربية لكم وتتميمًا لمعاشكم.

وبالجملة: ﴿يَدْرُوكُمْ﴾ ييثكم ويكثركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في عالم الظهور ونشأة الشهادة بهذا التدبير البديع، لتعلموا أو تعرفوا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس مثله سبحانه ﴿شَيْءٌ﴾ يناسبه في الوجود ويمثله في التحقق والثبوت، والمراد يقينًا بالمثل المنفي هو ذاته؛ أي: لا يماثله ذاته، فكيف غيره من قولهم: مثلك لا يبخل؛ بمعنى: أنت لا تبخل، والمراد: نفي التعدد عنه سبحانه مطلقًا على سبيل المبالغة والتأكيد، فثبت حيث لا موجد سواه، ولا تحقق لغيره ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ متى ثبت هذا ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: 11] ⁽¹⁾ أي: هو بذاته المنحصر على صفة السمع والبصر، وجميع الأوصاف

(1) أفاد الشيخ البيطار في تأويل هذه الآية المباركة من فوائد معارف الحقيقة المحمدية بقوله: اعلم - رحمك الله تعالى وفتح فهمك للمعاني الإلهية - أن الكاف في قوله: ﴿كَمِثْلِهِ﴾، أصلية لا زائدة كما يفهمه العموم، فإننا إذا جعلناها زائدة يكون المعنى ليس مثل الله شيء؛ لأن الحوادث لا تشبهه، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وهذه عقيدة من يعرف الله بفكره لا بإيمانه، ومثل هذا ينزل جميع ما ورد في الكتاب والسنة من العلم بالله على حسب ما يأوله بفكره، وهو الذي في قلبه زيغ عما أبانه الله ونطق به رسوله ﷺ، فيصف الله بتنزيه لم يصف به نفسه، ويفضل في حق الله ألفاظه على ألفاظ الله ورسوله؛ فيقول مثلاً: حاشا ربنا من النزول والاستواء والضحك والبدء والقدم وأمثال ذلك، فالذي أثبتته الله لنفسه ينفيه عنه، فما أقبح هذه المعرفة! وما أشنع هذا التنزيه! وهذا هو الجهل المركب فهو كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 14] وأما المحققون من أهل الله فلا زائد عندهم في القرآن العظيم، بل كل شيء له معنى ولا عبث في القرآن ألبتة، فالكاف عند المحققين بمعنى المثل، فيكون المعنى: ليس مثل مثله شيء، فالمثل الأول هو آدم عليه السلام، ومثل هذا المثل هو محمد ﷺ فكون المثل آدم لقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» فهو المثل، وليس المراد أنه ثاني؛ لأن واحدية الله لا تقبل الثاني كواحدية العدد، بل واحدية الله وجوده الذي لا يقبل الغير كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]. وقد اجتمعت هذه الأربعة في آدم عليه السلام فهو أول من جهة روح الله المنفوخ فيه، وآخر باعتبار أنه غاية تنزلات الحقائق، فهو الإنسان الذي هو أحسن تقويم وأسفل سافلين، فلا أعلا منه ولا أسفل منه، وهو صورة والباطن روحاً؛ فلهذا المعنى هو المراد بأنه مثل الله، أي: صورة الله الكاملة، ومجلى ذاته، ومحل ظهور أسمائه وصفاته، ولهذا على ملائكة الله حتى سجدوا له، فافهم. وأما كون محمد ﷺ مثل هذا المثل؛ لأنه في الصورة إنسان مثل آدم فما هو من حقيقة غير آدم لحقيقة الملائكة مثلاً إلا باعتبار أحدية الوجود المطلق فليس المنفي عنه الشبهة في كلام الله تعالى المثل، بل المنفي عنه الشبهة هو مثل المثل وهو محمد ﷺ كما يفيد قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَئِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40]، أي: منتهى دائرة الكل أجمعين، والمنتهى عين المبدأ؛ فهو مطلق عن الشبهة والوجود المحض الذي هو نور السماوات والأرض، فهو ليس شيئاً من الأشياء المقيدة؛ لأن الشيء المقيد كالأجزاء من الأجزاء، فنفي الله عن مثل المثل وهو محمد ﷺ الشبهة التي تطلق على كائن في الوجود من المظاهر المقيدة، وقد أشار ﷺ إلى شأنه الأحدي بقوله: «كان الله ولم يكن شيء غيره» فلا شيء في حضرة الإطلاق المشار إليها «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وقد بين الله معنى هذه النبوة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] والجملة المعرفة الطرفين تفيد الحصر، أي: لا سميع إلا هو، ولا بصير إلا هو، فهو السميع لنفسه أزلاً والبصير كذلك، يعني أنه الحقيقة الجامعة لكل شيء سميع ومسموع ولكل بصير ومبصر، وحيث كان كذلك فليس شيئاً كما تعهدون بل كما أخبر الله عنه

بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَابِعُونَكَ إِنَّمَا يُتَابِعُونَكَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، فهذا بيان الله وأصرح من بيان الله لا يكون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ لَيْلًا﴾ [النساء: 122]. فنبوته وآدم بين الماء والطين كونه روح آدم وحقيقة القائل: ﴿لَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]، فما سجد الملائكة إلا لتلك الروح المنفوخة في صورة آدم، فأدم قبله وكعبة الملائكة كما أن الكعبة المشرفة قبلتنا، والسجود له هو المعنى الظاهر في صورة آدم، وهذا المعنى عين نبوته الباطنة ﷺ فيبين الله ذلك بأن محمدًا ﷺ عين الوجود المطلق الذي يتدرج فيه كل ما يسمى شيئًا فكيف يكون شيئًا وهو حقيقة كل شيء ١٩ فلضهم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فالسجود الملكي لمحمد باطنًا وهو في الظاهر لآدم . واعلم - سقاك الله شراب محمد الطهور وألبسك من ملابس ظهوراته نور على نور - أنه فتح علي في الكلام على هذا الوارد الجامع للمعرفة الإلهية المحمدية، وأنا أطلع الفص النوحى من كتاب: «فصوص الحكم» لسلطان العارفين وأستاذهم الشيخ الأكبر، وقد تكلم على هذه الآية، ولكن لا بالمعنى الذي تكلمنا به، ولا أشك أنه من باطنه ﷺ، فإنه مظهر كمالات محمد ﷺ التي انطوى عليه باطنه ﷺ، وذلك لأنى طلبت منه في مقامه عند ضريحه الشريف أن يفيض على معاني كتابه «الفصوص» حسب ما يفهمها هو من نفسه، فأخذ الشرح منه ﷺ، ولاشك أن أجاب، وكيف لا وجده حاتم طي ما بدا منه الجود العظيم إلا من كون هذا المظهر المحمدي الكامل في ظهره، ومن جوده ﷺ أنه أهدى لنا أذواقه وعلومه في كتبه لنحصل على ما حصل عليه؛ إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله هو المؤمن في الحقيقة، فافهم ما أشرنا إليه، وعلى الله قصد السبيل، فهو القاصد بنا وهو عين السبيل وعين ما يقصد، فالكل منه وإليه، فهو المؤمن المحب والمؤمن المسمى بالأخ والنفس هي نفسه والحقيقة حقيقته والمظاهر مظاهره ﴿فَأَنتُمْ تُؤَلُّوْنَ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]، فكل وجه في الوجود وجهه، فما طلب طالب إلا منه، ولا أعطى إلا إليه، فمن قال: يا رسول المدد، أو يا محيي الدين، أو يا عبد القادر، أو يا رفاعي لا يجيبه إلا الله؛ لأن الله قال: ﴿الْأَنَامُ بَنَاءٌ أَلْفَرَاءُ أَشْرُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ إِلَهُ الْخَمِيدِ﴾ [فاطر: 15]. فمن زعم أن الذي ينادي الأولياء مشرك فهو المشرك؛ لأننا لا نثبت غير الله، والوهابي يثبت غير الله، فهو المشرك ونحن الموحدون بفضل الله ورحمته؛ لأننا نراه في كل شيء، ونشاهده في كل شيء، فحيث لا يغيب عنا؛ لأن الأشياء لا تغيب عنا، وكيف يغيب عنا ونحن المؤمنون بأنه هو الظاهر ١٩. وأما أهل غير الحقيقة لا يصدقونه في أنه هو الظاهر، ولا يسمون له كلامه فيعبدون ربهم بالتخيل فيطلبونه ولا يجدونه؛ لأنهم على قاعدة: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فكذبوا الله في قوله: ﴿مُؤَلَّوْاْ وَآلِخِرُ وَالظَّهِيْرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، فمتى يجدونه وقد أعدموه ١٩ ولهذا أضل الله أعمالهم كما ضلوا فلا يجدون ربهم ولا يجدون أعمالهم إلا في العدم كما قال: ﴿كَسْرَابٍ يَحْمِلُ حَمْسَةَ الْكَمَقَانِ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَزَجَهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ [النور: 39]، وأما نحن فوجدنا عين الشراب لا عند السراب، فما ظمانا ولكن شربنا

الذاتية الكاملة الشاملة آثارها عالمي الغيب والشهادة.

إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية الظاهرة في أطلال المظاهر والمجالي ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح خزائن العلويات من الأسماء والصفات، والسفليات من مظاهر الطبائع، والمرايا العدمية القابلة لانعكاس شمس الذات من مشكاة الأسماء والصفات، هو بذاته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويقبض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من أطلاله وعكوسه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقبض عمن يشاء منهم، وبالجمله: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته حسب أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل تحت ظل وجوده بمقتضى فضله وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾ [الشورى: 12] بعلمه الحضورى، لا يعزب عن حضوره شيء مما ظهر وبطن، وغاب وشهد.

ومن كمال استقلاله في تدابير ملكه وملكوته وحيطه علمه وشمول قدرته: ﴿شَرَعَ﴾ أي: قضى ووضع ﴿لَكُمْ﴾ أيها الأطلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ القويم والطريق المستقيم الموصل إلى توحيدهِ ﴿وَمَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أي: ديناً شرعه سبحانه ووضع على نوح؛ إذ هو أول من ظهر على نشأة الدين والتشريع في طريق التوحيد، وهو الدين الموصل إلى توحيد الأفعال ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال جودنا هو الدين الموصل إلى توحيد الذات، لذلك ختم ببعثك أمر الرسالة والتشريع، وبعدما عين سبحانه مبدأ التوحيد ومنتهاه، أشار إلى ما بينهما من المراتب، فقال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: والأديان التي وضعناها على هؤلاء المشاهير، وغيرهم من جماهير الأنبياء والرسل المتشرعة وغير المتشرعة هو الموصل إلى توحيد الصفات.

وبالجمله: وصينا لعموم ذوي الأديان ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ المنزل إليهم،

وطريقنا وساقينا، هو ساقى القوم، فهو أولنا شرباً وآخرنا شرباً، فلا يدخل الجنة حتى ندخلها جميعاً مع أنه أول من يقرع بابها، ويدخلها بصورته الخاصة، ومن جهة حقيقة هو الآخر، فالأول هو الآخر هو، فلا يصدق من وصفه بدخول الجنة إلا بدخول مظاهر حقيقته، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِتَابِ﴾ [الأعراف: 40] أي: حتى يكشف لهم أن الحقيقة المحمدية عين المظاهر الصورية ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20]، لأنه القائل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، والمعنى استيلاء الحقيقة واندرج صور الوجود في حقيقة الرحمن فتلك الحقيقة موطن الصور والله الموفق.

واستقيموا في الإطاعة والامثال به ﴿وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في أصل الدين الذي هو التوحيد الإلهي، وإن كانت الطرق والأديان والمناهج نحوه مختلفة باختلاف ذوي المراتب المترتبة اختلافاتهم إلى شئون الحق وتجلياته، فلك يا أكمل الرسل أن تدعو الناس إلى توحيد الحق، وإن كان ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: شق وعظم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾ أي: دعوتك إياهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى التوحيد الذاتي؛ إذ لم يعهد هذا من غيرك من الأنبياء والرسل الماضين، لذلك شق عليهم حسداً وغيظاً، فكيف يحسدون ويغيظون لك ولشأنك؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم المطلع على استعدادات العباد وقابلياتهم ﴿يَجْتَبِي﴾ أي: يختار ويجذب ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى توحيده الذاتي ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من المجبولين على فطرة التوحيد، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ ويوفق عليه ويرشد نحوه ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] إليه سبحانه إنابة صادرة عن محض الإخلاص والتبذل والتفويض والتوكل.

﴿وَمَا تَفْرُقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَلَكِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَكِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: 14-15].

﴿و﴾ بعدما ثبت أن أصل الأديان كلها هو التوحيد، وأن الأنبياء والرسل إنما جاءوا لإظهاره وتبيينه، ظهر أن الأمم الهالكة ﴿مَا تَفْرُقُوا﴾ واختلفوا من مذاهبهم ومشاربهم ﴿إِلَّا مِنْ﴾ بعدما ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الوحي المشتمل على بيان التوحيد من قبل الحق على السنة الكتب والرسل، فتركوا مقتضى الوحي، وأنكروا عليه فاختلفوا ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عدواناً وظلماً وإعراضاً عن الحق وأهله، وما ظهر بينهم هذا إلا مرء وافتراء.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي إمهال انتقامهم وتأخيرهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَفُضِّ بَيْنَهُمْ﴾ وحكم عليهم حين اختلافهم وتفرقهم إليه، فاستوصلوا فيه بالمرء ﴿وَلِإِنْ﴾ المختلفين المتفرقين ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ المتزل على أسلافهم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراض أسلافهم

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من الكتاب أمثال أولئك الأسلاف الضلال ﴿مُريبٍ﴾ [الشورى: 14] موقع لهم في الريب والضلال، لذلك اختلفوا معك يا أكمل الرسل وأنكروا على كتابك ودينك.

ولو كان لهم علم بكتابهم ما ظهروا عليك، وما طعنوا في دينك وكتابك؛ إذ الإيمان بكتاب من كتب الله، ودين من أديانه، ورسول من رسله يوجب الإيمان بجميع الكتب والرسل بناء على الأصل الذي سمعت من التوحيد ﴿فَلِذَلِكَ﴾ الأصل الذي هو التوحيد الذاتي المسقط لعموم الإضافات والاختلافات ﴿فَادْعُ﴾ يا أكمل الرسل كل من تدعوه من المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ أنت في نفسك على جادة التوحيد ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ من قبل ربك، ومكن إقدام عزمك عليها معتدلاً حنيفاً مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهوية أصحاب الخلاف والاختلاف، الضالين المترددين في أودية الجهالات وأغوار الخيلات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد صفاء شرك وخلاء خلدك عن الأكدار الموجبة للاختلاف: ﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله ﴿مِّنْ كِتَابٍ﴾ مبين موضح لطريق الحق وتوحيده ﴿وَقُلْ﴾ قل بعد ذلك أيضاً إظهاراً لدعوتك إياهم: ﴿أَمَرْتُ﴾ من قبل ربي ﴿لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وأبين لكم طريق العدالة الإلهية بمقتضى وحي الله وإلهامه إياي، فإنا مأمور بتبليغه وتبيينه إياكم وتربيتهم وتكميلكم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المدبر لأمر عموم عباده ﴿رَبُّنَا﴾ الذي ربانا للإرشاد والتكميل ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أراد أن يريكم بالهداية والرشاد، وإن لم تكن مأمورين من عنده سبحانه لإهدائكم وإرشادكم ما لنا معكم.

إذ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي: جزاء صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ كذلك؛ إذ كل منا ومنكم مجزي بما عمل ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي: نزاع ولا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ بعدما بلغناكم ما أمرنا بتبليغه، وأوضحنا لكم طريق الحق، وبالجمله: ﴿اللَّهُ﴾ أي: الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إن تعلق مشيئته بجمعنا ﴿وَقُلْ﴾ كيف لا يجمع بيننا سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15] أي: رجوع الكل إليه كما هو صدوره منه.

﴿وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آلَاءِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَنَّاهُمْ وَدَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا

يُذَرِّكَ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
 اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ [الشورى: 16-19].

﴿و﴾ بعد وضوح محجة الحق ومنهج اليقين ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يجادلون ويخاصمون، متشبثين بأذيال الجدل والمغالطات الواهية الزائفة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ سيما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: قبله العقل والنقل والكشف الصريح والذوق الصحيح ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ التي تمسكوا بها ﴿ذَاحِضَةٌ﴾ زائلة باطلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ بسبب عنادهم وجدالهم بالحق الصريح ﴿غَضَبٌ﴾ نازل من الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 16] لا عذاب أشد منه وأقزع.

فكيف يحاجون أولئك المعاندون في توحيده سبحانه مع أنه هو ﴿اللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأمر عباده ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ لإصلاحهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتب النازلة من عنده لتبيين مناهج توحيده ملتبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصريح المغرّى عن الباطل الزاهق الزائل مطلقاً ﴿و﴾ أنزل على طبق الكتاب ﴿الْمِيزَانَ﴾ أي: جنس الشرائع والأديان التي توزن بها أعمال الأنام وإخلاصهم فيها، وثباتهم على جادة التوحيد والإسلام، فعليك يا أكمل الرسل وعلى من تبعك امثال عموم ما أمر ونهى من أحكام كتابك، وأن تزن أنت ومن معك أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم بميزان الشرع القديم والدين المستقيم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا يُذَرِّكَ﴾ أيها المجبول على الدراية والشعور ﴿لَعْلَ السَّاعَةِ﴾ الموعودة التي تعذرت دونها التدارك والتلافي ﴿قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17] ⁽¹⁾ إتيانها

(1) ﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية . ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كنه المنزلة، وقيل: الذي يوزن به ﴿بالحق﴾: ملتبسا بالحق مقترنا بعيدا من الباطل أو بالفرض الصحيح كما اقتضته الحكمة . أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك ﴿الساعة﴾ في تأويل البعث فلذلك قيل: ﴿قريب﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب، فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكانه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجثكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويظف لمن ظف، المطارقة: الملاجعة لأن كل واحد منهما يمرى عند صاحبه ﴿لني ضلال بعيد﴾ من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من

وقيامها، وعند قيامها تتندمون وما ينفعكم الندم.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ وبقيامها استهزاء وتهكما ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِهَا﴾ عنادًا ومكابرة، ويزعمون ألا يلحقهم ما يوعدون فيها من العذاب الروحاني والجسماني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة، هم ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ ومن إمامها بغتة قبل تهيئة الإعداد والزاد ﴿وَوَ﴾ ذلك؛ لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا ﴿أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ المحقق إتيانه وقيامها بلا ريب ومرية ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون بكمال قدرة الله ووفور حكمته ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المكابرين ﴿الَّذِينَ يُعَارُونَ﴾ ويشكون ﴿فِي﴾ قيام ﴿السَّاعَةِ﴾ الموعود قيامها من قبل الحق وراء ومجادلة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18] بمراحل عن الهداية الموصلة إلى مقر التوحيد.

إذ هم محجوبون بالأغشية الكثيفة الإمكانية، والأغطية الغليظة الهيولانية، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ المنزه ذاته عن سمة الحدوث والإمكان، المقدس أسماؤه وصفاته عن وصمة العيب والنقصان ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ الخُلص ﴿يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالرزق المعنوي، الموصل إلى مبدئهم ومعادهم ترحمًا وتلطفًا معهم ﴿وَوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر الحقتدر على عموم مقدوراته الصادرة منه بمقتضى حكمته ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19] الغائب على مطلق مراداته الجارية منه حسب اختياره.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٢٢﴾ [الشورى: 20-22].

ثم لما أشار سبحانه إلى كمال تنزعه وتقدس ذاته عن وصمة النقصان مطلقاً، وإلى كمال ترحمه وتلطفه مع خلص عباده، قال: ﴿مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُرِيدُ حَزْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة؛ ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿تُرْزَدُ لَهُ فِي حَزْثِهِ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله، ونعطيه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلاً مثلاً وتكريماً ﴿وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُرِيدُ حَزْثَ الدُّنْيَا﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ولذاتها الباقية ﴿مِنْ نُصِيبٍ﴾ [الشورى: 20] لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية؛ لذلك ما له حظ في الآخرة ونصيب من لذاتها.

أهم بأنفسهم يحرمون نفوسهم من اللذات الأخروية والفتوحات الروحانية ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ من شياطين الجن والإنس ظاهروهم عليه؛ حيث ﴿شَرَعُوا﴾ وزينوا ﴿لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ الباطل والديانة الزائفة ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله المدبر لعموم مصالح عباده على مقتضى حكمته، ولم يأمر بوضعه واتخاذة لا بالوحي ولا بطريق الإلهام، بل إنما أخذوا ما أخذوا من تلقاء أنفسهم، وعلى مقتضى أهويتهم الباطلة؛ لذلك لم يتم لهم إلا الخيبة والخذلان والحسرة والحرمان.

﴿وَالْجَمْلَةُ﴾: ﴿لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ﴾ والقضاء صادرة من الله بتأخير أخذهم لظلمهم وإمهال انتقامهم إلى يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ﴾ وحكم اليوم ﴿يَبْتَئْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الهداية والضلال، فيلحق لكل منهم جزاء ما اقترفوا من الحسنات والسيئات ﴿وَالْجَمْلَةُ﴾: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، ومتابعة آرائهم وإخوانهم من الشياطين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21] في النشأة الأخرى، وهو حرمانهم عما أعد لنوع الإنسان المصور على صورة الرحمن من الكرامات السنية والمقامات العلية، لا عذاب أشد منه وأفزع.

ومن كمال حرمانهم وخسرانهم: إنهم حيثئذ ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود عدواناً وظلماً ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: من لحوق وبال ما اكتسبوا من الآثام والمعاصي ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لاحق لهم، وما ينفعهم الإشفاق وعدمه؛ لاتقضاء نشأة التدارك والتلافي.

ثم قال سبحانه على مقتضى مسته السنية المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وترى

أيضاً أيها الرائي المؤمنين الذين آمنوا بوحدة الحق حين أخبرهم الرسل ودعاهم إليه حسب استعداداتهم الفطرية وقابليتهم الجبلية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وأكدوا إيمانهم وتوحيدهم بصلاحات أعمالهم وأخلاقهم؛ ليدل على توحيد الأفعال والصفات أيضاً، هم في النشأة الأخرى لكمال إطاعتهم وانقيادهم متنعمون ﴿فِي رِزْقَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: منتزهات اليقين العلمي والحقي والعيني، ومع ذلك حاصل حاضر ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات المتجددة والفيوضات المترادفة من الفتوحات وأنواع الكرامات ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي أوصلهم إلى كنف قربه وجواره ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعد لأرباب العناية والتوحيد ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22] والفوز العظيم الذي يستحق دونه عموم اللذات والكرامات.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَعْتَرِفْ حَسَنَةً نَّرَدُّ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أم يقولون أفترئ على الله كذباً فإن يشأ الله يخترع على قلوبك وما نسمع الله الباطل ويحيى الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور (٢٤) وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون (٢٥) ويستجيب الذين ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦) [الشورى: 23-26].

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الفضل والفوز هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بوحدة ذاته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المفضية الموصلة لهم إلى توحيد أفعاله وصفاته ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريقي الهداية والضلال، وبلغت ما يوصل بوحى إليك للإرشاد والتكميل إياهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي: على تبليغي وتبشيري إياكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جعلاً منكم ونفعاً دنيوياً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: ما أطلب منكم نفعاً دنيوياً بل أطلب منكم محبة أهل بيتي ومودتهم؛ ليدوم لكم طريق الاستفادة والاسترشاد منهم؛ إذ هم مجبولون على فطرة التوحيد الذاتي مثلي.

روي أنها لما نزلت، قيل: يا رسول الله ﷺ: من قرابتك؟ قال: «علي وفاطمة

وأبنائهما⁽¹⁾.

وكفاك شاهدًا على ذلك ظهور الأئمة الذين هم أكابر أولي العزائم في طريق الحق وتوحيده، صلوات الله على أسلافهم وسلامه عليهم وعلى أخلافهم، ما تناسلوا بطنًا بعد بطن.

﴿وَمَنْ يَشْرَفْ﴾ ويكتسب متابعة الرسول وأهل بيته ﴿حَسَنَةً﴾ دينية حقيقة ﴿تَزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي: فيما يترتب عليها من الكرامات الأخروية ﴿حُسْنًا﴾ أي: زيادة حسن تفضلاً منا وإحساناً ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم عباده ونياتهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من أحب أهل بيت حبيبه لرضاه سبحانه ﴿شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23] يوفي عليهم الثواب، ويوفر عليهم أنواع الكرامات.

أينكرون مطلق رتبة النبوة والرسالة؟ أولئك المنكرون المعاندون ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ واختلق آيات مفتريات ترويجاً لمدعاه، وما قولهم هذا وزعمهم بك يا أكمل الرسل بأمثاله إلا قول باطل، وزعم زاهق زائغ ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ كما ختم على قلوبهم، ويضلك عن طريق توحيده مثل ما أضلهم ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد ذلك ﴿يَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ لو تعلق مشيئته ﴿وَيُحَقِّقُ﴾ ويثبت ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ التي هي آيات القرآن بلا سفارتك ورسالتك، وبالجمل: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلمه بعلمه الحضوري ﴿بِدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24] فيظهر عليهم ما هو مكنون في صدورهم وضمائرهم، ويجازيهم بمقتضاه.

﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كيف لا يعلم سبحانه بمكنونات صدورهم ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الصادرة عن محض الندم والإخلاص للذين هما من أفعال القلوب ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ المسترجعين نحوه بكمال الخشية والخضوع ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قبول التوبة عنهم ﴿يَغْفُو﴾ ويتجاوز ﴿عَنْ﴾ مطلق ﴿الشَّيْئَاتِ﴾ الصادرة عنهم على سبيل الغفلة ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالجمل: ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 25] بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ أي: بحيث يقبل توبة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ترحماً لهم وإشفاقاً، بعدما رجعوا نحوه تائبين نادمين عما فعلوا ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بدل

(1) ذكره الرازي في تفسيره (432/13).

إخلاصهم واستحيائهم منه سبحانه من الكرامات ما لا يكتنه وصفه ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الساترون بأباطيل هوياتهم، وما صدر منها من الجرائم والآثام شمس الحق الحقيق بالكشف والظهور ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 26] حين رجعوا إلى الله، وحشروا نحوه مهانين صاغرين.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧) ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٨) ﴿ وَمِنْ مَائِهِ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) ﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُمْسِكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٠) ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٣١) [الشورى: 27-31].

وبالجملة: كفر عموم الكفرة واستكبارهم وضلالهم، إنما نشأ من كفرانهم بنعم الله وطغيانهم لأجلها على الله وعلى خلص عباده، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ الصوري المستجلب المستتبع لأنواع العتو والاستكبار ﴿لِعِبَادِهِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان بمقتضى بشريتهم وبهيमितهم ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ بغيًا فاحشًا، واستكبروا على عباد الله، وظهروا على أوليائه، ومشوا على وجه الأرض خيلاء مفتخرين بمالهم من الجاه والثروة والرئاسة، فسرى بغيهم واستكبارهم على الله وعلى أنبيائه ورسله، فكفروا لذلك ظلمًا وعدوانًا ﴿وَلَكِنْ﴾ جرت سنته سبحانه، واقتضت حكمته على أنه ﴿يُنْزِلُ﴾ ويفيض ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: مقدارًا وتقدير ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ على من يشاء بمقتضى حكمته ومشيتته، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِ﴾ أي: باستعداداتهم وعموم أحوالهم ﴿خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] يعلم منه ما خفي عليهم وما ظهر دونهم.

﴿و﴾ كيف لا يعلم سبحانه سرائر عباده وضمائرهم ﴿هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ بمقتضى علمه وحكمته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾⁽¹⁾ وآيسوا من نزوله ﴿و﴾ بتزيله وإمطاره

(1) أي: يشعروا منه وتقييد تنزله بذلك مع تحقيقه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة

﴿يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الواسعة على جميع أقطار الأرض وأرجائها عناية منه سبحانه إلى سكانها من أجناس المواليد وأنواعها وأصنافها ﴿وَهُوَ﴾ كيف لا يرحم سبحانه على مظاهره؛ إذ ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ المولي لعموم أمورهم المنحصرة على ولايتهم؛ إذ لا ولاية إلا له ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28] المستحق لجميع المحامد بذاته؛ إذ عموم المظاهر وذرائع الأكوان حاملة له سبحانه طوعاً ورجبة حالاً ومقالاً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال ولايته وتديره وتربيته ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: إظهار الكائنات العلوية والسفلية بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وسط ﴿فِيهِمَا﴾ وركب منهما ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ ذي حياة وحركة ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى جَنَعِهِمْ﴾ أي: جمع الأظلال والعكوس إلى شمس الذات، وقبضهم عليها بعد بثهم وبسطهم منها ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ ويريد ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 29] بلا فترة وتقصير.

﴿وَهُوَ﴾ اعلّموا أيها الأظلال الهالكة في أنفسها ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ مضرّة مؤلمة ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب اقترافكم المعاصي والآثام ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك ﴿يَغْفِرُ﴾ سبحانه ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] من المعاصي، لا يعقبا بمصيبة تخفيفاً لكم وتسهيلاً.

﴿وَهُوَ﴾ لو أراد سبحانه تعقيب كل معصية بمصيبة ﴿مَا أَنْتُمْ بِمُغْفِرِينَ﴾ له ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس لكم أن تفوتوا شيئاً مما قضى سبحانه عليكم من المصائب المستتعة لجرائمكم وآثامكم إن شاء، ﴿وَهُوَ﴾ الحال أنكم عاجزون في أنفسكم، مقهورون تحت قبضة قدرته؛ إذ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ويحفظكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ [الشورى: 31] ينصركم ويدفع عنكم ما يؤذيكم ويعينكم على مبتغاكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ٣٢ ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٣٣ ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعَفُّ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ٣٤ ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْوٍ﴾ ٣٥ ﴿مَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْيَوْمِ الدِّينِ وَمَا عِنْدَ

اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ [الشورى: 32-36].

﴿و﴾ أيضا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على ولايته الكاملة، وتدبيراته الشاملة ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجارية ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾ [الشورى: 32] أي: كالجبال الرواسي في العظمة والثقل.

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ المجرية لهن ﴿فَيُظِلِّلْنَ﴾ ويبقين تلك السفن حيثن ﴿رَوَاكِدَ﴾ سواكن ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر البحر ولججه، فضاع جميع من فيها وما فيها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الإجراء والإرسال ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات على تولية الحق وتدبيره ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ حبس نفسه في مقام الرضا بما قسم له ربه ﴿شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33] بما ظهر عليه من آله ونعمائه.

﴿أَوْ﴾ إن يشأ يرسلهن إرسالاً عنيفاً بالرياح العاصفة حتى ﴿يُوقِظَهُنَّ﴾ أي: يغرقهن، ويهلك بعض من فيهن ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بشؤم أعمالهم التي اقترفوها من البخل والحسد والحرص المفرط والأمل الطويل، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ﴿وَيَغْفُفَ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 34] أي: ومع ذلك يتجاوز سبحانه عن إهلاك أكثرهم، وينجيهم من ورطة الهلاك بحسن أعمالهم وخلوص نياتهم تفضلاً منه سبحانه إليهم وتكريماً لهم.

كل ذلك ليختبر سبحانه عباده، ويستقم عنهم، ويميز منهم أهل الرضا والتسليم عن غيرهم ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي: وليعلم المجادلون المكابرون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ومقتضياتها عناداً وعدواناً ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ﴾ [الشورى: 35] مهرب ومخلص من عذابنا إن تعلقت إرادتنا بانتقامهم وإهلاكهم.

وإن استظهر أهل الجدال بالأموال والأولاد، واستكبروا بها وافتخروا عليها، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ وأعطيتم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حقير قليل، ما هي إلا من حطام الدنيا ومتاعها ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فانية بفنائها، تمتعون بها فيها مدة يسيرة، ثم تمضون مع حسرة كثيرة وندامة طويلة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من اللذات الروحانية والكرامات المعنوية ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها، بل من آلفها وأضعافها ﴿وَأَبْقَى﴾ أقدم وأدوم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بوحدة الحق وانكشفوا بكمالات أسمائه وأوصافه، وتحققوا بشهود شئونه وتجلياته ﴿و﴾ هم بعدما تمكنوا في مقام الرضا والتسليم، وتوطنوا في أعظم سواد الفقر، وأعلى درجات عالم اللاهوت ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من

الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: 36] يفوضون أمورهم ويسلمون، غاضين عيون بصائرهم وأبصارهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق مطلقاً، لذلك ما يرون بنوره من مرايا مظاهره ومجاليه إلا لمعات وجهه الكريم.

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرٌ إِلَّا أَثَمَ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّحْمَةِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَاُذْلِكْهُ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُذْلِكْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) [الشورى: 37-42].

﴿و﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرٌ إِلَّا أَثَمَ﴾ وهي الآثام والجرائم المؤديان إلى الشرك الجلي والخفي ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: الصفات المتهمة إلى الكبائر بالرسوخ والإصرار ﴿و﴾ أيضاً من جملة أخلاق هؤلاء المؤمنين المحسنين ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا مِنْ مَكْرِهِمْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37] يبادرون إلى العفو والستر، وكظم الغيظ، وإصلاح البين، وإخراج الغل والحقد عن نفوسهم.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي: أجابوا، وقبلوا دعوة من دعاهم إلى الطاعات والعبادات ومطلق الخيرات والعسنيات، لا لغرض دنيوي بل ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ طلباً لمرضاته وهرباً عن سخطه وانتقاماته ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أداموا الميل والرجوع إلى الله في جميع حالاتهم ﴿أَمْرُهُمْ﴾ أي: عموم أمورهم المتعلقة لمعاشهم ومعادهم ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: هم متشاورون فيها مع إخوانهم، بلا استبدادهم لهم فيها برأيهم ولا انفراد بعقلهم ﴿و﴾ من معظم أخلاقهم أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: أبحنا لهم وأضفنا إليهم من الرزق الصوري ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: 38] في سبيلنا للفقراء والمساكين، طالبيين منا مرضاتنا ومثوباتنا.

﴿و﴾ من جملة أخلاقهم وأجلها: إنهم هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ ولاخوانهم في الدين ﴿الْبَغْيُ﴾ والعدوان منبغي باغ ظالم وعدو عادٍ ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: 39] يبادرون إلى الغلبة والانتصار غيرة على الله، وحمية لحمى حدوده الموضوعة على

مقتضى العدالة القويمة الإلهية عن الظلم والعدوان، وإظهاراً لما أودع الحق فيهم من فضيلة خصلة الشجاعة المحموده عند الله، وعند عموم أرباب المروءة من الأنبياء والأولياء؛ إذ كلا طرفيها وهما العجب والتهور، مذمومان عقلاً وشرعاً، والشجاعة المقتصدة بينهما محموده جداً.

ثم قال سبحانه تعليماً لعباده طريق هدايته ورشاده: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ أصابتك من أحد من بني نوعك ﴿سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ لا أزيد منها؛ أي: إذا أساءك أحد بسيئة، فأنت أيها المكلف تسيئه بمثلها جزاءً وعقوبة، سمي الجزاء سيئة؛ للازدواج والمشاكلة، هذا بحسب الرخصة الشرعية، وأما بحسب العزيمة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ وتجاوز عن الجاني والمسيء خالصاً لوجه الله وطلباً لمرضاته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالصلح والإحسان ما أفسده بالجنابة والإساءة ﴿فَأَجْزُهُ﴾ قد وقع ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وجزاؤه مفوض إلى كرمه يجازيه بمقتضى فضله وجوده ما شاء الله، وبالجمله: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى عدالته الذاتية ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40] المجاوزين عن الحدود الإلهية سيما في العقوبات والجنايات.

﴿وَلَمَنْ اتَّصَرَ﴾ وغلب على الظالم ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: بعدما ظلم منه منتقمًا عليه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون المنتقمون ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41] بالمعاقبة والمعاقبة؛ لأنهم منتقمون بالرخصة الشرعية.

بل ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بهما ﴿عَلَى﴾ المرفين ﴿الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: يتدثرون بالظلم، ويظهرون بينهم بالعدوان والطغيان ﴿وَيَتَّبِعُونَ﴾ أي: يطلبون بظلمهم فسادًا ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجاوزون عن الحدود الشرعية ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 42]⁽¹⁾ هو إحراقهم بنار

(1) يقول تعالى ذكره: ولمن انتصر ممن ظلمه ممن بعد ظلمه إياه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون منهم لا سبيل للمتضرر منهم بعقوبة لا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد، لم يظلم، فيكون عليه سبيل، وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بذلك، فقال بعضهم: عني به كل منتصر ممن أساء إليه، مسلماً كان المسيء أو كافراً، ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، قال: ثنا معاذ، قال: ثنا ابن عون، قال: كنت أسأل عن الانتصار (﴿وَلَمَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...﴾ الآية، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين قالت: قالت أم المؤمنين: دخل رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئاً،

القطيعة، لا عذاب أشد منه وأفزع.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَيَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَافِقِ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤٤) ﴿وَتَرْتَبُّهُمْ يَمْرُضُونَ عَلَيْهِمَا جَنَاحَ طَيْرٍ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أُولِيَّةٍ يَنْصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ (٤٦) [الشورى: 43-46].

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ من المظلومين، ولم ينتصر، ولم ينتقم من الظالم كظما ومضما

ولم يفطن لها، فقلت بيده حتى فطته لها، فأمسك، وأقبلت زينب تقحم عائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة: «شبيها» فسبتها وغلبتها وانطلقت زينب فأتت عليا، فقالت: إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم، فجاءت فاطمة، فقال لها: «إنها حبة أبيض رب الكعبة» فانصرفت وقالت لعلي: إني قلت له كذا وكذا، فقال كذا وكذا، قال: وجاء علي إلى النبي ﷺ فكلّمه في ذلك، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...﴾ الآية، قال: هذا في الخمس يكون بين الناس، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فاما لو ظلمك رجل لم يحل لك أن تظلمه، وقال آخرون: بل غني به الانتصار من أهل الشرك، وقال: هذا منسوخ، ذكر من قال ذلك: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: لمن انتصر بعد ظلمه من المؤمنين انتصر من المشركين وهذا قد نسخ، وليس هذا في أهل الإسلام، ولكن في أهل الإسلام الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ والصواب من القول أن يقال: إنه معني به كل متصر من ظالمه، وأن الآية محكمة غير منسوخة للعلة التي بينت في الآية قبلها، وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يقول تبارك وتعالى: إنما الطريق لكم أيها الناس على الذين يتعدون على الناس ظلما وعدوانا، بأن يعاقبهم بظلمهم لا على من انتصر ممن ظلمه، فأخذ منه حقه، وقوله: ﴿وَيَتَقُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول: ويتجاوزون في أرض الله الحد الذي أباح لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحق، يقول: فهؤلاء الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب من الله يوم القيامة في جهنم مؤلم موجه. «تفسير الطبري» (549/21).

﴿وَعَفَرَ﴾ أي: عفا وتجاوز مسترجعاً إلى الله، طالباً الأجر منه سبحانه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ العفو والصفح عند القدرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43] أي: من الأمور التي أثرها أولو العزائم الصحيحة من أرباب العناية، وهم الذين يرون من الله جميع ما يرون منحة أو محنة، ويوطنون نفوسهم على الرضا بما جرى عليهم من القضاء.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ويغويه عن طريق توحيده ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَتٍ﴾ سواء ينصره ويدفع عنه ما يخله ﴿مِنْ بَغْدِهِ﴾ أي: من بعد خذلان الله إياه ﴿وَوَ﴾ بعدما ردهم سبحانه إلى دار الانتقام بأنواع الخيبة والخسران ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المغرورين بما هم عليهم من الجاه والثروة والمفاخرة بالأموال والأولاد في دار الدنيا ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم المحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حيثذ أي: بعضهم لبعض من شدة اضطرابهم واضطرابهم: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾ رجعة إلى الدنيا وعود إليها ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 44] حتى نعود ونستعد ليومنا هذا.

﴿وَوَ﴾ هم في هواجس أنفسهم يتكلمون بهذا الكلام تحسراً وتضجراً ﴿تَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يُغْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ﴾ خاضعين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ والصغار المفرط الشامل لهم ﴿يَنْتَظِرُونَ﴾ نحو النار ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: بنظرة خفية من تحت الأهداب بلا تحريك الأجفان من كمال رعبهم وخشيتهم منها، كنظر من يؤمر بقتله إلى سيف الجلاد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين رأوا أعداءهم معذبين: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالظلم والضلal ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالضد والاضلال، لذلك استحقوا العذاب المخلد ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والنكال المؤبد فيها ﴿أَلَا﴾ أي: تنبها أيها الأظلال المحتفلون تحت لواء العدالة الإلهية ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضاها بإغواء الغوائل الإمكانية والتسويلات الشيطانية ﴿فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: 45] وعقاب دائم اليم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وينقذونهم من عذابه، والحال أنه قد أضلهم الله بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ المتقم الغيور ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 46] إلى الهداية والنجاة من وياي ما يترتب على الغي والضلal.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ

يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا وَلِنُصِيبَهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ [الشورى: 47-48].

وبالجملة: ﴿استَجِيبُوا﴾ أيها المكلفون بالإجابة والقبول ﴿لِرَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد، وتوجهوا نحوه مخلصين، وأجيبوا داعيه محمداً ﷺ، مصدقين ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يحل فيه العذاب عليكم، مع أنه ﴿لَا مَرَدُّ لَهُ﴾ أي: لا رفع ولا رد للعذاب النازل فيه ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ وبعد ما قضى سبحانه وحكم حتماً ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ سواء، وقد جرى حكمه بتعذيبكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: 47] وما يتيسر لكم حينئذ إنكار أسباب العذاب وموجباته؛ إذ تشهد عليكم يومئذ أعضاؤكم وجوارحكم بما اقترفتُم بها من الجرائم والآثام.

وبالجملة: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير أمثال هذه المواعظ والتذكيرات نيابة عنا، فإن امتثلوا وقبلوا، فقد اهتدوا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عنها، ولم يلتفتوا إليها عناداً ومكابرة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: فاعلم أنا ما أرسلناك يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ يحفظهم عن جميع ما يضرهم ويغويهم، بل ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت، وبعد تبليغك ما بقي عليك من حسابهم من شيء.

ثم أشار سبحانه إلى ومن عزائم الإنسان وضعف عقائده، فقال: ﴿وَإِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ تفضلاً ﴿مِنَّا﴾ بلا سبق استحقاق منه ﴿رَحْمَةً﴾ شاملة محيطه بجمع أعضائه وجوارحه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وانبسط بحلولها ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾ حيناً من الأحيان ﴿سَيْئَةٌ﴾ من السيئات مؤلمة لهم، مع أنها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام الجالبة لأنواع المضرات ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ حينئذ كفورٌ [الشورى: 48] مسرع إلى الكفران، مبادر إلى النسيان، كأنه لم ير منا الإحسان والإنعام قط.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَمَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ﴾ ﴿٤٩﴾ أَوْ مَرْجُومَهُمْ ذُرَّارًا وَلَإِنِّ شَاءَ لَيَجْعَلَ مِنْ يَشَاءَ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلَىٰ قَدِيرٍ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ جَلْبَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رُسُلًا

فَيُوحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَىٰ ۝٥٣ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿﴾ [الشورى: 49-53].

فكيف يكفرون لو فور نعمة الحق وشمول رحمته مع أنه ﴿الله﴾ المحيط بكل المظاهر الموجد المظهر لها ﴿مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات؛ لذلك ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ إرادة واختياراً حيث ﴿يَهْبُ﴾ بمقتضى جوده وفضله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿إِنَآثًا﴾ محضاً من الأولاد، قدمهن للتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ونكرهم؛ لأن النكارة مطلوبة فيهن ﴿وَيَهْبُ﴾ أيضاً ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿الدُّكُورَ﴾ [الشورى: 49] الخُلُص، عَرَفَهُمْ؛ لأنهم أولى بالتعريف وأجرى بالمعرفة.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ ويخلط لهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَآثًا﴾ مجتمعين ممتزجين ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿عَقِيْمًا﴾ بلا إيلاد واستيلاد، ذكرًا كان أو أنثى إظهاراً لكمال قدرته، وإشعاراً بأنه لا تأثير للوسائل والأسباب العادية، حتى ينسب تناسلهم وتوالدهم إلى اجتماع الأزواج والزوجات منهم، كما هو المتبادر إلى الأحلام السخيفة، وبالجملّة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 50] على إفاضة ما ينبغي لمن ينبغي، كما ينبغي، بمقتضى كرمه وجوده وإرادة واختياراً، بلا إيجاب والتزام من جانبه سبحانه.

ثم لما شنع اليهود على رسول الله ﷺ وعيروه وطعنوا في نبوته، مستهزئين معه؛ حيث قالوا له تهكمًا: ألا تكلم الله وتنظر إليه لو كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه. فقال ﷺ: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»⁽¹⁾ إذ هو سبحانه أجل وأعلى من أن تنظر إليه العيون، وتدركه الأبصار ومحيط به الآراء والأفكار.

أنزل سبحانه هذه الآية تصديقًا لحبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِيُبَشِّرَ﴾ أي: لجنسه، ليس في وسعه واستعداده ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ مشافهة بلا سترة

(1) ذكره ابن عجيبة في «البحر المعيد» (449/5).

وحجاب؛ إذ لا مناسبة بين المحدود والمحسوس في مضيق الجهات، وبين غير المحدود والمستغني عن الحدود والجهات حتى تقع المكالمة بينهما ﴿إِلَّا وَخْيًا﴾ أي: تكلماً ناشئاً عن وحي إلهامي أو منامي ﴿أَوْ﴾ تكلماً مسموعاً ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وراء تعين من التعينات، كما سمع موسى كلامه سبحانه من وراء حجاب الشجرة، فكذلك يسمع العارف المتحقق بمقام الفناء في الله كلامه سبحانه، من وراء تعينات عموم المظاهر الناطقة بتسييحه سبحانه حالاً ومقالاً ﴿أَوْ﴾ تكلماً بالسفارة والترجمان بأن ﴿يُزِيلُ رُسُلًا﴾ من سدة ذاته التي هي الملائكة الحاملون لكمالات أسمائه وصفاته ﴿فَيُوحِي﴾ الملك ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه ﴿مَا يَشَاءُ﴾⁽¹⁾ ويسمعه من كلامه سبحانه لمن يشاء من عباده.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيٌّ﴾ في شأنه المختص به، وكمالاته اللائقة له، متعالٍ عن أن يحوم حول سرادقات عز سلطانه أحد من خلقه، فكيف أن يتكلموا معه بلا سترة وحجاب ﴿حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51] في كمال تمنعه وكبريائه ونهاية تعززه وترفعه؛ بحيث تكلم تارة بالوحي والإلهام، وتارة من وراء الحجب والأستار، وتارة بطريق السفارة والرسالة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء والرسل، وتكلمنا معهم بإحدى الطرق الثلاث ﴿أَوْخِيْنَا إِلَيْكَ﴾ أيضاً يا أكمل الرسل لتكلم معك ﴿رُوحًا﴾ مثلاً تكريماً لك وتعظيماً لشأنك، وتخصيصاً لك من بين سائر الأنبياء لظهوره على نشأة التوحيد الذاتي، ناشئاً ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ المتعلق لتدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا، ألا وهو القرآن المنتخب من حضرة علمنا ولوح قضائنا، سميناها روحاً؛ لأنه يحيي به أموات مطلق التعينات، وخصصناك به مع أنك ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ وتعلم قبل نزوله ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ المبين للأحكام المتعلقة بتهديب الظواهر والبواطن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ والإيقان المتعلق لتوحيد الحق وعرفانه، لكونك أمياً عارياً عن طريق الاستفادة والتعلم مطلقاً ﴿وَلَكِنْ﴾ من محض جودنا وفضلنا اصطفيك لرسالتنا، واجتيناك لخلافتنا

(1) إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص 95) بتحقيقنا.

ونياتنا؛ لذلك أنزلناه إليك.

وبعد نزوله ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ تلاً وتشعشع بعد ظهور نشأتك ﴿نَهْدِي بِهِ﴾ إلى توحيدنا ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المجبولين على فطرة الإسلام ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضاً بمقتضى خلافتك ونياتك عنا ﴿لَتَهْدِي﴾ به عموم عبادنا وتدعوهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] لا عوج فيه ولا انحراف؛ لكونه ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما ظهر منهما وفيهما وعليهما، وبالجمل: عموم ما ظهر ويطن وغاب وشهد؛ إذ هو سبحانه آخذ بيمين القدرة بناصية الكل، ويجذبه نحوه.

﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستمدون من الله في كل الأحوال ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى وجهه الكريم لا إلى غيره من وجوه الأسباب والوسائل العادية ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] أي: إليه ترجع وجوه الصور المرتبة بعد ارتفاع الوجوه الهالكة عن البين واضمحلال الرسوم الباطلة عن العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتحقق في صراط الحق، والراكن نحوه بحزائمك الأقصى وعزائمك الأوفى أن تجعل قلة مقصدك توحيد ربك، وتستقيم على جادته التي هي الدين القويم المحمدي، والسبيل السوي المصطفوي، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] وتقتفي أثر من سلف من خلص أتباعه الذين اهتدوا بمتابعته إلى مقر التوحيد واليقين بك، ووصلوا إلى عالم اللاهوت والتمكين بعدما انخلعوا عن جلبات ناسوتهم بالمرة، بتوفيق من الله وجذب من جانبه، وإرشاد حبيبه ﷺ.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزخرف^١

لا يخفى على المحققين المتحقيقين بحقيقة الحق على عموم المظاهر، وشمول أسمائه، وأوصافه الذاتية عليها، أن من جملة أسمائه الحسنی وصفاته الأسنى اسم المتكلم، وصفة الكلام المنزل من عنده على كل أمة من الأمم حسب اللغة الموضوعه فهم بوضع إلهي؛ إذ واضح الألفاظ واللغات كلها هو الله سبحانه.

ولا شك أن القرآن المنزل على خير الأنام إنما هو من أمهات الكتب الإلهية وأصولها؛ لكونه منتخباً من الحضرة العلمية الإلهية، منتزعا من لوح محفوظ القضاء على الوجه الأتم الأبلغ.

ولهذا أقسم سبحانه بكتابه هذا، بعدما خاطب على حبيبه ﷺ بما خاطب، ثم من

(١) الزُّخْرُفُ بِالضَّمِّ: الذَّهَبُ نَقْلُهُ الْجَوْهَرِيُّ وَهُوَ قَوْلُ الْقَرَاءِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) قَالَ ابْنُ سَيْدِهِ: هَذَا هُوَ الْأَضَلُّ ثُمَّ سَمِيَ كُلُّ زِينَةٍ زُخْرُفًا شَبَّهَ كُلُّ مُغْوًى مُزَوَّرٍ بِهِ وَفِي حَدِيثٍ يَوْمَ الْفَتْحِ: (أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْكَفَّةَ حَتَّى أَمَرَ بِالزُّخْرُفِ فَتُحْجَى وَأَمَرَ بِالْأَضْنَامِ فَكُبِّرَتْ) الزُّخْرُفُ هُنَا: نَقُوشٌ وَتَصَاوِيرُ تُزَيَّنُ بِهَا الْكَفَّةُ وَكَانَتْ بِالذَّهَبِ، الزُّخْرُفُ: الزَّيْنَةُ وَكَمَالَ حُسْنِ الشَّيْءِ. الزُّخْرُفُ مِنَ الْقَوْلِ: زِينَتُهُ وَحُسْنُهُ بِتَرْقِيشِ الْكَلْبِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (زُخْرُفُ الْقَوْلِ غُرُورًا) الزُّخْرُفُ مِنَ الْأَرْضِ: أَلْوَانُ نَبَاتِهَا مِنْ يَتِينٍ أَحْمَرَ وَأَضْفَرٍ وَأَبْيَضٍ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أَيِ: زِينَتَهَا مِنَ الْأَنْوَارِ وَالزُّهْرِ وَقِيلَ: تَعَامَهَا وَكَمَالَهَا، وَالزُّخَارِفُ: الشُّقْنُ كَمَا فِي التَّهْدِيبِ وَفِي الْمُحْكَمِ: مَا زُيِّنَ مِنَ الشُّقْنِ وَفِي الْعَيْنِ: مَا يُزَخَّرُ بِهِ الشُّقْنُ، الزُّخَارِفُ مِنَ الْمَاءِ: طَرَائِقُهُ نَقْلُهُ الْجَوْهَرِيُّ، الزُّخَارِفُ: ذَوَاتَاتُ تَطْيِيرٍ عَلَى الْمَاءِ كَمَا فِي التَّهْدِيبِ زَادَ فِي الْعُنَابِ: ذَوَاتُ أَرْبَعٍ كَالذُّبَابِ وَفِي الْمُحْكَمِ: ذُبَابٌ صِغَارٌ ذَاتُ قَوَائِمٍ أَرْبَعٍ تَطْيِيرُ عَلَى الْمَاءِ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ: تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ غَمَازَةِ مَاؤَهَا ... لَهُ خَدَّتْ تَشْتَنُّ فِيهِ الزُّخَارِفُ وَمَعَا يُسْتَلْزَكُ عَلَيْهِ: الزُّخْرُفُ: الزَّيْنَةُ، وَبَيْتٌ مُزَخَّرٌ، وَزُخْرَفَ الْبَيْتَ زَخْرَفَةً: زَيْنَةً وَأَكْمَلَهُ، وَكُلُّ مَا زُوِّقَ وَزُيِّنَ فَقَدْ زُخِّرَ، وَقَالَ ابْنُ أَسْلَمٍ: الزُّخْرُفُ: مَتَاعُ الْبَيْتِ، وَالْمُزَخَّرُ: الْمُزِينُ قَالَ الْعَبَّاسِيُّ: يَا صَاحِبَ مَا هَاجَ الْعَيُونُ الذُّرْقَا... مِنْ طَلَلِ أَمْسَى تَحَالَ الْمُضْحَكُ، رُسُومُهُ وَالْمُلْخَبُ الْمُزَخَّرُ وَزُخْرَفَ الْكَلَامُ: نَقَطَهُ، وَتَزَخَّرَ الرَّجُلُ: إِذَا تَزَيَّنَ، وَالزُّخْرُفُ: طَائِرٌ وَهُوَ قَسْرٌ كُتْرَاعٌ بَيْتٌ أَوْسٍ.

عليه بما من، ورمز بما رمز تأييداً أو تعضيذاً له على حمل أعباء الرسالة، وتبليغ الوحي المنزل عليه من عنده باللغة الفصيحة العربية، المعجز نظمه ومعناه على كافة البرية وعامة الرعية؛ ليكون رحمة للعالمين وخاتماً للنبيين.

فقال بعدما تيمن باسمه المبين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزل للرسول والكتب للهداية، والإرشاد تبين طريق الرشاد ومنهج السداد لعموم عباده ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليهم بإرسال رسول كل قوم من جنسهم، وإنزال الكتاب عليهم على لغتهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم يوصلهم بتبليغ الرسل وتبيين الكتب إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف: 1-8].

﴿حم﴾ [الزخرف: 1] يا حارس دين الله، وملازم طريق توحيده.

﴿و﴾ حق ﴿الكتاب المبين﴾ [الزخرف: 2] العظيم الذي انتخبناه من حضرة علمنا ولوح قضائنا.

﴿إن﴾ من كمال فضلنا وجودنا ﴿جعلناه قرآنًا﴾ فرقاناً بياناً، وتبياناً ﴿عربياً﴾ أسلوباً ونظماً ﴿لعلكم تعقلون﴾ [الزخرف: 3] وتفهمون ما فيه من الأسرار العجيبة والحكم البديعة، والرموز والإشارات التي خلت عنها الكتب السالفة.

﴿وإن﴾ أي: الشأن المندرج فيه، والرموز إليه من جملة ما هو كائن مثبت ﴿في أم الكتاب﴾ الذي هو حضرة العلم ولوح القضاء، ولا يمكنكم الإطلاع عليها والاستفادة منها إلا بوسائل الألفاظ لكونه محفوظاً ﴿لديننا﴾ محروساً عندنا، لا يتيسر لكم الوصول إلينا، مادمتم محبوسين في مضيق الإمكان، مقيدين بسلاسل الزمان والمكان؛ إذ ساحة عز حضورنا ﴿لعلي﴾ منيع متعال عن أن يحوم حول سرادقات عزنا أحد من خلقنا، ونحن ﴿حكيم﴾ [الزخرف: 4] في تلك المنعة والدفاع، لا نطلعكم على سرائرنا وأسرارنا، إلا من وراء الحجب والأستار.

ثم استفهم سبحانه مهديًا مقررًا، مشيرًا إلى ما أودع سبحانه في استعدادات عباده من قابلية الهداية والرشاد، بقوله: ﴿أ﴾ نهملكم أيها المجبولون على فطرة الهداية، ولم نرسل إليكم يرشدكم إلى ما جبلتم لأجله من قابلية الانكشاف لسرائر توحيدنا ﴿فَنَضْرِبُ﴾ أي: فنصرف ﴿عَنكُمُ الدِّكْرُ﴾ أي: القرآن المبين لكم ما في نشأتكم وفطرتكم من الاطلاع والشعور على شئوننا وتجلياتنا الذاتية، وبالجمل: نعرض عنكم ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا وانصرافًا كليًا، مع كمال قابليتكم على الصلاح وبالفوز بالفلاح ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: أنهملكم لئن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: 5] منحطين عن الاعتدال الفطري والقسط الجبلي الذي جبلناكم عليه؛ والمعنى: أنهمل مقتضيات حكمتنا المودعة فيكم، إن كنتم في أنفسكم قوماً مسرفين في التمرد والإعراض؟.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: كثير أرسلنا ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ هادٍ مرشد ﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 6] أي: في الأمم الماضية المسرفين في التمرد والإعراض.

﴿وَهُمْ﴾ هم من شدة تعنتهم وإصرارهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: 7] أمثال هؤلاء المستهزين معك يا أكمل الرسل.

وبعدما تبادوا في الغفلة والعناد، وبالغوا فيها مغرورين ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ أي: أخذناهم بذنوبهم، واستأصلناهم مع كونهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المسرفين المستهزين معك ﴿بَطْشًا﴾ حولا وقوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأكبر جاهًا وشدة ﴿وَهُمْ﴾ بعدما ﴿مَضَى﴾ وجري ﴿مَثَلِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 8] على ما جرى، ومضى مثل الأولين من قصصهم ووقائعهم الهائلة، وسيمضي ويجري عن قريب على هؤلاء أيضًا مثلهم بالطريق الأولى.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ وَالَّذِي
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١١ وَالَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ ائْتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ ١٣ وَلَئِن كُنَّا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 9-14].

﴿وَكَيْفَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مَا جَرَى عَلَى أَسْلَافِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ جُرْمًا وَأَكْبَرُ
 إِنكَارًا مِنْهُمْ، وَمَنْ إِنكَارَهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أَيُّ مُشْرِكِي مَكَّةَ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ: ﴿مَنْ
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَأَوْجَدَهُمَا مِنْ كِتْمِ الْعَدَمِ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْغَزِيرُ﴾ الْغَالِبُ
 عَلَى الْخَلْقِ وَالْإِبْجَادِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] الْمَطْلَعُ عَلَى سِرَائِرِ مَا أَوْجَدَ وَأَظْهَرَ.

وَمَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِأَخْصِ أَوْصَافِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَإِقْرَارِهِمْ بِاسْتِنَادِ الْأُمُورِ الْمُتَقَنَّةِ
 إِلَى أَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، أَنْكَرُوا وَحْدَةَ ذَاتِهِ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ عَتَوْا وَعِنَادًا، قُلْ لَهُمْ يَا
 أَكْمَلُ الرُّسُلِ بَعْدَمَا بِالْغَوَا فِي الْإِنكَارِ وَالْإِصْرَارِ: كَيْفَ تَنْكُرُونَ وَحْدَةَ الْحَقِّ أَيُّهَا
 الْجَاهِدُونَ الْمُنْكَرُونَ مَعَ أَنَّ اللَّهَ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تَسْتَقِرُّونَ فِيهَا،
 وَتَتَوَطَّنُونَ عَلَيْهَا مَتَرَفِهِينَ مُتَنَعِمِينَ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ لِمَعَاشِكُمْ، تَطْلُبُونَ مِنْهَا
 حَوَائِجَكُمْ، وَطَرَفًا تَصِلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعَادِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 10] بِهَا إِلَى
 وَحْدَةِ رَبِّكُمْ.

﴿وَكَيْفَ تَنْكُرُونَ وَجُودَ مُوجِدِكُمْ ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: مِنْ عَالَمِ
 الْأَسْبَابِ ﴿مَاءٍ﴾ مَحْيَاً لَأَمْوَاتِ الْمُسِيْبَاتِ ﴿بِقَدَرٍ﴾ مُعْتَدِلٌ مُعْتَادٌ ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾ أَيُّ:
 أَحْيَيْنَا وَاخْضَرَّرْنَا بِإِجْرَاءِ الْمَاءِ الْمَحْيِي ﴿بِلَذَّةٍ﴾ جَافًا يَابِسًا لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَلَا خَضِرَةَ لَهَا
 ﴿مِثْنًا كَذَلِكَ﴾ أَيُّ: مِثْلَ إِخْرَاجِنَا النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ بِإِنْزَالِ الْمَاءِ ﴿تُخْرِجُونَ﴾
 [الزخرف: 11] وَتَنْشُرُونَ؛ أَيُّ: الْمَوْتَى حَالِ كَوْنِكُمْ مَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيكُمْ
 تَارَةً أُخْرَى.

﴿وَكَيْفَ تَجْهَدُونَ وَتَنْكُرُونَ وَجُودَ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ وَوَحْدَتَهُ مَعَ أَنَّهُ ﴿الَّذِي
 خَلَقَ﴾ وَأَظْهَرَ ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أَيُّ: جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ زَوْجَاتِ مُمْتَرِجَاتِ
 ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ تَتِمِيقًا لَأُمُورِ مَعَاشِكُمْ وَتَسْهِيلًا لَهَا ﴿مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾
 [الزخرف: 12] أَيُّ: تَرْكَبُونَهُ.

﴿لِتَشْتَرُوا﴾ وَتَتِمَكَّنُوا ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَيُّ: ظُهُورِ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْمَرَائِبِ ﴿ثُمَّ
 تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ كَيْفَ أَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ أَصُولَهَا وَفُرُوعَهَا،
 وَتَوَاضَعُوا عَلَى شُكْرِهَا أَدَاءَ لِحَقِّ شَيْءٍ مِنْهَا ﴿وَتَقُولُوا﴾ عِنْدَ اسْتَوَائِكُمْ عَلَيْهَا: ﴿سُبْحَانَ
 الَّذِي﴾ أَيُّ: تَتَزَهَّدُ وَتَقْدَسُ عَنْ شُوبِ النِّقْصِ وَالْإِسْتِكْمَالِ ذَاتِ الْقَادِرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ،

الذي ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: 13] ⁽¹⁾ مطيقين لتسخيره لولا إقرانه وتسخيره سبحانه لنا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا﴾ في عموم أوصافنا وأحوالنا وذواتنا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا بمد أظلال أسمائه الحسنی وصفاته العليا علينا، وربانا بمقتضى لطفه بالنعيم الأوفى ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 14] راجعون إليه، صائرون نحوه بعد انخلاصنا عن لوازم ناسوتنا وارتفاع غشاوة تعيناتنا عنا.

وإنما أوصله به تنبيها على أن العبد العارف لا بد أن يكون في عموم انقلاباته وحالاته مسترجعا إلى الله، عازما نحو الفناء فيه، متذكرا لموطنه الأصلي ومقره الحقيقي.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ١٥ ﴿أَمْ أَخَذَ مِنْهَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ١٦ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ١٧ ﴿أَوْ مِنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيقَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ١٨ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُّ شَهَادَتُهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ١٩ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ٢٠ [الزخرف: 15-20].

﴿وَ﴾ من غاية غفلتهم عن الحق وجهلهم بحقوق ألوهيته وربوبيته: ﴿جَعَلُوا لَهُ﴾ سبحانه واتخذوا ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ بعضا، وادعوه ﴿جُزْءًا﴾ له، ولذا ناشأ منه حيث قالوا: الملائكة بنات الله، والعزير ابن الله، والمسيح كذلك، وبالجملة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المجبول على الجهل والنسيان ﴿لَكَفُورٌ﴾ متناهِ في الغفلة عن الله، والكفران بنعمه

(1) أي: مطيقين، وكم سَخَّرَ لهم القُلُوكَ في البحر، والدواب للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكَذَلِكَ سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلَهُمْ عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدین مركب الإرادة فَحَمَلَهُمْ عليه إلى عِزِّ صَاحِبِ الجود، وسَهَّلَ للعارفين مركب الهمم فأنشأوا بِعِزَّةِ العِزَّةِ وعند ذلك مَحَطُ الكافة، إذ لم تخرق سرادقات العِزَّةِ هِمَّةٌ مخلوقٍ سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نَبِيًّا مُرْسَلًا أو وَلِيًّا مُكْرَّمًا فعند سطوات العِزَّةِ يتلاشى كل مخلوق، ويقف وراءها كل مُخَذَّبٌ مسبوق، تفسير القشيري (210/7).

وحقوق كرمه ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ [الزخرف: 15] ظاهر البغي والطغيان على الله، والإلحاد عن دينه وطريق توحيده.

ومن شدة ظهور بغيهم وطغيانهم: أثبتوا له أولادًا ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ أي: بل قالوا: اتخذ وأخذ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ سبحانه؛ أي: من مظاهره ومصنوعاتها أحسها وأدونها؛ أعني: ﴿بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم﴾ أي: أخلص أنفسكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: 16].

﴿و﴾ كيف تثبتون لله الواحد الأحد الصمد بنات، وتختارون لأنفسكم بنين مع أنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ من إنبات البنات له ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ من كمال ضجرتة وكآبتها ﴿وَهُوَ﴾ حيثذ ﴿كَبِيمٌ﴾ [الزخرف: 17] مملوء من الغيظ والكرب.

﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ﴾ أي: أثبتون للصمد المنزه عن الأهل والولد ولدًا ناقصًا يُربى ويزين ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ والزينة، لعدم كماله الذاتي ﴿و﴾ الحال أنه ﴿هُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أي: المجادلة والمحابة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: 18] معرب مظهر؛ لما يدعيه لنقصان عقله وركاكة رأيه وفهمه، وهن البنات الناقصات عقلاً ودينًا وخلقة، وبالجمله: أثبتوا لله ما ينزهون أنفسهم عنه، ويتغممون عند حصوله لهم.

﴿و﴾ من نهاية جهلهم وركاكة رأيهم ﴿جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ المستغرقون الوالهون بمطالعة وجهه الكريم، المستغفرون لعموم عباد الله من سعة رحمته وجوده ﴿إِنَّا﴾ ناقصات العقل والدين، منحطات عن زمرة الكاملين مع أنهم - أي: الملائكة - من أعزة عباد الله وأجلهم، متمكنون عند كنف قربه وجواده، مسبحون له في عموم الأوقات والحالات ﴿أَشْهَدُوا﴾ وحضروا أولئك الحمقى ﴿خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلق الله إياهم في بدء الأمر؛ إذ الأنوثة والذكورة من جملة الأمور التي لا اطلاع لأحد عليها إلا بالمشاهدة، أم شهدوا رجماً بالغيب، ظلماً وزوراً ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في النشأة الأولى ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على خُلص عباد الله، وافترائهم على الله الصمد المنزه من الاستيلاء ﴿و﴾ بالجمله: ﴿يُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19] يوم القيامة عن جميع ما أتوا من المعاصي، سيما عن هذه الشهادة والافتراء، ثم يجازون بمقتضاها.

﴿و﴾ بعدما سَفَّه المسلمون أهل الشرك وعيروهم باتخاذ الملائكة والأوثان والأصنام، وجميع المعبودات الباطلة آلهة من دون الله، شركاء له في الألوهية، مع كونهم منحطين عن رتبة الألوهية والربوبية مطلقًا ﴿قَالُوا﴾ مستدلين على أخذهم

واتخاذهم: ﴿لَوْ شَاءَ﴾ وأراد ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عدم أخذنا وعبادتنا إياهم ﴿مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ البته، لكن أراد سبحانه عبادتنا فعبدناهم؛ إذ لا يبدل قوله سبحانه ولا يغير حكمه ومشيطته، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاءً، وعلى زعم المؤمنين، لا عن اعتقاد ويقين بمشيئة الله وتقديره، وعدم تغيير مراده سبحانه؛ لذلك جعلهم سبحانه بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما صدر عنهم هذا الاستدلال عن علم بمقدماته واعتقاد بنتيجته، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في قولهم هذا واستدلّالهم ﴿إِلَّا يَخْرُضُونَ﴾ [الزخرف: 20] يتمحلون تمحلاً باطلاً، ويتزورون زوراً ظاهراً.

﴿لَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ حِشْكُكُمْ يَهْدَىٰ إِلَيْكُمْ وَجْدُكُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا إِلَيْنَا يَوْمًا يُرْصَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 21-25].

أهم يدعون دليلاً عقلياً سواء على مدعاهم ﴿أَمْ﴾ يدعون دليلاً نقلياً بأن ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن، مشتملاً على اتخاذهم وادعائهم المذكور ١٩ ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: 21] متمسكون به في دعواهم هذه.

﴿بَلْ﴾ ليس لهم لا هذا ولا ذاك سوى أنهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ طريقة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22] إلى ما اهتموا تقليداً لهم واقتفاءً بأثرهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما قال هؤلاء التائهون في تيه التقليد والضلال ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرمل ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ من النذر الأولى ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ ومتنعموها على سبيل البطر والمفاخرة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي: طريقة معهودة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] لا نترك ديدنة آبائنا، بما اخترعتموه من تلقاء أنفسكم أيها المدعون.

﴿قَالَ﴾ - المفسر بقراءة قال على قراءة الجميع غير حفص وابن عامر - يا أكمل الرمل بعدما سمعت منهم ما سمعت كلاماً خالياً عن وصمة المراء والمجادلة، عارياً

عن أمارات التقليد والتخمين: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْ﴾ يعني: أتقلدن، وتتبعون آباءكم أيها المقلدون المسرفون، ولو جئتم ﴿بِأَهْدَى﴾ أي: بدين أهدى، وأنفع لكم في أولاكم وأخراكم ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: من أديان آبائكم وتقليداتهم، فتركوا الهداية وتتبعون الضلال.

وبعد ما سمع من هؤلاء المقلدون والمسرفون ما سمع أسلافهم من النذر الأولى من الهداية والرشاد ﴿قَالُوا﴾ مصرين على ما هم عليه: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: بجميع ما جئتم به أيها المدعون للرسالة ﴿كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 24] منكرون جاحدون، لا نقل من أمثال هذا، ولا نترك دين آبائنا ومتابعتهم بمجرد ما ابتدعتموه وراء، ونسبتموه إلى الله افتراء.

وبعد ما أصروا على ضلالهم، وتقليداتهم الموروثة له من آباءهم، لم ينفعهم إرشاد الرسل وإهداؤهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذناهم صاغرين ﴿فَانْظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: 25] المصرين على التكذيب والعناد مع رسل الله، وذوي الخطر من خلص عباده.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَُرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا بِنُزُلِ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْنَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ أَهَرِيقْسُمُوهَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا يَتْلُوهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف: 26-32].

﴿و﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الخليل صلوات الله عليه وسلامه ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ المغمورين في التقليدات الموروثة لهم من أسلافهم، بعدما انكشف بحقية الحق ووحدته، وبطلان الآلهة الباطلة التي أثبتوها شركاء الله ظلماً وزوراً ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26] أي: أنا بريء من معبوداتكم التي أنتم تعبدونها من دون الله الواحد الأحد، المستحق للعبادة والإطاعة. ﴿إِلَّا الَّذِي﴾ أي: ما أعبد معبوداً سوى الذي ﴿فَطَرَنِي﴾ أي: أظهرني وأوجدني

بمقتضى حوله وقوته، ووفور علمه وحكمته ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وتوفيقه ﴿سَيَهْدِين﴾ [الزخرف: 27] ويشيني على جادة الهداية بأزيد مما هداني إليه من إجراء كلمة التوحيد على لساني.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ سبحانه كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ مستمرة ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ أي: أولاد إبراهيم وذرياته إلى يوم القيامة موروثة لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28] إلى الله بكرامة هذه الكلمة، ويوحدونه حق توحيد؛ لذلك ما خلا زمان من الأزمنة من موحدي هذه الذرية، وممن يدعون منهم إلى الحق وطريق توحيد، وإن كان منهم أيضاً من يشرك بالله كمشركي قريش خذلهم الله.

كما قال سبحانه في شأنهم: ﴿بَلْ مَثَفْتُ هَؤُلَاءِ﴾ المسرفين المعاندين معك يا أكمل الرسل ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ﴾ كذا تمت ﴿آبَاءَهُمْ﴾ كذلك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَحَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: الطريق الموصل إلى التوحيد الذاتي ﴿وَرَسُولٌ﴾ مرشد كامل ﴿مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 29] مظهر موضح لهم بطريق الهداية والرشاد.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿قَالُوا﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم: ﴿هَذَا﴾ الذي جاء به هذا المدعي؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿سِحْرٌ﴾ وشعر اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى ربه افتراء وتغريزاً ﴿وَوَيْلٌ لَّكَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا بِهِ﴾ وبيدته ﴿كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 30] منكرون جاحدون.

﴿وَقَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل، ونهاية إنكارهم بكتابك: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ إن كان نزوله من عند الله حقيقة ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ ذي ثروة وجاه لائق بمرتبة النبوة والرسالة ﴿مِّنَ الْقُرَيْشِينَ﴾ أي: من إحدى القريتين؛ أي: مكة الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]⁽¹⁾ عند الناس بكثرة الأموال والأولاد والأتباع،

(1) يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقاً فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف، واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم، فقالوا: هلا نزل عليه هذا القرآن، فقال بعضهم: هلا نزل على الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف؟ ذكر من قال ذلك: عن ابن عباس، قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ﴾ قال: يعني بالعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وبالقريتين: مكة والطائف، وقال آخرون: بل عني به عتبة بن ربيعة من أهل مكة، وابن

ليكون له اليد والإستلاء على سائر الناس.

إذ منصب النبوة منصب عظيم، يحتاج إلى ثروة ووجاهة ومكنة تامة ورئاسة ظاهرة، ولم يفهموا أن رتبة النبوة والولاية عبارة عن الغنى الذاتي المسقط لعموم الإضافات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وهو لا يكون إلا بالتعري عن ملابس الأكوان ولوازم الإمكان، والتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية.

﴿أَهُمْ﴾ بأخلاقهم السخيفة، وتدابيراتهم الركيكة ﴿يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويضعون رتبة النبوة والرسالة إلى من يقتضيه أوهامهم وخيالاتهم الباطلة ونفوسهم الخبيثة، بل ﴿نَحْنُ﴾ بوفور حكمتنا ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ التي يحتاجون إليها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومع تدبيرنا إياهم مصالح معاشهم، لا يحسنون تدبيرها فيما بينهم؛ ليصلح أمر اتلافهم وتمدنهم فيها، فكيف يخوضون في مصالح العباد وتدابيراتها؟ ومن أين يتأتى لهم التفوه في الأوضاع الألوهية والتدابير الربوبية الناشئة

عبد ياليل، من أهل الطائف، ذكر من قال ذلك: عن مجاهد (عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) قال عتبة بن ربيعة من أهل مكة، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المغيرة، ومن أهل الطائف: ابن مسعود، ذكر من قال ذلك: عن قتادة، في قوله: (رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الرجل: الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقا أنزل علي هذا، أو على ابن مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) والقريتان: مكة والطائف؛ قال: قد قال ذلك مشركو قريش، قال: بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته، وقالوا: هو منا، فكنا نحدث أن الرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة الثقفي أبو مسعود، يقولون: هلا كان أنزل على أحد هذين الرجلين، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب: قال ابن زيد، في قوله: (لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: كان أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفي، كان عظيم أهل الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المغيرة، ومن أهل الطائف: كنانة بن عبد بن عمرو، ذكر من قال ذلك: عن السدي (وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الوليد بن المغيرة القرشي، وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير، عظيم أهل الطائف، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جل ثناؤه، مخبرا عن هؤلاء المشركين (وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) إذ كان جائزا أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، والاختلاف فيه موجود على ما بينت. «تفسير الطبري» (592/21 - 594).

عن كمال العلم والحكمة والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة؟!

﴿و﴾ من غاية قصورهم عن تدبيرات معاشهم ﴿زَفَعْنَا﴾ بمقتضى حكمتنا وتربيتنا إياهم ﴿بَغْضَهُمْ فَوْقَ بَغْضِ دَرَجَتٍ﴾ بأن فضلنا بعضهم على بعض في الرزق الصوري وغيره؛ ليكون لهم الكبرياء والاستيلاء على البعض الآخر ﴿لِيَتَّخِذَ بَغْضَهُمْ بَغْضًا مُّخْرِئًا﴾ أي: يستعمل البعض الأغنياء أجراء من البعض الفقراء، فيأمروهم بما قصدوا من الحوائج؛ ليتم أمر النظام والتمدن والتضام ﴿و﴾ بالجملة: ﴿رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي رتبة النبوة والرسالة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32] من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية؛ لاشتغالها على ضبط الظواهر والبواطن المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿لَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَخَفُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ [الزخرف: 33-36].

ثم أشار سبحانه إلى دناءة زخارف الدنيا وأمتعتها، ورداءة ما فيها من اللذات الوهمية، وما يترتب عنها من الشهوات البهيمية، فقال: ﴿وَلَوْلَا﴾ مخافة ﴿أَنْ يَكُونَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مائلة إلى الكفر، منحرفة عن الإيمان ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: بسطنا على الكافرين من الزخارف الدنيوية إلى حيث يتخذون ﴿لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا﴾ مصنوعة متخذة ﴿مِّنْ فِضَّةٍ وَ﴾ كذا يعملون ﴿مَعَارِجَ﴾ ومراقي منها ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على سطوح بيوتهم ﴿يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: 33] أي: يعلون ويصعدون بتلك المعارج المعمولة بالفضة عليها.

﴿و﴾ كذا يعملون ﴿لَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَخَفُونَ﴾ [الزخرف: 34] ترفعا وتنعمًا.

﴿و﴾ بالجملة: لوسعنا عليهم حطام الدنيا إلى حيث جعلنا لهم ﴿زُخْرَفًا﴾ وزينة من الذهب والفضة يتزينون بها، ويتلذذون بلذاتها الفانية وشهواتها الزائلة الزائفة، المبعلة عن اللذات الباقية الأخروية، لكن لو فعلنا كذلك لمال إليها المسلمون، وتحسروا بما نالوا، فضعف رأيهم في اتباع الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما كل ذلك المذكور من المزخرفات الدنيوية إلا متاع الحياة الدنيا الفانية، لا قرار لها، ولا مدار لما فيها، ولما يترتب عليها من اللذات والشهوات ﴿و﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةُ﴾ الباقية الدائمة لذاتها أزلاً وأبداً ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل حاصلة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 35] الذين يحفظون نفوسهم عن التلطيخ بقاذورات الدنيا، والركون إلى مزخرفاتها الفانية، سوى سد جوعة ولبس خرقه وكن⁽¹⁾ يدفعون بها ضرر الحر والبرد، ولا يميلون إلى ما سواها طلباً لمرضاة الله وهرّباً عن مساخطه.

﴿وَمَنْ يَغْشُ﴾ أي: يعرض وينصرف ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: القرآن المبين له طريق الإيمان والعرفان؛ لفرط انهماك به باللذات والشهوات الفانية الدنيوية ﴿نَقِصَ لَهُ﴾ ونسلط عليه ﴿شَيْطَانًا﴾ يضلّه ويغويه ويوسوس عليه، ويرديه، وبالجملة: ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36] دائماً، يزين عليه المعاصي والقبائح، ويغريه عليها، إلى أن يدخله في نار القطيعة والحرمان.

﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْذُوثُهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسَ الْقَرِينَ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَكْثَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) [الزخرف: 37-42].

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: جنود الشياطين وأتباعهم ﴿لَيَصْذُوثُهُمْ﴾ أي: يذبونهم ويصرفونهم؛ أي: أتباعهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي، الموضوع بالوضع الإلهي، الموصل إلى توحيده ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ من فرط عمههم وسكرتهم ﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 37] لهداية قرنائهم من الشياطين، مع أنهم غاؤون ضالون بإغوائهم وإضلالهم، ولم يعلموا إضلالهم.

(1) الكِنْ بالكسر: وقاء كل شيء وبشرته، كالْكِنَّة والكِنَان - بكسرهما - والينث، ج: أكنان وأكنة. القاموس المحيط (361/3).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الغاشي الأعمى، وعلم ضلاله عثا، وغوايته عن طريقنا ﴿قَالَ﴾ متحسرا متأسفا لقربه المغوي: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبَشِّرْ الْقَرِينَ﴾ [الزخرف: 38] أنت أيها المضل، أضللتني عن الطريق القويم وابتليتني بالعذاب الأليم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ حِينَئِذٍ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ﴾ ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ تمنيكم وأسفكم ﴿إِذْ﴾ قد ﴿ظَلَمْتُمْ﴾ أنفسكم في نشأة التدارك والتلافي، والآن قد انقضت، بل ﴿أَنْتُمْ﴾ وقرناءكم اليوم ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ النازل عليكم ﴿مُشْرِكُونَ﴾ [الزخرف: 39] كما إنكم كنتم مشتركون في الأسباب الجالبة له في النشأة الأولى.

ثم لما كان ﷻ يبالغ في إرشاد عشيرته ويتعب نفسه في إهدائهم، رد الله سبحانه على وجه التعجب والتأديب ردعا له عما كان عليه من المبالغة، فقال مستفهما: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: أنت تتخيل لنفسك أنك تقدر على إسماع من جبل على الصمم في أصل فطرته ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ المجبول على العمى في مبدأ خلقته ﴿وَقَدْ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: 40] وغواية عظيمة جبلة، كيف تسعى لهدايته، وتبالغ في إرشاده وتكميله؛ إذ ليس في وسعك تغيير الخلقة، وإنما عليك الإنذار والتبليغ فقط، وإلى متى تتعب نفسك وتسعى^١.

ثم سجل سبحانه على أخذ المشركين والانتقام عنهم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ﴾ أي: أن توفينك يا أكمل الرسل، ونخرجك عن الدنيا قبل انتقامنا منهم، وأخذنا إياهم ﴿فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَتَّعُونَ﴾ [الزخرف: 41]^(١) ألبته بعد مماتك ووفاتك.

(1) وقوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّعُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الوعيد، فقال بعضهم: عني به أهل الإسلام من أمة نبينا عليه الصلاة والسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا سوار بن عبد الله العنبري، قال: ثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّعُونَ﴾ قال: لقد كانت بعد نبي الله نعمة شديدة، فأكرم الله جل ثناؤه نبيه ﷺ أن يربه في أمته ما كان من النعمة بعده، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّعُونَ﴾ فذهب الله بنبيه ﷺ ولم ير في أمته إلا الذي تفر به عنه، وأبقى الله النعمة بعده، وليس من نبي إلا وقد رأى في أمته العقوبة، أو قال ما لا يشتهي. ذكر لنا أن النبي ﷺ أرى الذي لقيت أمته بعده، فما زال منقبضا ما انبسط ضاحكا حتى لقي الله تبارك وتعالى، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّعُونَ﴾ فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئا.

﴿أَوْ تُرِيَّتْكَ﴾ العذاب الموعود ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ للإعراض عنك، وعن دينك وكتابك، وبالجمله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: 42] قادرون على وجوه الانتقام إياهم حال حياتك أو بعدها.

﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَنَاقِبُ لَكَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) [الزخرف: 43-48].

وبعدما أكد سبحانه إنجاز الوعد الموعود عليهم، وبالح في، أمر حبيبه ﷺ بالتمكن والتثبت على مقتضى الوحي المنزل من عنده، فقال: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من القواعد الشرعية الموضوعة بالوضع الإلهي، واعتمد عليه، ولا تلتفت إليهم، ولا تبالي بإعراضهم ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] موصل إلى توحيد ربك.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ أي: عظة وتذكير ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فعليكم أن تتعظوا به، وبما فيه من الحكم والأحكام، والغبر والرموز والإشارات ﴿وَسَوْفَ

يكرمه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ أرى ما يصيب أمته بعده، فما رئي ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله، وقال آخرون: بل عنى به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد أرى الله نبيه عليه الصلاة والسلام فيهم، ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي، في قوله: ﴿فَإِنَّا نُنْزِلُكَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنتَقِمُونَ﴾ كما انتقمنا من الأمم الماضية ﴿أَوْ تُرِيَّتْكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ فقد أراه الله ذلك وأظهره عليه، وهذا القول الثاني أولى التأويلين في ذلك بالصواب وذلك أن ذلك في سياق خبر الله عن المشركين فلأن يكون ذلك تهديدا لهم أولى من أن يكون وعيدا لمن لم يجر له ذكر. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: فإن نذهب بك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين، فنخرجك من بينهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنتَقِمُونَ﴾ كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة رسلها ﴿أَوْ تُرِيَّتْكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يا محمد من الظفر بهم، وإعلانك عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ أن نظهرك عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك. «تفسير الطبري» (21/ 608. 609).

تُسْأَلُونَ ﴿[الزخرف: 44] عن قيامكم بها وامثالكم بما فيها.

وإن عاند المشركين معك، واستهزاءوا بك وبكتابك، ونسبوا دينك إلى البدعة والاختلاق، ﴿لَا تَخْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127] وينسبونك إليه، ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: أحبار قومهم وعلماء دينهم، رفش أحوالهم عن آثارهم وأخبارهم وكتبهم الباقية بعدهم ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزه في ذاته عن الشركة والتعدد مطلقاً ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] أي: هل حكمنا لهم، وأمرناهم باتخاذ آلهة سوى الحق، يُعبد لهم كعبادة الله، بل ما اتخذوا آلهتهم إلا بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة، وما عبدوا لهم إلا ظلمًا وزورًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أخاك ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغى المستعلي على من في الأرض ﴿وَمَلَّيْهِ﴾ المعاونين له في طغيانه ﴿فَقَالَ﴾ لهم بإذن مني وبمقتضى وحيي: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 46] أرسلني إليكم لأرشدكم إلى طريق توحيدي، وأوضح لكم سبيل المعاد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مؤيِّداً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالخوارق والمعجزات الدالة على صدقه ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: 47] أي: فاجزوا على الضحك والاستهزاء أول رؤيتهم بها بلا تأمل وتدبر فيها.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من الآيات ﴿إِلَّا هِيَ﴾ أي: الآية المرئية في الحال ﴿أَكْبَرُ﴾ وأظهر دلالة على كمال قدرتنا وصدق نبينا ﴿مِنْ أُنْحِثَ﴾ أي: من الآية السابقة عليها، ومع ذلك أنكروا عليها واستهزاءوا ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ العاجل من القحط والطاعون وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 48] رجاء أن يرجعوا عن إنكارهم وإصرارهم عليه.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِرُ الْيَسَّ إِلَىٰ مُلْكِهِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَفْلا بُصِيرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يُمِيتُ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ اسْمُورَةُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَكَّةَ مُقْتَرِنِينَ﴾

﴿٥٦﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴿الزخرف: 49-56﴾.

﴿و﴾ مع ذلك لم يرجعوا بل ﴿قَالُوا﴾ عند نزول البلاء وهجوم العناء مسترجعين نحوه، منهمكين معه: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاجِرُ﴾ الماهر في السحر ﴿اذْعُ لَنَا رَبِّكَ﴾ الذي زعمت ألا منزل للمصيبة سواه، ولا كاشف أيضًا إلا هو ﴿بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بمقتضى ما وعد لك وعهد معك ألا يعذب من آمن بك وصدقك، فإن انكشف الضر عنا بدعائك ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 49] بهدايتك مؤمنون لك، مصدقون بنبوتك ورسالتك، وبجميع ما دعوتنا إليه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ بعد دعاء الأنبياء والرسل وتضرعهم نحونا، راجين منا العفو والتجاوز ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: 50] أي: فاجؤوا على نقض ما عهدوا، مبادرين على الإنكار والعناد بلا تراخ وتأخير.

﴿و﴾ من كمال عتو فرعون ونهاية عناده واستكباره ﴿نَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه يومًا من الأيام حين كان ﴿فِي﴾ مجمع ﴿قَوْمِهِ﴾ مباهايًا بما عنده من الجاه وسعة المملكة؛ حيث ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم؛ ليسمعوا منه ويصفخوا إليه سمع قبول ﴿الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ مع كمال وسعته وكثرة مملكته ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ الثلاثة المنشعبة من النيل؛ هي نهر طولون، ونهر دمياط، ونهر نفيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: تحت تصرفي وملكي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51] أيها المجبولون على البصارة.

﴿أَمْ أَنَا﴾ أي: بل أنا ﴿خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ الساحر المدعي ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ رذيل مهان، لا عزة له ولا مقدار ﴿و﴾ مع رذالته وسفالته ﴿لَا يَكَاذُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52] يظهر ويعرب كلامه للكنة في لسانه.

﴿فَلَوْلَا أَلْقِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ﴾ أي: فلو كان مؤيدًا من عند الله، ومكرمًا لديه كما زعم، هلا ألقى عليه أسورة ﴿مِّنْ ذَّهَبٍ﴾ تدل على عزته وكرامته عنده وسيادته عند الناس؛ إذ العادة حيث أن أهل الرئاسة والسيادة يسورون ويطوقون بأسورة من ذهب ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من عند ربه ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: 53] معه

مجتمعين، يعينونه فيما يعنيه.

وبالجملة: ﴿فَاسْتَخَفْ قَوْمَهُ﴾ وسفهمهم وضعف أحلامهم بامثال هذه الهذيان الباطلة ﴿فَاطَاغَوْهُ﴾ وقبلوا منه جميع ما قال عتوا وعنادا ﴿إِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54] ⁽¹⁾ خارجين عن مقتضى العدالة الإلهية، لذلك انحرفوا عن سواء السبيل واتبعوا ذلك الفاسق الطاغوي.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ وحملونا على القهر والغضب، وحركوا حمية الغيرة الإلهية بامثال هذه الجرائم الفاحشة ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55] في اليم، ومحونا رسومهم عن وجه الأرض.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا﴾ قدوة وأسلافا قديمة ﴿وَوَصَّارُوا﴾ صاروا ﴿مَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: 56] من أخلافهم، يمثلون بهم، وبوقائعهم يتعظون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ لَكُتَّةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَوَعْدٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُرٌّ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: 57-62].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني: لما ضرب بن الزبيري مثلاً بعيسى عليه السلام.

(1) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفاً، فالقوي أيضاً كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومثاته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّنَ له من الشرائع، ويقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى. والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدل على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكانه طلب أن يلقي ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب. ولذا ترى ملوك الزمان وأمراء يتكلفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدهم الناس في جملة المراجيع الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشبهون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والردى، والطيب والخبيث.

حين نزلت آية كريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] حيث قال مجادلاً مع رسول الله ﷺ: إنك تزعم أن النصارى من أهل الكتاب، وأنهم يعبدون عيسى، ويعتقدونه ابن الله، والملائكة أولى بالمعبودية من عيسى، فسكت رسول الله ﷺ.

والقوم لما سمعوا مجادلته، ورأوا سكوت الرسول ﷺ من كلامه فهموا منه إلزام الرسول وإفحامه، فأوجسوا في نفوسهم إعراضاً، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: من كلام ابن الزبعرى ﴿يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: 57] ويعرضون عنك فرحاً بأنك قد ألزمت من كلامه.

﴿و﴾ بعدما أعرضوا واعتقدوا إلزامك من ذلك الطاعى ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿الْهَيْثُنَا﴾ التي كنا نعبد نحن وأسلافنا أيضاً إياهم ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: إن محمداً الذي ادعى الرسالة من عنده، وإنما قالوا ما قالوا له تهكمًا واستهزاءً، كما قال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ مجادلة ومراء ﴿بَلْ هُمْ﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] مجادلون مكابرون في الخصومة، وإجراء الباطل مجرى الحق وترويجه جدلاً ومغالطة.

بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من جملة عبادنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا، وأظهرنا على يده من المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ عجيبةً وشأنًا بديعاً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59] يسري بينهم أمر وجوده بلا أب وظهور الخوارق العجيبة عنه، سيما في حال صباه وإرهاصات أمه كالمثل السائر، كل ذلك من كمال قدرتنا وعلمنا، ومثانة حكمتنا.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيضاً وأنشأنا بدلکم ﴿مَلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مكلفين بالعبادة والعرفان أمثالكم، وإذا انقرضت طائفة منهم ﴿يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: 60]⁽¹⁾ أمثالهم أمثالكم إلى ما شاء الله.

(1) قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم، فأفنينا جميعكم، وجعلنا بدلا منكم في الأرض ملائكة يخلقونكم فيها يعبدونني وذلك نحو قوله تعالى ذكره: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ وكما قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ بِكُمْ مَن يَشَاءُ﴾ ونحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أن منهم من قال: معناه: يخلق بعضهم بعضاً، ذكر من قال ذلك: عن ابن

يعني: لا تتعجبوا من شأن عيسى وظهوره على الوجه الأبدع الأغرب، بل تأملوا وتدبروا في كمال قدرة المبدع وفور حكمته وجوده؛ إذ هو سبحانه قادر على إظهار أمور عجيبة وشئون بديعة، لا تُعد ولا تُحصى، ومن جملتها: ظهور عيسى وما صدر منه من الخوارق، بل كل من وصل بعالم القلب، وحصل دور الكشف والشهود اليقيني الحقي، مترقبًا من المشاهدات العادية والمحسوسات الألفية ظهر له ولاح عنده أن كل ما لمع عليه برق الوجود وتشعشع منه بمقتضى الجود، إنما هو على وجه غريب وشأن عجيب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: شأن الظهورات المنبهة عليها والتطورات المشار بها ﴿لَعَلَّم﴾ دليل لائح وبرهان واضح ﴿لِلسَّاعَةِ﴾ الموعودة المعهودة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ وبقيامها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿اتَّبِعُون﴾ في جميع ما أنزلت لكم في كتبي وعلى السنة رسلي، وأطيعوا أمري وأمرهم ﴿هَذَا﴾ الذي أشرناكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 61] فاسلكوا فيه؛ لعلكم تهتدون على توحيدى وتفوزون بالفوز العظيم.

﴿و﴾ عليكم محافظة الحدود الشرعية والمعالم الدينية حتى ﴿لَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يعرضنكم عنها، ولا يوقعنكم في فتنة عظيمة وبليّة شديدة ﴿وَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 62] ظاهر العداوة شديد الخصومة، يضلّكم عن جادة التوحيد، ويوقعكم في العذاب الشديد، أعاذنا الله وعموم عباده من فتته.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٤) ﴿فَلَا تَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِي ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ (١٥) ﴿هَلْ

عباس، قوله: (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ) يقول: يخلف بعضهم بعضًا، وعن مجاهد، قوله: (لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ) قال: يعمرّون الأرض بدلا منكم، عن قتادة، في قوله: (مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ) قال: يخلف بعضهم بعضًا، مكان بني آدم، عن قتادة (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ) لو شاء الله لجعل في الأرض ملائكة يخلف بعضهم بعضًا، عن السدي (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ) قال: خلفا منكم. «تفسير الطبري» (630/21).

يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزخرف: 63-67].

﴿و﴾ كيف لا يكون عيسى عبداً من عبادنا، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ إلى بني إسرائيل من عندنا مؤيداً ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الباهرة التي ما ظهر مثلها من نبي من الأنبياء ﴿قَالَ﴾ مظهرًا لهم الدعوة إلى طريق الحق وتوحيده: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ من عند ربي ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة ﴿و﴾ إنما جئتكم ﴿لَأُبَيِّنَ﴾ أوضح وأظهر ﴿لَكُمْ﴾ طريق العبودية والعرفان سيما ﴿بَغْضَ الَّذِي﴾ أي: بعض المعالم الدينية التي ﴿تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وفي نزوله في كتب الله، وعدم نزوله فيها ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أولاً حق تقاته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ [الزخرف: 63] فيما جئت لكم من عنده.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد المتفرد بالالوهية والربوبية ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ دبر أمري وأمركم، وبينه في كتابه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ بمقتضى وحيه وإنزاله، واعلموا أن ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 64] موصل إلى توحيده الذي جبلتم لأجله، إن كنتم مؤمنين موقنين.

وبعدما تم أمر الدعوة والتبليغ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ وتفرقوا تفرقاً ناشئاً ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين قومه المبعوث إليهم، بعدما دعاهم إلى طريق الحق وتوحيده، وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعقاب شديد يتوقع ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العبودية المأمورة لهم بالوحي الإلهي ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ [الزخرف: 65] مؤلم في غاية الإيلام.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينظرون و ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة قيامها ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارات ﴿وَهُمْ﴾ من غاية اشتغالهم بالملاهي الدنيوية ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: 66] إتيانها إلا وقت وقوعهم في أهوالها.

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ والأحباء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من شدة الهول والفرع ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ يتذكرون حينئذ ما جرى بينهم من المعاونة والمشاركة في الإعراض عن الله وكتبه ورسله، وعدم الانقياد والإطاعة للدين القويم ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67] ⁽¹⁾ أي:

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ يا عباد لا خوف

الأحباء الذين تحابوا في الله، وتشاركوا في طريق توحيده.

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحِبُّونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْآنَفُسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا
فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: 68-73].

ثم التفت يومئذ سبحانه إلى خلص عباده الذين اتقوا عن محارمه، طلباً
لمرضاته، منادياً لهم على رءوس الأشهاد: ﴿يَا عِبَادِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه
اختصاصاً لهم وتكريماً: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لخوفكم عن مقتضى قهرنا وجلالنا
في النشأة الأولى ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68] اليوم؛ لتصبركم على الشدائد
ومقاساة الأحزان في طريق الإيمان في دار الابتلاء.

وهؤلاء البررة المبشرون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، وامثلوا

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: المتخالون يوم القيامة على معاصي الله في
الدنيا، بعضهم لبعض عدو، يتبرأ بعضهم من بعض، إلا الذين كانوا تخالوا فيها على تقوى الله،
وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك: عن مجاهد، في قوله: ﴿الْأَخِلَاءُ
يُؤْمِنُونَ بِغُضُّهُمْ لِيَغْضُ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فكل خلة على معصية الله في الدنيا متعادون، عن ابن
عباس، قوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فكل خلة هي عداوة إلا خلة
المتقين، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، أن علياً عليه السلام قال:
خيلان مؤمنان، وخيلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب إن فلانا كان يأمرني
بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشر ويخبرني أنني ملائكتك يا رب فلا
تضله بعدي واهله كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خيله المؤمن جمع بينهما فيقول:
ليش أحكما على صاحبه فيقول: يا رب إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني
بالخير، وينهاني عن الشر، ويخبرني أنني ملائكتك، فيقول: نعم الخليل، ونعم الأخ، ونعم
الصاحب؛ قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا رب إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة
رسولك، ويأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملائكتك، فيقول: بش الأخ،
وبش الخليل، وبش الصاحب. «تفسير الطبري» (637/21 - 638).

بمقتضاها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: 69] منقادين مطيعين، مفوضين أمورهم كلها إلى الله، راضين بجميع ما قضى عليهم، وكتب لهم من المنح والمحن. لذلك نودوا حيثنذ من قبل الحق على سبيل البشارة والكرامة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ المعدة لخُلص أوليائنا الذين اتخذونا وكيلاً ﴿أَنْتُمْ﴾ أصالة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نساؤكم المؤمنات المتوكلات الراضيات من الله بما قسم لهن المجتنبات عن محارم الله حال كونكم ﴿تُخْبِرُونَ﴾ [الزخرف: 70] تبهجون وتسرون فيها على وجه يظهر أثر البهجة والبسرة في وجوهكم، ويلوح من سيماكم.

وبعدما تقررُوا في مقام العز والتكريم، وتمكنوا في مكنن التمجيد والتعظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يطوف حولهم خدمة الجنة ﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع: صحيفة، وهي القطعة الكبيرة المتخذة ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع: كوب، وهي الكوز التي لا عرى لها أيضاً متخذة منها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ من اللذات والشهوات المدركة بآلاتها ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: من المحسوسات التي استحسنتها العيون واستلذذن بها، ﴿و﴾ بالجملة: ﴿أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 71] دائمون لا تتحولون منها أبد الأبد.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ تفوزون بها ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72] من الأعمال المصورة بها، المنتجة لها، المأمورة لأجلها. وبالجملة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من المستلذات الروحانية والجسمانية ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: 73] ومنها تتفكهون جزاء بما كنتم تعملون.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ وِلَكِن كَانُوا هُمُ الْفَاطِلِينَ ﴿٧٦﴾ وَكَانُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ تِلْكَ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْرَكُمُ الْحَقَّ كَرِهْتُمْ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ [الزخرف: 74-80].

ثم قال سبحانه على مقتضى سته السنية المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المنهمكين في بحر الجرائم والمعاصي ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 74] على عكس خلود أصحاب الجنة في الجنة.

بَحِيثٌ ﴿لَا يَفْتَرُ﴾ وَلَا يَخْفَفُ ﴿عَنْهُمْ﴾ مَنْ عَذَابُهَا ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أَي: فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: 75] آيسون من الخلاص والنجاة.

﴿و﴾ بِالْجَمْلَةِ: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِإِنزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: 76] المقصودين على الخروج والعدوان على مقتضى الحدود الموضوعة فيهم؛ لحفظهم عن مثال هذا العذاب والنكال.

﴿و﴾ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَقِلَّةِ التَّصَبُّرِ وَفُرْطِ الْفَزَعِ وَالْجَزَعِ ﴿نَادَا﴾ صَاحِحِينَ صَارِخِينَ: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا زَيْكٌ﴾ أَي: سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا بِالْمَقْتِ وَالْهَلَاكِ؛ إِذْ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِالْعَذَابِ وَهَوْلِهِ وَشِدَّتِهِ، ثُمَّ لَمَّا بَثُوا شَكْوَاهُمْ مَرَارًا، وَصَاحُوا فَجَعِينَ فَزَعِينَ تَكَرَّرًا ﴿قَالَ﴾ الْقَائِلُ فِي جَوَابِهِمْ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَادِ وَالْتَأْيِيدِ: هِيَاتِ هِيَاتِ ﴿إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77] لَا نَجَاةَ لَكُمْ عَنْهَا، لَا بِالْمَوْتِ وَلَا بِالْخَلَاصِ وَالتَّخْفِيفِ، بَلْ كُلَّمَا نَضَجْتَ جُلُودَكُمْ بَدَلْنَا لَكُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، وَعَذَبْنَاكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

وَكَيْفَ لَا نَعَذِّبُكُمْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ الْمُسْرِفُونَ ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِالطَّرِيقِ الْحَقِّ الثَّابِتِ الْحَقِيقِ بِالْإِطَاعَةِ وَالْإِتِّبَاعِ فَانصَرَفْتُمْ عَنْهُ، وَأَنْكَرْتُمْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، بَلْ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ﴾ بَعْدَمَا تَفَطَّنُوا ﴿لِلْحَقِّ﴾ وَحَقِيقَتِهِ ﴿كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: 78] لِقَبُولِهِ وَالْإِمْتِثَالِ بِمَقْتَضَاهُ.

وَهُمْ مَعَ كِمَالِ كِرَاهَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَذُبُّهِمْ عَنْهُ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَيْهَا ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أَي: بَلْ حَكَمُوا وَقَطَعُوا ﴿أَمْرًا﴾ حَكْمًا مَبْرَمًا، مَكْرًا وَخَدِيعَةً لَرَدِّ الْحَقِّ وَتَكْذِيبِ أَهْلِهِ ﴿فَإِنَّا﴾ بِمَقْتَضَى قَهْرِنَا وَجَلَالِنَا ﴿مُنِيرُونَ﴾ [الزخرف: 79] حَاكِمُونَ حَكْمًا قَاطِعًا بِإِنزَالِ الْعَذَابِ الْمَخْلُودِ عَلَيْهِمْ جَزَاءَ لِمَكْرِهِمْ وَخَدَاعِهِمْ.

أَيْشَكُونَ وَيَتَرَدَّدُونَ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى انتِقَامِنَا وَأَخْذِهِمْ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ نَعْلَمُ وَنَدْرِكُ ﴿مِزْهَنَهُمُ﴾ الَّذِي يَخْفُونَهُ فِي ضَمَائِرِهِمْ ﴿وَنَنْجُوهُمْ﴾ الَّذِي يَتَنَاجَوْنَ بِهِ فِي هَوَاجِسِ نَفْسِهِمْ ﴿بَلَى﴾ إِنَّا عَالِمُونَ بِجَمِيعِ مَا يَجْرِي فِي أَسْرَارِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، مَطْلَعُونَ بِعُمُومِ مَا صَدَرَ مِنْ اسْتِعْدَادَتِهِمْ وَقَابِلِيَاتِهِمْ ﴿و﴾ مَعَ إِحَاطَةِ عَلَمَاتِهِمْ بِهَمْ وَأَحْوَالِهِمْ ﴿رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ حَفِظْنَا عَنْهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ [الزخرف: 80] (1) جَمِيعِ مَا صَدَرَ

(1) وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ وَإِحَاطَتَهُ بِطَوْنِ الْمَغْيِيَّاتِ وَحَقَاقِ الْمَضْمَرَاتِ بِالْعِلْمِ الْقَدِيمِ، وَمَسَامَحَةٍ

عنهم، نقيره وقطميره، حتى نحاسبهم عليه، ونجازيهم بمقتضاه.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (٨١) مُبَحَّنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ [الزخرف: 81-84].

ثم لما شاع قول اليهود والنصارى بولدية عزيز وعيسى، ومال إليه أولو الأحلام الضعيفة منهم ومن غيرهم، ردَّ الله عليهم على أبلغ وجهٍ وأكدته، بأن أمرَ حبيبه ﷺ بالقول على سبيل الفرض والتقدير: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في هذه الفرية البعيدة عن الحق بمراحل مستحيلة في نفسها: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ أي: إن صح وجاز أن يكون له ولد متصف ببنوته ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81] ^(١)

حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعدما وقع الغيب لله الخاص له. والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفِرَاسة بنور الله، وهو أن يكون متصفاً بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله، قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

(1) قال البيطار: أي للرحمن المتجلي في صورة البشر الذي يتولد منه الأنثى والذكر، ويجوز أن يرجع قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]، لولد الرحمن؛ لأن الرحمن عين صورة الإنسان كما ورد الحديث: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ» ألا ترى قوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]، وروحه عينه، إذ الولد سر أبيه، فآدم سر الرحمن وصره عينه، ففي هذا الولد سر الواحد الأحد، فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنَزِّلَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَنَزَلَ فِي الْأَرْضِ خَمِيعًا﴾ [المائدة: 17]. فأقول: إن القرآن العظيم المنزل على محمد ﷺ نزل من حقيقة الأحدية الجامعة لأسماء التنزيه وأسماء التشبيه،

فهو الجامع لكل شرع في الوجود، وسواء كان أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، والمنزل عليه هذا القرآن هو حقيقة الوجود، فله شرع عام وله شرع خاص، فمن شرعه العام اندرجت كل أمة في شرعه، ومن شرعه الخاص خُصَّ أمته التي بعد ظهور جسمه الطاهر بخصوصيات، فأية تأتي بشرعه العام وآية تأتي بشرعه الخاص، فكان ما يجوز في حق هذا يحرم في حق هذا. ألا ترى أنه أقر أهل الذمة على ما هم عليه وقبِل منهم الجزية، فالتوراة شرعة في حق اليهود وهي مندرجة في القرآن، والإنجيل شرعة في حق النصارى، وهو مندرج في القرآن، وأما نحن معشر الأمة القرآنيين فأتينا من كتاب الله، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. ألا ترى أنه قبل الرهبانية من أهلها، ولم يقبلها منّا، فقبولها لأهلها في القرآن من قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: 27]، فلما أوجبوها على أنفسهم كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فكانت في حقهم قرينة إلى الله، لا في حقنا للحديث الشريف: «لا رهبانية في الإسلام». فهذا مما يدل على أن كل أمة وشرعها اندرجت باطناً في أمة محمد ﷺ وشرعه، فهو ﷺ كما أنه هولي العالم، هو الهولي في باطن الأمر لكل دين إلهي وحكمي من الاستحسانات التي رتبها العقلاء بمقتضى دور الزمان؛ لأنه مظهر اسم الله الديان على الكمال، فالأديان في حق أربابها من باطن التزلزلات المحمدية، ولذا قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي، وليس دون آدم إلا جميع من سواه من ذريته، أي: آدم وغيره من ذريته تحت لوائي، فلو لم يكن آدم وذريته متسبين إليه لما كانوا تحت لوائي، فافهم، فاتسعت الدائرة المحمدية لقبول جميع الدوائر، ومن هذا المعنى بدت تسوية الحرية التي ظهرت في زماننا، وهي السنة السادسة والعشرون بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة المحمدية من تجلي الاسم الرحمن المذكور في هذا الوارد وإنما قلنا من تجلي الاسم الرحمن؛ لأن الاسم الرحمن هو الذي كشف هذه التسوية قال الله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: 3]. ومن النكت البديعة: أننا جمعنا لفظة «عابدين» بإسقاط (أل) التعريفية من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]، ولكن حسبنا النون وحدها بخمسة بطريق الجمل الصغير، وضممنا عددها الموافق في العدد الاسم محمد ﷺ وهو اثنا وتسعون لعدد قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160]، وهو ألف ومائتان وأربع وثلاثون، فبلغ الجميع عدد ستين، التي هي سنة ظهور جمعية الاتحاد، وذلك ألف وثلاثمائة وستة وعشرون، فعلمنا أن هذه الجمعية - الذين هم رجال دولة مولانا السلطان عبد الحميد خان نصره الله - مظهر نصر الله والفتح، مؤيدون بالإمداد المحمدي، فلا غالب لهم؛ لأنهم عابدون لله متناصرون على الحق، ﴿فَدَحَّانَ لَكُمْ مَاءً فِي بَيْتَيْنِ الْتَفَتَا فِيهِ تَفْتِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَفَّارَةٌ يَذَرُوهُمْ وَيَقْبِهِمْ ذَاكَ الْفَنِّ وَالْفَنِّ يُؤْتِدُ بِنُصْرَةٍ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13]. ومما يقوي هذا الاستخراج أننا حسبنا اسم محمد ﷺ بالجمل الصغير، فبلغ عشرين، وحسبنا عدد جمعية بالوقف على الهاء بالجمل الصغير، فبلغ عشرين وحسبنا عدد مناتيك بالجمل الصغير فبلغ عشرين، فهذه الموافقة تقوي نسبة هذه الجمعية إلى محمد ﷺ. واعلم - رحمك الله - أنك إذا وقفت على قوله

لابنه؛ إذ أنا أعلم الناس بلوازم الألوهية وأحفظهم بحقوق الربوبية، إن كان له سبحانه ولد أنا أحق بعبوديته وتعظيمه من جميع بريته.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ أي: تنزه وتعالى شأن من هو مربّي العلويات والسفليات، المنبسط بالإحاطة التامة والاستيلاء الكامل الشامل على عموم عروش المظاهر بالاستقلال والانفراد ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: 82] أولئك الواصفون من نسبة الولد والمولود له، تعالى شأنه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعدما انكشفت يا أكمل الرسل بحقية الحق ووحدته وحمديته: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُوا﴾ في أباطيلهم ويستغرقوا في ضلالهم وغفلاتهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بمقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿حَتَّى يَلَاقُوا﴾ يلحقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: 83] بملاقات ولحوق ما فيه من أنواع العقوبات والنكبات.

﴿وَكَيْفَ يَتَّخِذُونَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَلِذَا وَيَنْسِبُونَ لَهُ شَرِيكًا، مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ﴾ هو الذي في السماء ﴿أَي: عالم الأسماء والصفات﴾ ﴿إِلَهٌ﴾ يُعْبَدُ لَهُ وَيُرْجَعُ إِلَيْهِ مَعَ صِرَافَةِ وحدته الذاتية ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿إِلَهٌ﴾ كذلك بلا تعدد وتغير في ذاته ﴿وَهُوَ بِالْجَمَلَةِ﴾ ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ المقصور على الحكمة المتقنة البالغة لا حاكم سواه ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 84] المقصور على العلم الكامل الشامل، المحيط بجميع ما لاح عليه بروق تجليات الوجود وشروق شمس الذات.

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تعالى: ﴿فَأَنَّا﴾ ، من آية هذا الوارد وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]، يكون الوقف هنا في غاية الحسن، ويكون الولد بمعنى النتيجة، لأنه ﴿نتيجة رحمة الرحمن المتجلية في سائر الأكوان من حضرة أم كتاب السر والإعلان، ومن هنا يعلم قوله تعالى: ﴿حَم﴾ [فصلت: 1] رمز محمد ﷺ الذي هو بذاته، ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2]، فهو منزل من إطلاق البطون العمائي الذي هو قبل خلق الخلق إلى شهادة ظهور نور ذات الله القديم، وقد استخرجت اسم محمد ﷺ من قوله تعالى: ﴿حَم﴾ من منه علم المعمي بطريق الدور والتدلي، وذلك أن الميم من قوله تعالى: ﴿حَم﴾ دورية أولها ميم وآخرها ميم، فحصل ميمان في النطق، ثم تدلّت الميم من عدد الأربعين إلى عدد الأربعة، وهي عدد الدال فحصل من ميم ﴿حَم﴾ ميمان ودال، ضمناً ذلك إلى حاء، ﴿حَم﴾ فظهر اسم محمد ﷺ.

تَرْجِعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَكْرِبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [الزخرف: 85-89].

﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعاضم وتعالى الذات القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المركبات والممتزجات، تدبيراً وتصرفاً على وجه الاستقلال بالإرادة والاختيار ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة قيامها من عنده سبحانه ﴿وَهُوَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 85] في النشأة الأخرى رجوع الأظلال إلى الأضواء والأمواج إلى الماء.

﴿وَهُوَ﴾ بعدما ثبت وحدة الحق واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ ولا ينفع المشركين المفسرين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ عنده من آلهتهم الذين زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ﴾ أن الشفاعة، أي: إلا شفاعة من أقر ﴿بِالْحَقِّ﴾ واعترف بتوحيده ﴿وَهُمْ﴾ مع إقرارهم واعترافهم ﴿بِاعْتَرَفِهِمْ﴾ [الزخرف: 86] وينكشفون بوحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَهُوَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: المشركين عن ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ وأوجدتهم من كتم العدم، وأظهر أشباحهم منه ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الموجد المظهر للكل، إذ لا يمكنهم المكابرة والعناد في أمثال هذه الظواهر ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87] ويصرفون بعدما اعترفوا باستقلاله في الخلق والإيجاد.

وكيف يشركون معه غيره في استحقاق العبادة، والرجوع إليه في الخطوب والمهمات ﴿وَقِيلِهِ﴾ أي: من جملة قوله ومقوله ﴿فِي مَنَاجَاتِهِ﴾ مع ربه في شأن قومه حين آيس عن إيمانهم، بعدما بالغ في إرشادهم وتكميلهم منادياً متضرعاً إلى الله، متعجباً من كمال قسوتهم وانهماكهم في الغي والضلال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ البعداء عن جادة الهداية والرشاد ﴿قَوْمٌ﴾ متناه في الغفلة والإعراض عنك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: 88] بتوحيديك ولا يقبلون دعوتي، ولا يسمعون قولي.

وبعدما تضرع وناجى مع ربه، قيل له من قيل الحق على سبيل الوحي والإلهام ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض عن هدايتهم وإرشادهم، فإنهم مجبولون على الغواية، مطبوعون بالكفر والضلال ﴿وَهُوَ﴾ بعدما آيست منهم يأساً كلياً ﴿قُلْ سَلَامٌ﴾

على سبيل التوديع والمشاركة ﴿فَسَوْفَ يَغْلَبُونَ﴾ [الزخرف: 89]⁽¹⁾ وبال ما تعملون وتدخرون لنفوسكم من الذخائر الجالبة لأنواع العقوبات، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد لتحقيق الحق الحقيقي بالإطاعة والاتباع أن تصفي همك في جميع حالاتك عما سوى الحق، وتخلي قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي نحوه، وتستقيم على صراط التوحيد مستويًا، مائلًا عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، مقتصدًا؛ إذ مرجع جميع الطرق والسبل السوية إلى العدالة الإلهية الفائضة منه سبحانه على استعدادات عموم القوابل والمجالي، حسب قابلياتهم الفطرية التابعة للتجليات الإلهية وشئونه المتفرعة على أسمائه وصفاته الذاتية، وتقتفي في تهذيبك وتصفيتك هذا أثر النبي المجبول على العدالة الإلهية وخلافته ونيابته.

وعليك الإعراض عمَّن أعرض عن الحق وأهله، وانحرف عن سواء السبيل. جعلنا الله وعموم عباده من زمرة أهل الهداية واليقين، وجنبنا من الضلال عن الطريق المستبين.

(1) وشكا محمد ﷺ شكواه إلى ربه. وقرأته عامة قراء الكوفة ﴿وَقِيلَ﴾ بالخفض على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم قيله، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، فتأويل الكلام إذن: وقال محمد ﷺ قيله شاكيًا إلى ربه تبارك وتعالى قومه الذين كذبوه، وما يلقي منهم: يا رب إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك، قوم لا يؤمنون، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَقِيلَ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبّر الله ﷻ قول محمد ﷺ. عن قتادة، قوله: ﴿وَقِيلَ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: هذا قول نبيكم عليه الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربه، عن قتادة ﴿وَقِيلَ يَارَبِّ﴾ قال: هو قول النبي ﷺ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. تفسير الطبري (656/21 - 657).

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الدخان

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق في عموم أوقاتهم وحالاتهم سيما في أوائل أيام الطلب والإرادة المنبعثة من المحبة الغالبة الجالبة للميل والركون إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي أن الحالات الطارئة على أرباب الإرادة في تلك الأوقات متفاوتة قبضاً وبسطاً، تلذذاً وتحزنًا، تلونًا وتمكنًا، وبالجملـة: لا طمأنينة للسالك في تلك الأوقات إلى أن يصفو له الحال، وينزل على سلطان قلبه التمكن والوقار والتـمـرن والقرار.

ثم لما وصل ﷺ إلى ذلك المقام واستولى وغلب على قلبه سلطان المحبة والعشق المفرط الإلهي، وكان ورود تلك الحالة إياه في ليلة القدر أو البراءة على اختلاف الرواية، أنزل سبحانه عليه بعض آيات القرآن الفرقان الفارق بين نشأتي التلوين والتمكين، ليتقرر في مقام الكشف والشهود، ويتمكن في مقعد الصدق والمقام المحمود، وقال منادياً لحبيبه بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم مظاهره بإفاضة الوجود والرزق الأوفى بمقتضى الكرم والوجود ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى مدرة المنتهى والمقام المحمود.

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْمَكِيتُ الْمُبِينُ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَو۞ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ مَائِدَتِكُمُ الْأُولَىٰ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾
[الدخان: 1-9].

﴿حَمْدٌ﴾ [الدخان: 1] يا حافظ حدود الله ومراقب وحيه في عموم أوقاتك وحالاتك.

﴿وَهُ﴾ حق ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: 2] الذي هو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله إليك تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة، هي ليلة القدر أو البراءة، وإنما أنزلناه مشتملاً على الأحكام والمواعظ والعبر والأمثال والقصص والتواريخ والرموز والإشارات المنبهة على المعارف والحقائق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: 3] مخوفين بإنزال ما فيه من الأوامر والنواهي والوعيدات الهائلة على من انصرف عن جادة العدالة الإلهية وانحرف عن الطريق المستبين.

وإنما أنزلناه إليك في ليلتك هذه؛ إذ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يميز ويفصل عندك يا أكمل الرسل بعدما تمكنت في مقر العز والتمكين ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 4] أي: محكم صادر عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، ولهذا صار ما ذكر في كتابك هذا ﴿أَمْراً﴾ محكماً مبرماً نازلاً ﴿مِّنْ عِنْدِنَا﴾ على مقتضى كمال علمنا وقدرتنا ووفور حكمتنا؛ ليكون هداية لك وإرشاداً لعموم عبادنا، المتابعين لك المهتدين بهدايتك ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في عموم الأوقات ﴿مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 5] رسلاً مبشرين ومنذرين، منزلين عليهم كتباً مبينة مصلحة لأحوال عبادنا، بعدما أفسدوا على أنفسهم.

وصار ذلك الإرسال والإنزال ﴿رَحْمَةً﴾ نازلة ﴿مِّنْ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل سنة سنية مستمرة بين عموم عباده حين ظهر الفساد فيهم، وبالجملية: أنه سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده نحوه. بالسنة استعدادتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 6] لحاجاتهم ونياتهم فيها.

وكيف لا يرحمهم ولا يصلح أحوالهم مع أنه هو بذاته ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ على قراءة ابن عامر وغيره من الكوائن المركبة منها، يعني: مربى الكل ومظهره بالاستقلال والانفراد إن ﴿كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان: 7] أي: من أرباب المعرفة واليقين، فاعرفوه كذلك ووقروه.

إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بصرافة وحدته وتنزهه عن وصمة الشراكة مطلقاً هو ﴿يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ أي: يظهر ويوجد ما يظهر، ويعدم ما يعدم، بمد ظله

إليه وقبضه عنه؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الدخان: 8] لا مربى لكم ولهم سواه، لو تأمل عموم العباد في دلائل توحيده سبحانه، ونظروا في آيات ألوهيته وربوبيته، لعرفوا يقينا وحدة ذاته ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: أكثرهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: 9] ويترددون في أودية الظنون والجهالات حسب آرائهم الفاسدة وأهويتهم الباطلة.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ١٠ ﴿يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١١ ﴿زَيْنًا أَكْشَفَ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ١٢ ﴿أَفَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ١٣ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ مَجْزُونٌ﴾ ١٤ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا لِّئَلَّا تُكَذِّبُوا﴾ ١٥ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ١٦ [الدخان: 10-16].

﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا أكمل الرسل وانتظر لهم مترقبا بإلمام البلاء عليهم، بعدما أصروا على كفرهم وشركهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ ^(١) مظلم ﴿مُبِينٌ﴾ يغشى الناس [الدخان: 10-11] يحيط بهم وينزل عليهم، فيتيقنوا أن ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: 11] مؤلم ألم بهم.

(١) (دخنت) النار دخنا ودخونا ودخانا ظهر دخانها وكثر دخانها والوقود أتى بالدخان والغبار سطع (دخنت) النار دخنا دخنت ويقال دخنت الفتنة ظهرت وثارَت والطعام والشراب غلب على طعمه الدخان فأفسده والخلق والعقل والدين فسد فهو دخن والشئ دخنا ودخنة صار لونه كلون الدخان فهو أدخن وهي دخناء (ج) دخن (دخن) الشئ دخنة دخن (أدخن) النار دخنت (دخنت) النار دخنت والوقود دخن وعلى الشئ جعل الدخان يصل إليه ويقال دخن على الشجر أو على الثوب طهره بيخور خاص ليقتل ما به من الآفات، والثوب بخره بالدخنة أو الدخان والتبغ ونحوه أحرقه متعاطيا إياه (أدخن) النار دخنت وفلان تبخر بالدخنة أو الدخان والزرع اشتد حبه فصار لونه كلون الدخان (تدخن) مطاوع دخنه والقدر علاها الدخان وفلان ادخن (الداخنة) منفذ يتخذ على المقلَى والأتون ونحوهما ليخرج منه الدخان (ج) دواخن (الدخان) ما يتصاعد عن النار من دقائق الوقود غير المحترقة والتبغ، ويقال كان بينهم أمر ارتفع له دخان شر مستطير (ج) أدخنة ودواخن ودواخين (الدخان) الدخان (الدخن) نبات عشي من النجيليات حبه صغير أملس كحب السمسم ينبت برى ومزروعا (الدخن) الدخان ويقال بينهما دخن حقد وهدنة على دخن صلح على فساد باطن وفي متن السيف دخن ما يترامى في متنه من سواد لشدة الصفاء (الدخان) الذي غشيه الدخان فسخن واغبر ويقال يوم دخنان حار أغبر كأنما غشيه الدخان يقال ليلة دخانة (الدخان) ضرب من العصافير. «المعجم الوسيط» (١/573).

فَيَتَضَرَّعُونَ حَيْثُ نَحْوِ الْحَقِّ صَارْخِينَ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ﴾ بِفَضْلِكَ وَجُودِكَ ﴿عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا﴾ بَعْدَمَا كَشَفْتَ عَنَّا ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12] مَوْقِنُونَ بِوَحْدَانِيَّتِكَ، مُصَدِّقُونَ بِكِتَابِكَ وَرَسُولِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ قَرِيشًا لَمَّا بِالْغَوَا فِي اسْتِهْزَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَالتَّهْكُمِ مَعَهُ وَمَعَ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، دَعَا عَلَيْهِمْ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِم بِالسَّبْعِ الشَّدَادِ كَسَبِيعِ يُوسُفَ ⁽¹⁾ فَاجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَأَخَذَهُم بِالْقَحْطِ، فَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجَيْفَةَ، وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَيَغْشَاهُمْ حَيْثُ دَخَانٌ عَظِيمٌ، يَسْمَعُ كُلُّ مَنْهُمْ كَلَامَ صَاحِبِهِ وَلَا يَرَاهُ مِنْ ظُلْمَةِ الدَّخَانِ، وَقَالُوا صَارْخِينَ مُتَضَرِّعِينَ: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ⁽²⁾ وَكَانُوا عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ جِئْتَ بِصَلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنْ قَوْمُكَ قَدْ هَلَكُوا مِنَ الْجَهْدِ، فَدَعَا لَهُمْ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَهْدَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَوْفُوا بِعَهْدِهِمُ الَّذِي عَاهَدُوا، وَلِذَلِكَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أَي: مِنْ أَيْنَ يَتَأْتَى مِنْهُمْ التَّذَكُّرُ وَالِاتِّعَازُ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ لِتَكْمِيلِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: 13] ظَاهِرُ الْفَضْلِ وَالْعِظْمَةِ أَكْمَلُ مِنْ كُلِّ الرُّسُلِ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ مَدْبِرِينَ وَأَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِ وَدِينِهِ، مُصْرِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿وَو﴾ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى مَجْرَدِ التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضِ، بَلْ ﴿قَالُوا﴾ فِي شَأْنِهِ كَلَامًا لَا يَلِيقُ بَعُلُو مَكَانِهِ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ: ﴿مُعَلَّمٌ مُجْنُونٌ﴾ [الدخان: 14] يَعْلَمُهُ بَعْضُ الْأَعْجَمِينَ مَعَ أَنَّهُ أَمِي، وَقَالَ الْبَعْضُ الْآخَرُ: أَنَّهُ مُجْنُونٌ مُخْبَطٌ مَخْتَلٌ الْعَقْلُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ، مَعَ أَنَّهُ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَرْشَدَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْخِبَارِ وَالتَّنْبِيهِ لِحَبِيبِهِ ﷺ بَعْدَمَا دَعَا لَهُمْ بِالْكَشْفِ: ﴿إِنَّا﴾ مِنْ مَقَامِ عَظِيمِ جُودِنَا مَعَكَ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابَ﴾ الْمَحِيطَ بِهِمْ بِدَعَائِكَ زَمَانًا ﴿قَلِيلًا﴾ فِي دَارِ الْإِخْتِبَارِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَوْفُوا بِعَهْدِهِمُ الَّذِي عَاهَدُوا مَعَكَ لِعِرَاقَتِهِمْ وَانْهَمَاكِهِمْ فِي الْكُفْرِ، ثُمَّ خَاطَبَهُمْ سُبْحَانَهُ مُخْبِرًا بِمَا سَيُصْدَرُ عَنْهُمْ فَقَالَ:

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (5/16) بنحوه.

(2) ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء. [العرائس].

﴿إِنَّكُمْ﴾ وإن كشفنا العذاب عنكم أيها الضالون المكذبون ﴿عَائِدُونَ﴾ [الدخان: 15] راجعون إلى كفركم وضلالكم غب الكشف والفرج، مبادرون على ما كنتم عليه. اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾ أي: يوم نأخذهم وننتقم عن جرائمهم وآثامهم في يوم القيامة والطامة الكبرى، كيف ينقذون أنفسهم من عذابنا الذي لا مرد له حيثذ ﴿إِنَّا مُتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 16] منهم ألبتة يومئذ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ حِمَارٍ﴾
 اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَلَئِي عَذَابُ بَرِيٍّ
 وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَّ تَوَمُّؤَالِي فَاصْرِلُونَ ﴿٢١﴾ فَدَعَارِيهِمْ أَنْ هَتُّوْا قَوْمَ ثَجَرِمْوْنَ ﴿٢٢﴾ فَأَمْرٌ
 يُعْبَأُ بِهِ لِيَأْخُذَ بِكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَنْزَلُوا الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ يَحْتَفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 17-24].

ثم قال سبحانه تسلياً لحبيبه ﷺ وتسكيناً لقلبه بما أهمه من استهزاء قومه معه واستخفافهم عليه: ﴿و﴾ كما امتحنا قريشاً بإرسالك إليهم مع إنا نعلم منهم أنهم لم يؤمنوا لك ولم يهتدوا بهدایتك، وأوقعناهم في فتنة عظيمة وبلية فظيمة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا وَامْتَحَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال أخيك موسى الكليم إليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل من لدينا ﴿كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17] مكرم بأنواع الكرامات، مرید بالمعجزات، مبلغ لهم على مقتضى الوحي الإلهي ﴿أَنْ أَذُوا﴾ أي: بأن أدوا ﴿إِلَىٰ حِمَارٍ﴾ حق الله، وأرسلوا معي عباده بني إسرائيل ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ من قبل ربي ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: 18] مأمون مصون عن الكذب والافتراء، غير متهم به؛ لدلالة ما عندي من المعجزات على صدق دعوتي ورسالتي.

﴿و﴾ عليكم ﴿أَنْ لَا تَقْلُوا﴾ ولا تكبروا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وعلى قبول وحيه وتصديق رسوله ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: 19] حجة واضحة دالة على صدقي في دعواي ﴿و﴾ مع وضوح الحجة وسطوع البرهان أن تظهروا علي بالعناد والمكابرة اتكالاً على شوكتكم وكثرتكم، فلانا لا نبالي بكم وشوكتكم واستيلائكم، بل ﴿إِنِّي عَذْتُ﴾ التجات ووثقت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ﴾ [الدخان: 20] وتقتلون أو تضربوني بالحجارة أو تشتموني باللسان.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ ولم تقبلوا قولي ودعوتي ﴿فَاغْتَرِلُون﴾ [الدخان: 21] لا علي ولا لي، وبعدما كذبوه وقصدوا قتله ومقتله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ وتضرع نحوه بقوله: ﴿أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْرِفُونَ﴾ [الدخان: 22] منهمكون في الغي والضلال، لا ينفعهم نصحي، ولا يؤثر فيهم قولي ودعوتي.

وبعدما أيس عن إيمانهم، بل خاف عن مكرهم وطغيانهم، قلنا له: إن كان الأمر كذلك ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر معهم ﴿لَيْلًا﴾ وبعدما علموا خروجك ﴿إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [الدخان: 23] أي: يتبعكم فرعون وجنوده ليلحقوكم ويستأصلوكم.

وبعدما وصلتكم غدوة، وهم على أثركم مدركون بكم، فاضرب حيثنذ بعصاك البحر، فانفلق وتفرق من كمال قدرتنا، وادخل أنت ومن معك بلا خوف من الغرق، فاعبروا سالمين ﴿وَوَعِدْكُمْ﴾ بعد عبوركم ﴿أَتُرْكُ الْبَحْرَ زَهَوًا﴾ ذا فجوة وانفلاق ولا تقصد إلى اجتماعه خوفًا من عبورهم، ولا تضرب بالعصا ليجمع ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24] بعد دخولهم ألبته، لا تخف منهم ومن إدراكهم، ففعل موسى عليه السلام كذلك، فعبروا سالمين، وترك البحر على هيئته، فاقتحمه فرعون وجنوده بأجمعهم اغترارًا بعبورهم بافتراق البحر وانفلاقه، فلما دخلوا اتصل البحر فغرقوا بالكلية.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٢٥ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ٢٦ ﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ﴾ ٢٧ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ٢٨ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ٢٩ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِنِيَ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ٣٠ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ حَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٣١ ﴿وَلَقَدْ آخَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٣٢ ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتٍ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ ٣٣ [الدخان: 25-33].

وبعدما هلكوا ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي: كثيرًا تركوا ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ منتزهات. ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 25] جاريات فيها ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة في حواليلها ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: 26] أي: محافل مزينة ومنازل حسنة في خلالها ﴿وَنَعْمَ﴾ أي: أسباب تنعم وترفه من الأمتعة والنسوان ﴿كَانُوا فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَكَهِينَ﴾ [الدخان: 27] متنعمين مترفحين، كذلك فعلنا بهم معهم من كمال قدرتنا، بعدما أردنا إهلاكهم وانتقامهم بسبب تكذيبهم واستكبارهم على رسولنا، وهكذا نفعل مع كل مكذب متكبر، لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿كَذَلِكَ﴾ بعدما تركوا الكل على ما كان وهلكوا ﴿وَأَوْزَنَّاَهَا﴾ أي: تلك الجنات وما يتفرع عليها من المستلذات المتروكات ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: 28] لا قرابة بينهم نسباً وديناً، وهم بنو إسرائيل، وبعدهما هلكوا واستوصلوا.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾⁽¹⁾ أي: لم تكثرثا، ولم تعتدا بهلاكهم واستئصالهم أصلاً، مثل اعتدادهما لهلاك المؤمنين وفقدهم، قال ﷺ: «ما من عبد مؤمن إلا له في السماء باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فإذا مات فقدها وبكى عليه»⁽²⁾.

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: إذ مات المؤمن بكى عليه مصله من الأرض ومصعد عمله من السماء، قال السدي: لما قتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - بكى عليه السماء، وبكاؤها عبارة عن حمرة أطرافها.

﴿وَمِنْ غَايَةِ انْهَمَاكِهِمْ فِي الْغِي وَالضَّلَالِ واستهالهم بالمقت والهلاك﴾ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ [الدخان: 29] مهملين مؤخرين إلى وقت آخر، بل أخذتهم العزة بإثمهم حيث لا يمهلهم ولا يسوف عليهم ساعة.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [الدخان: 30] وهو استعبادهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم استدلاً لا لهم واستهانة عليهم، وإنما نجيناهم كرامة منا إياهم وامتناناً عليهم، وكيف لا يهينهم العذاب النازل عليهم.

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغى المتجبر المتكبر على الأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مَرًّا﴾ عموم ﴿الْمُشْرِفِينَ﴾ [الدخان: 31] في عصره، متبالغاً في العتو والعناد، والغلبة على العباد أقصى غايته، وبالجمله: لقد اخترناهم أي: بني إسرائيل واصطفيناهم من بين سائر

(1) قال البقلي: كيف تبكى السماء والأرض على من يدعي الأناثية في ساحة كبرياء الأزل، والسموات والأرضون في عظمها نصير هناك أقل من خردلة من هبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السموات والأرض؛ إذ ادعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكى على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياة منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكى السموات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماء والأرض تبكى بموت العلماء». قال بعضهم: كيف تبكى السماء على من لم يصعد إليه طاعة؟ وكيف تبكى الأرض على من يعصى الله عليها؟ معناه ما بكى عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

(2) ذكره ابن كثير في تفسيره (253/7).

الأمم المعاصرين معهم على علم متعلق منا أنهم أحقاء بالرياسة والسيادة وأنواع الثروة والجاه على الدالين؛ لكثرة ظهور الأنبياء والرسل فيهم ومنهم وبعد ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32] بعدما اخترناهم .

﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ العظام الدالة على كمال اختصاصهم بمزيد الشرف والكرامة ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ وَاختِبَارٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: 33] ظاهر، نختبر به إخلاصهم ورسوخهم على الإيمان.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنُؤَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿٣٩﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنََّّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾﴾ [الدخان: 34-42].

ثم لما أوضح سبحانه تفضيح حال المجرمين المكذبين لرسول الله قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المصرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل يعني: قريشاً خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الدخان: 34] من غاية إنكارهم بقدرة الله، وبما أخبر به الرسول، ونطق به الكتاب: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الموتة التي تعرض لنا ﴿إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ التي طرأ علينا في دار الدنيا وأزال حياتنا عنا ﴿وَوَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: 35] مبعوثين من قبورنا أحياء، ثم نحشرهم للحساب والجزاء كما زعمتم أيها المفترون الكاذبون.

وإن أردتم تصديقنا إياكم في هذه الدعوى ﴿فَأَنُؤَا بِآبَائِنَا﴾ الذين انقضوا عن الدنيا أحياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: 36] في دعواكم، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاء.

وبعدما أصروا على عنادهم وبالفوا في إنكارهم، رد الله عليهم على أبلغ وجه وأكده بقوله مستفهما على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿أَهُمْ﴾ يعني: قريشاً ﴿خَيْرٌ﴾ مالا وجاهاً، وثروة وسيادة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ اسم لمن ملك الحمير، ككسرى لملوك فارس، وقيصر لملوك الروم، والمراد: أبو كريب سعيد بن منبل، آمن بنينا قبل بعثته، فتنحى

عنه قومه، معللين أنك قد تركت ديننا، فأخذهم الله بجرمهم هذا، وأهلكهم ﴿وَالَّذِينَ
مَضُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة كعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ مع شدة قوتهم ويسطتهم
وكثرة شوكتهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: 37] بالجرائم العظيمة الموجبة للمقت
والهلاك، أمثال جرائمكم أيها المجرمون المسرفون.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا خَلَقْنَا وَأَظْهَرْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَبْتَهِمَانِ﴾ من
المتزجات ﴿لَا عَيْنَ﴾ [الدخان: 38]⁽¹⁾ عابثين بلا طائل ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وأظهرناهما
على هذا النمط البديع والنظام العجيب المشتمل على أنواع التغيرات من الكائنات
والفاسدات ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ليستدلوا بها على وحدة ذاتنا، وكمال علمنا وقدرتنا، ومتانة
حكمتنا وحكمنا واستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾
لقصور نظرهم عن إدراك الحكم والأسرار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 39] ولا يشعرون
إلا بالمحسوسات العادية، أولئك القاصرون عن النظر والاستدلال، القانعون بالذات
الهيمية من هذا العجيب كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وأسوأ حالاً منها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ الذي يمتاز فيه المحق عن المبطل
والهادي المهتدي عن الضال المضل ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وموعد جزائهم وقطع خصوماتهم
﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: 40] فيجزى كل منهم حسب ما حوسب، أن خيراً فخير، وإن
شراً فشر.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع ولا يرفع ﴿مَوْلَى عَنْ مَوْلَى﴾ قرابة عن قرابة ﴿شَيْئاً﴾ من
الإغناء والدفع مما كتب له من الجزاء ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان:
41] بعضهم ببعض على سبيل المظاهرة والمعاونة ﴿إِلَّا مَنْ رُجِمَ اللَّهُ﴾ بمقتضى فضله
وجوده، أو قبل شفاعة أحد في حق أحد عناية منه وعفواً ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾
الغالب القادر على عموم مرادته ومقدوراته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 42] المشفق على

(1) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق،
وذلك الحق حق سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقيق بأنوار حقائق
اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛
لتلا يحترقوا بالبدئية في بروز سطوات قدسه وكبريائه، قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض،
وأظهر فيهما بدائع صنعه ويوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه،
ومن نظر وشاهد الصنائع فهو لتحقيقه.

عباده عند إنابتهم ورجوعهم نحوه، يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (١٣) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ (١٤) ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (١٥)
 ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ (١٦) ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (١٧) ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
 الْحَمِيمِ﴾ (١٨) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾
 ﴿٥٠﴾ [الدخان: 43-50].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ [الدخان: 43] المعدة لذوي الغفلة والضلال ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: 44] المنهمك في الجرائم والآثام، وهو أبو جهل ومن مثله في العتو والعناد، وهي في الخرقه والبشاعة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: الذهب الذائب، أو دردي الزيت الأسود، وهو من شدة حرقة وحرارته ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ * كغلي الحميم [الدخان: 45-46] أي: كالماء الحار إذا اشتد غليانه، كيف هو، هو مثله يغلي في بطون أهل النار، قال ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم أبدا»^(١)، فكيف حال من هو طعامه دائماً ولم يكن له غذاء سواه، وبالجمله: هم مبتلون بهذا العذاب إلى حيث قطع أمعائهم.

ومع ذلك العذاب الهائل يقال من قبل الحق للزبانية الموكلين عليهم على الدوام: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: المسرف الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: ادفعوه وسوقوه بشدة العنف والزجر ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 47] أي: وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ مثل ما في جوفه ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 48] ليستغرقوا بالعذاب الهائل استغراقاً تاماً، وقولوا له: عند صبيكم وتعذيبكم على سبيل التهكم والتوبيخ: ﴿ذُقْ﴾ أيها المتجبر الطاغى طعام العذاب الهائل ﴿إِنَّكَ﴾ في نفسك وعلى مقتضى زعمك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾

(1) أخرجه الطيالسي (ص 344، رقم 2643) وأحمد (338/1، رقم 3136) والترمذي (706/4، رقم 2585) وقال: حسن صحيح، والنسائي (313/6، رقم 11070) وابن ماجه (1446/2، رقم 4325) وابن حبان (511/16، رقم 7470)، والحاكم (322/2، رقم 3158) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

المنيع ﴿الكَرِيم﴾ [الدخان: 49] الغالب المقصور على الغلبة والكرم بين أهل الوادي، ثم قولوا لهم بعد تشديد العذاب عليهم تفضيلاً لهم وتفضيحاً: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب والنكال الذي أنتم فيه الآن ﴿مَا كُنتُمْ بِهِ تَعْتَرُونَ﴾ [الدخان: 50] تشكون وتमारون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢) ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٥٣) ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٤) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (٥٥) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمُ الْعَذَابَ الْجَعِيمَ﴾ (٥٦) ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧) ﴿فَأَنَّمَا يُرِيتُهُ لِلسَّائِكِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩) [الدخان: 51-59].

ثم ذكر سبحانه على مقتضى مسته المستمرة مستقر المؤمنين المتقين ومنزلتهم في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محارم الله في عموم أوقاتهم وحالاتهم، بعدما انقراضوا عن نشأة الاختبار والابتلاء ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51] أي: مقر مأمون مصون عن طريان التغير والانتقال، محروس عن وصمة الغفلة والضلال، وبالعجالة: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متزهات من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 52] جاريات من أنواع المعارف والحقائق والكشوفات والشهودات، ومن كمال تلذذهم وترفعهم باللذات الروحانية ﴿يَلْبَسُونَ﴾ من البسة أرياب الكشف والشهود في مراقبي درجات القرب والوصول ﴿مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: مما رق وغلظ من عروض المعارف والحقائق إلى أن صاروا ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 53] في المحبة، متماثلين في الوجد والحضور.

﴿كَذَلِكَ﴾ ينكشف لهم الأمر بعد انقراضهم عن نشأة الدنيا وعالم

(1) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ وقرأ أهل المدينة والشام بضم ميم «مَقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس أمين آمنوا فيه من الغير. «تفسير ابن عادل» (176/14).

﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَكَ لَكُمْ عَذَابٌ مِّنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿١١﴾ [الجاثية: 7-11].

وبعدما وضع محجة الحق واتضح دلائل توحيده: ﴿وَيُلْ﴾ عظيم وهلاك شديد ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مفتر كذاب ﴿أَيُّم﴾ [الجاثية: 7] منغمس في الإثم والعدوان، مغمور في العناد والطغيان، إلى حيث: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته حين ﴿تُنْثَى عَلَيْهِ﴾ مع كمال وضوحها وسطوعها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم ويديم على ما هو عليه من الكفر والضلال مُسْتَكْبِرًا ﴿بَلَا عِلَّةَ وَسَدَّ سَوَى الْعِنَادِ وَالْاِسْتِكْبَارِ، وَيَصِيرُ مِنْ نَهَايَةِ عَثْوِهِ وَعِنَادِهِ حِينَ يَسْمَعُهَا﴾ كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ اغترارًا بما عنده من الجاه والثروة، وبالجمله: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل على إصراره وعناده ﴿بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: 8] في غاية الإيلام، وهو انحطاطه عن رتبة الخلافة الإنسانية؛ إذ لا عذاب عند العارف أشد من ذلك.

﴿وَر﴾ من نهاية استكباره واغتراره ﴿إِذَا عَلِمَ بَعْدَمَا بَلَغَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على ضبط الظواهر وتهذيب البواطن ﴿شَيْتًا﴾ أي: آية ﴿اتَّخَذَهَا﴾ وأخذها من غاية تكبره وتجبره ﴿هَزُؤًا﴾ محل استهزاء وسخرية يستهزأ بها ويتهم عليها ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الأفاكون الضالون، المنحرفون عن منهج الحق وصراطه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: 9] في الدنيا بإعلاء كلمة الحق وإظهار دين الإسلام على الأديان كلها.

ومع تلك الإهانة العاجلة ﴿مِنْ ذُرَائِهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَر﴾ بالجمله: ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنَّهُمْ﴾ يومئذ ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد والثروة والجاه ﴿شَيْتًا﴾ من الدفع والإغناء من غضب الله عليهم ﴿وَر﴾ كذا ﴿لَا﴾ ينفعهم ﴿مَّا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالالوهية، المتفرد بالربوبية ﴿أُولِيَاءَ﴾ من الأصنام والأوثان، يدعون ولايتهم كولاية الله، ويعبدونهم كعبادته عدوانًا وظلمًا، بل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: 10] لا عذاب أعظم منه.

وبالجمله: ﴿هَذَا﴾ الذي ذكر في كتابك يا أكمل الرسل ﴿هُدًى﴾ يبين طريق الهداية والرشاد لأهل العناية والتوفيق ﴿وَر﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة في كتابك هذا، والتي نزلت في الكتب السالفة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نازل ناشئ ﴿مِنْ

الحجبات ﴿و﴾ مع ذلك القرب والوصول والوجد والحضور ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: 54] مصورة من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية والخصائل السنية التي تأدبوا بها عند ربهم في النشأة الأولى.

﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يطالب بعضهم بعضًا حين تمكنهم واستقرارهم ﴿فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ملذة لأزواجهم واستعداداتهم من الفواكه الحاصلة لهم من شجرة اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿آمِنِينَ﴾ [الدخان: 55] من غوائل الشيطان وتسويلاته وتزييناته كما في النشأة الأولى، وبالجمله: هم أحياء عند ربهم بحياته الأزلية الأبدية. باقون دائمون ببقائه سرمدي، بحيث ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أي: طعم مرارة الموت المعطل عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ التي ذاقوها عند افتراقهم عن لوازم نشأة الإمكان وانقطاعهم عن مقتضيات عالم الناسوت ﴿و﴾ بالجمله: بعدما وصلوا إلى فضاء الوجود، وحصلوا في عالم اللاهوت ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبِّهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 56] ⁽¹⁾ أي: عن عذاب بقعة الإمكان ونشأة الناسوت.

وبالجمله: إنما أعطوا ما أعطوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ويمقتضى كرمه وجوده بلا استحقاق منهم واستجلاب بطاعتهم ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بشر الله به عباده المتقين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: 57] والفضل الجسيم، لا فوز أعظم منه وأعلى. ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا﴾ وسهّلناه أي: المذكور في القرآن من المعارف والحقائق والرموز

(1) قال الورتجبي: أفهم يا فهم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن، فأطوار الخليقة إلى الأبد في قلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكنم الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فائين البسهم الله لباس بقاءه؛ فيبقون ببقائه أبد الأبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

رَجَزَ غَضَبَ عَظِيمٍ مِنْ اللَّهِ الْمُقْتَدِرِ عَلَى أَنْوَاعِ الْإِنْتِقَامِ ﴿أَلَيْسَ﴾ [الجاثية: 11] مُؤَلِّمٌ أَشَدَّ الْإِيلَامِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) [الجاثية: 12-15].

وكيف تكفرون أيها الجاحدون المسرفون بآيات المنعم المفضل الكريم مع أنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ وسهل عليكم العبور عنه بأن جعله أملس مستوي السطح، ساكنًا على هيئته ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمقتضى تسخيرهِ وحكمه ﴿وَأَنْتُمْ تَرْكَبُونَ عَلَيْهَا﴾ ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والاصطياد والغوص، وغير ذلك من الأغراض ﴿وَأَنْتُمْ تَرْكَبُونَ﴾ إنما سخر وسهل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: 12] نعمه، وتواظبون على أداء حقوق كرمه.

﴿وَأَنْتُمْ تَرْكَبُونَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وهيا لتربيته وتدريب معاشكم مظاهر ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إذ أنتم زبدة الكائنات، وخلاصة الموجودات كل ذلك لكم متشئة منه سبحانه، مستندة إليه أولاً وبالذات، فعليكم ألا تسندوها إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] في آلاء الله، وسوابغ نعمائه، وكيفية ظهور العالم منه سبحانه وصدوره عنه، وارتباطه له.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نياحة عنها: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكرة للمؤمنين وتهديًا لأخلاقهم: اغفروا واصفحوا واعفوا سيما المسيئين؛ ليكون العفو والغفران ديدنة راسخة في نفوسكم حتى ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: انعكاس الدول وتقلبها عليهم، اغترارًا بما عندهم من الثروة والجاه، وإنما أمر سبحانه المؤمنين بالصفح والعفو عن المسيء ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه جزاء حسنًا ﴿قَوْمًا﴾ من المتخلفين بالعفو عند المقدرة، وكظم

والإشارات التي خلت عنها سائر الكتب ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وبناء على لغتك ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: الأعراب ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: 58] أي: يفهمونه ويتعظون بما فيه، كي يتفطنوا إلى كنوز رموزه وبعد ما لم يؤمنوا بك ولم يقصدوا كتابك، فكيف التذكر والاتعاظ بما فيه، وبالجمل: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وانتظر يا أكمل الرسل ما ينزل عليهم من العذاب ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: 59] منتظرون أيضًا بما ينزل عليك من القهر والغضب على زعمهم الفاسد.

جعلنا الله من المتذكرين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم بيمينه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لنفحات الحق ونسمات لطفه الموهبة من عالم قدسه في عموم أحوالك: أن تلازم بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته المنافية لآداب العبودية، وتداوم على التخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، والاشتغال بالطاعات المقربة نحوه، والإعراض عن الملامهي الملهية عن التوجه إليه؛ لتكون من جملة المتقين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم والفضل الكريم.

الغيظ عند الغضب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: 14] ⁽¹⁾ من الإحسان بدل الإساءة؛ لأن ﴿مَنْ عَمِلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: يعود نفعه إليه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وبالإساءة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15] جميعاً، يحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم بمقتضاها، لكن ما أخذ الله سبحانه عباده إلا بعد أن يرسل عليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وينزل عليهم كتباً مبينةً طريق الهداية والرشاد، فإن اعتدوا فقد فازوا بصلاح الدارين وإن اعتدوا فقد ضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا بالعذاب الأليم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ١٦﴾ ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ١٧﴾ ﴿يُنَبِّئُكَ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٩﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٠﴾ ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢١﴾ [الجاثية: 16-20].

كما أخبر سبحانه حكاية عن ضلال بني إسرائيل وانحرافهم عن سواء السبيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المبينة لهم طريق الهداية والرشاد ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: الحكمة المنبثة عن العدالة الإلهية في قطع الخصومات ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ أكثر الأنبياء بعث منهم وإليهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي:

(1) قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك، أن رجلاً من الكفار من قريش، شتم عمر بمكة، فهم عمر بأن يبطش به، فأمره الله بأن يتجاوز عنه. فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: عمر ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ يعني: يتجاوزوا، ولا يعاقبوا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني: لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عاداً وثموداً، والقرون التي أهلكت قبلهم، يعني: لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية، قال قتادة: ثم نسختها آية القتال ﴿إِنْ جِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36] ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يجزيهم بأعمالهم في الآخرة. قال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني: لا يتألون نعم الله، قرأ حمزة والكسائي، وابن عامر لِنَجْزِي بالنون على الإضافة إلى نفسه، والباقون لِنَجْزِي بالياء، أي: ليجزى الله. «بجر العلوم» للسمرقندي (130/4).

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الجاثية⁽¹⁾

لا يخفى على أرباب العزة المتحققين بمقتضيات الفطرة الأصلية التي فطروا عليها من المعرفة واليقين أن المظاهر العلوية والسفلية من الآفاق والأنفس والغيب والشهادة إنما ظهرت وبرزت من مكنن الغيب وعالم العماء؛ ليستدل الوالهون

(1) جثا جثوا وجثوا كجذا جذوا وجذوا إذا قام على أطراف أصابعه ، وعده أبو عبيدة في البدل وأما ابن فقال ليس أحدا لحرفين بدلا من الآخر بل هما لغتان، واجثاء غيره وهو جاث (ج) جثى بالضم مثل جلس جلوسا وقوم جلوس، والكسر لما بعده من الكسر وبهما قرئ قوله تعالى: ﴿ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ وقال الراغب يصح أن يكون جمعا نحو باك وبكى، وأن يكون مصدرا موصوفا به وفي الحديث: فلان من جثى جهنم؛ أي: ممن يجثو على الركب فيها، وجاثيت ركبتى الى ركبتى، وفي بعض نسخ الصحاح جاثيته، وتجاثوا على الركب في الخصومة مجاثاة وجثاء وهما من المصادر الآتية على غير أفعالها، والجثاء كسحاب الشخص ويضم، نقله الصاغاني وأيضا الجزاء والقدر والزهاء، يقال: جثاء كذا؛ أي زهاؤهم وجثى كسمى جبل بين فذك وخير وضبطه نصر كربي، وقال جبل من جبال أجا مشرف على رمل طيء، وجثوت الأبل، والغنم جثوا، وجثيتها جثيا جمعتها نقله الصاغاني، ومما يستدرك عليه الجاثية في قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ موضوع موضع الجمع كقولك جماعة قائمة وجماعة قاعدة قاله الراغب، وبه سميت سورة الجاثية وهي التي تلى الدخان، وقال ابن شميل يقال للرجل العظيم الجثوة بالضم والجثاء الجماعة ومنه الحديث «يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها» والجثوة القبر ومنه قول طرفة: ترى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيح مصمد، والجمع الجثا ومنه قول عدي يمدح النعمان عالم بالذي يكون نقي الصدر عف على جثاه يحور، أراد ينحر النسك على جثا آبائه؛ أي: على قبورهم، وقبل الجثا صنم كان يذبح له، والجثوة الربوة الصغيرة، وقيل هي الكومة من التراب، وفي حديث عامر: رأيت قبور الشهداء جثا؛ يعني: أثرية مجموعة، والجثا القاعد، وقيل المستوفز على ركبتيه عن مجاهد، وقال أبو معاذ المستوفز الذي رفع إليته ووضع ركبتيه، ويروي فلان من جثا جهنم؛ أي: من جماعات أهل جهنم عن أبي عبيد وفي حديث إتيان المرأة مكعبة روى مجثاة كأنه أزد جثيت فهي مجثاة؛ أي: حملت على أن تجثو على ركبتها، والجث الجاثوم بالليل، والتجاثى في إشالة الحجر مثل التجاذى. «تاج العروم» (1/8322).

الرزق الصوري والمعنوي ﴿و﴾ بالجملة ﴿فَضَّلْنَاهُمْ﴾ بإفاضة النعم الجليلة عليهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 16] من أهل عصرهم.

﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ دلائل مبيّنة منبهات موضحات ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي أنت يا أكمل الرسل تبعث عليه وعلى تبيينه، وبالجملة: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في شأنك أي: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ القطع في كتبهم وعلى السنة رسلهم بأنك وكتابك ودينك يا أكمل الرسل على الحق، وما أنكروا لك إلا ﴿بَغْيًا﴾ وطغيانًا ناشئًا بينهم حسدًا وعدوانًا بلا مستند عقلي أو نقلي، فاصبر يا أكمل الرسل على مضضهم، وغيظهم ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك بكرامته، واجتباك لرسالته ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: 17] يعني: في شأنك ودينك وكتابك، بعدما عرفوا صدقك وحقية كتابك بالدلائل العقلية والنقلية بأنواع المؤاخذه والمجازاة.

﴿ثُمَّ﴾ اعلم يا أكمل الرسل إنا من مقام فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ تابعًا مقتديًا مقتفيا ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ وطريقة منبئة موصحة ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الذي أنت تظهر عليه، وأتيت لتبيينه، ألا وهي الحقيقة التي هي عبارة عن الوحدة الذاتية الإلهية ﴿فَاتَّبِعَهَا﴾ أي: الشريعة الموصلة إلى الحقيقة بالعزيمة الخالصة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18] فكيف ينكشفون بسرائرها وحكمها، ولا تقبل منهم أباطيلهم الناشئة وآراءهم الفاسدة وأحلامهم السخيفة الكاسدة.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنْ﴾ غضب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن تعلقت مشيئته بطردك ومقتك بسبب موالاتهم ومتابعتهم ﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المنحرفين عن جادة العدالة الفطرية ﴿بَغْضِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَغْضٍ﴾ لكمال منسابتهم وموالاتهم؛ إذ الجنسية علة الانضمام وعلامة الالتئام بينهم، فعليك الإعراض والانصراف عنهم وعن موالاتهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما في ضمائر عباده ﴿وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 19] الذين يتقون عن محارم الله، ويوالون أولياء الله وفي الله.

﴿هَذَا﴾ الذي ذكر في كتابك من الأخلاق المرضية، المنبهة على القسط الحقيقي والعدل الإلهي ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ يبصرهم طريق الهداية، ويوصلهم إلى التوحيد الذاتي، إن استقاموا عليها بالعزيمة الصادقة الصحيحة ﴿وَهْدًى﴾ يهديهم إلى سواء السبيل

المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله من صحائف الكائنات على شئون الحق وتطوراتها؛ لذلك نبه سبحانه حبيبه ﷺ على ذلك بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى حكمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم بريته بسعة رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بمزيد عطيته التي هي وصولهم إلى ينبوع وحدته.

﴿حَمِّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَلَخِلَافُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَلَحْيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية: 1-6].

﴿حَمِّ﴾ [الجاثية: 1] يا حاوي الوحي والإلهام ومزيل الشبه الحادثة من الأوهام وذوي الأحلام.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم على الإطلاق ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المحيط لعموم الأنفس والأفاق ﴿الْعَزِيزِ﴾ المنيع مساحة عز حضوره عن أن يحيط به الإدراك ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: 2] المتقن في أفعاله، بحيث لا يكتنه حكمته أصلاً.

اعلموا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿إِنْ فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ﴾ ورفعها وتنظيمها مطبقة ﴿وَرٍ﴾ في خفض ﴿الْأَرْضِ﴾ وبسطها ممهدة ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحة وشواهد لا تحات على كمال قدرة الصانع الحكيم ومثانة حكمته وتديراته ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: 3] الموقنين بوحدة الحق وكمال أسمائه وصفائه، هذا في خلق الأفاق.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: في خلق أنفسكم وإيجادكم من كتم العدم ﴿وَرٍ﴾ كذا في أنفس ﴿مَا يَبُثُّ﴾ يتشر ويتفرق على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ مركبة من العناصر متحركة على وجه الأرض من أنواع الحيوانات والحشرات وأصنافها ﴿آيَاتٍ﴾ دلائل وشواهد واضحة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 4] ⁽¹⁾ وحدة الحق وينكشفون بشؤونه وتجلياته

(1) قال الورتجبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضاً، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق

﴿وَرَحْمَةً﴾ نازلة من قبل الحق ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20] يوقنون للإيمان والإيقان والكشف والعيان.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْمَلَىٰ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ طَرَفٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: 21-24].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الغافلون الضالون المسرفون ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ واكتسبوا طول عمرهم ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ المبعدة لهم عن طريق الحق وسبيل الهداية ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ونصيرهم بعدما رجعوا إلينا ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الحق وتوحيده، أي: مثلهم بلا مزية لهم عليهم، بل ظنوا أنهم وهم ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة بن عامر ونافع وغيرهما: ﴿سَوَاءً﴾ يعني: حياة المشركين ومماتهم عندنا كحياة الموحدين المخلصين ومماتهم؟ كلا وحاشا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21] أي: حكمهم هذا، وما حكموا به لأنفسهم أولئك الجاحدون الجاهلون.

﴿وَ﴾ كيف يحكم الحكيم المتقن في عموم أحكامه وأفعاله بمساواة المطيع والعاصي، مع أنه ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ المستوى بالعدل القويم على عروش عموم المظاهر ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملتبسة بالحق، أي: بالعدالة الصورية المنبثة عن العدالة المعنوية الحقيقية، وإنما خلقها كذلك ﴿بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بعدما أمر الحق بما أمر، ونهى عن ما نهى ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 22] في أجور أعمالهم وجزائهم زيادة ونقصانا.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي إلى ﴿مَنْ اتَّخَذَ﴾ أي: إلى الجاحد الجاهل المعاند الذي اتخذ ﴿إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: ما يهواه، وكيف أطاع من يتمناه وعبد إلى ما يحبه ويرضاه، ولم يفوض أمره إلى مولاه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم

التي لا تعد ولا تحصى.

﴿و﴾ كذا في ﴿اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجهما وازديادهما وانتقاصهما في الفصول الأربعة حسب الأوضاع الفلكية وأشكالها، وارتفاع الشمس وانحطاطها ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المدير لأمر عباده ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتراكمها سحباً وصيرورتها ماء في غاية الصفاء ﴿فَأَخْيَا بِهِ﴾ بإنزال المطر ﴿الْأَرْضَ بَغْدَ مَوْتِهَا﴾ ييسها وجفافها ﴿و﴾ في ﴿تَضْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ السائقة للسحب إلى الأراضي الميتة اليابسة، بعدما تعلق إرادته سبحانه بإحيائها ﴿آيَاتٍ﴾ أنواع من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة القادر العليم الحكيم ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 5] يستعملون عقولهم في كيفية انبعاث هذه الأوضاع والحركات، وارتباط بعضها مع بعض، وترتب الأمور الغير المحصورة عليها، وانشعاب الحوادث الغير المتناهية منها.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المجملة الكلية ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: بعض آياته الدالة على نبذ من كمالاته، وإلا فلا يفي ذك أحد من عباده لتفصيل كمالاتها كلها ﴿تَتْلُوَهَا﴾ ونقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ريب فيه وتردد، وإنما نتلوها عليك لتبين لهم بها طريق توحيدنا، وتنبيههم على وحدة وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿فَبِآيٍ حَدِيثٍ﴾ أي: فهم بأي كلام وقول ﴿بَغْدَ﴾ نزول كتاب ﴿اللَّهُ وَآيَاتِهِ﴾ المنزلة من عنده المبينة لتوحيده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6] يذعنون ويوقنون.

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً مِّنَّا مَلَأْنَا مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا مُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٨ قُلْ إِن رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ لَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا يَاسِرٌ قَلْبِي وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالات وآيات على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدئي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

باسمه المذل المضل مع أنه أظهره سبحانه ﴿عَلَى﴾ صورة ذي ﴿عِلْمٍ﴾ وجبله على فطرة أولى المعرفة والتوحيد ﴿وَوَحَّتُمْ عَلَى سَمْعِهِ﴾ لئلا يسمع كلامه الحق من أهله ﴿وَوَحَّتُمْ﴾ أيضًا ﴿عَلَى قَلْبِهِ﴾ لئلا يتفكر في آيات الله ودلائل توحيده ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ غليظة وغطاء كثيفًا، لئلا يعتبر من عجائب مصنوعات سبحانه وغرائب مخترعاته، مع أنه خلقه سبحانه كذلك ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ ويرشده أي: ينقذه من الضلال ﴿مِنْ بَغْدٍ﴾ إضلال ﴿اللَّهُ﴾ إياه وإذلاله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23] وتتفطنون من تبدل أحواله أيها العقلاء المجبولون على فطرة العبرة والعظة من غاية غوايتهم وضلالهم، عن مقتضى كمال قدرة الله، وعدم تنبهم وتفطنهم بوحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته، واستقلاله في تدبيراته وتصرفاته.

﴿وَقَالُوا﴾ منكرين الحشر والنشر: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحال والحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴿فِيهَا لَا مَنَزَلَ لَنَا سِوَاهَا﴾، ولا سكن لنا غيرها ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿مَا يَهْلِكُنَا﴾ ويميتنا فيها ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: مر الزمان وكر الأعوام، لا فاعل سواه، ولا متصرف إلا هو ﴿وَو﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ الذي صدر عنهم ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ عقلي أو نقلي أو كسفي بل أن ﴿هُمْ﴾ أي: ما هم باعتقادهم هذا ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24] ظنًا على وجه التقليد والتخمين بلا سند لهم يستندون إليه، سوى الألف بالمسحوسات والتقليد بالرسوم والعادات.

﴿وَلَا تَنْظُرْ عَلَيْهِمْ مَابَيْنَنَا بَيِّنَتٍ﴾ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِأَبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُ لَكُمْ الْيَوْمَ الْقِيَمَةَ لَا رَبَّ فِئْدٍ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَ يَمْشُرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ [الجاثية: 25-29].

﴿وَو﴾ من نهاية جهلهم وغفلتهم عن الله وعن مقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال تربيتنا إياهم مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مبینات لهم طريق الهداية والرشاد، منبهات لهم إلى ميعاد المعاد ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ﴾ حين سمعوها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ على سبيل الإنكار والاستبعاد ﴿اقْتُلُوا بِأَبَائِنَا﴾ وأسلافنا الذين مضوا وانقرضوا

أحياء كما كانوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: 25]⁽¹⁾ في دعوى الحشر والنشر والميعاد الجسماني.

وبعد ما أعرضوا عن الحق وانصرفوا عن الآيات البينات، وتشبثوا بأمثال هذه الحجج الواهية: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا يحرك سلسلة حميتهم الفطرية، ومحبتهم الجبلية لو ساعدتهم التوفيق والعناية من عندنا: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لكل، المحيط به، المتصرف فيه على الإطلاق بالاختيار والاستحقاق ﴿يُخَيِّكُم﴾ ويبعثكم في النشأة الأخرى كما أوجدكم وأظهركم من كتم العدم أولاً في النشأة الأولى، ييسط ظله عليكم ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ ويعدمكم بقبضه عنكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي: أنتم ومن انقرض من آبائكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي وقوع ما فيه من الحساب والجزاء والسؤال والصراط والجنة والنار وسائر المعتقدات الأخروية ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 26] وقوعه وقيامه، بل ينكرون عليه لاعتيادهم بالأمور الحسية، وقصورهم عن مدركات الكشف والشهود.

﴿وَكَيْفَ يَنْكُرُونَ جَمْعَ اللَّهِ عِبَادَهُ فِي النُّشْأَةِ الْآخِرَى؛ إِذْ ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد في الألوهية والربوبية ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وملكوتهما، وله التصرف المطابق في ملكه وملكوته بالاستقلال، إرادة واختياراً ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للحشر والجزاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُنْظِلُونَ﴾ [الجاثية: 27] المنكرون حين يشهدون ربح المحققين المؤمنين بقيام الساعة، وبحقية جميع ما فيها من الوعد والوعيد.

﴿وَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي حين تقوم الساعة ويحشر الناس إلى الحشر للحساب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَاثِيَةً﴾ أي: كل فرد من أفراد الأمم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى﴾

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ خُبْرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَابَانَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا تَنَلَّى على هؤلاء المشركين المكذِّبين بالبعث آياتنا، بأن الله باعث خلقه من بعد مماتهم، فجاءهم يوم القيامة عنده للثواب والعقاب (بَيِّنَاتٍ) يعني: واضحات جليات، تنفي الشك عن قلب أهل التصديق بالله في ذلك ما كَانَ خُبْرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَابَانَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يقول جل ثناؤه: لم يكن لهم حجة على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: اتبنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء، وأنشروهم لنا إن كنت صادقاً فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نَصَلِّقَ بحقيقة ما تقول بأن الله باعثنا من بعد مماتنا، ومحينا من بعد فنائنا. «تفسير الطبري» (80/22).

إِلَى كِتَابِهَا ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ إِلَى صَحِيفَةِ أَعْمَالِهَا الَّتِي كُتِبَ فِيهَا جَمِيعُ أَحْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا الْكَائِنَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْهَا فِي النِّشْأَةِ الْأُولَى، فَيُقَالُ لَهُمْ حِينَئِذٍ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ كُلُّ مَنْكُمْ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28] ⁽¹⁾ فِي نِشَاتِكُمُ الْأُولَى، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وبالجملة: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ الَّذِي فَصَّلْنَا فِيهِ أَعْمَالُ كُلِّ مَنْكُمْ ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾ وَيَذْكُرْكُمْ ﴿بِالْحَقِّ﴾ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي صَدَرَ عَنْكُمْ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ﴿إِنَّا﴾ بَعْدَمَا كَلَفْنَاكُمْ عَلَى امْتِثَالِ أَوْامِرِنَا، وَالاجْتِنَابِ عَمَّا نَهَيْناكُمْ عَنْهُ ﴿كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ وَنَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ الْمُوَكَّلِينَ عَلَيْكُمْ، الْمُرَاقِبِينَ لِأَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ أَنْ يَكْتُبُوا جَمِيعَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29] أَي: أَعْمَالَكُمْ حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا، صَغَائِرُهَا وَكِبَائِرُهَا.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مِمَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ [الجاثية: 30-32].

وبعد ما تحاسبون على مقتضى كتبكم وصحائفكم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ⁽²⁾ أَذْعَنُوا وَأَيَقَنُوا بِوَحْدَةِ الْحَقِّ، وَصَدَقُوا رِسْلَهُ وَكُتِبَهُ ﴿وَو﴾ مَعَ كَمَالِ إِيْمَانِهِمْ وَيَقِينِهِمْ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، وَتَأْدِبًا مَعَهُ سَبْحَانَهُ بِمَا يَلِيْقُ بِعِبُودِيَّتِهِ

(1) قال الشيخ ابن عجيبة: فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التوصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكْب، كما هو المعتاد في مقام التفاضل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقرهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (3/ 479).

(2) بين أحوال المطيعين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرًا للإيمان زائدًا عليه. المسألة الثانية: قالت المعتزلة علق الدخول في رحمة الله على كونه آتياً بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عندما عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف. المسألة الثالثة: سمي الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة، فوجب أن لا يكون الثواب واجباً على الله تعالى. «تفسير الرازي» (36/ 14 - 37).

وتعظيم شأنه ﴿فَيَدْخُلُهُمُ الْيَوْمَ رَيْبُهُمْ﴾ الذي يوفقهم على الإيمان والتوحيد في سعة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وفضل وحدته وفضل لطفه ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بشر به عباده المؤمنين المخلصين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: 30] والفضل العظيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأنكروا وحدة ذاته، بل أثبتوا له شركاء ظلماً وزوراً، يقال لهم حيثئذ من قبل الحق مستفهماً على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم يأتكم رسلي، ولم يتلوا عليكم آياتي الدالة على عظمة ذاتي وكمال قدرتي على أنواع الانتقامات والوعيدات، فكذبتم بها وبهم، بل ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على الرسل ومن قبول الآيات ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿كُتِبَ قَوْلًا مُجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: 31] ⁽¹⁾ مستكبرين، عادتكم الإجرام والعدوان.

﴿وَو﴾ من كمال استكباركم واغتراركم بما عندكم من الجاه والثروة ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم إمحاضاً للنصح: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدكم على السنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ مطلقاً، لا بد وأن يقع الموعد منه سبحانه ألبتة بلا خلف في وعده ﴿وَو﴾ لاسيما ﴿السَّاعَةِ﴾ الموعودة آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وفي قيامها، وإذا سمعتم كلمة الحق عن أهله ﴿قُلْتُمْ مَا نَذَرِ﴾ على وجه الاستبعاد والاستغراب ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة وما معنى قيامها والإيمان بها ﴿إِنْ نُنْظَرُ﴾ أي: ما نظن بها وفي شأنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفاً، بل وهماً مرجوحاً سخيلاً، إذ ما لنا علم بها سوى الاستماع من أفواه الناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجاثية: 32] بها حتى نؤمن لها وبقيامها، ونصدق بما فيها من المواعيد والوعيدات.

(1) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُتِبَ قَوْلًا مُجْرِمِينَ﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسماً ثالثاً وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المتزلتين باطل. المسألة الثانية: أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع، خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل. المسألة الثالثة: جواب ﴿وَأَمَّا﴾ محذوف والتقدير: وأما الذين كفروا فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكتبتم قَوْلًا مجرمين فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً في معرض الطعن فيه واللام له؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفاراً ما كانوا عدولاً في أديان أنفسهم، بل كانوا فاسقاً في ذلك الدين، والله أعلم. «تفسير الرازي» (37/14).

﴿وَبَدَّاهُمْ سَبِيلَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ [الجاثية: 33-37].

﴿و﴾ بالجملة: ﴿بَدَّاهُمْ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بعدما تُبلى السرائر، وانكشفت الحجب والأستار ﴿سَبِيلَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾ مصرين عليه، وعرفوا وخامة عاقبته ﴿و﴾ حيثُذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: 33].

﴿وَقِيلَ﴾ لهم حيثُذ من قبل الحق ﴿الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ﴾ نترككم في النار خالدين ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ ونبذتم وراء ظهوركم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ بل أنكرتم لقياءه، وكذبتم الرسل المبلغين لكم أخباره، المنذرين لكم من أهواله ﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أبداً، لا منزل لكم سواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: 34] منقذين لكم منها بعدما استوجبتم بها بمفاسد أعمالكم ومقايح أفعالكم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي وقعتم فيها وابتليتم بها ﴿بِأَنكُمْ﴾ بسبب أنكم ﴿أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الرشاد والهداية ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاء، واستهزأتم بها بلا مبالاة بشأنها، وأنكرتم عليها بلا تأمل وتفكر في برهانها ﴿و﴾ أيضاً بسبب أنكم ﴿غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها وشهواتها، بحيث لا تلتفتون إلى العقبى ولذاتها الأبدية، بل تنكرون عليها عناداً ومكابرة ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار المترتبة على ذلك الاتخاذ والغرور ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: 35] أي: لا يمكنهم أن يعتذروا عند الله، ويتداركوا ما فوتوا على أنفسهم بالتوبة والإنابة؛ إذ قد انقضى أوانه ومضى زمانه.

وبعدما ثبت أن مرجع الكل إلى الله ومحياه ومماته بيده، وله أن يثيب ويعاقب عباده على مقتضى فضله وعدله ﴿فَلِلَّهِ﴾ على وجه الاختصاص لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوجب لجمع الأثنية، والمحامد الصادرة من السنة ذرائر مظاهره، لكونه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات،

ورب ما يتركب منهما من الممتزجات، وبالجملة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 36] أي: مربّي الكل، هو بذاته علوّاً وسفلاً، بسيطاً ومركباً، غيباً وشهادةً.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تدبيراً وتصرفاً، حلاًّ وعقداً؛ إذ ظهور الكل من آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم تدابيرهِ وتقاديره، إرادة واختياراً ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37] المتقن في جميع مقدوراتهِ ومراداتهِ على الوجه الأبلغ الأحكم.

فعلَيْكم أيها المجبولون على فطرة العبودية والعرفان: أن تحمدوه وتكبروا ذاته، وتشكروا نعمه؛ لتؤدّوا شيئاً من حقوق كرمه، إن كنتم مخلصين.

جعلنا الله من زمرة الحامدين المخلصين

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام الرضا والتسليم، المنكشف بعظمة الله وكمال كبريائه وعلو شأنه وبهائه: أن تواظب وتلازم على أداء الشكر له، ملاحظاً نعمه الفائضة المترادفة عليك، المتجددة آناً فاتاً، بحيث تستغرق جميع أوقاتك وحالاتك بشكره سبحانه؛ إذ علامة العارف الواصل ألا يرى في مملكة الوجود سواه سبحانه، ولا يتكلم إلا به ومعه وفيه وله، لا إله إلا هو، ولا نعبد إلا إياه.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأحقاف

لا يخفى على من انكشف بسلطنة الحق واستيلائه التام على عروش عموم مظاهره: أن إثبات الوجود لما سواه وادعاء التحقق والثبوت لغيره من الأطلال الهالكة في شمس ذاته، إنما هو زور ظاهر وقول باطل، بل ما ظهر إلا من انعكاس أشعة أسمائه وآثار أوصافه الذاتية الصادرة منه سبحانه حسب شئونه وتجلياته الحبية؛ ليستدل بها من جبل على فطرة الدراية والشعور على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأوصاه بما أوصى، بعدما تيمن باسمه العلى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزل للكلم مفصلاً عما عليه قضاؤه وإراداته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للعموم عباده يصلح أحوالهم على مقتضى حكمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى منبع رحمته وفضاء وحدته.

﴿حَمِّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَثْنُونِ يَكْتَسِبُ مَنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرٌ مِنْ غَيْرِهِ إِنْ كُنْتُمْ مُكْذِبِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف: 1-5].

﴿حَم﴾ [الأحقاف: 1] يا من حمل أعباء الرسالة بحولنا وقوتنا، ومال إلى جناب قدسنا بالميل الذاتي الحقيقي بعد مساعدة توفيقنا وجذب من جانبنا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الذي أنزل إليك لتأييد أمرك، وضبط شرعك ودينك ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المطلع لما في استعدادات عباده ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على جميع ما دخل في حيلة قدرته وإرادته ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 2] في مطلق تدابير الصادرة منه لضبط مصالح عباده.

ثم التفت سبحانه تهويلاً وتفخيماً لحكمه فقال: ﴿مَا خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا من كتم

العدم ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: آثار الأسماء والصفات الذاتية ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم الاستعدادات القابلة لانعكاس أشعة أنوار الذات الفائضة عليها حسب الشئون والتطورات الجمالية والجلالية ﴿وَمَا يَبْتَهِمَا﴾ من الآثار المتركمة من امتزاج الفواعل السماوية من الآثار الناشئة من قوابل المسميات والهيولي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقًا ملتبسًا بالصدق المطابق للواقع ﴿وَوَقَدْ﴾ قدرنا بقاء ظهورها إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وقت مقدر عندنا، محفوظ في خزانة حضرة علمنا ولوح قضائنا لا نطلع أحدًا عليه، فإذا جاء الأجل المسمى انعدم الكل بلا تقدم وتأخر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا كمال قدرتنا واقتدارنا على إيجاد الأشياء وإعدامها وإبدائها وإعادتها ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من أهوال يوم القيامة المعدة لانعدام الكل وانقهار الأطلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿مُفْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3] لذلك لا يترددون له، ولا يتهيثون أسبابه، ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أفرطوا في الإعراض عن الله وعن توحيده وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا، مستفهمًا على سبيل الإلزام والتبكيث: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وتتخذون آلهة سواه وتعتقدونهم شركاء معه في الأرض ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ أي: أي شيء أوجدوا ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ حتى اتصفوا بالخالقية واستحقوا بالمعبودية والربوبية، وأخبروني هل تنحصر شركتهم مع الله بعالم العناصر والمسيبات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أيضًا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وعالم الأسباب ﴿اتَّخُونِي بِكِتَابٍ﴾ نازل من قبل الحق ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن يؤمر فيه باتخاذ هؤلاء الهلكى آلهة سوى الله، مستحقة بالعبادة ﴿أَوْ أَنَارَةٍ﴾ اتوني ببقية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي أو نقلي، قد بقي لكم من أسلافكم، يدل على إيثارهم واختيارهم آلهة شركاء معه سبحانه في ألوهيته، وبالجمله: اتوني بسند صحيح أن ﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4] في دعوى الشركة مع الله المنزه عن التعدد مطلقًا.

﴿وَوَقَدْ﴾ بالجمله: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ طريقًا وأسوأ سبيلاً وأشد سفها وحماقة ﴿مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ النميع العليم البصير الحكيم القدير الخبير، المستقل في تصرفاته بالإرادة والاختيار ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: أصنامًا لا يسمع دعاءه، ولا يجيب ولا يعلم بحاله، ولا يدبر له أموره، وإن دعاءه وتضرع نحوه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أبدًا ما دامت الدنيا بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: معبوداتهم الباطلة ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ أي: عن دعاء عابديهم

﴿غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5] ذاهلون، لا شعور لهم حتى يفهموا أو يجيبوا.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ⑥ ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بِتِلْكَ آيَاتِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ⑦ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ⑧ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ⑨ [الأحقاف: 6-9].

﴿وَ﴾ هم قد عبدوهم معتقدين نفعهم، ولم يعلموا أنهم ﴿إِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ وجمعوا في الحشر للحساب والجزاء ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: المعبودين للعابدين، بل ﴿وَكَانُوا﴾ أي: المعبودين ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: العابدين لهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 6] منكرين جاحدين.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة غيهم وضلالهم عنا وعن توحيدنا ﴿إِذَا تَنَزَّلْنَا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مبيّنات، لا يأتيها الباطل من بين يديها - ولا من خلفها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح المبين ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم ليهديهم ويبين لهم طريق الحق وتوحيده ﴿هَذَا﴾ المتلو ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7] ظاهر كونه سحرًا باطلاً، وهذا التالي ساحر عظيم، إنما قالوا هكذا ونسبوا إلى ما نسبوا؛ لعجزهم عن إتيان مثله، مع إنهم من أرباب اللسن ووفور دواعيهم بالمعارضة معه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل انصرفوا عن سبته إلى السحر إلى أفحش من ذلك، وهو الافتراء فيقولون: اختلفه هذا المدعي من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه تفريرًا وترويحًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما نسبوا كتابك إلى الفرية كلامًا مفصّحًا لهم عن حقيقة الأمر وحقيقته لو تأملوا فيه: ﴿إِنْ افْتَرَيْنَاهُ﴾ واختلقته من عندي ونسبته إلى الله زورًا وبهتانًا، فيأخذني العزيز بإثم الافتراء البتة، وإن أخذني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ﴾ ولا تدفعون ﴿إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ حين أخذني وانتقم، وبالجملّة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وتخوضون ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلامه بما يليق به وبشأنه سبحانه من نسبته إلى السحر والافتراء وتكذيبه بأنواع وجوه المراء ﴿كَفَىٰ بِهِ﴾ أي: كفى

الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بيننا يجازينا على مقتضى علمه وخبرته بي وبكم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استغفر له ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8] لمن تاب ورجع نحوه نادماً عن ما صدر عنه، يقبل توبته ويمحو زلته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك من الآيات التي تهواها نفوسهم ليلزموك ويعجزوك: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا﴾ رسولاً بديعاً ﴿مِّنْ﴾ بين ﴿الرُّسُلِ﴾ مبتدعاً أمراً غريباً مدعياً الإتيان، بل ﴿وَ﴾ الله ﴿مَا أَذْرِي﴾ وأعلم بحال نفسي ﴿مَا يَفْعَلُ بِي﴾ وكيف يصنع معي ﴿وَلَا بِكُمْ﴾ أي: وكيف بما يصنع بكم، بل أن ﴿اتَّبِعْ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قبل ربي ويطلعني عليه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ [الأحقاف: 9] مبين موضح مظهر لكم بإذنه ما أوحى إلى من وحيه، وما لي إلا التبليغ والإنذار، والتوفيق من الله العليم الحكيم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامْنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا يُسَنِّدُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشِيرُ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾ [الأحقاف: 10-12].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أقر رأيهم على أن القرآن مختلف من عندك، افتريته على الله، أو سحر نسبته إلى الله تغريزاً وترويضاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أن ﴿كَانَ﴾ القرآن ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ بلا مستند لكم في تكذيبه وإنكاره ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿شَهِدَ شَهِدٌ﴾ خبر ماهر ﴿مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ عالم بالتوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: على مثل ما في القرآن، يعني: أقر واعترف عبد الله بن سلام أنه قرأ في التوراة أحكاماً وأوامر مثل في القرآن، ووجد فيها من أوصاف القرآن ما يلجئه إلى الإيمان به ﴿فَقَامْنَ﴾ به وصدق من أنزل إليه، وامثل بما فيه ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (١) أنتم عن

(١) قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ الضمير للقرآن أي: على مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من

الإيمان والقبول، بل كذبتهم به، وأنكرتم عليه أستم قومًا ضالين ظالمين؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ الْمَطْلَعُ عَلَى مَا فِي اسْتِعْدَادَاتِ عِبَادِهِ﴾ ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10] البخارجين عن مقتضى حدوده إلى زلال هدايته وتوحيده.

﴿وَمِنْ شِدَّةِ شِقَاقِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم وفي حقهم ﴿لَوْ كَانُوا﴾ الإيمان وبما أتى به محمد من الدين ﴿خَيْرًا﴾ مما نحن عليه ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بأنواع الكرامة والجاه والثروة إذا هو ومن تبعه كلهم أراذل سقاط رعاة فقراء، فاقدين لوجه الكفاف، ونحن أغبياء ذوو الحظ بين الناس، إنما قالت قريش حين افتخروا على المؤمنين وقصدوا إضلالهم وإذلالهم ﴿وَمَا لَنَا لَا تَبَالُ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ بِهِمْ وَبِعِنَادِهِمْ بِكَ وَبِكِتَابِكَ﴾ ﴿إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ من جهلهم وضلالهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: 11] وأساطير الأولين.

﴿وَمَا عَلَيْكَ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ أَنْ لَا تَلْتَفِتَ إِلَى هُذْيَانَاتِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ؛ إِذْ جَاءَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل كتابك ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ أي: التوراة حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ مقتدى لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة فوائدها على كافة الخواص والعوام ﴿وَهَذَا﴾ الكتاب الذي نزل

التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك . ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَفِي زَكْرٍ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: 196] ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصَّحْفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: 18] ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى: 3] ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله، فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم . قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته ثم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [فصلت: 52] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد وأما الواو في شهد شاهد فقد عطفت جملة قوله: ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾ ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأساءت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم تنفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به أستم أضل الناس وأظلمهم . وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فآمن﴾ مسببًا عن الشهادة على مثله؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك. «الكشاف» (1/ 1193 - 1194).

عليك يا أكمل الرسل ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لجميع ما مضى من الكتب السالفة ﴿لِسَانًا غَرِيْبًا﴾ أسلوبًا ونظمًا، إنما جاء كذلك ﴿لِيُنْذِرَ﴾ التفسير هنا على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما بما فيه من الوعيدات الهائلة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة آرائهم الباطلة المنحرفة عن صراط الحق الحقيقي بالإطاعة والاتباع ﴿وَهُمْ لِيَصِيرَ﴾ بصير ﴿بُشْرَى﴾ بما فيه من أنواع المواعيد الدالة على كرامة الحق وإحسانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12] من خلص عباده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣)
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا
 حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ
 سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
 وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلَدَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) [الأحقاف: 13-15].

إن المحسنين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ بعدما تحققوا بمقام العبودية ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالالوهية والربوبية ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمكنوا من مقر التوحيد وتمرنوا عليه ﴿اسْتَقَامُوا﴾ فيه ورسخوا بمحافظة الآداب الشرعية والعقائد الدينية الموضوعة لتأييد أرباب المعرفة، وتمكينهم على جادة التوحيد؛ لئلا يطرأ عليهم التزلزل والانحراف عن صراط الحق وسواء سبيله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعدما وصلوا إلى مقر التمكين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13] عن التردد والتلون، وبالجمله: ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب العناية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تبديل ولا تحويل، وإنما جوزوا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 14] من الإحسان مع الله بمراعاة الأدب معه سبحانه بملازمة الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتسليم، ومع عمود عباده بحسن المعاشرة والمصاحبة وأداء حقوق المؤاخاة والمواالاة.

ثم أشار سبحانه إلى معظم أخلاق المحسنين المستحقين بخلود الجنة وبالفوز العظيم فيها، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: ومن جملة ما ألزمنا على الإنسان الاتصاف به والمحافظة عليه حتمًا إكرامه ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لهما وحسن الأدب معهما، أداة

لحقوق تربيتهما وحضانتها له، وكيف لا يحسن إليهما؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ لأجله حين حبلت به ﴿كُرْهًا﴾ مشقة عظيمة، وألمًا شديدًا، وحملًا ثقیلاً ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ أيضًا ﴿كُرْهًا﴾ أشد من مشقة الحمل، وأكثر ألمًا منها ﴿وَلَيْسَتْ مَشَقَّتُهَا وَمَقَاسَاتُهَا زَمَانًا قَلِيلًا﴾ بل ﴿حَمَلَتْهُ﴾ أي: مدة حمل أمة إياه في بطنها ﴿وَفَصَالُهُ﴾ أي: مدة فطامه عن لبنها كلاهما ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾⁽¹⁾ وهي مدة طويلة، ثم بعد فطامه أيضًا تلازم حفظه وحضنته ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمل عقله ورشده ﴿وَيَبْلُغَ أَزْعَجَ سَنَةٍ﴾ إذ القوة العاقلة إنما تكاملت دونها، لهذا قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين إلا نادرًا.

﴿قَالَ﴾ بعدما تذكر نعم الحق الفائضة عليه من بدء فطرته إلى أوان رشده وكماله مناجيًا مع ربه مستمداً منه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: أولعني وحرصني بتوفيقك إياي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ طول دهري وأواظب على أداء حقوقها حسب طاقتي وقدر قوتي ﴿وَكَذَا أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَالَّذِي﴾ إذ أداء حقوقهما، وما لزم عليهما من حقوق نعمك عليك واجبة عليَّ ﴿وَكَذَا حَرَصَنِي بِمَقْتَضَى كَرَمِكَ وَجُودِكَ﴾ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا مطلقًا على الوجه الذي ﴿تَرْضَاهُ﴾ عني ﴿وَبِالْجُمْلَةِ: أَضْلِخْ لِي﴾ بمقتضى كرامتك عليَّ عملي، واجعل بفضلك صلاحي ساريًا ﴿فِي دَرْجَتِي﴾ ليكونوا صلحاء مثلي، وارثين مستحقين لكرامتك وعنايتك بهدايتهم

(1) فإن قال لنا قائل: فما معنى قوله -إن كان الأمر على ما وصفت-: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقد ذكرت آنفاً أنه غير جائز أن يكون ما جاوز حد الله تعالى ذكره، نظير ما دون حده في الحكم؟ وقد قلت: إن الحمل والفصال قد يجاوزان ثلاثين شهراً؟ قيل: إن الله تعالى ذكره لم يجعل قوله: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ حداً تعبد عباده بأن لا يجاوزوه، كما جعل قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ حداً لرضاع المولود الثابت الرضاع، وتعبد العباد بحمل والديه عند اختلافهما فيه، وإرادة أحدهما الضرار به، وذلك أن الأمر من الله تعالى ذكره إنما يكون فيما يكون للعباد السبيل إلى طاعته بفعله والمعصية بتركه، فأما ما لم يكن لهم إلى فعله ولا إلى تركه سبيل، فذلك مما لا يجوز الأمر به ولا النهي عنه ولا التعبد به، فإذا كان ذلك كذلك، وكان الحمل مما لا سبيل للنساء إلى تقصير مدته ولا إلى إطالتها، فيضعنه متى شئن، ويتركن وضعه إذا شئن كان معلوماً أن قوله: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ إنما هو خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خلقه من حملته وولده وفصلته في ثلاثين شهراً لا أمر بأن لا يتجاوز في مدة حملته وفصاله ثلاثين شهراً، لما وصفنا. وكذلك قال ربنا تعالى ذكره في كتابه: ﴿وَوَضَعْنَاهُ لِلنَّاسِ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] «تفسير الطبري» (41/5).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْلِبُهُمُ الْأُولَئِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَهُهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف: 16-19].

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المولعون على شكر نعم الله وأداء حقوق الوالدين، وحسن
المعاشرة معهما، والإحسان إليهما، هم ﴿الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ﴾ التفسير جرى على قراءة
ابن عامر ونافع مغيرهما: «يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن ... الآية»، ولكن
سياق «ويتجاوز» سبحانه لا تدل إلا على قراءة المطوعي - بفتح الياء - وهي قراءة
شاذة ولكنها تذكر ضمن القراءات الأربع عشرة «يتقبل عنهم» بقبول حسن ﴿أَحْسَنَ مَا
عَمِلُوا﴾ مخلصين فيه، طالبين رضا الله، مجتنبين عن سخطه ﴿وَتَجَاوَزُ﴾ ويتجاوز
سبحانه ﴿عَنْ مَسِيئَاتِهِمْ﴾ بعدما تابوا، ورجعوا نحوه نادمين، وهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾
ومعهم، آمنون فائزون لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، إنجازا لما وعد لهم الحق
﴿وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16] في النشأة الأولى.

وبعد ما وصى سبحانه بما وصى من رعاية حقوق الوالدين، وما يترتب عليها من الفوز العظيم عقبه بضده، وهو عقوق الوالدين، وما يترتب عليها من العذاب الأليم فقال: ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: والمصرف المتناهي الذي ﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ من فرط سرفه وعصيانه وشدة عقوقه عليهما حين دعواه إلى الإيمان والتوحيد، واجتهدا أن يخلصاه من ظلمة الشرك والتقليد، وعن أهوال يوم القيامة وأفراغها: ﴿أَفِ﴾ أي: أتضجر ﴿لَكُمْ﴾ أتعذاني من العذاب والنكال بعد أن ﴿أُخْرِجَ﴾ من قبري حيًّا ﴿وَوَ﴾ الحال

أَنَّهُ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿الْقُرُونُ﴾ الماضية ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ ولم يخرج أحد منهم من قبره حيًا، فإننا أيضًا لا أخرج أمثالهم، والحال أَنَّهُ هو يصر على هذا ﴿وَهُمَا﴾ من كمال تحتكما وترحمهما ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ ويطلبان الغوث والتوفيق منه سبحانه لأجل إيمانه قائلين له على وجه المبالغة في التخويف: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: ويل وهلاك ينزل عليك أيها المسرف لو لم تؤمن ﴿آمِنٌ﴾ بالله، وبجميع ما جاء من عنده في النشأة الأولى والأخرى أَنَّهُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ بعموم المواعيد والوعيدات الصادرة منه سبحانه على السنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه، سينجزه الله القادر المقتدر على وجوه الانتقام والإنعام ﴿فَيَقُولُ﴾ بعدما سمع منهما ما سمع من شدة إصراره وإنكاره: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي جئتما به على سبيل العظة والتذكير ﴿إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الاحقاف: 17] أي: أباطيلهم الزائفة، لمجرد الترغيب والترهيب.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي: ثبت وتحقق ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والحكم من الله المطلع بما في صدور عباده من الغل والغواية، بأنهم أصحاب النار المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ هالكة مستحقة لعذاب ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: من جنسهما، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الاحقاف: 18] مضيعين على أنفسهم كرامة مرتبة الخلاقة والنيابة الإلهية الموعودة في النشأة الإنسانية.

﴿وَعَلَّمُوا أَن﴾ من المحققين والمبطلين ﴿دَرَجَاتٍ﴾ من الثواب والعقاب متفاوتة شدة وضعفًا، ورفعة ودناءة، متشعبة ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ مترتبة عليه خيرًا كان أو شرًا، حسنات أو سيئات ﴿وَعَلَّمُوا﴾ كل منهم متعلق بعمله، يشاكل عليه ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ويوفى عليهم جزاءهم المترتب عليها درجات أو دركات ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الاحقاف: 19] بالزيادة والنقصان على أجور ما كسبوا.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ طَبِيبٌ لِّكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَعْتُمْ بِهَا فَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ في الأرض بغير الحق وبما كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَاذْكُرْ لَكُمْ إِذْ أَنْذَرَكُمْ رَسُولَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ [الاحقاف: 20-21].

﴿وَعَلَّمُوا﴾ اذكروا لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق

وأعرضوا عنه وعن أهله ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المسعرة المعدة للكافرين المعرضين لهم حيثند على التوبيخ والتشنيع أنتم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ من اللذائذ وتلذذتم بها ﴿فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فيها ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ بدلها ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ المخزي المضل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ على عباد الله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: بدل تعززكم وتعظمكم بها في دار الدنيا وكبركم وخيلائكم على ضعفاء العباد ﴿وَيَمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: 20] وتخرجون عن مقتضى الحدود الإلهية ظلماً وزوراً.

﴿وَإِذْ كُنَّا أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة قصة قوم عاد مع أخيهم هود عليه السلام إذ ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ إمحاضاً للنصح لهم وهم يسكنون ﴿بِالْأَخْقَافِ﴾ أي: الرمال المعوجة الغير المستوية على شاطئ البحر ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ أَنَّهُ﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ النُّذُرُ﴾ والرسل المنذرين ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: قبل هود عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: بعده، كلهم متفقون في المنذر به، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحقيق بالإطاعة والعبادة ولا تشركوا معه شيئاً من مصنوعاته، ولا تتوجهوا ولا تسترجعوا في الخطوب إلا إليه وانصرفوا عن عبادة غيره ﴿إِنِّي﴾ بسبب عبادتكم غير الله واتخاذكم آلهة سواه ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: 21] ⁽¹⁾ ماثل شديد.

﴿قَالُوا لِمَجْنُنًا لِّتَأْفِكَنَا عَنْ مَّالِهِمْ إِنَّمَا تَوَدُّنَا أَن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٢١ قَالَ إِنَّمَا

(1) أخو عاد أي هود عليه السلام إذ أنذر قومه بدل اشتغال منه أي وقت إنذاره إياهم بالأحقاف جمع حقف وهو مل مستطيل مرتفع فيه إنحناء من احقوقف الشئ إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة وقد خلت النذر أي الرسل جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه أي من قبله ومن خلفه أي من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكداً لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله أن لا تعبدوا إلا الله مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذاناً باشتراكهم في العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومه مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الأعلام لا بد في نسبة الخلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتي منزلة الخالي. «تفسير أبي السعود» (8/85).

الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَئِكَفَىٰ أَرَبَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [الاحقاف: 22-25].

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من التوحيد ﴿قَالُوا﴾ له متهمين معه مشنعين عليه ﴿أَجِئْنَا﴾ مدعيًا ملتزمًا ﴿لِتَأْفِكُنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتهم وإطاعتهم، ونؤمن بك وبإلهك، وبالجملة: لا نؤمن بك ولا نصدقك في قولك ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتخوفنا من العذاب على الشرك الآن ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الاحقاف: 22] ⁽¹⁾ في دعواك أنه آت لا محالة.

وبعدما استهزؤوا معه واستعجلوا بالعذاب الموعود ﴿قَالَ﴾ هود: إني أعلم بمقتضى الوحي الإلهي أنه آت، ولا أعلم متى يأتي؛ إذ لم يوح إلى وقت إتيانه بل ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت نزوله ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم الغيوب ﴿وَوَ﴾ إنما ﴿أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وأمرت بتبليغه من عنده؛ إذ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلَئِكَفَىٰ أَرَاكُم﴾ بسبب إعراضكم عن الحق وأهله وإصراركم على الشرك الباطل والضلال الزائل ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الاحقاف: 23] عن كمال عظمة الله وعزته، ومن مقتضيات قوته وقدرته.

وبالجملة: قال هود ^(عليه السلام) ما قال، وهم كانوا على شركهم وإصرارهم كما كانوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يومًا من الأيام ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا ذا عرض على الأفق ﴿مُستَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: متوجهًا لأماكنهم التي كانوا متوطنين فيها، وكانوا حيثئذ، قد حبس عليهم القطر، فلما رأوها حيثئذ ﴿قَالُوا﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ﴾ مبارك توجه نحو بلادنا

(1) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتَأْفِكُنَا﴾ أي تصرفنا عن آلهتنا عبادتهم فأتينا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت من الصادقين في وعدك بنزوله بنا قال إنما العلم أي بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك عند الله وحده لا علم لي بوقت نزوله ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به في وقته المقدر له وأبلغكم ما أرسلت به من مواجب الرسالة التي من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرئ أبلغكم من الإبلاغ ولكني أراكم قوما تجهلون حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب. «تفسير أبي السعود» (85/8).

هو ﴿مُمْطِرُنَا﴾ مطراً عظيماً، وهم استدلوا بسواده إلى كثرة مائه، وبعدهما استبشروا في ما بينهم، قال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ واستبشرتهم باستقباله ﴿رِيحٌ﴾ عاصفة لا راحة فيها بل ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24] لا عذاب أشد منه.

إذ ﴿تَدْمِرُ﴾ وتهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذي حياة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وبمقتضى مشيئته، وبعدهما وصلت الريح دمرتهم تدميراً إلى حيث استاصلهم ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾ أي: سوى دورهم الخربة وأطلالهم المندرسة، وليس هذا مخصوصاً بهم بل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: 25] الخارجين عن رتبة عبوديتنا بارتكاب الجرائم والآثام.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: 26-28].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ مشركي مكة ومجرميهم على وجه التأكيد والمبالغة، فقال سبحانه مقسماً: ﴿وَاللَّهُ يَأْهُلُ مَكَّةَ﴾ ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: عاذاً ﴿فِيمَا﴾ أي: في الأمور التي أن ﴿مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: ما مكناكم وأقدرناكم فيه من كثرة الأموال والأولاد والحصون والقلاع والقصور الرفيعة والمنازل الوسيعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ لسمعوا به آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَأَبْصَارًا﴾ ليشهدوا بها آثار قدرتنا ومتانة حكمتنا الدالة على كمال علمنا ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ وليتكشفوا بها على وحدة ذاتنا ويتفطنوا بها باستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً من الإغناء، أي: ما أفاد لهم هذه الآلات العجيبة الشأن شيئاً من الفائدة التي هي إنقاذهم عن الجهل بالله، وعم الضلال في طريق توحيدهم؛ إذ ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ وينكرون بمقتضى جهلهم المركب في جبلتهم أمثالكم أيها الجاحدون بآيات الله ودلائل توحيدهم، ويستهزئون بها ويمن أنزلت إليه من الرسل ﴿وَاللَّهُ﴾ لذلك ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ وبال ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: 26] عاجلاً،

وسيلحقهم وينزل عليهم وعليكم أيضا أيها المسرفون آجلا بأضعافه وآلافه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ وخربنا ﴿مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ﴾ الهالكة كعاد وشمود؛ لتعتبروا منها، وتتعضوا بما لحق بأهلها من أنواع البليات ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا وكررها مرارا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: 27] إلينا منخلعين عن مقتضى وجوداتهم الباطلة وهوياتهم العاطلة، مع ذلك لم يرجعوا، ولم ينخلعوا.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾ أي: هلا نصرهم ومنعهم عن الهلاك والإهلاك شفاعتهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الفرد الصمد، وقربوا لهم ﴿قُزْبَانًا﴾ لأنهم اتخذوهم ﴿أَلِهَةً﴾ شركاء مع الله في الألوهية والربوبية، لذلك تقربوا إليهم، وتوجهوا نحوهم في عموم الملمات، مع أنه ما ينفعهم لدى الحاجة إليهم وإلى تصرفهم ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغلبوا ﴿عَنْهُمْ﴾. فأنى ينصرهم ويدفع عنهم ما يضرهم ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي اعتقدوا في شأنهم ﴿إِنْ كُنْهُمْ﴾ أي: صرفهم عن الحق وإعراضهم عنه وميلهم إلى الباطل وإصرارهم فيه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: 28] أي: افتراؤهم على الله بإثبات الشريك له، والمشاركة معهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ يَنْقُومَنَا لِحُجُبِ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: 29-32].

﴿و﴾ اذكر لمن عانذك وكذلك إلزاما لهم وتبكيئا وقت ﴿إِذْ صَرَفْنَا﴾ وأملنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييدا لك ولشأنك ﴿نَفَرًا﴾ جماعة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ حال كونهم ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ منك ﴿الْقُرْآنَ﴾ حين تلوته في صلاتك وتهجدك ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن وسمعوه، تعجبوا من حسن نظمه واتساقه، وكمال بلاغته وفصاحته ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾ ولا تخالطوا أصواتكم حتى نسمع على وجهه؛ إذ هو كلام عجيب في أعلى مرتبة البلاغة ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وتم قراءته وفهموا معناه وفحواه ﴿وَلَوْ﴾

ورجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ حال كونهم ﴿مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29] ⁽¹⁾ بما يفهمون منه من الإنذارات والوعيدات القوم الذين بلغوا حد التكليف من إخوانهم ينذرونهم بها عن الضلال والانحراف عن طريق الحق.

إذ: ﴿قَالُوا﴾ أي: النفر المستمعون مبشرين لقومهم: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ عجبنا سماءنا، وعربنا نظاما وأسلوبا ﴿أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: جميع الكتب السالفة السماوية شأنه أنه ﴿يَهْدِي إِلَى﴾ توحيد ﴿إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30] موصل إليه بلا عوج وانحراف، وهذا الكتاب العجيب الشأن، الجلي البرهان، منزل إلى داع من العرب اسمه محمد ﷺ يدعو قاطبة الأنام إلى دين الإسلام بوحى الله العليم العلام.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني: محمدا ﷺ واقبلوا منه دعوته إلى توحيد الحق ودين الإسلام ﴿وَأٰمِنُوا بِهِ﴾ وبكتابه الذي أنزل إليه لتبيين دينه وتأييد أمره ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: من جميعها أن تبتم ورجعتم إليه مخلصين ﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31] ⁽²⁾ هو عذاب النار؛ إذ لا عذاب أشد منها وأقزع.

﴿و﴾ بالجملة ﴿مَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ﴾ ولا يؤمن به سبحانه، ويجمع ما جاء داعيه من عنده، بل كذب الداعي وأنكر دعوته ولم يقبل منه ﴿فَلَيْسَ﴾ هو أي المنكر ﴿بِمُغْفِرٍ لَّهِ فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يهرب عن انتقامه سبحانه، ويفر من غضبه من مكان على مكان، أو يستر عنه سبحانه ويخفى نفسه في أقطار الأرض، بل له الإحاطة

(1) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيئة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيئة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصفاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب، قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت موارد الهيئة.

(2) إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارات من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ قَانَنِيْزٌ﴾ [المدثر: 2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم وروية، فإن أول الدعوة للإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان، ودخل في النعيم الروية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ» حيث أثبت اللذة للنظر؛ لأن الروية من اللذات المعنوية، والنعيم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلا منهم داخلون تحت التكلف والدعوة، فمشاركهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقا.

والاستيلاء بعموم الأمكنة والأنحاء ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ أي: للمنكر المعاند من ﴿ذُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أُولِيَاءُ﴾ يوالونه وينقذونه من غضب الله وعذابه بعدما نزل عليه، وبالجمله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المنكرون المكابرون الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يقبلون منه دعوته عنادًا ومكابرة ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: 32] وغواية ظاهرة، يجازيهم سبحانه بمقتضى ما صدر عنهم من الغي والضلال.

﴿أَوْفِرُوا أَنْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ خَلْقَهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) [الأحقاف: 33-35].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ منكري الحشر والنشر وإعادة الموتى أحياء وتقريعهم، فقال مستفهمًا على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيشكون ويترددون أولئك الشاكون المترددون في قدرة الله على إعادة المعدوم ونشر الأموات أحياء من قبورهم وحشرهم إلى المحشر للحساب والجزاء، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ العليم الحكيم القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات خلقًا إبداعيًا من كتم العدم ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَغَيِّمْ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يفتّر ولم يضعف بإظهارهن ابتداء مع غاية عظمتهم وسعتهن ﴿بِقَادِرٍ﴾ يعني: أليس القادر المقتدر على الإبداع والإبداء بقادر ﴿عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتِ﴾ ويعيدهم أحياء بعدما أماتهم ﴿بَلَى﴾ أنه سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطه علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33] ⁽¹⁾ بلا فتور ولا قصور. ﴿وَهُوَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمنكري

(1) اعلم أنه تعالى قرر من أول سورة إلى ههنا أمر التوحيد والنبوة. ثم ذكر ههنا تقرير القادر من تأمل في ذلك علم أن المقصود من القرآن كله تقرير هذه الأصول الثلاثة. واعلم أن المقصود من هذه الآية الدلالة على كونه تعالى قادرًا على البعث، لأنه تعالى أمام الدليل على خلق السموات والأرض وخلقهم أعظم من إعادة هذا الشخص حيًا بعد أن كان ميتًا، والقادر على الأكمل لا يبدل وإن يكون قادرًا على ما دونه، قوله: ﴿وَلَمْ يَغَيِّمْ بِخَلْقِهِنَّ﴾ العامة على سكون العين

الحشر ﴿يَوْمَ يُغْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث والجزاء ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المعدة لهم، فيقال لهم حينئذ تفضيحاً وتهويلاً وتوبيخاً وتقريراً: ﴿الْيَسَّ هَذَا﴾ العذاب الذي أنتم فيه الآن، وكذبتهم به من قبل في نشأة الاختبار ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا﴾ متأسفين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ هو الحق ﴿وَوَيْلٌ﴾ حق ﴿رَبِّنَا﴾ الذي ربانا على فطرة الإسلام، وأنذرنا عن إتيان هذا العذاب في هذه الأيام، فكفرنا به ظلمًا وزورًا، وأنكرنا عليه عنادًا واستكبارًا، وبعدما اعترفوا وندموا في وقت لا ينفعهم الندم والاعتراف ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل الحق: ﴿فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: 34] إذا لم يفدكم اعترافكم هذا، بعدما انقضى نشأة التدارك والتلافي.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مآل حال الكفرة المصرين على العتو والعناد ﴿فَاضْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على تحمل أعباء الرسالة ومتاعب التبليغ وأذيات أصحاب الزيف والضلال ﴿كَمَا ضَبَرَ﴾ عليها ﴿أَوَّلُوا الْعَزْمَ مِنَ الرُّسُلِ﴾ العازمين عليها وعلى تبليغها بالعزيمة الخالصة والثبات التام؛ ليعينوا للناس طريق التوحيد ويرشدوهم إلى سبيل الاستقامة والرشاد ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: للمعانددين من قريش بحلول العذاب الموعود عليهم، فإنه سينزل عليهم حتمًا عند حلول وقته ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب من نهاية شدته وهوله وغاية طوله، تذكروا أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ واحدة ﴿مِنْ نَّهَارٍ﴾ يعني: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وقاسوا بالنسبة إلى طول يوم القيامة بساعة بل أقصر منها.

وفتح الباء مضارع «عَيَّ» بالكسر يَغِيًا بالفتح فلما دخل الجازم حذف الألف. وقرأ الحسن يَغِي بكسر العين وسكون الياء. قالوا: وأصلها عَيَّ بالكسر فجعل الكسر فتحة، على لغة طَيِّة فصار «عَيَّا»، كما قالوا في يَغِي: بَقَا ولما بنى الماضي على «فَعَلَ» بالفتح جاء مضارعه على يَفْعُل بالكسر فصار يَغِي مثل يَزِي، فلما دخل الجازم حذف الياء الثانية فصار: لَمْ يَغِي بعين ساكنة وياء مكسورة، ثم نقل حركة الياء إلى العين فصار اللفظ كما تَرَى. وقد تقدم أن عَيَّ وخِيَّ فيها لغتان، الْفَكَّ والإدغام. فأما خِيَّ فتقدم في الأنفال وأما عَيَّ فكقوله: عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا خِيَّتْ ... بِيضَتِهَا الْحَقَامَةُ، والعِي عدم الاهتمام إلى جهة. ومنه العَيَّ في الكلام، وعَيَّي بالامر إذا لم يهتد لوجهه، قوله: ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء زائدة وخُسِّنَ زيادتها كَوْنُ الكلام في قوة ﴿الْيَسَّ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش: الباء زائدة للتوكيد، كقوله: ﴿تَبَيَّنَ بِالْهَيْبَةِ﴾ [المؤمنون: 20] وقاس الزجاج «مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا بِقَائِمٍ» عَلَيْهَا، والصحيح التوقف، وقال الكسائي والفراء العرب تدخل الباء في الاستفهام فتقول: مَا أَظُنُّكَ بِقَائِمٍ. «تفسير اللباب» لابن عادل (231/14).

هذا الذي ذكر من المواعظ والتذكيرات في هذه السورة ﴿بَلَاغٌ﴾ كافٍ لأهل الهداية والإرشاد إلى أن اتعظوا بها، ویتذكروا منها، وإن لم يتعظوا بها، هلكوا في تيه الجهل والغواية مثل سائر الهالكين ﴿فَهَلْ يُفْلَكُ﴾ وما يستأصل بالقهر الإلهي ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: 35] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية النازلة من عنده سبحانه على أنبيائه ورسله، المبعوثين إلى الهداية والتكميل.

جعلنا الله ممن تذكر بما في كتابه من المواعظ والتذكير، وامثل بما فيه من الأوامر والنواهي.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم على سلوك طريق التوحيد: أن تقصد نحوه بالعزيمة الخالصة الصافية عن كدر الرياء ورعونات الهوى، وتتصبر على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية بجملتها ومشتبهات القوى البهيمية برمتها، فلك أن تقتدي في سلوكك هذا أثر أولى العزائم من الرسل الكرام والأنبياء العظام والأكمل من الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء؛ لتفوز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا.

سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سور محمد ﷺ

لا يخفى على الفائزين بالدرجة العليا من التوحيد الذاتي، المتحققين بانكشاف كيفية سريان الهوية الذاتية الإلهية في أعيان المظاهر الكونية والكيانية أن أكمل من تحقق بهذا الشهود، وأتم من اتصف بهذا الانكشاف هو الختمية المحمدية التي لا مرتبة أعلى وأجمع من مرتبته ﷺ ولا درجة أرفع من درجته؛ لذلك ما ظهر نبي على إظهار التوحيد الذاتي وتبيينه، وما بعث إلى كافة الأمم وعامة البرايا أحد سواه، ولهذا ختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل، فمن كفر به ﷺ وأنكر عليه، فقد كفر بعموم مراتب الوجود، وضل عن جميع الطرق الموصلة إلى كعبة الذات وقبلة المقصود، ومن آمن له ﷺ فقد اهتدى بما هو المقصد والمرمى، وليس وراءه مرمى ومتهى.

لذلك أخبر سبحانه عن ضلال الكافرين به ﷺ والمنكرين عليه وإحباط أعمالهم بعدما تبين باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على المرتبة الختمية المحمدية بعموم أسمائه الحسنی وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم عبادته بإظهار مرتبته ﷺ؛ لتكون قبلة جميع مراتبهم ومشاربهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته؛ لهدايته وإرشاده ﷺ.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ ۖ﴾ ١ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ ٢ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبُطُلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۖ﴾ ٣ ﴿إِذَا لَفِئَتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فُضْرَبَ الرِّقَابُ حَتَّىٰ إِذَا انْخَضُّوا فَسْطَوْا الْوُكُلَ ۖ فَمَا مَتَّ بَدُّ وَلَمَّا فَلَ حَتَّىٰ نَضَعَ الْحَرْبُ أَوْدَاجَهَا ذَلِكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ۖ وَالَّذِينَ قِيلُوا لِي سَبِيلُ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْيُنُهُمْ ۖ﴾ ٤ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۖ﴾ ٥ ﴿وَنُدْخِلُهُمُ الْمَنَّةَ حَرَفَهَا لَهُمْ ۖ﴾ ٦ ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ تُصْرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۖ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَسْلُ أَعْيُنُهُمْ ۖ﴾ ٨ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كُرِّهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ [محمد: 1 - 11].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وتوحيده، وأنكروا على نبوة حبيبه ﷺ ورسالته عنادًا ومكابرة ﴿و﴾ مع كفرهم وانصرافهم بأنفسهم عن الهداية ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا سائر الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق توحيده الذي هدي إليه ﷺ وبعث لتبيينه، وإرشاد عموم عباد الله نحوه منه حسدًا عليه ﷺ وعلى من تبعه ﴿أَضَلُّ﴾ أحبط وأضاع سبحانه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 1] أي: صوالح أعمالهم التي أتوا بها طمعًا للكرامة والمثوبة من لدنه سبحانه بعدما كفروا به سبحانه وبرسوله ﷺ؛ إذ لا تثمر الأعمال الصالحة إلا بالإيمان والتصديق بالله وبرسوله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبرسوله ﴿و﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿وَوَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ أي: بجميع ما نزل عليه ﴿و﴾ صدقوا أن جميع ما نزل به ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الصدق المطابق للواقع، النازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بلا شك وتردد ﴿كَفَرُوا﴾ وأزال ﴿عَنْهُمْ﴾ سبحانه ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: وبالها وعذابها ﴿وَأَضْلَحَ﴾ اللاحق المستتبع إياها بها ﴿بِأَلَهُمْ﴾ [محمد: 2] أي: أحسن حالهم في الدين والدنيا بحسب النشأة الأولى والأخرى، ويجازيهم أحسن الجزاء.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إضلال الكفرة وإصلاح المؤمنين ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وتركوا الحق الحقيقي بالاتباع ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لإصلاح حالهم في النشأتين ويرشدهم إلى ما هو خير لهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي سمعت من الإضلال والإصلاح بالنسبة إلى كلا الفريقين ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: 3] ويبين لهم أحوالهم المتواردة عليهم في أولاهم وآخراتهم.

وبعدما سمعتم أيها المؤمنون وخامة عاقبة الكفرة وضياع أعمالهم وإحباطها ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على أي وجه وأي حال ﴿فَضْرِبُوا الرِّقَابَ﴾ أي: فعليكم أن تضربوا رقابهم مهما أمكن، وأن تقتلوهم بلا مبالاة وبدمائهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ﴾ أي: أغلظتم وبألغتم في قتلهم، فأسروا بقاياهم ﴿فَقُتِلُوا الْوَثَاقَ﴾ والنكال على أسرائهم، واحفظوهم مقيدين موثقين ﴿فَإِذَا مَنَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءُ﴾ أي: تمنون عليهم منّا

فتطلقونهم، أو تفدون منهم فداءً على إطلاقهم وتخلون سبيلهم، وبالجمله: افعلوا أيها المؤمنون مع المشركين كذلك ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾⁽¹⁾ أي: تضع أهل الحرب من كلا الجانبين آلات الحروب والقتال، وذلك لا يحصل إلا بالمؤاخاة والاتلاف التام، وتدين الجميع بدين الإسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر من الله ذلك، فافعلوا معهم كذلك.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿لَانْتَصَرَ﴾ وانتقم ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المشركين بلا قتالكم وحربكم ﴿وَلَكِنْ﴾ إنما يأمركم سبحانه بالقتال ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبر ﴿بَغَضِكُمْ﴾ أيها الناس المؤمنون ﴿بِبَغْضٍ﴾ أي: بقتال بعض منكم، وهو الكافرون؛ لينال المؤمنون بقتالهم وجهادهم الثواب الجزيل والأجر الجميل، ويستوجب الكافر بمعاداة المؤمن بالعقاب العظيم والعذاب الأليم، كل بتقدير العليم الحكيم، ثم قال سبحانه تبشيراً للمؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون أن ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ منكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأذلين مهجهم في ترويع دينه ﴿فَلَنْ يُضْلَى﴾ ويضيع ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: 4] التي أتوا بها طلباً لمرضاة الله، وتثبيتاً لقلوبهم على الإيمان بما نزل من عنده.

بل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ربهم ويرشدهم سبحانه بعدما استشهدوا إلى زلال هدايتهم ﴿وَيُضْلِخْ بِالْهُمِّ﴾ [محمد: 5] بإيصالهم إلى غاية ما جبلوا لأجله.

﴿وَيَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 6] حين أمرهم بالجهاد، ألا وهي الحياة الأزلية الأبدية الإلهية الموعودة للشهداء من عنده سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تُخْسِنُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالًا﴾ [آل عمران: 169].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ يعني: دينه ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾⁽²⁾ على

(1) إلى أن يقصد القاصد المقصود، ويجد الطالب المطلوب، ويصل العاشق المعشوق، فإن جرى على النفس بعد الظفر بها مسامحة في إعفاء ساعة وإفطار يوم؛ ترويحاً للنفس من الكد وإحماءها للحواس، قوة لها على الجهد فيما يستقبل من الأمر، فذلك على ما يحصل به الاستصواب من شيخ المريد، أو فتوى لسان القوم أو فراسة صاحب الوقت. [التأويلات].

(2) نصره العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيماً في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية، قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتصرع ضرعة لا تقوم بعدها أبداً. قال الحكيم الترمذي: إن أكرمت أوليائي أكرمتكم، قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل

أعدائكم ﴿وَيَبَيِّنْتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] في جادة توحيده وصراط تحقيقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن نصره دينه ورسوله ﴿فَتَعَسَا﴾ أي: زلقا وعثورا وانحطاطا ﴿لَهُمْ﴾ عن رتبة الإنسانية وعن جادة العدالة الإلهية ﴿وَأَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: 8] وأضاعها بحيث لا تفيدهم شيئا أصلاً.

﴿ذَلِكَ﴾ العثور والانحطاط لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ أي: أنكروا واستكروها ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدير المصلح لأحوال عباده في كتابه من الأوامر والنواهي المهدبة لظواهرهم وبواطنهم ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 9] بسبب كفرهم وكراحتهم.

﴿أَفَ﴾ ينكرون قدرة الله على الإحباط والإضلال ﴿لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبارات الإلهية وانتقاماته ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر العبرة والاستبصار؛ ليصروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ذوو ثروة كبيرة، ورياسة عظيمة، ووجاهة كاملة، كيف ﴿ذَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ واستأصلهم بحيث لم يبق منهم على وجه الأرض أحد ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أََمْثَالُهَا﴾ [محمد: 10] أي: سيؤول ويعود عاقبة هؤلاء الكفرة المعاندين معك يا أكمل الرسل إليها وإلى أمثالها، بل أفطع وأشد منها البتة.

كل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق وتحققوا في مقر توحديه، لذلك يواليهم وينصرهم على أعاديهم، ويحفظهم عما لا يعينهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ المصيرين على الكفر والعناد ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11] لينصرهم ويدفع عنهم ما يرديهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۖ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ مِنْهَا فَأَصْرَمَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمٍ مِنْ زَيْمٍ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَالْبَعَثَ أَهْلَهُمْ ۖ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ ﴿١٦﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ مَا فَعَلْنَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّطَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٩﴾ فَأَعْرَضُوا إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُؤَنِّكُمْ ﴿٢٠﴾ [محمد: 12-19].

وبالجملة: ﴿إِنْ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ متزهات من المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية من العلوم الدنية، المنتشئة من منبع الوحدة الذاتية، تتلذذون بها تلذذاً معنوياً حقيقياً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة الحق وكمالاته المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بالحطام الدنيوية ويتلذذون بالذات البهيمية ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ وتلذذ بلا شعور لهم باللذة الأخروية ﴿وَوَ﴾ بالآخرة ﴿النَّارُ﴾ المعدة المسعرة صارت ﴿مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: 12] ومحل قرارهم واستقرارهم.

﴿وَكَايْنِ﴾ أي: كثيراً ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿فِي أَشَدِّ قُوَّةٍ﴾ أي: أهلها، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿مِنْ﴾ أهل ﴿قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ أي: أهلها منها ﴿أَفَلَا كُنَّا لَهُمْ﴾ واستأصلناهم بسبب إخراجهم رسل الله من بينهم، وتكذيبهم والاستكبار عليهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: 13] يظاھرهم ويدفع انتقامنا عنهم، فكذا نتقم عن هؤلاء المشركين المستكبرين عليك يا أكمل الرسل، المخرجين لك وقومك من بينهم ظلماً وعدواناً؛ يعني: مشركي مكة - خذلهم الله - ونغلب المؤمنين عليهم، ونظهر دينك على الأديان كلها.

وكيف لا ننصرك ونظهر دينك؟ ﴿فَمَنْ كَانَ عَلَى يَتَةٍ﴾ حجة واضحة، آية له ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ مينة له أمر دينه ﴿كَمَنْ زَيْنَ﴾ أي: حبيب وحسن ﴿لَهُ شَوْءٌ عَمَلِهِ﴾ ⁽¹⁾ بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 14] بمقتضى آرائهم الباطلة وأمانيتهم الزائغة الزائلة.

(1) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زين له شوء عمله، واتبع هواه، فأثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيدته، مستقيم على محبة معبوده. البحر المديد (39/3).

كلا وحاشا، بل ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ وشأنها العجيبة ﴿الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بها، المجتنبون عن محارم الله، المتحرزون عن مساخطه على الوجه الذي بينهم الكتب وبلغهم الرسل، الممثلون بجميع ما أمروا من عنده سبحانه إيماناً واحتساباً عند ربهم، هكذا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ﴾ هي: العلوم الدنية المجيبة لهم بالحياة الأزلية الأبدية ﴿غَيْرِ آمِنٍ﴾ أي: خالص صافٍ عن كدر التقليدات والتخمينات، الحادث عن مقتضيات القوى البشرية المنغمسة بالعلائق الجسمانية ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ﴾ من المحبة الذوقية الإلهية، المنتشة من الفطرية الأصلية التي فطروا عليها في بدء ظهورهم ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ وذوقه بالميل إلى الهوى، ومن مزخرفات الدنيا ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ جذبة إلهية وشوق مفرط مسكر لهم، محير لعقولهم من غاية استغراقهم بمطالعة جمال الله وجلاله، بحيث لا يكتفه لهم وصفه بكونه من الأمور الذوقية ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ حسب تفاوت أذواقهم ومواجيدهم ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ هي: اليقين الحقي الذي لا شيء أحلى منه وألذ عند العرف المتحقق به ﴿مُصَفًّى﴾ من شوب الإثنية اللازمة لمرتبتى اليقين العلمي والعيني.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المستلزمة لأنواع اللذات الروحانية، وأكبر من الكل أن لهم فيها ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لأنانياتهم الباطلة ناشئة ﴿مِّنْ رَبِّهِمْ﴾⁽¹⁾ الذي رباهم على الكرامة من عنده بعدما جذبهم تحت قباب عزه، وممكنهم

(1) قال المحقق روزبهان: لأهل الحق في هذا العالم جنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتيقان، وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوجدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيى القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألوان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليربها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسمرد، فيقربها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأمطار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان

من كنف جواره، هؤلاء المكرمون بهذه الكرامة العظمى ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: كالكاfer الطاغى الباغى، الذى خرج عن ربة العبودية بمتابعة الأهوية الأمارة وأمانىها، وظهر على الحق وأهله بأنواع الإنكار والاستكبار، ويسبب هذا صار مخلداً فى نار القطيعة، مؤبداً فيها لا نجاة له عنها ﴿وَ﴾ هم من شدة عطشهم وحرقة أكبادهم إذا استسقوا ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾ حاراً فى غاية الحرارة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15] بعدما شربوا منه؛ وذلك لعدم الفهم واعتيادهم بالعلم اللدنى وبرد اليقين العلمى والعينى والحقى.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المستوجبين بخلود النار أبد الآباد ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل حين دعوتك وتذكرك وجلسوا فى مجلسك صامتين محبوسين ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ وانصرفوا عن مجلسك ﴿قَالُوا﴾ من كمال غفلتهم وذهولهم عنك وعن كلامك وكمالاتك وعدم إدراكهم بما فيها وإصغائهم إليها ﴿لِلَّذِينَ أَوْثُوا الْعِلْمَ﴾ أي: أصحابك المتذكرين عن كلامك، الموفقين على التصديق والإذعان بك ويكتابك: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ أي: أي شيء قال صاحبكم ﴿آيُفَا﴾ فى هذا المجلس؟ مع أنهم معهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وختم على سمعهم وأبصارهم ﴿وَ﴾ لهذا ﴿اتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16] وتركوا إهداءه ﷺ ولم يقتبسوا النور من مشكاة النبوة، ولم يلتفتوا إلى هداية القرآن، بل استهزءوا معه ومع الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بهدایتہ ﷺ ﴿زَادَهُمْ﴾ استماع القرآن ﴿هُدًى﴾ على هدى ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17] وبين لهم ما يعينهم على سلوك طريق التوحيد ويجنبهم عما يغويهم عن منهج الحق وصراط التحقيق.

وبالجملة: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وما ينتظرون فى عموم أوقاتهم وحالاتهم ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة أن ﴿تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة، وكيف لا تأتيتهم الساعة ﴿فَقَدْ جَاءَ﴾ وظهر ﴿أَشْرَاطُهَا﴾ أي: بعض علاماتها وأماراتها التى من جملتها: بعثة الرسول الحضرة

له مثل هذه الجنان فى دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب فى حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه سكر وصحو، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر فى غيبته إلى غيره.

الختمية المحمدية؛ إذ ظهوره متمماً لمكارم الأخلاق، ومكملاً لأمر التشريع والإرشاد من دلائل انقضاء نشأة الكثرة، وطلوع شمس الوحدة الذاتية من آفاق ذرائر الكائنات، وكيف ينتظرون الساعة ولا يهيئون أسبابها قبل حلولها، وإن تأتاهم بغتة ﴿فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: 18] أي: كيف يفيدهم التذكر والاتعاظ وقت إذ جاءت الساعة فجأة؟ ومن أين يحصل لهم التدارك والتلافي حينئذ؟.

وبعدما سمعتم حال الساعة وحلول الساعة بغتة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: فاثبت أنت يا أكمل الرسل على جادة التوحيد الذاتي، وتمكن على صراط الحق في عموم أوقاتك وحالاتك، واشهد ظهور شمس الذات على صفائح عموم الذرات، وشاهد انقهار جميع المظاهر والمجالي في وحدة ذاته، واهد جميع من تبعك من المؤمنين إلى هذا المشهد العظيم ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ في عموم أوقاتك ﴿لِذَنبِكَ﴾⁽¹⁾ الذي صدر عنك من الالتفات إلى ما سوى الحق والعكوس والأظلال ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ أيضاً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إذا أنت كفيهم وهاديههم إلى طريق التوحيد ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالكم ونشأتكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعمله الحضورى ﴿مُتَقَلِّبُكُمْ﴾ أي: موضع تقلبكم وانقلاباتكم في دار الاختبار ونشأة التلون والاعتبار ﴿وَمُثَوِّكُكُمْ﴾ [محمد: 19] أي: موضع إقامتكم وتمكنكم في دار الإقامة والقرار، فعليكم أن تستعدوا لأخراكم في أولاكم وتهيئوا أسباب عقابكم في دنياكم.

(1) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: 19]، وهي نسبة الوجود التي بها أضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأما مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لما خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولما وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولما كانت الألوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضاً، وليس فوق مرتبة العلم والألوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحث لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فالمرتبة الإلهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثم حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضاً بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قُلُوا صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٠﴾ فَبَلَّ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَيَبْغِيكَ أَعْيُنُهُمْ الْغَيْبُ فَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَمْ يُلَاحِظْهُمْ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ وَبَنِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْطَّاهِرِينَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: 20 - 29].

﴿و﴾ من معظم زاد يوم المعاد: الجهاد مع جنود أعداء الله في الأنفس والأفاق؛ لذلك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من كمال حرصهم وشغفهم على القتال، وترويج كلمة التوحيد وإعلاء دين الإسلام: ﴿لَوْلَا﴾ وهلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ مشتملة على الأمر بالجهاد حتى نجاهد في سبيل الله، ونبذل غاية وسعنا في ترويج دينه ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ على مقتضى ما تمناها المخلصون ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها على البت، واستبشر المؤمنون المخلصون بتزولها، واستعدوا لامثالها وقبول ما فيها ﴿رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل حيثئذ المنافقين ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ راسخ وضعف مستقر مستمر ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ حين تلاوتك وتبليغك إياهم ما يوحى إليك من ريك ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني: صاروا حين سمعوا الأمر بالقتال من كمال نفاقهم وشقاقهم كأنهم أشرفوا على الموت وظهرت عليهم أماراته، وشخصت أبصارهم من أهواله جثًا من القتال ويغضًا عليك ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ [محمد: 20] أي: قرب منهم وحق بهم ما يكرهون ويخافون منه أولئك الأشقياء المردودون.

والأليق بحالهم في هذه الحالة: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: انقياد وإطاعة ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قبول مستحسن عند ذوي المروءات والفتوات لو صدر عنهم لكان خيرًا لهم وأليق بحالهم لو كانوا مؤمنين، وبالجمله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد ولزم أمر القتال ﴿قُلُوا﴾

صَدَقُوا اللَّهَ الْمَطْلَعُ بِمَا فِي صُمَائِهِمْ وَنِيَاتِهِمْ فِيمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْحَرَصِ وَالْجَرَأَةِ عَلَى الْقِتَالِ ﴿لَكَانَ﴾ الصَّدَقُ وَالثَبَاتُ وَالْعَزِيمَةُ ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: 21] فِي أَوْلَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ .

وَأِنْ لَمْ يَصْنَدُوا وَلَمْ يَشْتُوا عَلَى مَا أَمَلُوا مِنْ طَلَبِ الْقِتَالِ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وَتَوَقَّعَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْرِفُونَ الْكَاذِبُونَ إِنْ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ امْتِثَالِ الْأُمُورِ أَنْ ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الْمَعْدَةُ لِلْإِصْلَاحِ وَالسَّدَادُ ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ [محمد: 22] عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجْبُولِينَ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ مَعَ أَنْكُمْ مَجْبُولُونَ أَيْضًا عَلَيْهَا .

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْأَشْقِيَاءُ الْمَعْرُضُونَ عَنِ الْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ، هُمُ ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَطَرَدَهُمْ عَنْ سَاحَةِ عِزِّ حُضُورِهِ ﴿فَأَصْحَمَتْهُمْ﴾ بِهَذَا عَنْ اسْتِمَاعِ دَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ ﴿وَأَغْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾⁽¹⁾ [محمد: 23] عَنْ مَشَاهِدَةِ آيَاتِ الْوَهْيَةِ وَرَبِّيَّةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ .

﴿أَ﴾ يَصْرُونَ أُولَئِكَ الْمُسْرِفُونَ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيَتَصَفَّحُونَ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالتَّذَكِيرَاتِ الْمُفِيدَةِ لَهُمْ، الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْهُدَايَةِ وَالنَّجَاةِ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَتَزَجَّرُوا عَنْ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، وَيَنْصَرِفُوا عَنِ الْمِيلِ إِلَيْهَا ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ﴾ أَي: بَلْ مَخْتُومَةٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] مَطْبُوعَةٌ عَلَيْهَا، لَا تَأْتُرُ لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَوَاعِيدِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ آمَنُوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ عَلَى مَا وَجَدُوا فِي كُتُبِهِمْ نَعْتَهُ وَعَرَفُوا أَحْكَامَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَارْتَدَّوْا عَنْهُ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ سِيمَا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وَظَهَرَ ﴿لَهُمُ الْهُدَى﴾ وَالرَّشَادُ وَجَزَمُوا بِحَقِّيَّتِهِ، وَحَقِّيَّةَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ، وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ الْمُضِلُّ الْمَغْوِي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أَي: حَسَّنَ وَزَيَّنَ لَهُمُ الْإِرْتِدَادَ عَنِ الْحَقِّ تَغْرِيرًا وَتَلْيِيسًا بَعْدَمَا وَضَحَ لَهُمْ حَقِّيَّتَهُ ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 25] بِتَسْوِيلَاتِهِ خِلَافَ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّنَةِ كُتُبِهِمْ وَرَسَلَهُمْ .

﴿ذَلِكَ﴾ التَّسْوِيلُ وَالتَّغْرِيرُ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْرَاضِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ الْحَقِّ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَّهُوا﴾ أَي: لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِي

(1) قَالَ فِي التَّأْوِيلَاتِ: أَتَضِلُّ الْحَقُّ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الْهَوَى، فَلَا يَدْخُلُهَا زَوَاجِرُ النَّبِيَّةِ، وَلَا يَنْبَسِطُ عَلَيْهَا شِعَاعُ الْعِلْمِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمُ الْخُطَابِ، وَإِذَا كَانَ الْبَابُ مَقْفَلًا فَلَا الشُّكَّ وَالْإِنْكَارَ الَّذِي فِيهَا يَخْرُجُ، وَلَا الصَّدَقَ وَالْيَقِينَ الَّذِي هُمْ يَدْعُونَ إِلَيْهِ يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ .

كرهوا ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ﴾ من السور المشتملة على أمر القتال؛ حثا لهم على المخالفة والقعود ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ ونعاون عليكم ﴿فِي بَغْضِ الْأَمْرِ﴾ لو أظهرتم المخالفة؛ يعني: إن أخذوكم وقصدوا الانتقام عنكم نحن نعاونكم، إنما قالوا ما قالوا في خلواتهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لعموم أحوالهم ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26] كما يعلم إعلانهم، هذا من جملة ما احتالوا ومكروا مع الله ورسوله.

﴿فَكَيْفَ﴾ يحتالون ويمكرون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حيث يشاء ﴿وَجُوهَهُمْ﴾ جزاء ما توجهوا بها نحو الباطل ﴿وَأَذْبَارَهُمْ﴾ [محمد: 27] جزاء ما انصرفوا بها عن الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التوفي على وجه العبرة ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ﴾ من الإعراض عن طريق الحق ومتابعة أهله ﴿وَكَرِهُوا﴾ بمقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿رِضْوَانَهُ﴾ أي: ما رضي عنه سبحانه من الأوامر والنواهي المنزلة على السنة رسله وكتبه بعدما خالفوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَأَخْبَطَ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وجلاله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 28] أي: صوالح أعمالهم، ولم يترتب عليها الجزاء الموعود كما يرتب على صالحات أعمال المطيعين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مستقر، وحسد مؤبد، وشكيمة شديدة مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ ولن يبرز أبدا ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾⁽¹⁾ [محمد: 29] وأحقادهم التي أضمروها في نفوسهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَهُمْ فَلَمَرَقْنَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَقَّنَ نَعْمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنَ يَصُدُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّأَوْا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَمْتِدُوا الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَزِيَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٥﴾ لِكَمَا لَبِئْتُمُ الدُّنْيَا لَوِيبًا

(1) قال في التاويلات: يشير إلى أن من مرض القلوب الحسان الفاسد والظنون الكاذبة، فظنوا أن الله لا يطلع على خبث عقائدهم ولا يظهره على رسوله، ليس الأمر كما توهموه؛ بل الله تعالى فضحهم وكشف تلييهم، ولقد أخبر رسوله ﷺ وعرفه أعيانهم.

وَلَهُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْتَلْكُمْ مَوَالُكُمْ
فِي حَرْبٍ مِّنْكُمْ يَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [محمد: 30-38].

﴿و﴾ لم يعلموا أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ تفضيحتهم ﴿لَأَرْيَاكَهُمْ﴾ وأبصرنا عليك يا أكمل
الرسول ما أضمرنا في نفوسهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ حيثئذ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بمجرد إبطارك إياهم؛
لظهور ما في صدورهم من الغل على وجوههم ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ ألبته نفقهم ﴿فِي لَحْنِ
الْقَوْلِ﴾ الباطل الذي صدر عنهم مغشوشاً مزخرفاً، وبعدما نزل هذا لا يتكلم منافق عند
النبي ﷺ إلا عرفهم، ويستدل بكلامه على فساد ضميره ﴿و﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع
بعموم أحوال عباده ﴿يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30] ونياتكم فيها ومقاصدكم
عنها، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قال سبحانه مقسماً: ﴿و﴾ الله ﴿لَتَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ونختبرنكم أيها المجبولون على
فطرة الإسلام بالتكاليف الشاقة والأوامر الشديدة ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: نفرق ونميز
﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾ المجتهدين ﴿مِنْكُمْ﴾ ببذل الوسع والطاقة على امثال المأمور،
والصابرين المرابطين قلوبهم بحبل الله وتوحيده، الموطنين نفوسهم بالرضا بجميع ما
جرى عليهم من القضاء ﴿وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُو﴾ أيضاً ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31] التي
صدرت عنكم وقت تكليفنا إياكم؛ إذ الأخبار منبئة عن الضمائر والأسرار.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن مقتضيات تكاليفه الصادرة عن
الحكمة البالغة ﴿و﴾ مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا ﴿عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ ضعفاء عباده ﴿و﴾ مع ذلك ﴿شَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ المرسل من عنده سبحانه،
المبعوث إليهم للإرشاد والتكميل، لا من شبهة صدرت عنه تدل على كذبه وافترائه
﴿مِنْ﴾ بعدما ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: ثبت عندهم هدايته عقلاً ونقلاً، ومع ظهور
صدقه وهدايته كذبوه عدواناً وظلماً، وبواسطة هذه الجرأة على الله ورسوله ﴿لَنْ يَضُرُّوا
اللَّهَ﴾ المنزه في ذاته عن أن يكون معروضاً للنفع والضرر ﴿شَيْئاً﴾ من الضرر والإضرار،
بل ﴿وَسَيُخِطِّطُ﴾ ويضع سبحانه بأمثال هذه الجرائم والآثام ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 32]
الصادرة عنهم لشمز لهم الثواب، فانقلب الأمر عليهم، فيشمز لهم العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

المظهر لكم من كتم العدم، المنعم عليكم بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَأُطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الهادي، المرشد لكم إلى توحيد الحق وكمالات أسمائه وأوصافه ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾⁽¹⁾ [محمد: 33] بالإعراض عن الله، والانصراف عن متابعة رسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كَفَارٌ﴾ مصرون معاندون على ما هم عليه طول عمرهم ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ [محمد: 34] أبداً لإشراكهم بالله وخروجهم عن رتبة عبوديته بمتابعة أهويتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة.

وبعدما أطعتم الله ورسوله أيها المؤمنون، وأخلصتم في إطاعتكم وانيادكم ثقوا واعتصموا بحبل توفيقه ونصره ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد والمقاتلة ﴿و﴾ لا ﴿تَدْعُوا﴾ وتركوا ﴿إِلَى السَّلَامِ﴾ والصلح، وبالجمله: لا تجنوا ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ الأغلبون، أيها الموحدون المحمديون؛ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿و﴾ كيف لا تتصفون بصفة العلو والغلبة؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بكم ﴿مَعَكُمْ﴾ لا على وجه المقارنة والاتحاد، ولا على سبيل الحلول والامتزاج، بل على وجه الظهور والبروز واستداد الأظلال عليكم وانعكاسكم منها ﴿و﴾ بعدما صار الحق معكم على الوجه المذكور ﴿لَنْ يَتَزَكَّكُمْ﴾ ولن يضع عليكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35] التي جتتم بها مخلصين؛ طلباً لمرضاة الله وهرباً عن مساخطه؛ إذ الموحد المعتدل دائماً بين الخوف والرجاء، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ هو مستوٍ على متن الصراط المستقيم الذي هو أدق وأرق من كل دقيق ورقيق.

وبعد ما سمعت صراط ربك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة الدنيا إلا ﴿لَعِبٌ﴾ يلعب بها أبناء بقعة الإمكان وهم غافلون عن حقيقتها ﴿وَلَهُمْ﴾ يلهم ويحير قلوبهم في تيه الغفلة والضلال، وهم تائهون فيها ساهون عن ظهر عليها ﴿و﴾ بعدما سمعتم نبأ من أوصاف دنياكم ﴿إِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بوحدة الحق وكمالات أسمائه وصفاته الظاهرة آثارها على هياكل الهويات المستحدثة في الكائنات، وتوكلوا عليه مفوضين أموركم كلها إليه، واتخذوه وكيلاً واتخذوه كفيلاً، واعتصموا بحبل توفيقه ثقة واعتماداً ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تحفظوا أنفسكم عن الميل إلى ما

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وستة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الطبع والظلماني، وإنما جاء الشرع وهو نوراني؛ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع، فيكون ثمراً وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق.

سوى الحق من الأماني العاطلة الإمكانية، العائقة الدنية الدنيوية، المثمرة لغضب الحق بمقتضى قدرته الجليلة ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ بمقتضى إرادته الجليلة الجميلة ﴿أُجُورَكُمْ﴾⁽¹⁾ التي استوجبتم بصوالح أعمالكم، ويزيد عليكم تفضلاً وإحساناً ما لا مزيد عليكم من اللذات الروحانية ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ﴾ ويطلب منكم بمقابلة ما أفاض عليكم من الكرامات ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: 36] أي: جميعها، بل مقدار ما يزكي بها نفوسكم ويطيب لها قلوبكم من الشح المفرط والميل المتبالغ، فكيف أن ﴿يَسْأَلُكُمْوهَا﴾ ويطلب منكم سبحانه جميعها ﴿فَيُخْفِكُمْ﴾ ويبالغ عليكم في طلب ما اقترفتُم؟ ﴿تَبْخُلُوا﴾ ألبتة على الله ورسوله، وتظهروا الحقد فلا تعطوا، بل ﴿وَيُخْرِجُ﴾ أي: يبرز ويظهر بخلكم وحقدكم هذا ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: 37] وشكائكم التي تضررونها في نفوسكم.

وبالجملة: ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ أيها الحمقى الغافلون عن مقتضى الألوهية والربوبية ﴿هَؤُلَاءِ﴾ البخلاء المغرورون بحطام الدنيا الدنية، المغمورون في لذاتها وشهواتها الفانية العائقة عن اللذات الأخروية، إنما ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا﴾ مما أنتم مستخلفون فيه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فتفوزوا بالمشوية العظمى والكرامة الكبرى عنده سبحانه، وبعد وصول الدعوة إليكم ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ﴾ أي يمنع ولم يعط بل يظهر ما يضر في نفسه من الضغن والحقد.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يَبْخُلُ﴾ من مال بعدما أمر بإنفاقه ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ إذ نفع الإنفاق وضرر البخل كلاهما عائد إليها ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ المستغنى بذاته عن هموم صدقاتكم ومطلق طاعاتكم وعباداتكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾⁽²⁾ المقصورون على الفقر والاحتياج الذاتي إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان ﴿و﴾ بعدما بلغت لهم يا أكمل الرسل ما بلغت من مقتضيات الوحي والإلهام الإلهي ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا عن الإيمان وامثال عموم المأمورات ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يهلككم ويقيم بدلکم قوماً يؤمنون ويقيمون بامثال الأوامر والنواهي ﴿ثُمَّ﴾ لما علموا واعتبروا

(1) قال في التأويلات: بالتقرب إليكم على حسب تقربكم إليه، فإن تقربتم إليه شبراً يتقرب إليكم ذراعاً، وإن جئتم إليه وأنتم تمشون يجرى إليكم وهو يهرول كما يليق بذاته وصفاته، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(2) قال القشيري: والله الغني لذاته بذاته، ومن غنائه: تمكُّنه من تنفيذ أمراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء لخلقكم، وفي الوسط لثريكم، وفي الانتهاء بفنيكم عن أنانيتكم، وبثبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

منكم، وشاهدوا مقتكم وهلاككم ﴿لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38] كافرين بالله كفارًا
لنعمه ولحقوق كرمه.

خاتمة السورة

عليك أيها القاصد نحو طريق التوحيد، العازم على سلوك سبيل الفناء المثمر
للبقاء الذاتي - أوصلك الله إلى غاية مبتغاك ونهاية متمناك - أن تعتدل في عموم
أوصافك وأخلاقك، سيما في أحوالك التي تتعلق بالإنفاق بالمأمور عليك بمقتضى
الحكمة والعدالة الإلهية، الناشئة من الله عن محض الإرادة والرضا، وإياك إياك البخل
والتقتير، فإنه الجالب لحلول غضب الله ونزول أنواع سخطه بمقتضى قهره وجلاله،
فعليك الامتثال بالمأمور، والاتكال على الملك الرحيم الغفور.

فهرس المحتويات

3	سورة الروم.....
3	فاتحة سورة الروم.....
30	خاتمة السورة.....
32	سورة لقمان.....
32	فاتحة سورة لقمان.....
51	خاتمة السورة.....
53	سورة السجدة.....
53	فاتحة سورة السجدة.....
65	خاتمة السورة.....
66	سورة الأحزاب.....
66	فاتحة سورة الأحزاب.....
109	خاتمة السورة.....
110	سورة سبأ.....
110	فاتحة سورة سبأ.....
137	خاتمة السورة.....
139	سورة فاطر.....
139	فاتحة سورة فاطر.....
163	خاتمة السورة.....
165	سورة يس.....
165	فاتحة سورة يس.....
195	خاتمة السورة.....

196	سورة الصافات.....
196	فاتحة سورة الصافات.....
237	خاتمة السورة.....
239	سورة ص.....
239	فاتحة سورة ص.....
269	خاتمة السورة.....
270	سورة الزمر.....
270	فاتحة سورة الزمر.....
304	خاتمة السورة.....
305	سورة غافر.....
305	فاتحة سورة غافر "المؤمن".....
337	خاتمة السورة.....
338	سورة فصلت.....
338	فاتحة سورة فصلت.....
363	خاتمة السورة.....
364	سورة الشورى.....
364	فاتحة سورة الشورى.....
389	خاتمة السورة.....
390	سورة الزخرف.....
390	فاتحة سورة الزخرف.....
417	خاتمة السورة.....
418	سورة الدخان.....
418	فاتحة سورة الدخان.....

430 خاتمة السورة.
431 سورة الجاثية
431 فاتحة سور الجاثية.
444 خاتمة السورة.
445 سورة الأحقاف
445 فاتحة سورة الأحقاف
461 خاتمة السورة.
462 سورة محمد
462 فاتحة سور محمد ﷺ
476 خاتمة السورة.
477 فهرس المحتويات

